

تاريخ
الأدب العربي
٧

عصر
الدول والإمارات
مصر

تأليف
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الثانية



دار المعارف

عصر
الدول والإمارات
مصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا الجزء من تاريخ الأدب العربي خاص بمصر في عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث، وكان المؤرخون للأدب العربي - كما ذكرنا في مقدمة الجزء الخامس من هذه السلسلة - يُدخلون منه أكثر من ثلاثة قرون في العصر العباسي الثاني تنتهي سنة ٦٥٦ حين أغارت قطعان المغول على بغداد، وقوّضت ما كان بها من مدنية وحضارة، وهو خطأ محض لأن سلطان الخلافة العباسية كان قد تداعت أركانه منذ دخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤ إذ لم يعد لها سلطان حقيقي إلا على بغداد وأعمالها، بل إن سلطانها في بغداد كان سلطاناً منقوصاً، إذ كان السلطان الحقيقي فيها بيد البويهيين ومن خلفهم من السلاجقة. وصحب ذلك توزع العالم العربي إلى دول وإمارات حتى العصر الحديث. وأيضاً كان هؤلاء المؤرخون للأدب العربي يسمّون القرون الثلاثة التالية لغزو المغول بغداد باسم العصر المغولي، بينما كان سلطان المغول لا يتجاوز العراق وإيران، ومن الخطأ الواضح أن نقول إن ديار مصر كانت تعيش في العصر المغولي، بينما لم يكن لسلطان المغول في تلك الديار أى ظل، والصحيح أن عصر الدول والإمارات كان يظلها، وامتد جناحاه زمنياً حتى شمل ما سباه المؤرخون باسم العصر العثماني.

وينبغي أن نعرف أن الطول الزمني لعصر الدول والإمارات لا يعني أن تاريخ الأدب العربي ظل في كل دولة من دوله أو إمارة من إماراته متساياً بسايات أدبية واحدة في أزمنته المتغايرة عبر قرونه المتطاولة، مهما مرّ بالدولة أو الإمارة من أحداث ومهما ألم بها من خطوب فإن ذلك يخالف طبائع الشعوب المتطورة دائماً من زمن إلى زمن. وهو ما جعلني أقسم تاريخ الأدب في كل بلد تقسماً زمنياً يحيط بأطواره الأدبية المتعاقبة وصورة مجتمعه وحياته العلمية. ودعاني ذلك إلى أن أرجع في كل قطر إلى الحقب السالفة لعصر الدول والإمارات منذ الفتح العربي لها لا سياسياً فحسب، بل أيضاً اجتماعياً وأدبياً وعلمياً، حتى تتضح شخصية القطر بكل ما يتميز به في حياته السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية منذ فجر تاريخه العربي إلى العصر الحديث.

وقد يُظَنُّ أن طول هذا العصر دفع إلى شيء من التقاطع الأدبي أو العلمي بين دوله وإماراته، وهو ظن مخطئ، فقد كان بين شعوبها جميعا تواصل لا ينقطع أشبه بتواصل ذوى الأرحام: تواصل فى العادات والتقاليد والمعيشة والدين والأدب والعلم، واستشعر ذلك أسلافنا إلى أقصى حد، فكانوا إذا ألفوا كتابا عن الشعراء مثلا ساقوا فيه شعراء العالم العربى جميعا كما فى اليتيمة للثعالبي والخريدة للعباد الأصبهاني، وبالمثل إذا ألفوا كتابا عن القراء أو المفسرين أو المحدثين أو عن صنف من الفقهاء كالشافعية أو عن النحاة. ودأبوا منذ القرن الثامن الهجرى يجمعون فى القرن علماء العالم العربى وأدباءه جميعا فى كتب مرتبين فيها ترتيبها أبجديا بحيث نستطيع أن نؤرخ فى كل قرن للحركتين الأدبية والعلمية فى أى قطر عربى، ومعنى ذلك أنه ظلت تربط بين الأقطار العربية طوال عصر الدول والإمارات والأزمات قبله وحده أدبية وجدانية، وعلمية عقلية.

وقد بدأت فى هذا الجزء بعرض تاريخ مصر السياسى، وأقدم الأزمنة التى خطها التاريخ بها زمن الخلفاء الراشدين وماتلاه سريعا من زمن الأمويين، وفيها أخذ الدين الحنيف ينتشر فى مصر ويعتقه كثيرون من سكانها القبط. ويحكمها ولاية من قبل العباسيين ويدخلها مع جنودهم كثير من العناصر الفارسية. وتستشعر مصر استقلالها السياسى منذ أواسط القرن الثالث الهجرى فى عهد الطولونيين، وبالمثل فى عهد الإخشيديين. وتستولى عليها الدولة الفاطمية وتنشئ فيها خلافة شيعية مستقلة عن خلافة العباسيين ببغداد، وتبوء جميع محاولاتها بنشر عقيدتها الإسماعيلية الشيعية بين المصريين بإخفاق ذريع. ويمتد حكمها أكثر من مائتى عام، وتأخذ فى الضعف بعد نحو قرن وينزل حملة الصليب الشام فى أواخر القرن الخامس الهجرى ويستولون على بيت المقدس. ويغط خلفاؤها فى نوم عميق إلى أن قيض الله لمصر صلاح الدين الأيوبي، فأسس بها الدولة الأيوبية، وأخذ يسحق ضلوع حملة الصليب فى حطين وغير حطين، وتبعه خلفاؤه الأيوبيون ينزلون بهم ضربات قاصمة. ويخلفهم المماليك، وينازلون المغول فى عين جالوت ويمزقون جموعهم، وتفر فلولهم على وجوهها إلى الشمال، ويظهرون الشام من تلك الفلول ومن بقايا حملة الصليب ورجسهم. ويدور الزمن دورات، وينزل العثمانيون مصر، وتتحول من دولة ذات سلطان عظيم إلى ولاية عثمانية.

ويُحِيل النَّيْلُ مصر من قديم إلى جنات وزروع وغروس شتى، وأهلها ذلك لرخاء

واسع - على مرّ الزمن - لمن يسعون في مناكبها. ودائمًا كان بها - في العهود الإسلامية - ثلاث طبقات: عليا، ووسطى، ودنيا، وفي الطبقة العليا الوالى وصاحب الخراج، والقاضى، وقواد الجند، وكبار الإقطاعيين، وكبار التجار ومعهم الأشراف من البيتین العباسى والعلوى. وفي الطبقة الوسطى العلماء والجند وأوساط الزراعة والصناع والتجار، وفي الطبقة الدنيا أهل الريف وعامة الصناع والتجار والرقیق من أوساط إفريقيا ومن أرمينية وشعوب البحر المتوسط. وترك الحكام للكنيسة وكبار الإقطاعيين من القبط ما لهم من الأرض وحقوقها نظير الخراج، وأدّى المقتدرون من القبط الجزية، وهى فى حقيقتها ضريبة دفاع، إذ لم يكونوا يشتركون فى الحرب وحماية وطنهم. وكانت الزراعة تدرّ كثيرًا من طيبات الرزق، وكانت الصناعة رائجة: صناعة الورق والنسيج واستخراج بعض المعادن كالنظرون. وتلقى مصر بكنوزها فى حجر أحمد بن طولون فبني قصره العظيم، وجامعه الكبير وبيارسطانًا ضخمًا، وبغرق ابنه خمارويه فى ترف بالغ. وتنعّم الدولة الإخشيدية بثناء مصر، ويتضخم فى عهد الفاطميين، ويكثر من القصور والبذخ والترف وأدواته، ويتسعون فى الاحتفال بالأعياد الإسلامية، وأعياد القبط والفرس. وأصبحت مصر فى عهد صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين ثكنة حربية تُعدّ لضرب حملة الصليب الضربات القاضية، ومع ذلك اتسعت مصر فى العمران وبناء المدارس الكثيرة والخانقاهات. وبخلفهم المماليك، وتعيش مصر طوال زمنهم فى رغد من العيش، وتزدهر بها الحياة والعمران ازدهارًا واسعًا وكانت قد أصبحت ملاذًا لعلماء العالم العربى النازحين من وجه النورمان والإسبان غربًا ومن وجه المغول شرقًا. وتدور بها الدوائر فيحتلها العثمانيون، ويزيلها غير قليل من الرخاء ومن منزلتها الكبرى فى العالم العربى.

وتحدثت عقب ذلك عن الدعوة الفاطمية الإسماعيلية الشيعية المتطرفة ومبادئها وتمسك المصريين بعقيدتهم السنّية وكأنما كانت تلك الدعوة بمصر صيحات ذهب أدراج الرياح وبالمثل تحدثت عن الزهد وكيف أن مصر عرفت الضربين من التصوف الفلسفى والتصوف السنّى مع بيان أهم طرقه وأعلامه وخانقاهاته.

ومعروف ما لمصر من دور عظيم فى نشأة الحضارة الإنسانية ونشأة العلم بمعناه العالمى وظلت ترعاه طويلاً. وكانت قد خدمت جذوته قبيل نزول الإسلام بها، وعاد إليها الانتقاد تدريجًا بحيث لا نصل إلى أواسط القرن الثانى الهجرى حتى يصبح لعلمائها حظ واضح من المساهمة فى الدراسات الدينية ونشرها فى العالم العربى، فهى

تنشر قراءة ورش، ومذهب مالك في بلاد المغرب والأندلس، وتنتشر مذهب الشافعي في الشام وبغداد وخراسان. وسرعان ما تكتب تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس لأول مرة، وتكتب رواية للسيرة النبوية الزكية، تصبح إماماً لكتب السيرة الشريفة، ويضع أحد أبنائها وهو ذو النون أسس التصوف الإسلامي. وتزداد حركتها العلمية نشاطاً في عهد الفاطميين ويؤسسون بها جامعة سموها دار العلم، ألحقوا بها مكتبة ضخمة. وتأخذ الحركة العلمية بمصر في ازدهار واسع لعهد الأيوبيين وما أسسوا بها من عشرات المدارس، ويزداد عددها في عهد المماليك ازدياداً مفرطاً حتى ليقول ابن بطوطة حين زار مصر لأيامهم إن أحداً لا يستطيع أن يحيط بها لكثرتها. ولم تكن المدارس وحدها دور العلم فقد كانت تشاركها في ذلك المساجد والجوامع مثل الجامع الأزهر. ومع خمود تلك الحركة العلمية في عهد العثمانيين ظلت مصر حامية للتراث العربي، وموتلاً لعلماء المغرب والمشرق، وظلت تضيء في جامعة الأزهر مصابيح العلم والعرفان.

وعرضت نهضة العلوم المختلفة بمصر عرضاً تفصيلياً تاريخياً على مر الأزمنة، وبدأت بعلوم الأوائل، وأملت بما كان لمصر فيها من نشاط قبل الفتح العربي سواء في الهندسة أو الرياضة أو الفلك أو الطب أو الكيمياء أو الفلسفة. وانتفعت مصر الإسلامية بما كان فيها من هذا التراث، وضمت إليه ما نقل ببغداد من الفلسفة وعلوم الأوائل عن اليونانية وغير اليونانية. وقد تحدثت عن النشاط العلمي والفلسفي لمصر منذ أيام الفاطميين وأعلامه على مر الحقب، وتحدثت عن جغرافيتها منذ ابن سليم مكتشف المجرى الأعلى للنيل في أواسط القرن الرابع الهجري. وبالمثل تحدثت عن النشاط في علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد وأعلام مصر فيها جميعاً على مر التاريخ ومع كل علم مصنفاته القيمة. وأيضاً عرضت علوم القراءات والتفسير والحديث النبوي والمذاهب الفقهية وعلم الكلام والتاريخ وعلماءها جميعاً على تعاقب الحقب، وما لهم من مصنفات باللغة القيمة، وذكرت في كل علم من العلوم الدينية واللغوية وعلوم الأوائل من نبغوا فيه أيام العثمانيين. وبذلك أصبح التاريخ العلمي لمصر وعلمائها الأفاضل في كل علم وفن مرسوماً رسمياً بيننا دقيقاً منذ القرن الثاني الهجري حتى العصر الحديث.

وقد أخذت مصر - بعد الفتح العربي - تتعرب سريعاً لاعتناق كثير من سكانها القبط الإسلام لما استقر في نفوسهم من أن من يسلم منهم يصبح له جميع حقوق

العربي الفاتح، ويدلُّ بوضوح على كثرة من أسلم منهم أن الجزية التي كانت تؤخذ من القبط في عهد عمر بن الخطاب هبطت إلى أقل من النصف في عهد معاوية. وعملت على السرعة في تعرب مصر هجرات كثير من القبائل إليها حين سمعوا بزروعها وثارها وطيبات الرزق فيها، وامتزجوا بسكانها عن طريق المعيشة والمصاهرة، مما أعدَّ لتعرب من لم يدخل من القبط في الدين الحنيف، حتى إذا كنا في القرن الثالث الهجري تمَّ تعرب القبط برهبانهم وبطاركتهم وإن ظلت القبطية حية في بعض الأديرة.

وكان نشاط الشعر العربي بمصر محدوداً زمن الأمويين لأن كثرة الجيش العربي الفاتح كانت من اليمنية، والشعر إنما يكثر على لسان القبائل المضربة والقيسية، وربما نظمت بها أشعار لم يسجلها الرواة، حتى إذا كنا في زمن ولاتها العباسيين رأينا الشعر يأخذ في النشاط بها، ونزلها أبو نواس وأبو تمام، وازداد نشاطه فيها لعهد الدولتين الطولونية والإخشيدية ونزلها المتنبي وأحدث نزوله بها حركة أدبية خصبة.

وتتحول مقاليد الحكم فيها إلى الدولة الفاطمية. ويترجم الثعالبي في كتابه «اليتيمة» لكثيرين من شعراء مصر، ويفرد لها العباد الأصهباني مجلدين في كتابه «الخريدة» ترجم فيها لمائة وأربعين شاعراً، ويطرد هذا الازدهار للشعر في مصر طوال زمن الأيوبيين والمماليك، وتظل منه بقية أيام العثمانيين.

ويكثر في مصر الشعر الدوري منذ ابن وكيع التنيسي في القرن الرابع الهجري، وتكثر الرباعيات حتى إذا ازدهرت الموشحات في الأندلس درسها ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين الأيوبي ووضع لها عروضها ورسومها كما وضع الخليل بن أحمد في القرن الثاني الهجري عروض الشعر العربي ورسومه. ولابن سناء الملك فيها موشحات تشيع فيها حلاوة الجرس والسلاسة والعذوبة، وبذلك كتب لها الذيوع الواسع بعده في مصر على ألسنة الشعراء مثل العزّازي، وأكثر المتصوفة في زمن المماليك من النظم فيها وتلحينها في أذكّارهم. ويستظهر الشعراء - منذ القاضي الفاضل - ألوان البديع ومحسناته، ويصبح التفنن فيها مقياس إبداعهم.

وأخذت - بعد ذلك - أترجم لأعلام الشعر في مصر طوال عصر الدول والإمارات محلاً لشخصياتهم الأدبية وموزعاً لهم على أغراض الشعر وموضوعاته الأساسية، فللمديح أعلام مبدعون من مثل ابن سناء الملك واضع عروض الموشحات، وللرثاء والشكوى أعلامها النابهن مثل علي بن النضر بملكته الشعرية

الخصبة، وللدعوة الإسماعيلية أعلام مختلفون مثل ابن هاني الشاعر الفاطمي، وللغزل أعلام وجدانيون مرهفون مثل البهاء زهير، وللфخر والهجاء أعلام مبرزون مثل تميم بن المعز وابن الذرؤى المقذع في هجائه، وللطبيعة ومجالس اللهو أعلامها مثل الشريف العقيلي وله في الطبيعة المصرية ديوان كبير بديع، وللزهد والتصوف والمدائح النبوية أعلام يتغنون بالحب الإلهي مثل ابن الفارض وبالحب النبوي مثل البوصيري، وللفكاهة أعلام توج أشعارهم بالتندير والدعابات والتوريات والهزل مثل ابن دانيال وله مسرحيات هزلية بديعة. وعرضت شعراء الشعر الشعبي العامي وطرائف مما نظم أعلامه من فنونه في الأزجال والتوريات والفكاهات المستملحة. وبلغ عدد من ترجمت لهم من شعراء مصر الأفذاذ في عصر الدول والإمارات اثنين وأربعين شاعراً، ومع كل شاعر تصوير شخصيته الأدبية وخصائصه الفنية وروائع شعره. وقد ذكرت مع كل غرض من أغراض الشعر شاعراً ناهياً من الشعراء أيام العثمانيين. ولم أترجم لعشرات من شعراء مصر تكتظ بهم كتب الطبقات والتراجم لأنه لم يكن لأحدهم دور بارز في تطور الشعر بمصر، وأنا لا أكتب دائرة معارف لشعرائها على مر الأزمنة، وإنما أكتب تاريخها الأدبي في الشعر، ومن كان لهم دور في التطور به أتاح لهم مجداً أدبياً كثيراً أو قليلاً.

ومضيت أعرض النثر وكتابه بمصر بادئاً بالرسائل الديوانية منذ أنشأ أحمد بن طولون ديوان الإنشاء واتخذ له كتاباً مجيدين. ويعني الفاطميون بهذا الديوان ويشتهر فيه غير كاتب بحسن بيانه، وخاصة في الحقبة الأخيرة من أيامهم. وتبلغ الرسائل الديوانية الفروة الأدبية على يد القاضي الفاضل وزير صلاح الدين، ويتألق نجمه وتصبح له مدرسة كبيرة، ويتكاثر تلاميذها في بقية أيام الدولة الأيوبية ودولة المماليك، وترجمت لأربعة من أعلام الكتابة الديوانية. وأخذت الرسائل الشخصية تزدهر بدورها منذ زمن الفاطميين، واتسع ازدهارها بعدهم، وترجمت لثلاثة من أعلامها الناهين. ويعني بعض الكتاب - منذ أيام الفاطميين - بكتابة المقامات، وقلما تقوم على الشحاذة الأدبية مثل مقامات الحريري، إنما تقوم على بعض مسائل علمية، أو على وصف الطبيعة، أو على قصص فكاهية، أو على وعظ، أو على مفاخرات بين الأزهار، أو بين السيف والقلم، وما إلى ذلك من موضوعات أدبية، وترجمت لأربعة من كتابها البارعين. وتكثر المواعظ والابتهالات والمناجيات الربانية على نحو ما صوّرت ذلك عند ثلاثة من أعلامها المهمين. وعرضت - بعد ذلك - أربعة من كتب النوادر

هى : كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف، وهو حكايات قصيرة لطيفة تحض على عمل الخير، وكتاب أخبار سيبويه فى نقد الحكام والناس ممزوجاً بالتبأله، وكتاب الفاشوش فى حكم قراقوش وكان صلاح الدين ينيبه عنه أحياناً فى حكم القاهرة، وصورة ابن عماتى فى طائفة من الأحكام الطائشة تحكى غفلته وحمقه وبلهه، وكتاب هز القحوف ويكتظ بنوادر لاذعة على لسان أهل الريف المصرى تصور بؤسهم أيام العثمانيين. وتلا ذلك أربع سير شعبية: سيرة عنتره، والسيرة الهلالية، وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة سيف بن ذى يزن، وجميعها تصور البطولة العربية وفضائلها الرفيعة. وعرضت أخيراً كتاب ألف ليلة وليلة وتاريخ نقله إلى العربية وما أضيف إلى قصصه الهندية من قصص بغدادية وقصص مصرية مع بيان ما يتميز به كل نوع من أنواع هذه القصص. وقد صاغت مصر الكتاب بلغتها العامية وانتشر بها فى العالم العربى منذ عصر المماليك. وبنفس العامية انتشر فى البلاد العربية من قديم ما ألّفته مصر من كتب السير الشعبية المذكورة آنفاً: سيرة عنتره وأخواتها. وكان لذلك أثره الكبير فى تعرف تلك البلاد على العامية المصرية قبل العصر الحديث بمئات السنين.

وهذه الدراسة المتشعبة لتاريخ الأدب العربى فى مصر أثناء حقبة طويلة تمتد من فجر تاريخها العربى إلى العصر الحديث جعلتنى أرجع إلى كل ما استطعت من المصادر والمراجع المتصلة بتاريخ مصر ودولها المتعاقبة، وبحثتها وطبقته وشئونه المعيشية والعقيدية، وبالحركة العلمية فيها ونموها وازدهارها، مع العرض التاريخى لعلماؤها الأفاضل فى علوم الأوائل والعلوم اللغوية والدينية والكتابة التاريخية. ورجعت أيضاً إلى كل ما استطعت الاطلاع عليه من الشعر ودواوينه، وما اتصل به من الرباعيات والموشحات، كما رجعت إلى الكتابات النثرية المتنوعة من مثل الرسائل والمقامات والمواظع والسير والقصص الشعبية، مع رسم الشخصيات الأدبية للشعراء والكتاب النابهين وعرض خصائصهم الفنية عرضاً نقدياً تحليلياً. ولا أزمع أنى صورت تاريخ الأدب العربى فى مصر قبل العصر الحديث تصويراً كاملاً، إنما حاولت، وأرجو ألا أكون قصرت. والله أسأل أن يلهمنى السداد فى الفكر، والإخلاص فى القول والعمل. وهو حسبى ونعم الوكيل.

القاهرة فى ٢٠ من مارس سنة ١٩٩٠ م.

شوقى ضيف

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

٨

فتح العرب لمصر والحقب الأولى^(١)

(١) فتح العرب لمصر

معروف أن مصر نهضت بأقدم دور في تاريخ الحضارة الإنسانية ، فعنها تلقت الأمم القديمة هندسة البناء كما تشهد بذلك أهراماتها الشاهقة . كما تلقت عنها فكرة الكتابة ونقش الحروف ، وبذلك كان لها فضل كبير في بث المعرفة ، وأعدّها التّيل لتكون أستاذة الأمم في العناية بالزراعة وتنظيم الترع والجسور . وهى أول من حاول تأليف أمم الشرق الأوسط في وحدة امتدت من الفرات إلى النيل ومن آسيا الصغرى إلى بلاد البُنت والثّوبة . ودار بها الزمن دورات ، فدخلها الرّعاة الهكسوس والأشوريون ، وسرعان مازايلوها ، وغزاها الفرس في عهد قبيز عام ٥٢٥ ق . م ونزلها الإسكندر المقدوني عام ٣٣٣ ق . م وأسس بها مدينة الإسكندرية ، وأقام بها قائده بطليموس هو وأبناؤه دولة البطالمة الإغريقية متخذين الإسكندرية عاصمة لهم . وفي عام ٣١ للميلاد استولى عليها الرومان ، وثارت عليهم مصر مراراً ، ودخلها الفرس وقاومتهم مصر والرومان ، ففارقوها سريعاً ، وتسوء أحوالها سوءاً شديداً ، فإن هرقل إمبراطور بيزنطة كلن يضطهد من لا يعتنقون مذهبه الملكاني المسيحي ، وكان المصريون يعاقبه ، يقولون بأن الله والمسيح

(١) انظر في فتح مصر فتوح مصر لابن عبد الحكم وفتوح البلدان للبلاذري وتاريخ الطبري وابن الأثير والمغرب لابن سعيد قسم القساطر (طبع جامعة القاهرة) وخطط المقرئى (طبعة دار التحرير) ١/٥٥١ والنجم الزاهرة لابن تغرى بردى : فواتح الجزء الأول ومروج الذهب

للمسعودى وحسن المحاضرة السيوطى (طبعة عيسى البابى الحلبي) ١/١٠٦ وفتح العرب لمصر لبنتز (الترجمة العربية) طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر وتاريخ الشعوب الإسلامية لهوكلمان (الترجمة العربية) طبع بيروت ١/٩٩ .

اتحاداً في طبيعة واحدة بينما كان الملكانية يرون أن للمسيح طبيعتين طبيعة لاهوتية روحية وطبيعة ناسوتية جسدية ، وعارض المصريون المذهب الملكاني البيزنطي معارضة شديدة ، ويعين هرقل قيرس (المقوقس) بطريقاً للإسكندرية جامعاً إلى سلطته الدينية السلطة الزمنية ، ويأخذ في حمل المصريين على مذهبه الملكاني فيقاومونه مقاومة حادة ، ويعنف بهم وبرهبانهم ويثقل عليهم في الضرائب . وبذلك يضيف إلى الخلل الديني غلاً اقتصادياً .

وتقاوم مصر بكل ما استطاعت ، إذ كانت تعدُّ الدين مظهر استقلالها وحريتها وشخصيتها ولذلك اشتد سخطها على بيزنطة ، وبينما هي في هذا السخط الحاد إذا العرب بقيادة عمرو بن العاص يقبلون من الشرق عام ١٩هـ / ٦٤٠ م ويستمرون في زحفهم حتى حصن بابليون (بالقرب من ممفيس القديمة) ويطول حصارهم له ، فيغزو عمرو إقليم الفيوم ويشدد الحصار على حصن بابليون ، ويضطر قيرس (المقوقس) إلى التسليم . ويتجه عمرو إلى الشمال الغربي ويستولى على الإسكندرية . ولم يكن يقاومه في حصن بابليون والإسكندرية جميعاً سوى الروم . وكان المصريين وجدوا فيه وفي العرب مخلصاً لهم ، إذ سرعان ما عرفوا أن الإسلام يكفل لهم حريتهم الدينية ولا يمس كنائسهم ومعابدهم ، ولذلك لم يقاوموا هؤلاء الفاتحين إذ وجدوهم يردون لهم استقلالهم الديني .

ودالماً الدين في مصر يوضع فوق السياسة والحكم وفوق كل شيء . وما كان ليقل أن يحمل المصريون السلاح ويدافعوا عن الروم الذين يعتدون على مذهبهم الديني وحريةهم الدينية ، حتى لقد فرَّ البطريق القبطي بنيامين وظل محتبئاً حتى دخل العرب مصر وكفلوا للقبط معتقداتهم الدينية ، ورفعوا عن كواهلهم ما أبهظها من ضرائب الروم الفادحة . فكان طبعياً أن يتعاون قبط مصر مع العرب وأن ينفضوا أيديهم من الروم ، ولذلك حين عاد أسطولهم إلى الإسكندرية واستولوا عليها لم يلقوا تأييداً منهم ، وهزمهم العرب بقيادة عمرو بن العاص هزيمة ساحقة عام ٦٤٦ م / ٢٥هـ ومن بقي منهم ولّى في البحر المتوسط إلى غير مآب . وبدأت من حينئذ مصر دورتها العربية الجديدة .

(ب) زمن الولاية^(١)

أصبحت مصر ولاية تتبع الخلافة ، وكان أول ولايتها عمرو بن العاص الفاتح لها ، ولا يزال باقيا من آثاره في القاهرة مسجده الذي يحمل اسمه والذي بناه في القسطنطينية : موضع معسكره في حصاره لحصن بابليون وتسمى منطقته الآن باسم مصر القديمة . وحين تم له طرد الروم من الإسكندرية بنى بها مسجد الرحمة . وكان ذلك إبدانا باستيلاء الإسلام عليها كما استولى على مصر من جميع أطرافها . ويلي مصر في عهد عثمان عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان عمرو بن العاص قد تغلغل في إفريقيا الشمالية فتبعه يتغلغل فيها ، وفي سنة ٣٤ حاول الروم غزو الإسكندرية ، فغزاهم في البحر ودمر سفنهم ، وتسمى الغزوة « ذات الصواري » لكثرة ما اجتمع فيها من السفن . ثم كانت الفتنة أيام عثمان رضوان الله عليه ، واختلف عليها ولاية لعللى رضى الله عنه ، ووليها عمرو بن العاص لمعاوية حتى توفي سنة ٤٣ وفي أيامه أرسل عقبة بن نافع فتغلغل في إفريقيا ، وكانت له فيها أيام ولاية عمرو بن العاص الأولى جولات بعيدة ، وستصبح له فيما بعد حين يولي معاوية قيادة الفتوح في المغرب جولات أكثر عمقا ، يخطط فيها مدينة القيروان بالقرب من تونس الحالية .

وتولى مصر بعد عمرو بن العاص ابنه عبد الله أشعرا ، ثم عزله معاوية وولى عليها عقبة بن عامر الجهني ، وأخذ الولاية في أيام بنى أمية يتعاقبون عليها حتى بلغوا في نحو تسعين عاما ثمانية وعشرين واليا ، إذ أئج الأمويون في ولاية مصر سنة تغيير الولاية ، وهى سنة سيئة ، إذ كان الولى يقدّم وهو يعلم أنه معزول عما قليل ، فكانت لاتهمه شئون مصر بمقدار ماتهمه شئون نفسه والعمل على اكتناز الثروة الضخمة قبل أن يتسلم كتاب العزل . وربما كان خير وال أموى تولى مصر حينئذ عبد العزيز بن مروان ، وقد امتدت ولايته من سنة ٦٥ حتى سنة ٨٦ واشتهر بما بنى في حلوان من قصور وغرس من جنات وزروع وكان جوادا ممدحا ، وإليه شد الشعراء الرحال من الحجاز ونجد والعراق ، ويقال إنه كان له ألف جفنة (قدر) تُنصب كل يوم حول داره لإطعام

خلدون وخطط المقرئى ١/ ٥٦١ وما بعدها وحسن المحاضرة
١/ ٥٧٨ ما بعدها .

(١) انظر في ولاية مصر زمن الأمويين والعباسيين كتاب
الولاية والقضاء للكندى (طبعة جيست) والجزء الأول
والثانى من النجوم الزاهرة وتاريخ الطبى وابن الأثير وابن

الناس ، وكان له بجانبها مائة جنة يطاف بها على القبائل . ولأريب في أن هذا الجود الفياض إنما كان على حساب الشعب ، وما يؤدى من ضرائب باهظة . وكان للولاة الأمويين في فرض الضرائب الاستثنائية أفانين كثيرة ، وكانت الرعية تضع منها في كل أقاليم الدولة .

ويظل هذا الظلم يزداد عسفا إلى أن يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة سنة ٩٩ فيأمر برفع الظلم عن رعيته وإلغاء كل لون من ألوان الضرائب الاستثنائية . وقد وجد الولاة يلزمون كل من أسلم من القبط وغيرهم من الموالى بالجزية ، كأنهم لا يزالون على دينهم القديم ولم يدخلوا في الإسلام ، معطلين بذلك أحكام الدين الحنيف ، فوقف كل هذا الظلم وما يجترأ إليه من فساد ومن تعطيل أوامر الدين ، من ذلك ما كتب به إلى حيان بن شريح صاحب ديوان الجند والخراج في مصر : « ضَع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فإن الله تبارك وتعالى يقول : (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) ويقول (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعْطُوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون) . ويبدو أن حيان بن شريح تلكأ في تنفيذ أمر عمر بن عبد العزيز ، فكتب إليه غاضبا : « قد أمرت رسولى بضررك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عمن أسلم ، فبُحِث الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا ﷺ هاديا ولم يبعثه جاييا » ^(١) .

واضطر حيان بن شريح أن يصدع لأمر عمر ، غير أن مدة خلافته كانت قصيرة ، إذ سرعان ما توفى لأول سنة في المائة الثانية ، فعاد ولاية بنى أمية إلى سيرتهم الأولى في مصر وغير مصر ، ومضوا يعصرون القبط ، سواء منهم من أسلم ومن ظل على دينه . وبذلك نفهم انتفاض القبط على الولاة سنة ١٠٧ وكذلك بأخرة من أيام الأمويين ، فإن الولاة لم يكونوا يرعون فيهم ما فرضه الإسلام من العدل وحرمة من الظلم والعسف . وظلت القسطنطينية حاضرة الولاة الأموي منذ اختط عمرو بن العاص للناس منازلهم فيها ، ولاتزال آثارها باقية إلى اليوم . ويقول المؤرخون إن الدور فيها كانت تتألف أحيانا من ست طبقات أوسع . ولما قدم مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر منهزما وتبعه الجيش العباسى إلى الصحراء أمام مدينة القسطنطينية أذن القواد للعسكر بالبناء حيث نزلوا ، فقامت ضاحية أو مدينة العسكر بمحاور القسطنطينية ، وكان يترها ولاية بنى العباس ، وتلقانا بعض انتفاضات للقبط حتى سنة ١٥٠ ثم لانعود نسمع عنها ، إنما تلقانا انتفاضات

(١) انظر في هذه الرسالة وسابقتها خطط المقرئى ١٤٢/١

للعرب . وفي رأينا أن في ذلك إشارة واضحة إلى ماتم فعلا من امتزاج بين الأقباط والعرب ، فإن كثيرين من القبط دخلوا في الإسلام وكثيرين من العرب سكنوا القرى وزرعوا الأرض وامتزجوا بالقبط وأصبحوا يؤلفون أمة واحدة . وأول انتقاض يلقانا - للعرب - انتقاض دحية حفيد عبد العزيز بن مروان بالصعيد لسنة ١٦٥ وكان قد تولى موسى بن مصعب الموصلي فشدد في استخراج أموال الخراج وضاعف ما يُطلب من كل فدان وجعل خراجا على الأسواق والدواب وارتشى في الأحكام فارت عليه قيس واليمانية ، وانتهى أمره بقتله . وقضى سريرا على ثورة دحية سنة ١٦٩ . ونظفل نسمع عن انتفاضات في الحوف الشرق ، ويستغل الفرصة الجروى في تئيس وبنو السرى الذين استولوا حيناً على مقاليد الأمور ، مما اضطر المأمون أن يسند إليهم الولاية على مصر من حين إلى حين . وتحدث في هذه الأثناء ثورة الفقهاء في قرطبة على الحكم الرضى الأمير الأموى ويأمرهم بمغادرة البلاد ، فيترلون الإسكندرية ويستولون عليها . ويرسل المأمون قائده عبد الله بن طاهر ، فيعيد الأمن إلى مصر لسنة ٢١٠ ويُخرج منها الأندلسيين إلى جزيرة كريت ويستولون عليها . ويعود ابن طاهر في سنة ٢١٢ وينتقض أهل الحوف مراراً ، ويثور القبط ، ويضطر المأمون إلى القدوم بعسكره إلى مصر سنة ٢١٧ فيقضى على ما بها من فتن . ويأمر واليه على مصر في سنة ٢١٨ أن يأخذ الناس بمحنة خلق القرآن المشهورة . ويتولى بعد المأمون أخوه المعتصم في نفس السنة المذكورة ويأمر بإسقاط العرب من الدواوين بمصر وغير مصر ، ومنذ هذا التاريخ يندمجون نهائياً في أهل مصر من القبط ومن أسلم منهم . ويغزو الروم دمياط سنة ٢٣٨ وسرعان ما يرحلون عنها إلى غير رجعة .

وربما كان أهم ما خلفه زمنُ الولاة أيام الدولة العباسية كثرة العناصر الفارسية التي دخلت مصر ، فقد كان الجيش الذي تعقب مروان بن محمد ، وبُنِي له « العسكر » ، أكثره إن لم يكن كله من الفرس ، وظلت الجنود التي ترسل مع بعض الولاة أو للقضاء على بعض الانتفاضات والفتن فارسية في جملتها ، وكان كثير ممن يسند إليهم الولاية بمصر قرساً ، وبالمثل من كان يُسند إليهم القضاء . وكل ذلك معناه أن العناصر الفارسية تكاثرت بمصر في زمن العباسيين ، وكان لهم أسلاف قدماء جاءوا مع اليمانيين في فتح مصر ، إذ كانت اليمن في الجاهلية تابعة حيناً للفرس فكان بها عناصر فارسية ، وقد دخلت في الإسلام وشاركت اليمانيين في رحلاتهم للفتوح . وبذلك كله نستطيع أن نفسر وجود نفر غير قليل يرجعون إلى أصول فارسية بين علماء مصر وفقهائها مثل الليث ابن سعد الفقيه المشهور وكذلك بين كتابها في الدواوين .

(ج) الطولونيون^(١)

هم أول أسرة حكمت مصر حكماً مستقلاً ، وحققاً كانت تتبع الخلافة العباسية ، غير أن تبعيتها لها كانت اسمية ، وزعيم هذه الأسرة ومؤسس دولتها أحمد بن طولون ، وهو تركي الأصل ، كان أبوه طولون من موالى المأمون والمقريين منه ، ورزق بابنه أحمد سنة ٢٢٠ هـ فغنى بترتيته ، وبدأ بحفظ القرآن الكريم حتى أتقنه ، وأكب على حلقات العلماء وخاصة فقهاء الأحناف يتزود منها . ومازال أبوه يخدم الخلفاء حتى توفى في عهد المتوكل ، فقوّض لأحمد ما كان لأبيه من الأعمال ، وولى بعض الشغور ، وكان شديد الإصرار على الترك في معاملتهم السيئة للخلفاء ، ونال الحظوة عند الخليفة المستعين ، وحاول الأتراك أن يدفعوه إلى المشاركة معهم في مقتله فأبى ذلك . ولم تلبث مصر أن أقطعت لزوج أمه بایكبك ، فأنابه عنه في حكمها سنة ٢٥٤ هـ وسرعان ما أخذ يعمل على الاستقلال بها . وبدأ ذلك بأن جمع في يده شئون المالية بجانب شئون الإدارة ، واتخذ جيشاً ضخماً بلغ عداؤه مائة ألف ، وفي أثناء ذلك ضُمَّت إلى حكمه الإسكندرية وبرقة ، ولانصل إلى سنة ٢٦٤ هـ حتى تضم إليه الشام . وبلغ خراج مصر في زمنه أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار ، مما جعله يتسع في إقامة المباني والمؤسسات . وكان قد سكن العسكر في أول أمره شأن الولاة من قبله ، ثم أخذ في بناء مدينته القطائع ، بادئاً بقصره الكبير ثم بقطائع لجندته من الترك والنوبة والروم ولجواشيه من القواد وكبار الموظفين . وعُنى ببناء مسجده الكبير ، وبُنيت مساجد كثيرة وطواحين وحمامات وأفران وحوانيت . وجعل أمام قصره ميداناً كبيراً يُلقَّب فيه بالكرة ، ولما عظم أمره كان يطعم الفقراء والمساكين كل يوم ، ويقال إن صدقاته كانت تبلغ في السنة أكثر من مليون دينار ، وبني مارستاناً ضخماً ، واتخذ لنفسه ديواناً كبيراً على شاكلة دواوين الخلافة . وحدثت خصومة بينه وبين الموفق ولى عهد الخليفة المعتمد وقائده ، مما أدى إلى اشتباك جيوشهما . وعُنى في دولته بأن ينقل إليها الأنظمة الفارسية التي كانت متبعة في بغداد وسامراء . وأخذ البيعة من بعده لابنه خمارويه . ولم يلبث ابن طولون أن توفى سنة ٢٧٠ هـ .

المقريزي ٥٨٩/١ وسيرة أحمد بن طولون للبلوي (طبعة محمد كرد علي) وراجع أحمد بن طولون وخمارويه والطولونيين في دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الشعوب الإسلامية لبوكلمان ص ٢٢٠ .

(١) انظر في الطولونيين تاريخ الطبري واليعقوبي وابن الأثير وابن خلدون والجزء الثالث من التاج الزاهرة والمغرب لابن سعيد (طبع جامعة القاهرة) ص ٧٣ وما بعدها والولاة للكندي (طبعة صادر) ص ٢٣٩ وما بعدها ونخطط

وتبلغ دولة الطولونيين في عهد خمارويه كل ما كان يؤمل لها من ازدهار . وتحدث في أوائل حكمه تناوشات بين جيشه وعسكر الموفق ، وسرعان ما ينقذ بينهما صلح وثيق . ويقال إن رواتب الجيش المصرى بلغت في أيامه تسعمائة ألف دينار ، مما يدل على ضخمة الجيش ومدى عنايته به . وفرغ بعد صلحه مع الموفق للعناية بشئون دولته ، وزاد في قصر أبيه وحول الميدان الذى كان أمامه بجوار مسجد أبيه إلى بستان رائع حمل إليه كل صنف من الشجر وأنواع الورود والرياحين والزعفران ، غير ما اتخذ فيه من الفساقى والنافورات ، وسنعرض لذلك في غير هذا الموضع ، ووسع لإصطبلاته لكثرة دوابه وحيواناته الأليفة والوحشية . ويقول المؤرخون : كان من عجائب الدنيا في زمنه عرض الخيل بمصر . وبلغ من مجده وعظم شأنه أن طلب الخليفة المعتضد منه في سنة ٢٧٩ أن يزوجه ابنته قطر الندى ، وبنوه المؤرخون بمجهازها وما كان فيه من تحف وهدايا نفيسة ، ويقولون إن خمارويه بنى لها على رأس كل منزلة بين القطائع وبغداد قصراً قرشاً أروع قرش . ومع كل ما انتهى إليه من ملك مصر والشام ومع ما اشتهر به من الشجاعة والبأس قُدِّر له أن يقتل بأيدى غلمانه في دمشق سنة ٢٨٢ . وأقام قواده بعده ابنين صغيرين له بادئين بأكبرهما « أبى الجيش » ولايدور العام حتى يخلعوه ، ويولوا أخاه هرون وكان ضعيفاً ، فلم يستطع لاهو ولا جيشه الصمود أمام القرامطة وشعب جيوشهم في الشام ، مما جعل الدمشقيين يلتمسون من الخليفة المكتفى أن يغيبهم بجنده ويلبى استغاثتهم . ويُقتال هرون سنة ٢٩٢ ويتولى بعده عمه شيان الحكيم اثني عشر يوماً إذ سرعان ما يُقدَّم إلى مصر جيش الخلافة بقيادة محمد بن سليمان ، فيزيل حكم الطولونيين ، ويبكيهم الشعراء طويلاً . وتعود مصر ثانية ولاية عباسية ، ويتعاقب عليها ولادة مختلفون من بغداد ، وتكثر في عهدهم غارات الفاطميين من عاصمتهم المهديّة بجوار القبروان على حدود مصر السفلى والعليا ، ويُذخرون مراراً ، ويحجزهم إلى حين الإخشيديّ وأبنائوه .

(د) الإخشيديون^(١)

الإخشيدي هو محمد بن طُغْج بن جُفّ القرغاني التركي خدم أبوه وجده الخلفاء العباسيين ، كما خدمهم بدوره ، ويقال إنه وُلد سنة ٢٦٨ وما زال يعمل في خدمة الخلفاء وقوادهم حتى ولَّوه

تراجم الإخشيدي وكافور وخطط القريرى ١/٦١٧ ومروج الذهب للمسعودى ومصر في عصر الإخشيديين للذكورة سيدة كاشف ، وراجع مادة إخشيدي في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في الإخشيديين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون والولاء للكندى ص ٣٠٤ وما بعدها والجزءين الثالث والرابع من النجوم الزاهرة والمغرب (قسم القسطنطينية) ص ١٤٨ وما بعدها وابن خلدون (طبعة دار صادر) في

الثغور ، ويلمع اسمه حين تولى مدينة الرملة بفلسطين سنة ٣١٦ ولم يلبث أن تولى دمشق سنة ٣١٨ وجاءته الكتب في سنة ٣٢١ بولاية مصر غير أنه لم يدخلها ، وظل على دمشق حتى ولاء الخليفة الراضى مصر سنة ٣٢٣ وضم إليه البلاد الشامية والجزرية والحرمين . وفى سنة ٣٢٧ خلع عليه الراضى لقب الإخشيد ، وهو لقب ملوك فرغانة موطن أجداده ، وغلب اللقب على اسمه . وولى ابن رائق أمر دمشق ، فجمع جنده لحرب الإخشيد ، وتنشب الحرب ، وينعقد بينهما الصلح على أن يترك ابن رائق مدينة الرملة للإخشيد وتظل معه بقية الشام ، وسرعان ما يتوفى وتعود ديار الشام جميعها إلى الإخشيد . وتقع وحشة بينه وبين سيف الدولة الحمداني صاحب حلب ويصطلمحان على أن تكون لسيف الدولة حلب وأنطاكية وحمص ، أما باقى بلاد الشام فتكون للإخشيد . ويأخذ البيعة من بعده لابنه أنوجور ويتوفى لآخر سنة ٣٣٤ . وكان حازما يقظا فى حروبه وتبدير شئون دولته مكرما لجنوده . ويقال إن جيشه كان يبلغ أربعائة ألف ، وكان له ثمانية آلاف مملوك وكان يحرسه منهم فى كل ليلة ألفان . وكان أنوجور ابنه فى الرابعة عشرة من عمره حين ولى مصر وكانت ولايته اسمية ، أما الولاية الحقيقية فكانت لكافور كبير حاشية أبيه الذى اختاره وصيا عليه ، وكان عبداً أسود خصياً ، واختلف - فيما يبدو - إلى حلقات العلماء ، واشترى الإخشيد وأعجب به فأعتقه ومازال يرقى به فى المناصب حتى أصبح من قواده . ولما توفى سيده نهض بشئون ابنه أنوجور على خير وجه ، وساس مملكته خير سياسة ، وكان الحاكم الحقيقى صاحب الأمر والنهى فى إقليمى الدولة الكبيرين : مصر والشام . وكان يبنى الشراء ويكثر من عطاياهم ، وزار مصر حيثئذ المتنبى ، وله فيه مدائح وأهاج مشهورة .

ومازال كافور يدير أمور الدولة لأنوجور حتى توفى سنة ٣٤٩ وأخذ البيعة من بعده لأخيه على وقام على دولته خير قيام حتى توفى سنة ٣٥٥ فاستقل بالأمر من هذا التاريخ واتخذ جعفر بن الفضل ابن الفرات وزيراً له . وكان يُدعى له على المنابر فى مصر والشام ومكة والحجاز . وكانت تُقرأ عنده ليلا السير وأخبار الدولتين الأموية والعباسية ، وكان سيوسا ماهراً ، من ذلك أنه كان يذعن بالطاعة للعباسيين وفى الوقت نفسه يهادى المزعزعات الفاطمية صاحب المهديّة والمغرب ويظهر ميله إليه خداعاً . وكان على علم بالعربية ، وكان كريماً معطاء . وكانت أيامه أيام هناءة ورخاء ، ولم يلبث أن توفى سنة ٣٥٧ فعقد أولياء الدولة الولاية لأحمد بن على بن الإخشيد ، وكان صيباً فى الحادية عشرة من عمره ، واضطربت الأحوال فى الشام اضطراباً شديداً لغارات القرامطة هناك ، وعيّنهم

في الأرض فسادًا ، ولم تلبث جيوش المعز الفاطمي أن زحفت من الغرب بقيادة جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ واستولت على البلاد وانقرضت الدولة الإخشيدية .

٢

الفاطيون - الأيوبيون

(١) الفاطميون^(١)

تنسب هذه الأسرة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وقد تكونت حوله فرقة الإسماعيلية بينما تكونت حول أخيه موسى الكاظم الفرقة الاثنا عشرية ، وكانت الفرقتان تعيشان على التقية والدعوة سرًا لأئمتها العلويين من سلالة موسى وإسماعيل . وأتيح للإسماعيلية داع خطير هو عبد الله بن ميمون القداح ، وهو فارسي من الأهواز ، وكان ملما بالفلسفة والملل والأديان ، فنظّم الدعوة الإسماعيلية ووضع مبادئها الشيعية الغالية . وبارح موطنه إلى البصرة ثم إلى سَلَمِيَّة بالقرب من اللاذقية في الشام ، ومن هناك اتخذ دعاة للنحلة الإسماعيلية في العراق وغير العراق ، مما هيأ لظهور القرامطة في البحرين وجنوبي العراق ، كما هيأ لظهور داع إسماعيلي من جنوبي الجزيرة يسمى أبا عبد الله ، وتصادف أن التقى في أثناء الحج بنفر من قبيلة كتامة المغربية ، فارتضوا دعوته الإسماعيلية وأمروه عليهم وسار معهم إلى موطنهم ، فجمع حوله منهم جيشا قضى به على الأغلبية حكام تونس سنة ٢٩٦ ويمضى إليه من سَلَمِيَّة عبيد الله الفاطمي ويسلمه مقاليد الأمر ، وتدين له البلاد ، فيتلقب بالمهدي ويعلن نفسه خليفة شرعيا ، ويبنى عاصمة جديدة له بجوار القيروان يسميها المهديّة نسبة إليه .

وكان القداح قد جعل أئمة الدعوة الإسماعيلية قسمين : أئمة حقيقيين مستورين أو مستقرّين ، وأئمة بجانبهم مستودعين هم رعووس الدعاة المسمون بالحجج ، وبذلك كان هو نفسه إماما

الزاهرة لابن تَئَرَى بَرْدَى وابن خلكان في تراجم الخلفاء وجوهر الصقل والإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي والنكت المصرية لعارة اليمنى وصبح الأعشى في مواضع متفرقة والفاطيون في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم ميتر .

(١) انظر في الفاطميين المنتظم لابن الجوزي وتاريخ مصر لابن ميسر وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) طبع دار الكتب واتعاط الخفا بأخبار الخلفاء للمقرئزي وكتابه المخطوط ٢١/٢ ومابعدها وكتاب حسن المحاضرة والأجزاء الثالث والرابع والخامس من النجوم

مستودعا ، ومن هنا جاء الشك في نسب عبيد الله وأبنائه الفاطميين إلى السيدة فاطمة الزهراء ، فقبل إنه فاطمي حقيقة وأنه ابن أئمة مستورين هم على الترتيب التقى والوفى والرضى بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وإنما استتروا خوفا على أنفسهم من العباسيين ، وأسماء الأولين على الترتيب الحسين وأحمد وعبيد الله ، وقيل بل هو غير فاطمي من أبناء القداح الإمام المستودع أو أحفاده . ومما شكك في هذا النسب المحضر الذى كتبه الخليفة القادر العباسى سنة ٤٠٢ به شهادة القضاة والأشراف العلويين بالطن فى نسب الفاطميين . وقد رفض ابن خلدون فى تاريخه هذا الطعن ومايطوى فيه من شك فى نسب عبيد الله وأسرته الفاطمية وجزم بصحة نسبه إلى على رضوان الله عليه والسيدة فاطمة الزهراء .

ويتسع سلطان عبيد الله فى المغرب ، ويضم إلى سلطانه ليبيا والجزائر ، وتشن عساكره غارات على مصر ، ويتوفى سنة ٣٢٢ فيخلفه ابنه القائم وتستولى جنوده على المغرب ، ويثور عليه الخوارج فى جبل أوراس ثورة عنيفة ، ويتوفى سنة ٣٣٤ ويخلفه ابنه المنصور فيقضى نهائيا على ثورة الخوارج ، ويتوفى سنة ٣٤١ فيعتلى ابنه المعز عرش الخلافة الفاطمية ، وتدين له المغرب بالولاء ماعدا سجلماسة وفاس ويفتتحهما قائده جوهر الصقل ويمهد له البلدان المغربية حتى المحيط الأطلسى ماعدا مدينة سبتة ، فلما ظلت لبني أمية أصحاب الأندلس .

وكانت عين المعز على مصر ، فلما وصله الخبر بموت كاهن وشعر كأنما انهار السد الذى كان يحول بينه وبين الاستيلاء عليها أمر قائده جوهر بالاستعداد لفتحها ، وجهزه بأكثر من مائة ألف فارس وبكل مايلزمه من المال والسلاح . ولم يكده يشرف على الإسكندرية حتى لقيته جماعة من المصريين برسالة من الوزير جعفر بن القرات بطلب الصلح والأمان . وتقدم جوهر حتى وصل بعسكره إلى الجزيرة ودخل القسطنطينية والبر الشرقى بجيشه دون مقاومة تذكر من الإخشيدية والكافورية . ونزل بالقرب من الجامع الأزهر ، وأخذ توطأ يخطط مدينة القاهرة . وكتب جوهر إلى المعز يشره بالفتح ، وقطع الخطبة لبني العباس وأبس السواد شعارهم ، وأمر أن يلبس الخطباء البياض وأن يقال فى الخطبة : « اللهم صل على محمد المصطفى وعلى على المرتضى وعلى فاطمة البتول وعلى الحسن والحسين سيطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » . وأخذ جوهر فى بناء الجامع الأزهر واستغرق ذلك ثلاث سنين . واختط قصر الخلافة ، وحفر أساسه فى أول ليلة نزل فيها بالقاهرة ، واختطت

كل قبيلة - خِطَّة عُرِفَتْ بها وبنيت حاراتها من يومئذ ، من مثل حارة الروم والحسنية والحُرْشْتَف . ولم يلبث أن ضم الشام إلى مصر سنة ٣٥٩ وخطب للمعز فيها وفي الحرمين . وفي نفس السنة = ٣٥٩ أمر المؤذنون أن يؤذّنوا بحَيٍّ على خير العمل . وظل جوهر مستقلا بتدبير مصر والشام أربع سنين وعشرين يوما إلى أن وصل المعز سنة ٣٦٢ وكان عاقلا حازما أدبيا ، وتروى له بعض أشعار ، وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية ، ولم تبق بلد من الشام إلى فاس والمحيط الأطلسي إلا أقيمت فيه دعوته وخُطب له في جمعته وجماعته إلا «سَبْتَة» فإنها كانت مع الأمويين أصحاب قرطبة كما ذكرنا . ولما استقرت له الأمور بمصر استخلف على إفريقية يوسف بُلْكَيْن بن زيري الصّنهاجى . واستمر جوهر في علو منزله إلى سنة ٣٦٤ إذ رأى المعز أن يعزله عن دواوين مصر وجباية أموالها ، ورد إليه العزيز مكانته حتى وفاته سنة ٣٨١ .

وتوفى المعز سنة ٣٦٥ بعد أن وطّد الملك العظيم لأبنائه وأحفاده يتوارثونه نحو مائتى عام ، وخلفه ابنه العزيز نزار ، وكان كريما شجاعا ، يعفو عند المقدرة محبا للصيد وخاصة صيد السباع ، وكان ينظم الشعر لكن لا يبلغ فيه مبلغ أخيه تميم . واتسعت مملكته بالقياس إلى مملكة أبيه ففتحت له بقية بلاد الشام : حمص وحماة وشَيزر وحلب ، وخُطب له بالموصل وباليمن . وعهد إلى غير وزير بتدبير مملكته ، منهم يعقوب بن كِلْس وكان يهوديا وأسلم . وبني قصر البحر ، ولم يكن له مثل شرقا ولا غربا ، وقصر الذهب . وقال ابن الجوزى إنه ولّى عيسى بن نسطوروس النصراني ومنشا اليهودى فكُتبت إليه سيدة مصرية بالذى أعزّ اليهود بمنشا والنصارى بابن نسطوروس وأذلّ المسلمين بك إلا نظرت في أمرى ، فقبض عليهما وأخذ من ابن نسطوروس ثلاثمائة ألف دينار . ويروى أنه كان يقول : « أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندى » .

وما زال العزيز رفيقا برعيته حتى توفى سنة ٣٨٦ وخلفه ابنه الحاكم ، وكان في الحادية عشرة من عمره ولم يكن سيّئ العقل ولا النفس ، فاضطرب سلوكه واضطرب حكمه بين جبن وشجاعة وبخل وسخاء ، وتارة يجلس في الشمع ليلا ونهارا ، وتارة يجلس في الظلام الدامس ، وحينما يحب العلماء والصلحاء ، وحينما يفتك بهم في غير رحمة ، وقتل كثيرين من قادة دولته وأصحاب مناصبها الرفيعة . وتارة يأمر بأن يُكْتَب على المساجد والجوامع سبّ أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص وتارة ينهى عن ذلك . وتارة يمنع من صلاة التراويح

ونارة يبيعها ، وكان ينهى عن بعض المأكولات مثل الملوخيا والتمرس والجرجير والسبك لاقشر له والزبيب . وحُرِّم الخمر وشدَّد في تحريمها ، ورأى لذلك منع بيع العنب وقطع كرومها ، وأراق في النيل خمسة آلاف جرَّة عسل خشية أن تصير نبيذا . وفي سنة ٤٠٤ منع النساء من الخروج إلى الطرقات ليلا ونهارا ، ومنع لذلك الأساكفة من صنع الأحذية والخفاف لمن وظل ذلك حتى نهاية حكمه . وحُرِّم - فيما حُرِّم - الغناء ولعب الشطرنج والترهه على ضفاف النيل ، إلى غير ذلك مما يصور خبله وشذوذه وفساد عقله . وكان دعاة عقيدته الإسماعيلية لايزالون يُشيعون - مستضيين بنظرية الفيض الأفاطونية - أن للإمام الفاطمي نسبتين نسبة إلى عالم القدس ونسبة إلى عالم الطبيعة ، مما أدى بالحاكم إلى أن يظن أنه تجسد للذات الإلهية وأغراه بذلك دعائه ، وفي مقدمتهم داع دُرُزى من جبال لبنان ، ويقال بل هو أعجمى دَعَا في تلك الجبال بربوبيته وتبعه الناس هناك . وانسابت من هذه العقيدة عقيدة التجسد للذات الإلهية شعبة إلى التَّصَوُّف في سوريا ، إذ يؤمنون بربوبية على بن أبي طالب . ولما لم يعد في قوس الصبر مترع حيكت مؤامرة لقتله وتخليص البلاد من شره وخبله ، فقتل في شوال من سنة ٤١١ ويقال إن أخته ست الملك هي التي دبَّرت قتله .

وولى الخلافة الفاطمية بعد الحاكم ابنه الظاهر ، وله ست عشرة سنة ، وقامت عمته ست الملك بتدبير دولته أحسن قيام وبذلت الأموال الكثيرة في الجند وساست الناس سياسة حسنة ، واستقام الأمر للظاهر ، وعدل في الرعية ، وأعلن البراءة من عقيدة التَّصَوُّف والذُّرُزِيَّة جميعا . وحوالى سنة ٤٢٠ خرج عليه صالح بن مرداس الكلّابي واستولى على حلب ، كما خرج حسان بن المجرب البدوى إلى مدينة الرَّمْلَة وتغلب على أكثر الشام ، وجمع هو وصالح بن مرداس الجموع لحرب الظاهر ولقيتها جيوشه عند غزة ، فانهزم حسان وقتل صالح ، وعادت الشام إلى الطاعة . وبنى الظاهر قصر اللؤلؤة وكان جوادا سمحا حليما محببا للرعية .

وتوفى الظاهر سنة ٤٢٧ وخلفه ابنه المستنصر وهو فى السابعة من عمره ، وظل في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر ، واستوزر كثيرين كان من بينهم صدقة بن يوسف الفلاحى استوزره سنة ٤٣٦ ، وكان يدبّر له الدولة أبو سعد التستري اليهودى ، وقتلا في سنة ٤٣٩ . ويؤسس محمد بن على الصليحي دولته الصليحية في اليمن ويعلم ولاءه للمستنصر ، ويدعوه على المنابر هناك ، وتتقدم حتى سنة ٤٤٣ وإذا المعز بن باديس يعلن العصيان في المغرب ، ويقطع الخطبة للمستنصر ويخطب لبنى العباس ، وبذلك تخرج المغرب من طاعة الفاطميين . وما توافى سنة ٤٥٠ حتى يعظم شأن

أرسلان البساسيري في بغداد فيقطع خطبة الخليفة العباسي في عاصمته ويخطب للمستنصر ويدعو له على المنابر نحو عام إلى أن قُصِيَ عليه وعلى فتنه أو دعوته السلطان طُغْرُبُكُكُ السلجوقي . ويحدث في أيام المستنصر غلاء عظيم تظل مصر تعانيه سبع سنوات كسنى يوسف المهلكة ، بدأت في سنة ٤٥٧ وظلت حتى سنة ٤٦٤ وفيها اشتد القحط بالبلاد واستولى عليها الخراب والوباء وكان الناس إذا مشوا تساقطوا في الطرقات من الجوع ، ويقال إن الرغيف بيع بخمسين دينارا وإن البيضة بيعت بدينار وتوجهت أم المستنصر وبناتها في سنة ٤٦٢ إلى بغداد من فرط الجوع . وزاد طين هذا الغلاء بِلَّةٌ نشوب حرب في الجيش بين الترك والسودان ، وكادت لاتبقي في قصر الخليفة تحفة نفيسة إلا بيعت بأرخص الأثمان . وبدا من الصعب إنقاذ مصر من كل هذا البلاء لولا أن استنجد المستنصر في سنة ٤٦٨ ببدر الجمالي ، وكان قد تولى الشام والسواحل للمستنصر ، فاستدعاه وقَوَّض الأمور إليه ، فاستقامت بحسن تدبيره وهدأت الفتن وأصبح الحكم والأمر كله له وليس للمستنصر إلا الاسم ومات قبله بأشهر ، فعهد إلى ابنه الأفضل بالقيام مكانه ، وينقلب شاهنشاه أو ملك الملوك ولا يلبث المستنصر أن يتوفى سنة ٤٨٧. ويقال إنه قد عهد من بعده إلى ابنه الأكبر نزار ، غير أن الأفضل الجمالي كان يكرهه ، فلما اجتمع الأمراء والخواص بعد وفاة المستنصر حُبِّهم في أن يخلفه ابنه أحمد ، فبايعوه بالخلافة وجعلوا أوجع الأفضل لقبه المستعلى . وأحدث ذلك انقسامًا بين إسماعيلية مصر وإسماعيلية إيران فبينما كان الأولون يعترفون بإمامة المستعلى كان الآخرون لا يعترفون بإمامته إنما يعترفون بإمامة نزار ويرون أن سلالة هم الأئمة الحقيقيون ، وحاول نزار أن يسترد الخلافة فنار بالإسكندرية وقضى الأفضل على ثورته . ولا يزال هذا الخلاف قائما بين الإسماعيلية في الهند إلى اليوم ، فالْبُهْرَةُ مستعلية وشيعة أغاخان نزارية . ولم يكن للمستعلى مع الأفضل حكم ، كما كان حال أبيه المستنصر مع بدر الجمالي ، وظل ذلك حال الخلفاء مع الوزراء إلى نهاية دولتهم الفاطمية ، فقد أصبح الخلفاء الفاطميون وراء الحجاب ولا أمر لهم ولأنهى إلا أن يخرجوا في مواكب أول العام الهجري ولصلاة الجمعة في رمضان و صلاة العيدين .

ولعل الحكم الوراثي لم يتضح شره ولا عواقبه الوخيمة كما انتضح في عهد الفاطميين بمصر ، فقد كان الخليفة الثالث وهو الحاكم - مجنونًا أو مخبولا ، وتولى المستنصر وهو في السابعة من عمره كما مرُّ بنا ، وكأنما جرى بالخلافة أرجوحة للصبي ، وتوفى المستعلى سريعا سنة ٤٩٥ فأقام الأفضل ابنه الأمر مقامه وهو في الخامسة من عمره ، والبلاد في أشد الحاجة إلى حاكم حازم ، فالسلاجقة

يستولون على كثير من مدن الشام وماتلبث طائفة الصليبيين أن تجثم على ديار الشام والموصل ، وتتعاقب الكوارث والخطوب منذ سنة ٤٩٠ إذ تقدم جموعهم من آسيا الصغرى ، ويتسلل بلدوين إلى الرها بالموصل ويستولى عليها ويكون بها أولى إماراتهم واستولت جموع أخرى على أنطاكية وكونوا بها إمارتهم الصليبية الثانية . يأخذون المعرة في سنة ٤٩٢ ويستولى جودفرى في نفس السنة على بيت المقدس وتكون بها إمارتهم الصليبية الثالثة ويستولى ريموند على طرابلس سنة ٥٠٢ وتكون بها إمارتهم الصليبية الرابعة ، ويستولون على مدن لبنان وكثير من مدن فلسطين مثل الرملة وعكا ، ولا يبقى لمصر في الشام سوى عسقلان . وكل ذلك يحدث والأفضل سادر في غفلته والجيش المصرى غائب عن حياه إلا بعض تجريدات برية وبحرية لاتغنى شيئا . ويُقتل الأفضل سنة ٥١٥ ويُقتل الخليفة الأمر سنة ٥٢٤ ويتولى عرش الخلافة الحافظ ، ويستوزر أحمد بن الأفضل الجمالى وكان هو وأبوه وجده سنيين ، فيأمر خطباء المساجد أن لا يدعوا في خطبهم للحافظ كما يأمر المؤذنين أن يسقطوا من أذانهم « حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ » أحد شعارات الفاطميين ، وكأنه أراد أن يزيل الخلافة الفاطمية من مصر ، غير أن أنصارها من حواشيا وشيعتها أسرعوا فقتلوه . ويتولى الخلافة بعد الحافظ ابنه الظاهر سنة ٥٤٤ ولا يلبث أن يتوفى فيخلفه ابنه الفاتر وهو فى الخامسة من عمره سنة ٥٤٩ ويتوفى سنة ٥٥٥ فيخلفه العاضد آخر خلفائهم وهو فى الحادية عشرة من عمره . وكان الخلافة أصبحت أرجوحة حقيقية للصية والغلمان ، ونظـل نرى مع كل خليفة وزراء ، وغالبا يسقطون مقتولين . ولم يكن لكل منهم من شاغل سوى أن يجمع أكثر مايمكن من الأموال لنفسه ، مُثْقَلًا فى أثناء ذلك على المصريين بالضرائب الفادحة ، بينما يعيش هو ومن وراءه من الخلفاء للهو والقصف .

وتفـسد فى أثناء ذلك التدهور والانحلال أداة الحكم فى مصر فسادا شديدا . ومع ذلك لاتزال ترسل إلى الشام بعض تجريدات ذرا للرماد فى العيون ، وحتى عسقلان يحتلها الصليبيون ويطمحون إلى احتلال وادى النيل . وبأخرة من أيام هذه الدولة يقتتل ضرغام وشاور على الوزارة ويفزع شاور إلى البطل المغوار نور الدين صاحب حلب مستنجدا به ويهجم حينئذ أمـلريك الصليبي صاحب بيت المقدس على مصر ويتقدم حتى بلبس ، ويقطع المصريون عليه الجسور والسدود فيضطر إلى العودة . ويقدم سنة ٥٥٩ شاور ومعه عساكر نور الدين بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، ويمكثان لشاور فى الوزارة ، وسرعان مايقبـل ظهر الجن لشيركوه وجنوده ،

ويدفعه شيطانه إلى الاستعانة ضده بأملريك والصليبيين ، ويحاصرون شيركوه في بلبس يضطرون إلى رفع الحصار عائدين إلى بيت المقدس . ويخرج شيركوه من مصر ، فيعظم بغى شاور وطغيانه ، فيستنجد العاضد بنور الدين سنة ٥٦٢ ، ويرسل ثانية شيركوه وصلاح الدين ، فيستنجد شاور بأملريك ، وليّيه ، وتدور عليه الدوائر ، ويخرج على وجهه هو وجنوده من القاهرة ، ويخرج أيضا شيركوه وصلاح الدين إلى الشام . ولا يلبث الصليبيون أن يعودوا لامتلاك مصر ويقدم أسطول صليبي إلى تّيس وبعضم الخطب . ويستصرخ العاضد وشاور نور الدين ، فيرسل إليهما عسكريًا بقيادة شيركوه وصلاح الدين سنة ٥٦٤ ويستنقذان مصر من الصليبيين وشاور جميعا . ويتولى شيركوه الوزارة للعاضد شهورا ، ويتوفى فيخلفه صلاح الدين ، ويكتب إليه نور الدين مرارًا يأمره بتحويل الخلافة في مصر من الفاطميين إلى العباسيين . وتصادف أن مرض العاضد مرض الوفاة ، وفي أثناء ذلك صدع صلاح الدين بمشيئة نور الدين ، فأقام الخطبة لبني العباس في أول المحرم سنة ٥٦٧ ولم تمض إلا أيام حتى توفى العاضد في يوم عاشوراء . وبذلك انتهى أمر الفاطميين وحكمهم للديار المصرية .

(ب) الأيوبيون^(١) (صلاح الدين)

اتفق المؤرخون على أن الأيوبيين أسرة كردية أصلها من بلدة دُوين في آخر إقليم أذربيجان وبها ولد شاذى جد صلاح الدين وأبوه أيوب وعمه شيركوه ، وقد هاجروا منها إلى بغداد ، ولم يلبث أيوب أن أصبح حافظا لقلعة تكريت ، والتحق شيركوه بعماد الدين زنكى ، وتحول أيوب إلى العمل مع حاكم دمشق ، بينما ظل شيركوه عند زنكى ولما توفى عمل مع ابنه نور الدين وحدث أن حاصر عسكر نور الدين دمشق بقيادة شيركوه بينما كان أخوه أيوب على رأس حاميتها ، واتفق الأخوان على تسليمها لنور الدين ، فعين أيوب حاكما عليها ، وأقطع شيركوه حمصا ، وقربه منه . فلما استنجد شاور والعاضد بنور الدين أرسل إليهما عسكريًا بقيادة شيركوه

الدين لابن شداد والفيح القسى في الفتح القلى والبرق الشامى للهاد الأصهبى وابن خلكان في تراجم صلاح الدين وسلاطين الدولة وتاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان ص ٣٥٠ عدا ما كتب عن صلاح الدين والحروب الصليبية حديثا في العربية واللغات الأجنبية .

(١) انظر في الأيوبيين وصلاح الدين تاريخ ابن الأثير وابن خلدون ومفرج الكروب لابن واصل والروضتين وذيل الروضتين لأبى شامة وخطط المقرئى والسلوك الجزء الأول ومراة الزمان لسبط ابن الجوزى والجزءين السادس والسابع من النجوم الزاهرة وبدائع الزهور لابن إياس وسيرة صلاح

وابن أخيه صلاح الدين بن أيوب ، وتطورت الظروف كما مرّ بنا ، ففضى صلاح الدين نهائياً على الدولة الفاطمية ، وردّ مصر إلى الخلافة العباسية ، واستولى على قصر الفاطميين وما كان به من أموال وكنوز . وجدّ في إصلاح أحوال مصر ، فحطّ عن كواهل المصريين أثقال الضرائب الباهظة التي كان يتنافس وزراء الفاطميين في فرضها ، وبذل الأموال ، وملك قلوب الرجال ، وطمحت نفسه إلى أن يصبح والياً للخلافة العباسية بمصر ، إذ نراه يلّمح في الرسالة التي كتب بها إلى وزير بغداد ، ينبئه فيها بإزالة الدعوة الفاطمية وإقامة الدعوة العباسية ، إلى ما يدور بخلفه قائلاً عن نفسه : « إنه مفتقر إلى أن .. يقلّد ما فتح ، ويبلغ ما اقترح ، ويقدم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وإن نزع ، وتأنيبه التثريقات الشريفة » . ويأخذ في إعداد جيش قوى للقاء الصليبيين وينحى منه العناصر الزنجية والأرمنية التي كانت تعمل في جيش الفاطميين .

ويطمح إلى الامتلاء على فلسطين باب مصر الشرق ، ويحاصر الشوبك في سنة ٥٦٧ ويرفع الحصار عنها حين علم أن نور الدين يجهز الجيوش لحرب الصليبيين وكأنه خشي لقاءه ، ومع ذلك كان يعدّ نفسه تابعاً له ، وكان الخطباء في مصر يدعون في آخر خطبهم لنور الدين . وعاد صلاح الدين في السنة التالية إلى حصار الشوبك والكرّك ، ثم رفع الحصار ، وإن كان قد استولى على أيلة (العقبة) . وفي سنة ٥٦٩ يستأذن نور الدين في إنفاذ أخيه توران شاه على رأس جيش إلى اليمن للقضاء على خارجي هناك استفحل شأنه وكذلك على بقية الدعاة للفاطميين ، ويذهب إليها ويستولى عليها . وفي هذه السنة قبض على جماعة من شيعة الفاطميين كانوا يدبرون مؤامرة لقتله وكان من بينهم داعي دعاة الفاطميين وعارة اليمنى الشاعر ، وقتل داعي الدعاة وصلب عارة .

وفي هذه السنة توفي نور الدين ، وخلفه ابنه الملك الصالح إسماعيل ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، وبدا في وضوح أنه لا يصلح للنهوض بأعباء الحكم وجهاد الصليبيين . واعترف صلاح الدين بسلطانه ، وأمر بالدعاء له في خطبة الجمعة وسك النقود باسمه . ولم يبادر بالتجهيز إلى الشام لانشغاله بأسطول لنورماندي صقلية هاجم الإسكندرية وحاقت بالأسطول الهزيمة ، وأيضاً لانشغاله بثورة في جنوبي بلاد الصعيد أشعلها موالو للفاطميين يسمى الكتر ودارت عليه الدوائر . ومرّ بنا أنّما أنه أرسل أخاه توران شاه للاستيلاء على اليمن ومفاتيح البحر الأحمر ، ونراه يسيّر عسكرياً بعد عسكر إلى بلاد المغرب الأفريقي ودانت له بالطاعة برقة وقسطيلية وقفصة وتوزر مما يدل على أنه فكر مبكراً في وحدة البلاد العربية التي أرادها نور الدين . وها هو مبكراً قد أصبح

يضم سلطانه جزءاً من الشمال الإفريقي المغربي والحجاز واليمن . وجاءته الأخبار بأن نواب الملك الصالح إسماعيل يستقلون بالحكم ويتنازعون تنازعا مريراً مستعينين بالصلبيين ، فاستقر في نفسه أنه لا بد أن يفرض سلطانه على ديار الشام والموصل قبل أن يسدد للصلبيين ضرباته . وخرج من مصر في سنة ٥٧٠ بجيش كثيف ، وقصد دمشق واستولى عليها ، كما استولى على كثير من المدن الشامية . وتقاومه جنود الملك الصالح إسماعيل وابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل ويُكْتَبُ له النصر ، ويعقد صلحا مع الملك الصالح يُبْقِي له فيها حلب وحدها ، بينما تدخل الديار الشامية جميعها في سلطانه . ويعود إلى مصر سنة ٥٧٢ ويأمر قراقوش ببناء سور ضخيم حول القاهرة والفسطاط حماية لها ، ويُيَظِّل المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج بحجة ويعوض صاحب مكة عنها آلاف الأرباب قححا تفرق في أهل الحرمين ، ويأخذ في إنشاء المدارس والرباطات بالقاهرة منذ هذا التاريخ . ويعود إلى الشام في سنة ٥٧٣ وبواقع الصليبيين في غير معركة وترجح كفته رجحانا واضحا ، ويمضي إلى الشمال وديار الموصل ويستولى على كثير منها : ويعود إلى مصر ويضبط الأمور فيها ويأمر ببناء قلعة الجبل . ويأتيه الخبر بموت الملك الصالح إسماعيل ، فيخرج في أول سنة ٥٧٨ ويتم له الاستيلاء على حلب وبعض بلدان الجزيرة والموصل . وتسوّل لرايچنالد نفسه أن يهاجم مكة والمدينة من حصنه الكرك واستولى على أيلة وشحن سفنا بالرجال وآلات الحرب ، وعاثوا في البحر الأحمر وموانيه الحجازية والمصرية ، وتعقّب العادل - نائب أخيه صلاح الدين في مصر بأسطول مصرى فتك بسفنه ورجاله .

ونصل إلى سنة ٥٨٣ فيُعَدّ صلاح الدين جيشا ضخما لمنازلة الصليبيين الجنوبيين وينفخ في نفير الحرب فيأتيه المجاهدون من كل حادّب ، ويتجه نحو طبرية ، وتلتقي إحدى سراياه في شرق حيفا بجماعة من الداوئية والإمبتارية الطائفتين اللتين نذرتا أنفسهما لحرب المسلمين ، وتسحقهما السرية ويُقَتِّل قائد الطائفة الثانية . ويتجمع الصليبيون من كل مكان بقيادة جاي لوزيچنان صاحب بيت المقدس ، وتنشب بينهم وبين صلاح الدين موقعة حطين المشهورة في غربي طبرية ، ويُمَحَقُّ جيشهم محقا ، ويولى هارباً ريموند صاحب طرابلس وريئال صاحب صيدا ، ويأخذ المسلمون الصليب الأعظم صليب الصلבות ، ويقع في الأسر قادتهم وزعماءهم جاي لوزيچنان صاحب بيت المقدس وهو صاحب جبل شمالي بيروت ومهمرى صاحب تبين إلى الجنوب الشرق من صور وجبرار مقدم الداوية ورايچنالد صاحب الكرك ، وبلغ من كثرة القتلى والأسرى أن قال

أبو شامة في كتابه الروستين : « من شاهد القتل قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل » . واستعرض صلاح الدين كبار الأسرى ، ولم يكن همه إلا رايخنالده صاحب الكرك لما مر من محاولته غزو مكة والمدينة ، ولما مثل بين يديه قال له : ها أنا أنتصر منك محمد ﷺ ، وعرض عليه الإسلام ، فلم يسلم ، فسلّ خنجره وضربه ضربة قاتلة ورُميت جثته على باب الحيمة . وطمان بقية زعمائهم ، غير أنه أمر بقتل من أسروا من الداوية والإسماعيلية لحبسهم أنفسهم على قتال المسلمين . وغصّت حينئذ أسواق دمشق بأمرى الصليبيين المسترقين ، وبلغ من كثرتهم أن كان يباع الأسير منهم بثلاثة دنانير .

وعلى أثر هذه الموقعة العظيمة فتحت القلاع والمدن في فلسطين وجنوبي لبنان أبوابها لصلاح الدين الأيوبي ، فاستولى على عكا وحيفا ونابلس وبيت جبريل (بئر سبع) وغزة والرملة وبيروت وصيدا . ولم يبق في الجنوب سوى الكرك والشوبك ، وبقيت صور التي لجأت إليها فلول الصليبيين . وعزم صلاح الدين على فتح بيت المقدس ، فحاصرها وضايقها بالزحف والقتال والمنجنقات ، حتى أسلمها من كان بها من الصليبيين راغمين خاضعين في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ ونكّس الصليب الضخم الذي كانوا قد أقاموه على قمة الصخرة ، وأزيلت كل آثار الصليبيين من المسجد الأقصى وأقيمت به صلاة الجمعة بين التهليل والتكبير والضجيج بالدعاء ، وأمر صلاح الدين أن يزُين المسجد بالفُسَيْفَسَاء والرخام ، ونقل إليه منبرا فخما من حلب لا يزال به إلى اليوم . وظن أنه لم يعد في حاجة إلى جيوش ضخمة بعد انتزاع الصليبيين في صور وطرابلس وأنطاكية ، فتخفف من جيوشه وعاد كثير من عساكره إلى بلادهم ، وظلت البلاد المتبقية من فلسطين تدخل في حوزته ، مثل صفد والكرك والشوبك وحصن كوكب . واستولت عساكره على بعض الحصون في لبنان وشمال أنطاكية ، كما استولت على اللاذقية .

وأشعل سقوط القدس الحرب الصليبية من جديد ، إذ أخذ البابا يصرخ في الملوك ، وحمل الصليب لحرب المسلمين في فلسطين سنة ٥٨٧ فردريك الأول إمبراطور ألمانيا وفيليب ملك فرنسا وريتشارد « قلب الأسد » ملك إنجلترا ، ومُنيت حملة فردريك في أثناء اجتيازها آسيا الصغرى بنحائير لا تكاد تخص في الأرواح ، ولم يبق منها إلا فلول ، أما حملتا فيليب وريتشارد فقلعتا من البحر ، وحاصرتا عكا وسقطت في أيدي الصليبيين بعد دفاع مستميت من حاميتها ، وعاد فيليب إلى فرنسا ، وظل ريتشارد حتى سنة ٥٨٨ يقود الجيوش الصليبية وينازل صلاح الدين . واستولى على

بعض البلاد الساحلية ، واضطُرَّ إلى الصلح مع صلاح الدين على أن تظل للصليبيين المدن الساحلية من صور إلى يافا ، وسمح صلاح الدين للتصاري أن يزوروا القدس حُجَّاجًا عَزَلًا من السلاح . وسار صلاح الدين إلى دمشق ولم يلبث أن لَبَّى بها نداء ربه في صفر سنة ٥٨٩ فبكاه الناس وذرفوا عليه الدموع الغزار . وسنقف في غير هذا الموضع عند عنايته بالعارة واليهامرات والمدارس ، وقد أشاع الرخاء في مصر بما أسقط عن كواهل الناس من المكوس والضرائب الباهظة . وكان محبا للعدل ، وكانت سماحته في معاملة الصليبيين مضرب الأمثال بينهم ، ولا يزال مؤلفو الغرب ينوّهون بها إلى اليوم ، وكان رفيقا برعيته عطوفا على أهل العبادة والصلاح . وكان قد قسم في سنة ٥٨٢ البلاد بين أبنائه وأهله ، فأعطى ابنه العزيز عثمان مصر وجعل أخاه العادل أتابكاً له (مدبراً لدولته) وأعطى ابنه الأفضل دمشق وأعطى ابنه الظاهر حلب ، وأعطى ابن أخيه تقي الدين عمر بلدانا في شمالي الشام وميفارقين بديار بكر ، وعاد صلاح الدين قبل وفاته فجعل للعادل الموصل وديار بكر والكرك والشوبك . وتوفي فخلفه على مصر العزيز عثمان سنة ٥٨٩ وكان باراً بالرعية عادلا منصفاً ، بينما كان أخوه الأفضل في دمشق يسير في الناس هو ووزيره ضياء الدين بن الأثير سيرة سيئة ، فرأى أن يأخذها منه ، وجهاز لذلك جيشا ساربه إلى دمشق ، غير أن أخاه الأفضل استنجد بعمه العادل فأصلح بين الأخوين ، وانصرف العزيز عثمان إلى مصر ، وظل الأفضل ووزيره سادرين في غيَّها ، مما جعل العادل يكتب إلى العزيز بوجوب أخذ دمشق ، والتقىا بها سنة ٥٩٢ وأرغما الأفضل على تركها إلى صَرْخُد سنة ٥٩٤ واستخلف العزيز عثمان على دمشق المعظم عيسى ابن عمه العادل . وعاد إلى مصر يحكمها حكما رشيداً حتى توفي سنة ٥٩٥ . وخلفه ابنه المنصور وكان صبيّاً في العاشرة من عمره ، فاستقدم الجند الأفضل ليدبر له الحكم ، وما إن وضع قلمه في مصر حتى كاتب أخاه الظاهر في حلب ، مزينا له الهجوم معه على دمشق وأخذها من ابن عمهما المعظم عيسى ، والتقى جيشاهما هناك ، ولكن العادل عرف كيف يوقع بينهما ، وعاد الأفضل بمنوده إلى مصر ، فتبعه عمه العادل ، وعرض عليه أن يترك القاهرة ويأخذ ميفارقين وديار بكر ، ولم يجد بداً من القبول ، وسرعان ما أخذ العادل فتوى من الفقهاء بأنه لا تجوز ولاية الصغير على الكبير ، وعند ذلك قطع في سنة ٥٩٦ الدعاء في خطبة الجمعة للمنصور ، وأمر بالدعاء له ولابنه الكامل من بعده .

وأصبح العادل منذ هذا التاريخ حتى سنة ٦١٥ سلطانا لمصر ، مع ما كان بيده من فلسطين ودمشق والجزيرة وديار بكر والموصل . ولما استقامت له الأمور في كل تلك الدولة قسمها بين

أولاده ، فأعطى ابنه الكامل محمدًا الديار المصرية . وأعطى ابنه موسى البلاد الشرقية وراء الشام وشركه فيها إلى وفاته أخوه الأوحـد . وأعطى ابنه المعظم عيسى دمشق . وسبّر السلطان الكامل من مصر ابنه المسعود إلى اليمن سنة ٦١٢ فملكها . وبذلك دخلت في حوزة العادل الحجاز واليمن وكل البلاد التي أظلمها لواء صلاح الدين ، وكان محثوكا محسنا لتدبير الحكم ومياسة الملك ، وكان فارسا مجاهدًا أبلى بلاء حسنًا مع أخيه صلاح الدين في الحروب الصليبية ، وكان تقيا وقد طهر ولاياته من الخمر وكل ما يجر إلى الفسق والإثم . وسار سيرة أخيه في رفع المكوس والمظالم ، وله صنف فخر الدين الرازي كتابه « تأسيس التقديس » وسيّره إليه من خراسان . وتضاءلت في أيامه الحروب الصليبية ، وفي سنة ٦٠٩ يغزو الصليبيون دمياط ويُردون على أعقابهم . ويعيدون الكرة في سنة ٦١٥ ويتفق أن يتوفى العادل ويخلفه الكامل في مصر نهائيا ويشغل من بعض الوجوه بتدبير الحكم ، ويظل الصليبيون بدمياط نحو ثلاث سنوات يعيثون فسادًا ، وتسوّل لهم شياطينهم أن يتقدموا في البلاد مع فرع دمياط نحو المنصورة ، وكان النيل في قفة فيضانه ، فسلبط المصريون مياهه عليهم ، وأيقنوا الهلاك فراسلوا السلطان الكامل طالبين منه الأمان حتى يرحلوا عن دمياط مدحورين ، وتسلم منهم دمياط في رجب سنة ٦١٨ وكان يوما مشهودًا ، نعتّى به الشعراء طويلا . ودانت للكامل دمشق سنة ٦٢٦ وكذلك البلاد الشامية والشرقية وكان ابنه المسعود قد استولى على الحجاز واليمن . ويروى بعض من حضروا الحج بمكة سنة ٦٢٠ أن الخطيب هناك دعا للملك الكامل ، فقال : « صاحب مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والجزيرة ووليدها » . وما زال نجمه متألقا حتى توفي سنة ٦٣٥ .

وكان الكامل قد جعل ابنه الأكبر نجم الدين أيوب على الشرق وإقليم ديار بكر ، وجعل ابنه الأصغر العادل على مصر والديار الشامية ، وكان في الثامنة عشرة من عمره ، فلم ير الأمراء بدءًا من توليته حسب رغبة أبيه ، وعظم ذلك على نجم الدين أيوب ، فزحف بجيشه إلى دمشق واستولى عليها ، ثم سار متوجها إلى الديار المصرية ، وحفلت رحلته بأحداث كثيرة ، حتى إذا وصل إلى مصر قبض على أخيه العادل وأعلن نفسه سلطانا على مصر سنة ٦٣٧ . وكان قد أكثر من شراء الممالك . وبنى لهم قلعة الروضة في سنة ٦٣٨ وأنشأ فيها دورًا وقصورًا كثيرة وعمل لها ستين برجًا وبنى بها مسجدًا واتخذها دار ملكه وسكنها بأهله وأسكن معه فيها ممالئكة البحرية . وكان أبناء عمومته وإخوته قد خرجوا عليه في الشام واستولى عمه الصالح إسماعيل على دمشق واستعان بالصليبيين وسلم إليهم القدس وطبرية وعسقلان . فزحف السلطان نجم الدين أيوب بجيش كثيف

إلى الشام في سنة ٦٤٢ واستولى على بيت المقدس من الصليبيين وأفناهم قتلاً وأسراً ، واسترد دمشق ، وعادت له مملكة جده العادل بكاملها حتى حلب والموصل والجزيرة . وبينما كان في دمشق سنة ٦٤٧ مرض في أولها ، وبينما هو مريض علم بغزو الصليبيين لدمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقدّيس ، وأنهم أحاطوا بدمياط من جميع جوانبها وسقطت في أيديهم وأنهم خرجوا منها في اتجاه مدينة المنصورة ، فصمم على لقائهم والمرض يثقل عليه وحُمِلَ إلى مصر في محفّة ، وزحف بجيشه مسرعاً إلى تلك المدينة ولم يمِهلِه المرض بها ، فمات مئة الشهداء مجاهداً في سبيل الله . وأخذت زوجته شجرة الدر وفاته حتى يحضر ابنه الملك المعظم توران شاه من الجزيرة شرق الشام ، وأخذت له البيعة بالسلطنة وهو غائب ، وقدم إلى المنصورة وأدار بمجرد قدومه في أول المحرم لسنة ٦٤٨ معركة حاسمة مع الصليبيين مرّفهم فيها شرمزق ، وكانوا بوسط الطريق بين دميّاط والمنصورة ، فقتل منهم بضعة آلاف وأسر أكثر من عشرين ألفاً بينهم لويس التاسع ، وحملته إلى المنصورة مركب في النيل تضرب فيها الصنوج والطبول بينما الأسرى يُجرّون بالحبال على ضفتي النهر والمصريون يهللون ويكبرون من حولهم . ويسجن لويس في المنصورة بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء . ومن عجب أن يكافأ توران شاه على هذه الموقعة الباسلة التي قضى فيها قضاءً مبرماً على أكبر حملة صليبية وُجّهت إلى مصر باغتيال ممالك أبيه له ، وكان لويس لا يزال في الاعتقال فافقدى نفسه وقول حملته بأموال وفيرة ، وعاد إلى بلاده خاسئاً ذليلاً .

واجتمع رأى الممالك على تولية شجرة الدر الملك بعد توران شاه ، وكانت جارية تركية اشتراها السلطان نجم الدين أيوب وأعتقها وتزوجها ، وكانت راجحة العقل حسنة السيرة جيدة التدبير ، فاتفق الممالك على أن تلى شؤون السلطنة ، وتم أمرها ، غير أن الأيوبيين في الشام سرعان ما خرجوا عليها ، فانتقضت الوحدة التي انعقدت بين الشام ومصر منذ انقراض الحكم الفاطمي ولم يمض على سلطنتها نحو ثمانين يوماً ، وأحسّت بحرج الموقف ، فرأت التزوج من عز الدين أيبك أتابك العسكر وأن تتحول مقاليد السلطنة إليه . وحاول - خداعاً للأيوبيين في الشام - أن يشرك معه في الحكم صيماً أيوياً هو الملك الأشرف موسى ، وكان في السادسة من عمره ، ولكنه عاد فتخلص منه . وعلى هذا النحو تحول ملك الديار المصرية في سنة ٦٤٨ من الأيوبيين إلى الممالك وقائدهم أيبك ، ولا ريب في أن عهد الأيوبيين كان من أعظم العهود بمصر ، فقد نهضوا بها نهضة عظيمة واستطاعوا بجنودها أن يقهروا الصليبيين ويزحومهم عن صدر الشام ، ويردوهم عن ثراها وجماها إلى البحر المتوسط وما وراءه .

الممالك - العثمانيون

(١) الممالك^(١)

أخذ خلفاء صلاح الدين يستكثرون من شراء الممالك الترك وجلبهم من أواسط آسيا وتكوين فرق عسكرية منهم في جيوشهم ، وأكثر منهم خاصة السلطان نجم الدين أيوب ، وكان الأيوبيون لم يتعطلوا بما كان من هؤلاء الترك في العصر العباسي الثاني واستيلائهم على مقاليد الحكم في بعض الولايات الكبرى كما حدث في مصر نفسها لعهد أحمد بن طولون والإخشيد التركيين . وما إن توفي السلطان نجم الدين أيوب وخلفه ابنه توران شاه حتى استولى المالك على صولجان السلطان باسم شجرة الدر التركية ، وسرعان ما أسلمت الحكم والسلطان - كما مرَّ بنا آنفاً - إلى عز الدين أيلك قائدهم . وظل المالك من هذا التاريخ وهو سنة ٦٤٨ يحكمون مصر إلى الفتح العثماني سنة ٩٢٢ في مجموعتين كبيرتين تسمى أولاهما المالك البحرية نسبة إلى نهر النيل الذي كان يحيط بجزيرة الروضة مسكنهم الذي أنزلهم فيه السلطان نجم الدين أيوب . وكانوا يستكثرون من شراء الممالك ويتزولونهم في أبراج القلعة حيث يربون تربية عسكرية جيدة ، ويسمون نسبة إلى مسكنهم المالك البرجية ، وهم المجموعة الثانية التي خلفت المالك البحرية في حكم مصر منذ سنة ٧٨٤ . تولى عز الدين أيلك شئون مصر سنة ٦٤٨ ورأى كما أسلفنا أن يشرك معه في الحكم الملك الأشرف موسى محاولة لكسب رضا الأيوبيين في الشام ولكنهم ظلوا مغاضبين له ، وأخذوا في حربه ، حينئذ رأى أن يتخلص من الأشرف موسى. وحدثت جروب ومناوشات بينه وبين الأيوبيين ، وارتضوا أخيراً أن تكون له مصر وفلسطين حتى نهر الأردن ، غير أن شجرة الدر زوجته

(١) انظر في الممالك السلوك والخطط للمقريزي والمختصر في أخبار البشر لأبي الفدا والبدایة والنهاية لابن كثير وتاريخ ابن خلدون والنجوم الزاهرة الجزء السابع وما بعده من أجزاء وبدائع الزهور لابن إياس والتبر المسبوك في ذيل السلوك للسخاوي ومجالس السلطان الغوري وآخرة الممالك لابن زنبيل وتشريف الأيام والمصور في سيرة الملك المنصور (طبع

القاهرة) وتاريخ الدول والملوك لابن الفرات (طبع بيروت) وغزوات قبرص وروص للسيوطي (طبع فينا) والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر والضوء اللامع للسخاوي ودولة الظاهر ودولة بني قلاوون لجمال الدين سرور والعصر المالكي لسعيد عبد الفتاح عاشور وبروكلمان ص ٣٦٥ وما بعدها .

شكّت في إخلاصه لها ، فدبرت مؤامرة ضده سنة ٦٥٥ فمات مقتولا ولم تلبث أن لقيت نفس المصير ، وتولى زمام الحكم السلطان المنصور على بن أيك حتى سنة ٦٥٧ وكان قُطز أتابكاً له فقبض عليه واستولى على مقاليد الحكم . وكان التتار قد استولوا في العام السابق على بغداد ونكلوا بها تنكيلا فظيعا ومضت زخوفهم بل سيولهم تتقدم إلى الشام وأخذت تهبط إلى الجنوب فعمد قُطز إلى مملوك عظيم من ممالك السلطان نجم الدين أيوب هو بيبرس في قيادة طليعة الجيش حتى إذا انتهى إلى عين جالوت بين بيسان و نابلس سنة ٦٥٨ أصدر أمره إلى بيبرس أن يتابع سيره تجاه التتار وأخفى بقية الجيش بين الأحراش والأشجار المحيطة بعين جالوت . والتحم بيبرس بالتتار وأظهر بسالة نادرة في حربهم ، وتبعه الجيش يستبسل بقيادة قُطز ، منزلا بالتتار ضربات قاصمة حتى اضطروا إلى الفرار مولّين وجوههم إلى الشمال لا يلوون ، تاركين وراءهم ما لا يكاد يحصى من الغنائم والأسرى . وتعدّ هذه المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ ، إذ صدّت التتار نهائيا عن مصر والشام ، وقد ثبتت أقدام الممالك لافي حكم مصر وحدها ، بل لقد انصوت الشام جميعها تحت لوائهم ، ويقتسم شرفها بحق قُطز وبيبرس . وليبرس فيها الشرف الأكبر ، إذ كان على طليعة الجيش ، واستطاع أن يقتحم بطليعته صفوف التتار ، ويزلزل أقدامهم ويحدث الفوضى في عساكرهم . حتى إذا تم هذا النصر المبين ظن أن قُطز سيكافئه عليه مكافأة كبيرة ولم يلبث أن طلب منه نيابة حلب ، ولكن قُطز لقصّر نظره بخل عليه بها ، فكان طبيعيا أن يدبر مؤامرة ضده في أثناء قفوله إلى مصر ، وواتته الفرصة فقتله ، وانتخبه أمراء الممالك وقوادهم سلطانا على الديار المصرية والشامية ، وتلقب باسم الملك الظاهر .

وكان بيبرس سلطانا حازما على الهمة شديد البأس بعيد النظر يحسن تدبير الملك وسياسته ، فرأى أن انتصار عين جالوت وحده لا يكفي في تثبيت سلطانه ، وانتهاز ظهور أمير عباسي بدمشق قرّ من التتار فاستدعاه إلى القاهرة ، حتى إذا تأكد نسبه إلى بنى العباس بايعه هو والناس بالخلافة في حفاوة بالغة ، ولم يلبث هذا الخليفة العباسي أن قلّده سلطنة مصر والبلاد الشامية وغيرها مما يظله سلطانه . وبذلك ثبت عرشه ووطد سلطانه ضد أى محاولة قد يحاولها أحد الأيوبيين لاستعادة ملك آباؤه . وظلت الخلافة العباسية قائمة بمصر طوال حكم المالك إلى أن أخذ السلطان سليم الأول العثماني آخر خلفائها معه إلى القسطنطينية ، وأخذ سلاطين آل عثمان يتقلدون الخلافة على المسلمين إلى أن أزالها مصطفى كمال أتاتورك كما هو معروف . وأتاح وجود هذه الخلافة العباسية الاسمية بالقاهرة للظاهر بيبرس ومن خلفه من الممالك أن يعدّوا أنفسهم حماة الخلافة والإسلام ، وأفادوا

من ذلك سيطرتهم على الحجاز والحرمين ، ووضع يبرس تقليدًا أن يسافر محملًا إلى مكة سنويا يحمل الكسوة الشريفة ، وهو تقليد لا يزال قائمًا إلى اليوم . وعُني بوضع نظام دقيق للإدارة في مصر والشام كما عني بالبريد ، فكان الخبر يصل من دمشق إلى القاهرة في ثلاثة أيام . وظل طوال حكمه يُعَدُّ جيوشه ويزحف بها لحرب الصليبيين والتار وغزو أرمينية والسلاجقة بآسيا الصغرى وغزو النوبة في الجنوب . أما الصليبيون فاستولوا على كثير من قلاعهم وحصونهم ومدنهم مثل قيسارية وأرسوف وصفد وتبين والرملة ويافا وحصن الأكراد والقرين القريبة من عكا وصافيتا وصفاء والشقيف . ولم يلبث أن استولى على أنطاكية سنة ٦٦٧ فاهارت المملكة الشمالية التي كان قد أقامها الصليبيون ، ومعروف أن زنكى استولى من قديم على مملكتهم القديمة الرُّها واستولى بعده صلاح الدين على مملكتهم في بيت المقدس . وما زال الظاهر يبرس ذاهبا آيبا من الفرات لحرب التار وسحقهم ، وغزا السلاجقة في آسية الصغرى ، وفتح أرمينية الصغرى مرتين واستقصى فتح حصون الإسماعيلية بالقرب من اللاذقية ، وفتح دنقلة كرسى بلاد النوبة ، ودانت له بالطاعة . ومن أهم أعماله أنه أقام في سنة ٦٦٣ لكل مذهب من المذاهب السنية الأربعة : المذهب الحنفى والمالكي والشافعى والحنبل قاضيا ، وظل العمل بذلك جاريا في عصر الماليك ، وفي أيامه سنة ٦٧٥ طافوا بالمحمل وبكسوة الكعبة المشرفة بالقاهرة ، وكان يوما مشهودًا ، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية . وشيد مسجداً كبيراً بالقاهرة لاتزال أطلاله قائمة إلى اليوم . وهو يُعَدُّ من أبطال مصر والعرب العظام أمثال صلاح الدين ، ويعد عصره من العصور الإسلامية الذهبية ، وظلت بطولته في حروب التار والصليبيين عالقة بالأذهان أزمنة طويلة ، وألفت حولها قصة مشهورة ، وما زالت الأجيال تريد فيها إيماناً بفروسيته الخارقة . وقد توفى سنة ٦٧٦ بدمشق ودُفِن بها ، وتولى بعده ابنه الملك السعيد ، ولم يكد يدور به في الحكم عامان حتى ثار عليه أمراء الماليك وخلعوه وولوا أخاه بدر الدين سلامش وكانت سنة لا تتجاوز السابعة . وجعلوا قلاوون أتابعًا له .

وسرعان ما استغل قلاوون الفرصة ، فاستخلص الملك لنفسه ، وتلقب باسم السلطان المنصور ، وهو من أعظم سلاطين الماليك حزما وعزما وتديبًا وبأسا ، وقد اتبع سياسة الظاهر يبرس في الإيقاع بالتار والصليبيين أما التار فنازلهم مرارًا وأنزل بهم خسائر فادحة حتى رضخوا وطلبوا منه الصلح مدحورين ، وأما الصليبيون فقد صمم على إزالة مملكتهم الرابعة والأخيرة في طرابلس ، ونازلها سنة ٦٨٨ وفتحها قهراً بالسيف ، وملك ما جاورها من القلاع والبلدان مثل

جيل وببروت . وكان قد حدث شغب في بلاد النوبة ، فذهب إليها بعض قواده ورماً ما بها من شغب . وتوفي سنة ٦٨٩ وظل الملك في أبنائه وأحفاده نحو مائة عام ، وخلفه ابنه الأشرف خليل ، وكان شجاعاً وبطلاً مغواراً ، فصمم على طرد الصليبيين من الشام ، فجمع عساكره وتوجه إلى عكا فوصلها في يوم واحد ويسر الله له فتحها في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠ وكان الصليبيون استولوا عليها بأخرة من أيام صلاح الدين في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ وقتلوا المسلمين بها ، فثار لهم السلطان خليل وقتل من كان بها من الصليبيين حين فتحها . وانحلت عزائم الفرنج بعد عكا وأخذ السلطان خليل صور وصيदा وحيفا واستسلمت قلاع الصليبيين الأخرى ، وتطهرت البلاد من رجسهم وإثمهم ، فلم تبق لهم في الشام بلد ولا قلعة ولا قرية ولا جزيرة .

والعجب أن يكافئ المالك السلطان خليلاً على هذا العمل الباسل العظيم جزاء السلطان المعظم توران شاه بعد واقعة المنصورة ، فيآمرؤا على قتله ، وتنجح مؤامرتهم سنة ٦٩٣ ويخلفه أخوه الناصر محمد ، وهو لا يجاوز التاسعة من عمره ، ويعين كاتباً نائباً له ، وما يكاد يدور العام حتى يستولى على السلطنة ، ويقتصبها منه بعد عامين لاجين ، وتعود بعد عامين آخرين إلى الناصر محمد بن قلاوون سنة ٦٩٨ . وتنشب حروب بينه وبين تار العراق ، وتزجج كفتهم ويستولون على دمشق وغيرها من مدن الشام ويعيثون فيها فساداً . ولا يلبث الناصر محمد أن يجمع لهم جيشاً كثيفاً سنة ٧٠١ وينازلهم في مرج الصفر بالقرب من دمشق ويسحق جموعهم سحقاً ، وتولى فلولهم الأدبار نحو العراق وبغداد لا تلوى على شيء . ويأخذ كبار المالك في التنافس حول السلطة ويخشي الناصر محمد أن يفتكوا به فيذهب إلى الحج ويعتزلهم في الكرك جنوبي الأردن ، ويرسل إليهم بكتاب يعلن فيه تنازله عن الحكم ، ويتفق المالك على تولية ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٨ ولا يدور العام حتى يعود الناصر محمد إلى سلطته ويتولى الحكم في مصر والشام للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ . وكان المصريون يحبونه حباً شديداً ، وكان عهده عهد رخاء عظيم ويتضح في كثرة المنشآت التي أسسها من مدارس ومساجد وخانقاهات . وبلغت الدولة في عهده أوج مجدها ، فقد قضى أبوه وأخوه ، كما قلنا ، على الصليبيين نهائياً ، ولم تبق منهم باقية ، وانتصر هو على التتار في ولايته الثانية على مصر انتصاراً حاسماً . وعقدوا معه صلحاً سنة ٧١٩ ولم يعودوا يفكرون في الغارة على الشام .

ويظل الناصر في الحكم حتى سنة ٧٤١ ويخلفه أبنائه وأحفاده حتى سنة ٧٨٤ وتعود مصر

أويعد الحكم في مصر ثانية إلى ما حدث في الدولة الفاطمية من عواقب وخيمة لأن يصبح الحكم وراثيا . ويكفى أن نعرف أن ثمانية من أبناء الناصر تولوا الحكم إحدى وعشرين سنة مما يعنى عدم الاستقرار ، وكان منهم من يعيش للهو وسماع المغنيات مثل السلطان الصالح إسماعيل والسلطان شعبان ، ومثل السلطان زين الدين ، وكان في الحادية عشرة من عمره ، وفي نفس السن تولى أخوه السلطان حسن وفي عهده انتشر وباء الطاعون بالقاهرة . وتخلفه فترة يحكم فيها أحفاد الناصر لمدة عشرين عاما ، وكثير منهم كان صبيًا ، كما ذكرنا ، فكان طبيعياً أن يفسد الحكم في عهدهم فساداً شديداً . وفي سنة ٧٦٦ سؤلت لحاكم قبرص بطرس لوزينخان شياطينه أن يغير على الإسكندرية ، فأغار عليها لمدة ثلاثة أيام ، ثم ولّى بمن معه هارباً حين علم باقتراب الجيش المملوكي .

وطبيعى وقد فسد حكم آل قلاوون فساداً لاصلاح له بعده ، أن يحاول المالك التخلص من هذا الحكم ، وكانت مجموعة المالك البرجية قد أخذت تظهر على مسرح الحوادث ، وأخذوا يسيطرون على أداة الحكم منذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون ، وأخذ نجم برقوق من بينهم يعلو في سماء مصر ، وما زال يدبر للأمر هو وأعوانه حتى أطاحوا بأحفاد قلاوون وتسلم مقاليد الحكم سنة ٧٨٤ وظل في أيدي المالك البرجية إلى نهاية الدولة المملوكية ، وكان أديباً يهتم بمجالس الأدب والعلم ، وخلفته طائفة من المالك البرجية مثل شيخ وبرسباى وجقمق وقايتباى والغورى . وظل برقوق على رأس الدولة حتى توفي سنة ٨٠١ إلا ما كان من سنة واحدة أبعد فيها عن الحكم وهي سنة ٧٩١ وسرعان ما عاد إليه . وتكثر في زمن هذه الدولة البرجية المنافسات بين الأمراء ، كما يكثر فرض الضرائب على الشعب . وهبُّ بأخرة من حكم برقوق إعصار تارى جديد ، يقوده تيمورلنك ، وينزل الإعصار بالعراق والموصل ويستصرخ الحكام هناك برقوق ، ويشغل تيمورلنك بغزو الهند حيناً ، فيعلن أحمد بن أويس حاكم بغداد تبعيته لبرقوق رجاء أن يحميه من الطاغية المغولى ، ويكتب له برقوق تقليداً أو مرسوماً بنيابته عنه في بغداد ويزوده بالمال والعتاد والرجال ، ويعود تيمور سريعاً ويستولى على بغداد . وفي هذه الأثناء يتوفى برقوق بينما ينتجه تيمور بجيشه إلى الشمال يريد الاستيلاء على الشام ، ويستولى على حماة وحمص وبلبك ، وكان ممالك برقوق قد ولوا عليهم ابنه فرجا ، فخرج على رأس جيش للقاءه ولكنه هزم بالقرب من دمشق سنة ٨٠٢ ودخل تيمور دمشق وظل جنوده فيها مدة يهبون ويسلبون ويأتون من الفطائع ما صورته ابن عرشاه في كتابه عجائب المقدور في نواب تيمور ، مما اضطّر السلطان فرجا إلى قبول الصلح

معه ، وبارح تيمور الشام سريعاً إلى آسيا الصغرى وأنزل بالسلطان بايزيد العثماني ضربة قاصمة ، وعاد إلى بلاده . وسرعان ماتوفى وتمزقت دولته بين ورثته ، وكفى الله المالك وديار مصر والشام شره وخطره .

ويحتدم التنافس بين أمراء المالك البرجية ويستخلص الحكم لنفسه المؤيد شيخ سنة ٨١٥ وله عمائر كثيرة أشهرها جامع المؤيدى ، ويقال إنه لم يُبْنَ فى الإسلام أكثر زخرفة منه بعد الجامع الأموى بدمشق ، وتوفى سنة ٨٢٤ . وبويع ابنه المظفر أحمد وله سنة واحدة وثمانية أشهر ، فكان طبعياً أن يستولى على الحكم بعض الأمراء ، ويتولى سلطانتان ، ويخلفهما السلطان برسباى سنة ٨٢٥ ومُرَّ بنا غزو حاكم قبرص بطرس لوزيخان للإسكندرية سنة ٧٦٦ وكان القبارصة كثيراً ما يتعرضون فى البحر المتوسط للسفن المصرية والشامية ، فصمم برسباى على أخذ قبرص وأرسل لها ثلاث حملات ، استطاعت ثالثها أن تستولى عليها من جميع أنحائها ، وعادت الحملة بغنائم وأسرى كثيرين وبهاكم قبرص مقيداً فى الأغلال ، وقبِّل الأرض بين يدي برسباى ، وتعهَّد أن تظل جزيرته موالية لمصر وأن يكون نائباً فيها للسلطان ، وعاد إلى جزيرته عقب ذلك سنة ٨٣٠ بعد أن دفع دية كبيرة وبعد أن التزم بأن يؤدى لمصر سنوا عشرين ألف دينار جزية . وخلف برسباى ابنه العزيز سنة ٨٤١ لمدة عام ، ولم يلبث الأمير جقمق أن عزله ، وتولى الحكم سنة ٨٤١ وحاول أن يكتسب مجدداً حريئاً كمجد برسباى ، فوجه ثلاث حملات إلى جزيرة رودس ، ولكنها لم توفق جميعاً إلى الاستيلاء عليها ، ويتوفى سنة ٨٥٧ . وتكثر المنازعات بين أمراء المالك البرجية . ويستخلص الحكم لنفسه قايتباى سنة ٨٧٢ وكان شديد الرأى شجاعاً ساهراً على دولته المترامية الأطراف ، منتقلاً فيها من القاهرة إلى مدن الفرات إلى مكة والمدينة ، ويبدو أنه كان يعنف فى جمع الأموال والضرائب ، وكان يهتم ببناء المدارس والمساجد وترميم المنشآت . وظل حاكماً للدولة تسعة وعشرين عاماً إذ توفى سنة ٩٠١ . وخلفه أربعة سلاطين حكموا مدداً قصيرة ، واختار أمراء المالك بعدهم قانصوه الغورى سنة ٩٠٦ ، وهو من خيرة سلاطين المالك البرجية ، وكان شاعراً واشتهر بمجالسه الأدبية . وكان طاعناً فى السن ، بينما كان يترأى فى الأفق شبح عدوين كبيرين يهددان مصر والمالك بالخطر الجسيم ، أولهما خطر البرتغال واكتشاف فاسكودى جاما طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند منذ سنة ٩٠٣ مما آذن بتحول زمام تجارة توابل الهند من أيدي المصريين إلى أيدي البرتغاليين ، وضياح ماكانت تأخذه مصر من ضرائب ورسوم على هذه التجارة فى طريقها إلى أوروبا وتغور البحر المتوسط . وأخذ البرتغاليون يناوشون

العرب في جنوب الجزيرة العربية ، أو قل إن العرب هم الذين بدءوا بهذه المناوشات ، ووقف الغورى معهم وانتصروا في موقعة بحرية عليهم . غير أن البرتغاليين مضوا يعيدون الكرة ، وهاجموا مدينة عدن ونزلوا في بعض الجزر الواقعة بالقرب من باب المندب وأصبحوا يهددون مدينة عدن واليمن جميعها ، فأرسل إليهم سريعا قانصوه الغورى نجدة طردت البرتغاليين من هذه الأنحاء ، واستدارت تحتل اليمن حتى تظل مصر حارسة لها .

وتهدد مصر خطراً أكثر جسامه ، فإن العثمانيين كانوا قد استولوا على القسطنطينية وأخذ نجمهم في الصعود ، وسمعا بما أنزله إسماعيل الصفوى بأهل السنة في بغداد من سفك للمائهم وقسوة متناهية فأعلنه سليم الأول بالحرب وانتصر عليه في سنة ٩١٤ واستولى منه على الجزيرة والموصل وديار بكر وأعاد سليم الكرة فهزم إسماعيل الصفوى سنة ٩٢٠ . وعرف أن قانصوه الغورى كان قد عقد معه حلفا ، فصمم على منازلته ولم يكن ذلك غائبا عن قانصوه فجد جيشا كثيفا ومضى به إلى شمال سوريا لرد العدوان ، إن حدث ، في حينه ، وأرسل إلى سليم يطلب إليه عقد معاهدة صلح بينهما فرد رسله ردا سيئا ، ولم تلبث أن نشبت بينهما معركة مرج دابق شمال حلب سنة ٩٢٢ ودارت الدوائر على قانصوه وجيشه ، وقُتل وهو يلوذ بالفرار . ولم تكن تنقص جيش المالك الشجاعة ، إنما كان ينقصه سلاح مهم استخلمه العثمانيون في المعركة هو سلاح المدفعية ، فكان طبعياً أن تكون لهم الغلبة ، وفتحت مدن الشام أبوابها لسليم ، ودخل دمشق . ويبدو أنه كان يريد أن يدع للمالك مصر ويكتفى بممتلكاتهم في آسيا ، فكاتب خليفة قانصوه في مصر طومان باى يعرض عليه أن يترك مصر له وللمالك على أن يعترفوا له بالسيادة ، فيخطب له ، وتضرب السكة باسمه . ولكن طومان باى أبى ذلك وأخذ يستعد لحربه ، وأحس بتخاذل المالك من حوله ، بينما كان سليم يتقدم نحو مصر ودخل حدودها واتجه إلى القاهرة ، والتقى بجيش طومان باى بالقرب من العباسية على أبواب القاهرة وأنزلت مدفعيته به هزيمة ساحقة ، وفر طومان باى . وحل سليم القاهرة في اليوم التالى وكان أول يوم جمعة في شهر المحرم لسنة ٩٢٣ فدعى له في الخطبة ، وسلم قصر طومان باى بعد قتال عنيف أما هو ففر إلى الصعيد ثم إلى الدلتا واشتبك مع العثمانيين في بعض مناوشات خاسرة ، ولم يلبث أن سلم غدرا إليهم ، فأمر السلطان بشقه على باب زويلة . بذلك انتهى حكم المالك لمصر وتقوضت دولتهم .

(ب) العثمانيون^(١)

مكث السلطان سليم في مصر بعد فتحه لها نحو ثمانية أشهر ، ذاق فيها المصريون ألوانا كثيرة من الظلم والمحن ومصادرة الأموال وأيضاً مصادرة العلماء ورجال المهن والفنون والصناعات ونقلهم في السفن إلى القسطنطينية ، وقد نُقل كثير من التحف والآثار الرائعة من المساجد ومن قصور الممالك حتى الرخام كانوا يترعون . وكأنما وضع سليم خطة أن يحرم مصر من كل ما كان بها من تراث فني غير ما حمله من كتب لاتزال تزرع بها مكتبات القسطنطينية إلى اليوم . وهكذا جُردت مصر من علمائها وفنّانها وتراثها الفكري والفني ، وعاشت حقبة سوداء امتدت إلى نحو مائتين وتسعين عاما ، وحتى الخلافة الإسلامية التي كانت تتيح لها زعامة أوشيتا من الزعامة في العالم الإسلامي سلبها منها سليم ، إذ دفع المتوكل على الله آخر خلفاء بني العباس في مصر إلى أن يتنازل له عن الخلافة ، ويقال إنه تقلدها في مصر ، ويقال بل بعد ذهابه معه إلى القسطنطينية .

وجعل سليم على مصر نائبا له أو واليا ، كان بلقب بالباشا ، ويتخذ القلعة مقراً له طوال حكم العثمانيين لمصر ، ولم ينفرد بالحكم ، فقد أشرك معه سليم - وظل ذلك ساريا بعده - قادة الجند العثمانيين الذين تركهم بعده في مصر ، وأيضاً أشرك معه حكام مديريات القطر أو أقاليمه . وقد اختارهم سليم جميعاً من الممالك ، وكأنه رأى أن يشركهم في الحكم ، للإشراف على شئون الأقاليم . ولم يلبث أن توفي سليم ، وخلفه أخوه سليمان سنة ٩٢٦ وفي أيامه استقر نظام حكم العثمانيين السياسي لمصر بحيث كان بها وال له الإشراف العام على شئونها المختلفة ، ومعه ديوانان : ديوان كبير مؤلف من السردار ورئيس الفرق العسكرية والدفتدار (مدير الخزانة) والروزنامجي (حافظ السجلات) وأمير الحج وقاضي القضاة ورئيسهم ونقيب الأشراف ورؤساء المذاهب الأربعة وبعض رؤساء الممالك أو كبيرهم . ويجانب هذا الديوان ديوان صغير كان يتألف من الكتخدا (نائب الوالي) والدفتدار والروزنامجي ومندوب عن كل فرقة من الفرق العسكرية .

القومية في مصر وظهور محمد علي لعبد الرحمن الرافعي
ومقدمة تاريخ العرب الحديث لعبد الكريم غرايبة والخطط
التوفيقية لعل مبارك (طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب)
١٤٦/١ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان
ص ٤٤٨ .

(١) انظر في العثمانيين آخره الممالك لابن زنبيل وبدائع
الزهور لابن إياس وأخبار الأول فيمن تصرف في مصر من
الدول للإسماعيلي وتاريخ الجبرق والبلاد العربية والعمولة
العثمانية لساطع المصري والحملة الفرنسية وظهور محمد
علي لمحمد فؤاد شكرى والمجزء الأول من تاريخ الحركة

وكان الديوان الصغير ينعقد كل يوم ويبلغ قراراته إلى الوالى ، وبالمثل كانت قرارات الديوان الكبير تبلغ إلى الوالى ويعمل على تنفيذها جميعاً .

وظل المالك - منذ سليم - يمثلون في البلاد سلطة ثالثة بجانب سلطى الجند والوالى ، إذ جعلوا حكاما للأقاليم ، وكان كل منهم يسمى سنجقا : اسما تركيا . كان فى الأصل يعنى البيرق ، إذ كان السنجق عادة يتسلم بيرقا فسّمى باسمه وسميت مديريته باسم السنجقية ، وأعطوا أيضا لقب بك ، فكان هناك الوالى الباشا والسنجقة المالك البكوات ، وكانوا يشرفون على مديرياتهم من الناحيتين الإدارية والمالية ، وكان لهم نواب يسمون الكُشّاف جمع كاشف . وكان يتبع الكشاف المتزعمون وهم من التزموا بدفع ضرائب معينة عن قرية أو قرى ، وكانت للمتزمين سلطة واسعة على الفلاحين فهم يعتصرونهم اعتصاراً دون شفقة أو رحمة ، والفلاحون يتصبّبون عرقا لكى ينعم المتزعم والكاشف والسنجق ، وما يزالون يثقلون عليهم بالضرائب والإتاوات ويزهقونهم من أمرهم عسرا ، حتى أصبحوا يعانون ما لا يطاق من البؤس والفاقة . وبذلك كسدت الزراعة ، كما كسدت التجارة منذ استولى العثمانيون على مصر وكشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح وتحولت تجارة أوروبا والهند إليه . وزاد الأمور سوءا أن العثمانيين اتبعوا سياسة مستمرة أن لا يظل الوالى فى مصر إلا مدة قليلة قد تكون عاما وقد تكون أقل من عام ، فلم يشعر الولاة بشيء من الاستقرار ، وكأنهم كانوا يحيثون ليدخروا لأنفسهم شيئا من مال، وكانوا يذهبون دون أن يفكروا فى أى إصلاح ، ويكفى أن نعرف أنه حكم مصر حتى مجىء نابليون مائة وخمسون واليا عثمانيا .

وكانت الدولة العثمانية قد أخذت تضعف منذ القرن الثانى عشر الهجرى أو السابع عشر الميلادى ضعفاً شديداً فأخذ سلطان السناجق المالك يقوّى ، وخاصة أنه كانت يدهم أزمة الشئون الإدارية والمالية فى البلاد ، وأيضاً فإن العثمانيين كانوا يتخذون منهم فى القاهرة زعما لهم يسمونه شيخ البلد ، فأخذت مشيخته أو سلطته تقوّى ، حتى غدا مناظراً أو مائلا للوالى العثمانى . وبلغ من سلطان شيخ البلد وماليكه أن كانوا أحيانا يعزلون الولاة ، وربما جاءهم وال لا يرضونه ، فكانوا يمتنعون عن تهنته ، ولا يحضرون قراءة المرسوم بتوليته ، حينئذ لا يجد بداً من حمل حقائبه والعودة إلى القسطنطينية فكان طبيعياً أن يفكر بعض شيوخ البلد من زعماء المالك فى الاستقلال بمصر ، وتولى على بك الكبير مشيخة البلد ، وصمم على الاستقلال ، ولم يلبث أن خلع الوالى التركى سنة ١١٨٣ هـ/ ١٧٦٩ م وأعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية وضرب السكة

باسمه ، وفتحت جيوشه معظم جزيرة العرب ونادى به شريف مكة : سلطان مصر وخاقان البحرين . وأرسل قائداً من قواده وهو محمد بك أبو الذهب لفتح سوريا ، وفتحت له دمشق وغيرها من مدن الشام أبوابها . غير أن الباب العالى العثماني لم يلبث أن استغواه بما وعده به من الولاية على مصر فانقلب على سلطانه على بك الكبير ، ونشبت بينهما الحرب وسقط في ميدانها على بك سنة ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م . وبذلك أضاع محمد بك أبو الذهب على مصر فرصة ذهبية : أن يُردّها استقلالها وحريتها ، وظل شيخاً للبلد ، يؤلّى عليها من العثمانيين من يختاره إلى أن توفى بعد سنتين في عام ١١٨٩ هـ . وخلفه على مشيخة البلد إبراهيم بك ومراد بك شريكين فيها ، وخرجت المشيخة من أيديهما فترة إلى إسماعيل بك ، وتوفى فعادت إليهما ولإبراهيم الرياسة ، وأصبح شيخاً للبلد إلى أن جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م . وتزل الحملة مصر وتظل تجاهدها جهاداً عنيفاً مريراً ثلاث سنوات ، ولم ينفع نابليون قائدها ما أنشأه من مجالس شورى ألفها من بعض شيوخ الأزهر ومن كبار التجار والأعيان ، وجعل لها النظر في الضرائب وشتون الحكم .

لم يغرّر هذا الخداع المصريين فقد عرفوا أنها مجالس صورية لتنفيذ مظاممه الاستعمارية ، ومازالوا يقاومون الحملة مقاومة باسلة ، حتى اضطروها إلى مبارحة البلاد سريعا . وأولى أن تدرس هذه الحملة وآثارها بمصر مع عصرها الحديث ، إذ أذكت في المصريين الشعور القومى . فلما خرجت إلى البحر المتوسط وما وراءه وعاد المصريون إلى الحكم العثماني رأوا أن من واجبه التخلص من نيره الظالم البغيض وأن يختاروا حاكمهم واختاروا محمد على سنة ١٢١٩ هـ / ١٨٠٥ م وبدءوا بقوة نهضتهم الحديثة .

المجتمع^(١)

مصر - كما وصفها الذكر الحكيم - جنات وعيون وزروع ومقام كريم. وفي جنات هذه الزروع وجناتها عاش سكانها من القبط ومن نزل بها من العرب ، ومع الزمن يزداد اختلاط العرب بسكانها وخاصة منذ أسقطهم الخليفة العباسي المعتصم من دواوين الجيش في نهاية الربع الأول من القرن الثالث الهجري ، فقد مضوا يخالطون سكانها لا في مدنها فحسب ، بل أيضا في قراهم وزروعهم مؤلفين جميعا شعبها المصري . وكانت تتوزعه - كغيره من الشعوب العربية - ثلاث طبقات عليا ووسطى ودنيا . وتشمل الطبقة الأولى الوالي وصاحب الخراج والقاضي وكبار أصحاب المناصب وقواد الجند ومعهم الأشراف من بيتي العباسيين والعلويين وكبار التجار والإقطاعيين من المماليك . والطبقة الوسطى تشمل العلماء والجند وأوساط الزراع أصحاب الملكيات الصغيرة والقائمين على الصناعات . أما الطبقة الدنيا فتشمل الفلاحين والصناع وصغار التجار . وبحوار هذه الطبقات كان هناك رقيق يجلب من أواسط إفريقيا ومن بيزنطة وأرمينية وثغور البحر المتوسط ، وكان كثير منه يجرّ ويصل إلى أرفع المناصب على نحو ما هو معروف عن فانتك الرومي وكافور الحبشي القائدين في زمن الإخشيد . وكان هناك أهل الذمة من الأقباط . ويمد النيل مصر من قديم برحاء لا مقطوع ولا ممنوع ، ومعروف أن أرضها قبيل الفتح العربي كانت موزعة بين الدولة والكنيسة وكبار الإقطاعيين ، وقد ترك العرب الفاتحون للكنيسة وللإقطاعيين ما لهم من الأراضي على أن يؤدوا عنها الخراج أو كما نقول الآن الضرائب ، وبالمثل كان يؤدّيها أصحاب الملكيات الصغيرة من الأرض وكل فالح لها أو زارع . وتُرك للقبط الإشراف

شداد ورحلة ابن جبير ومعيد النعم وميد النعم للسبكي والدخل لابن الحاج ونظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين لعطية مصطفي مشرفة والمجتمع المصري في عصر السلاطين المالك لسميد عبد الفتاح عاشور والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم ميتز وقصة القاهرة وتاريخ مصر في العصور الوسطى لستانلي لين بول وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان .

(١) انظر في المجتمع الولاية والقضاء للكندي والمغرب لابن سعيد بقسميه عن الفسطاط والقاهرة ومروج الذهب للمسعودي ومصر عند المقدسي وابن حوقل وناصر خسرو والإشارة إلى من نال الوزارة لابن ميسر وترجمة يعقوب ابن كلس والأفضل بن بدر الجبال في ابن حلكان والخطط للمقريزي والخزرجين الثالث والرابع من صبح الأعشى والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي وبتائع الزهور لابن إياس وكتاب قوانين الدواوين لابن عماد وسيرة صلاح الدين لابن

المالى على شئون الخراج أو ضرائب الأرض ، وظل لهم ذلك وحدهم طوال الأزمنة الإسلامية حتى الثلاثينيات من القرن الحاضر . وكان أهل الذمة من القبط وغيرهم يؤدون الجزية ، وهى تتراوح بين دينار ودينارين سنويا ، يؤديها القادر بمقدار قدرته ، ولم يكن يؤديها راهب ولا شيخ ولا امرأة ولا صبي ، وهى فى واقعها ضريبة دفاع لأنهم لم يكونوا يشتركون فى الحرب . وكانت تؤخذ بجانب ذلك مكوس على الصناعات ، ومن أهمها صناعة القراطيس من ورق البردى ، وكانت هذه الصناعة رائجة جداً حتى أواخر القرن الثانى الهجرى حين نقلت فى عهد الرشيد من الصين صناعة الورق وأنشئ لها مصنع ببغداد . وأهم من هذه الصناعة صناعة النسيج والثياب ، وقد ظلت مزدهرة طوال الحقب ، وكان النساء والغلمان فى الوجه البحرى يشتركون فيها ، واشتهرت بها المدن الشمالية : دمياط وشطا وتينس وديق والإسكندرية ، وكان من نسيج الأخيرة ما يباع بما يعادل وزنه من الدراهم ، وكان ثمن الثوب الديقى مائة دينار وقد يبلغ مائتين ، واشتهرت تينس بثوب كانت تصنعه للخليفة منسوجا بالذهب وليس فيه من الغزل سوى أوقيتين ، وكان يقدر بألف دينار . وكانت السجاجيد والأبسطة والستور تصنع بالفيوم والصعيد ، وكانت تصنع الحصر فى أمكنة كثيرة ، كما كانت تصنع بعض أنواع الجلود . وعلى كل هذه الصناعات كانت تؤخذ المكوس كما كانت تؤخذ على استخراج بعض المعادن وخاصة الشب والنطرون ، وأيضاً على بناء السفن . وكانت التجارة رائجة ، وكان يتجر فيها كثير من الفرس والروم واليهود . وما يدل بوضوح على رخاء مصر فى عصر الولاة ومدى ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خبر رواه المقرئى وقع فى أثناء زيارة المأمون لمصر سنة ٢١٧ إذ مر بقرية يقال لها « طاء النمل » وكانت إقطاعية لقبطية عجوز تسمى مارية ، فعرضت له تسأله أن ينزل فى ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده ، وعجب لكثرة ما قدمت من أطعمة ، فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصرى ، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا فى كل طبق كيس من ذهب ، فشكرها وأمرها برده ، فأبت إباء شديداً ، وتأمل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد ، مما يدل على أنه ربحها من عام ، فقال : هذا والله أعجب . وتوسلت إليه أن يقبلها ، فتمنع وقال لها : رُدِّى مالك بارك الله لك فيه ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التى تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا الذهب شئ كثير . فأخذه المأمون ليبت المال وأقطعها عدة ضياع وأعطاه من قريبها مائتى فدان بغير خراج . ومارية إنما هى

إقطاعية واحدة وكان وراءها إقطاعيون كثيرون من القبط والعرب ، فإن النولة كانت قد دأبت على أن تمنح بعض الموظفين الكبار بمصر وبعض الشخصيات العربية إقطاعيات مختلفة في القرى المصرية . وما يدل على الرخاء حيث ذُكر ارتفاع رواتب الولاة وأصحاب الخراج وكبار الموظفين وحتى القضاة موضع الزهد والتقصيف إذ ذُكر الكندى في كتابه «الولاة والقضاة» أن عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون في سنة ٢١١ رسم لقاضى الفسطاط سبعة دنانير كل يوم . وحقاً كان يحدث أحياناً قحط أو أوبئة أو تدمرات من كثرة الضرائب الاستثنائية التى يفرضها بعض عمال الخراج ، حتى ليأخذ ذلك فى الحين الطويل بعد الحين شكل ثورة ، ولكن هذا كله سرعان ما يزول ، كأنه سحابة صيف سرعان ما تنقشع ، ويعود إلى مصر الأمن والرخاء ، فبينما مصر - كما يقول عمرو بن العاص فى رسالته المشهورة إلى عمر بن الخطاب - لؤلؤة بيضاء إذا هى عنبر سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء .

وكانت أسواق الفسطاط تعكس صور الرخاء فى مصر ، فهى تتجوز بالطعمة والحلوى والفواكه وبالطيب والمسك والعنبر وماء الورد ومختلف الأقاوية . ويبدو أن المساكن بها والغرف والحوانيت كانت توجر ، ويؤجر معها الأثاث . وعرفت مصر حيث ذُكر ضروب الملاهى من الصيد وأدواته ومن سباق الحمام وسباق الخيل ، ويروى الكندى أن الولى عليها يزيد بن عبد الله منع من حلبات السباق سنة ٢٤٢ وسرعان ما عادت سنة ٢٤٩ . وكان الناس يحارثون أحياناً بين الكباش والكلاب . ويبدو أنه كانت هناك بعض دور للخمر ، ولابد أنها كانت قليلة ، ويذكر ابن سعيد - إن صح ما يذكره - أن محمد بن أبى الليث الخوارزمى قاضى المعتصم بمصر كان يشرب النبيذ وله عليه ندماء . وكان الناس يهتمون بالقناء وما يصحبه من آلات الموسيقى والطرب ، ويذكر ابن سعيد أيضاً أنه لم يكن بمصر مغنية إلا ركب إليها القاضى لعهد الرشيد المسمى بالمعمرى كى يسمع غناها ، وربما قوم لها ما انكسر من غنائها وما دخل عليه من تحريف فى لحنه . وكان الناس يخرجون للترهة فى جزيرة الروضة أمام الفسطاط وعلى شاطئ النيل . وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بفتح الخليج (وفاة النيل) وبالأعياد الإسلامية وأيضاً بالأعياد القبطية وبعيد التبروز الفارسى لأول الربيع .

ويتولى مصر - كما مر بنا - أحمد بن طولون مكوّناً بها الدولة الطولونية ، وتلقى مصر فى حجره وحجر ابنه خمارويه بكنوزها ، وكان حازماً بعيد النظر رعوفاً بالربة ، فالتقى عن كواهلها كثيراً من الضرائب التى كان قد فرضها عليها ابن المدبر عامل الخراج ، وكان قد زاد عليها الضرائب ،

وفرض ضريبة على النطرون وعلى المراعى وعلى المصايد فأسقط ابن طولون ذلك كله . واستقلَّ بمصر ، وفتحت له كنوزها ، وأغدقت عليه من طيباتها ، فكَوَّن جيشه الضخم ، وأخذ فى بناء قصره خارج الفسطاط وقطائع لمساكره من الترك والسودان والروم وغيرهم وأيضاً لقواده ، وعمرت مدينته القطائع وتفرقت فيها الحارات والشوارع والأزقة والحوانيت والسُّكك وبُنيت المساجد والطواحين والحمامات والأفران . وبنى جامعته الكبير وأنفق عليه مائة وعشرين ألفاً من الدنانير ، وبنى بهارستاناً وأنفق عليه ستين ألف دينار ، وجعل أمام قصره ميداناً كبيراً للعب كرة الصولجان ، أنفق عليه خمسين ألف دينار . وكان ينفق على مطبخه فى كل يوم ألف دينار ، وكان يُعْمَلُ سَمَاطٌ عَظِيمٌ ، وينادى : من أحب أن يحضر سَمَاطُ الأمير فليحضر ، وكان الناس يأكلون ويحملون ما يشاءون . وكان ما يدخل إلى خزائنه فى كل سنة بعد نفقاته مليون دينار ، وخُلفَ فى خزائنه من الذهب حين موته عشرة ملايين من الدنانير .

واستقر السلطان بعده لابنه خمارويه وعظم دخل الدولة ، وأخذ خمارويه يغرق إلى أذنيه فى النعيم ، فزاد فى عمارة قصر أبيه ، وجعل الميدان الذى أمامه بهستاناً وزرع فيه أنواع الرياحين والورود وأصناف الشجر وكسا النخل نخاساً تخرج من عيون المياه وتنحدر إلى فسائى يفيض الماء منها إلى مجار تَسْقَى سائر البستان ، وسُرِّحَ فيه طيوراً حسنة الصوت وطواويس مختلفة : وجعل لنفسه مجلساً سماه دار الذهب طلاً حيطانه بالذهب واللآزود وجعل فيه تماثيل أو صوراً بارزة لحظاياهم ومغنياتهم وعلى رؤوسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة . وجُعِلَت فى هذا البستان بين يدى القصر فسقية من الزئبق طولها خمسون ذراعاً وكذلك عرضها ، كان يُرى لها فى الليالى القمرية منظر عجيب حين يتألف نور القمر بنور الزئبق . واتخذ خمارويه بيوتاً للسباع وغيرها من الوحوش سوى الإصطبلات الواسعة للخيل . وكانت حلبات السباق فى أيامه تقوم مقام الأعياد ، ويقال إن عرض الخيل حينئذ كان من عجائب دار الإسلام . ومما يدل على ما وصلت إليه الدولة من ثراء جهاز ابنته قَطْرُ الثَدَى حين زَوَّجها الخليفة العباسى المعتضد ، وكان من جملة دكة تألف من أربع قطع من الذهب عليها قبة من الذهب مشبكة بها أقراط فى كل قرط حبة من جواهر لا يعرف لها قيمة ، وكان فى الجهاز مائة هاون من الذهب ، وبنى خمارويه - كما مرَّ بنا - قصر فى كل منزل تنزل به ابنته من مصر إلى بغداد .

ومما يدل على ثراء مصر لعهد الطولونيين ثراء واسعا أن أباً بكر محمد بن الماذناني عامل الخراج ووزير خمارويه تملك من الضياع ما بلغ دخله أربعةائة ألف دينار فى كل سنة سوى ما كان يؤدِّيه من

الضرائب ، ويقال إنه حج إحدى وعشرين حجة وكان ينفق في كل حجة مائة ألف دينار . وكانت مصر تحتفل بالأعياد احتفالات كبيرة : الإسلامية منها والقبطية ، بل لكأنما كانت أيامها كلها في عهد الطولونيين أعيادا . ولذلك بكت دولتهم بدموع غزار . وتحلفهم فترة تعود فيها مصر إلى عهد الولاة ، وسرعان ما يتولاها الإخشيد ، فيعيد إليها بهجتها ورخاءها ، وبفضل ثرائها استطاع أن يعدّ لنفسه جيشا ضخما مكونا من ٤٠٠ ألف مقاتل سوى ثمانية آلاف من مماليكه الأرقاء ، ومازال سعيه بحكم مصر يعلو إلى أن صار له حكم الشام والثغور وخطب له بالحجاز واليمن . وأصبحت مصر بعده لأبنائه ووصيهم كافور الإخشيدى . وكانت مصر تنعم بثرائها ، ويبدو أنه تكونت فيها طبقة من كبار الإقطاعيين من العمال والصناع والتجار والزراع لقت بقوة الإخشيد ، فإذا هو يكثر من مصادرة عماله وكتابه ، ويقول ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتاب المغرب إنه « كان إذا توفى قائد من قواده أو كاتب تعرّض لورثته وأخذ منهم وصادهم وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير » ويقول ابن سعيد أيضا إنه لما توفى التاجر عفان بن سليمان أخذ من ميراثه مائة ألف دينار . وكان سباق الخيل في أيامه - كما كان في أيام خارويه - يقوم مقام الأعياد . وكانت لوزيره ومدير الدولة زمن أولاده جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف بابن حِزَابَة دار للأفاعى والحيات والعقارب لها قيم وحاي من الحواة ومعه مستخدمون .

وظلت مصر طوال زمن الإخشيديين تعنى ببعض اللهو والغناء ، وفي ترجمة الإخشيد بكتاب المغرب أن أبا بكر الماذرائى دعاه إلى طعام وجمع له المغنين من الرجال والنساء . وكان يحاكى ابن طولون في احتفاله بعرض الجيش ليلة عيد الفطر وفيما كان يتخذ عقب العرض من يصب السباط للناس . وكان المصريون يحتفلون بعيد الفطر وغيره من الأعياد الإسلامية احتفالات كبيرة ، وبالمثل كانوا يحتفلون بالأعياد القبطية . وشهد المسعودى لعهد الإخشيد سنة ٣٣٠ أحد هذه الأعياد وهو عيد الغطاس المسمى ، ويكون عادة ليلا ، ويقول إن الإخشيد كان بقصره في جزيرة الروضة ، وأمر فأخرج من شاطئ الفسطاط وشاطئ الجزيرة ألف مشعل غير ما أسرجه أهل مصر من المشاعل والشمع . ومئات الآلاف من الناس على الشواطئ وفي الزوارق وقد أحضروا المأكّل والمشارب وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف . ونجد بعض الشعراء يذكرون الأديرة وما فيها من خمر ، كما نجدهم يذكرون الطرد والصيد ويقول ابن سعيد إنه كانت بالفسطاط بعض دور للقمار .

وتلقى مصر بكنوزها للفاطمين ، ويؤسسون بها أو يقيمون الدولة الفاطمية ويمتد سلطانها من

شواطئ إفريقيا الشمالية إلى بلاد الموصل ، وتدخّل في حوزتهم اليمن والحجاز في أغلب أيامهم .
وينعم الفاطميون بالخراج الذي أخذ يتزايد من نحو مليون ومائتي ألف دينار حين نزل جوهر الصقلي
القاهرة إلى خمسة ملايين ونصف من الدنانير لعهد الخليفة المستعلي . وكانت المكوس تُفرضُ على
كل شيء حتى قال المقرئزي إنه لم يسلم منها حينئذ إلا الهواء . ويذكر المقدسي أنه كان يُجبى من
تنيس يومياً ألف دينار على ما تنسج من الثياب ، ويقول المقرئزي إنه بلغ المتأخر على تنيس في
ثلاث سنوات مليون دينار ومليون درهم ، وبالمثل كانت تجبى مكوس كثيرة على ما ينسج من
الثياب في شطا ودمياط وديق والإسكندرية ، ويقال إنه جُبى من تنيس ودمياط والأشمونين في
يوم واحد ٢٢٠ ألف دينار . ومما كانت تجبى عليه المكوس الشبُّ والنطرون . وكانت تُفرضُ
مكوس على الحمامات ، وكانت تُعدُّ بالمئات في الفسطاط والقاهرة . وعلى الحوانيت ، ويذكر
ناصر خسرو أنها كانت تبلغ فيها نحو عشرين ألفاً ، وكان إيجار الحانوت يتراوح بين دينارين
وعشرة دنانير شهرياً . وبجانب هذه المكوس كانت هناك الجوالى التى يدفعها أهل الذمة .
وكانت - كما يقول ابن مماتي في كتابه قوانين الدواوين - تُفرضُ مكوس على المتاجر الصادرة
والواردة تبلغ نحو عشرين في المائة من العروض أو البضائع . وكانت هناك حبوس كثيرة أو بعبارة
أخرى أوقاف محبوسة على وجوه البر ، أخذت تتزايد منذ نهض الليث بن سعد فقيه الفسطاط في
القرن الثاني - لأول مرة - بهذا الصنيع . وكل ذلك كان يصبُّ في خزائن الدولة الفاطمية ، حتى
لتصبح مصر وكأنها فردوس العالم العربى ، وفيها يقول المقدسي : « هى الإقليم الذى افتخر به
فرعون على الورى .. أحد جناحي الدنيا ، ومفاخره لا تحصى ، مصره (يريد الفسطاط) قبة
الإسلام ونهره أجل الأنهار ، وبخيراتة تُعمرُ الحجاز ، وبأهله يبهج موسم الحاج ، وبِرّه يعمّ الشرق
والغرب . قد وضعه الله بين البحرين (الأحمر والمتوسط) وأعلى ذكره في الخافقين ، حسبك أن
الشام - على جلالتها - رُستاقه (قُراه) والحجاز - مع أهلها - عياله » .

وطبعي أن تتضخم - مع هذا الثراء الهائل في مصر - الطبقة العليا : طبقة الأسرة الفاطمية
وزرائها وقوادها وكبار موظفيها وأشراف العلويين وكبار إقطاعيها وتجارها . وقد أكثر الفاطميون
من الإقطاع للوزراء والقواد ، وكان عندهم نظامان للإقطاع : إقطاع تملك يورث وإقطاع
استقلال يُمنح حق الانتفاع لشخص بعينه ولا يورث . ويُروى أن يعقوب بن كلس أول وزراءهم
بمصر كان راتبه في العام مائة ألف دينار ، وقالوا إنه لما توفى ترك من الجواهر ما قيمته أربعائة ألف
دينار ومن المصوغات ما قيمته نصف مليون دينار . وذكر ابن خلكان أن وزيرهم في أوائل القرن

السادس الهجرى الأفضل بن بدر الجمالى ترك ستائة مليون دينار ومائتين وخمسين إردبا دراهم وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج وثلاثين راحلة حقاق ذهب . ودواة ذهب محلاة بجوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال فى عشرة محابس فى كل محبس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود مذهب بلون من الألوان وخمسمائة صندوق كسوة لخاصته من نسج تنيس ودمياط ، وخلف من الرقيق والخيل والبغال والجواميس والبقر ما لا يعلم قدره إلا الله . وكأنما حول كل أموال مصر فى عهده إلى خزائنه ، وأى خزائن إن أكبر مليونير أمريكى فى عصرنا لا يبلغ من الثراء مبلغه . وحتما كانت تحدث بمصر أحيانا مجاعات بسبب نقص النيل والقحط ، كما مر بنا فى عهد المستنصر ، وقد تحدث أوبئة ، ولكن مصر كانت تنفض عنها ذلك دائما وتعود سريعا إلى رخائها الذى أتاح للوزيرين السالفين كل هذا الثراء

وإذا كان هذا حال وزيرين فما بالنا بأحوال الخلفاء وما كانوا يغرقون فيه من ثراء وترف . ويكفى ليان ذلك أن نعرف أنه بعد أن تقوّضت الدولة واستولى صلاح الدين على مقاليد الحكم كُشف حاصل الخزائن الخاصة بالقصر الفاطمى ، فإذا به من الكنوز ما لا يكاد يخطر ببال ، حتى ليقول المقرئى : « خرج من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وملبوس وأثاث وقماش وسلاح ما لا يقي به ملك الأكاسرة ولا تتصوره الخواطر الحاضرة ولا يشتمل على مثله الممالك العامرة ولا يقدر على حسابه إلا من يقدر على حسابات الخلق فى الآخرة » .

ولعل فى كل ذلك ما يدل على الثراء والترف والبذخ فى أيام الدولة الفاطمية ، ويزخر حديث المقرئى وغيره بملابس الخلفاء وعائتهم المرصعة بالجواهر وما كانوا يتخذون من زينة فى أثاثهم وأواني طعامهم وفى قصورهم وبساتينها وأروقتها وأفنياتها وأعمدتها وأرضها المفروشة بالرخام المتعدد الألوان ، مما بهر ناصر خسرو فى القرن الخامس ، كما بهر غليوم رئيس أساقفة صور فى نهاية أيام الفاطميين سنة ٥٦٢ على نحو ما يلقاننا فى كتاب كنوز الفاطميين . ويقول ناصر خسرو إن أهل القاهرة كانوا يعنون بزراعة الأزهار فى سطوح منازلهم حتى لثرى كأنها حدائق ، وما يدل على سعة الرخاء لعهد ما ذكره عن سيدة بمصر كانت تملك خمسة آلاف قدير ، تؤجر كل قدر منها بدرهم . ولعل فيما ذكرنا من هذا الرخاء والترف ما يدل على أن الصناعة كانت مزدهرة بمصر ، وكان العائد منها على الصناع عظيما وبالمثل كانت التجارة وأيضاً الزراعة . وكل شىء يؤكد أن الفلاحين كانوا يتعاملون مع الملاك بنظام المزارعة الموجود حتى الآن ، فللمالك نصف المحصول وللزارع أو الفلاح النصف الآخر ، وتلقانا فى النصوص كلمات الخولى والسائس والحراث والجناينى

والأجير والأعوان وعاصر النبيذ .

ويبدو أن مصر أخذت تعنى عناية واسعة بالغناء منذ هذا العصر ، حتى لنجد ابن الطحان يؤلف فى الغناء والمغنين كتابا . وشاع النبيذ والشراب بأكثر مما كانا يشيعان فى الأزمنة السابقة لكثرة الوافدين على مصر من الشرق للدعوة الفاطمية ، وكأنما حملوا إلى مصر شغف بيئاتهم - وخاصة إيران - به .

واتسع الفاطميون بالأعياد الإسلامية ، وهى - كما يقول المقرئى - موسم رأس السنة ، ويوم عاشوراء ، ومولد الرسول ﷺ ، ومولد على ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد فاطمة الزهراء ، ومولد الخليفة الحاضر ، وليلة أول رجب وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وموسم ليلة رمضان أو غرة رمضان ، وسماط رمضان من اليوم الرابع حتى اليوم السادس والعشرين ، وليلة الختم ، وموسم عيد الفطر ، وموسم عيد الأضحى ، وعيد الغدير (الذى يؤمن الشيعة بأن الرسول عهد فيه بالخلافة إلى على بن أبى طالب) وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وموسم فتح الخليج (وفاء النيل) وعيد النيروز (أول الربيع) وهو عيد فارسي كان الناس يوقدون فيه النار ويرشون الماء . ومن أعياد النصارى عيد الفطاس وعيد ميلاد المسيح وخميس العدس قبل عيد الفصح بثلاثة أيام وفيه يأكل القبط العدس ، وعيد الزيتون وهو يوم أحد الشعانين ، وكانت الكنائس تزين فيه بأغصان الزيتون وقلوب النخل . وبعض هذه الأعياد كانت تتحول كرنفالات كبيرة ، إذ يقول المقرئى : « كان الناس بمصر يخرجون فى بعض الأعياد ويطوفون الشوارع بالخيال والتماثيل والسماجات » والخيال هو لعبة خيال الظل المضحكة التى تحولت مع الزمن إلى لعبة الأراجوز المعروفة ، ولعل التماثيل هى نفس أشباح الأراجوز ، أما السماجات فأشخاص يتراءون فى صور منكرة مضحكة ، وقد يحاكي نفر منهم شعوبا أجنبية وكأن ظاهرة ضحك المصريين من أصحاب الرطانات فى العربية وغيرها قديمة . وكانوا يتسللون بنطاح الكباش ومهارشة الكلاب والديكة . وبينما كان الفاطميون وأهل القاهرة مقبلين على هذه الملاهى كان الصليبيون - كما مر بنا - قد نزلوا بالشام واحتلوا بيت المقدس وأنطاكية وأكثر ثغورها ، وكان لابد من منقذ ينقذ مصر والبلاد الشامية مما أصابها من فساد شديد فى أداة الحكم .

وانتقل الحكم والسلطان إلى صلاح الدين وأسرته الأيوبية ، وفى عهده وعهد الأسرة جميعا تحولت مصر إلى ثكنة عسكرية ضخمة ، وسرعان ما أخذت تبشير النصر على الصليبيين تلوح ، بل سرعان ما تهاوت قلاعهم تحت أقدام المصريين ، وتهاوى معها بيت المقدس ، ورُدَّت الديار

إلى أصحابها إلا قليلا . وكان المفروض أن ينقل صلاح الدين كواهل المصريين بالضرائب الباهظة من أجل السلاح والإنفاق على جيوشه ، غير أن الذى حدث كان عكس ذلك تماما ، فقد خفف الضرائب عن المصريين ورفع عنهم أكثر المكوس إن لم يكن كلها ، حتى ليقول المقرئى إنه أسقط منها ما يزيد عن مليونى دينار ومليونى أردب وبالمثل أسقط عن أهل الذمة ضرائب كثيرة حتى قالوا إن كل ما كانوا يدفعونه للدولة لم يكن يزيد عن مائة وثلاثين ألف دينار . ولعل مما يدل أكبر الدلالة على أنه لم يكن يمتص شيئا من أموال الناس وأن كل ما كان يؤول إليه من الجوالى والضرائب يُنفقُ فى الحرب دون أن يحتزن منه أى شىء لنفسه ما ذكره ابن تَعْرِى بَرْدَى وغيره من المؤرخين مثل ابن شداد فى سيرته من أنه حين لَبَّى نداء ربه لم يوجد فى خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعون درهما ناصريا ودينارا واحدا ذهبا صوريا ، ولم يخلف ملكا ولا دارا ولا عقارا ولا بستانا ولا ضيعة ولا مزرعة . ويروى ابن تغرى بردى أن ابنه العزيز كان يسير سيرته فى الرعية ، ويقول إنه وهب لصياد دينارين ، وتعذر عليه أن يدفع له هذا المبلغ اليسير . وبالمثل كانت سيرة خلفائه سيرة عادلة ، وكانوا دائما كأنهم مرابطون لحرب الصليبيين ، وقد مات السلطان نجم الدين أيوب وهو يجاهد لويس التاسع وخطفه ابنه توران شاه - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - فأنزل به هزيمة ساحقة ، وهو آخر سلاطين هذه الدولة بمصر الذين ظلوا يجهدون الصليبيين حتى الأنفاس الأنصبة من حياتهم .

وعنى صلاح الدين ببناء القلعة وبناء كثير من المدارس والرباطات ، وظل خلفاؤه يُعنون بالعمران ، مما أنعش الصناعات فى القاهرة ، وكانت صناعة الثياب مزدهرة بتيسر وغيرها . وقد عُنى الأيوبيون بالتجارة ، وعقدوا - كما يقول بروكلمان - سلسلة من الاتفاقات التجارية مع الدول الأوروبية مما عاد بفوائد كثيرة على التجار المصريين ، وكانوا يعنون بالزراعة ونظم الرى عناية فائقة . ويصف ابن جبير فى رحلته لعهد صلاح الدين ريف مصر وقراه التى لا تحصى كثرة ، ويقول إن العمارة فيها متصلة ، وفيها الأسواق وجميع المرافق . ولحقته صلاة الجمعة بإحدى هذه القرى فصلَّى بها الإمام فى مجمع حفيل وخطب خطبة بليغة جامعة . ويشيد بالمارستان الذى بناه صلاح الدين بالقاهرة وما فيه من عناية بالمرضى ، ويذكر موضعا فيه مقتطعا للنساء ومقاصير عليها نوافذ من حديد اتُخذت محابس للمجانين ، كما يذكر مارستانا آخر بالفسطاط على ذلك الرسم بعينه . ويذكر جزيرة الروضة ومبانيها المشرقة الحسان ويقول إنها مجتمع اللهو والزينة ، فأهل الفسطاط والقاهرة لم ينسوا حتى فى عهد صلاح الدين وحروبه وجهاده لهوهم ومرحهم ، وحقا لم يُغنَ

الأيوبيون بالأعياد الكثيرة التي كان يعنى بها الفاطميون والتي بلغت في تقدير المقرئ نحو ثلاثين عيداً ، ولكن على كل حال بقيت منها بقية إسلامية كانت تُمدّ فيها الأسمطة للشعب وكذلك بقيت بقية من الأعياد النصرانية . وطبيعي أن يُشغَلَ الأيوبيون عن الأعياد المصرية بحروبهم مع الصليبيين وما كانت تُستفدُ منهم من أموال ضخمة . ويبدو أن فنون اللهو وما يتبعها من القمار والخمر مما عُرف في عهد الفاطميين ظلت في أيام الأيوبيين وإن خفت حدتها ، ويقول ابن تغرى بردى عن السلطان العادل الأيوبي إنه طهر جميع ولاياته - في مصر وغير مصر - من الخمر والحواطي والقمار . وطبيعي أن لا تفارق البسمة شفاه المصريين في أيام انتصارات سلاطينهم الأيوبيين على الصليبيين وأن لا يفارق المرح نفوسهم ، ومن خير ما يصور ذلك كتاب الفاشوش في حكم قراقوش لابن ممانى صاحب ديوان الجيش والمان لعهد صلاح الدين ، وكان قد عيّن قراقوش محافظاً للقاهرة وأمره ببناء القلعة ، والكتاب مجموعة من النوادر المضحكة على قراقوش وأحكامه الحمقاء . وسرعان ما أصبح قراقوش شخصية خيالية لكل حاكم مخبول فيه بله وغفلة وحمق ، وسُمي في تركيا قراقوز ، وعاد إلينا باسم أراجوز وبعرضه المضحكة .

ويتحول صَوْلجان الحكم وأزمته إلى أيدي سلاطين الممالك ، ويكسبون لمصر مجد الانتصار على التتار ، وتنحسر موجتهم إلى العراق وماوراءه ، ويَطْرُدون نهائياً الصليبيين من ديار الشام . ويعود التتار مع تيمورلنك إلى الشام وتنسحب جموعه إلى آسيا الصغرى ، ويتوفى فتتمزق دولته . وتعدّ أيام الممالك من أزهى أيام مصر الإسلامية إن لم تكن أزهاها ، فقد ورثت عن بغداد الخلافة العباسية ، كما مر بنا ، وتوافد عليها العلماء والأدباء من العراق وما وراءه فأرّين من وجوه التتار ، وكانت الأندلس تمر بأيامها الأخيرة فوفد عليها أدباؤها وعلمائها ، كما وفد من قبل علماء صقلية وأدباؤها حين احتلها النورمان . وبذلك كله كانت مصر منذ عصر الأيوبيين موئلاً للعروبة والإسلام . وظلت بها ثلاث طبقات متقابلة طوال زمن الممالك : طبقة الحكام ، وطبقة وسطى من كبار التجار ، وطبقة دنيا من الفلاحين والعامّة . وكانت الطبقة العليا الأولى تعيش منفصلة عن الشعب : في جزيرة الروضة أولاً ثم في الجبل ، على نحو ما هو معروف عن للمالك البحرية والبرّجية ، وقد ظلوا محافظين على طبقتهم فهم لا يختلطون بالشعب ، ودائماً كانوا يعملون على تنمية أنفسهم بعناصر جديدة منهم ، كان يستوردها لهم النحاسون من أحداث الرقيق المجلوب غالباً من القوقاز وجنوبي روسيا وبيزنطة ، وكانوا يدربونهم في القلعة على الفروسية ، ويُعلّثون لهم أساتذة يعلمونهم الكتابة والحساب وشيئا من القرآن الكريم والحديث النبوى ، حتى إذا شَبَّوا

توزعهم أمراء المالك ، مكوّنين منهم فرقا عسكرية .. وما يلبث جنود هذه الفرق أن يقتنوا الإقطاعات ، وكانت أحيانا إقطاعات تملك كما مربنا في العصر الفاطمي فهي تورث ، وأحيانا كانت إقطاعات استغلال . وبمرور الزمن تكاثرت هذه الإقطاعات في أيام المالك تكاثرا شديدا ، حتى اضطرب بعض السلاطين إلى فكها ولكن سرعان ما كانت تعود .

وبذلك كان من أهم ما يميز عصر المالك أنه عصر إقطاع ، وكان الفلاح لا يزال إقطاعه وكأنه - حياته - قن كما يقول المقرئ . ويعجب السبكي في كتابه معيد النعم من هذا الرق للفلاح ، ويقول : من حق الفلاح أن يكون حرا لا يلد لآدمي عليه . وكأنما حُرّم أصحاب الأرض الحقيقيون من تملك الأرض ، وتملكها المالك الأرقاء ، وكانوا كثيرا ما يفرضون عليهم - كما يقول ابن إياس - ضرائب استثنائية غير الضرائب العادية . ومع ذلك ففي النصوص أن نظام المزارعة المعروف كان - كما أسلفنا - مستمرا في هذه الحقب ، وهو النظام الذي يحمل للفلاح نصف المحصول وللمالك نصفه الآخر ، ويبدو أن أصحاب الإقطاعات كثيرا ما كانوا يظلمون الفلاحين . على أن تسلط المالك على الأرض والزراعة جعلهم يعنون بالجسور ونظام الري وبالثروة الزراعية عامة وكذلك بالثروة الحيوانية . وكانت الدولة تشتري كثيرا من المحاصيل وتعيد توزيعها على تجار التجزئة ، حتى تمنع المضاربات التجارية .

وكانت الصناعة مزدهرة ، فقد كانت أيام المالك أيام ترف في بناء القصور الباذخة وفي كل شئون الزينة ، وكانت للدولة مصانع خاصة للخلع السنية التي يخلعها السلاطين على الأمراء وكبار رجال الدولة . وكانت تزدهر صناعة الملابس والفرش والأثاث والجلود والحلى والمعادن والزجاج الملون . وكانت الدولة تهتم بصناعة الأسلحة وسفن الأساطيل . وكل ذلك عمل على ازدهار الصناعات ، وما يدل على هذا الازدهار بوضوح أن نجد لكل فئة من الصناع نقابة خاصة تنظر في شئونهم فيما بينهم وبين أنفسهم كذلك فيما بينهم وبين الشعب من جهة والحكومة من جهة ثانية . وكانت التجارة بالمثل مزدهرة ، بل كانت أكثر ازدهارا ونشاطا ، فإن مصر حينئذ كانت تمسك بالشر الأكبر من أزمة التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وبعبارة أخرى بين الهند وشرق آسيا وبين أوروبا ، مما جعلها تعقد شبكة من المعاهدات بينها وبين جمهوريات إيطاليا التجارية مثل جنوا والبندقية فضلا عن بقية ثغور البحر المتوسط وجزره . وكانت الدولة تحصل على دخل ضخم من مكوس التجارة ، حتى إذا سقطت أهمية طريق مصر إلى الشرق باكتشاف فاسكودي جاما طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ كان ذلك إيذانا بانتهاء دولة المالك في مصر واستيلاء العثمانيين عليها .

ولعل في هذا كله ما يدل على مبلغ الثراء ، الذى كانت تحياه هذه الدولة ، عن طرق مختلفة من التجارة والصناعة وخراج الأرض والجوالى ، وأيضا فإن الحبوس لأراضى الأوقاف التى أشرنا إليها فى غير هذا الموضع مضت تتزايد زيادات كبيرة ، بحيث كانت مصدرا أساسيا من مصادر دخل الدولة ، وكانت تُضمُّ إليها ضميمه أخرى من مصادرة أموال التجار أحيانا وفاء بما قد تتطلبه الحروب ، وكانت مصادرة الإقطاعات مستمرة بمجرد أن يموت أصحابها . وكل هذا معناه أن دولة المماليك كانت ثرية ثراء طائلا ، وهو ثراء أعدها لتنهض نهضة كبيرة بالحركة العلمية وبفن العمارة ، وتكتظ القاهرة بمساجد سلاطينها وقبائها الشاخنة الرائعة .

وعادت إلى مصر فى أيام هذه الدولة أعيادها الكثيرة فى العصر الفاطمى : الإسلامية والقبطية عدا الأعياد الشيعية . وأضاف المماليك عيد محمل الحج . وعادت الكرنفالات والاحتفالات الكبيرة فى هذه الأعياد ومن يتنكرون بها من أصحاب المساهر والسماجات . واتسعت فنون اللهو والتسلية ، وكان الناس يخرجون للتنزه فى أمكنة كثيرة على شاطئ النيل مثل الأزبكية وكان يمر بها قديما ، ومثل بولاق وجزيرة الروضة . وكانوا يستأجرون القوارب والسفن الشراعية للتنزه بها فى النيل ومعهم بعض المغنين والمغنيات ، واشتهر بينهم كثيرون ، ويذكر ابن حجر منهم فى كتابه « الدرر الكامنة » عبد العزيز الحفنى أعجوبة زمانه فى فن الغناء و«خوى» أعجوبة أيامها فى الضرب على العود ومحمد بن على الدهان وكان يتقن الغناء على القانون . ويذكر السخاوى منهم فى كتابه « الضوء اللامع » خديجة الرحاية . وكان هناك من يتعاطون الخمر أحيانا وكذلك الحشيش ، وقد يكثر من يتورطون فى تعاطيها فيضطر السلطان إلى الأمر بإحراق الحشيش وإراقة دنان الخمر فى كل مكان كما صنع الظاهر بيبرس . ومن ملاهيم حينئذ الترد والشطرنج وتطير الحمام وتهارش الديكة والصيد ورمى الطير بالبندق . وارتقى حينذاك خيال الظل وأصبح مسرحا شعبيا تاما ، ويؤلف له ابن دانيال ثلاث مسرحيات ألفها فى عهد الظاهر بيبرس ، وجميعها تصور مواقف ومشاهد فكاهية تثير الضحك فى المتفرجين . ويقول السخاوى إنه كان من ملاهيم سماع سيرة عنترة وذات الحمة وأبى زيد الهلالى والظاهر بيبرس . وكأنما كُتب على الشعب المصرى أن يؤدى ثمنا باهظا لمرحه ولهوهِ فى زمن المماليك ، فإذا العثمانيون يحتاجون دياره . وثُغْم سماء مصر فقد كستها سحبهم المظلمة نحو ثلاثة قرون إلا قليلا ، إذ تحولت من إمبراطورية ذات سلطان وصولجان إلى ولاية عثمانية ، وليس ذلك فحسب ، فقد جرَّدها فاتحها سليم من علمائها ورجال الفنون بها ومهرة صناعها . وتراثها الفنى وكل ما كان بها من تحف نفيسة ، ويقال إنه أبطل بمصر خمسين

صناعة . وبذلك كان فتح العثمانيين لمصر كارثة من كل وجه ، لم تكن كارثة سياسية فحسب ، بل كانت أيضا كارثة علمية وفنية وصناعية ، وحتى مسرح خيال الظل شاهده سليم فأنعم على صاحبه بطائفة من الدنانير ، كما يقول ابن إياس ، وخلق عليه قفطانا مذهبيا ، واصطحبه معه إلى القسطنطينية . وعلى هذا النحو انتكست مصر انتكاسة لم تستطع أن تفيق منها إلا بعد فترة طويلة . وقد ضاعت منها حيثزدها التجارية وما كان لها من مكانة في التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وضاعت مواردها الصناعية ، فقد غادرها مهرة الصنائع إلى القسطنطينية ، ولم يبق لها إلا الزراعة ، والعماليون والمالكيك يعترضون خيراتها وطيباتها من الرزق ، حتى لا يبقى للفلاح سوى البؤس والفنك وشظف الحياة . وربما كان خير ما يصور تعاسة الفلاحين المصريين في هذه الفترة كتاب « هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف » ليوسف الشربيني وهي قصيدة عامية هزلية ومثلها شرحها ، وهما يحملان سخرية لاذعة بالحكم العثماني للمصريين وما أرقق به العثمانيون والمالكيك الفلاح المصري من عسف وظلم لا يدانيه ظلم ، ظلم جبر أفطع ما يمكن من الجهل والبؤس ، حتى ليصبح أفقر طعام الفلاح خبز الشعير والجبن القريش (الحظالي من الدهن) والبصل والمدهن والبيسار ومن ورائه سياط السخرة . وهو يسوق ذلك في أسلوب فكاهي يحمل كثيرا من السوم .

٥

التشيع : الدعوة (١) الفاطمية الإسماعيلية

مر بنا - في غير هذا الموضوع - أن مصر دخلت في بيعة علي بن أبي طالب بالخلافة وأنه اختلف عليها ولاية من قبله ، غير أن ذلك لا يعني أنها اتخذت التشيع عقيدة ، وحقا كان يحدث فيها أحيانا تحركات لبعض العلويين وبعض شيعتهم وأنصارهم ، غير أنها لم تكن تحركات مذهبية ، إذ لم تكن تعدو أن تكون نصرة لعلوي بعينه . وتقتضى مصر معتنقة لمذهب أهل السنة بعيدة عن العقيدة الشيعية ، وينزلها دعاة الدولة الفاطمية حين تأسست بالمغرب ، ولم يقلع أحد منهم

(١) انظر في هذه الدعوة رسالة اختاح الدعوة للفاضل النعمان بن محمد (طبع بيروت) وكذلك دعائم الإسلام له (طبع دار المعارف) وروحة العقل للكرمانى (طبع القاهرة) والمجالس للتصيرية (طبع دار الفكر العربى) وكذلك المهمة في آداب اتباع الأئمة . وانظر كتاب العقيدة والشرعية في

الإسلام لجولدنسبير (الطبعة العربية) ص ٢١١ وما به من مراجع وكتاب أصول الإسماعيلية لبرنارد لويس (من منشورات مكتبة المثنى) وكتاب في أدب مصر الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين وما به من مراجع وخاصة للمستشرق إيفانوف .

في حملها على الثورة ضد العباسيين، وكان دعوتهم لم تكن تلبث أن ترتد معهم إلى المغرب.

وما نصل إلى سنة ٣٥٨ حتى يفتحها جوهر الصقلي وينشئ بها القاهرة ويتخذها الفاطميون حاضرة لهم، ويقيمون بها دولة شيعية إسماعيلية وتظل مصر متمسكة بعقيدتها السنية. ومرُّ بنا أن فرقة الشيعة الإمامية انقسمت في زمن مبكر إلى اثني عشرية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق سادس الأئمة إلى ابنه موسى الكاظم وتوالت بعده في خمسة من الأئمة آخرهم محمد المهدي المنتظر المختفى منذ سنة ٢٦٠ للهجرة. وإلى إسماعيلية يؤمنون بأن الإمامة انتقلت من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل المتوفى في حياته لأن الإمامة عندهم تنتقل إلى الابن الأكبر حتى لو مات في عهد أبيه. ومرُّ بنا كيف أن عبداً لله بن ميمون القداح نظم الدعوة الإسماعيلية، وأن أحد دعايتها هي لعبيداً لله الفاطمي حكم تونس فنزلها وأعلن دعوته سنة ٢٩٧، وخلفه القائم فالمنصور فالعز الذي اتسع بالدولة ومدَّ حدودها شرقاً إلى الشام.

ويؤمن شيعة الفاطميين الإسماعيلية بمجموعة من المبادئ أولها فكرة أن إمامة المسلمين الشرعية إنما هي لعل وأبنائه من أئمتهم المنحدرين من السيدة فاطمة الزهراء، وكل إمام منهم وصي لسلفه طبقاً للترتيب الإلهي في خلافة أو ولايته الربانية على أمور الأمة. وقد بدأ الرسول ﷺ - في اعتقادهم - فأوصى بخلافة على وإمامته من بعده، ورووا في ذلك أحاديث حملوها هذا المعنى مثل: «على مني بمنزلة هرون من موسى» كما رووا أحاديث خاصة بهم تشير إلى تابع الإمامة في آل البيت، ووجهوا بعض الآيات القرآنية نفس الوجهة مثل قوله تعالى: (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا).

ومبدأ ثانٍ قرروه هو طاعة الإمام سواء دعا لنفسه سرّاً أو علانية وجهرًا، فطاعته جزء لا يتجزأ من إيمان الإسماعيلية، فهم كما يؤمنون بالله ورسوله يؤمنون بإمام العصر ويقضون أمورهم إليه ويذبلون أنفسهم من دونه. فريضة مقدسة، ينضوون تحت لوائه ويبرءون من أعدائه ويوالونه أصدق الولاء.

ومبدأ ثالث هو عصمة أئمتهم، إذ يرفضونهم فوق المستوى الإنساني بفضائل فطرية فيهم تجعلهم مبرئين من الذنوب مطهرين من الآثام، لا يتورطون في معصية، ولا يقعون في أي خطيئة مها كانت صغيرة، لما يتقل في أصلابهم - حسب اعتقادهم - من نور إلهي يتقى أرواحهم.

ويُخلبها من دواعي الشر وآثامه ، وهو نور ظل ينحدر من آدم وأبنائه الطاهرين حتى انتهى إلى عبد المطلب وحفيده الرسول عليه السلام ، وكأنما أصاب عليا حفيده الآخر منه شعاع ما يزال يتنقل في الأئمة جيلا بعد جيل .

ومبدأ رابع هو الاتساع بالتأويل في القرآن الكريم وآياته ، مستدلين بمثل قوله تعالى : (وكذلك يَجْتَنِيكَ رَبُّكَ وَيَعْلَمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) زاعمين أن للقرآن ظاهرا ووراء ظاهره باطنا لا يعلمه إلا أئمتهم ، خُصّوا به دون غيرهم من البشر . واشتق الدكتور محمد كامل حسين من هذا المبدأ عندهم نظرية المثل والمثول ، فظاهر القرآن مثل وباطنه في رأيهم ممثول ، وجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول . وعلى الإسماعيلي أن ينحى عن بصره الظاهر المتبادر الذي يحول بينه وبين رؤية الشريعة على حقيقتها وفي باطنها . وهم بذلك يقتربون من نظرية الأفلاطونية الحديثة التي تدعو إلى نبذ الأستار والحجب المادية حتى يفضى الإنسان إلى وطنه السماوى . وقد أوغلوا في التأويلات الباطنة ، لآى الذكر الحكيم ناسبين ذلك إلى أئمتهم ، مما لا يحتمله ظاهر القرآن أى احتمال ، ولذلك يسميهم أهل السنة الباطنية .

ونصل إلى المبدأ الخامس الذى يفصل العقيدة الإسماعيلية عن النظرية العامة لأهل السنة والشريعة الإسلامية فضلا تاما . وهو مبدأ تتداخل فيه نظرية الفيض الأفلاطونية ، إذ يزعمون أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار كل دور يتكون من سبعة ، والسابع هو الإمام الناطق الممثل للعقل الكلى الفعال الذى انتقلت إليه قدرة الله ، وعنه تصدر النفوس الكلية التى يمثلها الأئمة الستة في الدور كما تصدر جميع المخلوقات . ويأخذ تاريخ البشرية منذ آدم هذا النظام الدورى السبعى الكوفى ، وكل دور يدعى عمل الناطق السابق له ويمهد لناطق الدور الجديد . ويتجلى النور الإلهى في كل دور من هذه الأدوار ويبلغ كماله في الإمام الناطق الحامل لرسالة نورانية باهرة . وهم يزعمون أن الرسول كان عقلا فعالا وأن عليا وصيه - فى اعتقادهم - كان نفسا كلية ، فلما رفع الرسول إلى الرفيق الأعلى أصبح عليا عقلا فعالا . وما زعموه أن نفوس الأئمة الستة قبل العقل الناطق تعود بعد الوفاة إلى عالم العقول وتصبح مثله عقولا كلية مدبرة للكون .

ومبدأ سادس هو إطلاقهم كل صفات الذات العلية على أئمتهم ، وهم ييدمون فيقولون ان لكل إمام نسبتين : نسبة إلى عالم الطبيعة ونسبة إلى عالم القدس ، بالضبط كما يعتقد النصارى في المسيح . وزعموا أن الله - جلّ جلاله - ينبئ أن يترّ عنه كل الصفات والأسماء ، وقالوا - بزعمهم - إن أسماء الحسنى إنما هى أسماء العقل الأول الفعال أو العقل الكلى وأن الله أعلى من أن

يسمى باسم أويوصف بصفة . ومضوا فأضفوا صفاته وأسماءه على أئمتهم ، وبذلك رفعوهم إلى مرتبة التأليه ، بل لقد حسبوهم تجسداً للذات العلية ، حتى يقول الداعي شهاب الدين أبو فراس في كتابه « مطالع الشمس في معرفة النفوس » : « اعلم أن الإمام الموجود للأنام لا يخلو منه زمان ولا يحوزه مكان ، لأنه إلهي الذات ، سرمدى الحياة ، ولو لم يتأنس إلى معرفته بالحدود والصفات لما كان للخلق إلى معرفته وصول . » وكان أبو فراس لا يصف الإمام الفاطمي وإنما يصف الله سرمدى الوجود الذي لا يحده الزمان ولا يحصره المكان والذي لا يُعرف إلا بأسمائه وصفاته . ولا ريب في أن الدعاة من أمثاله هم الذين سولوا للحاكم بأمر الله أن يظن أو يتوهم أنه التجسد الإلهي للذات العلية ، فدعا له بعض دعائه إلى عبادته . ولما طفع الكيل قُتل في ضواحي القاهرة ، وأشاع أنصاره أنه اختفى وسيرجع يوما إلى الدنيا وعالمها المحسوس .

ومبدأ سابع وهو مبدأ سلبي ، إذ كانوا يُلقون الاجتهاد والأخذ بالقياس في الشريعة على نحو ما هو معروف عند أهل السنة ، إذ جعلوا المرجع إلى الإمام ، وهو معصوم من الخطأ ، والحكم إذن حكمه والفتوى فتواه دون منازع . وبذلك ألغوا حرية الفكر والرأى وما يتبعها من الاجتهاد العقلي في أمور الأمة والجماعة . وثبت عندهم ذلك واستقرت بسببه طاعتهم للإمام ووجوب الخضوع لأحكامه ، إذ هو الوارث لعلوم أهل البيت .

وهذه هي أهم المبادئ في العقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ولهم في الفقه بعض آراء خالفوا فيها الجماعة مثل المناذرة في الأذان بحمى على خير العمل ومثل ميراث البنت لكل مال أيها إذا لم يكن لها أخ ، ومثل مسح القدمين في الوضوء بالماء لا غسلها . ولعل دولة عربية لم تُعزَّ بالدعاية كما عُزِّي الفاطميون ، فقد كان لهم في كل بلد دعاة ، وكانوا يقسمون العالم العربي والإسلامي إلى أقسام سموها جزائر وعينوا لكل جزيرة دعائها ، وللدعاة جميعا رئيس أعلى يسمى داعي الدعاة وباب الأبواب ، ويليه الحجة وهو كبير الدعاة في الإقليم ، وصاحب التأويل الذي يعقد مجالس الحكمة ويتلو على الناس علوم أهل البيت ويأتى وراء ذلك الدعاة والقباء من كل صنف .

ومن يحاول التعرف على دعاة هذه الدولة سيلاحظ توا أنهم كانوا غير مصريين وأنه كان بينهم المغربي والشامي والإيراني ، وكان مصر لم تقبل على الدعوة الفاطمية ، بل ظلت سنية ومبتعدة عنها ، وكأنها دخلتها من باب وخرجت من باب آخر ، كريح مرت ولم تترك وراءها أثرا . ومعنى ذلك أن مصر لم تعتق المذهب الإسماعيلي الفاطمي ، ربما اعتنقه بعض أفراد ، أما مصر الأمة والشعب فقد ظلت منصرفة عنه في إصرار لسبب طبيعي وهو أن مصر بلد معتدل

المزاج لا يتطرف يمينا ولا يساراً، بل إن التطرف يخالف طبيعته ويبيانها أشد المباينة. وحاول بعض الباحثين أن يجد شيئاً من أثر التشيع الفاطمي، فعثر على أسماء أفراد كانوا يتشيعون أو ينسب لهم التشيع هنا وهناك، ونجزم بأنهم لم يكونوا إسماعيليين يؤمنون بالمبادئ السابقة، إنما كانوا سُنيِّين محبين لأهل البيت، وكانت مصر قبل الفاطميين وإلى اليوم تحبهم، ولكن دون أن تعتق مذهباً من مذاهب الشيعة، فضلاً عن المذهب الإسماعيلي وما في مبادئه من غلو مفرط.

٦

الزهد^(١) والتصوف

مصر - من قديم - بلد دين ، تعيش به وتعيش له ، وما أهراماتها إلا رموز ضخمة لدينها الوثني في عصر الفراعنة ، حتى إذا اعتنقت المسيحية توغلت فيها وفيما تحمله من زهد في حطام الدنيا ومتاعها القاني ، نافذة خلال ذلك إلى الرهبة التي أشاعتها في هذا الدين ، حتى غدت من خصائصه ، فإذا أناس من معتقيه يعتزلون العالم وكل ما فيه من شهوات وآرب إلى الأديرة يتفقون فيها حياتهم ناسكين متعبدين . وتدخل مصر في الإسلام وسرعان ما تقبل على تعاليمه الزاهدة التي تحض على التقوى والنسك ، ترفدها في ذلك نوازعها الدينية الموروثة ، وهي نوازع ظلت تبض بقوة في المجتمع المصري الإسلامي . وحقا قد نجد أحيانا أفرادا من الشعب أو من الأمراء الحكام يمجنون ، وقد نجد أسراباً من المجنون في بعض الأزمنة المتأخرة ، ولكن ذلك لم يكن يعلو زَيْدًا أو قشورا تبدو أحيانا فوق السطح ، أما الأعماق فترفض المتاع الدنيوى المادى وتعلق بما عند الله من المتاع الأخرى الروحى .

وابن خلكان وابن شاکر في تراجم بعض المتصوفة والزهاد وابن تفرى بردى وبلاتح الزهور لابن إيلس وتاريخ الجبرق وكتاب في التصوف الإسلامى ليبيكسون والحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والملوكى للدكتور عبد اللطيف حمزة، وإبراهيم النسوق وأحمد البوى في دائرة المعارف الإسلامية، والتصوف في مصر إبان العصر العثماني والشعراني للدكتور توفيق الطويل .

(١) انظر في الزهد والتصوف الولاية والقضاة للكندي ، والمغرب ، وحسن الخاضرة للسيوطي ، وطبقات الصوفية لأبي عبد الرحمن السلمي ، والطبقات الكبرى للشعراني . وكذلك كتاب لوائح الأنوار ، والخطط للمقرئ في الحقائق والرباطات والزوايا ، والرسالة القشيرية ، وكشف المحجوب للهجويزي ترجمة الدكتور إسعاد عبد الحادى قتيل وأخبار الحكماء للقفطى وتهذيب ابن عساکر

ومنذ الفتح الإسلامي تنشأ في مصر وتنمو جماعات من النساك العباد تتجرد عن متاع الدنيا وتنبذ طياتها ، وقرأ في تراجم القصاص الوعاظ والفقهاء والمحدثين والقراء والقضاة ، فستجد عشرات من هذه الفئات يزهدون في متاع الدنيا ، بل يفرطون في الزهد متحملين في ذلك مشقات عنية من الجوع وغير الجوع . نذكر منهم سليمان التجيبي ، وهو أول من قصَّ ووعظ الناس بمصر في زمن معاوية فإن السيوطي يذكر عنه في كتابه حسن المحاضرة أنه كان يسمى الناسك لشدة عبادته ، وكان ينغم القرآن في كل ليلة زلفى وتعبداً لربه . ومنهم المُرزى صاحب الشافعي وأكثر تلاميذه تصنيفاً في مذهبه ، وفيه يقول ابن خلكان في ترجمته : « كان في غاية الورع ، وبلغ من احتياظه أنه كان يشرب في جميع فصول السنة من كوز نحاس ، فقيل له في ذلك ؟ فقال : بلغني أنهم يستعملون السُّرجين (روث البهائم) في الكيزان والنار لا تطهرها . وذكر أنه كان إذا فاتته الصلاة في جماعة صلى منفرداً خمسا وعشرين مرة أو صلاة استدراكاً لفصيلة الجماعة ، مستنداً في ذلك إلى قوله ﷺ : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة أحدكم وحده بخمس وعشرين درجة » . وكان من الزهد على طريقة صعبة شديدة . » ومنهم بكار بن قتيبة القاضي في عصر ابن طولون ، وفيه يقول ابن سعيد في كتابه المغرب : قسم الفسطاط : « كان أحد البكائين والتالين لكتاب الله ، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها قضايا جميع من تقدموا إليه وما حكم به وبكى خشية خطئه ، وكان يكثر الوعظ للخصوم » . ويورد السيوطي ثبثاً طويلاً بمن كان بمصر من الصلحاء والزهاد والصوفية في كتابه حسن المحاضرة ، ويذكر بينهم سيدات عابدات ناسكات في مقدمتهن السيدة نفيسة حفيدة الحسن بن علي بن أبي طالب المتوفاة سنة ٢٠٨ ، وكانت مقيمة في موضع مسجدنا اليوم بالقاهرة ، وكان الناس يجتمعون إليها لسماع الحديث ، ولما دخل الإمام الشافعي القاهرة حضر إليها وسمع الحديث عنها . ومن هؤلاء المتعبدات الناسكات فاطمة بنت عبد الرحمن بن أبي صالح المتوفاة سنة ٣١٢ وقد عاشت طويلاً ، ويقال إنها ظلت ستين سنة لا تنام إلا وهي في مُصلَّاهَا بغير فراش .

وطبيعى ومصر دار كبيرة من دور الزهد والعبادة والنسك أن ينشأ فيها سريعا التصوف ، ويذكر الكندي أنه ظهرت في ولاية السُّرى بن الحكم سنة ٢٠٠ للهجرة بالإسكندرية طائفة يسمون الصوفية بأمرهم بالمعروف وبإعراضهم السلطان في أمره ترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي . ويمكن أن تتخذ هذه السنة تاريخاً تقريئياً لظهور التصوف في مصر . ويروى الكندي أنه كان في القاهرة جماعة مماثلة لعهد المأمون كانت تحيط بقاضيه عيسى بن المنكدر

تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وكأن التصوف عُرف في مصر بقوة منذ أوائل القرن الثالث الهجري . وقد أورد القشيري في رسالته آراء مختلفة في اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هي من الصفاء أو من الصوف لأن الصوفية كانوا يلبسونه ويتخذونه شعاراً لتقشفهم ، أو هي من الصُفَّة وأهلها الذين كانوا يتقطعون للعبادة في المسجد زمن الرسول ﷺ ، ولا يرجع القشيري رأياً على آخر ، وذهب البيروني إلى أن كلمة التصوف مشتقة أو مأخوذة من كلمة صوفياً بمعنى الحكمة عند اليونان ، ونظن طئاً أنها مشتقة من الصوف لأن لبسه شاع مبكراً بين المتصوفة .

وما غضى طويلاً في القرن الثالث الهجري حتى نسمع بأبي حاتم العطار المصرى أستاذ أبى تراب النخشبى المتوفى سنة ٢٤٥ وأهم منه ذوالنون المصرى المتوفى مع أبى تراب فى نفس السنة ، واسمه ثوبان بن إبراهيم ، وقيل الفيض بن أحمد الإخيمى . كان أوحده وقته زهداً وورعاً وعبادة ونسكاً ، طلب الفقه فى أول حياته فتلذذ لليث بن سعد فقيه الفسقاط ، ثم رحل إلى الإمام مالك فى المدينة المتوفى سنة ١٧٩ فروى عنه الموطأ ، ثم نزع إلى التصوف والنسك فتلذذ لشُقران العابد . ويذهب نيكلسون إلى أنه المؤسس الحقيقى للتصوف الإسلامى مستنداً فى ذلك إلى قول ابن تغرى بردى « إنه أول من تكلم ببلده فى ترتيب الأحوال والمقامات » وبذلك يجعله نيكلسون أستاذ المتصوفة جميعاً - غير منازع - فى العالم الإسلامى . وينقل عن تذكرة الأولياء للجامى أنه أول من وضع تعريفات للوجد والسماع ، وأنه ذكر كأس المحبة الذى يسقى به الله المحبين وأنه كان يقسم المعرفة لثلاثة أقسام : قسماً عاماً للمسلمين جميعاً وقسماً خاصاً بالفلاسفة والعلماء وقسماً خاصاً بالصوفية الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك ميّز المعرفة الصوفية من المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية تعتمد على البصيرة والحدس ، والثانية عقلية تعتمد على التفكير والمنطق ، ومعنى ذلك أن التصوف ليس فلسفة ولا علماً ولا فكراً وإنما هو أحوال ومقامات وهو - بذلك - إن صح أن يسمى علماً ، علم باطن مقصور على الخواص . ودائماً كان يفرق بين الخواص وهم المتصوفة وبين العوام أو عامة المسلمين بمثل قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » وكان يقول : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلو كمن احتجب عن الله بالغفلة » . وكان يقول أيضاً : « الصوفى من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقته عنه الجوارح بقطع العلائق » . وكان يكثّر من الحديث عن مبدأ التوكل الصوفى على الله قائلاً : علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات الحب لله متابعة خبيب الله (أى رسوله) فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسنته » . وفى هذا القول ما يدل

بوضوح على أن التصوف عنده لم يحدث بينه وبين الشريعة أى انفصام وأن ما ذكره المهجورى فى كشف المحجوب من أنه كان من الملامية الذين يتظاهرون بالاستخفاف بأمور الشريعة عار عن الصحة ، فالتصوف عنده لا يقوم بدون الشريعة ، والحياة الصوفية لا تتحقق بدون الفرائض والسنة الشرعية . واستحضره الخليفة المتوكل من مصر ، فلما دخل عليه وعظه ، فبكى المتوكل وردّه مكرّماً ، وكان المتوكل إذا ذكر أهل الورع يبكى ويقول : حَيَّ هَلَا بَذَى النون . ويقال إنه كان على معرفة بعلم الكيمياء .

ويذكر القشيرى فى رسالته والمهجورى فى كتابه كشف المحجوب وغيرهما طائفة من تلاميذه الصوفية من أعلام القرن الثالث ، منهم ابن الجلاء شيخ مشايخ الشام ويوسف بن الحسين الرازى شيخ مشايخ إيران والجندى شيخ مشايخ بغداد وزميله الخراز وهو أول صوفى تكلم فى القضاء وسهل بن عبد الله الثستري شيخ الحلاج الصوفى المشهور . وفى ذلك ما يشهد بأن أثر ذى النون ومصر فى التصوف وتاريخه كان أثراً بعيداً وعميقاً إلى أقصى حد . ويشتهر بعده غير صوفى بمصر ، ويفد عليهم كثيرون من متصوفة البلدان الأخرى طوال القرن الثالث ، ونذكر من متصوفتها حينئذ أبا بكر الدقاق المتوفى سنة ٢٩٠ واشتهر أحد صوفيّتها وهو بنان الحمال المتوفى سنة ٣١٦ بكثرة كراماته ، ومن صوفيّتها أبو على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ . ويقول ابن سعيد فى المغرب قسم الفسطاط : كان الإخشيد يحب الصالحين ويركب إليهم ويطلب دعاءهم ، وأنه ركب إلى رجل صالح بالقرافة يسمى ابن المسيّب وسأله الدعاء ، وأنه كثيراً ما كان يلم بأبى سهل بن يونس ويطلب منه الدعاء فى خشوع متبركاً به .

وتدخل مصر فى أيام الفاطميين ، ويبدو أنهم لم يكونوا يهتمون بالصوفية لسبب مهم وهو أن كلامهم كان يزعم لنفسه علم الباطن ، وكان الصوفية يقولون بحق إن علمهم ينبع من القلب ومن التأمل الباطنى ، وزعم الفاطميون لأئمتهم أنهم أصحاب علم لا يشركهم أحد فيه ، فأدى ذلك إلى شىء من التعارض بين الطرفين ، وبذلك انصرف الفاطميون عن الاهتمام بالتصوف وأهله . وفى هذه الأثناء حدث صدع كبير بين الفقهاء والمتصوفة وخاصة فى المشرق : فى العراق وإيران إذ رفع المتصوفة أنفسهم فوق الفقهاء درجات ، وقالوا إن الأهم فى الحياة الدينية عمل القلب لا عمل الجوارح والنهوض بالفرائض الدينية ، بل إن منهم من أهل هذه الفرائض ، مما جعل الفقهاء يحملون عليهم حملات عنيفة . وتنبه القشيرى والغزالى إلى خطورة هذا الصدع فى بنيان الحياة الدينية وحياة الأمة ، فعملوا بقوة على رأيه . بحيث لا يكون المتصوف متصوفاً حقاً إلا إذا

أدنى الفرائض والسنن الدينية ، ولابد للفقهاء في هذه السنن والفرائض من الإخلاص وصفاء القلب وصدق الشعور الباطني .

وبذلك عادت إلى صفوف المتصوفة والفقهاء - بل إلى صفوف الأمة - الوحدة ، ودعمها ووثقها حدث خطير هو اجتياح حملة الصليب لديار الإسلام في الشام والموصل منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، فوقفت الأمة جميعها بنيانا مرصوفا ضد أعداء الإسلام ، حتى يذيقوهم وبال عدوانهم ويسحقوا جموعهم سحقاً . وحمل المتصوفة والفقهاء السلاح وتقدموا صفوف المجاهدين ، وبذلك نفهم عناية صلاح الدين بهم جميعاً ، فقد أخذ يقيم المدارس للفقهاء ، كما أخذ يُعنى بإقامة الزوايا للمتصوفة ، واتخذ لهم في القاهرة داراً كبيرة من دور الفاطميين كانت تسمى دار سعيد السعداء ، جعلها لهم «خانقاه» ومعناها بالفارسية دار عبادة ، يعبدون فيها الله وينسكون . وفتح أبوابها للصوفية الواردين على القاهرة من العالم الإسلامي منذ أنشأها في سنة ٥٦٩ هـ وهي أول خانقاه أقيمت للصوفية بمصر ، ووقف عليها بستانا وعقارات تكفل نفقاتها عن سعة ، وجعل لها شيخاً سُمي شيخ الشيوخ ، ورُتب للصوفية فيها كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً ، وبني لهم حماماً وأجرى عليهم الجرايات ، ورسم لهم رسماً : أن من ترك منهم عشرين ديناراً فما دونها كانت لمتصوفتها وأن من أراد منهم السفر يُعطى ما يكفل له سفره . وكانوا يخرجون منها كل يوم جمعة للصلاة في الجامع الحاكمي في مشهد مهيب ، فشيخهم يتقدمهم وبين يديه خدام المصحف الشريف ، وقد حُمل المصحف على رأس أكبرهم والصوفية وراءه ماشون بسكون وخفر ، حتى إذا صلوا الجمعة عادوا إلى الخانقاه بنفس المشهد الرائع .

وأخذ التصوف من حينئذ يزدهر في مصر ، واتضح فيه اتجاهان : اتجاه فردي فلسفي ، واتجاه جماعي سُني ، ويمثل الاتجاه الأول ابن الفارض سلطان العاشقين للذات الإلهية ، وهو يصور في شعره وجده وهيامه بربه وأحواله فيه ومقاماته ومدى مانع به في شهوده ، مع مدحه للرسول الكريم ، وقد رفَع حقيقته المحمدية لواء يتجمع حوله المسلمون ليسددوا للصليبيين الضربة القاضية . وكان يقابل هذا المترع الصوفي الفيلسوف الفردي المترع الصوفي الجمعي ، وقد هيات له خانقاه صلاح الدين السالفة الذكر ، وكان كثيرون منهم قد أقبلوا من العراق والشرق يحملون مبادئ طريقتين من طرق التصوف السني ، هما الطريقة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلاني البغدادي المتوفى سنة ٥٦١ هـ والطريقة الرفاعية لمواطنه ومعاصره الشيخ أحمد الرفاعي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ ، وأخذت الطريقتان تشيعان بين المتصوفة المصريين ، وما نمضى في القرن السابع طويلاً حتى يتزل

بالإسكندرية من شاذلة في الجزائر الشيخ أبو الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ ويؤسس بها الطريقة الشاذلية ، ويتبعه خلق كثير في الإسكندرية والقاهرة ، ونراه هو وأتباعه ومريديه في مقدمة الصفوف التى كُثُرَتْ في موقعة المنصورة سنة ٦٤٧ حملة لويس التاسع ، بفضل ما أذكوه في المجاهدين لأعداء الله من حاسة ملتبة .

وتدول دولة الأيوبيين بمصر وتخلفهم دولة المماليك ، وتعظم رعايتها للمتصوفة ، فبنى لهم كثيراً من الخوانق والرباطات والزوايا ، ويَعُدُّ المقرئى من الخوانق اثنتين وعشرين كان من أهمها خانقاه البيبرسية ، ويقول المقرئى : بناها ركن الدين بيبرس سنة ٧٠٧ وهى أجمل خانقاه بالقاهرة بنيانا ، وكان بها أربعمائة صوفى ، وكانت فيها دروس منظمة للحديث النبوى وقراءة الذكر الحكيم . ثم خانقاه سرياقوس بناها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ وكان بها مائة خلوة لمائة صوفى وبنى لها مسجدا وحاما ومطبخا ، وأيضا كان ملحقا بها حمام للنساء مما يدل على أنه كان لبعض المتصوفات فيها خلوات خاصة . وخانقاه شيخون بناها سنة ٧٥٧ ورتب فيها دروسا لفقهاء المذاهب الأربعة ودرسا للقراءات ودرسا للحديث ومشيخة لسماع صحيح البخارى وصحيح مسلم . وبجانب الخانقاهاات بنى أمراء المماليك للمتصوفة اثنى عشر رباطا ، وكانت تُرتَّب لها الجرايات ومجالس الوعظ . وأصل الرباط الثغر فى دار الحرب ، ولعل فى إطلاقه على زوايا المتصوفة حيثذ ما يدل على صلتهم المستمرة بالجهاد . ومن الطريف أن أحد الرباطات كان مخصصا للمتصوفات والأرامل ممن لا يجدن مَنْ يعولن ، وكانت شيختهن صوفية وعادة تكون واعظة . وبنى المماليك ستا وعشرين زاوية للعباد والנסاك وكانت تُرتَّب لكل هذه الزوايا والرباطات والخانقاهاات الأطعمة والحلوى والكسوة والزيت والصابون ، ومن أجل ذلك حُبِسَتْ عليها أوقاف كثيرة .

وكان طبيعياً أن تكثر الطرق الصوفية فى زمن هذه الدولة التى اتسعت فى رعاية المتصوفة وملتقى فى أوائلها بأبى الحسن الشاذلى مؤسس الطريقة الشاذلية - كما قدمنا - وقد تعددت فروعها حتى بلغت أحد عشر فرعاً أهمها الطريقتان : الوفاية والخلوتية . وقد تفرعت الأخيرة بدورها إلى أربعة فروع . وملتقى بإبراهيم الدسوقى المتوفى سنة ٦٧٢ مؤسس الطريقة البرهامية ، وبأحمد البدوى المتوفى بطنطا سنة ٦٩٥ مؤسس الطريقة الأحمدية وقد تعددت فروعها حتى بلغت ستة عشر فرعاً .

ودخلت مصر فى أوائل أيام الأيوبيين - كما قدمنا - الطريقتان القادرية الجيلانية والرفاعية ،

ودخلتها فروع من المولوية أتباع جلال الدين الرومي المتوفى سنة ٦٧٣ ، ومن القلندرية وهم أتباع قلندر يوسف ، وكانوا يخلقون لحاهم وحواجبهم، وقُلت أعيالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض وكانوا لا يتقشفون ولا يتنسكون ، وكان لهم زاوية خارج باب النصر بالقاهرة بالقرب من القرافة ، ويقول المقریزی إن أول ظهورهم كان بدمشق سنة ٦١٩ للهجرة . وعُرفت بمصر بأخرة من أيام المالك الطريقة النقشبندية أتباع محمد النقشبندی المتوفى سنة ٧٩١ وكذلك الطريقة البكتاشية . وشاعت أيام العثمانيين الطريقة الخلوتية المتفرعة - كما أسلفنا - من الطريقة الشاذلية ، وفي مقدمة أعلامها بمصر مصطفى كمال الدين البكرى المتوفى سنة ١١٦٢ للهجرة ، والشيخ الحففى ، وعنه أخذ الطريقة الشيخ أحمد الدردير ، وسنعرض له فى غير هذا الموضع .

وتتميز هذه الطرق بعضها عن بعض بالأوراد ، فلكل منها ورد خاص وهو مجموعة من المناجيات لله والأدعية والابتهالات ، وتتميز أيضا بالأزياء ، فعائم الدسوقية وبيارقهم وأعلامهم خضراء ، وعائم القادرية بيضاء ، وهى عند الأحمدية حمراء ، وعند الرفاعية سوداء . وكانت لهذه الطرق تنظيماً دقيقة تنتهى الدقة ، فتابع الشيخ يلزمه مدة تقصر أو تطول حتى يتلقن عنه طريقته ، وحتى يُثبت إخلاصه الشديد له ، فليحقه بمريديه أو تلاميذه ويلبسه خرقة التصوف : شعار الطريقة ، ويصبح ظلاً له ، إذ تلاشى إرادته فى شيخه تلاشياً تاماً وفى ذلك يقول الشعرانى فى كتابه : « لواقع الأنوار » نقلاً عن الشيخ إبراهيم الدسوقي : « المريد مع شيخه على صورة الميت ، لا حركة ولا كلام ، ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه ، ولا يعمل شيئاً إلا بإذنه من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة الزاوية أو غير ذلك » . وتمضى الأيام ويصبح المريد شيخاً ، وكانوا يرسلون بالمريدين إلى البلدان والقرى ، وبذلك يصبح للشيخ صاحب الطريقة أتباع كثيرون فى وطنه وفى الوطن الإسلامى الكبير ، وإذا هو صاحب طريقة كبرى ، ولكل طريقة شيوخها الكبار .

وكان مما أتاح لهذه الطرق مكانة كبيرة فى نفوس العامة أنهم كانوا يعتمدون على أوقاف محبوسة على زواياهم ورباطاتهم وحنافاتهم ، فلم يكونوا يأخذون من الدولة رواتب مثل الفقهاء المدرسين والقضاة والمحدثين والقراء ، ممن كانوا يعتمدون فى معاشاتهم على الهيئات الحاكمة ، أما هم فلم يكونوا يعتمدون عليها . وبذلك كان لهم استقلال روحى واضح ، جعلهم يقفون أحياناً فى وجوه الحكام ، ويقاومونهم حين يتطلب الشعب هذه المقاومة بسبب ظلم أو طغيان أو زيادة فى الضرائب أو غير ذلك . وهو ما جعل العامة فى كافة البلاد الإسلامية تتعلق بهم تعلقاً

شديداً ، كما جعل الحكام من المالك وغيرهم يخشونهم ويحسبون حسابهم . ولعلنا لم ننس ما مر بنا في نشأة جماعة من المتصوفة بالإسكندرية والفسطاط وأنهم كانوا يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر ويعارضون الحكام أحيانا . ونرى المتصوفة يستظهرون هذا كله في أيام المالك ، فإذا ثارت العامة لفساد أو طغيان أو انحلال في الأخلاق كان المتصوفة من وراء ثورتها ، وكان سلاطين المالك يرهبونهم ويفقدون لهم ما يريدون . وما يدل على مكانتهم لزمانهم أن نجد طومان باي بأخرة من سلاطين المالك لا يقل السلطنة إلا بعد أن يأخذ له الشيخ أبو السعود الجارحي العهد على الأمراء جميعا ، فقد لجأ إلى صوفي ولم يلجأ إلى شيخ الإسلام والفقهاء والقضاة في عصره . وقد أفضنا في الحديث عن التصوف السني وطرقه في أيام المالك ، ولم نعرض للتصوف الفلسفي إلا عند ابن الفارض ، وكأن مصر انصرفت عنه إلا ما قد يقد عليها مع بعض أصحابه مثل الششتري الأندلسي ، وعفيف الدين التلمساني نزيل دمشق وساكنها المتوفى سنة ٦٩٠ . وربما كان المصري الوحيد الذي اعتنق التصوف الفلسفي ومذهب ابن عربي فيه عبد العزيز بن عبد الغنى الحسنى من الأسرة الحسنية بينيع ، نزل أبوه مصر ، وسكن هو الصعيد وشغف بالتصوف . وينقل ابن حجر في ترجمة له بكتابه الدرر الكامنة أنه من أتباع ابن عربي ، وربما لقيه حين زار مصر ، أو لعله رحل إليه في دمشق ، إذ عاش نحو مائة سنة وتوفى سنة ٧٠٣ وكان مذهب ابن عربي في الحلول والاتحاد بالذات الإلهية وجد له عن طريقه مَسْرُوماً إلى مصر .

على أنه ينبغي أن نذكر أن التصوف بأخرة من أيام المالك وفي أيام العثمانيين أخذ ينحرف عن طريقه السوي القديم ، بسبب تحول خاتقاهاته ورباطاته وزواياه إلى تكايا وبيعت كثيرين من الدجالين والمشعوذين ومن سموها بالمجاهيب والدراويش . وكان منهم من يخلق رأسه ولحيته وشعر حاجبيه ورموش عينيه ، ومن يدعى الكرامات وأنه من أولياء الله ، والله براء منه ، لانحرافه عن جادة الدين . على أنه ينبغي أن لا يبالغ الباحثون في الحملة على المتصوفة في الأزمنة المتأخرة ، إذ مما لا شك فيه أنهم هم وأسلافهم السابقين استطاعوا دراويش وغير دراويش أن يحافظوا للإسلام طوال الأزمنة الماضية على وحدته السنية حتى في زمن العثمانيين : أكثر الأزمنة تدهورا وتأخرا . ولعل أكبر صوفي مصري ظهر في زمنهم هو الشعراني المتوفى سنة ٩٧٣ وكان واسع المعرفة عميقها بالعلوم الإسلامية وكذلك بالتصوف واتجاهيه الفلسفي والسني ، إذ قرأ ابن العربي وابن الفارض كما قرأ الغزالي والقشيري وغيرهما من أصحاب الطرق الصوفية ، وآثر التصوف السني وانتظم في سلك الطريقة الشاذلية ، وحاول أن يكون لنفسه طريقة متفرعة منها سماها الطريقة

الشعرانية . وله مصنفات كثيرة تُعدُّ بالعشرات ، أكثرها في التصوف ، أشاع فيها إيمانه بالكرامات والخوارق لا لغيره من المتصوفة فحسب ، بل أيضا لنفسه وما حدث له مع الجن والملائكة . وكان مثل كبار المتصوفة قبل زمنه يعتز بكرامته إزاء الحكام إلى أقصى حد ، فهو لا يقبل منهم مالا ولا هدية . وسأله أحد الحكام العثمانيين وهو راحل إلى الآستانة ألك حاجة عند السلطان ، فأجابه توا : ألك أنت حاجة عند الله ؟ فوجم الحاكم ولم ينبس بينت شفة . ويقول الجبرقي في الجزء الأول من تاريخه : « كان الإمام العلامة الحفنى قطب رضى الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه ويأذنه » . ومعنى ذلك أن الصوفية ظلوا في أيام العثمانيين الحالكة - كما كانوا في الأيام السالفة - يستشعرون استقلالهم الروحي والمادى إزاء الحكام ، كما ظلوا يستشعرون إرادة الشعب وماله من قوة وسلطان .

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

تميزت مصر بتأثيرها الواسع فى الحضارة الإنسانية من قديم ، وهو تأثير لا يتوقف عند الرق بفن الزراعة وشقّ الثَّرْع وتدير القنوات ، إذ يمتد إلى فن المعمار وبناء الأهرامات وفن الملاحة وبناء السفن وصناعات المعادن والخزف والنسيج وورق البردى . وليس هذا فحسب فإنها نسجت لأول مرة حلل الحروف الهيروغليفية التى اشتقت منها الحروف الفينيقية ، وأيضاً ليس هذا فحسب ، فإنها أسهمت بقوة فى نشأة العلم بمعناه العالمى ، سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى . وعلى الرغم من اقتحام الجيوش المغيرة لأسوارها وحصونها فى الحين بعد الحين ظلت فيها الروح العلمية كالجدوة المتقدة لا تخمد مهما تراكم عليها من التراب . ونستطيع أن نتبين شرراً كثيراً من هذه الجدوة فى عهد البطالمة الذين اتخذوا الإسكندرية عاصمة لهم ، فقد بنوا فيها متحفاً ضخماً ضم بين جناحيه جامعة كبرى كان بها مدرسة للطب ، وثانية للرياضيات والفلك ، وثالثة للقانون والفلسفة ، وضم أيضاً مكتبة كبيرة يقال إنه كان بها أربعمئة ألف كتاب أو أكثر . وطبيعى أن تكون اليونانية لغة الدولة هى نفسها لغة العلم فى تلك الدورة من تاريخ مصر ، ويغزو الإسكندرية يوليوس قيصر وتُحرقُ المكتبة فى أثناء غزوه . وتطور الظروف سريعاً وتصبح مصر ولاية رومانية ، وينشئ المصريون مكتبة صغرى بمعبد السرايوم على قلعة الأكروبوليس . ولا نصل إلى سنة ٣٩١ للميلاد حتى ينور القبط بالإسكندرية على ورثة الوثنية الإغريقية ومعبدهم السرايوم ويهدموه ويدمرُوا معه المكتبة . ولا يُعنى الرومان بالحركة العلمية فى مصر أى عناية ، فقد عدّوها مخزناً يمدّهم بالقمح ، ومع ذلك ظلت فيها بقايا كثيرة من حركتها العلمية لعهد البطالمة . وظلت الإغريقية سائدة فى لغة

العلم ، وشاركتها القبطية وخاصة في الطقوس الدينية والكتابات التاريخية ، وأخذت تشاركها قبيل الفتح العربي اللغة السريانية التي كانت منتشرة في الأديرة وخاصة في مجال الطب ، وفي ذلك يقول بترل : « قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب وأنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب في القرنين السادس والسابع (للميلاد) كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائما تدرس في الإسكندرية »^(١) .

ومر بنا في الفصل الماضي أن الحكم الروماني في مصر قبيل الفتح العربي كان لا يطاق لاضطهاد القبط دينيا ولإرهابهم بالضرائب الباهظة ، ولذلك عدَّ القبط العرب مخلصين لهم من نير هذا الحكم الجائر الظالم . وكل شيء يؤكد أن مصر استبقت حينئذ كل ما كانت قد حصلت عليه من علوم ومعارف ، ولا سيما في الطب . وليس بصحيح ما قيل من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية حين افتتحها ، فقد دحضَ هذا القول بترل وأثبت بالدليل القاطع بطلانه لما مر من أن مكتبة الإسكندرية الكبرى إنما أُحرقت تاريخيا في عهد يوليوس قيصر قبل دخول العرب مصر بنحو ستة قرون ، بينما أُحرقت مكتبتها الصغرى قبل أن تتحقق رايات العرب في ربوع مصر بنحو قرنين ونصف^(٢) ، وإذن فالقول بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية افتراء ليس له أى أساس تاريخي .

ومعروف أن الإسلام دفع أمته في كل مكان إلى العلم والتعلم ، وليس بين أيدينا ما يكشف كشفا تاما الحركة العلمية بمصر في عصر الولاة ولكن هناك دلائل كثيرة تدل على أنه انبعثت فيها حركة علمية إسلامية عربية قوية ، فبمجرد أن فُتحت مصر أخذ بعض الصحابة يتجردون لإقراء المسلمين القرآن وعرض بعض الأحاديث النبوية عليهم ليفقوا على تعاليم دينهم ، وكانوا يفتونهم في بعض المسائل حتى يميزوا الحلال من الحرام ، ويعظونهم مذكرين لهم باليوم الآخر وما عند الله من الثواب الآجل . ونهض بهذا الجهد العلمي طبقات من الصحابة الفاتحين لمصر ومن التابعين ومن جاءوا في إثرهم . وفي كتاب حسن المحاضرة للسيوطي أثبات طويلة بأسماء القراء والمحدثين والفقهاء

العلمى حتى الفتح العربى .

(٢) بترل ص ٣٤٨ وما بعدها وقرن بصفحة ٨٣ وما كتبه

في الفصل الثامن ومقال ماكس مايرهوف في التراث

اليوناني .

(١) انظر في هذا النص وما تقدمه من حديث كتاب فتح

العرب لمصر تأليف بترل (الترجمة العربية) ص ٨٣

وما بعدها وراجع مقال ماكس مايرهوف عن مدرسة

الإسكندرية وانتقالها إلى بغداد في كتاب التراث اليوناني لعبد

الرحمن بقوى ، وقد فصل القول في نشاط هذه المدرسة .

والوعاظ ممن اضطلعوا في الحقب الإسلامية الأولى بمختلف الدراسات الدينية . وكانت هذه الحركة العلمية تحظى - منذ أول الأمر - برعاية الدولة وولاتها ، فقد كانت ترسل إلى مصر من يفقه الناس في أمور دينهم ، وبدأ ذلك منذ زمن عمر^(١) بن الخطاب . وكان هناك دائماً القضاة للحكم بين الناس في خصوماتهم وللفتوى فيما يجادلهم من الشئون ، وكانوا عادة من الفقهاء وكثيرون منهم كانوا محدثين ، وكان يُسند إليهم الوعظ . ودائماً تلقانا نصوص هنا وهناك تدل على أن الدولة كانت تعني بإرسال بعض المحدثين والفقهاء إلى مصر لتعليم الناس ، من ذلك أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١) أرسل إلى مصر نافعاً^(٢) مولى ابن عمر يعلم الناس السنن ، كما أرسل ثلاثة من الفقهاء للفتيا كان من بينهم يزيد^(٣) بن أبي حبيب وقد أقام بها حتى توفي وكونَ بها مدرسة فقهية كان لها أثرها البعيد بعده . ولم تكن مصر تكنفي بمن يرسلهم إليها الخلفاء الأمويون ، فقد أخذت تتكون فيها أجيال من القراء والفقهاء المحدثين نجد أسماءهم مرتبة حسب وفياتهم في حسن المحاضرة . وكلما خطونا خطوة في العصر العباسي الأول أحسنا بازدياد هذا النشاط ، ومن المؤكد أنه كان مما يُدركه الأعطيات والرواتب التي كانت تفرضها الدولة وولاتها للعلماء ، كما كان الشأن في بغداد والبصرة والكوفة .

وظاهرة مهمة تلاحظ على القضاة والعلماء في مصر ، فإن منهم من كان ذاسعة في الثراء ويبدو أن القضاة كانوا يتقاضون أعلى الرواتب ، فقد كان عبد العزيز بن مروان وإلى أخيه عبد الملك على مصر يفرض لعبد الرحمن بن حجيرة الخولاني القاضي ألف^(٤) دينار كل عام ، ومربنا في الفصل الماضي أن عبد الله بن طاهر حين ولي مصر لعهد المأمون فرض لقاضي الفسطاط سبعة دنانير كل يوم . وكان الليث بن سعد الفقيه ثرياً ثراء طائلاً ، ويقال إن هرون الرشيد أقطعه إقطاعات كثيرة كانت تدرّ عليه آلاف الدنانير ، وكان يرسل إلى مالك إمام أهل المدينة سنوياً مائة دينار . وكان ينثر أمواله نثراً على تلاميذه ومن يهاجر إلى مصر من المحدثين والفقهاء^(٥) . وكان عبد الله بن عبد الحكم الفقيه المالكي المتوفى سنة ٢١٤ من ذوى الأموال والرباع ويقال إنه أهدى إلى الشافعي حين نزل مصر ألف دينار وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألفاً ثانية ومن رجلين آخرين ألفاً ثالثة^(٦) . وفي ذلك ما يدل على أن كبار التجار والأثرياء في مصر كانوا يرفدون العلماء

(٤) حسن المحاضرة ١/ ١٣٧ .

(٥) ابن خلكان ٤/ ١٣٠

(٦) ابن خلكان ٣/ ٣٤

(١) حسن المحاضرة ١/ ١٩٠

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٢٩٧

(٣) حسن المحاضرة ١/ ٢٩٩

بأموالهم . ويقال إنه كان ليونس بن عبد الأعلى أحباس^(١) (أوقاف) . وكان طييات مصر وخيراتها صُبت في حجور العلماء . فكان منهم كثيرون في يسار ونعمة ، وكانوا يصلون زملاءهم وتصلهم الدولة وكبار التجار والموسرين ، مما هيا للعلماء أن يخلصوا للعلم وينبغوا فيه .

وظاهرة ثانية تلاحظ بجانب الظاهرة السابقة وهي أننا لا نكاد نتقدم إلى أواسط القرن الثاني للهجرة حتى يصبح لعلماء مصر حظ واضح من المساهمة في الفكر الإسلامي العربي . وقد ظلت أكثر من قرن تتلقى آثار هذا الفكر وتحاول أن ترعاها وأن تضيف إليها من شخصيتها ما ينميها ، وغلب عليها حينئذ التلقي والتلمذة ، فهي تتلقى قراءات الذكر الحكيم والحديث النبوي والفقه واللغة والأخبار والتاريخ العربي الإسلامي ، وتُسيغ ذلك كله وتمثله حتى إذا توسطت القرن الثاني للهجرة أخذت تسهم بحظ قوى فيما تتلقاه . ولعل من الطريف حقا أنها أخذت تزعم بقوة المغرب والأندلس جميعا ، فإذا هي تعدّهما لقراءة ورّش والاستقبال مذهب مالك لإمام المدينة والحجاز . وليس ذلك فحسب ، فإنها هي التي كتبت لأول مرة تاريخ الفتوح لإفريقيا والأندلس ، وأذاعت رواية للسيرة النبوية ، ستحدث عنها فيما بعد ، كانت إماما لكتب السيرة العطرة ، ونفذ أحد أبنائها وهو ذو النون المصري إلى وضع أسس التصوف ، كما مرّ بنا في الفصل الماضي . ومعروف أنها استقبلت على رأس المائتين الإمام الشافعي وحملت عنه مذهبه ونشرته في بلدان العالم الإسلامي ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة ذيوّعا وانتشارا .

وعلى هذا النحو أصبحت مصر في زمن الولاة مركزا مهما من مراكز العلم وقصدها الطلاب من أطراف المغرب والأندلس لحمل العلم عن علماءها المختلفين . ونمضى إلى زمن الدولة الطولونية فزرى الحركة العلمية نامية ناشطة على نحو ما تصور ذلك أسماء العلماء المصريين والوافدين المدوّنة حسب تاريخ الوفيات والتخصصات العلمية في كتاب حسن المحاضرة . ويُنسب أحمد بن طولون جامعه المشهور ويرتّب لإملاء الحديث النبوي فيه الربيع بن سليمان المرادي ويحمل إليه صناديق المصاحف وينقل إليه القراء والفقهاء^(٢) . وليس بين أيدينا نصوص توضح أعطياته للعلماء ، ويبدو أنها كانت كثيرة إذ يُروى أنه كان يعطى القاضي بكّار بن قتيبة كل سنة ألف دينار خارجا عن المقرر له وأنه ظل على ذلك أعواما كثيرة^(٣) . ولا بد أن غطايا مقاربة كانت تُعطى للقراء والفقهاء والمحدثين والقائمين على دراسة التاريخ واللغة والأدب . وأخذت مصر منذ زمن ابن طولون (٢٥٤ -

(١) ابن خلكان ٣ / ٢٧٩

(٢) ابن خلكان ٣ / ٢٥٠

(٣) خطط القرطبي ٣ / ١٤٦ وما بعدها

٢٧٠ هـ) بل قبل زمنه بعشرات السنين تصبح مقصدا للعلماء وطلاب العلم لا من المغرب والأندلس فحسب ، بل أيضا من الشام والعراق وإيران وخراسان . وقد نزلها خمسة من أصحاب الصحاح يكتبون الحديث النبوى عن علمائها ، وهم البخارى وأبوداود ومسلم وابن ماجه والنسائى ^(١) وأقام فيها الأخير واتخذها مسكنا ودارا له ، وكان ينزل فى زقاق القناديل ، وأملى بها سُنَّته ، وأخذها عنه الناس من المصريين وغيرهم .

وكان ابن طولون وغيره من ولاية مصر وحكَّامها يَتَرَوْنَ من ينزل بها من العلماء وطلاب العلم ، يدلُّ على ذلك من بعض الوجوه ما يُروى من أن ابن - ير الطبرى المؤرخ والمفسر المشهور المتوفى سنة ٣١٠ نزلها وهو فى نحو الثلاثين من عمره سنة ٢٥٣ وتركها قليلا إلى الشام ثم عاد إليها سنة ٢٥٦ ليتزود مما لدى علمائها من الحديث والفقه . وكان شافعيًا ، وجمعت الرحلة بينه وبين أبى بكر محمد بن إسحق بن خزيمة النيسابورى المتوفى سنة ٣١١ حامل قراءة ورش عن يونس بن عبد الأعلى وفقه الشافعى عن تلميذه : المزنى والربيع بن سليمان المرادى إلى موطنه : نيسابور بخراسان ، وأيضا محمد بن نصر المروزى المتوفى سنة ٢٩٤ حامل فقه الشافعى إلى سمرقند عن المزنى وغيره من تلاميذه ، وكذلك محمد بن هرون الرويانى المحدث وله مسند . جاءوا جميعا إلى القسطنطينية يدرسون على شيوخه ، ويقال إنهم اجتمعوا يوما ولم يبق عندهم ما يموتهم ، وكان والى مصر قد علم بأمرهم - وأكبر الظن أنه ابن طولون - فأرسل إلى كل منهم مائة دينار ، ويقال إنه أرسل إليهم ألف دينار ^(٢) . وإذا كان طلاب العلم تُعْلَقُ عليهم الأموال بمصر فما بالناس بما كان يُعْلَقُ على علمائها .

وما نصل إلى أواخر القرن الثالث حتى تكون مصر قد نشرت مذهب الشافعى فى خراسان عن طريق أبى بكر بن إسحق النيسابورى ومحمد بن نصر وأيضا عن طريق عبدان المروزى الذى تفقه على المزنى والربيع بن سليمان ، ويقول السيوطى إنه هو الذى أظهر مذهب الشافعى فى خراسان ^(٣) ، وظلت مصر منذ هذا التاريخ من أهم بيئاته . ومن أهم تلاميذ أصحاب الشافعى المصريين أبو القاسم الأنماطى عثمان بن سعيد المتوفى سنة ٢٨٨ وفيه يقول السبكى : هو الذى اشتهرت به كتب الشافعى ببغداد ، وعليه تفقه شيخ المذهب هناك وحامل لوائه فى بغداد والعراق

(٢) معجم الأدباء ٤٦/١٨ وحسن المحاضرة

٣١٠/١ .

(٣) حسن المحاضرة ١/٣٤٩ .

(١) حسن المحاضرة ١/٣٠٦ ، ٣٠٩ وطبقات الشافعية

للسبكى (طبعة عيسى البابى الحلبي بالقاهرة) ٧/٢ ،

١٧١ ، ١٥/٣ .

أبو العباس بن سُرَيْج^(١) . أما الشام فحمل إليها المذهب عن تلاميذ الشافعي أبو زرعة محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ إذ أدخله إلى دمشق وولى قضاءها ، ولم يتوله بعده إلا في الشام ولا مصر إلا شافعي المذهب حتى عصر الظاهر بيبرس^(٢) . وأما الحجاز فيقول السبكي عنها إنها لم تبرح منذ ظهور مذهب الشافعي وإلى يومنا هذا في أيدي الشافعية : القضاء والخطابة والإمامة بمكة والمدينة^(٣) . ويمضي السبكي قائلًا إن أهل اليمن شافعية إلا أن يكونوا زيديين ، ويذكر أن مذهب الشافعي شاع في فارس ، وأما أذربيجان فلا تعرف سواه . وكل ذلك بفضل تلاميذ الشافعي المصريين الذين قاموا على مذهبه خير قيام واستطاعوا نشره في القرن الثالث عن طريق تلاميذهم حتى أقصى المشرق .

ونمضي مصر في العناية بالدراسات الدينية لعهد الإخشيديين في القرن الرابع ويصور ذلك من بعض الوجوه ما رواه ابن سعيد من أنه كان في جامع عمرو للمالكيين خمس عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات^(٤) . ومعروف أن مصر كانت مالكية حتى قدوم الشافعي ، فاقسم مصر مذهباً والمذهب المالكي ، ولم يكن للمذهب الحنفي أتباع إلا بعض من كان يتولى القضاء بها لعهد بني العباس ، ولا يتجاوزون عدد أصابع اليد الواحدة . أما جنهور القضاة فكان من المالكية ، حتى إذا كنا في أواخر القرن الثالث الهجري انتقل القضاء من أيديهم نهائياً إلى الشافعية كما مر بنا آنفاً في حديث السبكي . وأتيح للمذهب الحنفي إمام مصري كبير من أئمتهم هو أبو جعفر الطحاوي المتوفى سنة ٣٢١ فهياً له بمصر حياة لم تكن له من قبل ، وهي التي أتاح لقيام الحلقات الثلاث التي يُدرّس فيها الفقه الحنفي كما ذكر ابن سعيد . وتأخذ الدراسات اللغوية والنحوية في النمو بمصر منذ عهد الدولة الطولونية ويؤمها الأخفش الصغير تلميذ المبرد ، ويظل هذا النمو مطرداً في زمن الدولة الإخشيدية ، ويقصدها الطلاب المغاربة والأندلسيون ويحملون عنها المعاجم وكتاب سيبويه وغير ذلك من كتب اللغة والنحو .

وعملت الدولة الإخشيدية على إنماء الحركة العلمية وساعدها على ذلك أنه كان يضطلع بالوزارة لها مدة متطاولة جعفر بن الفضل بن الفرات المعروف باسم ابن حنّابة وكان يُغلق على العلماء ويجزل صلاتهم ، قصده الأفاضل - كما يقول ابن خلكان - من البلدان الشاسعة ، وكان من حفاظ الحديث النبوي وكان له مجلس في المسجد يملئه فيه على الناس ، وعُني بتأليف مسند

(٣) السبكي ١/٣٢٢ .

(١) السبكي ٢/٣٠١ وانظر ٣/٢١ .

(٤) المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ١٧٣ .

(٢) السبكي ٣/١٩٧ وحسن المحاضرة ١/٣٩٩ .

خاص به ، وإليه رحل الدَّارَقُطِيُّ على بن عمر أكبر محدثي العراق في عصره ، وأعانته في تأليف مسنده مع من كان يُعِينُهُ فيه من المصريين وأقام لديه مدة ، وبالع ابن حنّابة في إكرامه ، وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئا كثيرا وحصل له بسببه مال وفير^(١) .

وظل ابن حنّابة يقود الحركة العلمية بمصر طوال وزارته وقد امتدت نحو عشرين عاما من أيام كافور إلى قرب انتهاء الدولة الإخشيدية ، وطبيعى ومثله يقوم على ذلك أن تمضى في الفو والنشاط . ومن نزل مصر حينئذ المسعودى على بن الحسين المؤرخ المشهور . ومنها ذاعت كتبه التاريخية وفي مقدمتها كتابه مروج الذهب ، وظل مقبها بها حتى لبى نداء ربه سنة ٣٤٥ وقيل بل سنة ٣٤٦ .^{*}

وتزداد الحركة العلمية نموا ونشاطا في زمن الدولة الفاطمية ، إذ عمل الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم على دَفْع هذه الحركة دفعا قويا ، وما تكاد تمضى سنوات في عهد هذه الدولة حتى نجد الخليفة العزيز (٣٦٦ - ٣٨٦ هـ) يرسم راتبا لسبعة وثلاثين من الفقهاء ويبنى لهم دارا بجوار الجامع الأزهر^(٢) الذى كانوا يتخذونه مقرا لدعوتهم الإسماعيلية . ولا نعرف هل كان الفقهاء جميعا إسماعيلية أو كان بينهم نفر من أهل السنة ، على أننا نجد ابنه الحاكم يسند إلى فقيهين مالكيين التدريس في هذا الجامع^(٣) ، مما يدل على أنه تحول سريعا إلى جامعة كبرى للدراسات الدينية واللغوية . وفي أخبار وزير العزيز ابن كلّس أنه كان يُجْرَى بأمره ألف دينار شهريا على جماعة من أهل العلم والورّاقين والمجلّدين^(٤) ، مما يدل على أنه نشأت حركة علمية كبرى لا للدراسات العلمية فحسب ، بل أيضا لنسخ المخطوطات في مختلف العلوم والآداب . وأكثر دلالة على ذلك ما يُروى من أن العزيز عُني بإنشاء مكتبة في القصر ، كان بها ما يزيد على مائة ألف مجلد ، وفي رواية على مائتي ألف^(٥) ، وكان أمينه القائم عليها الشابشتى^(٦) على بن محمد صاحب كتاب الديارات ، ويقال إنه كان بها أكثر من ثلاثين نسخة من معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد ، وأكثر من عشرين نسخة من تاريخ الطبرى ، ومائة نسخة من معجم الجهمرة لابن دريد . وما زال العزيز يُعْنَى بهذه المكتبة هو ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين ، حتى قيل

(٤) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لآدم ميسر

٢٥٠/١ نقلا عن يحيى بن سعيد الأنطاكي .

(٥) النجوم الزاهرة ١٠١/٤ والمخطوط ٢/٢٨٨ .

(٦) ابن خلكان ٣/٣١٩ .

(١) ابن خلكان ١/٣٤٧ ، ٣/٢٩٨ .

(٢) صبح الأعشى ٣/٣٦٣ والمخطوط ٣/١٥٧ ،

٢٧٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤/١٧٨ .

إنها أصبحت أربعين خزانة مملأة بنفائس المجلدات في الحديث النبوى والفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة والتاريخ وعلوم الأوائل ، ويقال إنه لم يكن في العالم دار كتب تماثلها وأنها كانت من عجائب الدنيا . وعلى الرغم من بيع بعض مصاحفها وكتبها في أيام المجاعة الهائلة لزمّن المستنصر فإنها ظلت زاخرة بالكتب ، حتى يقال إن صلاح الدين أهدى وزيره القاضى الفاضل منها مائة ألف مجلد أودعها مدرسته الفاضلية ، وظل ابن صورة دلال الكتب يبيع منها للناس مدة من السنين ^(١) . وكانت هذه المكتبة الضخمة تعد أما لمكتبات القاهرة والفسطاط جميعا ، فقد كانت تُلحقُ بكل جامع خزانة للكتب ، وكان الفاطميون يمدونها من حين إلى حين بما يلزمها من المصنفات ، يدل على ذلك - من بعض الوجوه - ما يروى عن الحاكم من أنه أنزل من القصر إلى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ١٢٩٨ مصحفا وإلى جامع ابن طولون ٨٠٠ مصحف كان منها ما هو مكتوب بالذهب ^(٢) . وإنما نُصِّوا على إنزال المصاحف لجلاها ، ولا بد أنهم أنزلوا معها كثيرا من الكتب . ونفس مكتبة القصر كان يختلف إلى خزائنها الخارجية العلماء والطلاب للقراءة والنسخ منها والاطلاع .

وؤسِّس في سنة ٣٩٥ جامعة كبرى تسمى دار العلم ، حُمل إليها من خزائن القصر كتب كثيرة تحتوي على سائر العلوم الإسلامية والآداب والفلسفات وعلوم الأوائل ، يقول المقرئى « حضرها الناس على اختلاف طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجُعِل فيها ما يحتاج الناس إليه من الخبر والورق والأقلام والمحابر . وكانت بها دروس للمحدثين والقراء والفقهاء وأصحاب النحو واللغة والمنجمين والأطباء والمتفلسفة ، وكل هؤلاء كانت تجرى عليهم وعلى الطلاب الرواتب . وما تدخل سنة ٤٠٠ حتى يكتب الحاكم وَفْقِيَّة كبيرة للإنفاق منها على دار العلم وعلى الجوامع الكبرى ، وخصَّ الفراشين والحُصْر والخبر والورق والأقلام في دار العلم بمائتين وسبعين ديناراً سنوياً . ومن المؤكد أن الحاكم كان يتفنى بهذه الجامعة أن تكون مركزاً للدعوة للعقيدة الإسماعيلية بدليل أنه جعل رئيساً لها أحد دعائها من بيت النعمان وهو عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، ويبدو أنه وجد في ذلك ما يهدد بثورة أهل السنة المصريين ، فأضاف إلى علمائها الإسماعيليين من أصحاب نخلة طائفة من فقهاء أهل السنة ومحدثيها وعلى رأسهم عبد الغنى بن سعيد الفقيه الشافعى المشهور وأكبر حُفَاط

(١) انظر في هذه المكتبة وكل ما ذكرت عنها المخطوط (٢) المخطوط ١٤٦/٣ ، ١٦٣ .

١٢٧/٢ وما بعدها .

الحديث المصريين في زمنه . وما زالت هذه الجامعة ناهضة بالحركة العلمية في القاهرة حتى عهد الأفضل بن بدر الجبال إذ رأى إغلاقها ، لنشوب جدل عنيف بها فيما صنع من جعل المستعلي بالله الخليفة الفاطمي بعد أبيه المستنصر دون أخيه نزار الذي كان يكبره ، وخشى من ذلك حدوث ثورة ، غير أن التزارية لم يلبثوا أن قتلوه ، وقيل بل قتله الأمرين المستعلي . غير أن الجامعة أو دار العلم لم تلبث أن أعيدت سنة ٥١٧ بعد نقلها إلى دار جديدة ظلت فيها حتى نهاية الدولة الفاطمية ^(١) .

وإذا كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية استغلوا الجامع الأزهر ودار العلم في أول تأسيسها لنشر الدعوة الإسماعيلية فإن الجامع العتيق جامع عمرو بن العاص في القسطنطينية ظل مركزاً لدراسات أهل السنة . ولا بد أن نلاحظ أن القاهرة حين أُسِّت إنما كانت مسكناً للخلفاء الفاطميين وحواشيها من رجال الدولة وجنود الجيش القادم معها من المغرب ، بينما كانت القسطنطينية حيثئذ مسكن المصريين ، كما كان شأنها قبل دخول الفاطميين ، وكان مسجد جامعها كبرى للدراسات السنية . ويذكر المقدسي الذي زارها سنة ٣٧٥ أنه رأى في جامع عمرو بن العاص بين العشاءين مائة مجلس وعشرة ^(٢) للقراء والدراسات السنية . ومع ذلك كان فقهاء الدعوة الإسماعيلية يترآون فيه ويفتون الناس أحياناً ^(٣) ، كما أخذ أهل السنة بدورهم يحاولون الإملاء وإلقاء المحاضرات في الجامع الأزهر ، ولم يجد الحاكم بدءاً - كما مر بنا - من أن يعين في الأزهر وفي دار العلم بعض أهل السنة من المحدثين والفقهاء .

ولعل في ذلك ما يخفف حدة القول بأن الفاطميين كانوا يضطهدون فقهاء أهل السنة ومحاربونهم ، ويذكرون في هذا الصدد الاعتداء في سنة ٣٨١ لـأبي لعهذ العزيز على رجل وُجد عنده موطأ للإمام مالك ^(٤) ، وقد يكون السبب أن الرجل تعرض للدعوة الإسماعيلية بالسبب والطلب . ويذكرون أن الحاكم أراق دماء نفر من فقهاء أهل السنة ، وكان فيه سفه وخيل ، فلم يرق دماءهم وحدهم ، بل أراق أيضاً دماء كثيرين من الدعاة الإسماعيليين ورجال الدولة . وكان بيت النعمان أهم البيوت المغرية في نصرتهم والتأليف في عقيدتهم الفاسدة ، ومع ذلك قتل الحسين بن علي بن النعمان كبير قضاته ، ووُلِّي بعده ابن عمه عبد العزيز الذي أقامه رئيساً لدار العلم ،

(١) انظر في دار العلم القديمة والجديدة الخطط

ص ٢٠٥

(٣) ابن خلكان ٣٠/٧ وانظر الخطط ٣/٣١ .

١٩٤/٢ ، ٢١٨ .

(٤) الخطط ٣/٢٧٥ .

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (طبع لندن)

كما مر بنا ، ولم يلبث أن قتله سنة ٤٠١ وولّى بعده مالك بن سعيد الفارق ، ولم يلبث أن سفك دمه ^(١) . وإذن فقتل الحاكم لجاعة من أهل السنة ليس دليلاً كافياً على اضطهاد الفاطميين لهم إذ كان لا يثنى ولا يذر من كبار دعائه وقضاته ورجال دولته الإماميين .

ومما يذكر من اضطهاد الفاطميين لفقهاء أهل السنة أن الخليفة الظاهر (٤١١-٤٢٧ هـ) أمر بطرد ^(٢) الفقهاء المالكية من مصر أى الفسطاط سنة ٤١٦ . وينقص هذا الخبر كتاب رواه عنه صاحب النجوم الزاهرة حمل فيه حملة شعواء على من يؤلّهون علياً وأباه الحاكم ، وفيه يقول : « قالوا في آباءنا وأجدادنا منكر من القول وزور ، ونسبونا بقلوبهم الأشنع ، وجهلهم المستفزع إلى مالائيلق بنا ذكره ، وإننا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضلال » ^(٣) . ومثله لا يضطهد المالكية ولا ينهيه من البلاد . وكان لا يزال بمصر في عهده عبد الوهاب بن علي البغدادي المالكي أحد الأئمة المالكية المجتهدين في المذهب ، نزل مصر لضيق حاله ببغداد وتوفى بها سنة ٤٢٢ يقول السيوطي : « أكرم بمصر وتمول وسعد جداً ، ومرض فكان يقول في مرضه : لا إله إلا الله عندما عشنا متنا ^(٤) » . فمصر في عهد الخليفة الظاهر وقبله وبعده كانت لاتزال مركزاً كبيراً للإشعاع العلمي والدراسات الدينية ، يترها العلماء ليشاركوا في نهضتها العلمية ، ويتزها طلاب العلم ليتزودوا منها خير زاد . ونضرب مثلاً بمكي بن أبي طالب القيسي القيرواني المتبحر في القراءات المتوفى سنة ٤٣٧ والمولود سنة ٣٥٤ فقد جاءها يطلب العلم فيها سنة ٣٦٧ ثم عاد إليها سنة ٣٧٤ ورجع إلى بلده ثم عاد سنة ٣٧٧ لأخذ القراءات عن شيوخها ورجع إلى القيروان سنة ٣٨٠ ثم عاد سنة ٣٨٢ لاستكمال القراءات ، ومضى بعد سنوات إلى جامع قرطبة بالأندلس بقرئ فيه الناس ^(٥) . ومثله أبو عمر والداني الأندلسي نزل مصر سنة ٣٩٧ وحمل القراءات عن أساتذتها وهو في الخامسة والعشرين من عمره ^(٦) . فهذان عالمان سنيان جليلان نزلا مصر لعهد العزيز والحاكم على الترتيب ووجدنا فيها ما يكفل لهما الإقامة بها والعيش فيها .

ومن نزل مصر من كبار المحدثين النقاش الحافظ المتوفى سنة ٣٦٩ وأبو سعيد الماليني المتوفى سنة ٤١٢ وأبو نصر السجزي المتوفى سنة ٤٤٤ ونزلها في العقد الثاني من القرن السادس أكبر حفاظ

(٥) ابن خلكان ٢٧٤/٥ .

(٦) معجم الأدياء ١٢/١٢٦ وكان أستاذ الداني في

القراءات هو نفسه أستاذ مكي : عبد النعم بن غلبون الحلبي

نزول مصر .

(١) المغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٣٦٦ .

(٢) الخطط ٣١/٣ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤/٢٤٩ .

(٤) حسن المحاضرة ١/٣١٤ .

الحديث في عصره. الإمام السُّلُفي . ونزلها من كبار فقهاء الشافعية أبو العباس الذُّبُلِي المتوفى سنة ٣٧٣ وأبو الحسن الحلبي المتوفى سنة ٣٩٦ وأبو الفضل البغدادى المتوفى سنة ٤٤١ وأبو القاسم العراقي المتوفى سنة ٤٧٧ وأبو الفتح المقدسى المتوفى سنة ٥١٨ ، ونزلها من فقهاء المالكية الأبهري الصغير وعبد الله بن الوليد الأندلسي المتوفى سنة ٤٤٨ وعبد الجليل بن مخلوف الصقلي المتوفى سنة ٤٥٩ وأبو بكر الطرطوشي الأندلسي المتوفى سنة ٥٢٥ وأبو العباس الفاسي^(١) المتوفى سنة ٥٦٠ .

وإذا كان هؤلاء العلماء والطلاب الوافدون وجدوا في مصر مستقرا لهم ومقاما فأول أن يجد ذلك أنباؤها ، وأيضاً فإن وراءهم كثيرين من محدثي مصر وفقهائها الشافعيين والمالكيين والقراء يُعَدُّون بالعشرات على طول السنوات في عهد الدولة الفاطمية ، مما يؤكد أن الفاطميين لم يعلنوا معارضة هذه الدراسات ، بل لعلهم كانوا يشجعون كثيرين من أهلها ومن الوافدين عليهم ، حتى ليقول نزيلها الإمام عبد الوهاب المالكي قولته السالفة : « عندما عشنا متنا » . ولعلنا لسنا في حاجة إلى كل هذه الأدلة لنبرهن على أن الفاطميين لم يقفوا حجر عثرة ضد نشاط أهل السنة ومذهبي الفقه الشافعيين حينئذ في مصر : المذهب الشافعي والمذهب المالكي فإن القلقشندي يشهد لهم بذلك شهادة بيّنة إذ يقول عنهم : « كانوا يتألفون أهل السنة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على خلاف معتقدهم .. ومذاهب مالك والشافعي وأحمد (بن حنبل) ظاهرة الشعار في مملكتهم بخلاف مذهب أبي حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ومن سألهم الحكم به أجابوه^(٢) » . وهو محق في مذهب أبي حنيفة إذ لم يكن له نشاط بمصر في عهد الفاطميين ، أما مذهب ابن حنبل فغير محق في إثبات نشاط له حيثئذ إذ كان نشاطه مثل نشاط مذهب أبي حنيفة يكاد يكون معدوما .

على كل حال هذه شهادة صريحة للفاطميين بأنهم كانوا يترضون أهل السنة ، وحقا حين دخلوا مصر أسندوا وظيفة قاضي القضاة إلى النعمان قتيبههم وتوارثها بعده بعض أبنائه وأحفاده ، ثم ولوها بعض شيعتهم . ويبدو أنهم أخذوا في عصر المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) يتركون هذه السياسة ، إذ عيّنوا على رأس القضاة قتيها شافعي هو أبو عبد الله محمد^(٣) بن سلامة القضاعي أحد أئمة زمنه المتوفى سنة ٤٥٤ . ويبدو أن كثيرين من القضاة الفرعيين في الإسكندرية وغيرها كانوا

(٣) المغرب (قم القاهرة) ص ٣٦٧ وانظر حديث السيوطي في كتابه حسن المحاضرة عن فقهاء الشافعية في زمن الفاطميين ٤٠٤ / ١ وما بعدها .

(١) راجع في هؤلاء الفقهاء والمحدثين حسن المحاضرة للسيوطي وما به من أثبات خاصة بهم في جزئه الأول .
(٢) صبح الأعشى للقلقشندي ٥٢٠ / ٣ .

شافعيين أو مالكيين. ويتولى الوزارة بدر الجمالى (٤٦٨ - ٤٨٧ هـ) ثم ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥) . ويصبحان ولي الأمر ويحجران على الخلفاء وكانا لا يعارضان أهل^(١) السنة ولا يتعصبان ضدهم . وحين يتولى أحمد الأفضل حفيد بدر الوزارة يعين أربعة قضاة : شيعيا إسماعيليا وشيعيا إماميا ومالكيًا وشافعيًا^(٢) . ويظهر أن هذا أصبح تقليدا منذ صنع أحمد الأفضل هذا الصنيع سنة ٥٢٥ .

ويتزل في الإسكندرية السلفى أكبر حفاظ الحديث في العصر ويأخذ في إملائه ، ويتوافد عليه الطلاب من مصر وغير مصر ، ويتولى الإسكندرية العادل بن السلال في عهد الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) وكان شافعي المذهب مثل السلفى فاحتفل به وزاد في إكرامه وبني له مدرسة فوُضَّ تدريسيها إليه ، يقول ابن خلكان : وهى معروفة باسمه إلى الآن أى في زمنه^(٣) . وفى صبح الأعشى سجلٌ لإسناد هذه المدرسة إلى الفقيه السلفى والقيام على نفقة من فيها من القراءة والفقهاء والمرابطين والصلحاء وطلبة العلم من أهل الإسكندرية ومن الواردين إليها والطارئين عليها سواء كانت النفقة نقدا أو غلة ، مع بيان أنه أُعِدَّ لهم جميعا فيها المئوى والمسكن . وبذلك يكون ما ذكره المقرئى وغيره من أن المدارس لم تعرف في مصر إلا في عهد صلاح الدين غير صحيح^(٤) ، فقد كانت بها مدرسة السلفى المذكورة ، وكانت مدرسة سنية شافعية . ونفس دار العلم يمكن أن نعدّها مدرسة بالمعنى الكبير الذى كان لنظامية بغداد ، إذ كانت مؤسسة علمية كبرى .

وكانت الدولة الفاطمية قد انتهت إلى انحلال وفساد شديد وأخذ الظلام يعم ديارها في مصر والشام. وفى غفلة من الزمن يستولى حملة الصليب على بيت المقدس وساحل الشام على نحو ما مر بنا فى الفصل الماضى ، ويستغيث الفاطميون بنور الدين صاحب حلب ، ويرسل إليهم بجنود على رأسها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الظروف سريعا ، وينهى صلاح الدين حكم الفاطميين ويقبض على صولجان الحكم ، ويكاد يقضى على الصليبيين فى الشام إلا قليلا ويستولى على بيت المقدس وتتكاثر فتوحاته ، ويحقق للعرب والمصريين الزعيم المنتظر لتخليص البلاد من حملة الصليب . وعلى نحو ما قاد هذه الفتوح قاد نهضة علمية رائعة ، إذ كان محبا للدراسات الإسلامية شغوقا بها وخاصة بالحديث النبوى مما جعله يتزل الإسكندرية ليلتقاء على

(١) المغرب ص ٢١٦ .

(٣) ابن خلكان ١/ ١٠٥ .

(٢) أخبار مصر لابن ميسر ص ٧٥ .

(٤) الخطط ٣/ ٣١٥ وانظر حسن المحاضرة ٢/ ٢٥٦ .

السلفى أكبر حفاظه فى عصره . وكان يستمع إلى الفقهاء ويُروى أنه تلقى على بعض الشيوخ موطأ مالك برواية فقيه الإسكندرية الطروشى المالكى^(١) ، بينما كان السلفى شافعيًا ، وكان صلاح الدين نفسه شافعي المذهب . ولعل فى ذلك ما يفسر اهتمامه بفقهاء المذاهب ، بل لقد ضم إليهم أيضا فقهاء المذهب الحنفى ، فإذا هو ينشئ خمس مدارس بالقاهرة والفسطاط ، أنشأ اثنتين منها فى أثناء وزارته للعاقد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٦٦ : مدرسة لفقهاء الشافعية بجوار جامع عمرو سميت مدرسة ابن زين التجار باسم الشيخ الذى قُوِّضَ إليه تدريس الفقه الشافعى بها ثم عُرفت باسم المدرسة الشريفة ، ومدرسة لفقهاء المالكية بالقرب منها سميت المدرسة القمحية للقمح الذى كان يأتيها من ضيعة بالقيوم وقفها عليها صلاح الدين ، حتى إذا استولى على مقاليد الحكم بمصر أنشأ ثلاث مدارس اثنتين للشافعية إحداهما بجوار مسجد الشافعى والثانية بجوار مشهد الحسين ، أما الثالثة فجعلها للحنفية وسميت السيوفية^(٢) . والمهم أنه رُتب لكل هذه المدارس الأساتذة والمدرسين والمعيدى ، فقد كان نظام الإعادة معروفًا حينئذ ، ورُتب لها أيضا الأئمة والمؤذنين والقومة والطلاب ، وجعل لكل مدرسة أوقافها الخاصة للإنفاق المستمر عليها فى حياته وبعد وفاته ، وألحق بكل مدرسة مساكن للمعلمين والطلبة . وكأن كل مدرسة كانت تشبه كلية من كليات الجامعات فى عصرنا ، فع كل مدرسة مساكنها وميزانيتها للإنفاق اليومي والشهري عليها .

وبذلك تبدأ مصر دورة علمية كبيرة فى عهد الدولة الأيوبية لا فى عهد صلاح الدين وحده ، بل أيضا فى عهد من خلفوه من الأيوبيين ، إذ كانوا فى جملتهم علماء ، وكذلك كان وزراؤهم وأمرؤهم منذ عهد صلاح الدين نفسه ، ولكثيرين منهم مدارس أنشأوها فى الفسطاط والقاهرة عددها المقرئى - والطريف أنه اشترك معهم فى إنشائها بعض التجار - وقد بلغ بها خمسا وعشرين مدرسة^(٣) . ويبدو أن إحصائيته غير كاملة ، فإنه لم يقف عند مشهد الحسين وقفه توضح أنه كان مدرسة كبقية المدارس . ونستطيع أن نميز بين هذه المدارس ثلاث مدارس للفقهاء الشافعى وراء المدارس التى أنشأها صلاح الدين ، إحداهما أنشأها ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه وسميت مدرسة منازل العزوه واسم المنازل التى أقيمت فيها ، وكان مما وقفه عليها

(٢) ابن خلكان ٧/٢٠٦ وقارن بحديث المقرئى عن المدارس فى الجزء الثالث من المخطوط .

(٣) انظر حديث المقرئى فى ذلك بالمخطوط ٣/٣١٣ وما بعدها .

(١) انظر فى ذلك ابن واصل فى كتاب مفرج الكرب فى تاريخ بنى أيوب ١/١٩٥ وما بعدها وكان يرحل بولديه :

العزير والأفضل سلطانى مصر ودمشق بعده للجماع من السلفى وفقهاء الإسكندرية . انظر حسن المحاضرة ٢/١٩ .

جزيرة الروضة المعروفة الآن بالقاهرة والثانية المدرسة الشريفة بناها أحد أمراء الدولة الأيوبية سنة ٦١٢ . والثالثة المدرسة الفاترية بناها الوزير الفاتري سنة ٦٣٦ . وبالمثل نستطيع أن نميز للفقهاء المالكي بجانب المدرسة القمحية التي أنشأها له صلاح الدين المدرسة الصاحبية التي بناها له الصاحب ابن شكر وزير السلطان العادل . وأيضا نستطيع أن نميز للفقهاء الحنفي بجانب المدرسة السيوفية التي أنشأها صلاح الدين مدرستين إحداهما سميت الأزكشية بناها أحد الأمراء ، والثانية سميت العاشورية أنشأتها إحدى كريمات الأمراء . وهناك مدارس بنيت لأصحاب الفقه الشافعي والمالكي مثل مدرسة القاضي الفاضل ، وأخرى بنيت للفقهاء الشافعي والحنفي مثل المدرسة القطبية التي أنشأتها السيدة مؤمنة ابنة السلطان العادل . وبينى السلطان نجم الدين أيوب بأخرة من زمن هذه الدولة سنة ٦٤١ مدرسة كبرى للمذاهب الأربعة : مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ، وهي أول مرة أو أول مدرسة تُعنى فيها مصر بدراسة الفقه الحنبلي . وينشئ السلطان الكامل سنة ٦٢٢ أول مدرسة تُعنى بالحديث النبوي تسمى دار الحديث الكاملية نسبة إليه . ويلاحظ ابن خلكان ومن بعده ابن تقي بردى أن جميع المدارس التي أنشأها صلاح الدين لم تُسم منها مدرسة باسمه ، مع ما رُتب لها من الأوقاف العظيمة ، ومع ما كان له من الفتوحات الكبيرة ^(١) .

وهذه المدارس جميعا كانت تُعنى بالدراسات الإسلامية من الحديث والتفسير والقراءات ، وبالدراسات اللغوية من النحو وغير النحو وكذلك الدراسات البلاغية ، لأن الفقيه في أى مذهب لا يتم تكونه إلا مع إتقانه هذه الدراسات . وأهمل صلاح الدين وخلفاؤه الجامع الأزهر لأنه كان مركز الدعوة الإسماعيلية ، غير أن الجوامع الأخرى والمساجد الكبرى ظل بها بعض النشاط العلمى ، وكان صلاح الدين ينفق عليها وعلى علمائها وطلابها كما كان ينفق على مدارسه السالفة ، وفي ذلك يقول ابن جبير الذى زار القاهرة والفسطاط لعهد سنة ٥٧٨ : « ما من جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا محرم من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان (صلاح الدين) يعمُّ جميع من يأوى إليها ويلزم السكنى فيها ، تهون عليه في ذلك نفقات بيوت الأموال ^(٢) » .

وكانت الإسكندرية في عهد الفاطميين مثل القسطنطين مركزا لدراسات أهل السنة ، وقد بنى فيها ابن السلا - كما أسلفنا - مدرسة فوض الإشراف عليها للحافظ السلفى الشافعي ، ويبدو أن

(٢) رحلة ابن جبير (طبع ليدن) ص ٥٢ .

(١) ابن خلكان ٢٠٧/٧ والنجوم الزاهرة ٥٥/٦ .

صلاح الدين أنشأ في الإسكندرية مدارس جديدة كما يفهم من كلام ابن جبير إذ يقول : « ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) ومفاخرة العائدة في الحقيقة إلى سلطانه (صلاح الدين) المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية ، فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ومدرساً يعلمه الفن الذى يريد تعلمه وإجراء يقوم به في جميع أحواله ^(١) . وأخذت المدارس تعم مدن مصر الكبرى بينها ولاية صلاح الدين عليها ومن جاءوا بعده ، وأيضاً أمراء بيته ، من ذلك أن تقى الدين عمر بن شاهنشاه ابن أخيه بنى في الفيوم مدرستين إحداهما للشافعية والثانية للمالكية ^(٢) ، وتأسست بأسوان مدرسة مبكرة ^(٣) ، وأنشأ ابن هبة الله حاكم قوص سنة ٦٠٧ المدرسة النجيبية ^(٤) بها . ويبدو أنه لم تكد تخلو بلدة كبيرة في مصر لعهد الأيوبيين من مدرسة . وكانت بها جميعا الجوامع والمساجد ، واشتهرت الإسكندرية منذ العصر الفاطمى بجامع العطارين الذى بناه بدر الجمالى ، وظل به نشاط علمى وافر زمن الأيوبيين ، وبالمثل كانت الجوامع الكبرى في دمياط والمحلة وطنطا والمنيا وأسيوط وقوص وإسنا ، إذ نقرأ في كتب التراجم من حين لآخر عن علماء كانوا يعنون في هذه البلدان بدراسات الفقه والحديث والقراءات .

وتنشأ - بجانب المدارس السالفة - مدارس كثيرة في عهد المماليك ، ويعددها المقرئى ويذكر تاريخ إنشائها والأوقاف التى رُصدت لها ، وتبلغ عنده نحو خمس وأربعين مدرسة ، بناها سلاطين المماليك وأمراؤهم وأحياناً بعض نسايتهم وأمهاتهم ، وقد عدّ للشافعية منها أربعة : المدرسة ^(٥) الطيرسية والحسامية والسابقية والمجدية الخليلية ، وللحنفية ثلاثاً : الغزنوية والجمالية والمهندارية . ومدارس مختلفة بنيت لمذهبين مثل المدرسة الأقباقوية والجاى ومدرسة أم السلطان وكذلك المدرسة الظاهرية وجميعها للشافعية والحنفية ومثل المدرسة الحجازية والمسلمية وهما للشافعية والمالكية ، ومثل المنكوتمرية للمالكية والحنفية . وبنيت للمذاهب الأربعة مدارس مختلفة مثل المدرسة المنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه محمد الناصر .

ويقول ابن بطوطة الذى زار القاهرة والفسطاط سنة ٧٢٦ لمعهد محمد الناصر بن قلاوون :

(١) ابن جبير ص ٤١ وما بعدها .

(٢) ابن خلكان ٣/ ٤٥٦ .

(٣) الطالع السعيد للإدقوى (طبع مطبعة الجمالية)

(٤) الطالع السعيد ص ٢٢٠ .

(٥) انظر فيما يلى من حديث عن هذه المدارس خطط

المقرئى ٣/ ٣٤٠ وما بعدها .

« أما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها ». وظلت المدارس تتكاثر بعد زيارته لمدة نحو قرنين من الزمان طوال عصر المماليك . ولن نستطيع الوقوف عند جميع هذه المدارس لمعرفة نشاطها العلمي ونكتفي منها بثلاث هي المدرسة الظاهرية للظاهر بيبرس والمنصورية للمنصور قلاوون والناصرية لابنه الناصر . أما الظاهرية ^(١) فتم إنشاؤها لأوائل عهد المماليك سنة ٦٦٢ وقد جعلها الظاهر لتدريس الفقه الشافعي والحنفي وتدريس القراءات والحديث النبوي ، وأجرى الرواتب على أساتذتها وطلابها وألحق بها مساكن لهم كما ألحق بها مكتبة تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم وبني بجانبها مكتبا لتحفيظ أيتام المسلمين كتاب الله وأجرى لمن به من الأطفال الجرايات والكسوة ، وأوقف عليها الرنح أو الحلى المعروف اليوم باسم تحت الربع ، وكان ربعا كبيرا مملوءا بالدور والخوانيت . أما المدرسة المنصورية ^(٢) فأنشأها السلطان المنصور قلاوون لأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة سنة ٦٨٤ وجعل لكل مذهب مدرسا وثلاثة من المعيدين ومقرنا للذكر الحكيم وخمسين طالبا ، وأجرى عليهم جميعا وعلى قومتها وفراشيها الرواتب ، وبني بجوارها مكتبا لتحفيظ ستين من أيتام المسلمين القرآن الكريم ، وأسند لفقيهين القيام على ذلك مع إجراء الجرايات على الأيتام والكسوة في الشتاء والصيف . وبني تجاه المدرسة قبة عظيمة جعل فيها خمسين مقرنا ودرسا للحديث ودرسا للتفسير ومع المدرسين الطلاب وكذلك مع المقرئين . وجعل فيها مكتبة كبيرة تشتمل على شتى أنواع العلوم والآداب ، وجعل لها أمينا ومساعدين له وفراشين وبوابين . وحاكى الناصر أباه قلاوون فبنى مدرسة للمذاهب ^(٣) الأربعة سنة ٧٠٣ وجعل بها مكتبة جليلة ورصد لها أوقافا كثيرة . وبالمثل كان كل من بنى مدرسة يقف عليها ما يحفظ لعلماها وطلابها نفقاتهم وكثيرا ما كانوا يلحقون بها مساكن لهم

ولم تكن المدارس وحدها ساحات العلم لعهد المماليك ، فقد كان يَشْرِكُها الجوامع والمساجد . وفي مقدمتها الجامع الأزهر ، وكانت قد تعطلت فيه الدراسة طوال عهد الأيوبيين كما تعطلت فيه أحيانا صلاة الجمعة إلى أن أعادها عز الدين الحلى نائب الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ فصلى فيه الجمعة ورتب فيه مدرسا للفقه الشافعي ومحدثا لإملاء الحديث النبوي وسبعة لقراءة الذكر الحكيم ورصد لذلك أوقافا وافرة ^(٤) . وسرعان ما أخذ الأزهر دوره التاريخي العظيم ، فقدا أكبر جامعة

وما بعدها .

(١) انظر في هذه المدرسة المخطوط ٣ / ٣٤٠ .

(٢) المخطوط ٣ / ٣٤٦ .

(٣) انظر في هذه المدرسة المخطوط ٣ / ٣٤٢ والسلوك

(٤) المخطوط ٣ / ١٦٠ والسلوك ١ / ٥٥٦ وما بعدها

للمقريزي (طبعة القاهرة) ١ / ٧١٦ وما بعدها و ١٠٠٠

للدراستات الإسلامية واللغوية . ويشيد المقرئى المتوفى سنة ٨٤٥ بالدراسات فى هذا الجامع أو الجامعة قائلا : « لا يزال جامع الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقيه واشتغال بأنواع العلوم : الفقه (على المذاهب الأربعة) والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلق الذكر ، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجد فى غيره ^(١) » . واهتم به السلاطين والأمراء وأرباب الأموال ، فرُصدت له أوقاف كثيرة على مر السنين . وزخر جامع ابن طولون بنشاط علمى جم منذ عهد السلطان المنصور لاجين ^(٢) سنة ٦٩٤ فقد رتب فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للتفسير ودرسا للحديث النبوى ، وألحق به مكتبا لتحفيظ القرآن الكريم . وبالمثل عُنى بيبرس الجاشنكير بعمارة جامع الحاكم سنة ٧٠٣ ورتب ^(٣) فيه دروسا لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة والحديث النبوى والقراءات ، وألحق به خزانة كتب نفيسة .

وهذا النشاط العلمى فى مساجد القاهرة والفسطاط ومدارسها كان يلتقى به نشاط مماثل فى الإسكندرية ومدن مصر الكبرى . وهو نشاط كان يشرك علماء مصر فيه كثير من علماء البلاد العربية الأخرى التى أخذت تفسح لهم فى مدارسها ، بل أخذت تضمهم إلى صدرها ، إذ شعرت بقوة أنها حاملة لواء العلم والفكر العربيين وأنه ينبغى أن تعمل بقوة لتحفيهما إزاء غارات أعداء الإسلام على صقلية والأندلس وغارات حملة الصليب على الشام وأخيرا غارات التتار على إيران والعراق وديار الشام ، بحيث أصبحت مصر منذ عهد صلاح الدين ملاذ الحضارة العربية وموئل علومها وفكرها وآدابها ، وكأنما انتدبت نفسها لهذه المهمة الخطيرة ، فهى تعنى عناية واسعة بإنشاء المدارس ، وهى تستقبل علماء الأقطار العربية المذكورة وتسد إليهم كثيرا من المناصب العلمية ، وأحيانا المناصب الوزارية ، فقد كان على سبيل المثال لصلاح الدين وزيران : القاضى الفاضل والعماد الأصبهانى ، والأول شامى والثانى عراقى الثقافة أصبهانى المولد . وأيضا فقد تزها كثير من علماء المغرب بسبب اختلال الحكم وضعف الحكومات . ومن يرجع إلى كتاب مثل حسن المحاضرة للبيوطى وما يذكر فيه - على الترتيب الزمنى - من أسماء الأئمة المجتهدين وحفاظ الحديث النبوى وفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة وأئمة القراء وعلماء النحو واللغة والتاريخ والصوفية والوعاظ وأصحاب علوم الأوائل من الطب وغيره يجئ إليه أنه لم تبق بلدة فى العالم

(١) الخطط ١٦٣/٣ .

(٢) الخطط ١٦٥/٣ ويقول المقرئى إنه رصده لوقتها

كثيرة فى الجزيرة والصعيد والإسكندرية .

(٣) الخطط ١٤٨/٣ وحسن المحاضرة ٢٤٩/٢ .

الإسلامى العربى إلا بعثت إلى القاهرة والإسكندرية بشيوخها وبطلاب العلم فى هذه الحقب التى امتدت من الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧ إلى نهاية عصر المماليك سنة ٩٢٢ ، بل ظلت من ذلك بقية فى أيام العثمانيين .

ونهضت مصر بدور مهم فى حماية العلوم ، فقد رأت من واجبها أن تعنى بتدوين كل ما خلفه السلف خوفاً من ضياعه ، وخاصة أمهات التراث العربى وأصوله ، وانتهجت لذلك نهجا سديداً فى توثيق روايتها وأخذها عن حرروا صياغتها وضبطوها أدق ضبط ، فهى لا تؤخذ من الصحف المكتوبة مباشرة بل تؤخذ سماعاً عن الشيوخ الثقات ويروىها جيل عن جيل بمتنهى الدقة ولا يروىها إلا من شهد له شيخ بأنه جدير بروايتها ، على نحو ما هو معروف فى نظام الإجازات . ووضعت مصر لطلاب كل علم متونا ، ووضعت عليها شروحا ، وشرحت الشروح أحيانا ، ونحن لا نقرأها الآن حتى يروى أن علماءها كانوا فى هذه الشروح لا يتركون لعالم سالف منذ القرن الثانى للهجرة حتى زمنهم رأيا إلا دؤونه ، وبذلك تستحيل بعض الشروح وحواشياها إلى ما يشبه دوائر معارف فى العلم الذى تتناوله ، إذ تُعرض فيها آراء العلماء على اختلاف الأزمنة واختلاف البلدان العربية . وامتازت الحركة العلمية لعهد المماليك بكتابة دوائر معارف كبرى تجمع مواد فنون كثيرة ، من ذلك كتاب نهاية الأرب للنويرى المتوفى سنة ٧٣٣ وهو يتناول علوم الفلك والجغرافية والتاريخ الطبيعى والحيوانات والزواحف والطيور والصيد والنباتات والثمار والأزهار والإنسان وعاداته وطرق الحكم ووظائف الدولة وشئون السياسة وتاريخ الدولة العربية من أقدم الأزمنة حتى زمن النويرى . ويُشبه هذه الدائرة كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ وهو فى جغرافية العالم العربى والعلوم الطبيعية والحيوانية والنباتية وتاريخ الدولة العربية وأعلامها فى الشعر والنثر على مر السنين . ومن كتب دوائر المعارف الأدبية كتاب « المستطرف فى كل فن مستظرف » لمحمد بن أحمد الأنبشيهى ^(١) المتوفى سنة ٨٩٨ والكتاب موزع على ٤٨ بابا فى القرآن وقضله والعقل والعلم والأدب والحكم والأمثال والبيان والبلاغة وسياسة الملك والعدل والشرف والجلود والبخل والشجاعة والعمل والكسب والحيوانات والحشرات والبحار والأنهار والجبال وعجائب المخلوقات وغير ذلك .

ولعل فى ذلك ما يصور خطأ الأحكام الجائرة التى صُبت على مصر وخاصة أيام المماليك . إذ نعت المؤرخون للأدب العربى هذه الحقب المتطاولة بأنها كانت زمن انحطاط وركود فى جميع

(١) انظر فى الأنبشيهى الضوء اللامع ١٠٩/٧ .

جوانب الحياة العقلية ، وهو ما تنقضه الحقائق السابقة نقضا ، ويستوضح هذا النقض بصورة أدق حين نعرض في الفصول التالية لوجوه النشاط العلمى ، فسرى أن مصر لم تشهد حقبا علمية مزدهرة بمقدار ما شهدت في زمن المماليك . وكان كثير منهم مثقفين مثل الأيوبيين ، وعملوا على إذكاء النهضة العلمية بما أنشأوا من المدارس وما ألحقوا بها وبالمساجد من المكتبات وما رصدوا لها من أوقاف كثيرة تكفل للعلماء والطلاب حياة علمية خصبة .

ويكتب لهذه الحركة العلمية العظيمة أن تتوقف ويصيبها غير قليل من الخمود إذ احتلت جحافل العثمانيين مصر ، وجردوها السلطان العثماني الفاتح سليم من كثير من علمائها وقضاتها وحشدتهم في السفن إلى عاصمته إستانبول . وجرّد بعض المدارس من أعمدتها ورخامها الملون وكتبها النفيسة ، وما توفى سنة ٩٢٨ حتى تلغى وظائف قضاة المذاهب الأربعة التي كانت قائمة بالقاهرة منذ عهد الظاهر بيبرس ويحل محلهم قاضى العسكر . وكل ذلك عمل على انتكاس الحركة العلمية بمصر ، ومع ذلك ظلت جذوات منها تنقذ في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس ، إذ نسمع في ترجمة هذا العالم أوداك أنه كان يدرس في المدرسة السيوفية الخفية التي أنشأها صلاح الدين أوفى المدرسة الصالحية التي أنشأها السلطان الصالح نجم الدين أيوب أوفى المدرسة الأقباقوية التي أنشئت في عهد الناصر محمد بن قلاوون ، ويذكر الجبرتي مدارس لم يذكرها المقرئى في خططه مثل المدرسة الغورية التي أنشأها السلطان الغورى ، ومثل المدرسة السنانية ^(١) ، ويردد ذكر القطبانية والجنبلطية والأشرفية ^(٢) ، وأكبر الظن أنها كانت مدارس ناشطة هي الأخرى .

ومع ما أصاب مصر وحركتها العلمية من الفتح العثماني الذي جثم على صدر البلاد وكان عاملا مهما في خمود الدراسات العلمية بها ، فإن مصر ظلت ملاذا للعلماء من جميع الأقطار العربية من الخليج إلى المحيط ، وظلت القاهرة موئلهم جميعا يفدون عليها للتعلم في الجامع الأزهر والاختلاف أحيانا إلى بعض المدارس ، حتى إذا نضج أحدهم علميا أصبح شيخا يتخلق حوله التلاميذ في الجامع الأزهر أوفى أحد جوامع القاهرة ومدارسها ، وقد يرجع إلى بلده يعلم فيها ما تلقن على شيوخه في الأزهر ، وكان قد أصبح منذ عصر المماليك أكبر جامعة إسلامية . ونذكر من مشهورهم ابن طولون الدمشقي المؤرخ وعبد القادر البغدادى صاحب الموسوعة الأدبية المعروفة

(١) تاريخ الجبرتي (طبعة بولاق) ١/ ١٦٢ و ٢٢٠ . (٢) الجبرتي ١/ ٧٥ ، ٨٦ ، ٢٢٠ .

باسم خزانة الأدب والمقرى التلمسانى أكبر مؤرخى الأندلس ، وبهاء الدين العالمى صاحب الكشكول . وعُربت مصر بعض الولاة العثمانيين وأحاليته مؤلفاً أديباً مثل راغب باشا واليه سنة ١١٦٠ وموسوعة « سفينة الراغب » مشهورة . وقد ألف بالقاهرة الزبيدى اليمنى تاج العروس : شرحه على القاموس المحيط للفيروزابادى . وبذلك ظلت مصر فى العهد العثمانى المظلم حامية للتراث العربى المتبقى بها ورعاية لعلماء العالم العربى ، بفضل مصاييح العلم التى كانت تضىء بها خاصة فى الجامع الأزهر . وما زالت شهرته تدوى فى العالم الإسلامى إلى اليوم ، وجعل العثمانيون له رئيساً من كبار علمائه كانوا يسمونه شيخ الأزهر ، ويعدّد الجبرتي شيوخه منذ سنة ١١٠٠ للهجرة إلى أن ينتهى إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى معاصر الحملة الفرنسية .

٢

علوم الأوائل - علم الجغرافيا

(١) علوم الأوائل

مر بنا فى أول هذا الفصل أن مصر أسهمت فى نشأة العلم بمعناه العالمى سواء العلم الهندسى أو الرياضى أو الطبى ، وتشهد لها الأهرامات بما كان فيها من علم هندسى ، وتشهد لعلمها الرياضى^(١) برديات رياضية فرعونية مختلفة ، وبالمثل تشهد للعلم الطبى برديات فرعونية تدل على أن الطب والتشريح بمعناهما العلمى العالمى نشأ فى ديارها وزقيا رقيا بعيدا^(٢) . وكان من الممكن أن تستمر مصر فى حركتها العلمية لولا ما دهمها من الغزو الأجنبى ، واستطاعت أن تمصر البطالة وأن تستعيد - كما أسلفنا - حركتها العلمية وإن اتخذت اليونانية لساناً لها ، فهضمت بالإسكندرية عاصمتها حينئذ دراسات الهندسة والرياضة والفلك والطب ، أما الهندسة فشاد صرحها إقليدس فى القرن الثالث قبل الميلاد ، مكونا بالإسكندرية مدرسة هندسية كان لها شأن عظيم ، وقد ظلت تُدرّس كُتبه فى العربية وفى أوروبا حتى القرن الماضى^(٣) ، وأما الطب فشهدت الإسكندرية فيه نهضة كبيرة على يد هيروفيلوس وأضرابه ، وقد اشتهر بتشريحه

(٢) الدوميل ص ٣٤ وما بعدها .

(٣) الدوميل ص ٤٣ وقصة الحضارة لولدبيرانت

(نشر جامعة الدول العربية) ١٣٧/٨ .

(١) انظر العلم عند العرب للدوميل (ترجمة الدكتور

عبد الحليم النجار - نشر الجامعة العربية - دار القلم

ص ٣٣ وما بعدها .

العين ووصفه للشبكية وأعصاب النظر وتشريح المخ وتحديد وظيفة الشرايين وغير ذلك من مباحث طبية^(١). وغزا مصر الرومان ، كما أسلفنا ، وظلت حركتها العلمية والفلسفية في النمو ، كما ظلت الإسكندرية زعيمة العالم اهلبي في العلوم . ومن أكبر علمائها حينئذ بطليموس المولود بالصعيد ، غير أنه بارح مسقط رأسه مبكراً إلى الإسكندرية ، حيث ظل يرصد الأجرام السماوية حتى منتصف القرن الثاني الميلادي ، ولم يلبث أن سجل معلوماته الفلكية والرياضية والجغرافية في كتابه « النظام الرياضي للنجوم » وقد سماه العرب « المجسطى » أي الأعظم بنفس اللقب الذي وضعه له اليونان . وله كتب أخرى منها موجز جغرافي ، وكان لبحوث المجسطى وغيره تأثير عظيم في علم الهيئة والفلك والرياضيات عند العرب^(٢) . ويلقانا هيرون ، وهو أرشميدس صغير كما يقال ، وله رسائل في الرياضة والطبيعة والميكانيكا ترجمت إلى العربية ، وتاريخه غير معروف قرن الطماء المعاصرين من يرجع به إلى القرن الثاني قبل الميلاد ، ومنهم من يجعله في القرن الثالث بعد الميلاد^(٣) . ونفذت مصر في هذا القرن عند أفلوطين المتوفى سنة ٢٧٠ للميلاد إلى مذهب ظفني كان تجديدًا لفلسفة أفلاطون ، ولذلك يسمى الأفلاطونية الجديدة . وظل نشاط مصر في الطب عظيمًا ، وقد نزلها جالينوس (١٣١ - ٢٠١ م) ولم يكتف بمقامه فيها بالإسكندرية . فقد جاس خلال ديارها حتى وصل جنوبها والنوبة وبواديها^(٤) . ومما لا ريب فيه أنه انتفع أكبر انتفاع بنهضة علم الطب والتشريح في مصر ، وترك في الإسكندرية بعده مدرسة عنيت بدراسة كتبه وتلخيصها ، وقد عقد ابن أبي أصيبعة لأعلامها فصلاً مستقلاً^(٥) . وظلت الإسكندرية كما كانت طوال عهد البطالمة نحو ستة قرون يُهرَعُ إليها جميع طلاب الطب من ولايات الإمبراطورية الرومانية ، وكان حَسْبُ الطبيب للدلالة على براعته أن يقال إنه تعلم الطب في الإسكندرية^(٦) . ومن تعلم الطب بها في القرن السادس سرجيوس من « رأس عين » بالموصل وإيتيوس من آمد بالموصل أيضاً ، ومن أطبائها في أوائل القرن السابع أهرن القس السرياني الذي أُمِر

(٤) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزني) للقنطري (طبع

لندن) ص ١٣٢ .

(٥) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة

الحياة ببيروت) ص ١٥١ والقنطري ص ٧١ .

(٦) ماكس مايرهوف ص ٤٥ وما بعدها وقصة الحضارة

١١٠ / ١١

(١) قصة الحضارة ١٥٦ / ٨ وماكس مايرهوف في

كتاب التراث اليوناني للدكتور عبد الرحمن بدوي ص ٤٥

(٢) قصة الحضارة ١٠٦ / ١١ والأوميل ص ٤٥

وما بعدها .

(٣) الأوميل ص ٤٥ ، ٤٧٠ وقصة الحضارة

١٠٨ / ١١

عمر بن عبدالعزيز بنقل كتابه من السريانية إلى العربية . وظل بالإسكندرية نشاط فلسفي بعد أفلوطين يمثل في القرن السادس للميلاد يحيى النحوي شارح أرسطو والفيلسوف المسيحي يوحنا الأباي^(١) . وبما لا شك فيه أن القبطية شَرِكت اليونانية لزمان الرومان في الدراسات العلمية والفلسفية ، وانفردت بمباحث فقهية في الدراسات الدينية . ومُرَّ بنا أن السريانية - وكانت منتشرة قبل الفتح العربي بأديرة مصر - دخلتها مع بعض القساوسة والرهبان في القرنين السادس والسابع للميلاد .

ويُظَلُّ مصر وكل ما كان بها من تراث علمي وفلسفي لواء الإسلام ، ومعروف أن الإسلام لم يحارب في أى بلد فتحه ما به من علم وفلسفة ، ومُرَّ بنا كذب الأسطورة القائلة بأن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندرية ، فقد أحرقها الرومان قبل نزوله مصر بنحو ستة قرون ، وإنما أطلنا في بيان هذا التراث لندل على أنه ظل طويلا ، أما ما يقال من أن عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) نقل نشاط علماء الإسكندرية إلى أنطاكية وحران^(٢) فلعله من باب المبالغة ، وكل ما يمكن أن نتصوره أنه ربما انتقل بعض أطباؤها وعلمائها من الإسكندرية إلى أنطاكية ليقتربوا من بيزنطة كما يقول ما يرهوف . أما ما ذكره ابن أبي أصيبعة من انتقال التراث اليوناني ومعلميه إلى أنطاكية وحران فيعتوره الشك لسبب بسيط وهو أن المفروض أن ينقل عمر بن عبد العزيز أصحاب التراث اليوناني من الإسكندرية إلى عاصمته دمشق لا إلى أنطاكية . ولعل ابن أبي أصيبعة بالغ في هذا الرأي . ويشهد لما نقوله ما يذكره ابن النديم من أن خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٩٢ هـ اهتم بعلم الكيمياء ، أو كما يسميه الصنعة فأحضر إلى دمشق جماعة من فلاسفة اليونان ممن كانوا يتزلون بمصر وتقصحوا بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة (الكيمياء) من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللسان العربي^(٣) . فكان الطبعي أن يصنع عمر بن عبد العزيز صنيعه فينقل علماء الإسكندرية إلى عاصمته لا إلى أنطاكية وخاصة أنه اهتم فعلا بنقل كتاب أهرون القس الإسكندري في الطب . وكلف بذلك ما سرجويه البصري كما هو معروف ، ولو أنه نقل حقا علماء الإسكندرية إلى أنطاكية كما يقول ابن أبي أصيبعة لكلف أحدهم بقله . وربما كان أكثر من هذا التصور منطقا أن يقال إن كثيرين من علماء

ص ١٧١ .

(١) انظر مقالة ما يرهوف في كتاب التراث اليوناني

(٢) الفهرست ص ٣٥٢ .

ص ٣٧ وما بعدها .

(٣) راجع مقالة ما يرهوف السابقة وابن أبي أصيبعة

الإسكندرية اليونانيين بارحوها مع اقتحام عمرو بن العاص لها ، ويغلب أن يكونوا قد حملوا معهم كتباً كثيرة من التراث اليوناني خاصة . ومع ذلك فقد بقي منه ومن علمائه ما أتاح لحركة الإسكندرية العلمية أن تظل مستمرة ، وإن فقدت كثيراً من نشاطها . يدل على ذلك العلماء الإسكندريون المستعربون المذكورون آنفاً والذين استدعاهم خالد بن يزيد بن معاوية لترجمة كتب الصنعة ، كما يدل على ذلك ابن أبي طيب عمر بن عبد العزيز الذي كان يتولى التدريس بالإسكندرية واستدعاه ولزمه في خلافته ، ويدعو أنه تعرف عليه حين كان أبوه والياً على مصر (٦٥ - ٨٦ هـ) ويقال إنه أسلم على يده^(١) .

ومن المؤكد أن أديرة مصر ظلت منذ العهد الروماني تحتفظ بكثير من التراث اليوناني وخاصة في الطب والكيمياء ، كما ظلت الإسكندرية تحتفظ بشهرتها بالطب أجيالاً .. يدل على ذلك أن نجد هرون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) يستدعى منها طبيباً مشهوراً لعلاج إحدى جواريه هو بليطيان^(٢) بطريق الإسكندرية . وبالمثل ظلت مصر تحتفظ بشهرتها في علم الكيمياء ، ويذكر ألدوميلي كتابين في الكيمياء ألفهما بمصر في أوائل القرن الثالث الهجري عالم أو علماء - كما يقول - من القبط^(٣) . ومن أشهر بمعرفة الكيمياء من المصريين ذو النون المتوفى سنة ٢٤٥ واضع أسس التصوف كما مربنا في الفصل الماضي .

وتبدأ مصر في زمن الخليفة المتوكل (١٣٢ - ١٤٧ هـ) باتخاذ المارستانات^(٤) ، ومعروف أنها كانت مستشفيات من جهة ومدارس لتعليم الطب من جهة ثانية . وسرعان ما يتولى مصر أحمد بن طولون ، وينشئ مارستاناً جديداً أنفق عليه ستين ألف دينار ، وكان به قسم للمجانين وحمامان : حمام للرجال وحمام للنساء ، وكان يركب لزيارته في كل يوم جمعة وتفقد أطبائه وخزائن الدواء فيه^(٥) . ويذكر ابن أبي أصيبعة من الأطباء لزمه إبراهيم بن عيسى والحسن بن زبيرك وسعيد بن توفيل النصراني وطبيب العيون خلف^(٦) الطولوني ، وله كتاب النهاية والكفاية في تركيب العينين وخلقتهما وعلاجهما وأدويتهما ظل يؤلفه في نحو أربعين عاماً من سنة

(٤) غلط المقرئ : مارستان المنافر ٣/ ٣٨٦ .

(٥) المخطوط ٣/ ٣٨٦ .

(٦) انظر في خلف ومن قبله ابن أبي أصيبعة ص ٥٤١ وما بعدها .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ١٧١ وقد خلط بين ابن أبي الإسكندري وابن أبي آخر . انظر مقالة مايرووف ص ٦٤ وما بعدها .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٠ .

(٣) ألدوميلي ص ٢٦٩ .

٢٦٤ إلى سنة ٣٠٢ . وتظل مصر تعنى بالطب بعد الطولونيين ، وترعاه الدولة الإخشيدية ويلمع اسم الطبيب سعيد بن البطريق بطريق الإسكندرية المتوفى سنة ٣٢٨ وله فيه مؤلفات ^(١) مختلفة . ومن الأطباء لعهد الإخشيد نسطاس ^(٢) بن جريج ، وينشئ كافور الإخشيدى مارستانا يرعاه غير طبيب ، ومن الأطباء لعهد عيسى بن البطريق أخو سعيد ، والبالسى وكان طبيبا متميزا فى معرفة الأدوية المفردة ، وله فيها كتاب ألفه لكافور ^(٣)

وفى ذلك كله ما يدل على أن دراسة الطب ظلت ناشطة فى مصر ، وبالمثل ظلت الكيمياء كما أسلفنا ، وأيضا ظلت الرياضيات ، ولعل خير من يصور ذلك أبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، عالم زمنه الرياضى ، والمظنون أنه كان يعيش فى أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع ، واشتهر بأنه نفّح علم الجبر الذى اكتشفه الخوارزمى ويذكر الدوميللى أن له رسالة فى المضلع ذوى الزوايا الخمس ترجمت إلى الإيطالية والألمانية وكتاب الطرائف فى الحساب وقد ترجم بدوره إلى الألمانية ، ويذكر أيضا أن لكاريننسكى كتابا عن علم الجبر باسم الجبر عند أبى كامل ^(٤) ويقول القفطى إنه صاحب مدرسة وإن له تلاميذ تخرجوا فى علمه ، لعل منهم على بن أحمد العمرانى الموصلى العالم بالحساب والهندسة الذى توفى سنة ٣٤٤ إذ يقول القفطى عنه إنه شرح كتاب الجبر والمقابلة لأبى كامل شجاع بن أسلم الحاسب المصرى ، وله عدة كتب فى التنجيم . على كل حال تدل تصانيف أبى كامل شجاع أنه كان عالما ساذقا فى الرياضيات والهندسة . وكان مصر ظلت طوال القرون الثلاثة الأولى للهجرة تهتم بهذا الجانب من تراثها العلمى حتى أنتجت فيه أبا كامل شجاعا .

وحقا نهضت بغداد كما مربنا فى كتابى العصر العباسى الأول والثانى بترجمة التراث اليونانى فى العلوم والفلسفة وأضافت إليه التراث الفارسى والهندي فنبّلتها إلى العربية ، وكل ذلك تمحوّل سريعا إلى تراث عربى عام للأمة فى بغداد والقاهرة وغيرهما من بلدان العالم العربى الكبيرة ، وقد بلغ من تمثل بغداد للرياضيات أن ابتكر الخوارزمى علم الجبر ، وبلغ من تمثل القاهرة لما كان بها من مصنفات تتصل بالرياضيات أن تجرد أبو كامل شجاع بن أسلم الرياضى المصرى لتفقيح جبر الخوارزمى . واهتمت البيئات العربية بتفقيحه ، فإذا على بن أحمد العمرانى الموصلى يعنى بشرحه

(٤) انظر فى شجاع بن أسلم الدوميللى ٢١١ ، ٢١٦

ويروكلان ١٩٣/٤ والقفطى ٢١١ ، ٢٣٣ .

(١) ابن أبى أصيحة ص ٥٤٥ .

(٢) ابن أبى أصيحة ص ٥٤٤ .

(٣) ابن أبى أصيحة ص ٥٤٥ .

وتفسيره لهذا التنقيح في كتاب مستقل نؤوه به وبأصله القدماء .

وظل النشاط محتدماً في الرياضيات وعلوم الفلك والتنجيم طوال زمن الفاطميين ، ومن المنجمين لعهد المعز وابنه العزيز محمد^(١) بن عبد الله العتقى وأبى^(٢) عبد الله بن القلانسي ، ومن أعظم الفلكيين بمصر وعند العرب قاطبة أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصديقي المصري ، وقد بدأ بعمل زيج كبير أو بعبارة أخرى بعمل لوحات فلكية مفصلة لعهد العزيز وأخذ في تنقيح زيجه لعهد الحاكم ابنه وقد أقام له مرصداً ضخماً كان قسماً من دار العلم ويقال إنه أتم زيجه سنة ٣٩٧ وأنه كان يشغل أربع مجلدات ضخام ، ويقول ابن خلكان إنه لم ير في الأزياج على كثرتها أطول^(٣) منه ، وقد سماه الزيج الحاكمي الكبير ولم يلبث أن توفي سنة ٣٩٩ .

ونزل مصر لعهد الحاكم أكبر علماء الرياضة والطبيعة العراقيين لزمه أبو علي الحسن بن الهيثم البصري^(٤) ، وفرح الحاكم بقدومه وخرج للقائه على باب القاهرة . ولما وقف على خبل الحاكم سكن قبة على باب الجامع الأزهر ، ويقال إنه كان يكتب المحسوطي في الفلك والهيئة لبطليموس ومصنفات إقليدس في الهندسة وبيعهها جميعاً بمائة وخمسين ديناراً . ويدو أن نبوغه الفلسفي والرياضي والفيزيقي إنما تحقق في مصر التي اتخذها سكناً له ومقاماً لأكثر من ثلاثين عاماً ، وبها ألف كتابه « المناظير » في العدسات وانعكاسات الضوء ، وقد تُرجم قديماً إلى اللاتينية ، وله تأثير علمي عالمي بعيد . وعليه تلمذ كثير من المصريين وأخذوا منه كل ما عنده في الطبيعيات والرياضيات والفلك والطب والفلسفة . والمظنون أن دار العلم كانت تعنى فيما تعنى بدروس الرياضيات والطبيعيات والفلك والفلسفة ، إذ كان الخلفاء الفاطميون يعنون بالعلماء في كل هذه الجوانب . وظلت هذه العناية متصلة في عهد الظاهر بن الحاكم وعهد ابنه المستنصر . وما يدل على النشاط في الدراسات الفلكية والهندسية والفلسفية ما يرويه ابن السَّيْدِي من أنه رأى^(٥) في خزانة القصر الفاطمي سنة ٤٣٥ لعهد المستنصر من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة

(١) القفطي ص ٢٨٥ .

٢٨١ .

(٢) القفطي ص ٤١٠ .

(٤) تقدمت مصادر ابن الهيثم في الجزء الخامس من

تاريخ الأدب العربي ، وراجع ابن أبي أصيبعة ص ٥٥٠ .

والتوميلي ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٥) القفطي ص ٤٤٠ .

(٣) انظر في علي بن عبد الرحمن الصديقي التوميلي

٢١٣ ، ٢١٩ ، وروكلان ٢٢٤ / ٤ وابن خلكان ٤٢٩ / ٣

والقفطي ٢٣٠ وتاريخ الفلك عند العرب لـ نلينو ١٨٦ ،

آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس الجغرافي وكرة أخرى من فضة من عمل أبي الحسين الصوفي لعهد الدولة البويهية .

ويشتهر من تلاميذ ابن الهيثم رياضي متفلسف هو مبشر^(١) بن فاتك ، ويقول القفطي قرأ عليه فضلاء زمانه . ويتكاثر الفلكيون والمنجمون والرياضيون بأخرة من القرن الخامس الهجري لعهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) يقول المقرئى : « وكان منجمو الحضرة سنة ٥٠٠ سهلون وابن الحلبي وابن الهيثمي وغيرهم يُطلقُ لهم الجارى فى كل شهر والرسوم والكسوة لعمل التقويم فى كل سنة^(٢) » ثم يذكر أنه فكر فى عمل مرصد ضخم فنشط فى إقامته ، ويذكر المقرئى أنه كان يعمل به من المهندسين أبو جعفر بن حسداى والقاضى ابن أبى العيش والخطيب أبو الحسن على بن سليمان بن أيوب والشيخ أبو النجاء بن سند الساعاتى الإسكندراني المهندس وأبو محمد عبد الكريم الصقلى المهندس إلى غيرهم من الحسّاب الرياضيين والمنجمين . ويعدّد من ذكرناهم أولا ويضيف إليهم ابن دياب والقلعي وأبا نصر تلميذ سهلون . ويتزل مصر لعهد الأفضل أمية بن أبى الصلت المتفلسف والأديب الأندلسي ، ويكتب عن مصر وأدبائها وعلمائها رسالة مشهورة باسم الرسالة المصرية ، ومن يذكرهم من الفلكيين المصريين رزق الله النحاس المصرى وعلى بن النصر ، وقد ترجم لها القفطي^(٣) ، وذكر من المهندسين المصريين أبا على المهندس ، وله أيضا ترجمة فى القفطي^(٤) .

وتنوج القاهرة بالأطباء منذ عصر المعز أول الخلفاء الفاطميين بمصر ، ومن أطبائه موسى^(٥) بن العازار الجراح اليهودى ، ومن أطبائه وأطباء ابنه العزيز أبو عبد الله التميمي المقدسي^(٦) وأحمد^(٧) بن محمد البلدى وأبوسهل كيسان^(٨) بن عثمان وأعين^(٩) بن أعين ومنصور^(١٠) بن مقشّر . ويخلف العزيز ابنه الحاكم ويتكاثر الأطباء فى عهده من مثل إسحق^(١١) بن إبراهيم بن نسطاس وما سويه^(١٢) وكان طبيبا وصيدلانيا وطبيب العيون أبى القاسم

وبروكلمان . ٢٩٠/٤

(٧) ابن أبى أصيعة ص ٣٣٢ وبروكلمان ٢٩١/٤ .

(٨) القفطي ص ٢٦٧ وانظر ابن أبى أصيعة ص ٥٤٨ .

(٩) ابن أبى أصيعة ص ٥٤٦ .

(١٠) ابن أبى أصيعة ص ٥٤٩ .

(١١) ابن أبى أصيعة ص ٥٤٤ .

(١٢) ألنوميل ص ٢٤٠ .

(١) القفطي ص ٢٦٩ وابن أبى أصيعة ص ٥٦٠ .

(٢) خطط المقرئى فى ذكر الرصد ٢٣٣/١ وما بعدها .

(٣) القفطي ص ١٨٦ و ٢٣٧ على الترتيب .

(٤) القفطي ص ٤١٠ .

(٥) ابن أبى أصيعة ص ٥٤٥ .

(٦) ابن أبى أصيعة ص ٥٤٦ والقفطي ص ١٠٥

عمار^(١) بن علي وله المنتخب في علاج أمراض العين . ومن أهم الأطباء حيثذ ابن^(٢) رضوان المتوفى سنة ٤٥٣ هـ ، وجعله الحاكم رئيسا على جميع الأطباء ، وظل في هذه الوظيفة نحو خمسين عاما ، ودوّت شهرته في العالم العربي مما جعل علماءه يكتاتبونه ويرحل بعضهم إليه لمناظرته في مسائل الطب ، ومن رحل إليه من بغداد طبيبها ابن بطلان كما مر بنا في حديثنا عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة ، ويقول ابن أبي أصيبعة موازنا بينهما : « كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطبّ وأعلم بالعلوم الحكيمة وما يتعلق بها » . وقد تُرجم شرحه لكتاب جالينوس في الطب إلى اللاتينية ، ونشر مرارا شرحه للمقالات الأربع لبطليموس في علم الهيئة والفلك .

وتنشط صناعة الطب في مصر بفضل ابن رضوان وتلاميذه ، وأيضا بفضل دار العلم ، فقد كان الطب يدرس فيها ، إذ يذكر المقرئ في حديثه عنها أن الحاكم أحضر منها في سنة ٤٠٣ جماعة من الأطباء وكذلك من أهل المنطق للمناظرة بين يديه^(٣) . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن المنطق كان يدرس بها هو وما يتصل به من الفلسفة . ومن الأطباء الذين عاصروا ابن رضوان على^(٤) بن سليمان ، وكان في أيام العزيز والحاكم والظاهر ، وكان متقنا للطب والفلسفة والعلوم الرياضية ، وله في الفلسفة والطب كتب مختلفة . ومن خلفوا ابن رضوان تلميذه إفرائيم^(٥) بن الحسن اليهودي ، وقد حصل من المستنصر وأبنائه على أموال كثيرة ، وكان شغوبا بالكتب الطبية والفلسفية وغيرها ، وكانت لديه منها خزانة كبيرة ، واشتهر بأنه كان عنده دائما نُسُخ يكتبون له ما يريد من الكتب ، ويذكر ابن أبي أصيبعة أن تاجرا عراقيا من تجار الكتب اشترى منه عشرة آلاف مجلد ، وهمَّ بحملها إلى العراق ، وبلغ ذلك الأفضل بن بدر الجمالي في أيام وزارته ، فبعث إليه بالمال الذي اتفق مع العراق عليه حتى لا تخرج هذه الكتب من مصر . ويقولون إنه حوّلها إلى مكتبته الخاصة وكانت تشتمل على خمسمائة ألف مجلد . ومن تلاميذ إفرائيم سلامة^(٦) بن رجمون الطيب ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه نصب نفسه لتدريس كتب المنطق والفلسفة الطبيعية والهيئة . ونظل نسمع عن أطباء في العهد الفاطمي لا في القاهرة

(٣) خطط المقرئ ٢ / ٢١٨ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٥٠ .

(٥) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٧ .

(٦) ابن أبي أصيبعة ص ٥٦٨ والتفطى ص ٢٠٩ .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٤٩ وألوميل ص ٥٤٨ .

وبروكلمان ٤ / ٣٠٣ .

(٢) القفطى ٤٤٣ وابن أبي أصيبعة ٥٦١ وألوميل

ص ٢٤١ و ٢٥١ وما بعدها .

فحسب ، بل أيضا في المدن مثل الحسين^(١) بن منصور طبيب إسنا بالصعيد المتوفى في أوائل المائة السادسة . ومن أهم الأطباء بالقاهرة ابن^(٢) العين زري وله كتاب الكافي في الطب بدأ في تأليفه سنة ٥١٠ وانتهى منه سنة ٥٤٧ قبل وفاته بعام واحد ، ويقول ابن أبي أصيبعة : « كان له تلاميذ عدة يشتغلون عليه » وترجم منهم لطبيب يسمى بلمظفر^(٣) بن المعروف . ولحقّت طائفة من تلاميذه العصر الأيوبي .

ولعل فيما قدمنا ما يوضح نشاط الأطباء وأصحاب الرياضيات والطبيعات والفلك بمصر طوال زمن الفاطميين ، ولم نحاول أن نحيل في بيان صلة المصريين حينئذ بالفلسفة على الدعوة الإسماعيلية ، كما يصنع بعض الباحثين المعاصرين ، لأن المصريين لم يعتنقوا هذه الدعوة ، وكان دعائهم يلقنون تلاميذهم الفلسفة في مراحل الدعوة حتى إذا وصلوا بهم إلى المرحلة التاسعة أحالوهم - كما يقول المقرئ - على ما يقرّر في كتب الفلاسفة من علم الطبيعات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهي وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية . ومن المؤكد أن المصريين لم يقبلوا على هذه الدعوة بدليل أن دعائهم كانوا دائما من المغرب أو من الشام أو من إيران . ويبدو أنه كان للمصريين نشاطهم المستقل في دراستهم للفلسفة عن طريق دراساتهم للطب والرياضيات والطبيعات ، ومن يرجع إلى تراجم من عرضنا لهم في ابن أبي أصيبعة والقفطى سيجد لهم مصنفات فلسفية متنوعة كثيرة .

وإذا تقدمنا إلى العصر الأيوبي وجدنا مصر تحمل بقوة مسئوليتها في طرد الصليبيين من ديار الشام ، ومع ذلك تظل الحركة العلمية نامية بها بفضل ما أنشأ فيها صلاح الدين وخلفاؤه الأيوبيون من المدارس . وتظل العناية متصلة بعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أنه يلقانا بعض البارعين في الدراسات الفلسفية مثل السيف الآمدي المتوفى سنة ٦٣١ وأفضل^(٤) الدين الحونجي المتفلسف المتوفى سنة ٦٤٢ وكان يتقن العلوم الفلسفية والدراسات الإسلامية وله تصانيف في المنطق والطبيعات ، ويقول ابن أبي أصيبعة إنه قرأ عليه بعض الكليات من كتاب القانون في الطب لابن سينا ، وقد ولاه السلطان الصالح نجم الدين أيوب قضاء مصر سنة ٦٣٨ بعد عزل شيخ الإسلام وإمام الأئمة شرقا وغربا - كما يقول السيوطي - عز الدين بن عبد السلام . ولعل

(١) حسن المحاضرة ١/ ٥٤٠ والطالع السعيد للإدغري (٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٧١ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ وحسن المحاضرة ١/ ٥٤١ .

وطبقات الشافعية للسبكي ١٠٥/ ٨ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ص ٥٧٠ .

في ذلك ما ينقض كل ما قيل عن الأيوبيين من أنهم وقفوا الدراسات في علوم الأوائل ولم يشجعوا عليها . فقد قدم السلطان الصالح نجم الدين أيوب أحد علمائها المتعمقين في مباحثها على جميع فقهاء زمنه الشافعية . ويرجع في عهد الأيوبيين مهندس رياضى كبير هو قيصر^(١) بن أبى القاسم المتوفى سنة ٦٤٩ وهو من أصفون بالصعيد ، كان فقيها حنفيًا عالما بالقراءات وتعلق بالرياضيات والموسيقى وأنواع الحكمة ، وهو الذى أقام لأمير حجة نواير نهر العاصى البديعة التى لاتزال تنحدر المياه فيها من علوشاهق إلى اليوم . مؤلفة بذلك منظرًا بالغ الروعة . وكان فلكيا مبدا . فأنشأ كرة سماوية عظيمة لاتزال محفوظة إلى الآن في المتحف الوطنى لمدينة نابولى بإيطاليا .

وكان الأيوبيون يهتمون بالطب والأطباء منذ صلاح الدين . وقد بدأ هذا الاهتمام بتأخذه مارستانا ضخما في القاهرة وفيه يقول ابن جبير : « مما شاهدناه بالقاهرة من مفاخر السلطان صلاح الدين المارستان وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا »^(٢) » ويذكر أنه عين له قِيَمًا وضع لديه خزائن العقاقير . ويقول إنه وُضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسوة . وبين يدي القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشيا ويقدمون لهم ما يلزمهم من الأغذية والأدوية ، ويذكر أن المارستان قسما خاصا بالمرضى من النساء ومعهن من الخدم من يتكفل بحاجاتهم ، وقسما خاصا بالمجانين على مقاصيره شبائك الحديد . ويقول ابن جبير إن بالفسطاط مارستانا آخر على مثال ذلك الرسم بعينه . وطبيعى أن يحتاج المارستانان إلى كثير من الأطباء . ولا بد أن نلاحظ أن المارستان في القاهرة وبغداد جميعا كان دائما مدرسة للطب كما كان مستشفى . بالضبط شأن القصر العيني بالقاهرة حديثا كما أسلفنا . وأول من يلقانا منهم الشيخ السديد^(٣) أبو المنصور عبد الله الذى خدم الخلفاء الفاطميين ثم صلاح الدين وطالت حياته حتى سنة ٥٩٢ وكان رئيسا على سائر المتطببين بمصر حتى وفاته . وعاصرته طائفة من الأطباء اليهود مثل ابن^(٤) جميع وكان له مجلس لمن يشتغلون عليه بصناعة الطب ، ومثل الموفق بن شوعة المتوفى سنة ٥٧٩ وأبى البيان بن المدور المتوفى سنة ٥٨٠ وأبى الناقد الكحل طبيب العيون المتوفى سنة ٥٨٤ وموسى بن ميمون المتوفى سنة ٦٠١ . وتكاثر الأطباء المصريون في عهد صلاح الدين وبعده

(١) انظر في قيصر حسن المخاضرة ٥٤٢/١ والطالع

السعيد ص ٢٥٩ وألدوميل ص ٣٠٥ .

(٢) رحلة ابن حير ص ٥١ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٧٢ وحسن المخاضرة

٥٤٠/١ .

(٤) انظر في ابن جميع ومن تلاه من أطباء اليهود ابن أبى

أصيبعة ص ٥٧٦ وما بعدها وألدوميل ص ٣٢٠ وما بعدها

وص ٥٦٦ .

مثل أبي^(١) البركات بن القضاعى المتوفى سنة ٥٩٨ هـ وجمال^(٢) الدين ابن أبي الخوافر القيسى وقد ولاه السلطان عثمان بن صلاح الدين رئاسة الأطباء بعد الشيخ السديد وظل في هذه الوظيفة حتى عهد الكامل . وكان ابنه فتح^(٣) الدين أحمد ماهرا في الرمد وطب العيون . ويقول الدوميلي إنه ألف كتابا يحتوى على ١٥ فصلا في علم الرمد . وتكلم في أحد الفصول عن عملية الكتاراكت . وعاش إلى عصر السلطان الصالح نجم الدين أيوب ، وولى أحيانا رئاسة الأطباء . ومن رؤساء الأطباء لعهد الكامل نفيس^(٤) الدين بن الزبير المتوفى سنة ٦٣٦ ويقول ابن أبي أصيبعة إن أولاده مقيمون في القاهرة ومشهورون بصناعة الكحل ومتميزون في علمها وعملها .

ويستمر ابن أبي أصيبعة في ذكر الأطباء المصريين لعهد الأيوبيين . ويختم تراجمهم بترجمة لابن^(٥) البيطار المالقي الأندلسي المولد المتوفى سنة ٦٤٦ وقد بارح موطنه في العشرين من عمره وجاب بلاد المغرب دارسا لما فيها من نباتات . وألقى عصاه بمصر فجعله السلطان الكامل رئيسا على جميع العشابين ، وهو بحق إمام النباتين لزمه ، وقد سافر إلى بلاد الروم والإغريق والشام دارسا لأنواع النبات ، وقرأ ما كتبه ديسقوريدس وغيره من النباتيين . وهو بحق يعد أعظم الصيدلانيين قاطبة قبل العصر الحديث ، وله كتابان : كتاب الجامع في الأدوية المفردة وبه أكثر من ١٤٠٠ دواء منها ثلاثمائة لم يتناولها صيدلى قبله . وله في نفس الموضوع كتاب ثان هو المغنى في الأدوية المفردة ، وقد قدم الكتابين للسلطان الصالح نجم الدين أيوب . وإذا كانت مصر أتاححت لابن البيطار المالقي الأندلسي بحوها العلمى الحصب أن يؤلف فيها كتابيه السالفين في الأدوية فلأنها أتاححت لأحمد بن يوسف النيفاشى المغربى المتوفى سنة ٦٥١ أن ينزل بها في أواخر القرن السادس الهجرى ، وهو لا يزال يافعا صغير السن ويتكوّن فيها علميا . ويعود إلى بلده ، ولا يلبث أن يعود إلى مصر ويتولى بها القضاء ، وقد بدأ مبكرا بدراسة التاريخ الطبيعى واختار علم المعادن مع عنايته بالصيدلة والطب ، ويؤلف كتابه « أزهار الأفكار في جواهر الأحجار » وفيه يتناول خمسة وعشرين حجرا في خمسة وعشرين فصلا^(٦) ، ويسوق في كل حجر كالماس والياقوت

(٥) انظر فيه ابن أبي أصيبعة ص ٦٠١ وحسن المحاضرة

١/٤٤٢ والدوميلي ص ٤١٤ وما بعدها

(٦) نشر كتابه « أزهار الأفكار » في القاهرة الدكتوران

محمد يوسف ومحمود بسيوفى خضاجى بالهيئة المصرية العامة

للكتاب ، وراجع فيه مقدمتها وما بها من مراجع .

(١) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٥٨٤ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٥ والدوميلي ص ٣٢٢ ،

٣٢٦ .

(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٥٨٦ .

مثلا ما ذكره جالينوس أو غيره من فلاسفة الإغريق ، ويتحدث عن معدنه وتكونه وخواصه ومنافعه ، مما قد يدخل في المعارف الطبية ، ويتصل بهذه المعارف كتابه « المنقذ من التهلكة في دفع مضار السمائم المهلكة » . ويلقانا في عهد السلطان الكامل المنصور^(١) بن بكرة الذهبي الكامل وكتابه « كشف الأسرار العملية لضرب النقود المصرية » وفيه يتحدث عن إعداد المعادن وتصفيها وطرق استعمالها في سك النقود ، ويتناول دار سك النقود وواجبات مَنْ بها من الموظفين .

وتظل لمصر قيادتها العلمية في زمن المماليك ، ويظل ينزلها العلماء من الشرق والغرب ، وتظل تعنى بالفلسفة^(٢) ، ويذكر السيوطي حشدا^(٣) من متفلسفها وعلماء المعقولات بها مثل شمس الدين محمد بن حمود الأصبهاني المتوفى سنة ٦٨٨ وتلميذه تاج الدين البارنباري المتوفى سنة ٧١١ وشمس الدين أبي الثناء محمود بن عبد الرحمن الأصبهاني المتوفى سنة ٧٤٩ وعلاء الدين علي بن أحمد المدرس بمدرسة برقوق المتوفى سنة ٧٩٠ وابن جماعة عز الدين محمد بن شرف المتوفى سنة ٨١٩ والكافيجي محيى الدين محمد بن سليمان المتوفى سنة ٨٧٩ .

وظل كثير من المصريين يشتغلون بالطبيعات والرياضيات ، ومن أهم بالتاريخ الطبيعى بيلك القبحقي الذى صنف حوالى سنة ٦٨٠ كتابه « كتر التجار في معرفة الأحجار » ويقول ألدوميلي : « لهذا الكتاب أهمية خاصة إذ نجد فيه توضيحا لاستعمال البوصلة عند الملاحين وطرق استعمالها^(٤) » . ويظن أن معرفة المصريين والعرب بها ترجع إلى تاريخ أقدم من ذلك ، ربما إلى القرن السادس الهجرى المقابل للثاني عشر الميلادى ، بل ربما إلى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى المقابل للقرن الخامس الهجرى . والمهم أن مصر هى التى سجلت اكتشافها عند عالمها بيلك . وأكبر الظن أنها هى التى أعدت لصنعها ، وصنعتها بفضل اشتغالها بالملاحة فى البحرين المتوسط والأحمر من قديم . وكان ملاحوها فى عصر المماليك يغدون ويروحون فى البحرين للتجارة والغزو أحيانا على نحو ما هو معروف عن تجارهم مع موانئ إيطاليا وغزوهم لقبرص وطردهم للبرتغاليين من شواطئ اليمن بأخرة من أيام المماليك . على كل حال يرمز اكتشاف

(٣) انظر حسن المحاضرة للسيوطي ١ / ٥٣٩ وما بعدها .

(٤) ألدوميلي ص ٣١٤ وما بعدها .

(١) انظر فيه ألدوميلي ص ٣٠٨ ، ٣١٠ .

(٢) راجع البحر المحيط لأبى حيان ٥ / ١٤٨ - ١٥٠

تفسير سورة يونس آية ٢٧ .

مصر للبوصلة إلى نشاط المعارف العلمية فيها طبيعية ورياضية . ويلقانا بها محمد ^(١) بن موسى الديمري المتوفى سنة ٨٠٨ وموسوعته في علم الحيوان التي سماها « حياة الحيوان الكبرى » معجم للحيوان مرتب أبجديا حسب أسمائه وأنواعه ، ومع كل حيوان خصائصه العلمية والطبية وطُرف من الحديث النبوي والأمثال والأشعار وتراجم لبعض العلماء والفلاسفة والأدباء والشعراء ، وهو مطبوع في مجلدين ومترجم إلى الإنجليزية .

وارتقى حينئذ فنّ المعمار وما يتبعه من الهندسة رقيا بعيدا ، لكثرة الأبنية التي شادها سلاطين المماليك منذ الظاهريين ، وفي مبانیه يقول ابن تَغْرِي بردى : « بُنى في أيامه بالديار المصرية ما لم يُبْنَ في أيام الخلفاء المصريين (الفاطميين) ولا ملوك بنى أيوب من الأبنية والرُّباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات ^(٢) » . وتوالى السلاطين بعده وخاصة قلاوون يكثرُونَ من الأبنية الرائعة ، وكل ذلك كان يقوم عليه مهندسون مصريون بارعون مما لا نزال نرى آثاره في مساجدهم الباقية . وينوّه السخاوى بمهندس مصرى بارع لعهد السلطان برفوق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ) هو شمس الدين الطولونى ، ويقول : « كان المَعُول عليه وعلى أبيه في العائِر السلطانية » ^(٣) . وظل العلماء المصريون يعنون بالرياضيات والفلك ، ويشهر منهم رياضى كبير هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن الهائم ^(٤) الفرضى من علماء القرن التاسع الهجرى . وله كتب كثيرة في الحساب والجبر ذكر مخطوطاتها بروكلمان ، منها في الحساب مرشد الطالب إلى أسى الطالب ، كان واسع الانتشار . وفي دار الكتب المصرية بعض شروح له وبعض مخطوطات مختلفة من كتب ابن الهائم الرياضية .

وظل لمصر نشاطها زمن المماليك في دراسة الطب والتأليف فيه ، وكان مارستان القاهرة الذى أنشأه صلاح الدين يُعَدُّ أكبر معهد لتدريس الطب ، وقد تَخَرَّج فيه كثيرون مثل ابن أبى أصيبعة ^(٥) المتوفى سنة ٦٦٨ صاحب كتاب طبقات الأطباء ، وهو كتاب نفيس إذ يشتمل

(٤) انظر ابن الهائم في الشُّرُحات ١٠٩/٧ والضوء
اللامع .. رقم ٢٠٤ وشُّرُحات الذهب ٧٩/٧ والبر
الطالع ٢٧٢/٢ وألْهُومِيلى ص ٥٠٧ ودائرة المعارف
الإسلامية .

(٥) راجع ابن أبى أصيبعة في النجوم الزاهرة ٧/٢٢٩
والشُّرُحات ٣٢٧/٥ وأيضا أَلْهُومِيلى (انظر الفهرس)
ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) راجع في الديمري حسن المحاضرة ١/٤٣٩ والضوء
اللامع .. رقم ٢٠٤ وشُّرُحات الذهب ٧٩/٧ والبر
الطالع ٢٧٢/٢ وألْهُومِيلى ص ٥٠٧ ودائرة المعارف
الإسلامية .

(٢) النجوم الزاهرة ٧/١٩٦ .

(٣) الضوء اللامع ١/٢٢١ .

على ترجمة نحو أربعمائة طبيب عربى ، ويمكن أن نضم إليه الأطباء الذين كانوا مُلْتَفِّين بالظاهر بيبرس مثل شهاب^(١) الدين بن فتح الدين القيسى ورشيد^(٢) الدين أبى حليقة النصرانى . وما يلبث أن يلى السلطنة بعد بيبرس المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) فينشئ بمارستانا ضخما يقول فيه ابن تغرى بردى : « وهذا اليمارستان وأوقافه وما شرطه قلاوون فيه لم يسبقه إلى ذلك أحد قديما ولا حديثا شرقا ولا غربا^(٣) » وقد جعله أقساما كبيرة : قسما للمرضى بالحميات ، وقسما للرمد ومرضاه ، وقسما للجرحى ، وقسما لمن به إسهال ، وجعل فيه قسما للنساء ، وأمكنة للأدوية وتركيبها ، وأمكنة لإعداد الطعام وأخرى للمحاصيل ، وجعل فيه فراشين لخدمة الرجال وفراشات لخدمة النساء ونصب فيه الأسرة للمرضى وأمدها بكل ما تحتاج إليه من فرش . وأهم من ذلك كله أنه جعل فيه قاعة لرئيس أطبائه ، كى يلقى فيها دروسه على طلاب الطب^(٤) . وبذلك كان المارستان مستشفى وكلية طب معا ، وقد شاهده ابن بطوطة بعد وفاة قلاوون بنحو أربعين عاما سنة ٧٢٧ للهجرة فقال : « أما المارستان عند قبر قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أُعِدَّ فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر » . ويُذَكَّرُ أن مَجْياه (نفقاته) كان ألف دينار كل يوم^(٥) . وتلقانا فى عهد قلاوون بجانب كلية الطب التى كانت ملحقة بمارستانه كما ذكرنا مدرسة للطب سميت المدرسة^(٦) المَهْدِيَّة نسبة إلى منشئها الطبيب مهذب الدين محمد بن أبى حليقة المار ذكره فى عهد بيبرس ، وكان قد خدمه مع أبيه وأسلم فى أيامه وسمى محمدا ، ويقول ابن أبى أصيبعة : مولده سنة ٦٢٠ وإنه قرأ على أبيه الصناعة الطبية وصور أقسامها الكلية والجزئية وحصل معانيها العلمية والعملية^(٧) .. وبلغ من ازدهار دراسة الطب حيثئذ أنه كان يدرس فى المساجد الجامعة ، إذ نجد السلطان لاجين (٦٩٦ - ٦٩٧ هـ) يعمر جامع ابن طولون ، ويرتب فيه دروسا - كما مر بنا - للفقهاء على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوى ، وبجانب ذلك يرتَّب فيه درسا للطب^(٨) ، ومن درسوا فيه بعد زمنه فى القرن الثامن الطبيب شمس^(٩) الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى المتوفى سنة ٧٧٦ .

٢٠ / ١ .

(١) ابن أبى أصيبعة ص ٥٨٥ .

(٢) خطط المقرئى ٣ / ٣٧١ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ص ٥٩٠ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٥٩٨ .

(٣) التجوم الزاهرة ٧ / ٣٢٧ .

(٨) خطط المقرئى ٣ / ١٤٨ .

(٤) راجع فى هذا المارستان خطط المقرئى ٣ / ٣٨٦ .

(٩) حن المحاضرة ١ / ٥٤٦ .

وما بعدها .

(٥) رحلة ابن بطوطة (طبع الطبعة الأزهرية)

ويكفي لبيان ازدهار دراسة الطب حينئذ أن تنتج مصر شيخ الأطباء لزمانه علاء الدين .
 على بن أبي الحزم المعروف باسم ابن النفيس^(١) العلامة في فنه الذي لم يكن في زمانه من يضاهيه
 في الطب والعلاج والعلم ، كما يقول ابن تفرى بردى ، ويكفيه فخراً ما ذكره ألدوميلي وغيره من
 الغربيين من أنه اكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية ، مسجلاً بذلك كشفاً طبياً خطيراً لم
 يستطع الأطباء منذ جالينوس إلى زمانه اكتشافه . ومن كتبه « الشامل في الطب » و« المذهب في
 الكحل » وشرح القانون في الطب لابن سينا . وقد توفي سنة ٦٨٧ بعد أن أوقف داره وأملاكه
 وجميع ما يتعلق به على مارستان قلاوون الذي كان يعمل به رئيساً لأطبائه . وولى رئاسة الأطباء
 بعده مذهب الدين بن أبي حليقة المار ذكره ، ويسرد السيوطي في حسن^(٢) المحاضرة أسماء طائفة
 من الأطباء في القرن الثامن الهجرى . ومن الأطباء الذين لم يذكرهم محمد^(٣) بن الأكفاني المتوفى
 سنة ٧٤٨ ويبدو أن تخصصه الأكبر كان في طب العيون ، ومن مصنفاته في الرمد « كشف الغين
 في أحوال العين » وله كتاب في الطب المنزل سماه « غنية اللبيب » وكتاب في الفصد سماه « نهاية
 القصد » وكتاب في الأحجار النفيسة سماه « نخب الذخائر » ومن كتبه : « إرشاد القاصد إلى
 أقصى المقاصد » وهو مختصر جامع لفنون شتى تبلغ ستين فناً نشره شبرنجى في المكتبة الهندية . واشتهر
 بعده في طب العيون صدقة^(٤) بن إبراهيم الشاذلى ، ويغلب أن يكون تلميذه إذ هو من أطباء
 النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى المقابل للقرن الرابع عشر الميلادى . وما يدل على شهرة
 مصر لأيام المماليك في الطب والأطباء ما يذكره ابن إياس في كتابه بدائع الزهور من أن السلطان
 بايزيد العثمانى أرسل في سنة ٧٩٥ رسولا إلى السلطان برقوق يسأله أن يبعث إليه بطبيب مختص
 بأمراض المفاصل فأرسل إليه رئيس الأطباء ابن صغير ومعه أدوية كثيرة لعلاج^(٥) . ويظل هذا
 النشاط الطبى في مصر حتى نهاية زمن المماليك إذ نلتقى في زمن قانصوه الغورى
 (٩٠٦ - ٩٢١ هـ) بالطبيب محمد القوصى ، وإليه قدّم كتابه « كمال الفرحة في دفع السموم
 وحفظ الصحة » ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية .

(٢) حسن المحاضرة ١/ ٥٤٣ وما بعدها .

(٣) البدر الطالع للشوكاني ٢/ ٧٩ . وانظر ألدوميلي
 ص ٥٠٥ ، ٥١٠ .

(٤) ألدوميلي ص ٥١٠ .

(٥) راجع بدائع الزهور في السنة المذكورة .

(١) انظر في ابن النفيس النجوم الزاهرة ٧/ ٣٧٧
 والسبكي ٨/ ٣٠٥ وحسن المحاضرة ١/ ٥٤٢ والشذرات
 ٥/ ٤٠١ وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٣٤ وروضات الجنات
 ٤٩٤ والدارس في أخبار المدارس ٢/ ١٣١ وألدوميلي
 ص ٣٢٣ ، ٣٢٦ . وكتاب بول غليونجى عنه .

ومعروف أن عناية العرب بالبيطرة ومداواة الخيل قديمة ، وكان طبيعيا والطب ينشط في مصر النشاط السالف في أيام الممالك أن يُعنى بعض أطبائها بالطب البيطرى ، ومن خير ما أُلّف فيه كتاب لطبيب بيطرى كان المشرف على خَيْل السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، هو أبو بكر^(١) بن المنذر بن بدر المتوفى سنة ٧٤١ واسم الكتاب «كامل الصنائع: الزردقة والبيطرة» والزردقة دراسة الخيل والبيطرة : علم أمراض الخيل وأدويتها وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية الدكتور بيرون ، وترجمه إلى الألمانية حديثاً فرونر . ولأيدمر^(٢) الجلدكى المتوفى سنة ٧٤٣ (وقيل بل سنة ٧٦٣) كتب في المعادن منها ، المصباح في علم المفتاح وهو مطبوع في بومباي ، وكتاب نتائج الفكر في أحوال الحجر وهو مطبوع في القاهرة .

وتكاد تتوقف هذه الحركة العلمية الدائبة في زمن العثمانيين . ولكن تظل منها بقايا غير قليلة في الجامع الأزهر وفي بعض المدارس . وتظل مصر ترعى العلوم الإسلامية واللغوية وبعض ما تبقى فيها من علوم الأوائل ، ومن يرجع إلى كتاب الكواكب السائرة في علماء المائة العاشرة لنجم الدين الغزى المتوفى سنة ١٠١٦ وكتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر للمحجى المتوفى سنة ١١١١ سيجد فيها كثيرين يعنون بالرياضيات والفلك مثل عبد القادر المتوفى الفلكى بالمدرسة الغورية المتوفى سنة ٩٨٠ ومصطفى بن شمس الدين الدمياطى المتوفى سنة ١٠٣٨ وعبد الله المقدسى الأزهرى المتوفى سنة ١٠٧٠ . ويسوق الجبرى في تاريخه تفاصيل كثيرة عن الرياضيين والفلكيين في القرن الثانى عشر الهجرى ويذكر في طليعتهم رضوان^(٣) الفلكى المتوفى سنة ١١٢٢ صاحب الزيج الرضوانى ، ويقول الجبرى إنه حرره على أصول الرصد السمرقندى وزيجه المشهور الذى صنعه أوليغ بك سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٧ م . وينوّه الجبرى بأن أباه كان يملك نسخة من هذا الزيج النفيس ، وكذلك كان يملك نسخة منه حسن^(٤) أفندى قطه ، فكان بالقاهرة منه نسختان غير النسخة التى كان يملكها - فيما نظن - رضوان الفلكى . ويشيد الجبرى بأبيه في الرياضيات والفلك ، وبتلميذ من تلاميذ رضوان هو جمال الدين يوسف^(٥) الكلارجى المتوفى سنة ١١٥٣ ويقول إنه اخترع ما لم يسبق به ، ويذكر أنه أُلّف كتابا في الظلال ورسم المنحرفات والبسائط والمزاوِل والأسطحة ، وأن له في منازل القمر كتابا أسماه «كثر الدرر في أحوال منازل القمر» .

(٤) الجبرى ٧٠/٢ .

(٥) الجبرى ١٦٤/١ .

(١) ألدوميل ص ٥٠٥ .

(٢) ألدوميل ص ٥٠٦ ، ٥١٣ .

(٣) تاريخ الجبرى (طبعة بولاق) ٧٤/١ .

وينوه طويلا بحسين^(١) المحلى المتوفى سنة ١١٧٠ هـ ومعارفه في الجبر والمقابلة والحساب ومصنفاته ، كما ينوه بتلميذه محمد^(٢) بن موسى الجناحي المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ/١٧٨٦ م ومؤلفاته في الرياضيات . ويذكر الجبري في القرن المذكور أسماء رياضيين آخرين مما يدل على أن مصر ظلت تعنى بالرياضيات والهيئة والفلك طوال أيام العثمانيين . ويبدو أن الجبري وغيره ممن ترجموا لعلماء القرنين السابقين لتاريخه العاشر والحادي عشر لم يعنوا بالترجمة للأطباء . إلا ما قد يذكره عفو امثل شهاب الدين بن سلامة^(٣) القليوبي المتوفى سنة ١٠٥٩ هـ وله عدة كتب طبية كانت رائجة في زمنه ، وأهم من هذه الكتب وكان أكثر منها رواجاً كتاب التذكرة الطبية للأنطاكي^(٤) داود بن عمر المتوفى سنة ١٠٠٨ . ومن يقرأ الجبري وتراجمه في القرن الثاني عشر الهجري يراه يذكر طبييا يسمى قاسم^(٥) بن محمد المتوفى سنة ١١٩٣ وكان عناية مصر بالطب ظلت إلى أواخر العهد العثماني ، وليس ذلك فحسب ، فإن الجبري يذكر أنه عُهد إليه تدريس الطب بالمارستان المنصوري ، ومعنى ذلك أن مازستان المنصور قلاوون الذي مر بنا ذكره وإشادة ابن بطوطة وغيره به ظل قائما طوال أيام العثمانيين ، وظل قائما معه تدريس الطب لطلابه فيه ، بالضبط كما كان الشأن أيام المنصور قلاوون ومن تلاه من المالك .

(ب) علم الجغرافيا

ولم نتحدث حتى الآن عن علم الجغرافيا ونشاط مصر فيه والمصريين . ولعل أول ما يلقياننا من ذلك ما نقرؤه في القسم الثالث من كتاب فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ للهجرة وفيه يتحدث عن خطط الفسطاط والحيزة والإسكندرية . ولعاصره محمد بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٢٥٠ كتاب بعنوان الخطط^(٦) سقط من يد الزمن . ونزل مصر واستقر بها في سنة ٣٣٤ المسعودي على بن الحسين المتوفى سنة ٣٤٥ ويشتهر بكتاباتة التاريخية وحشده فيها كثيرا من المعارف الجغرافية عن الأرض وجبالها وأغوارها وبحارها وأنهارها وسكانها وأحوالهم

(٥) الجبري ٢/٥٤ .

(٦) تاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ترجمة

صلاح الدين عثمان هاشم (نشر لجنة التأليف والترجمة

والنشر) ١/١٦٨ .

(١) الجبري ١/٢١٩ .

(٢) الجبري ٢/١٢٥ .

(٣) خلاصة الأثر ١/١٧٥ .

(٤) انظر مصادر ترجمة داود الأنطاكي في قسم الشام

الاجتماعية . وفي مصر أو بعبارة أدق في القسطنطينية كتابه « مروج الذهب » سنة ٣٣٦ وهو في التاريخ العام للأمم والدول وبه معلومات جغرافية كثيرة . وفي القسطنطينية ألف كتابه « التنبيه والإشراف » وهو مملوء بالمعارف الجغرافية الفلكية والطبيعية والوصفية ، وبه معلومات قيمة عن مصر وما بها من محصولات وتجارات وصناعات . وتدخل مصر في العهد الفاطمي وسرعان ما ترسل الدولة الفاطمية بابين سليم^(١) الأسواني في سنة ٣٦٥ إلى النوبة في مهمة دبلوماسية ويتغلغل في السودان ويؤلف كتابه « أخبار النوبة والمُقرّة وعلوة والبجّة والنيل » يصف فيه تلك البلاد وسكانها ، وينقل عنه المقرئى وابن إياس مرارا : وهو أول كتاب يصور المجرى الأعلى للنيل . ويكتب عن السودان بعده بفترة قليلة رحالة مصرى هو الحسن المهلبى في كتابه « المسالك والممالك » الذى أهداه إلى العزيز الفاطمي سنة ٣٧٥ ولذلك قد يسمى بالعزيزى وهو - كما يقول آدم ميتز - يصف بلاد السودان وصفا دقيقا . وهو أكبر مصدر اعتمد عليه ياقوت في كلامه عن السودان^(٢) .

وتعود مصر في القرن التالى إلى الكتابة عن الخطط أو تخطيط المدن ويؤلف القضاعي^(٣) كتابه خطط مصر . ويخلفه في القرن السادس الهجرى جغرافى مصرى كبير هو أبو الفتح نصر^(٤) بن عبد الرحمن الإسكندراني المتوفى سنة ٥٦١ ويشيد ياقوت في مقدمته لمعجم البلدان بكتاب جغرافى له سماه « ما اتلف واختلف من أسماء البقاع » وله كتاب ثان أهم منه ألفه توضيحا له سماه « كتاب الأمكنة والمياه والجبال والآثار المذكورة في الأخبار والأشعار » ومنه نسخة محفوظة في مكتبة المتحف البريطانى تضم ٢٩٣٨ سما ولاحظ وستفيلد ناشر معجم البلدان أن ياقوت ضمن معجمه مادة هذا الكتاب^(٥) . وينزل مصر في أواخر القرن السادس الهجرى عبد^(٦) اللطيف البغدادي ويُعنى بتأليف كُتُب عنها يسميه : « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » . والكاتب موزع على مقالتين تحدث مؤلفه في أولاهما عن طبيعة مصر وسكانها ونباتها وحيوانها وآثارها وعمرانها ، وفي الثانية تحدث عن النيل وعما أصاب مصر في مقامه بها من قحط ووباء مروعين .

للهاد الأصهبى (قسم مصر) ٢/٢٢٥ وفيه الوعاة

للسوطى ص ٤٠٣ وكراتشكوفسكى ١/٣٢٢ .

(٥) انظر كراتشكوفسكى ١/٣٢٣ ومقدمة وستفيلد

للجزء الخامس من معجم البلدان .

(٦) ابن أبى أصيبعة ٦٨٣ وكراتشكوفسكى ١/٣٤٥

(١) كراتشكوفسكى ١/١٩٢ وروكلان ٤/٢٥٣ .

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز ترجمة د. فتي ريدة ٧/٨ .

(٣) كراتشكوفسكى ١/١٦٩ وابن خلكان ٤/٢١٢ .

(٤) انظر مقدمة كتاب معجم البلدان وغريدة القصر

ولا يلقانا بمصر جغرافيون مهمون في القرن السابع الهجرى ويتكاثرون في القرن الثامن ، وفيه نلتقى بابن^(١) المتوج محمد بن عبد الوهاب الزيرى المتوفى سنة ٧٣٠ وكتاب له عن خطط مصر إلى أعوام بضع وعشرين وسبعائة . وكان في زمنه التويرى^(٢) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٣٣ صاحب الموسوعة الكبرى : « نهاية الأرب » التى مر ذكرها في الحركة العلمية والتى أهداها إلى السلطان محمد الناصر بن قلاوون ، وهى مقسمة إلى خمسة فنون ، والفن الأول عن السماء والأرض ، وهو مكتظ بالمعلومات الجغرافية عن الأرض وتكوينها الطبيعي وبلدانها وسكانها . وكان يعاصره ابن فضل^(٣) الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٩ رئيس ديوان الإنشاء للسلطان الناصر وله أيضا موسوعة كبرى مر ذكرها في الحركة العلمية سماها « مسالك الأبصار » وفيها عرض جغرافى عام للبلدان والأمم الإسلامية والأجنبية في الغرب والشرق . وتهم الدولة في هذا القرن الثامن بعمل روكلات أو عبارة أخرى بعمل سجلات لمسح الأراضي المصرية ، ومن أهمها الروك^(٤) الناصرى سنة ٧١٥ في عهد السلطان الناصر بن قلاوون . ويظل النشاط الجغرافى بمصر في القرن التاسع الهجرى ، ونلتقى في أوائله بابن دقاق^(٥) والى دمياط وبعض بلدان الشام المتوفى سنة ٨٠٩ وهو يعنى بخطط مصر في كتابه « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وتحفظ دار الكتب المصرية منه بالجزءين الرابع والخامس وفيهما يصور خطط القاهرة والإسكندرية . ويعنى معاصره القلقشندى^(٦) شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على الكاتب بديوان الإنشاء المتوفى عام ٨٢١ بوصف جغرافى متفرق لمصر والبلاد العربية وبلاد التتار والهند والسودان والحيشة وبعض البلدان الأوربية الغربية والشرقية .

ولا نلبث أن نلتقى بالمقرئى^(٧) تقى الدين بن علاء الدين المتوفى سنة ٨٤٥ وكتابه « المواعظ والاهتبار بذكر الخطط والآثار » المشهور باسم الخطط موسوعة كبرى لمصر وجغرافيتها وخططها

(٥) الشلوات ٨٠/٧ وكراتشكوفسكى ٤٧١/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٦) انظر مراجع القلقشندى في ترجمته بالفصل الخامس .

(٧) الضوء اللامع للسخاوى ج ٢ رقم ٦٦ والنبل الصايق لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية) ٣٩٤/١ والسيوطى ٥٥٧/١ والشوكافى ٧٩/١ والمؤرخون في مصر لزيادة ص ٣ .

(١) الدرر الكامنة لابن حجر (نشر- دار الكتب الحديثة) ١٥٥/٤ وحسن الحضارة للسيوطى ٥٥٥/١ وكراتشكوفسكى ٣٨٥/١ .

(٢) ابن حجر ٢٠٩/١ والسيوطى ٥٥٦/١ والخطط الجديدة لعل مبارك ١٥/١٧ وكراتشكوفسكى ٤٠٨/١ .

(٣) انظر مراجع ابن فضل الله في ترجمته بالفصل الخامس .

(٤) كراتشكوفسكى ٣٨٥/١ .

وتاريخها وحضارتها وآثارها ومساجدها وكنائسها وأديرتها ومنشآتها وأعيادها وأحوالها الاجتماعية .
 ويعنى خليل^(١) بن شاهين الظاهري المتوفى سنة ٨٧٢ في كتابه « زبدة الممالك في كشف الطرق
 والمسالك » برسم الجغرافية الإدارية لأراضى دولة المماليك في مصر والشام . ويختم القرن التاسع
 الهجرى بابن الجيعان^(٢) المتوفى سنة ٩٠٢ وله « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » ووصف
 لرحلة السلطان قايتباى فى سنة ٨٨٣ إلى بلاد الشام سماه « القول المستطرف فى سفر مولا
 الأشرف » . وينتهى الجغرافيون فى العهد المملوكى بابن^(٣) إياس محمد بن أحمد المتوفى سنة ٩٣٠
 وله كتاب « نشق الأزهار فى عجائب الأقطار » ولا يزال غير مطبوع ، وفيه يتحدث عن الجغرافية
 الفلكية والطبيعية لمصر والعالم ، ومن أهم ما يشتمل عليه ثبت بمقاييس النيل وفيضانه على مر
 السنين .

ويكاد يتوقف هذا النشاط الجغرافى بمصر فى عهد العثمانيين ، إذ تحولت ولاية تابعة لهم ، ولم
 يعد أبنائها يشعرون بمكانتهم التى كانت لهم زمن المماليك ، إذ كان يدين جزء كبير لهم من البلاد
 العربية بالطاعة وفى مقدمته الشام والحجاز . ومع ذلك لا ينعدم هذا النشاط ، بل تظل منه بقايا
 إذ نجد ابن^(٤) زنبيل المتوفى سنة ٩٦٠ يصنف فى الجغرافيا كتابا أسماه « تحفة الملوك والرغائب لما فى
 البر والبحر من العجائب » ولا يزال مخطوطا لم ينشر . وتلتقى فى القرن الحادى عشر بالسهنورى^(٥)
 محمد بن أحمد وله كتاب فى منازل البريد بين القاهرة ومكة . وكان يعاصره شهاب الدين القليوبى
 المار ذكره بين أطباء الحقبة العثمانية وله كتاب جغرافى فى مناسك الحج ومنازله ورسالة فى معرفة
 أسماء البلاد : أطوالها وانحرافاتا ، وتبدو الرسالة كأنها زييج صغير ، وهى بذلك تدخل فى الجغرافية
 الفلكية ، كما يدخل النشاط فى الفلك والهيئة الذى عرضنا له مع الرياضيات عند الفلكى والرياضى
 الكبير رضوان وأمثاله من الفلكيين . وبذلك ظلت الجغرافية الفلكية ناشطة وخاصة فيما يتصل
 بالزيجات ، ونشطت معها كتب الرحلات ، ومن أهمها رحلة لمصطفى^(٦) أسعد اللقيمى الدمياطى
 المتوفى سنة ١١٧٣ جعل عنوانه : « موانع الأنس برحلتى لوادى القدس » وقد استغرقت الرحلة

-
- (١) الضوء اللامع ج ٣ رقم ٧٤٨ وزيادة ص ٢٣ .
 وكراتشكوفسكى ٤٧٢/٢ .
 (٢) الكواكب السائرة ١٢٠/١ وكراتشكوفسكى ٤٧٥/٢ .
 (٣) زيادة ص ٤٦ وكراتشكوفسكى ٤٩٠/٢ ودائرة المعارف الإسلامية .
 (٤) زيادة ص ٧٥ وتاريخ الأدب الجغرافى العربى لكراتشكوفسكى ٦٨٣/٢ .
 (٥) كراتشكوفسكى ٦٩٢/٢ .
 (٦) انظر فيه تاريخ الجغرافى ٢٢١/١ - ٢٤٢ وراجع كراتشكوفسكى ٧٥٥/٢ .

سنة أشهر في سنة ١١٤٩ بدأها من موطنه دمياط إلى القدس ، وعُني باختصار كتاب الأنس الجليل في زيارة بيت المقدس والخليل لأبي اليمن مجير الدين الحنبل ، وسمى مختصره « لطائف أنس الخليل في تحايف القدس والخليل » . وواضح أن الجغرافيين المصريين أخذوا يعنون في العصر العثماني بجغرافية الأراضي المقدسة في فلسطين والحجاز .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

أخذت مصر تُعنى بدراسات اللغة والنحو مع عناية مدرستي البصرة والكوفة بهما . مما دفع فيها إلى نشوء طبقة من المؤدبين ، وأخذت هذه الطبقة تتكاثر منذ القرن الثاني للهجرة ، فكانت تلقن الشباب في القسطنطينية والإسكندرية مبادئ العربية ، وانضم إليهم في هذا التلقين بعض العلماء الذين هاجروا إلى الديار المصرية مثل عبد^(١) الرحمن بن هُرْمُز الأعرج تلميذ أبي الأسود الدؤلي . نزل الإسكندرية المتوفى بها سنة ١١٧ للهجرة . وطبيعي أن يظل نشاط هؤلاء المؤدبين مطردًا طوال القرن الثاني للهجرة ، لسبب واضح هو عناية المصريين بقراءات القرآن الكريم وضبط ألفاظه لغويا ونحويا . ولمدارستهم لتفسير القرآن الكريم وللفقه ، وسرى فيما بعد نشاطهم الجُم في هذه الميادين . ولم تُعن كتب التراجم بأسماء هؤلاء المؤدبين وإحصائهم ، ولكن لا شك في أنهم كانوا كثيرين . وقد ترجم السيوطي في كتابه البغية لواحد منهم هو سرج الغول الذي لحق زمن الإمام الشافعي حين نزل القسطنطين سنة ١٩٩ وكان عالما باللغة ولم يكن أحدًا بالقسطنطين يظهر شعره إلا بعد عرضه عليه ورضاه عنه ، ويقال إنه كان يذاكر الشافعي في اللغة والشعر ، وإنه كان يعجب بمعارفه ، وروى أنه كان يقول عنه حين يقوم من مجلسه : نحتاج إلى أن نستأنف طلب العلم ، وحسبه تلك الشهادة الرفيعة من الإمام الشافعي . ومن كان يجتمع به الشافعي في القسطنطين من اللغويين عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة ، ويقول السيوطي عنه إنه كان إماما في اللغة والنحو والعربية ويذكر أنه كان يتناشد هو والشافعي كثيرا من أشعار العرب^(٢)

(٢) له كتاب سماه « ما وقع في أشعار السير من الغريب » وانظر مصادر ترجمته في ص ١٥١ .

(١) راجع ابن هُرْمُز في أخبار النحويين البصريين للبرقي ص ٢١ وتذكرة الحفاظ ٩١/١ وطبقات القراء لابن الجوزي ٣٨١/٤ وإنباء الرواة ١٧٢/٢ وما به من مراجع .

ويزور محمد بن يحيى اليزيدى مصر فى العقد الثانى من القرن الثالث فى صحبة المعتصم سنة ٢١٤ ويتخذها دار مقام له حتى وفاته^(١) ويحدث بها ضرباً من الثراء فى حياتها اللغوية إذ كان لغويًا كبيراً مثل أبيه وأخيه إبراهيم ، وله كتاب المقصور والممدود ، وأغلب الظن أنه روى للمصريين كتاب أبيه : « التوارد فى اللغة » وأيضاً كتاب أخيه إبراهيم فى اللغة الذى سماه « ما اتفق لفظه وافترق معناه » جمع فيه كل الألفاظ المشتركة فى الاسم - كما يقول ابن خلكان - المفترقة أو المختلفة فى المعنى ، وهو من الكتب اللغوية الجيدة . ويزور مصر ابن جرير الطبرى فى العقد السادس من القرن الثالث ، وكان يحفظ ديوان الطرماح فطلب إليه المصريون أن يأخذوه عنه ، فرواه لهم مفسراً غريبه^(٢) .

ونلتقى فى القسطنطينية فى القرن الثالث بعالم مصرى لغوى ونحوى كبير هو ولاد^(٣) التيمى المتوفى سنة ٢٦٣ لعهد الدولة الطولونية ، وكان قد رحل إلى العراق وسمع بها العلماء وأخذ ما عندهم ، ويقال إنه لم يكن بمصر شىء كبير من كتب اللغة والنحو قبله ، ويذكر حفيده أحمد أنه توارث هو وأبوه عنه ديوان رؤبة . مما يدل على عنايته برواية دواوين الشعر القديم ، وخاصة الدواوين التى تكثف بالغريب مثل ديوان رؤبة . ونلتقى بعده بلغوى مصرى معجمى أو من أصحاب المعاجم هو أبو الحسن على^(٤) بن الحسن الهنائى الأزدي المعروف باسم كُراع النمل لقصره ودمامته ، وهو وإن كان دميماً قصيراً فقد كان عالماً لغوياً لا يُشَقُّ غباره ، ألف أربعة معاجم ، ويقول القفطى فى ترجمته بإنشاء الرواة إنه يملكها جميعاً ، وهى المنصَّد فى اللغة ، وهو معجم كبير رتبته على الحروف الهجائية ، ومعجم مختصر له سماه المجرَّد ، جرده من الشواهد ، ومعجم ثالث لأمثلة المغرب على أوزان الأفعال سماه الأوزان . والمعجم الثلاثة مفقودة . أما المعجم الرابع فسماه للمتجدِّد قصره على ما اتفق لفظه واختلف معناه أو بعبارة أخرى على المشترك اللفظى ، وهو معجم نفيس ، وقد نشر فى القاهرة . والألفاظ المشتركة فيه مرتبة حسب الحروف الهجائية لا حسب مخارج الحروف كما فى معجم العين للخليل . ولم تُردِّ فى ترتيبها إلى أصولها الثلاثية والرباعية كما هو معروف فى المعاجم العربية ، بل ترتب حسب صورها اللفظية . وكأنه أراد بذلك اليسر والسهولة ، وتابعه أصحاب المعاجم - باستثناء الأزهرى فى معجمه تهذيب اللغة - فى

(١) انظر إنباء الرواة ٢٣٦/٣ وتاريخ بغداد ٤١٢/٣ . (٤) راجع ترجمة الهنائى فى إنباء الرواة ٢٤٠/٢ .

(٢) معجم الأديب لياقوت ٥٣/١٨ .

(٣) انظر ترجمة ولاد فى إنباء الرواة ٣٥٤/٣ .

ومعجم الأديب ١٢/١٣ .

ترتيب الألفاظ حسب الحروف الهجائية مثل الجوهري في الصحاح والزخشرى في أساس البلاغة ، غير أن الجوهري رأى أن يكون الترتيب الهجائي للألفاظ بحسب أواخرها ورأى الزخشرى أن يكون الترتيب بحسب أوائلها مثل كُراع النمل .

وتلتحم مباحث اللغة بمباحث النحو أو بعبارة أدق تظل ملتزمة في القرن الرابع على نحو ما يتضح عند أبي العباس أحمد^(١) بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ وأبي جعفر أحمد^(٢) بن محمد النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ . أما ابن ولاد فقد خرّجه أبوه محمد نحويًا ولغويًا ماهرًا ، ولم يكف بما أخذه عن أبيه وبعض العراقيين النازلين بمصر فرحل إلى بغداد ودرس على كبار اللغويين والنحاة بها ، وتسامع به وبزميله أبي جعفر النحاس أهل المغرب والأندلس فرحلا إليهما يأخذون عنهما ويدرسون . وكان ابن ولاد يضيف إلى دراسته لكتاب سيبويه عرضه دواوين الشعراء القدماء وكان يقول لطلابه : ديوان رؤية رواية لى عن أبي عن جدى . ونشر مجمع اللغة العربية بدمشق ديوان ذى الرمة ، وسرى عما قليل أن ابن ولاد كان الطريق إلى إحدى روايته ، وبذلك كان يدرس لطلابه في القساطر أصعب ديوانين عربيين لغويًا ، واشتهر في زمنه بروايته لمعجم العين المنسوب إلى الخليل ، وعنه حملة منذر بن سعيد قاضي الجماعة بالأندلس المشهور . ومن مصنفاته اللغوية كتاب المقصور والمدود ، وهو معجم لها مرتب على الحروف الهجائية مثل كتاب المنجد لكُراع النمل ، وكأنه تابعه في ترتيب معجمه تيسيرًا للارتفاع به . أما أبو جعفر النحاس فكان واسع العلم في اللغة والنحو والدراسات القرآنية ، وقد رحل إلى العراق مثل ابن ولاد وحمل عن علمائها علماء كثيرًا ، وكان يعنى في دروسه بشرح الشعر القديم ، إذ فسّر عشرة دواوين منه كان يملئها على طلابه . ومن أهم مصنفاته اللغوية « شرح القصائد التسع المشهورات وتشتمل على المعلقات السبع ، وهى منشورة ببغداد ، ونُشر له كتاب « شرح أبيات سيبويه » وهى أبيات كتابه المشهور . وعلى هذا النحو أخذت مصر تنشط في الدراسات اللغوية ، ونشر بهذا النشاط واضحا حين نزلها المتنبي ، فقد انعقدت له حلقة كبيرة لسماع شعره ، وسرعان ما تكوّنت له بطانة من علماء مصر اللغويين وأدبائها تروى شعره . مثل عبيد الله بن محمد بن أبي الجوع وفيه يقول الثعالبي : « أحد رواة المتنبي الأدباء وأصحابه العلماء ومن تمهر في لغات العرب^(٣) » ومثل صالح بن

١٠١/١ ومعجم الأدباء ٢٢٤/٤ وابن خلكان ٩٩/١ .

(٣) اليتيمة ٣٩٥/١ .

(١) انظر في ترجمة ابن ولاد معجم الأدباء ٢٠١/٤

وإنباه الرواة ٩٩/١ وما به من مراجع .

(٢) راجع في ترجمة أبي جعفر النحاس إنباه الرواة

رُشدين ، وفيه يقول الثعالبي أيضا : « أحد أئمة الكتاب المهرة في سائر الآداب ، صاحب المتنبي وروى شعره ^(١) » . وكانت تدور المناقشات أحيانا بين المتنبي وبعض اللغويين ، ولعل ذلك ما جعله يعقد حلقة علمية لقراءة كتاب المقصور والمدود لابن ولاد سنة ٣٤٧ وقد مضى يعلّق عليه موضحا ما فيه من الغلط ، وكتب ذلك عنه أبو الحسين على ^(٢) بن أحمد المهلبى اللغوى المتوفى سنة ٣٨٥ وأضاف إلى ذلك زيادات ونسب الجميع إليه ، على نحو ما يصور ذلك على بن حمزة البصرى فى كتابه « الرد على ما فى المقصور والمدود لابن ولاد »

ويقول ياقوت فى ترجمة المهلبى إنه كان إماما فى النحو واللغة ورواية الأخبار وتفسير الأشعار كما يقول إنه تلميذ لإبراهيم التّجيمى كاتب كافور المتوفى سنة ٣٥٥ وكان رواية كبيرا للدواوين والأشعار ، وحملها عنه أبو الحسن المهلبى المذكور آنفا ، وتلميذ ثان له يسمى جُنادة ^(٣) اللغوى ، وسرى عما قليل أنه كان الطريق إلى إحدى روايات ديوان ذى الرمة ، ولعل فى ذلك ما يدل على أنه شارك بقوة فى رواية الدواوين القديمة ، وبالمثل تلميذه أبو الحسين المهلبى ، وفى المهلبى يقول القفطى : أحد علماء الأدب واللغة والشعر ، روى عنه المصريون وأكثروا .. والرواية عنه إلى زماننا هذا (أى فى القرن السابع الهجرى) ووصل للمصريين رواية كتب كثيرة من كتب الأدب . وحوالى منتصف القرن الخامس الهجرى نزل بمصر التبريزى ^(٤) تلميذ أبى العلاء وأقام بها مدة ولعله روى فيها أشعار المعرى كما روى كثيرا من معارفه اللغوية وشرّحه على الدواوين والأشعار ، مثل شرحه على المعلقات والمفضليات وديوان الحماسة وديوان أبى تمام ، وقد مرّ بنا فى الجزء الخامس من هذه السلسلة نشاطه اللغوى الجَمّ . ومن نزلاء القاهرة المغاربة اللغويين القزاز القيروانى المتوفى سنة ٤١٢ خدم المعز الفاطمى وابنه العزيز وصنف لها كتباً ، وعاد بعد خلافتها إلى بلده ، ومن تصانيفه كتاب الجامع فى اللغة رتبه على حروف المعجم وهو - كما يقول ياقوت - كان يقارب معجم التهذيب للأزهري ، وله كتاب الضاد والظاء وكتاب معان فى شعر المتنبي وكتايب فى المآخذ عليه .

تلميذا للأزهري صاحب معجم التهذيب زوى عن أبى أحمد العسكري كُتبه ، ونزل مصر وأقام بها حتى توفى سنة ٣٩٩ .

(٤) انظر فى نزول التبريزى مصر ابن خلكان ٦ / ١٩٣ .

(١) التّيمّة ١ / ٣٩٩ وأخبار مصر فى سنى ٤١٤ ، ٤١٥ ، للمسيحي (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب) ص ٩٦ .

(٢) انظر فى أبى الحسين المهلبى معجم الأوباء ١٢ / ٢٢٤ وإنباء الرواة ٢ / ٢٣٢ .

(٣) انظر ترجمة جُنادة فى معجم الأوباء ٧ / ٢٠٩ وكان

وأكبر لغوى بالقاهرة في أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس يوسف^(١) النجيمى المتوفى سنة ٤٢٣ وهو تلميذ أبى الحسين المهلبى وقد حمل عنه كل ما كان يرويه من كتب الأدب واللغة ودواوين الشعر ، وروى عنه المصريون عامة ما كان يرويه محتفين به لما كان. يمتاز به من الدقة فى الضبط اللغوى غاية الضبط إلى أقصى حد ممكن ، وفى ذلك يقول ابن خلكان : « أكثر ما تُروى الكتب القديمة فى اللغة والأشعار العربية وأيام العرب فى الديار المصرية من طريقه » . وكان ما يزال يراجع الروايات المختلفة للكتاب أو للديوان ويقابل بينها حتى يخرجها فى أوثق صورة ممكنة . ومن خير ما يصور هذا العمل المعقد الشاق ديوان ذى الرمة الذى نشره الدكتور عبد القدوس أبو صالح فى مجمع اللغة العربية بدمشق نشرة علمية محققة اعتمد فيها على صناعته فيه ، إذ أخرجه فى صورة محكمة على أساس روايتين علميتين ، ولكل رواية طريقان . أما الرواية الأولى فمن ثعلب عالم الكوفة المشهور وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى أستاذه عن ابن ولاد ، وطريقها الثانى جعفر^(٢) بن شاذان اللغوى البصرى نزىل القاهرة عن أبى عمر الزاهد غلام ثعلب . والرواية الثانية عن إبراهيم بن المنذر المتوفى سنة ٢٣٦ عن أسود بن ضُبَّان عن ذى الرمة ، وطريقها الأول أبو الحسين على بن أحمد المهلبى عن إبراهيم النجيمى . وطريقها الثانى أبو عمران بن رباح أستاذ أبى يعقوب النجيمى عن إبراهيم النجيمى . ولعل فى ذلك ما يوضح مدى عناية أبى يعقوب يوسف النجيمى بإخراج الدواوين للمصريين وإحكام صنفها إحصاء لا يكاد يفوقه إحصاء ، وكان يعمم هذا الإحكام فى كل مارواه من الدواوين وكتب اللغة .

ويحمل أصحاب يوسف النجيمى عنه كتب اللغة ودواوين الشعراء . ويخلفهم عليها تلاميذهم فى القرن الخامس ومن تعهدوهم من علماء القرن السادس ، ويطرد هذا النشاط اللغوى بمصر . ويزورها غير عالم لغوى من البلاد العربية ويستقرون بها ، وفى مقدمتهم على^(٣) بن جعفر السعدى الصقلى المعروف باسم ابن القطاع ، نشأ بصقلية وقرأ الأدب واللغة على علمائها وخاصة ابن البر اللغوى ، ورحل عن صقلية لما أشرف النورمان على تملكها فى حدود سنة ٥٠٠ ونزل القاهرة

١/ ٢٦٥ .

(٣) انظر فى ابن القطاع معجم الأدباء ١٢ / ٢٧٩ وابن

خلكان ٣٢٢/٣ وإنباء الرواة ٢ / ٢٣٦ وما به من مراجع .

(١) راجع فى ترجمة يوسف النجيمى ابن خلكان

٧ / ٧٥ وبغية الوعاة والأنساب للسماطى فى النجيم

والشعرا ٣ / ٧٥ وغير الذهبى ٢ / ٣٥٨ .

(٢) انظر فى ترجمة جعفر بن شاذان إنباء الرواة

واتخذها دار مقام له وتصدّر فيها للإفادة حتى توفي سنة ٥١٥ وأكرمه المصريون غاية الإكرام واتخذهُ الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة الأمر الفاطمي معلماً لولده ، ومن طريقه اشتهرت في الآفاق رواية معجم الصحاح للجوهري ، كان قد أخذها عن أستاذه ابن البرّ في صقلية ، وله عدة تصانيف لغوية ، منها كتاب الأسماء في اللغة ، وكتاب الأفعال عُني بنشره مجمع اللغة العربية في القاهرة .

ويتكاثر اللغويون بمصر من علمائها والعلماء النازلين بها بعد ابن القطاع ، وأشهرهم غير مدافع ابن برّى^(١) عبد الله المصري المولد والمنشأ المولود سنة ٤٩٩ وفيه يقول ابن خلكان : « الإمام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية كان علامة عصره وحافظ وقته ونادرة دهره » . ويذكر ابن خلكان أنه رأى له « حواشي على درة الغواص في أوهام الخواص » للحريري ، وأن له كتاباً لطيفاً في أغاليط الفقهاء . وقد كتب ردّاً على أبي محمد بن الحشّاب ، ردّاً فيه على كتابه الذي عدّد فيه غلط الحريري في المقامات ، وطُبِعَ هذا الرد ملحقاً بمقامات الحريري مع نقد ابن الحشّاب بالمطبعة الحسينية بالقاهرة . ومن أهم مصنفاته حواشي على معجم الصحاح للجوهري سماها « التنبيه والإفصاح عما وقع في كتاب الصحاح » يقول ابن خلكان : « وهي حواشي فائقة أتى فيها بالغرائب ، واستدرك عليه فيها مواضع كثيرة ، وهي دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه » وهي من الكتب الخمسة التي ذكر ابن منظور في مقدمة لسان العرب أنه اعتمد عليها في تأليف معجمه اللسان . وتوجد منه مخطوطات تعين على نشره حتى مادة وقش ، وقد نُشر هذا القسم منه في جزءين بمجمع اللغة العربية بالقاهرة ويمكن استخراج بقيته من لسان العرب . ولا ينبري أيضاً حواشي على كتاب العرب من الكلام الأعجمي للجواليقي ، ومن آرائه الطريقة أنه ينبغي المحافظة على نطق الكلمات الأعجمية حين تعريبها وإدخالها في العربية بجميع حروفها وحركاتها الخاصة . وقد عاش حقبة طويلة في زمن الدولة الأيوبية إذ توفي سنة ٥٨٢ . ومن أهم تلاميذه اللغويين سليمان^(٢) بن بنين الدقيقي المتوفى سنة ٦١٤ وله مصنفات لغوية مختلفة ، منها كتاب الوضاح في شرح أبيات الإيضاح لأبي علي الفارسي وكتاب إغراب العمل في شرح أبيات كتاب الجمل للزجاجي ، وأهم من هذين الكتّابين كتابه : « اتفاق المباني واقتراق المعاني في اللغة »

(٢) انظر ابن بنين في معجم الأدباء ١١/ ٢٤٤ وفي بقية الوعاة ٢٦١ .

(١) راجع في ابن برّى معجم الأدباء ٥٦/١٢ وابن خلكان ١٠٨/٣ وإنباه الرواة ١١٠/٢ وشذرات الذهب ٢٧٣/٤ وبقية الوعاة ص ٢٧٨ .

ومنه مخطوطتان بدار الكتب المصرية . وله كتب عدة في العروض ، منها كتاب الروض الأريض في أوزان القريض . والكتاب الوافي في علم القوافي .

وظل هذا النشاط اللغوي ينمو بمصر ويتسع نموه طوال القرن السابع الهجري وزمن الأيوبيين والمماليك إلى أن تُوِّج بكتاب لسان العرب لابن^(١) منظور المتوفى سنة ٧١١ وهو مطبوع في عشرين مجلداً . وهو أكبر معجم لغوي عربي ظهر في الأزمنة الماضية ، وقد أتم مؤلفه تصنيفه سنة ٦٨٩ للهجرة . وذكر في مقدمته أنه جمع فيه بين معجم التهذيب للأزهري ومعجم الصحاح للجوهري والمعجم المعروف باسم المحكم لابن سيده وجواشي الصحاح لابن بري والنهاية في غريب الحديث النبوي لابن الأثير . وهو معجم تنوء به الجماعة أولو القوة ، ولابن منظور بجانبه مصنفات كثيرة من أهمها مختصر الأغاني .

ويظل لمصر نشاط لغوي غزير بعد ابن منظور ، وتظل لها مشاركة في وضع المعاجم لا المعاجم اللغوية فقد كفاها ابن منظور المثونة في ذلك فحسبها معجمه ، بل في وضع المعاجم المتخصصة مثل المصباح المنير في غريب الشرح الفقهى الكبير للرافعي صنفه أحمد^(٢) بن محمد الفيومي المتوفى سنة ٧٧٠ وهو ليس في ألفاظ الإمام الرافعي الشافعي فحسب ، بل هو يتضمنها ويتضمن بصفة مختصرة ألفاظ العربية في عرض حسن ، وألحق به خاتمة كثيرة الفوائد اللغوية .

وما يزال النشاط اللغوي الخالص في مصر يزداد حتى يبلغ ذروة رفيعة عند جلال الدين عبد الرحمن^(٣) السيوطي المتوفى سنة ٩١١ للهجرة وهو أغزر العلماء المصريين زمن المماليك بعامة تأليفاً وتصنيفاً في جميع الميادين الإسلامية واللغوية ، ومن خير مصنفاته اللغوية بل من خير المصنفات اللغوية في جميع الحقب بمصر وغير مصر كتابه « المزهر في علوم اللغة وأنواعها » وهو مطبوع مراراً بالقاهرة ، وفيه يعرض كل ما اتصل باللغة من علوم وضعت لمعرفة الصحيح وغير الصحيح والعرب والمولد والاشتقاق والمشارك والأضداد والمترادف والقلب والنحت والاتباع والإبدال وغير ذلك من علوم اللغة ومسائلها الدقيقة . وأهم من ذلك كله أنه حاول محاولة خصبة

الكتب الحديثة) ١/ ٣٣٤ .

(٣) انظر مصادر ترجمة السيوطي مع الحديث عنه ص ٤٥٥ .

(١) راجع ابن منظور في نكت الهميان ص ٢٧٥ والدرر

الكاملة ٥ / ٣١ وحسن المحاضرة ١ / ٥٣٤ والبقية ص ١٠٦ وفوات الوفيات ٢ / ٥٢٤ والوافي ٥ / ٥٤ والشذرات ٦ / ٢٦ .

(٢) انظر الفيومي في الدرر الكامنة لابن حجر (نشر دار

أن يطبق علم مصطلح الحديث وما وضع فيه لروايته من أصول على اللغة وروايتها ، ويفيض في ذلك إفاضة واسعة ، ففي ألفاظ اللغة - كالحديث النبوي - متواتر وآحاد ومرسل ومنقطع وضعيف ومنكر ومتروك ومطرود وشاذ . ويتحدث عن ثقبيل روايته ومن تُردُّ ، وعن معرفة طرق أخذ اللغة وتحملها وعن المتحل المصنوع في اللغة وأشهر من نحل الشعر وأفسده . والكتاب فريد في بابيه ومباحثه . ونمضى بعد السيوطي في زمن العثمانيين ، ويظل لعلماء اللغة في مصر نشاطهم . ومن خير من يمثلهم شهاب^(١) الدين الحفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩ ومن مؤلفاته الرائعة كتابه « شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل » وقد صدره بمقدمة تحدث فيها عن التعريب وشروطه ، وله شرح على درة الغواص في أوهام الخواص للحريزي . وتظل بصر مع ما أصابها زمن الاحتلال العثماني حاملة مشاغل الثقافة العربية في اللغة وغير اللغة . ويتزلف كثيرون من علماء الديار العربية ، ومن نزها - كما مر بنا في الجزء الخامس من هذه السلسلة - السيد مرتضى الزبيدي اليمنى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م إذ اتخذها دار مقام له سنة ١١٦٧ . حتى لبى نداء ربه ، وأكرمه المصريون وعلماءها ، وعكف منذ نزوله على شرح القاموس المحيط للفيروز آبادي . وما زال عاكفا على عمله حتى أتمه سنة ١١٨١ وهو مطبوع في عشر مجلدات ، وقد سماه باسم « تاج العروس » . وهو يتلو لسان العرب في كبر حجمه ، وفي الجبرقي تقاريط كثيرة للمصريين فيه . وكأنه أتيح لمصر أن تضع أكبر معجمين للعربية : اللسان في زمن المماليك وتاج العروس في زمن العثمانيين . كما أتيح لها أن تضع أكبر دائرة معارف في المباحث اللغوية ونقصد كتاب المزهر للسيوطي .

ومررنا في صدر هذا الحديث أنه كانت بمصر طبقة من المؤدبين أخذت تتكاثر في القرنين الثاني والثالث ، وكانت تعلم الناشئة اللغة والنحو ، ومنذ أواسط القرن الثالث يصبح لمصر نخاتها من أبناءها ونزلائها في مقدمتهم ولاد التميمي الذي مر ذكره في اللغويين ، وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وكان يعاصره أحمد^(٢) بن جعفر الدينوري نزيل القسطنطينية المتوفى سنة ٢٨٩ وقد درس على المازني بالبصرة كتاب سيبويه ولما استوطن مصر واستقر بها صنف لطلابه كتابا في النحو سماه المهذب ، وعنه حمله المصريون . ويلقانا في زمنه محمد^(٣) بن ولاد آف الذكر المتوفى سنة ٢٩٨

(٣) راجع محمد بن ولاد في تاريخ بغداد ٣/ ٣٣٢

ومعجم الأدباء ١٩ / ١٠٥ وإنباء الرواة ٣ / ٢٢٤ وما به من مراجع .

(١) انظر مصادر ترجمة الحفاجي ص ٤٥٩ .

(٢) انظر الدينوري في معجم الأوباء ٢ / ٢٣٩ وإنباء

الرواة ١ / ٣٣ وما به من مراجع .

وقد أخذ كل ما عند أبيه وعند أبي جعفر الدينوري ، ورحل إلى بغداد وقرأ على المبرد كتاب سيبويه وعاد إلى القسطنطينية يدرس النحو ، وصنف لطلابه كتاباً سماه المنقح . ونزل القسطنطينية في سنة ٢٨٧ الأخفش^(١) الصغير على بن سليمان ، وظل بها حتى سنة ٣٠٠ للهجرة ، يعلم الطلاب النحو واللغة ، وله شرح على كتاب سيبويه ، لعله أملاه بمصر . ونمضى في القرن الرابع الهجري فيلقانا أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد المار ذكره ، وكان نحويًا كبيرًا كما كان لغويًا كبيرًا وإليه صارت نسخة أبيه من كتاب سيبويه التي قرأها على المبرد ، وله كتاب « الانتصار لسيبويه من المبرد » وفيه يرد على المبرد ما نقد به سيبويه في كتابه الذي سماه « مسائل الغلط » . وله آراء^(٢) نحوية طريفة . وكان يعاصره كما مر بنا أبو جعفر النحاس اللغوي والنحوي الكبير . وكان يمزج في كتبه النحوية بين آراء البصريين والكوفيين وأحياناً ينفذ إلى آراء اجتهدية جديدة مما يجعله بحق طليعة^(٣) المدرسة البغدادية في مصر كما يتضح من كتابه الصغير « التفاحة في النحو » وكتابه الكبير الرائع النفيس : « إعراب القرآن » . ويبدو أن اسمه واسم معاصره ابن ولاد طار إلى المغرب والأندلس فرحل إليهما كثيرون من الطلاب يأخذون عنهما ، ومر بنا أن منذرين سعيد قاضي الجماعة بالأندلس حمل عن ابن ولاد كتاب العين للخليل بن أحمد . فصره في أذاعته في الأندلس والمغرب . وحمل محمد بن يحيى الرباحي عن أبي جعفر النحاس كتاب سيبويه رواية ودراسة ودرسه^(٤) لطلابه بقرطبة ، وشاعت رواية هذه النسخة بحيث أصبحت أم الدراسات النحوية في الأندلس وما رافقها هناك من نهضة في النحو ومباحثه .

وأول نحوي كبير يلقانا في زمن الفاطميين الحوفي^(٥) على بن إبراهيم المتوفى سنة ٤٣٠ تصدّر لإقراء النحو وصنف فيه كتاباً كبيراً استوفى فيه - كما قال من ترجموا له - العلل والأصول . وله مصنفات أصغر منه في النحو اشتغل بها المصريون ، وله في إعراب القرآن كتاب في عشرة مجلدات ، ويبدو مما نقله عنه ابن هشام من آراء نحوية أنه كان بغدادياً^(٦) الترتبة يختار بعض آراء البصريين والكوفيين ويحاول التفوذ إلى بعض آراء جديدة . وكان يعاصره التاكر^(٧) النحوي

(٥) انظر الحوفي في الأصباع للسعدي الورقة ١٨١
ومعجم الأوباء ١٢ / ٢٢١ وابن خلكان ٣ / ٣٠٠ وإنباء
الرواة ٢ / ٢١٩ والشفرات ٣ / ٢٤٧ .
(٦) المتأخرس النحوية ص ٣٣٤ .
(٧) إنباء الرواة ٨ / ٢ .

(١) انظر الأخفش الصغير في تاريخ بغداد ٤٣٣ / ١٢
وابن خلكان ٣ / ٣٠١ ومعجم الأوباء ١٣ / ٤٦١ وإنباء
الرواة ٢ / ٢٧٦ .
(٢) انظر كتابه المتأخرس النحوية ص ٣٣٠
(٣) المتأخرس النحوية ص ٣٣٢ .
(٤) إنباء الرواة ٣ / ٢٣٠ .

المصرى تلميذ ابن جني المتوفى سنة ٤٤٠ وكان يتصدّر لإقراء العربية ، وأغلب الظن أنه حمل إلى المصريين كتب أستاذه ابن جني فأخذوا يدرسونها مبكرين . وأنجبت مصر حينئذ نحويا كبيرا هو ابن بابشاذ^(١) طاهر بن أحمد المتوفى سنة ٤٦٩ وكان قد رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها ونحاتها وعاد فتصدر للإقراء بجمع عمرو بن العاص في القسطاط . وكان يُسند إليه الإشراف على تحرير الكتب الصادرة عن ديوان الإنشاء الفاطمي إلى الأطراف ، وله في النحو كتب سارت - كما يقول القفطي - مسير الشمس ، منها المقدمة في النحو وشرحها ، وهو منشور بالكويت نشرة جيدة . ومن مصنفات ابن بابشاذ شرح كتاب الجمل للزجاجي أحد أئمة النحو بالبغدادى ، وله كتاب سماه المحتسب في النحو وشرح على كتاب الأصول لابن السراج ، وكانت له تعليقة كبيرة في النحو في خمسة عشر مجلدا . وكان يتزعزع البغداديين^(٢) في الانتخاب من آراء الكوفيين والبصريين ومحاولة الإدلاء بآراء جديدة . وخلفه على التصدّر لإقراء النحو تلميذه محمد^(٣) بن بركات المتوفى سنة ٥٢٠ وكانت له في النحو تصانيف مختلفة كما كان إليه التصفح في ديوان الإنشاء الفاطمي وأكبر نحاة مصر في أواخر زمن الفاطميين وأوائل زمن الأيوبيين ابن برى الذى أسلفنا الحديث عنه بين اللغويين ، وكان يتصدر لإقراء النحو واللغة بجمع عمرو ، وطارت شهرته في الآفاق ، فقصده الطلاب من كل بلد وفي مقلتهم عيسى الجزولي نحوى المغرب والأندلس ، وقد تون عنه في إنشاء شرحه لكتاب الجمل للزجاجي مقلته المعروفة بالجزولية ، وكان يقول إنها من نتائج خواطر ابن برى وتلاميذه ، واهتم بها النحاة وشرحوها مرارا ، وهو ببغدادى^(٤) التركة في النحو مثل أستاذه ابن برى وغيره من نحاة المصريين لزمه . وخلف ابن برى في إقراء النحو تلميذه سليمان بن بنين ، ومر بنا بين اللغويين ، وله في النحو شرح على سيبويه سماه « باب الأكياب في شرح الكتاب » . ونزل مصريجي^(٥) بن مخطى المغربي الدمشقي المتوفى سنة ٦٢٨ واستقر بها وتصدر بجمع عمرو لإقراء الطلاب النحو ، وله مصنفات مختلفة في النحو منها ألفية كألفية ابن مالك وكتاب العقود والقوانين في النحو ، وكتاب الفصول ، وحواش على أصول ابن السراج ، وشرح

وإياه الرواة ٧٨/٣ والشفرات ٦٢/٤ ومرآة الختان

٢٢٥/٣ والبنية ص ٢٤ .

(٤) المدارس النحوية ص ٣٠١ ، ٣٣٨ .

(٥) انظر ابن مخطى في معجم الأدباء ٣٥/٢٠

والبنية ٤١٦ والشفرات ٢٩/٥ وتاج التراجم ٨٣ .

(١) انظر ابن بابشاذ في معجم الأدباء ١٧/١٧ وإياه

الرواة ٩٥/٧ وابن خلكان ٥١٥/٢ والشفرات ٣٣٣/٣

ومرآة الختان ٩٨/٣ والبنية ص ٢٤ .

(٢) المدارس النحوية ص ٣٣٦ .

(٣) راجع محمد بن بركات في معجم الأدباء ٣٩/١٨

على الجمل . وكان يعاصره ابن الرماح على ^(١) بن عبد الصمد المتوفى سنة ٦٣٣ تصدّر لإقراء النحو وله فيه مجموع يتردد ذكره في كتاب الأشباه والنظائر للسيوطي . وملتقى بعلى ^(٢) بن محمد السخاوى المتوفى سنة ٦٤٣ . وله شرحان على كتاب المفصل للزمخشري ، واسمه يتكرر في كتاب الأشباه والنظائر . وأهم النحاة المصريين حينئذ بلا منازع ابن الحاجب ^(٣) عثمان بن عمر المتوفى سنة ٦٤٦ كان أبوه حاجبا لبعض الأمراء فغلبت عليه النسبة إلى وظيفته . وله كتب كثيرة في الفقه المالكي والأصول والعروض ، وله في النحو كتاب الأمالي ، وكتابه الكافية في النحو والشافية في الصرف طارت شهرتهما في العالم الإسلامي ، وتعلق العلماء بدرسها للطلاب في كل مكان . وكثرت عليهما الحواشي والشرح كثرة مفرطة ، ومن أهم شروحها شرح الرضى الإسترابادي . وينزع ابن الحاجب في كتاباته النحوية منزع المدرسة البغدادية ^(٤) ، فهو ينتخب من آراء المدرستين البصرية والكوفية ويضيف إليهما آراء اجتهادية تدل على حسن بصره وبالغ دقته وحدة ذكائه .

وتزدهر الدراسات النحوية في زمن الماليك ، وملتقى في أوائله بأمين الدين المحلى ^(٥) محمد بن على المتوفى سنة ٦٧٣ تصدّر لإقراء النحو وانتفع به الناس ، وله تصانيف مختلفة في النحو والعروض . وكان يعاصره بهاء الدين ^(٦) بن النحاس الحلبي الأصل المتوفى سنة ٦٩٨ ، نزل مصر وأخذ عن شيوخها ولم يلبث أن تصدّر لإقراء العربية ، وعليه تتلمذ أبو حيان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥ حين نزوله مصر سنة ٦٧٩ وله مصنفات مختلفة ، من أهمها شرح على المقرب لابن عصفور . وأبو حيان ^(٧) هو أهم تلاميذه ، فقد لزمه وأخذ عنه كتبه ، وتصدّر لتدريس النحو في جامع الحاكم بالقاهرة وله شروح كثيرة على أمهات الكتب النحوية مثل الكتاب لسيبويه والمقرب والممتع لابن عصفور والتسهيل لابن مالك وأيضا له شرح على ألفيته ، وبجانب ذلك له مصنفات نحوية مستقلة أهمها ارتشاف الضرب أى عسل النحو ، ويغلب عليه متابعة البصريين ^(٨) ويتصدى

(٤) المدارس النحوية ص ٣٤٣ وما بعدها .

(١) راجع ابن الرماح في البغية ص ٣٤١ .

(٥) حسن المحاضرة ١/٥٣٣ .

(٢) انظر العلم السخاوى في معجم الأدياء ١٥/٦٥

(٦) بغية الوعاة ص ٦ .

وابن خلكان ٣/٣٤٠ وإنباه الرواة ٢/٣١١ والبغية

(٧) انظر أباحيان في الدرر الكامنة لابن حجر

ص ٣٤٩ وطبقات القراء ١/٥٦٨ والسبكي ٨/٢٩٧ وحسن

٢٨٠/٣٠٢/٤ والبغية ص ١٢٦ ونكت الهيمان ص ٢٨٠

المحاضرة ١/٤١٢ .

وطبقات الشافعية للسبكي ٩/٢٧٦ وطبقات القراء ٢/٢٨٥

(٣) راجع ترجمة ابن الحاجب في ابن خلكان

وفوات الوفيات ٢/٥٥٥ والشذرات ٦/١٤٥ ونفح الطيب

٢٤٨/٣ وطبقات القراء ١/٥٠٨ وطبقات الذهبي ٢/٢٠١

(٨) طبعة دوزي ١/٨٢٣ .

والديباج لابن فرحون ص ٣٧٢ والشذرات ٥/٢٣٤ والبغية

(٨) المدارس النحوية ص ٣٢١ وما بعدها .

ص ٣٢٣ وير وكلان ٥/٣٠٨ .

كثيرا في مؤلفاته لابن مالك وآرائه ، وقد تخرج به جيل من النحاة المصريين لزمه . ومن أهم تلاميذه ابن أم قاسم^(١) الحسن بن قاسم المتوفى سنة ٧٤٩ وأم قاسم جدته لأبيه تُنسب إليها . وله شروح على مفصل الزمخشري وتسهيل ابن مالك وألفيته . وخرجت مصر حيثُذ أكبر نخاتها ابن هشام^(٢) جمال الدين عبد الله بن يوسف المتوفى سنة ٧٦١ وقد طارت شهرته في العربية وقصده الطلاب من كل فجٍّ ، وبلغ من إعجاب معاصريه به أن قالوا إنه أنحى من سيويه ، وله مصنفات نحوية كثيرة من أهمها « مغنى اللبيب عن كتب الأعراب » وهو في جزءين : جزء خاص بالحروف والأدوات وجزء خاص بالجمل ، بثَّ فيه كثيرا من القواعد الكلية والملاحظات الدقيقة . وله كتاب « أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك » وكتاب « شذور الذهب » وكتاب « قطر الندى » وكل هذه الكتب مطبوعة مراراً وتكراراً . وهو يهيج في النحو منهج المدرسة البغدادية . وكان يعاصره ابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٧٦٩ ومن أهم مصنفاته شرحه على الألفية . وهو مشهور . وولتقى في القرن التاسع الهجري بالدمامي^(٣) الإسكندري المتوفى بالهند سنة ٨٣٧ تصدَّر لإقراء النحو بالإسكندرية ثم بالجامع الأزهر ، وله حاشية على المغنى لابن هشام . وفيها يتحامل عليه تحاملا شديدا مما جعل الشُّمْنَى الإسكندري المتوفى سنة ٨٧٢ يتعقبه في حاشية له على المغنى ، والحاشيتان مطبوعتان معا . وولتقى بعدهما^(٤) بالكافيجي محمد بن سليمان الرومي المتوفى سنة ٨٧٩ وله مختصرات نحوية مختلفة . ومن أهم النحاة حيثُذ الشيخ خالد^(٥) الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ تصدر لإقراء الطلاب في الأزهر فُنُسب إليه ، وله مصنفات نحوية مختلفة منها « المقدمة الأزهرية في علم العربية » وشرح عليها ، وهما مطبوعان ، وله شروح على مصنفات نحوية متعددة أهمها شرحه : « التصريح على التوضيح » لابن هشام . وكان يعاصره السيوطي وكان نحويا كبيرا كما كان لغويا كبيرا ، وله في كليات النحو كتاب « الأشباه والنظائر » في أربعة مجلدات . وفيه طبق

والشُّرَات ١٨١/٧ والبغية ص ٢٧ واليدر الطالع

١٥٠/٢ .

(٥) انظر الكافيجي في الضوء اللامع ج ٧ رقم ٦٥٥

والبغية ص ٤٨ وشذرات الذهب ٣٢٦/٧ .

(٦) راجع الشيخ خالد في الضوء اللامع ج ٢ رقم

٦٦١ وشذرات الذهب ٢٦/٨ والكواكب السائرة

١٨٨/١ والمخطوط الجديدة لعل مبارك ٥٣/١٠ .

(١) البغية ص ٢٢٦ .

(٢) انظر ابن هشام في الدرر الكامنة ٣٠٨/٧

والشُّرَات ١٩١/٦ والبغية ص ٢٩٣ واليدر الطالع ٤٠١/١

وكتابتا « المدرس النحوية » ص ٣٤٦ .

(٣) راجع ابن عقيل في الدرر الكامنة ٣٧٢/٢

والبغية ص ٢٨٤ والشُّرَات ٢٠٤/٦ واليدر الطالع ٣٨٦/١

وكتابتا « المدارس النحوية » ص ٣٥٥ .

(٤) انظر الدمايني في الضوء اللامع ج ٧ رقم ٤٤٥

على قواعد النحو الكلية منهج الفقهاء في كتاباتهم عن الأشباه والنظائر في الفقه ، وهو كتاب نفيس ، وقد طبع بحيدر آباد . وله كتاب الاقتراح وهو مختصر لطيف في أصول النحو ألفه على هدى كتاب الخصائص لابن جني كما يقول في مقدمته . وله في النحو والتصريف كتاب جمع الهوامع في مجلدين ضخمين ضمَّ فيه خلافاً للنحاة وآراءهم . وهو دائرة معارف نحوية وصرفية بدیعة .

ويلقانا في أوائل زمن العثمانيين الأشموني^(١) على بن محمد المتوفى سنة ٩٢٩ للهجرة ومن أهم مصنفاته النحوية شرحه على ألفية ابن مالك . وهو يعرض فيه بدقة آراء النحاة المختلفين ، وهو مثل شرح ابن عقيل على الألفية من أشهر كتب النحو المتداولة . ويستمر نشاط علماء النحو طوال أيام العثمانيين . ومن أشهرهم في القرن الحادي عشر الشنواني المتوفى سنة ١٠١٩ والدنوشري المتوفى سنة ١٠٢٥ ، وينزل القاهرة عبدالقادر^(٢) البغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ ومن مؤلفاته : « خزنة الأدب » وهى شرح لشواهد شرح الكافية في أربعة مجلدات ، وعادة يذكر مع الشواهد شعراءها ويترجم لهم ، وبذلك أحال خزانته إلى دائرة معارف لشعراء العربية في الجاهلية وصدر الإسلام ، ونمضى إلى القرن الثاني عشر فيلقانا الحنفى المتوفى سنة ١١٨١ ومحمد الأمير المتوفى سنة ١١٨٨ وله حاشية على المغنى . وهى مطبوعة . ولا نلبث أن نلتقى بالشيخ حسن الكفراوى^(٣) المتوفى سنة ١٢٠٢ صاحب شرح الأجرومية المشهور . و نلتقى بالصبان^(٤) محمد بن على المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩١ م صاحب حاشيته المشهورة على شرح الأشموني ، وهى أشبه بدائرة معارف نحوية ، وترمز بقوة إلى استمرار النشاط النحوى بمصر حتى نهاية أيام العثمانيين .

وإذا تركنا علمى النحو واللغة إلى علوم البلاغة والنقد . رأينا مصر تتأخر في أفراد العلوم البلاغية بمصنفات خاصة بها . وأول كتاب بحده يعنى بمباحث البلاغة كتاب لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣ هـ / ١٠٠٣ م المتصف^(٥) في بيان سرقات المتن . وهو بذلك أدخل في مباحث النقد .

(٣) تاريخ الجبرق ٢ / ١٦٥ .

(٤) تاريخ الجبرق ٢ / ٢٢٧ والمخطوط التوفيقية ٣٠٦/٣

(٥) انظر في هذا للكتاب تاريخ النقد الأدبي عند العرب لإحسان عباس ص ٢٩٤ . وقد نشره بلمشق

الدكتور محمد رضوان الداية .

(١) انظر الأشموني في الضوء اللامع ٥ / ٦

وشلرات الذهب ١٦٥ / ٨ والبر الطالع ١ / ٤٩١ وفيه أنه توفى سنة ٩١٨ .

(٢) انظر في عبدالقادر البغدادى خلاصة الأثر

٢ / ٤٥١ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

غير أنه جعل بين يديه مبحثين : مبحثاً في السرقات الشعرية عامة ، ومبحثاً في فنون البديع ، وهو فيه يذكر أولاً مصطلحاته التي دونها ابن المعتز في كتاب البديع ثم يذكر ما أضافه قدامة في نقد الشعر ، ويستمد من كتاب ثالث لا يسمى صاحبه ، وربما كان كتاب حلية المحاضرة للحاتمي . والكعب الثلاثة فعلاً أهم كتب ألفت في البديع قبله . وكأن مصر إن كانت قد تأخرت في وضع المباحث البلاغية فإنها لم تقصر في الاطلاع على ما وضعت العراق منها حتى زمن ابن وكيع ، وظلت تُعنى بعده بالاطلاع على مباحث العراقيين وغير العراقيين حتى نهاية زمن الفاطميين ، تدل على ذلك كتابات علي بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ وإذ نراه في كتابه : قانون ديوان الرسائل يتحدث عن البلاغة حديثاً سريعاً وعرض في بعض رسائله لفنى الجناس والتورية من فنون البديع .

ولعل أول كتاب بلاغي ألف في مصر بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة كتاب غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات لعل^(١) بن ظافر الأزدي المصري المتوفى سنة ٦٢٣ . وسبقته في نفس الموضوع كتب أخرى من أهمها كتاب التشبيهات لابن أبي عون وقد عرضنا له في الجزء السابق من هذه السلسلة ، وقد توفي سنة ٣٢٣ . ويذكر ابن ظافر في مقدمة كتابه أنه قدمه للملك الأفضل على بن صلاح الدين سنة ٥٨٧ هـ في حياة أبيه ، وهو منشور بالقاهرة . وجعله ابن ظافر في ستة أبواب : أولها في تشبيه الأجرام العلوية والثاني في تشبيه المياه والأنهار والثالث في تشبيه الأنوار والأثمار والنبات والرابع في التشبيه الواقع في الخمريات والخامس في التشبيه الواقع في الغزل والسادس في تشبيهات مختلفة . والكتاب يجمع طرف التشبيه في هذه الموضوعات المتنوعة ، وخاصة تلك التي دارت على ألسنة المحدثين من شعراء مصر والشام والعراق والمغرب والأندلس . واستعان في ذلك بكتب الأدب العامة مثل البيئمة للثعالبي والخريدة للعماد الأصبهاني . ونعجب إذ نرى شعراء العالم العربي معروضين في الكتاب مع فرائدهم في التشبيه ، غير أن العجب يزول إذا عرفنا ما أكّدناه مراراً من أن العالم العربي كانت تسوده وحدة جعلت آثاره الأدبية والعلمية وكأنها آثار كل بلد من بلدانه ، مما جعل دواوين الشعراء تُداول في أوسع نطاق ، بحيث لم يكن يظهر شاغر في بلدة وينال شيئاً من الشهرة حتى تتناقل ديوانه وأشعاره البلدان العربية المختلفة . ويلقانا

(١) انظر على بن ظافر في معجم الأدباء ١٣ / ٢٦٤ وفوات الوفيات ١٠٦ / ٢ .

بعد ابن ظافر عبد الرحيم^(١) بن شيث المتوفى سنة ٦٢٥ ونراه في كتابه « معالم الكتابة ومقام الإصابة » يعقد فصلا للبلاغة يعرض فيه للإيجاز والمساواة واختيار الألفاظ والسجع وبعض فنون البديع . ويتلوهُ العزيز عبد السلام الإمام الشافعي المشهور نزيل القاهرة سنة ٦٤٠ وقد ظل فيها علما كبيرا في الفقه الشافعي وغيره ، وله كتاب منشور سماه الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز ، وهو بذلك كتاب في علم البيان ، وقد قصره على إحصاء دقيق لأمثلة المجاز في الذكر الحكيم . عُني فيه بالأمثلة أكثر مما عني بالقواعد وتفاعيلها الكثيرة المعروفة في علم البيان . وأهم من العزيز عبد السلام في ميدان التأليف بمصر في البلاغة وفنون البديع معاصران له هما أحمد بن يوسف التيفاشي المغربي الجزائري نزيل مصر المتوفى سنة ٦٥١ وابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ . أما التيفاشي فذكرنا عنه في غير هذا الموضع أنه نزل مصر في باكورة شبابه وأنها تعهدته حتى أصبح عالما لا يُشَقُّ غباره في التاريخ الطبيعي والجيولوجيا وكان أديبا وعُني بالتأليف في البديع وألف فيه كتابا أحصى فيه سبعين محسنا من المحسنات البديعية ، وسقط الكتاب من أيدي الزمن . أما ابن أبي الإصبع فبعد أكبر بلاغي ظفرت به مصر في القرن السابع الهجري ، وله كتابان : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، وكتاب بديع القرآن . والكتابان جميعا في دراسة البديع وألوانه في الشعر والنثر وآي القرآن الكريم ، وواضح من عنوان ثانيهما أنه خاص ببديع الذكر الحكيم ، والكتابان منشوران بالقاهرة . ويذكر ابن أبي الإصبع في تقديمه للكتابين مصادره ومنها تبيين أنه لم يكد يترك كتابا ألف في البلاغة وفنون البديع وإعجاز القرآن الكريم إلا رجع إليه ، من ذلك نظم القرآن للمحافظ وبديع ابن المعتز ونقد الشعر لقدامة وحلية المحاضرة للحائمي والمنصف لابن وكيع المصري والصناعتين لأبي هلال العسكري والنكت في إعجاز القرآن للرمانى وإعجاز القرآن للباقلاني والمجاز للشريف الرضي والموازنة للآمدى والوساطة لعلي بن عبد العزيز الجرجاني والعمدة لابن رشيق وسرُّ الفصاحة لابن سنان الحفاجي ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني والكشاف للزمخشري ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي والمثل السائر لابن الأثير وبديع شرف الدين التيفاشي إلى غير ذلك من مصنفات كثيرة . وإنما ذكرنا الأمهات لندل على أن كتب البلاغة والبديع كانت تدرس في مصر ، وكان المصريون يعكفون على قراءتها فيها وحقها ودراسة واستنباطا . ويعرض ابن أبي الإصبع في كتابه

وكتابه : « معالم الكتابة » طبع ببيروت سنة ١٩١٢ .

(١) انظر ترجمة ابن شيث في فوات الوفيات ١ / ٥٦٠

وشذرات الذهب ٥ / ١١٧ والطالع السعيد للإدغوي ١٦٠

تحرير التحبير الألوان البديعية التي اختص بها ابن المعتز ، ثم يعرض الألوان العشرة التي انفرد بها قدامة وقد بلغت جميعا ثلاثين لونا ، ويسمى هذه الألوان الأصول ، حتى إذا انتهى من عرضها أتبعها بالفروع التي ذكرها المؤلفون حتى زمنه وقد بلغت ستين محسنا ، ويتلوها بثلاثة محسنات نقلها عن بديع الإجدائي ، وبذلك تبلغ الألوان البديعية ثلاثة وتسعين لونا ، ويتلوها بثلاثين لونا من عمله واكتشافه ، سلم له البلاغيون منها نحو عشرين محسنا ، وقالوا إن الباقي إما مسبوق إليه أو مدخول عليه ^(١) . وصنف بعد هذا الكتاب كتابه الثاني « بديع القرآن » ذكر فيه أولا - كما قلنا آنفا - أصول المحسنات البديعية عند ابن المعتز وقدامة ، ثم مضى في ذكر المحسنات الفرعية حتى بلغ بها مائة محسن وتسعة . ويلاحظ أنه أدخل في تلك المحسنات الصور البيانية وطائفة من أبواب علم المعاني كالتكرار والتفصيل والإيضاح والبسط أو الإطناب والإيجاز وبذلك وسع مدلول المحسنات البديعية وظل ذلك عند أصحاب البديع من بعده .

وتشغل مصر طويلا بكتابي ابن أبي الإصبع ، حتى إذا كنا في منتصف القرن الثامن الهجري وجدناها تسهم في العناية بمباحث المشاركة في البلاغة وعلومها الثلاثة : المعاني والبيان والبديع . وكان الخطيب القزويني قد لخص القسم الثالث من مفتاح العلوم للسكاكي . وهو القسم الخاص بعلوم البلاغة ، وأحسن في هذا التلخيص إلى حد بعيد . مما جعل الشراح يعنون بتفسيره والتعليق عليه ، ويُعنى بذلك شارح مصرى هو أحمد ^(٢) بن على بن عبد الكافي السبكي المتوفى سنة ٧٧٣ . ويسمى شرحه « عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح » ونراه في فواتحه يشيد بالمصريين وما طُبعوا عليه من الذوق السليم الذى أغناهم عن التعمق في مباحث السكاكي البلاغية وشراحه الإيرانيين لاهتمامهم جميعا بالعلوم العقلية والفلسفية . ويصور عمله في شرحه قائلا : « اعلم أنى مزجت قواعد هذا العلم (علم البلاغة) بقواعد الأصول والعربية .. وضمته شيئا من القواعد المنطقية والمعاقد الكلامية والحكمة الرياضية أو الطبيعية » . وكأنما أعدته في شرحه طريقة المشرقيين أو المشاركة ، فعاد يصل في شرحه بين البلاغة وعلوم المنطق والكلام والفلسفة الطبيعية والرياضية ، مما أصاب البلاغة ومباحثها بالجفاف في مصر كغيرها من بلدان المشرق . وكانت قد أخذت تظهر بديعيات مختلفة وهي مدائح نبوية تشتمل المدحة منها على محسنات البديع ، بحيث

الشافعية ١٣٩/١٠ وراجع في الدرر الكامنة ١/٢١٠
وشنرات الذهب ٢٢٦/٦ والنجوم الزاهرة ١١/١٢١
وابناء القمر بأبناء العمر لابن حجر ١/٢١ .

(١) نفحات الأزهار على نسبات الاسمار (طبع دمشق) ص ٣ .

(٢) انظر في ترجمة السبكي ترجمة أبيه في طبقات

يضم كل بيت محسنا من تلك المحسنات . وصُنعت لتلك البديعيات شروح تفسرها وتعرض أمثلتها . ولم تسارع مصر إلى المشاركة في هذه البديعيات التي أخذت تظهر منذ القرن السابع الهجري ، حتى إذا كنا بأخرة من زمن الماليك وجدنا السيوطي ينظم بديعية يسميها « نظم البديع في مدح خير شفيح » وله عليها شرح . وتليها بديعية لعائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٣٠ . وتعنى مصر زمن العثمانيين بتلخيص الخطيب القزويني وشروحه وخاصة شرح السبكي والسعد التفتازاني . وإذا كانت المباحث البلاغية تأخرت في مصر لهذا العصر فإن المباحث النقدية شاركتها في هذا التأخر ، ويلقانا في أوائل العصر - كما مرّ بنا آنفاً - كتاب المنصف لابن وكيع في بيان سرقات المتنبي ومشكل شعره ، وقد ذكرنا أنه احتوى على مقدمة في فنون البديع ، وذهب بلاشير إلى أنه ألفه انتصاراً لابن حنّابة وزير كافور إذ ترفع المتنبي عن مدحه فأغرى ابن وكيع بنقده ^(١) . وهو يذكر في تقديمه لكتابه أن جماعة بالغوا في مديح المتنبي حتى فصلوه على جميع الشعراء بنتائج فكره وبدائع معانيه ، فأراد أن يكشف عن مدى تقليده ومحاكاته لمن تقدموه ، ويقدم لكلامه بمبحث عن السرقات يصنفها فيه عشرين صنفاً . وتحدث حديثاً مجملًا - عرضاً له - عن فنون البديع ، ثم أخذ يفيض في سرقات المتنبي متعقباً لها في قصائده مع ترتيبها ترتيباً تاريخياً . وهو بحث قيم بالقياس إلى غيره من بحوث معاصريه ومن جاء بعدهم ممن عنوانوا ببيان سرقات المتنبي ، إذ يدل على كثرة محفوظه وفطنته ودقته في الفهم . وقدما قلنا إن نقادنا القدماء كان ينبغي ألا يتوسعوا في بحث سرقات الشعر هذا التوسع كما كان ينبغي أن ينحوا عنه كلمة السرقة ويسموه التحوير الفني ، ويحاولوا أن يبينوا مدى قدرة الشاعر على هذا التحوير . ونعجب أن يحاول ابن وكيع بيان الإسفاف عند المتنبي وضعفه اللغوي لبيت وقع عليه عفواً هنا أو هناك ، والشاعر لا يقاس ببعض عثرات له نَدَّتْ عنه ، وإنما يقاس بروائع أبياته وفرائدها البديعة . وهذا وأشباهه عند ابن وكيع جعل ابن جني يؤلف كتاباً في النقض على ابن وكيع في شعر المتنبي ونخطته ^(٢) كما جعل ابن رشيق يقول عنه : « ما أبعد الإنصاف منه » ^(٣) . وربما جرّ ابن وكيع إلى ذلك كله أنه كان شاعراً من ذوق غير ذوق المتنبي فأسرف في التحامل عليه . ولم يؤدّ كتاب المنصف غايته من المهيوط في مصر بمترلة المتنبي فقد مضى كثيرون يبالغون في تشيعهم له ، مما جعل العميدى ^(٤) محمد بن أحمد كاتب

(٣) المصلة لابن رشيق ٢/٢١٦ .

(١) انظر أبو الطيب المتنبي لبلاشير ترجمة الدكتور إبراهيم

(٤) انظر العميدى في معجم الأدباء ١٧/٢١٢ وإنباء

الكيلاني (طبع دمشق) ص ٤٨٧ .

الرواة ٣/٢٤٦ وبغية الرواة للسيوطي ١٩ .

(٢) معجم الأدباء ١٢/١٦٣ .

الإنشاء في دواوين الفاطميين المتوفى سنة ٤٣٣ يكتب بحثا ثانيا في سرقاته باسم «الإبانة عن سرقات المتنبي» وهو يطيل في عرض هذه السرقات - كما تراءى له - مع كثير من الغمز واللمز والتجريح للشاعر الكبير، ويعرض - كما عرض ابن وكيع - لبعض عيوبه اللغوية.

وماتزال مصر معنية بالبحث في السرقات ويقف عندها مرارا ابن منجب الصيرفي في رسائله، ووماتزال معنية بالمتنبي، بل إنها لقد غابتها إلى جميع شعراء العالم العربي. ونرى أضواء من ذلك كثيرة في كتاب فصوص الفصول^(١) لابن سناء الملك شاعر صلاح الدين، إذ نراه يجمع فيه بعض الرسائل المتبادلة بينه وبين القاضي الفاضل، وفيها يعرضان كثيرا لشعراء العالم العربي. ومن طريف ما ذكره ابن سناء الملك فيها أنه سأل القاضي الفاضل لماذا يدور شعر المتنبي على كل لسان، فقال لأنه يشتمل على ما يدور بخواطر الناس من أفكار، يقصد حكمه البديعة. وسأله القاضي الفاضل أن ينتخب مختارات من شعر ابن الرومي فاعتذر عن ذلك بأنه «ليس من أهل اختياره»، ولا من الغواصين الذين يستخرجون الدر من بحاره، لأن بحاره زخّارة، وأسوده زّارة، ومعدن يثّره مردوم بالحجارة، وعلى كل عقيلة ألف نقاب بل ألف ستارة، يطمع ويؤنس، ويوحش ويؤنس، وينير ويظلم، ويصبح ويعتم، شذرة وبذرة، ودرّة وآجره، وقبلة بجانبها لسعة»، وابن سناء الملك بذلك عبر في وضوح عن مدى التفاوت بين أشعار ابن الرومي، وهو نقد دقيق، وسأله القاضي الفاضل مرة أخرى صنّع منتخب لشعر ابن رشيق، فصنعه، وذكر له في إحدى رسائله ذلك كما ذكر له أن شعره مسروق من شعر ابن المعتز والمتنبي، يقول: «ولولم يخلق الله ابن المعتز والمتنبي لما كان ابن رشيق يعرف الشعر فضلا عن أن ينظمه أو يعلمه، وهو ينهب أشعار هذين الرجلين منها قبيحا ولا سيما ابن المعتز». ويتّوه ابن سناء الملك مرارا في الرسائل بابن المعتز والبحترى. وقد حملت فيما حملت نظرات نقدية للقاضي الفاضل أحيانا في بعض أبيات لابن سناء الملك، وأورد القلقشندي في صبحه نموذجاً^(٢) من هذه الرسائل المتبادلة بين الأدبيين الكبيرين، إذ أورد رسالة نقد فيها القاضي الفاضل ييت ابن سناء الملك:

صليفي وهلا الحسنُ باقيَ فرما يُعزّل ييتُ الحسنُ منه ويُكنَسُ

لذكره فيه كلمة «يكنس» المبتذلة، وردّ عليه ابن سناء الملك بأنه إنما تابع في ذلك ابن المعتز

في قوله:

(٢) انظر صبح الأعي ٢/ ٢٤٩ - ٢٥٢.

(١) منه مخطوطة بدار الكتب المصرية.

وَقَوَامِي مِثْلُ الْقَنَاءِ مِنَ الْخَطِّ وَخَذِي مِنْ لِحْيَتِي مَكْنُوسُ
وَكأنه يريد أن يقول للفاضل إن الكلمة استعملها ابن المعتز من قبله وأصبحت بذلك كلمة
شعرية ولا بأس على شاعر من استعمالها .

وابن سناء الملك أكبر رمز مصرى فى العصر لاتصال شعراء مصر ونقادها بالأدب الأندلسى ،
فقد درس موشحات الأندلسيين ، ولم يكونوا قد وضعوا عروضها فوضعه لها ، وكأنه يحلّ من
عروض الموشحات الأندلسية محلّ الخليل بن أحمد من عروض الشعر العرى ، وستحدث بشيء
من التفصيل عن ذلك فى الفصل التالى .

وقد شغل ابن سناء الملك النقاد فى زمنه وبعد زمنه . لا بما وضعه من عروض الموشحات
فحسب ، بل أيضا بشعره ، فقد كان أنه شاعر أنجبه مصر حتى أيامه ، فشغل النقاد طويلا
بأشعاره ، وفيه وضع ابن جُبارة ^(١) على بن إسماعيل مواطنه المتوفى سنة ٦٣٢ كتابه « نظم الدر فى
نقد الشعر » وهو فى نقد أشعار ابن سناء الملك ، والكتاب مفقود ، غير أن الصفدى فى كتابه
« الغيث المسجّم » الذى وضعه فى شرح لامية المعجم نقل عنه أطرافا من نقده لبعض أبيات ابن
سناء الملك ، ونراه فيها متحاملا عليه تحاملا شديدا أو كما قال الصفدى فى نكت الهميان « متعتنا
تعتنا زائدا » . من ذلك قول ابن سناء الملك :

بِشَوْكِ الْقَنَاءِ يَحْمُونَ شَهْدَ رُضَائِهَا وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النُّحْلِ

يصف فى البيت منعة صاحبه وأن أحدا لا يستطيع أن يقترب من حياها لباس قومها وخشية
من رماحهم أن تسفك دمه . وتوقّف ابن جبارة بإزاء البيت ^(٢) وقال إنه أراد أن يمدح قوم
صاحبه فهجاهم بالمثل المضمن آخر بيته الذى جعله كفن مئته لأنه جعل طعن رماحهم كإبر
النحل ، يقول ابن جبارة : وإبرة النحل لا أثر لها ولا ألم يحصل منها . ويرد عليه الصفدى قائلا :
أما كونه يدعى أنه لا ألم فى إبر النحل ولا ضرر فى الزنابير فهذا ما لم يسمع ، وهو تحامل أليس فى
إبر النحل والزنابير سُمٌّ يمنع القرب منه والدنو إليه ، وغالب الناس يهاب ذلك ولا يقدم عليه ،
وربما لسع الزنبور بعض الناس فتورّم منه ومات . ورد عليه أيضا ما قاله من أنه شبه طعن رماح
القوم بإبر النحل فهو لم يعقد فى البيت تشبيها ، وإنما جاء بمثل ليدل على أن حلاوة ريق صاحبه

(١) انظر فى ابن جبارة نكت الهميان ص ٢٠٨ وبغية
الوعاء ص ٣٢٩ .
(٢) الغيث المسجّم شرح لامية المعجم (طبع مطبعة
بولاق) ١ / ٢٢٤ .

لا تُنال إلا بعد مشقة . وأنكر ابن جبارة في البيت أيضا كلمة « بشوك القنا » وقال الصفدى ردا عليه إنها استعارة حسنة ، وأنشد بيتين للأرجاني وابن خفاجة شبا فيهما القبا بالشوك . وتوقف ابن جبارة بلزاء^(١) بيت نظم ابن سناء الملك قصيدته في مديح القاضي الفاضل ، إذ يقول :

يَقْرِى الضيُوفَ شِعَاعَ ثَبْرِ أَحْمَرٍ فَشِعَاعُ ذَاكَ الثَّبْرِ نِيرَانُ الْقِرَى

وحاول في أول نقده أن يثبت سرقة ابن سناء الملك للبيت من بيت لابن عمار وآخر للمتنبي .

وقال الصفدى : إن هذا تعنت زائد إذ ليس للبيت علاقة بما قاله الشاعران . ويسترسل ابن جبارة في نقده للبيت فيقول : قوله : « يقرى الضيوف شعاع ثبر أحمر » . الثبر لا يكون إلا كذاك (أى أحمر) وإنما قصد المبالغة وشبه ذلك بشعاع النار التى توقد على اليفاع ليهتدى بها الحيران . وتهتدى إلى مواضعها الضيفان ، وقد جعله يدفع إلى الضيوف صلة الإنعام ويمنعهم من الطعام . يقول الصفدى : وهذا تعنت لأن الثبر منه ما يكون أصفر أو أخضر ومنه ما يكون أحمر وهو المضروب وإنما سماه ابن سناء الملك ثبرا مجازا ، ولولا أن هذا لازم لما قيل في بعض المواطن الذهب الأحمر كما يقال الثلج الأبيض . وعلى هذا النحو لا يزال الصفدى يرد على ابن جبارة بعض تعنته وتحامله على ابن سناء الملك . ويفهم من كلام الصفدى أن ابن جبارة كان يستعرض بعض قصائد الشاعر . وما يزال يعلق على طائفة من أبياتها بتحامل شديد .

ولا شك في أن النقد الأدبي المصرى في هذا العصر خسر كثيرا بسقوط هذا الكتاب النقدي من يد الزمن . ومن المؤكد أننا لا نستطيع الحكم عليه بدقة من خلال ما نقله عنه الصفدى . وهو فعلا لم يتوسع في نقله . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن أهم كتاب ظهر بعد كتاب ابن جبارة هو كتاب خبز الشعير لابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ وهو أهم شعراء مصر في زمن المماليك ، وكانت قد حدثت جفوة بينه وبين تلميذه الصفدى بسبب بحث كتبه عن سرقاته من الشعراء السابقين فألف هذا الكتاب موضحا فيه سرقات الصفدى لأشعاره ومعارضته لبعض قصائده . وفي مقدمته^(٢) يقول : إنه ليس للصفدى من جيد الأشعار لمعة إلا ومن لفظه مشكاتها . ومضى يذكر الأصل^(٣) من أبياته أو الأصول ، ثم الفرع أو الفروع من أبيات الصفدى . وفي صبح الأعشى دراسة^(٤) نقدية

(١) الغيث المسجم ١/ ٢٦٤ وانظر ١/ ١٢٨ ، ٢٤٣ .

(٢) الكتاب مفقود غير أن ابن حجة الحموى احتفظ في

خزائنه (طبعة المطبعة الخيرية بالقاهرة) بمقدمة الكتاب

ص ١٥ .

(٣) في الخزانة جملة كبيرة من هذا الكتاب انظر

الصفحات ٢٨٥ - ٢٨٩ .

(٤) انظر صبح الأعشى ٢/ ١٩٢ - ٣٣٨ .

طريقة للمعاني والألفاظ وقبحها وما بداخلها من الغرابة والابتذال والإيجاز والإطناب ، وقد امتدت عنده إلى نحو مائة وأربعين صحيفة . وتلتقى في أيام العثمانيين بشهاب الدين الخفاجي وكتابه « ربحانة الألبا » الذى ترجم فيه لشعراء زمنه في الشام والمغرب والحجاز واليمن ومصر ، وقد بثَّ فيه ملاحظات نقدية كثيرة .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

أخذ المصريون يعنون بقراءات الذكر الحكيم منذ أخذ الصحابة الذين تزلوها يعلمونه لهم . وأسهم معهم في هذا الصنيع التابعون من مثل عبد^(١) الرحمن بن هرمز تلميذ أبي الأسود الدؤلى نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ١١٧ للهجرة . ورحل كثير من المصريين إلى المدينة في القرن الثانى لحمل قراءة إمامها نافع الذى طبقت شهرته في القراءات العالم الإسلامى حتى وفاته سنة ١٦٩ . وأشهر تلاميذه بمصر من حملة قراءته ورش^(٢) عثمان بن سعيد المتوفى سنة ١٩٧ وكان ماهرا في العربية . وإليه انتهت رياسة الإقراء بالديار المصرية ، وحمل عنه قراءته أهل المغرب كما مرَّ بنا في غير هذا الموضع ، ولايزالون يقرءون بها إلى اليوم . ومن أهم تلاميذه المصريين عبد^(٣) الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم أبو الأزهر المتوفى سنة ٢٣١ ويقول السيوطى : وعنه انتشرت قراءة ورش في الأندلس فقد حملها إليه تلاميذه . ويبدو أن مصر مضت طوال القرن الثالث الهجرى تعنى بالقراءات وحملها عن كبار القراء . كما تعنى بما يؤلَّف فيها من مصنفات ، يدل على ذلك أقوى الدلالة أنه بمجرد أن صنف أبو بكر بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤ كتابه السبعة في القراءات الذى جمع فيه قراءات نافع إمام أهل المدينة وابن كثير إمام أهل مكة وأبى عمرو بن العلاء إمام أهل البصرة وعاصم وحمزة والكسائى أئمة أهل الكوفة وابن عامر إمام أهل الشام نجد عالما مصريا معاصرا له من علماء القراءات هو أبو غانم المتوفى سنة ٣٣٣ يؤلف كتابا في اختلاف السبعة^(٤)

وطبقات القراء ١ / ٣٨٩ .

(٤) حسن المحاضرة ١ / ٤٨٨ وانظر طبقات القراء ٣٠١ / ٢ حيث يذكر تلميذته لأحد تلاميذ ابن مجاهد .

(١) سبقت مصادر ترجمته ص ١٠٨ .

(٢) انظر في ورش . حسن المحاضرة ١ / ٤٨٥ وطبقات القراء ١ / ٥٠٢ .

(٣) انظر في عبد الصمد حسن المحاضرة ١ / ٤٨٦ .

المذكورين ، وقد أحصى السيوطي ١٣٥ قارئاً ممن تصدروا للقراءات بمصر حتى زمنه . ولا ريب في أنه كان وراءهم كثيرون لم يبلغوا مبلغهم في الشهرة ، ولن نستطيع أن نقف عندهم جميعاً إنما نكتفي منهم بمن تركوا في القراءات مصنفات طارت شهرتها في العالم الإسلامي . وأول من نقف عنده عبد^(١) المنعم بن غلبون المتوفى سنة ٣٨٩ صاحب كتاب الإرشاد ثم ابنه طاهر^(٢) المتوفى سنة ٣٩٩ صاحب كتاب التذكرة في القراءات الثمان ، وعليه تخرج أبو عمرو الداني أكبر قراء الأندلس في زمنه صاحب كتاب التيسير وغيره كما تخرج عليه وعلى أبيه مكى بن أبي طالب القيرواني نزيل قرطبة صاحب كتاب التبصرة وغيره . ونغضى في القرن الخامس فلتقى بعد^(٣) الجبار الطرسوسي المتوفى سنة ٤٢٠ صاحب كتاب المجتبى ، كما نلتقى بالحسن^(٤) بن محمد البغدادى المالكي نزيل مصر المتوفى سنة ٤٣٨ صاحب كتاب الروضة ، ونلتقى بإسماعيل^(٥) بن خلف المتوفى سنة ٤٥٥ وكتابه « العنوان » . ونلتقى بعده بموسى بن الحسين المعروف باسم المعدل المصري وكتابه الروضة في اختلاف الأئمة القراء الخمسة عشر^(٦) ، ونلتقى في القرن السادس بـابن الفحام^(٧) شيخ الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٠ وكتابه التجريد ، كما نلتقى بـابن^(٨) بليمة القيرواني نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥١٤ وكتابه تلخيص العبارات .

ويلقانا أيام الأيوبيين علم كبير من أعلام القراءات هو الإمام الشاطبي^(٩) الضرير المتوفى بالإسكندرية سنة ٥٩٠ وقصيدته « حُرْز الأمانى » المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليه ، وقد عني بشرحها كثيرون من أئمة القراء وفي مقدمتهم تلميذه العلم^(١٠) السخاوى المتوفى - كما مر بنا - سنة

(٦) انظر في المعدل المصري طبقات القراء ٣١٨/٢ والنشر في القراءات العشر ٦٦/١ .

(٧) راجع في ابن الفحام حسن المحاضرة ١/٤٩٥ وطبقات القراء ١/٣٧٤ والنشر ١/٧٥ .

(٨) انظر في ابن بليمة حسن المحاضرة ١/٤٩٤ وطبقات القراء ١/٢١١ والنشر ١/٧٢ .

(٩) راجع في الشاطبي حسن المحاضرة ١/٤٩٦ وطبقات القراء ٢/٢٠ وطبقات الشافعية ٧/٢٧٠ ونكت الحميان ص ٢٢٨ ومعجم الأدباء ١٦/٢٩٤ والنشر ١/٦١ .

(١٠) راجع مصادر ترجمته في ص ١١٨

(١) راجع في عبد المنعم بن غلبون حسن المحاضرة ١/٤٩٠ وطبقات القراء ١/٤٧٠ والنشر في القراءات العشر ١/٧٩ .

(٢) انظر في طاهر حسن المحاضرة ١/٤٩١ وطبقات القراء ١/٣٥٦ والنشر في القراءات العشر ١/٧٣ .

(٣) انظر في الطرسوسي حسن المحاضرة ١/٤٩٢ وطبقات القراء ١/٣٥٧ والنشر ١/٧١ .

(٤) راجع في الحسن بن محمد حسن المحاضرة ١/٤٩٣ وطبقات القراء ١/١٣٠ والنشر ١/٧٤ .

(٥) انظر في ابن خلف حسن المحاضرة ١/٤٩٤ وطبقات القراء ١/١٦٤ والنشر ١/٦٤ .

٦٤٣ وله في القراءات كتاب جبال القراء وكمال الإقراء . وكان يعاصره عبد الرحمن^(١) بن إسماعيل الصفراوى الإسكندرى المتوفى سنة ٦٣٦ صاحب كتاب الإحلاق . ويتوالى التأليف فى القراءات ونلتقى بابن الجندى المتوفى سنة ٧٦٠ وكتابه البستان ، وبشرح للسيوطى على الشاطبية . ويختتم الإمام شهاب^(٢) الدين القسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ زمن الماليك بكتابه الرائع : « لطائف الإشارات لفنون القراءات » وفيه يجمع طرق القراءات الأربع عشرة ، بإضافة قراءات أبى جعفر يزيد بن القعقاع المدنى ويعقوب بن إسحق البصرى وخلف بن هشام الكوفى المكملى للعشرة ، وإضافة قراءات ابن محيصن المكى واليزيدى البصرى والحسن البصرى والأعمش الكوفى إلى ما ذكرناه آنفا من قراءات السبعة الذين صنف فيهم ابن مجاهد كتابه . ويظل التأليف فى القراءات لزمن العثمانيين ناشطا ومن أهم ما ألف فى زمنهم كتاب إتحاف البشر وهو يعنى بعرض ألقراءات الأربع عشرة ألقه البناء أحمد بن محمد الدمياطى المتوفى سنة ١١١٧ .

ومعروف أنه تكوّنت علوم كثيرة حول القرآن الكريم ، ونجد مصر تشاطر فيها مشاطرة واضحة منذ القرن الثالث الهجرى ، ولا يلبث أبو جعفر النحاس الذى مر ذكره أن يؤلف فى جوانب منها . فقد ألف كتابا فى النسخ والنسوخ وكتابا فى الوقف والابتداء وألف كتابا - كما مر بنا - فى إعراب القرآن وهو أحد الأصول المهمة فى هذا الموضوع . وظلت مصر تُعنى بعلوم القرآن من بعده وتصنّف فيها مصنفات مختلفة تتصل بتجويده وبناسخه ومنسوخه ولغاته وغريبه وأسباب نزوله وما فيه من الوقف والابتداء والصور البلاغية إلى غير ذلك من علومه المتنوعة . ويطول الحديث لو أننا تتبعنا ما كتبه مصر بهذا العصر من تلك العلوم ، ولكن نكتفى بالإشارة إلى كتابين هما البرهان فى علوم القرآن لبدر^(٣) الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤ والإنقان فى علوم القرآن للسيوطى ، وهما يعرضان مادة هذه العلوم وما ألف فيها حتى نهاية القرن التاسع إذ توفى السيوطى كما مر بنا سنة ٩١١ .

ومن أهم هذه العلوم علم التفسير . وطبيعى أن تُعنى به مصر منذ دخلت فى الإسلام حتى تفهم

(١) انظر فى الصفراوى حسن المحاضرة ١/ ٤٥٦ (٢) انظر فى الزركشى الدرر الكامنة ٤/ ١٧ وشلرات الذهب ٦/ ٣٣٥ وحسن المحاضرة ١/ ٤٣٧ وإنباء الغمر بأبناء العمر ١/ ٤٤٦ .

(٢) راجع فى القسطلانى الضوء اللامع ج ٢ رقم ٣١٣ والشلرات ٨/ ١٢١ والبلد الطالع ١/ ١٠٢ ..

آى الذكر الحكيم ، وكان حُفَاطَهَا يروون خلفاً عن سلف ما قيل فى معانى آى الذكر الحكيم ، واشتهر بها فى القرن الثانى طريق وثيق عن ابن عباس المشهور بتفسير القرآن الكريم ، هو طريق على بن أبى طلحة الهاشمى وفيه يقول أحمد بن حنبل : « إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة الهاشمى لورحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا » . ويذكر السيوطى أن البخارى اعتمد على هذه الرواية كثيرا فى صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس ^(١) . وكأنها بعض ما حملة البخارى عن مصر فى رحلته إليها لتدوين الحديث عن جلة رواته فيها . وتظل مصر معنية بالقرآن وتفسيره وأحكامه ، ويؤلف أبو جعفر الطحاوى الفقيه الحنفى المتوفى سنة ٣٢١ كتابا فى أحكام القرآن . ويعنى أبو جعفر النحاس بعلوم القرآن ، ولا يلبث أحد تلاميذه ، وهو أبو بكر الإدفوى ^(٢) محمد بن على المصرى المقرئ المتوفى سنة ٣٨٨ أن يؤلف فى التفسير كتابا ضخما يقول المترجمون له إنه كان فى مائة وعشرين مجلدا ، وسماه كتاب الاستغناء فى علوم القرآن ، وأهم تلاميذه الحوفى المار ذكره بين النحاة ، وله كتاب البرهان فى تفسير القرآن فى ثلاثين مجلدا ويقول القفطى : صنف كتابا كبيرا فى إعراب القرآن فى عشرة مجلدات . وهو وأستاذه أهم المفسرين فى زمن الفاطميين . ومن تلتقى به فى زمن الأيوبيين المرسى ^(٣) السلمى محمد بن عبد الله نزل مصر واستقر بها سنة ٦٢٤ وتوفى سنة ٦٥٥ وله تفسير كبير فى أكثر من عشرين جزءا سماه « رى الظمان فى تفسير القرآن » . وكان يعاصره العزيز عبد السلام الفقيه الشافعى المشهور وله تفسير ، منه مخطوطة بدار الكتب المصرية ، بناه على الوجوه البانية والبلاغية فى آى الذكر الحكيم .

وغضى فى زمن الماليك وتلتقى بالقرطبى ^(٤) محمد بن أحمد نزيل مصر والمستقر بمدينة النيا (منية الخصب فى الصعيد) المتوفى سنة ٦٧١ وله التفسير المشهور المسمى « جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن » . ويلقانا بعده ابن ^(٥) النير أحمد بن محمد الإسكندرى المتوفى سنة ٦٨٣ وله تفسير سماه « البحر الكبير فى تحب التفسير » وكتاب ثان تتبع فيه

فاس) ص ٢٧٩ وطبقات المفسرين للسيوطى ص ٢٨
وشذرات الذهب ٣٣٥/٥ .
(٥) راجع ابن المنير فى الدبائج المذهب ص ٧٨
وشذرات الذهب ٣٨١/٥ والنجوم الزاهرة ٣٦١/٧
وفوات الوفيات ١/١٣٢ .

(١) الإقنان فى علوم القرآن للسيوطى ٢٢٣/٦ .
(٢) انظر الإدفوى فى طبقات المفسرين للسيوطى وحسن
المحاضرة ١/ ٤٩٠ وطبقات القراء ٢/ ١٩٨ .
(٣) راجع فى المرسى السلمى طبقات المفسرين ص ٣٥
ومعجم الأدباء ١٨/ ٢٠٩ وشذرات الذهب ٥/ ٢٦٩ .
(٤) انظر القرطبى فى الدبائج المذهب لابن فرحون (طبع)

آراء الزمخشري الاعتزالية التي بُنِّها في تفسيره وحاول نقضها بما يتفق وآراء أهل السنة ، سماه الانتصاف من الكشاف وهو مطبوع على هوامشه . ويتلوه ابن^(١) النقيب محمد بن سليمان المتوفى سنة ٦٩٨ وله تفسير كبير الحجم سماه « التحرير والتحجير لأقوال أئمة التفسير » وجعل له مقدمة كبيرة تحدث فيها عن الوجوه البلاغية فيه . وقد سقط الكتاب من يد الزمن ، ربما لضخامة حجمه . وكان يعاصره عبد^(٢) العزيز الديري المتوفى سنة ٦٩٤ وله المصباح المنير في علم التفسير ، وأيضا كان يعاصره العلم^(٣) العراقي المصري المتوفى سنة ٧٠٤ وسمى العراق نسبة إلى جده لأمه ، وكان هذا الجد مصريا غير أنه دخل العراق فلقب بهذا الاسم الذي انتقل إلى حفيده ، وله كتاب في الانتصار للزمخشري من ابن المنير وله مختصر في التفسير .

وأكبر المفسرين في القرن الثامن أبو حيان الأندلسي وتفسيره البحر المحيط مشهور ، وكان قد اتخذ القاهرة دار مقام له غير أن عداوته في الأندلسيين . وأهم المفسرين بعده جلال الدين السيوطي وله تفسير كبير يسمى « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » مطبوع في ستة مجلدات . وكان جلال الدين المحلى محمد بن أحمد المتوفى سنة ٨٦٤ فسَّر نحو نصف القرآن من أول سورة الكهف إلى آخره فأكمل تفسيره جلال الدين السيوطي من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء ، وتفسيرهما مطبوع في جزءين باسم تفسير الجلالين . ويدخل زمن العثمانيين ، وأهم المفسرين فيه شمس الدين الخطيب^(٤) الشريفي المتوفى سنة ٩٧٧ وله تفسير مطبوع يسمى السراج المنير .

وتنوع مصر بحفاظ الحديث النبوي منذ نزولها الصحابة وفي مقدمتهم أبو ذر الذي سكنها مدة وعقبة بن عامر الجهني وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وظل ينزلها كثير من حفاظ التابعين وفي مقدمتهم نافع مولى ع.الله بن عمر بن الخطاب والأعرج عبد الرحمن بن هرم صاحب أبي هريرة ويزيد بن أبي حبيب . وكثر حفاظ الحديث ورواه في القرن الثاني الهجري ، ومن أهمهم أبو زرعة

(٣) انظر في العلم العراق حسن المحاضرة ٤٢١/١

ونكت المبيان ص ١٩٥ والدور الكامنة ١٣/٣ .

(٤) راجع في الخطيب الشريفي شذرات الذهب

. ٣٨٤/٨

(١) انظر ابن النقيب في طبقات المفسرين ص ٣٢

وشذرات الذهب ٤٤٢/٥ وفوات الوفيات ٤٣٠/٢ .

(٢) راجع الديري في حسن المحاضرة ٤٢١/١

المتوفى سنة ١٥٨ وابن لهيعة المتوفى سنة ١٧٤ والليث بن سعد الفقيه المشهور ، وعبدالله ^(١) بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم تلميذا مالك والإمام الشافعي وتلاميذه : البويطي وحرملة والمزني والربيع . ومن كبار الحفاظ حينئذ أسد السنة المتوفى سنة ٢١٢ وأحمد بن صالح المتوفى سنة ٢٤٨ والحارث بن مسكين المتوفى سنة ٢٥٠ ويونس بن عبد الأعلى المتوفى سنة ٢٦٤ ومحمد بن عبدالله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ . ولاشتهار مصر بحفاظ الحديث نزها في طلبه من أصحاب الصحاح الستة البخاري ومسلم وأبو داود وابن ماجه والنسائي وقد اتخذها دار مقام له حتى توفى سنة ٣٠٣ ومن مصنفاته : السنن الكبرى والصغرى وهى إحدى الصحاح الستة ، وله مسند على ومسند مالك . ويلقانا الطحاوى الفقيه الحنفى وله في الحديث كتاب السنن ومعانى الآثار ومشكل الآثار . وابن جزيبة وزير كافور المتوفى سنة ٣٩١ وكان له مجلس لإملاء الحديث في وزارته ، وسمع الدارقطني حافظ العراق في زمنه وصاحب كتاب السنن الكبرى وغيره المتوفى سنة ٣٨٥ أنه يؤلف مسندا فاجاء مصر ليعينه ، تمول ، وكان فيها يروى الحديث وعلميه ، ويأخذه عن حفاظه المصريين ويأخذه المصريون عنه . ومن أهم تلاميذه بمصر عبد ^(٢) الغنى بن سعيد الحفاظ المتقن المتوفى سنة ٤٠٩ وله في الحديث المختلف والمؤتلف في أسماء الرجال وكتاب مشتببه النسبة . وأشهر المحدثين بمصر في القرن الخامس تلميذه الحبال ^(٣) الإمام الحفاظ المتوفى سنة ٤٨٢ وله مصنفات مختلفة ، وجمع عوالى سفيان بن عيينة .

ويتزل الإسكندرية سنة ٥٢١ السلفي ^(٤) أكبر الحفاظ في القرن السادس الهجرى ، وقد قصده طلاب الحديث النبوى من كل فج . على نحو ما يصور ذلك معجمه . وهو مطبوع ، وبني له العادل بن السلار وزير الظاهر الفاطمى مدرسة سنة ٥٤٦ . كما مربنا . وفوض أمرها إليه ، وسمع عليه الحديث صلاح الدين الأيوبي حين صارت مصر إليه وبعض أبنائه وأهل بيته . وظلت إليه

١٨٨ / ٣ .

(٣) راجع في الحبال حسن المحاضرة ١ / ٣٥٣ .

(٤) انظر في السلفى طبقات المفسرين للسيوطى ص ٥٦ . وطبقات الحفاظ له ٣٩ / ٢ وابن خلكان ١ / ١٠٥ وتذكرة الحفاظ وأزهار الرياض ٣ / ١٦٧ - ٢٨٣ وتهذيب ابن عساكر ١ / ٤٤٩ والسبكي ٦ / ٣٢ والأنساب ٣٠٢ وشترات الذهب ٤ / ٢٥٥ وطبقات القراء ١ / ١٠٢ وميزان الاعتدال ١ / ١٥٥ .

(١) هو من أوائل من جمعوا الحديث بمصر ، وقد عثر على كتابه أخيرا في ورق بردى بمدينة إدفو في جنوبى مصر واسمه الجامع في الحديث ، وهو مكتوب في القرن الثالث الهجرى ، وقد نشر هذا الكتاب في المعهد الفرنسى بالقاهرة . وانظر في ابن وهب حسن المحاضرة ١ / ٣٠٢ ، ٣٤٦ والديباج المذهب ١٨٧ وتهذيب التهذيب ١٠ / ٣٧٢ وميزان الاعتدال للذهبي ٢ / ٨٦ وبروكلمان ٣ / ١٥٥ .

(٢) انظر في عبد الغنى المنظم ٧ / ٢٩٠ وابن خلكان ٣ / ٢٢٣ وتذكرة الحفاظ ٣ / ٢٥٠ وشترات الذهب

الرحلة في الحديث حتى توفي سنة ٥٧٦ هـ . ومن أهم تلاميذه أبو الحسن على ^(١) بن المفضل المالكي المقدسي ثم السكندري المتوفى سنة ٦١١ تولى القضاء بالإسكندرية ودرّس بمدرسة ابن شكر في القاهرة ، وله كتاب الأربعين ، وهو أربعون حديثاً عن أربعين شيخاً .

ونزل مصر الحافظ ابن دحية الأندلسي واستوطنها وتولى بها دار الحديث ^(٢) الكاملة حتى توفي في سنة ٦٣٣ هـ . وولى مشيخة هذه الدار بعده زكى الدين المنذرى الحافظ الكبير الإمام شيخ الإسلام عبد ^(٣) العظيم بن عبد القوى المصرى الشافعى المتوفى سنة ٦٥٦ . يقول السيوطى إنه انقطع لمشيخة المدرسة الكاملة عشرين سنة ، وكان عديم النظر في معرفة علم الحديث على اختلاف فنونه متبحراً في معرفة أحكامه ومعانيه ومشكله قَيِّماً بمعرفة غريبه ، إماماً حجة بارعاً في الفقه والعربية والقراءات . وله كتاب الترغيب والترهيب وهو أحاديث مرتبة حسب الموضوعات للترغيب في الخير والحق والترهيب من الشر والباطل ، طُبِعَ مراراً . وله في الفقه شرح على كتاب التنبيه . وأهم تلاميذه الدمياطى ^(٤) شرف الدين عبد المؤمن بن خلف المتوفى سنة ٧٠٥ لازم الحافظ المنذرى واتخذ معيداً له ، وقد ولى مشيخة الظاهرية ودرّس الحديث في المدرسة المنصورية : مدرسة المنصور قلاوون ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بكثير من مصنفاته في الحديث .

ومن كبار المحدثين في القرن الثامن عز الدين بن ^(٥) جماعة الشافعى المتوفى سنة ٧٦٧ ولى القضاء ، واشتهر بكثرة من سماع الحديث ودرس في المدرسة الخشابية ، صنّف تخرّيج أحاديث الإمام الرافعى الشافعى وغير ذلك . ويعنى بشرح البخارى غير حافظ في هذا القرن ويكثر التأليف في الحديث ومصطلحه على نحو ما يلقانا عند مغلطاي ^(٦) المتوفى سنة ٧٦٢ يقول السيوطى له أكثر

وطبقات الحفاظ ٦٥/٢ والسبكى ١٠٢/١٠ وطبقات القراء ٤٧٢/١ وتذكرة الحفاظ ٢٦٨/٤ والدرر الكامنة ٣٠/٣ وفوات الوفيات ٣٧/٢ والبدية والنهاية ٤٠/١٤ والبلد الطالع ٤٠٣/١ .

(٥) انظر في ابن جماعة حسن المحاضرة ٣٥٩/١ وشذرات الذهب ٢٠٨/٦ والسبكى ٧٩/١٠ والدرر الكامنة ٤٨٩/٢ .

(٦) راجع في مغلطاي حسن المحاضرة ٣٥٩/١ والدرر الكامنة ١٢٢/٥ .

(١) راجع في ابن الفضل حسن المحاضرة ٣٥٤/١ وشذرات الذهب ٤٧/٥ .

(٢) ذكر السيوطى في حسن المحاضرة ٢٦٢/٢ ثباً بمن تولوا هذه الدار من كبار المحدثين .

(٣) انظر في عبد العظيم طبقات الحفاظ للسيوطى

٥٩/٢ والسبكى ٣٥٩/٨ وحسن المحاضرة ٣٥٥/١ وشذرات الذهب ٢٧٧/٥ وتذكرة الحفاظ للذهبي

٢٢٨/٤ وفوات الوفيات ٦١٠/١ .

(٤) راجع في الحافظ الدمياطى حسن المحاضرة ٣٥٧/١

من مائة تصنيف كشرح البخارى وشرح ابن ماجة ، وولى مشيخة الظاهرية للمحدثين . ويلقانا بعده الحافظ ^(١) العراقى المولود بالقاهرة والمتوفى بها سنة ٨٠٦ وله فى الحديث مصنفات مختلفة ، منها منظومة فى ألف بيت اشتهرت مع شرحها فى الآفاق ، ومنها تخريج أحاديث كتاب الإحياء للغزالي . وأهم تلاميذه ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ يقول السيوطى عنه : « انتهت إليه الرحلة والرياسة فى الحديث فى الدنيا بأمرها ، فلم يكن فى عصره حافظ سواه ، وألف كتباً كثيرة » مثل فتح البارى فى شرح صحيح البخارى « وهو مطبوع ، وله غير كتاب فى تراجم المحدثين . وأهم الحفاظ بعده السيوطى ، وله شروح على الموطأ لمالك وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وابن ماجة إلى شروح أخرى كثيرة وإلى كتب فى الحديث ومصطلحه وتخرجاته تعد بالعشرات ^(٢) . من أهمها جمع الجوامع وهو دائرة معارف كبرى فى الحديث مع رواياته وأسانيده . ومربنا فى القراء ذكر معاصره شهاب الدين القسطلانى وله إرشاد السارى إلى صحيح البخارى ، وهو مطبوع . وولتقى فى أيام العثمانيين بعد الرءوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله « كنوز الحقائق فى حديث خير الخلائق » وهو معجم يشتمل على عشرة آلاف حديث اختارها من أربعة وأربعين كتاباً ، وهو مطبوع مراراً . ويموج كتاب تاريخ الجبرى بأسماء حفاظ الحديث وتلاميذهم وما كانوا يحملون من كتبه ، ونكتفى بذكر أحد أعلامهم ، وهو الحنفى محمد بن سالم المتوفى سنة ١١٨١ فقد ذكر الجبرى أنه كان من جلة شيوخه الشيخ محمد البديرى الدمياطى ، يقول : « أخذ عنه التفسير والحديث والمسندات والمسلسلات والإحياء للإمام الغزالي وصحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وسنن النسائى وسنن ابن ماجة وكتاب الموطأ لمالك ومسند الشافعى والمعجم الكبير للطبرانى والمعجم الأوسط والصغير له أيضاً وصحيح ابن حبان والمستدرك للنيسابورى وحلية الأولياء للحافظ أبى نعيم وغير ذلك ^(٣) » . ولعل فى هذا ما يدل بوضوح على نشاط مصر فى دراسة الحديث النبوى وروايته حتى نهاية هذا العصر ، فقد ظلَّ حفاظه التاجيون يُعدُّون بالعشرات .

وكان لمصر نشاط خصب فى الفقه ، ومعروف أن أقدم المذاهب فى النشأة المذهب الحنفى ، وتبعه المذهب المالكى فالمذهب الشافعى فالمذهب الحنبلى ، وتأخرت مصر فى التعرف على مذهب

الحاضرة ١ / ٣٤٠ .

(٣) تاريخ الجبرى ١ / ٢٨٩ .

(١) انظر فى العراقى الضوء اللامع للسخاوى ٤ رقم ٤٥٢

وحسن المحاضرة ١ / ٣٦٠ والشذرات ٧ / ٥٥ .

(٢) انظر فى مؤلفات السيوطى فى الحديث كتابه حسن

أبي حنيفة ، إلى أن نزلها بعض قضاة بغداد الأحناف عملاً بقرار أبي يوسف لتلميذ أبي حنيفة ، وكان مقرراً لهارون الرشيد : أن يكون القضاة في الدولة العباسية أحنافاً . وأهم هؤلاء القضاة الأحناف بكار^(١) بن قتيبة الذي تولى قضاء مصر لعهد المتوكل سنة ٢٤٦ وظل بها حتى وفاته سنة ٢٧٠ وله تصانيف فقهية مختلفة . ولم تلبث مصر أن أنجبت إماماً حنفياً كبيراً هو الطحاوي^(٢) أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة المتوفى سنة ٣٢١ وإليه انتهت رئاسة الحنفية بمصر ، وكتبه تُعَدُّ مراجع أساسية في المذهب الحنفي ، ومن أهمها الجامع الكبير في الشروط وكتاب اختلاف الفقهاء والمختصر في الفقه وله شروح كثيرة ورسالة في أصول الدين أو عقيدة أهل السنة والجماعة . وذكرنا آنفاً أن له في الحديث كتاب السنن ومعاني الآثار ومشكل الآثار . ومن أهم تلاميذه إسحق^(٣) بن إبراهيم الشاشي السمرقندي المتوفى سنة ٣٢٥ وقد استوطن مصر ، وتولى القضاء بها . ويذكر السيوطي من فقهاء المذهب زمن الفاطميين عبد المعطى^(٤) بن مسافر الذي فقه المذهب بموطنه في الإسكندرية على يد أبي بكر محمد بن إبراهيم الرازي ، وكان ابن مسافر من حملة الحديث النبوي ، ومنه سمع السلفي حين نزل الإسكندرية .

ويأخذ المذهب في النشاط بمصر منذ أنشأ فيها صلاح الدين المدرسة السيوفية لتدريسه . وقد عين بها عبد^(٥) الله الجريري وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٤ . وخلفه فيها - على ما يبدو - عبد^(٦) الوهاب بن النحاس الحنفي المعروف بالدير بن الحنن . وقد ظل يدرس بالسيوفية حتى توفي سنة ٥٩٩ . ومن درسوا المذهب الحنفي بها أبو الحسن^(٧) الغزنوي المتوفى سنة ٦٣٢ . ومن كبار فقهاء الأحناف في العهد الأيوبي يحيى بن معطى المغربي المتوفى سنة ٦٢٨ وأبو^(٨) القاسم القوصي المتوفى سنة ٦٤٣ . وينشط المذهب الحنفي بمصر منذ زمن الماليك إذ جعل الظاهر يبيرس القضاء شركة بين أصحاب المذاهب الأربعة : الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، فكان لكل مذهب

- (١) انظر في بكار حسن المحاضرة ٤٦٣/١ وابن خلكان ٢٧٩/١ والجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ١٦٨/١ وتاج التراجم في طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ص ١٩ .
(٢) راجع في الطحاوي تهذيب ابن عساكر ٥٤/٢ والمنظم ٢٥٠/٦ وحسن المحاضرة ٣٥٠/١ وابن خلكان ٧١/١ وطبقات القراء ١١٦/١ والجواهر المضيئة ١٠٢/١ وتاج التراجم ص ٨ والشفرات ٢/٢٨٨ .
(٣) انظر في إسحق الجواهر المضيئة ١٣٦/١ والفوائد البية ٢٢ .
(٤) راجع في ابن مسافر حسن المحاضرة ٤٦٤/١ والجواهر المضيئة ٣٣٠/١ .
(٥) انظر في الجريري حسن المحاضرة ٤٦٤/١ .
(٦) راجع في ابن النحاس حسن المحاضرة ٤٦٤/١ وشذرات الذهب ٣٤١/٤ .
(٧) انظر في الغزنوي حسن المحاضرة ٤٦٥/١ والجواهر المضيئة ٣٥٢/١ .
(٨) انظر القوصي في حسن المحاضرة ٤٦٥/١ والجواهر المضيئة ٣٠٤/١ .

قاضييه ، وأيضاً فإنه جعل للحنفية نصيباً في مدرسته الظاهرية وأول حنفى درّس المذهب بها لأيامه عبد الرحمن بن عمر بن العديم المتوفى سنة ٦٧٧ . ومن درس المذهب بالسلفية لؤلؤ^(١) بن أحمد وأبو بكر^(٢) بن محمد الإسنى . ومن قضاتهم النعمان^(٣) بن الحسن المتوفى سنة ٦٩٢ وعلى بن نصر المتوفى سنة ٦٩٥ وله كتاب زوائد الهداية على القدورى . ويُحتملُ القرن السابع بآبن النقيب الذى مر ذكره بين المفسرين . ومن فقهاء القرن الثامن النابهن أحمد^(٤) بن إبراهيم السروجى المدرس بالسلفية المتوفى سنة ٧١٠ وقد ولى القضاء ، وله شرح فى كتاب الهداية للمرغينانى . وابن^(٥) يلبان المتوفى سنة ٧٣١ وله شرح على الجامع الكبير لمحمد بن الحسن الشيبانى ورتب صحيح ابن حبان على الأبواب وكذلك معجم الطبرانى . وكان يعاصره ابن^(٦) التركمانى المتوفى سنة ٧٣١ وكان يدرس المذهب بمدرسة المنصور قلاوون ، وألقى بها شرحاً له على الجامع الكبير أملاه دروساً على الطلاب . وأنجب فقيهين : أحمد^(٧) المتوفى سنة ٧٤٤ ومن تصانيفه شرح الهداية وشرح الجامع الكبير . وعلى^(٨) المتوفى سنة ٧٤٥ وله مختصر الهداية ومختصر علوم الحديث لابن الصلاح ، وتولى قضاء الديار المصرية . وكان يعاصرها فخر الدين الزيلعى^(٩) المتوفى سنة ٧٤٣ وله شرح على كتاب كتر الدقائق فى الفروع للحافظ النسفى سماه تبين الحقائق على كتر الدقائق طبع بمصر فى ستة أجزاء . ويلقانا السراج^(١٠) الهندى قاضى القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٧٣ وله شرح الهداية والشامل فى الفروع وشرح البديع ، وكان يعاصره ابن^(١١) أبى الوفا عبد القادر بن محمد المتوفى سنة ٧٧٥ وهو صاحب كتاب الجواهر المضيئة فى طبقات الحنفية

(٧) راجع أحمد فى حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٧٧/١ .

(٨) انظر فى على حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٣٦٦/١ .

(٩) راجع فى الزيلعى حسن المحاضرة ٤٧٠/١ والجواهر المضيئة ٣٤٥/١ والدرر الكامنة ٦١/٣ .

(١٠) انظر فى السراج حسن المحاضرة ٤٧٠/١ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٠/٣ والفوائد البية ١٤٩ وإنباء الغمر ٢٧/١ .

(١١) راجع فى ابن أبى الوفا حسن المحاضرة ٤٧١/١ والدرر الكامنة ٦/٣ والفوائد البية ٩٩ وإنباء الغمر ٦٦/١ .

(١) انظر فى لؤلؤ حسن المحاضرة ٤٦٦/١ والجواهر المضيئة ٤١٦/١ .

(٢) انظر فى أبى بكر حسن المحاضرة ٤٦٧/١ .

(٣) راجع فى النعمان حسن المحاضرة ٤٦٧/١ والجواهر المضيئة ٢٠١/٢ .

(٤) انظر فى السروجى حسن المحاضرة ٤٦٨/١ والجواهر المضيئة ٥٣/١ وتاج التراجم ص ١١ .

(٥) راجع فى ابن يلبان حسن المحاضرة ٤٦٨/١ والجواهر المضيئة ٣٥٤/١ وتاج التراجم ص ٤٣ ،

(٦) انظر فى ابن التركمانى حسن المحاضرة ٤٦٩/١ والجواهر المضيئة ٣٤٥/١ وتاج التراجم ص ٤٠ والدرر

الكامنة ٤٩/٣ .

المثبت في الهوامش . وملتقى بأكمل^(١) الدين الباريقي المتوفى سنة ٧٨٦ وله شروح كثيرة علي أمهات كتب الفقه الحنفي منها شرح الهداية وشرح البزدوى .

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يعدد فقهاء الحنفية وقضاةهم بالديار المصرية ، حتى نصل ، إلى^(٢) ابن الهمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٨٦١ وله مصنفات مختلفة في مذهبه أهمها فتح القدير ، وهو شرح على كتاب الهداية للمرغيناني ، طبع بمصر في ثمانية أجزاء . وملتقى بالقاسم^(٣) بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ وهو صاحب كتاب تاج التراجم في طبقات الحنفية المذكور في الهوامش وله مصنفات فقهية مختلفة . ونمضي إلى زمن العثمانيين . وينشط منذ هذا التاريخ بمصر الفقه الحنفي وأصحابه ، إذ كان الإقضاء في الدولة العثمانية للأحناف وحدهم . ومن كبار فقهاء الأحناف في أيامهم زين العابدين^(٤) بن نجم المصري المتوفى سنة ٩٧٠ وله كتاب الأشباه والنظائر في الفقه الحنفي ، وهو مطبوع ، وكتاب البحر الرائق على كثر الدقائق وهو مطبوع أيضا في عدة أجزاء . ومنهم شمس الدين التمر تاشي الغزي المتوفى بالقاهرة سنة ١٠٠٤ وله في الفقه الحنفي تنوير الأبصار وجامع البحار . ومنهم أبو الإخلاص الشرنبلawy المتوفى سنة ١٠٦٩ وهو من علماء الأزهر ، وله مصنفات مختلفة في فقه الأحناف لا تزال مخطوطة ومحفوظة بدار الكتب المصرية . ومنهم السيد أحمد الحموي وله تصانيف عدة ، منها شرح الكثر وحاشية الدرر والغرر ، توفي سنة ١١٤٢ . ويحصى الجبرتي في تاريخه أسماء كثيرين منهم إلى نهاية الأيام العثمانية .

وكان انتشار المذهب المالكي في مصر مبكراً ، وكان بعاصر مالكا فقيه مصري كبير هو الليث^(٥) بن سعد المتوفى سنة ١٧٥ وفيه يقول الشافعي : « الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به » يريد أن أصحابه وتلاميذه المصريين لم يحملوا عنه مذهبه . ولو أنهم حملوه

(٤) انظر في ابن نجم خلاصة الأثر للمحبي ودفرة المعارف الإسلامية .

(٥) راجع في الليث تاريخ بغداد ١٣ / ٣ وابن خلكان ٤ / ١٢٧ والنجوم الزاهرة ٢ / ٨٢ وصفة الصفوة ٤ / ٢٨١ وتذكرة الحفاظ ٢٢٥ وميزان الاعتدال ٣ / ٤٢٣ وتهذيب التهذيب ٨ / ٤٥٩ وهر النجدي ١ / ٢٦٦ .

(١) انظر في الباريقي حسن المحاضرة ١ / ٤٧١ والفوائد البية ١٩٥ وإنباء الغمر ١ / ٢٩٨ .

(٢) انظر في ابن الهمام الضوء اللامع ٨ رقم ٣٠١ والشنرات ٧ / ٢٩٨ والبدر الطالع ٢ / ٢٠١ وحسن المحاضرة ١ / ٤٧٤ .

(٣) راجع في ابن قطلوبغا الضوء اللامع ٦ / ٦٣٥ والشنرات ٨ / ٣٢٦ والبدر الطالع ٢ / ٤٥ .

لأصبح مذهبا مستقلاً بجانب المذاهب الأربعة ، غير أنهم آثروا عليه مذهب مالك إمام المدينة (دار الهجرة) . وكان من أهم تلاميذ مالك الذين حملوا مذهبه عنه عبد الله بن وهب ، جامع أول كتاب بمصر في الحديث كما مر بنا آنفاً ، وعبد^(١) الرحمن بن القاسم المتوفى سنة ١٩١ وقد فرّع على أصول مذهبه فروعاً كثيرة سجلها في مؤلفه المشهور باسم المدونة ، وعنه حملها سحنون القيرواني إلى تونس موطنه ، ونشر المذهب المالكي هناك ولا يزال غالباً على بلاد المغرب إلى اليوم . ومن تتلمذ عليه وعلى عبد الله بن وهب يحيى بن يحيى الليثي ناشر مذهب مالك في الأندلس ، وكان قد حضر دروس مالك في كتابه الموطأ وتفقه بهذين المصريين^(٢) ثم عاد إلى موطنه ينشر المذهب حتى غلب على أهل الأندلس كما غلب على أهل المغرب . ومن كبار تلاميذ مالك المصريين أيضاً عبد^(٣) الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤ وإليه أفضت رئاسة المالكية في مصر بعد ابن القاسم وابن وهب ، وخلفه على رياسته ابنه محمد^(٤) المتوفى سنة ٢٦٨ . وكان يعاصره الحارث^(٥) بن مسكين ، وقد حمله المأمون إلى بغداد في أيام محنة خلق القرآن ، وسجنه لأنه لم يجب إلى القول بخلقهم ، ورد إليه حريته المتوكل وولاه قضاء مصر سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وظل يتولى قضاءها ثمانى سنوات ، وتوفى سنة ٢٥٠ . ويعتد السيوطي في حسن المحاضرة من تلامذة ابن وهب وابن القاسم وعبد الله بن عبد الحكم خمسة عشر فقيهاً مالكيين اشتهروا بمصر . ومن نلتقى به في أوائل القرن الرابع أحمد^(٦) بن الحارث بن مسكين ، جلس مجلس أبيه بعده بجامع عمرو يدرس للناس الفقه المالكي حتى توفى سنة ٣١١ . وكثير من الفقهاء حينئذ يُنسبون إلى الإسكندرية والصعيد ، إذ كان المذهب منتشرًا بهما . ومن فقهاء الإسكندرية أبو الحسن^(٧) المعافري قاضيها

المذهب ٢٣١ والسبكي ٦٧/٢ والوافي بالوفيات ٣٣٨/٣
والشذرات ١٥٤/٢ وميزان الاعتدال ٦١١/٣ .

(٥) انظر في الحارث رفع الإصرار عن قضاء مصر
١٦٧/١ والسبكي ١١٣/٢ وتذكرة الحفاظ ٥١٤ وتاريخ

بغداد ٢١٦/٨ وابن خلكان ٥٦/٢ .

(٦) راجع أحمد في حسن المحاضرة ٤٤٩/١ والديباج
للمذهب ٣٧ .

(٧) انظر في المعافري حسن المحاضرة ٤٤٩/١ والغير
٢٥٠/٢ .

(١) انظر في ابن القاسم الديباج المذهب ١٤٦ وابن
خلكان ١٢٩/٣ وتذكرة الحفاظ ٣٥٦ والتذهيب لابن
حجر ٢٥٢/٦ والشذرات ٣٢٩/١ وحسن المحاضرة
٣٠٣/١ .

(٢) المغرب لابن سعيد (نشر دار المعارف) ١٦٣/١ .

(٣) انظر في عبد الله بن عبد الحكم حسن المحاضرة
٣٠٥/١ والديباج للمذهب ٩٨ وعبر الذهبي ٣٦٦/١ وابن
خلكان ٣٤/٣ وتذهيب التذهيب ٢٨٩/٥ والشذرات
٣٤/٢ .

(٤) راجع في محمد حسن المحاضرة ٣٠٩/١ والديباج

المتوفى سنة ٣٣٩ وكان يعاصره أبو الذكر^(١) الأسواني قاضى مصر المتوفى سنة ٣٤٠. ونغضى إلى زمن الفاطميين ، وقد عدَّ السيوطى من الفقهاء المالكيين لعهدهم ستة عشر فقيها ، منهم أبو^(٢) بكر النعالى إمام المالكية بمصر فى وقته . وإليه كانت الرحلة والإمامة بمصر ، وكانت حلقة فى الجامع تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها . توفى سنة ٣٨٠ . ومنهم أبو القاسم^(٣) الجهرى المتوفى سنة ٣٨١ مصنف مسند الموطأ لإمام المذهب مالك . ونزل بالقاهرة القاضى عبد^(٤) الوهاب فقيه بغداد المالكى وكان شاعراً بارعاً ، ويقال إنه يوم فصل عن بلده شيعه من أكابرها وأصحاب محابرها جملة وافرة وأنه قال لهم : لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية ، واجتاز بمجرة النعان بلدة أبى العلاء فأضافه ، وله فى الإشادة بفقهاء وبشعره :

إذا تفقّه أحيا مالكا جدلا ويُنشرُ الملك الضِّلِيل إن شعرا

والملك الضليل : امرؤ القيس . وتوجه إلى مصر فحمل لواء المالكية بها وانتالت فى يديه الرغائب . ولم يلبث أن ألم به مرض الموت سنة ٤٢٢ فكان يقول - كما مر بنا - لا إله إلا الله عندما عشنا متنا . ومن كبار فقهاء المالكية حينئذ أبو^(٥) بكر الطرطوشى نزيل الإسكندرية المتوفى سنة ٥٢٥ واشتهر بكتابين له فى السياسة ألفها أو ألف أحدهما لوزير الفاطميين المأمون البطائنى هما سراج الملوك وسراج الهدى . ومن تلاميذه سند^(٦) بن عنان الأزدى المتوفى سنة ٥٤١ خلفه فى حلقة وانتفع به الناس وله شرح المدونة . وكان يعاصره أبو القاسم^(٧) بن مخلوف الإسكندرى أحد الأئمة الكبار من المالكية ، تفقه به أهل الشجر زمانا .

ونغضى إلى زمن الدولة الأيوبية ، ويلقانا صدر الإسلام أبو الطاهر^(٨) إسماعيل بن مكى تلميذ الطرطوشى المتوفى سنة ٥٨١ وقد طارت شهرته فى المذهب ، وقصده صلاح الدين الأيوبي وسمع

- | | |
|--|---|
| (١) راجع فى أبى الذكر حسن المحاضرة ٤٤٩/١ | (٥) راجع فى الطرطوشى حسن المحاضرة ٤٥٢/١ |
| والطالع السعيد للإدغوى ٣٦٤ . | والصلة لابن بشكوال : ٥٤٥ . والمغرب ٢٤٢/٢ وابن |
| (٢) انظر فى النعالى حسن المحاضرة ٤٥٠/١ والديباج | خلكان ٢٦٢/٤ . والعبر ٤٨/٤ . وأزهار الرياض |
| المذهب ٢٥٨ . | ١٦٢/٣ . |
| (٣) راجع فى الجهرى حسن المحاضرة ٤٥١/١ والعبر | (٦) انظر فى سند حسن المحاضرة ٤٥٢/١ والديباج |
| ١٧/٣ . | المذهب ١٢٦ . |
| (٤) انظر فى عبد الوهاب حسن المحاضرة ٣١٤/١ والعبر | (٧) راجع فى ابن مخلوف حسن المحاضرة ٤٥٣/١ . |
| ١٤٩/٣ وابن خلكان ٢١٩/٣ والديباج المذهب وفوات | (٨) انظر فى أبى الطاهر حسن المحاضرة ٤٥٢/١ |
| الوفيات ٤٤/٢ والشفرات ٢٢٣/٣ . | والديباج المذهب ٩٥ . |

منه الموطأ ، وله مصنفات ، قال فيه ابن فرحون : كان إمام عصره في المذهب وعليه مدار الفتوى . ومُرَّبنا أن صلاح الدين أنشأ مدرسة للمالكية هي المدرسة القمحية ، وتبعه ابن شكر وزير أخيه العادل ، فأنشأ لهم مدرسة ثانية هي المدرسة الصاحبية ، وأنشأ لهم وللشافعية القاضي الفاضل مدرسة مشتركة هي المدرسة الفاضلية ، وجعل الصالح أيوب مدرسته للمذاهب الأربعة . وأتاح ذلك كله للفقه المالكي بمصر نشاطا واسعا منذ زمن الأيوبيين ، ومن كبار فقهاءه حيثثد ابن شاس^(١) عبد الله بن محمد شيخ المالكية وصاحب كتاب الجواهر الثمينة في المذهب ، درس بالمدرسة القمحية ، استشهد مجاهداً الفرنج بدمياط حين حاصروها سنة ٦١٦ - ٦١٨ . ومن مدرسي هذه المدرسة الحسين^(٢) بن عتيق ابن رشيق شيخ المالكية وصاحب الفتا في وقته ، توفي سنة ٦٣٢ . واشتهر بالإسكندرية من فقهاء المالكية ابن الصفراوى الذى مر ذكره بين القراء . ومن كبار فقهاء المذهب ابن الحاجب الذى مر ذكره بين النحاة ، وله مختصر الفروع في الفقه المالكي اعتمد فيه على جواهر الفقيه ابن شاس وأضاف إليه زيادات من كتب مختلفة ، وله شروح لا تزال مخطوطة ومحفوطة بدور الكتب . وكان يعاصره رفيقه عبد الكريم^(٣) بن عطاء الله الإسكندراني ، كان إماما في الفقه والأصول والعربية ، ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر الفصل . ومن تصانيفه شرح التهذيب ومختصر التهذيب ومختصر الفصل .

ونمضى في زمن الممالك ، وولتقى بابي حفص عمر^(٤) بن عبد الله السبكي المتوفى سنة ٦٦٩ وهو أول من ولى قضاء المالكية حين جعل الظاهر بيبرس من كل مذهب قاضيا . وولى قضاء المالكية بعده نفيس^(٥) الدين محمد بن هبة الله بن شكر المتوفى سنة ٦٨٠ . وكان يعاصره القرافي^(٦) شهاب الدين أحمد بن إدريس المتوفى سنة ٦٨٢ ولى التدريس في مدرسة الصالح نجم الدين أيوب المعروفة بالصاحبية وقد صنف في الفقه المالكي وفي الأصول الكتب المفيدة مثل الذخيرة في مذهب مالك وكتاب الفروق في الفقه المالكي وهو مطبوع . وكان يعاصره هو ونفيس الدين ابن

(٤) راجع في عمر السبكي حسن المحاضرة ٤٥٧/١ واللبياح للذهب ١٥٩ .

(٥) انظر في نفيس الدين حسن المحاضرة ٤٥٨/١ .

(٦) راجع في القرافي حسن المحاضرة ٣١٦/١ واللبياح

للذهب ٦٢ والنهل الصافي لابن تغرى بردى (طبع

دار الكتب) ٢١٥/١ .

(١) انظر في ابن شاس البداية والنهاية ٨٦/١ وحسن المحاضرة ٤٥٤/١ .

(٢) راجع في ابن عتيق حسن المحاضرة ٤٥٥/١ واللبياح للذهب ١٠٥ .

(٣) انظر في عبد الكريم حسن المحاضرة

٤٥٦/١ واللبياح للذهب ١٦٧ .

المتبر أحمد بن محمد قاضي الإسكندرية الذي مر ذكره بين المفسرين ، وكان إمامًا فاضلاً متبحراً ، وله في الفقه مختصر التهذيب .

ويلقانا في القرن الثامن تاج^(١) الدين بن عطاء الله الإسكندري المتصوف المشهور المتوفى سنة ٧٠٩ وله في الفقه تهذيب المدونة غير كتب كثيرة في التصوف . وكان يعاصره قاضي القضاة علي^(٢) بن مخلوف النويري المتوفى سنة ٧١٣ ولي قضاء الديار المصرية ثلاثاً وثلاثين سنة . ومن كبار فقهاء المالكية ابن^(٣) الحاج محمد بن محمد العبدري المتوفى سنة ٧٣٧ وله كتاب المدخل وهو كتاب نفيس في أربعة أجزاء يصف فيه أحوال البلاد الخلقية والاجتماعية وما يتصل بذلك من العادات عند العامة وغيرها ، مع نقد نزيه ومع بيان للعلاج الشرعي للمآثم . وكان يعاصره الزواوي^(٤) عيسى بن مسعود المتوفى سنة ٧٤٣ وإليه انتهت رئاسة المالكية ، وله مصنفات مختلفة ، منها شرح صحيح مسلم وشرح مختصر ابن الحاجب في الفقه وشرح المدونة ، وتاريخ ومناقب مالك . وأكثر فقهاء المالكية في القرن الثامن شهرة خليل^(٥) بن إسحق المتوفى سنة ٧٦٧ وله كتاب المختصر في الفقه المالكي ، ويعنى بتدريسه المالكية منذ ظهوره وخاصة في المغرب ويعرف هناك باسم مختصر سيدي خليل . وأهم تلاميذه^(٦) بهرام بن عبد الله المتوفى سنة ٨٠٥ وله الشامل في الفقه وشرح مختصر أستاذه خليل . ونزل مصر في زمنه عبد الرحمن بن خلدون وعداده في فقهاء المغرب . ولتقى بالبساطي^(٧) محمد بن أحمد شيخ الإسلام المتوفى سنة ٨٤٢ ولي القضاء ، وكانت إليه الفتيا .

ويظل لفقهاء المالكية نشاطهم في بقية زمن الممالك وفي أيام العثمانيين . ومن أعلامهم في القرن الحادى عشر أبو الإمداد برهان الدين اللقاني المتوفى سنة ١٠٤١ وله مصنفات في علمي الكلام والفقه ، وكان يعاصره نور الدين الأجهوري ، وهو من شيوخ الأزهر المالكية

- (١) انظر في ابن عطاء الله حسن المحاضرة ٤٢٤/١ وطبقات الشراقي ١٩/٢ والسبكي ٢٣/٩ والخطط الجنييدة لملى مبارك ٧٠/٧ والبدر الطالع ١٠٧/١ والديباج للنهب ٧٠ وشنرات النهب ١٩/٦ والدرر الكامنة .
- (٢) راجع في ابن مخلوف النويرى حسن المحاضرة ٤٥٨/١ والدرر الكامنة .
- (٣) انظر في ابن الحاج حسن المحاضرة ٤٥٩/١ والديباج للنهب ٣٢٧ والدرر الكامنة ٣٥٥/٤ .
- (٤) راجع في الزواوى حسن المحاضرة ٤٥٩/١ والدرر الكامنة .
- (٥) انظر في خليل حسن المحاضرة ٤٦٠/١ والديباج للنهب ١١٧ ونيل الأبتهاج ص ٩٥ والدرر الكامنة ١٧٥/٢ ونفع الطيب (طبع بولاق) ١٢٠/٢ .
- (٦) راجع في بهرام حسن المحاضرة ٤٦١/١ والضوء اللامع ٢٠/٣ .
- (٧) انظر في البساطى حسن المحاضرة ٤٦٢/١ والضوء اللامع ٥/٧ .

وله مصنفات مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية . وتلقى بكثيرين من فقهاء المالكية في تاريخ الجبرقي ومن أهمهم الزرقاني^(١) أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي المتوفى سنة ١١٢٢ خاتمة المحدثين . وشرحه على موطأ مالك مشهور ، وأيضا من أهمهم على^(٢) بن أحمد بن مكرم العدوي الصعدي إمام المحققين وعمدة المدققين المتوفى سنة ١١٨٩ يقول الجبرقي عنه : « قبل ظهوره لم تكن المالكية تعرف الحواشي على شروح كتبهم الفقهية ، فهو أول من خدم تلك الكتب بها » ويعدّ حواشيه ومن أهمها حاشية له على شرح الزرقاني على موطأ مالك .

وعلى شاكلة ازدهار مذهب مالك الفقهى بمصر كذلك كان مذهب الشافعى^(٣) مزدهراً . بل ربما كان أكثر ازدهاراً ، إذ نزل الإمام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ مصر ، واكمل له فيها مذهب الفقهى . وحمله عنه تلاميذه من أبنائها ونشروه في العالم الإسلامى ، كما مربنا في غير هذا الموضع ، بحيث غدا أكثر المذاهب الفقهية الأربعة أتباعا . ويتميز مذهبه بإحكامه التوفيق بين المذهب الحنفى مذهب أهل الرأى ، والمذهب المالكى مذهب أهل الحديث ، وهو الذى أسس علم أصول الفقه بمبحثه الرائع الذى سماه الرسالة وفيها يبحث أدلة الأحكام الدينية وما يتصل بها من طرق الاستنباط والاجتهاد . وله فى الفقه مصنفه المشهور : الأم ، وهو مطبوع فى القاهرة مثل الرسالة ، وعُنى به فقهاء الشافعية طوال هذا العصر فاخترصوه وشرحوه مرارا ، ومثلها كتاب السنن المأثورة والمسند . وطبع له على هامش الأم كتاب اختلاف الحديث . وأهم تلاميذه بمصر البُوطى والمزنى ، أما البوطى فهو يوسف^(٤) بن يحيى القرشى الإمام الجليل المتوفى سنة ٢٣١ يقول السيوطى عنه : أحد أئمة الإسلام وأركانها ، كان خليفة الشافعى فى حلقة بعده ، وله فى الفقه المختصر المشهور الذى اختصره من كلام الشافعى ، وحُمل إلى بغداد فى حجة القول بخلق القرآن ، فأصرَّ على رأيه هناك وظل سجيناً حتى توفى . والمزنى^(٥) هو إسماعيل بن يحيى المتوفى سنة ٢٦٤ وقد

(٤) راجع فى البوطى السبكى ١٦٢/٢ وتاريخ بغداد ٢٩٩/١٤ وعبر الذهبى ٤١١/١ وتهذيب التهذيب ٤٢٣/١١ وابن خلكان ٦١/٧ وحسن المحاضرة للسيوطى ٣٠٦/١ .

(٥) انظر فى المزنى السبكى ٩٣/٢ والعبر ٢٨/٢ واللباب ١٣٣/٣ وابن خلكان ٢١٧/١ والنجوم الزاهرة ٣٩/٣ والسيوطى ٣٠٧/١ وشرحات الذهب ١٤٨/٢ .

(١) راجع الزرقانى فى تاريخ الجبرقي ٦٩/١ .

(٢) انظر ابن مكرم فى تاريخ الجبرقي ٤١٤/١ .

(٣) انظر الإمام الشافعى فى الجزء الأول من طبقات الشافعية للسبكى وتاريخ بغداد ٥٦/٢ ومعجم الأدباء ٢٨١/١٧ وابن خلكان ١٦٣/٤ وتذكرة الحفاظ ٣٦١

تهذيب التهذيب ٢٥/٩ وصفة الصفوة ١٤٠/٢ وحلية الأولياء ٦٣/٩ وألف كثيرون فى سيرته ومذهبه قديما

أخذ عنه خلائق من علماء خراسان والعراق والشام ، ومضوا فنشروا المذهب في بلدانهم ، وله في الفقه الشافعي : الجامع الكبير والجامع الصغير والمختصر والمثبور والمسائل المعتمدة وكتاب الوثائق وكتاب العقارب ، سمي بذلك لصعوبته وفي كتاب طبقات الشافعية للسبكي غرائب منه . ومن كبار فقهاء الشافعية بمصر في القرن الثالث أبو زرعة ^(١) محمد بن عثمان المتوفى سنة ٣٠٢ ولى قضاء مصر سنة ٢٨٤ ثمانى سنين ، ثم ولى قضاء دمشق ، فأدخل فيها مذهب الشافعي وحكم به القضاة هناك ، ولم يزل القضاء بعده للشافعية بمصر والشام إلى أن ضم الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣ القضاة الثلاثة من مذاهب أبي حنيفة ومالك وابن حنبل إلى الشافعية . وكان يعاصره النسائي وقد مر ذكره بين أهل الحديث ومنصور ^(٢) بن إسماعيل الفقيه المتوفى سنة ٣٠٦ وله مصنفات عدة في المذهب من أهمها كتاب الهداية والواجب والمستعمل والمسافر .

ويلقانا في القرن الرابع أبو إسحق ^(٣) المروزي إبراهيم بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٠ نزيل القسطنطينية وكانت قد انتهت إليه رئاسة المذهب في بغداد وانتشر عنه في البلاد ، وشرح مختصر المزني ، وانتقل إلى القسطنطينية وجلس في مجلس الشافعي واجتمع الناس عليه وضرىوا إليه أكباد الإبل . وكان يعاصره أبو بكر ^(٤) بن الحداد محمد بن أحمد المتوفى سنة ٣٤٤ قاضى القسطنطينية ، وله كتاب الباهر في الفقه يقال إنه كان في مائة جزء ، وله أيضا كتاب جامع الفقه وكتاب الفروع الموليدات الذي شرحه كثيرون . ونغصى إلى زمن الفاطميين ، وقد أحصى السيوطي عشرة من الفقهاء في المائة سنة الأولى من أيامهم ، أهمهم القضاعي ^(٥) أبو عبد الله محمد بن سلامة المتوفى سنة ٤٥٤ مصنف كتاب الشهاب ، ولى قضاء الديار المصرية وأرسل به الخليفة المستنصر إلى الروم رسولا . وأحصى السيوطي في المائة الثانية من أيام الفاطميين تسعة من فقهاء الشافعية أهمهم الخليلي ^(٦) علي بن الحسين المتوفى سنة ٤٩٢ وله في الفقه كتاب المغنى بين البسط والاختصار .

١/ ٣١٣ وتذكرة الحفاظ ٣/ ١٠٨ والعبر ٢/ ٢٦٤ وابن خلكان ٤/ ١٩٧ والواق ٢/ ٦٩ والشنرات ٢/ ٣١٧ .
(٥) راجع في القضاعي السبكي ٤/ ١٥٠ وابن خلكان ٤/ ٢١٢ والواق ٣/ ١١٦ والسيوطي ١/ ٤٠٣ والشنرات ٣/ ٢٩٣ .
(٦) أنظر في الخليلي السبكي ٥/ ٢٥٣ والعبر ٣/ ٣٣٤ والسيوطي ١/ ٤٠٤ والشنرات ٣/ ٣٩٨ وابن خلكان ٣/ ٣١٧ .

(١) راجع في أبي زرعة السبكي ٣/ ١٩٦ والسيوطي ١/ ٣٩٩ والعبر ٢/ ١٢٣ والشنرات ٢/ ٢٣٩ .
(٢) أنظر في منصور السبكي ٣/ ٤٧٨ والسيوطي ١/ ٤٠٠ والمغرب في حل المغرب (قسم القسطنطينية) ص ٢٦٢ وابن خلكان ٥/ ٢٨٩ ونكت الحميان ٢٩٧ ومعجم الأدياء ١٩/ ١٨٥ والمنظوم ٦/ ١٥٢ .
(٣) راجع في المروزي تاريخ بغداد ١١/ ٦ وابن خلكان ١/ ٢٦ والسيوطي ١/ ٣١٢ .
(٤) أنظر في ابن الحداد السبكي ٣/ ٧٩ والسيوطي

وربما كان أهم منه مجلى^(١) بن جميع قاضى القضاة المتوفى سنة ٥٥٠ كان من أئمة الفقهاء وكبارهم وله فى الفقه مصنفات أهمها كتابه الذخائر . وكان يعاصره الفقيه الشافعى ابن رفاعة المتوفى سنة ٥٦١ . وبمجرد أن يظل مصر لواء صلاح الدين الأيوبي يؤسس مدرسة للشافعية وثانية للمالكية وثالثة للحنفية كما أسلفنا . وفوض القضاء بمصر للشافعية ، فاتسع نشاطهم ، وقد أسند صلاح الدين مدرستهم للخبوشانى^(٢) محمد بن الموفق المتوفى سنة ٥٨٧ وله فى الفقه كتاب تحقيق المحيط . ومن كبار فقهاء الشافعية فى عهد الأيوبيين إبراهيم بن منصور العراقى المصرى المتوفى سنة ٥٩٦ رحل إلى العراق وأقام به مدة ثم عاد إلى موطنه فعرف باسم العراقى ، وله شرح على كتاب المذهب لأبى إسحق الشيرازى أول مدرس للمدرسة النظامية ببغداد وكان شرحا كبيرا فى عشرة مجلدات . وكان يعاصره عبد^(٣) الملك بن عيسى بن درباس المتوفى سنة ٦٠٥ قاضى قضاة الشافعية فى عهد صلاح الدين ، وأتاب عنه أخاه عثمان^(٤) فى قضاء القاهرة وله شرح على المذهب سماه الاستقصاء ، وشرح ثان على كتاب اللمع لأبى إسحق الشيرازى ، توفى سنة ٦٢٢ . ويلقانا محمد^(٥) بن عين الدولة المتوفى سنة ٦٣٩ قاضى القضاة بالقاهرة والوجه البحرى ، واشتهر لزمه بأنه رد شهادة السلطان الكامل ، وقال له : أنت تحكم ولا تشهد . وأهم الفقهاء بعده فى زمن الأيوبيين العز^(٦) بن عبد السلام وقد مررنا فى الفصل السابق حديث عنه مع الماليك ، ولى خطابة جامع عمرو بن العاص بالقسطاط والقضاء بها وبالوجه القبلى . ولما بنى السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحية فوض تدريس الشافعية بها إليه ، وطالت أيامه إلى زمن الماليك إذ توفى سنة ٦٦٠ وله فى الفقه كتاب القواعد الكبرى ومصنفات مختلفة ومر بنا أن له تفسيرا وكتابا فى مجاز القرآن .

وقد أحصى السيوطى من فقهاء الشافعية زمن الماليك أكثر من مائة فقيه ، لأكثرهم مصنفات

(٤) انظر فى عثمان السبكى ٣٣٧/٨ والسيوطى ٤٠٨/١ والشفرات ٧/٥ وابن خلكان ٢٤٢/٢ .

(٥) راجع فى ابن عين الدولة السبكى ٦٣/٨ والسيوطى ٤١٢/١ والعبر ٩٦٢/٥ والشفرات ٢٠٥/٥ .

(٦) انظر فى العز السبكى ٢٠٩/٨ والسيوطى ٣١٤/١ والشفرات ٣٠١/٥ والعبر ٢٦٠/٥ ومروءة الجنان

١٥٣/٤ وفوات الوفيات ٥٩٤/١ والنجوم الزاهرة ٢٠٨/٧ .

(١) راجع فى مجلى السبكى ٢٧٧/٧ والسيوطى ٤٠٥/١ والعبر ١٤١/٤ والشفرات ١٥٧/٤ وابن خلكان ١٥٤/٤ .

(٢) انظر فى الخبوشانى السبكى ١٤/٧ والسيوطى ٤٠٦/١ وابن خلكان ٢٣٩/٤ والعبر ٢٦٢/٤ والشفرات ٢٨٨/٤ والنجوم الزاهرة ١١٥/٦ .

(٣) راجع فى ابن درباس السيوطى ٤٠٨/١ ورفع الإصر : ٣٦٧ .

وشروح على أمهات كتب الفقه الشافعى ، ومن أهمهم ابن ^(١) دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وهو تلميذ العزيز عبد السلام وله مصنفات كثيرة فى الفقه والحديث ومصطلحه . وكان يعاصره ابن الرفعة أحمد ^(٢) بن محمد المتوفى سنة ٧١٠ وهو ثالث الشيوخ : الرافعى القزوينى والنووى الدمشقى فى الاعتماد عليه فى ترجيح الآراء الفقهية فى مذهب الشافعى ، درس بالمدرسة المعزية وتولى الحسبة ، وصنف تصنيفين عظيمين هما الكفاية فى عشرين مجلدا والمطلب فى ستين مجلدا ومن كبار الفقهاء الشافعية القمولى ^(٣) أحمد بن محمد المتوفى سنة ٧٢٧ صاحب البحر المحيط فى شرح الوسيط للغزالي وكتاب جوامع البحر جمع فيه فأوعى . وكان يعاصره بدر ^(٤) الدين بن جماعة قاضى القضاة بالديار المصرية المتوفى سنة ٧٣٣ وله تصنيفات فى فنون كثيرة . وتلقى بالزنگلوفى ^(٥) أبى بكر بن إسماعيل المتوفى سنة ٧٤٠ وله شرح على التنبيه لأبى إسحق الشيرازى عم النفع به وشرح ثان على المنهاج للنووى . وكان يعاصره سليمان ^(٦) بن جعفر الإسنى المتوفى سنة ٧٥٦ صنف طبقات الشافعية وهو مطبوع وتلقى بتقى ^(٧) الدين السبكى على بن عبد الكافى المتوفى فى نفس السنة المذكورة تلميذ ابن الرفعة وله مصنفات كثيرة فى الفقه وشروح كتبه الكبرى . ومن تلاميذه ابنه بهاء الدين السبكى الذى مر ذكره بين البلاغين ، وله فى الفقه شرح على كتاب الحاوى للشيخ نجم الدين القزوينى المتوفى سنة ٦٦٥ . وكان يعاصره عبد ^(٨) الرحيم بن الحسن الإسنى المتوفى سنة ٧٧٧ صاحب التصانيف السائرة ، منها المهات والجواهر وشرح المنهاج والفروع وإليه انتهت رئاسة الشافعية فى زمانه .

- ١/ ٤٢٥ والدرر الكامنة ٣/ ٣٦٧ وفوات الوفيات
٢/ ٣٥٣ ونكت الحميان ٢٣٥ ورمّة الجنان ٤/ ٢٨٧
والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٩٨ .
(٥) انظر فى الزنگلوفى السيوطى ١/ ٤٢٦ والشفرات
١٢٥/ ٦ .
(٦) راجع فى سليمان السيوطى ١/ ٤٢٩ .
(٧) السبكى ترجم له ابنه بهاء الدين فى طبقات الشافعية
١٠/ ١٣٩ وانظر فى ترجمته السيوطى ١/ ٣٢١ والدرر
الكامنة ٣/ ١٣٤ .
(٨) انظر فى الإسنى السيوطى ١/ ٤٢٩ والدرر الكامنة
٢/ ٤٦٣ .

- (١) راجع فى ابن دقيق العيد السبكى ٩/ ٢٠٧
والسيوطى ١/ ٣١٧ والشفرات ٦/ ٥ والدرر الطالع
٢/ ٢٢٩ ورمّة الجنان ٤/ ٢٣٦ والوفى ٤/ ١٩٣ والطالع
السعيد للإدغوى ٣١٧ وفوات الوفيات ٢/ ٤٨٤ والدرر
الكامنة ٤/ ٣١٠ وتذكرة الحفاظ ١٤٨١ .
(٢) انظر فى ابن الرفعة السبكى ٩/ ٢٤ والسيوطى
١/ ٣٢٠ والشفرات ٦/ ٢٢ ورمّة الجنان ٤/ ٢٤٩ والدرر
الطالع ١/ ١١٥ والدرر الكامنة ١/ ٣٠٣ .
(٣) راجع فى القمولى السبكى ٩/ ٣٠ والسيوطى
١/ ٤٢٤ والدرر الكامنة ١/ ٣٢٤ والشفرات ٦/ ٧٥
والطالع السعيد ١٢٥ والنجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٩ .
(٤) راجع فى ابن جماعة السبكى ٩/ ١٣٩ والسيوطى

ويلقانا ابن^(١) الملقن المتوفى سنة ٨٠٤ وهو أكثر أهل زمانه تصنيفاً ، ومن تصانيفه شرح التنبية وشرح الحاوى وشرح المنهاج وشرح كتاب العمدة وما به من أحاديث موزعة على أبواب الفقه . وتوفى بعده بعام شيخ الإسلام البلقيني^(٢) عمر بن رسلان وله في الفقه والحديث والتفسير تصانيف مختلفة ، وحمل عنه فقهه وعلمه ابنه علم الدين صالح المتوفى سنة ٨٦٨ وهو شيخ السيوطي . وكان يعاصره فقيهان هما الحلي والمناوي وبهما ختم السيوطي حديثه عن فقهاء الشافعية . وبعد السيوطي نفسه خاتمهم الحقيق إذ توفى سنة ٩١١ كما مر بنا في الحديث عن اللغويين وله في الفقه مصنفات كثيرة منها مختصر الروضة للنووي وحاشية عليها ومختصر لكتاب التنبية وشرح عليه وكتاب الأشباه والنظائر . واللوامع والبارق في الجوامع والفوارق ، غير رسائل كثيرة أحصاها في ترجمته لنفسه بحسن المحاضرة . وملتقى بالشيخ زكريا^(٣) الأنصاري المتوفى سنة ٩٢٦ وله في الفقه مختصر مشهور هو المنهج وله شروح مختلفة .

ونخصي إلى زمن العثمانيين ويظل التصنيف في الفقه الشافعي ناشطاً . ومن كبار الفقهاء في القرن العاشر ابن حجر^(٤) الهيتمي المتوفى سنة ٩٧٣ وله الفتاوى الهيتمية طبعت بمصر في أربعة مجلدات . وكان يعاصره شمس الدين الشربيني الخطيب الذي مر ذكره بين المفسرين ، وله في الفقه شرح منهاج النووي ، وهو مطبوع ، وله شرح على متن أبي شجاع ، ولسليمان البجيرمي حاشية عليه . ويكتظ كتاب تاريخ الجبرتي بأسماء فقهاء الشافعية وأشهر أئمتهم حينئذ الرملي^(٥) المتوفى سنة ٩٥٧ وفتاويه تكتظ بها كتب الفقه الشافعي بعده .

وظلت مصر لا تعرق المذهب الحنبلي طويلاً ، ويعلل السيوطي ذلك بأن المذهب لم يبرز خارج العراق إلا في القرن الرابع ، وكان الفاطميون بمصر وكانوا لا يهتمون بغير عقيدتهم الشيعية الغالية ، ويقال إنهم اضطهدوا في أول أمرهم المذاهب الثلاثة التي كانت قائمة بمصر ، وهي مذاهب الشافعية والملكية والحنفية ، فتأخر ظهور المذهب الحنبلي ، وأول إمام لهم نزل مصر الحافظ عبد الغني^(٦) الجماعيلي المقدسي المتوفى سنة ٦٠٠ صاحب كتاب عمدة الأحكام في معالم

(٤) راجع في ابن حجر الهيتمي مقدمة فتاويه والشفرات
اللامع ١٠٠/٦ وشفرات الذهب ٤٤/٧ .

(٥) انظر في الرملي الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة
للغزي ١١٩/٢ والخطط التوفيقية (طبعة بولاق) ١١٩/٤ .

(٦) انظر مصادر ترجمة عبد الغني المقدسي في قسم الشام
ص ٥٨٤ .

(١) راجع في ابن الملقن السيوطي ٤٣٨/١ والضوء
اللامع ١٠٠/٦ وشفرات الذهب ٤٤/٧ .

(٢) انظر في البلقيني السيوطي ٣٢٩/١ والضوء اللامع
٦ رقم ٢٨٦ والشفرات ٥١/٧ .

(٣) انظر في الشيخ زكريا الضوء اللامع ج ٣ رقم ٨٩٢
والكواكب السائرة ١٩٦/١ والبدر الطالع ٢٥٢/١ والنور
السافر ص ١٢٥ .

الحلال والحرام عن خير الأنام ، وله شروح كثيرة . ولؤلف العمدة كتاب الكمال في معرفة أسماء الرجال ، وصنع له تهذيبا المزي جمال الدين يوسف بن الزكي وأكمل التهذيب مُعطى الذى مر ذكره . وأخذ المذهب الحنبلى يشيع في مصر منذ أنشأ السلطان الصالح نجم الدين أيوب مدرسته الصالحة سنة ٦٤١ إذ جعل للمذهب الحنبلى ودرسته فيها إيوانا بجانب أوأوين المذاهب الثلاثة السابقة ، ودعم ذلك الظاهري يدرس بضم قضاة للحنابلة والمالكية والحنفية بجانب قاضى الشافعية . وتوالى اهتمام الماليك ، في تأسيس مدارسهم ، بالفقه الحنبلى وفقهائه بجانب فقهاء المذاهب الثلاثة الأخرى على نحو ما مر بنا في صدر هذا الفصل . ويترجم السيوطى في حسن المحاضرة لعشرين من فقهاء المذهب وقضاته في مصر مثل نجم^(١) الدين أحمد بن حمدان الحرانى المتوفى سنة ٦٩٥ مؤلف الرعاية الكبيرة وعمر^(٢) بن عبد الله المقدسى قاضى الديار المصرية المتوفى سنة ٦٩٦ وموفق^(٣) الدين عبد الله بن عبد الملك المقدسى قاضى الديار المصرية لنحو ثلاثين سنة توفى سنة ٧٦٩ ، وناصر^(٤) الدين نصر الله بن أحمد الكنانى المتوفى سنة ٧٩٥ ناب عن موفق الدين في قضاء الحنابلة ثم استقل به سناً وعشرين سنة ، وعاد^(٥) الدين الحنبلى أبو بكر بن أبى المجد المتوفى سنة ٨٥٤ صنف تجريد الأولمر والنواهى من كتب الصحاح الستة ، واختصر تهذيب الكمال للمزنى . ويختتم السيوطى فقهاء الحنابلة زمن الماليك بأستاذه أحمد^(٦) بن إبراهيم الكنانى العسقلانى الأصل المصرى المولد ، وفيه يقول : ولى قضاء الحنابلة بالديار المصرية ، ودرّس للحنابلة بغالب مدارس القاهرة ، وله تعليقات وتصانيف ومسودات كثيرة فى الفقه وأصوله والحديث والعربية ، ومنها مختصر كتاب المحرر للرافعى توفى سنة ٨٧٦ . ويظل الفقه الحنبلى ناشطا بمصر زمن العثمانيين ، وفى كتاب تاريخ الجبرى أسماء كثيرين من فقهاء الحنابلة ومن أكبر أئمتهم مرعى^(٧) بن يوسف المتوفى سنة ١٠٣٣ وله مؤلفات كثيرة فى المذهب ، منها غاية المنتهى . ويبدو أن المذهب الظاهرى ظل معروفا بمصر وظل علماء يعنون به ويتدارسونه ، ونلتقى فى كتب التراجم من حين إلى آخر

٦/ ٣٤٣ والدرر الكامنة ٥/ ١٦٣ وإنباء الغمر ١/ ٤٦٦ .
 (٥) راجع فى عاد الدين السيوطى ١/ ٤٨٢ والضوء
 اللامع ١١/ ٦٦ والشذرات ٧/ ٤٢ .
 (٦) انظر فى الكنانى السيوطى ١/ ٤٨٤ والضوء اللامع
 ١/ ٢٠٥ والشذرات ٧/ ٣٢١ .
 (٧) خلاصة الأثر ٤/ ٣٥٨ .

(١) انظر فى نجم الدين السيوطى ٢/ ٤٨٠ والشذرات
 ٤/ ٤٢٨ والمنهل الصافى ١/ ٧٧٢ .
 (٢) انظر فى عمر المقدسى السيوطى ١/ ٤٨٠ والشذرات
 ٥/ ٤٣٦ والنجوم الزاهرة ٨/ ١١١ .
 (٣) راجع فى موفق الدين السيوطى ١/ ٤٨١ والشذرات
 ٦/ ٢١٥ .
 (٤) انظر فى ناصر الدين السيوطى ١/ ٤٨١ والشذرات

بأسماء من كانوا يعتقدون هذا المذهب مثل بدر الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالبشتكى المتوفى سنة ٨٣١ .

ومعروف أنه حين حكم الفاطميون مصر كانوا يولون على القضاء فقهاء من عقيدتهم ، ومربنا في الفصل الأول بيان لمبادئ عقيدتهم الأساسية وإشارة إلى بعض آرائهم الفقهية التي خالفوا فيها الجماعة ، وأول قضائهم بمصر النعمان^(١) بن منصور التميمي الملقب بأبي حنيفة الشيعة ، كان في أول أمره مالكيا ، ثم تحول إلى مذهب الإمامية الشيعي ، ثم انتقل إلى عقيدة الإسماعيلية في خدمة المعز لدين الله بإفريقية ، وقدم معه إلى مصر فأُسند إليه القضاء ، ولم يلبث أن توفي سنة ٣٦٣ . وله مصنفات فقهية شيعية مختلفة أهمها كتابه « دعائم الإسلام في الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله » وهو المصدر الأساسي في الفقه وعلم الكلام عند الشيعة الإسماعيلية . ونشر له المرحوم الدكتور محمد كامل حسين كتاب المهمة في آداب اتباع الأئمة ، وذكر في مقدمته له كثيرا من الكتب الفقهية الإسماعيلية .

وظل القضاء الفاطمي بعده في بيته إلى نهاية القرن الرابع الهجري . وينزل مصر سنة ٤٠٧ كبير دعاة الفاطميين وفقهائهم في الشرق حميد^(٢) الدين الكرمانى ولا يلبث أن يتوفى سنة ٤٠٨ ومن أهم مصنفاته كتاب «راحة العقل» الذى حققه ونشره المرحومان : الدكتور محمد مصطفى حلمي والدكتور محمد كامل حسين ، وهو يزخر بمسائل فلسفية وعقيدية متشابكة . وينزل مصر بعده المؤيد^(٣) في الدين هبة الله الشيرازى أكبر دعاة الفاطميين وفقهائهم في القرن الخامس ، وقد ظل بها نحو ٣٠ عاما حتى توفي سنة ٤٧٠ وأهم مصنفاته المجالس المؤيدية ، وهى ثمانمائة مجلس في العقيدة الفاطمية وتشتمل على كثير من المسائل العقيدية والفقهية ، ونشر الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر في القاهرة ملخصا لهذه المجالس من صنعة حاتم بن إبراهيم . ونعيد هنا ما قلناه في الفصل الأول من أن هذه العقيدة وكل ما اتصل بها من فقه وغير فقه ، ظلت غريبة في مصر ، وظل المصريون مبتعدين عنها حتى انتهت تلك الدولة الشيعية المتطرفة .

كتابه راحة العقل .
(٣) راجع في المؤيد في الدين السيرة المؤيدية بتحقيق
د. محمد كامل حسين وكتابه في آداب مصر الفاطمية
ص ٥٩ ، ١١٦ .

(١) راجع في النعمان ابن خلكان ٤١٥/٥ ولسان الميزان
١٦٧/٦ والثلثات ٤٧/٣ ومروءة الجنان ٣٧٩/٢
والنجوم الزاهرة ١٠٦/٤ ومقدمة كتاب المهمة في آداب
اتباع الأئمة وكتاب دعائم الإسلام .
(٢) أنظر في حميد الدين بر وكلمان ٣٥٥/٣ ومقدمة

ومرّ بنا أن الشافعي هو الذي أسس علم أصول الفقه ورفع أركانه وشاد بنيانه ، فكان طبعيا أن تظل مصر بعده عاكفة على هذا العلم وأن يلقانا كثيرون من فقهاء الشافعية منكبين عليه . وسرى ذلك منهم إلى فقهاء الحنفية ، بل أيضا إلى فقهاء المالكية والحنابلة . ولن نستطيع أن نلم بما كتب في هذا الميدان لكثرة ، ولذلك سنكتفي بذكر بعض كتبه المهمة ، من ذلك كتاب الإحكام في أصول الأحكام لسيف^(١) الدين الآمدي نزيل مصر سنة ٥٩٢ المتوفى سنة ٦٣١ وهو من أجمع وأروع ما وضع في هذا العلم . ولابن الحاجب الذي مر ذكره بين النحاة مختصر له شُرح مرارا وتكرارا ، ولشمس^(٢) الدين الأصفهاني بعده المتوفى سنة ٦٨٨ شرح كبير لكتاب المحصول في علم الأصول لفخر الدين الرازي . ولبهاء الدين السبكي المذكور في فقهاء الشافعية كتاب بديع في الأصول سماه جمع الجوامع .

ولم ينشأ في مصر مذهب مستقل في علم الكلام ، فقد كانت تعتمد دائما على ما يأتيها من الخارج ، غير أنه يلاحظ أنه منذ عهد صلاح الدين غلب مذهب الأشعري الذي يقف بين المعتزلة وأهل السنة ، يقول المقرئ في الحديث عن مذاهب أهل مصر : « وأما العقائد فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري .. وشرط ذلك في أوقافه التي بديار مصر كالمدرسة الناصرية بجوار قبر الإمام الشافعي من القرافة والمدرسة التي عُرفت بالشريفية بجوار جامع عمرو بن العاص والمدرسة المعروفة بالقمحجية وخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، فاستمر الحال على عقيدة الأشعري بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب أيضا لإدخال ابن تومرت رأى الأشعري إليها^(٣) . ولعل أكبر كتاب أشعري ألف في مصر كتاب أبقار الأفكار لسيف الدين الآمدي المذكور آنفا وفيه مباحث كبرى عن العلم والنظر وأقسام المعلوم والنبوت والمعاد . ويظل التأليف في علم الكلام على مذهب الأشعري ناشطا حتى نهاية زمن العثمانيين .

١٠٠/٨ والسيوطي ٥٤٢/١ والعبر ٣٥٩/٥ والشنرات
٤٠٦/٥ وفوات الوفيات ٥٢٣/٢ ومرة الجنان
٢٠٨/٤
(٣) خطط للمقرئ ٢٧٩/٣ .

(١) أنظر في الآمدي ابن خلكان ٢٩٣/٣ والسبكي
٣٠٦/٨ والسيوطي ٥٤١/١ والعبر ١٢٤/٥ والشنرات
١٤٤/٥ ولسان الميزان ١٣٤/٣ وميزان الاعتدال
٢٥٩/٢ والنجوم الزاهرة ٢٨٥/٦ .
(٢) راجع في شمس الدين الأصفهاني السبكي

التاريخ

نشطت مصر في كتابة التاريخ منذ مطالع القرن الثالث للهجرة ، وقد كتبت في جميع ألوانه : في التاريخ العام أو تاريخ الدول العربية ، وفي التاريخ الخاص بتاريخ دولها وحكامها المختلفين . وفي تاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية ، وتاريخ الرجال وتاريخ العلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء . وبجانب ذلك عُنيت بكتابة السيرة . ولها في كل ذلك نشاط واسع ، ولعل من الخير أن نتعقبه على مر القرون .

وأول ما يلقانا من ذلك في القرن الثالث للهجرة ، السيرة النبوية لعبد^(١) الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ وقد طبقت شهرتها العالم الإسلامي ، ولمصر فضل إهدائها إلى هذا العالم وتداولها فيه إلى اليوم ، وإنها لتعد أوثق مصدر يرجع إليه مؤرخو السيرة المحمدية . ويلقانا بعدها كتاب فتوح مصر والمغرب لعبد^(٢) الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ . ويكتب محمد بن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة ٢٦٨ سيرة لعمر بن عبد العزيز ، وهي مطبوعة بالقاهرة .

ويلقانا من المؤرخين المصريين في القرن الرابع الهجري مؤرخ قبلى هو سعيد^(٣) بن البطريق الذى تقلد منصب بطريق الإسكندرية سنة ٣٢١ وظل يشغله حتى توفى سنة ٣٢٨ وله تاريخ سماه نظم الجوهر ، ويقول ابن أبى أصيبعة إنه ثلاث مقالات أو ثلاثة أبواب : باب عن النصارى وصومهم وإفطارهم وتاريخهم وأعيادهم ، وباب أو مقالة عن تواريخ الخلفاء والملوك المتقدمين ، ومقالة أو باب عن تاريخ البطارقة وأحوالهم وما جرى في ولاياتهم . وكتاب سعيد

للذهبي ٨٦/٣ .

(٣) انظر ابن البطريق في ابن أبى أصيبعة ص ٤٥٥ ودائرة المعارف الإسلامية وبروكلمان (الطبعة العربية) ٧٧/٣ وما بهما من مراجع وقد طبع كتاب ابن البطريق في أكسفورد ونشره اليسوعيون في بيروت ونشر ذيله روزن في لينتجراد في القرن الماضى .

(١) انظر عبد الملك بن هشام في ابن خلكان ١٧٧/٣ وشرح سيرته للسهيلى السيسى الروض الألف : مقدمته ، وعبر الذهبي ٣٧٤/١ والسيوطى ٥٣١/١ وإنباه الرواة ٢١١/٢ .

(٢) راجع عبد الرحمن في ابن خلكان ٣٥/٣ والسيوطى ٤٤٦/١ ، والديباج لابن فرحون والميزان

إشارة قوية إلى تعرب القبط حينئذ واستيعابهم العربية . وذُيِّل على هذا الكتاب يحيى بن سعيد الأنطاكي بتكملة أرخ فيها من سنة ٣٢٦ حتى سنة ٤٢٥ وكان قد نزل أنطاكية سنة ٤٠٣ ووجد بها من الوثائق عن الدولة البيزنطية وبطاركة أنطاكية والقسطنطينية في تلك الحقبة ما ضمه إلى أخبار بطاركة الإسكندرية وأخبار الدولتين العباسية والفاطمية . وكان يعاصر سعيد بن البطريق أحمد^(١) بن يوسف بن الداية المتوفى سنة ٣٤٠ وله كتاب سيرة أحمد بن طولون ، وضمن ابن سعيد في كتابه المغرب - القسم الخاص بالفسطاط - أكثر هذه السيرة ، وعليه اعتمد البلوى فيما كتبه عن ابن طولون وآله . ولابن الداية أيضا كتاب في أخبار الأطباء مفقود ، وكتاب في السياسة نشر في بيروت ، وسنعرض في حديثنا عن النثر لكتابه « المكافأة » . وكان يعاصره عبد الرحمن^(٢) بن أحمد بن يونس الصدفى المتوفى سنة ٣٤٧ وقد وضع في التراجم كتابين : كتابا عن علماء مصر وكتابا عن الغرباء الواردين على مصر ، وهما مفقودان مثل كتاب ثالث له ذكره صاحب كشف الظنون ، وهو في تاريخ الصعيد . ونلتقى بمحمد^(٣) بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٣٥٠ وله كتابان : ولاية مصر أو أمراؤها حتى سنة ٣٣٥ وكذلك قضاتها ، نشرهما جيست ، وهما كتابان نفيسان . ونلتقى في أوائل زمن الفاطميين بابن^(٤) زولاقي الحسن بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب سيرة محمد بن طغج الإخشيد ، احتفظ بأكثره ابن سعيد في كتاب المغرب : قسم الفسطاط ، وكانت له أيضا - وفُقدت - سيرة جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز وتاريخ السنين ، وتكملة لكتاب الولاية وكتاب القضاة للكندى وطبع له كتاب أخبار سيديو مصرى . ويلقانا بعده الطحان أبو القاسم يحيى^(٥) بن على الحضرمى المتوفى سنة ٤١٦ وله ذيل على تاريخ ابن يونس الصدفى ، كما يلقانا الروذبارى أحمد^(٦) بن الحسين معاصره وله كتاب في تاريخ خلفاء مصر حتى زمن الحاكم سماء « بلشكر الأدباء » وينقل ابن سعيد عنه في قسم القاهرة من كتابه المغرب مرارا ،

(٤) انظر ابن زولاقي في السيوطى ١/ ٥٥٣ وابن خلكان

٩١/٢ ولسان الميزان ٢/ ١٩١ .

(٥) انظر الطحان في ابن خلكان ٣/ ٢٢٣ وانظر

بروكلمان ٦/ ٨٤ .

(٦) راجع الروذبارى في المغرب لابن سعيد (قسم

القاهرة) ص ٣٦٣ .

(١) انظر مصاحف ابن الداية في كتابه المكافأة في الفصل

الخامس من هذا الكتاب .

(٢) راجع ابن يونس في السيوطى ١/ ٣٥١ ، ٥٥٣

وابن خلكان ٣/ ١٣٧ وفوات الوفيات ١/ ٥٢٦

والشوات ٢/ ٣٧٥ وعبر الذهبى ٢/ ٢٧٦ .

(٣) انظر في الكندى السيوطى ١/ ٥٥٣ ودائرة المعارف

الإسلامية . وبروكلمان ٣/ ٨٢ .

وعليه اعتمد فيها ذكره من أخبار الحاكم . وكان يعاصره هو والطحان المسيحي ^(١) الأمير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله المتوفى سنة ٤٢٠ ، وقد ترجم له ابن سعيد في المغرب ترجمة ضافية ذكر فيها مصنفاته الكثيرة . وأهمها تاريخه الكبير عن مصر وولاتها وخلفائها الفاطميين ، سماه « كتاب أخبار مصر وفضائلها وعجائبها وطرائفها وغرائبها وما بها من البقاع والآثار وسير من حلَّها من الولاة والأمراء والأئمة الخلفاء آباء أمير المؤمنين » وقد نشرت منه هيئة الكتاب قطعة صغيرة تؤرخ سنتي ٤١٤ و ٤١٥ للهجرة . وتلقانا سيران إيام الفاطميين : سيرة جوذر الصقلي أحد رجال الدولة الفاطمية قبل استيلائها على مصر ، وهي منشورة ، وأهم منها السيرة المؤيدية للمؤيد الشيرازي داعي دعاة الفاطميين المار ذكره ، وفيها يتحدث عن حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ ويذكر بعض رسائله ومناظراته العلمية .

ومن أهم المؤرخين في زمن الفاطميين على ^(٢) بن منجب الصيرفي المتوفى سنة ٥٥٠ وله كتاب في وزراء الفاطميين سماه الإشارة إلى من نال الوزارة ألفه للوزير الفاطمي البطاحي . وللرشيد ^(٣) بن الزبير أحمد بن علي المتوفى سنة ٥٦٣ كتاب في شعراء مصر سماه « جنان الجنان ورياض الأفهام » ألفه سنة ٥٥٨ وهو أهم كتاب ألف عن الشعر الفاطمي وعليه اعتمد ابن سعيد في جزأى الفسطاط والقاهرة من مصنفه « المغرب » في كثير من تراجمه . وبجانب ذلك نجد في أواخر زمن الفاطميين مصنفات فرعية مثل « الرسالة المصرية » لأمية بن عبدالعزيز الأندلسي المعروف باسم أبي الصلت ، وعداده في الأندلسيين . ومن ذلك مصنف للقاضي الجليس في شعراء طلائع ابن رزيك ، ورسالة لابن جبريحي بن حسن ألفها في مدائح بني أسامة سنة ٥٢٥ . وملتقى بالقرطبي محمد ^(٤) بن سعد الذي ألف لساور وزير الخليفة العاضد (٥٥٥-٥٦٧ هـ) كتابا في تاريخ مصر ، وتاريخ وفاته غير معروف . وعنه نقل ابن سعيد مقتطفات كثيرة في قسمي الفسطاط والقاهرة من كتابه المغرب . وكان يعاصره على بن أبي السرور الرُّوحى وله تحفة الظرفاء في أخبار الأفياء والخلفاء إلى الظاهر لأهرّاز دين الله الفاطمي المتوفى سنة ٤٢٧ ويُظنُّ أنه ألفه بالإسكندرية

(٣) انظر في الرشيد ابن خلكان ١٦٠/١ ومجمع الأدباء

٢٠٠/٤ ٥١/٤ والطالع السعيد ٥٢ والخريدة قسم مصر ٢٠٠/١ والشذرات ١٩٧/٤ والسيوطي ٥٤٠/١ .

(٤) انظر في القرطبي المغرب قسم الفسطاط ص ٢٦٧ .

(١) انظر في المسيحي المغرب (قسم الفسطاط)

ص ٢٦٤ وابن خلكان ٣٧٧/٤ والسيوطي ٥٤٤/١ والوفاء للصفدي ٧/٤ والعبر ١٣٩/٣ والشذرات ٢١٥/٣ والنجوم الزاهرة ٢٧١/٤ .

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن منجب في ص ٤٠٥ .

سنة ٥٦٧ وطُبع في القاهرة مع تكملة إلى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين وتكملة ثانية إلى المستعصم سنة ٦٤٠ .

وفي أواخر زمن الفاطميين وأوائل عهد الأيوبيين نلتقى بأبي صالح الأرمني . وله كتاب عن الكنائس والأديرة بمصر وما يجاورهما من البلاد ابتداء تأليفه سنة ٥٦٤ نُشر الجزء الأول منه في أكسفورد سنة ١٨٩٥ . ويلقانا في زمن الأيوبيين أبو طاهر السُّلّفي المار ذكره وله معجم السفر لشيوخه ومن لقيهم . وتتكاثر هذه المعاجم فيما بعد ، إذ تكثُر ترجمة العلماء لشيوخهم ، مما يُلقي أضواء كثيرة على الحركة الثقافية لعهدهم . وكان يعاصره الشريف النسابة محمد^(١) بن أسعد الجَوَانِي الحسِنِي ، المتوفى سنة ٥٨٨ وله كتاب طبقات الطالبين وتاج الأنساب .

وكتب إبراهيم بن وصيف شاه . قبل سنة ٦٠٦ كتاب جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور وأخبار الديار المصرية . ولعلّ بن ظافر الأزدي المتوفى سنة ٦٢٣ كتاب الدول المتقطعة في أربعة مجلدات وفيه يذكر تاريخ الطولونيين والإخشيديين والفاطميين والعباسيين حتى سنة ٦٢٢ . ومَرَّبنا ذكر الحافظ عبد الغنى بين الحنابلة وأن له كتاب الإكمال في معرفة أسماء الرجال . وأكبر مؤرخ للرجال زمن الأيوبيين القفطي^(٢) على بن يوسف المتوفى سنة ٦٤٦ وله كتاب إنباه الرواة على أنباه النحاة وكتاب المحدثين من الشعراء . وهما مطبوعان وله أيضا كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء . اختصره الزوزني محمد بن علي المعاصر له وسمى مختصره « تاريخ الحكماء » طبع في ليبزج والقاهرة ، وهو مبثوث في هوامش هذا الجزء .

ونعنى إلى زمن المماليك وفي عهدهم تزدهر كتابة التاريخ العام والخاص وتاريخ التراجم والسير ، ويلقانا المكي^(٣) بن العميد ، وهو جرجيس (أوعبدالله) بن أبي اليسرين أبي المكارم المولود بالقاهرة سنة ٦٠٢ والمتوفى بدمشق سنة ٦٧٢ وله كتاب المجموع المبارك وهو تاريخ عام للعالم في قسمين : القسم الأول من بداية الخلق إلى الرسول ﷺ والقسم الثاني من الرسول إلى سنة ٦٥٨ وقد نُقل إلى اللاتينية وطبع مع الأصل العربي في لندن سنة ١٦٢٥ للميلاد وترجم إلى الإنجليزية وطبع في لندن ثم إلى الفرنسية وطُبع في باريس . وكان يعاصره ابن ميسر^(٤) تاج الدين محمد بن علي بن يوسف المتوفى سنة ٦٧٧ مصنف تاريخ مصر وهو ذيل أو تكملة لكتاب المسبّحي

١٩١/٢ والسيوطي ٥٥٤/١ .

(١) انظر في الجواني الحريدة (قسم مصر) ١١٧/١

(٣) انظر المكي في بروكلمان ١٤٤/٦ ودائرة المعارف

ولسان الميزان ٧٤/٥ .

الإسلامية .

(٢) انظر القفطي في معجم الأدباء ١٥/١٧٥ والطالع

(٤) انظر ابن ميسر في بروكلمان ٩٠/٦ .

السعيد ص ٢٣٧ والشذرات ٥/٢٣٧ وفوات الوفيات

آنف الذكر . وللشاعر المعروف باسم الجزار المتوفى سنة ٦٧٩ قصيدة تاريخية سماها العقود الدرية في الأمراء المصرية حتى الملك الظاهر بيبرس احتفظ بها السيوطي في كتابه حسن المحاضرة . ولابن^(١) الراهب القبطي أبي شكر بطرس المتوفى سنة ٦٨١ كتاب في التاريخ العام يشتمل على تاريخ ملوك الروم والبطارقة والخلفاء والأمراء إلى سنة ٦٥٧ تُرجم إلى اللاتينية سنة ١٦٥١ وعُني به اليسوعيون ببيروت ونشروه سنة ١٩٠٣ . وحري بنا أن نذكر هنا ابن^(٢) خلكان أكبر كتاب التراجم وأوثقهم المتوفى سنة ٦٨١ وحقا نشأ بالموصل ، ولكنه أقام فترات طويلة بالقاهرة وفيها بدأ تأليف كتابه النفيس : وفيات الأعيان سنة ٦٥٤ وأتمه بها سنة ٦٧٢ . ويلقانا بحبي^(٣) الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وله سيرة نفيسة في السلطان قلاوون^(٤) باسم : تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون وهي منشورة ، وله أيضا سيرة في السلطان الظاهر بيبرس وسيرة ثالثة في الأشرف خليل بن قلاوون ، وأيضا له خطط القاهرة .

ونلتقي في القرن الثامن بالدوادار^(٥) ركن الدين بيبرس المنصوري المتوفى سنة ٧٢٥ وله زيادة الفكرة من تاريخ الهجرة . وهو تاريخ عام للدولة الإسلامية حتى سنة ٧٢٤ مرتب على السنين في أحد عشر مجلدا . وفي مكتبة جامعة القاهرة مصورات لبعض أجزائه . وكان يعاصره النويري الذي تحدثنا عنه بين الجغرافيين مشيرين إلى موسوعته الكبرى نهاية الأرب . وبها سيرة نبوية مطولة وتاريخ عام للدولة الإسلامية . وأشرنا هناك أيضا إلى ابن فضل الله العمري وموسوعته مسالك الأبصار . وبها مجلدات ضخمة لتراجم الأطباء والفقهاء والعلماء من كل صنف والشعراء والكتاب لا في مصر وحدها بل في العالم العربي جميعه . ونلتقي بالحافظ ابن^(٦) سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ وسيرته النبوية : « عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير » . وبها إضافة مهمة إذ لا تكتفي بما في كتب السيرة كسيرة ابن هشام . بل تضيف إلى ذلك المراجعة على كتب الحديث مثل صحيح البخاري . ويلقانا الإدفعي^(٧) جعفر بن ثعلب المتوفى سنة ٧٤٨ مصنف الطالع

(٥) راجع في ابن سيد الناس السيوطي ٣٥٨/١ ،

٤٢٥ والبدر الطالع ٢٤٩/٢ والنجوم ٣٥٦/٧ وطبقات

القراء ٣٨٦/١ والدرر الكامنة ٣٣٠/٤ والسبكي

٤٦٨/٩ .

(٦) راجع في الإدفعي السيوطي ٥٥٦/١ والشتات

١٥٣/٦ والدرر الكامنة ٧٢/٢ والبدر الطالع ١٨٢/١

(١) انظر ابن الراهب في بروكلمان ١٤٦/٦ .

(٢) انظر مصادر ترجمة ابن خلكان وأخباره في الجزء الخامس من هذه السلسلة بقسم العراق .

(٣) راجع مصادر ترجمة بحبي الدين بن عبد الظاهر في ص ٤١٥ .

(٤) انظر في النوادر الدرر الكامنة ٤٣/٢ والشتات

٦٦/٦ ودائرة المعارف الإسلامية .

السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد . وكان يعاصره المفضل بن أبي الفضائل القبطى وله ذيل على تاريخ المكين بن العميد باسم « النهج السديد والدر الفريد فيما يعد تاريخ ابن العميد » ويشمل تاريخ سلاطين المماليك من الظاهر بيبرس إلى الناصر بن قلاوون وتاريخ بطارقة الإسكندرية والمسلمين في اليمن والهند وتاريخ التتار ، نُشر منه القسم الخاص بسلاطين^(١) المماليك . وولتقى بالحافظ مُعلطاي المار ذكره بين المحدثين ، وله سيرة نبوية باسم « الزهر الباسم في سيرة أبي القاسم » ومنها مخطوطة في دار الكتب المصرية .

ويلقانا بهاء الدين السبكي الذى ذكرناه بين فقهاء الشافعية ، وله كتابه النفيس « طبقات الشافعية » . ونراه يصل التاريخ بالمجتمع في كتابه « معيد النعم » وهو يلتقى بكتاب الجمهورية لأفلاطون وكتاب آراء أهل المدينة الفاضلة للفارابى ، والكتابان إنما يعرضان للحياة السياسية والاجتماعية في المدينة عرضا مثاليا ، والسبكي يتجه في « معيد النعم » نفس الوجهة في المجتمع المصرى ، فيصور المثالية ، ولا يكتفى بذلك ، بل يعمد إلى تصوير الواقع مقابلا بينه وبين المثال ، ولكى يصل إلى ذلك استعرض عناصر المجتمع ، وهى تبلغ عنده مائة واثنى عشر عنصرا : من السلطان ونوابه وموظفى الدولة وقواد الجيش والقائمين على الضرائب والأسواق والقضاة والعلماء والوعاظ والصوفية . وخزنة الكتب ومعلمى الكتاتيب والوراقين وأصحاب الصيد والزراعة والصناعة والتجارة وأصحاب الحرف المختلفة ، وحتى البوابين والقائمين على إصطبلات الخيول والشحاذين . كل هؤلاء يستعرض حياتهم بواقعها وما ينبغى أن تكون عليه من صورة مثالية . وبذلك رسم المجتمع المصرى بكل ما فيه وما ينبغى أن يكون عليه من هيئة فاضلة .

ويلقانا في مطالع القرن التاسع ابن^(٢) الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المتوفى سنة ٨٠٧ . وله كتاب « تاريخ الدول والملوك » بلغ فيه نهاية سنة ٨٠٣ وكان في عشرين مجلدا . وكان يعاصره ابن دقاق^(٣) صارم الدين إبراهيم بن محمد المذكور بين الجغرافيين والمتوفى سنة ٨٠٩ وله كتاب الانتصار لواسطات عقد الأمصار ، خص كل جزء منه بمدينة ، وقد نشر فولرز منه الجزء من الخاصين بالقاهرة والإسكندرية ، وله كتاب في تراجم الصوفية ، وله في تاريخ مصر كتاب نزهة الأنام في اثني عشر مجلدا وتاريخ لحكام مصر حتى سنة ٨٠٥ صنفه للسلطان بروق وله فيه سيرة

(٣) انظر ابن دقاق في السيوطى ٥٥٦/١ والشذرات

(١) بروكلمان ١٤٦/٦ .

٨٠/٧ والضوء اللامع ١٤٥/١ .

(٢) انظر ابن الفرات في السيوطى ٥٥٦/١ والضوء

اللامع ٥١/٨ .

سمها « عقد الجواهر في سيرة الملك الظاهر برفوق » وتكثر في هذا العصر كتابة سير السلاطين . وقد ذكرنا بين الجغرافيين القلقشندي المتوفى سنة ٨٢١ وكتابه صبح الأعشى ، وهو سجل تاريخي حافل بمعلومات نفيسة عن مكاتبات الحكام في العالم العربي على مر العصور بجانب أنه معلمة جغرافية رائعة . وله مصنفات مختلفة .

ونلتقي بالمقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ وقد مر ذكره بين الجغرافيين مع الإشارة إلى كتابه « الخطط » وفيه يتحدث عن البيئة الطبيعية - كما أسلفنا - لمصر ، ويفيض في الحديث عن القاهرة وآثارها وأحيائها ومساجدها ومدارسها وحماماتها ومارساتها ومصانعها وخزائن كتبها وما كان بها من حركة علمية ، ويتحدث عن الدول التي أظلمت ، وبذلك يلتقي في الكتاب تاريخ مصر الفكرى بتاريخها السياسى والاجتماعى والروحى والحضارى ، إذ حوّل المقرئ التاريخ إلى دراسة اجتماعية وعقلية وسياسية مع تصوير عادات السكان وتقاليدهم ومستوى معيشتهم ونزعتهم الصوفية وكل ما اختلف على أهل مصر والقاهرة من صور الحياة . وله سيرة نبوية في ستة مجلدات باسم « إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع » وله اتعاظ الخفا بأخبار الفاطميين الخلفاء في تاريخ الدولة الفاطمية وهو مطبوع وكتاب المقتفى في تراجم أمراء مصر وأعيانها رتبته على الحروف الأبجدية ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك في تاريخ مصر من سنة ٥٧٧ - ٨٤٤ وكتاب درر العصور الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، وكتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب إلى غير ذلك من كتب تاريخية نفيسة . وكان يعاصره ابن حجر^(١) الذى مر ذكره بين المحدثين ، وعنى بالتأليف فى التراجم . وله كتاب الإصابة فى تراجم الصحابة وكتاب رفع الإصر عن قضاة مصر وكتاب تهذيب التهذيب فى اثنى عشر مجلدا وكتاب لسان الميزان وكتاب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . وكل هذه الكتب مطبوعة . وله أنباء الغمر بأبناء العمر ، وعنى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بطبعه .

ويلقانا أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى^(٢) برّدى المتوفى سنة ٨٧٤ ، وله كتابه النفيس « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » يؤرخ فيه لمصر منذ دخلها عمرو بن العاص وأضاءت فيها

(٢) انظر ابن تغرى بردى فى الضوء اللامع ج ١٠ رقم ١٧٨ والشذرات ٣١٧/٧ والبدر الطالع ٣٥١/٢ ومقدمة كتابه النجوم الزاهرة طبع دار الكتب المصرية ودائرة المعارف الإسلامية فى أبى المحاسن ، وزيادة ص ٢٦ .

(١) انظر ابن حجر فى السيوطى ٣٦٣/١ والشذرات ٢٧٠/٧ والضوء اللامع ج ٢ رقم ١٠٤ والفوائد البية للكتوبى ص ١٠٠ والبدر الطالع ٨٧/١ والمؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى لمحمد مصطفى زيادة

أنوار الدين الحنيف حتى سنة ٨٧٢ وهو تاريخ على السنوات . وعادة يقدم لسنوات كل وال أوطيفة أو حاكم أو سلطان بكلمة عامة عن حكمه وما وقع فيه من أحداث مهمة وما يداخل زمنه من بعض الشؤون الاجتماعية مع الاهتمام بالنواحي العلمية . وهو فيه لا يؤرخ لمصر وحدها ، بل يذكر مع سنواتها دائما تاريخ الدول العربية ، ومع كل سنة وفيات الأمراء والعلماء والأقباء في العالم العربي ، وأيضا مع تصوير الحياة العربية في جميع مناحيها . وكانت له عقلية فذة استطاع بها أن يبرز الأحداث السياسية في وطنه والأوطان العربية مع سوق كثير من الطرائف الأدبية والاجتماعية . والكتاب مطبوع في ستة عشر مجلدا . وله مصنفات تاريخية مختلفة بجانبه أهمها كتابه المنهل الصافي وهو معجم نفيس لمشاهير الرجال الذين توفوا من سنة ٦٤٨ حتى أيامه ، ويشمل نحو ثلاثة آلاف ترجمة لمن عاشوا في مصر والشام في تلك المدة ومن عاصروهم من أهل العراق والحجاز واليمن والتتار وبلاد المغرب والأندلس من الملوك والولاة والأمراء والوزراء والقواد والعلماء والكتاب والشعراء والمؤرخين والأطباء والمهندسين والتجار وأرباب المهن وغيرهم ، وصنع له مختصرا باسم الدليل الشافي على المنهل الصافي وهو منشور في مجلدين .

وكان يعاصره ابن قطلوبغا الذي مر ذكره بين الأحناف ، وقد أشرنا هناك إلى أن له كتابا في تراجم الحنفية سماه « تاج التراجم » وهو مبثوث في هوامش هذا الجزء . وملتقى بشمس^(١) الدين السخاوي محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٩٠٢ وله كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع وهو معجم بديع لتراجم هذا القرن ، وقد عدنا إليه مرارا فيما أسلفنا من حديث ، وله ذيل على كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذه المقرئ ، وذيل آخر لكتاب أستاذه الثاني ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، وقد خصه بترجمة حياته .

ويتوج السخاوي هذا النشاط التاريخي العظيم بكتابه : « الإعلان بالتبويخ لمن ذم التاريخ » وهو محاولة رائعة لوضع علم التاريخ الإسلامي العربي . واسم الكتاب يوحي بأنه دفاع عن التاريخ ، وقد بدأ ببيان معنى كلمة التاريخ لغة واصطلاحا وبيان موضوعه وأنه الزمان والإنسان ، وأخذ يصور فوائده في التربة الدينية والخلقية والشؤون الاقتصادية وأيضا الشؤون السياسية بما يدفع إليه الحكام من العدل في الرعية والقواد من تدبير شؤون الجيش ، وبالمثل الشؤون الاجتماعية وما يتصل بها من الكمالات والنواقص في المجتمعات . ويعرض بالتفصيل لما ينبغي أن يتوفر في

والشفرات ١٥/٨ والبدر الطالع ١٨٤/٢ والنور السافر
للعنبروسي ص ١٦ والمؤرخون في مصر لزيادة ص ٣٩ .

(١) انظر في السخاوي مقدمة كتابه الضوء اللامع
وكذلك ج ٨ رقم ١ والكواكب السائرة للغزى ٥٣/١ .

المؤرخ من شروط العدالة والتحرى والتدقيق في الأخبار مما ينبغي معه رفض الإسرائيليات والأساطير. ويطلق في بيان أنه ينبغي على المؤرخ أن لا يستشعر عداوة من يعاديهم لأسباب عقيدية أو مذهبية أو شخصية ، ويصور الاختلاف العنيف بين المتصوفة وأهل السنة وكذلك بين الشيعة وخصومهم . ويُنتجى باللائمة على الذهبي في تراجمه لاستطالته على المتصوفة وكثيرين من أئمة الشافعية والحنفية والأشاعرة لمخالفتهم له في العقيدة الحنبلية . وينقل عن السبكي أنه ينبغي أن لا يؤخذ بكلامه في ذم أشعري والثناء على حنبلي . ويفيض في بيان التحرى في الروايات والرواة ويسط الحديث في نقد المؤرخين وكتابتهم التاريخية . والكتاب بالغ الروعة والنفاة :

وكان يعاصره السيوطي الذي مر ذكره بين اللغويين والنحاة والمحدثين وفقهاء الشافعية ، وله طبقات الحفاظ وهو مختصر من طبقات الحفاظ للذهبي ، وطبقات المفسرين وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، وحسن المحاضرة وهو مبحث في الهوامش ، وتاريخ الخلفاء والسلاطين من عهد أبي بكر الصديق إلى زمن السلطان قايتباي ، ومسالك الحفا في والدى المصطفى ، ولب الباب هذب فيه اللباب لابن الأثير ويشتمل على نحو تسعة آلاف اسم وكل هذه الكتب منشورة . وله وراءها مصنفات أخرى منها سيرة للإمام مالك وسيرة للنوى . ويُحتمُ زمن الماليك بآبن إياس محمد بن أحمد الذي عرضنا له بين الجغرافيين ، وله تاريخ مفصل عن مصر سماه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، وهو يتناول فيه باختصار تاريخ مصر ، حتى إذا وصل إلى زمن قايتباي (٨٧٤ - ٩٠٣ هـ) أفاض في التاريخ إفادة واسعة ، حتى ليذكر وفيات كل شهر ، ومن أهم ما كتبه وصفه لاحتلال العثمانيين مصر مينا ما أحقوه بها من دمار ونهب لكنوزها وصناعاتها وعلماها وصناعاتها المهرة ، حتى ليقول إنهم أبطلوا من مصر خمسين صنعة .

وتظل للتاريخ بقية من النشاط في زمن العثمانيين ، وأول مؤرخ نلتقى به في عهدهم ابن زنبيل الرمال أحمد بن علي المتوفى سنة ٩٦٠ وقد مر ذكره بين الجغرافيين وكان موظفا في ديوان الجيش العثماني ، وله كتاب فتح مصر أو أخذها من الجراكسة على يد السلطان سليم . ويصف معاركه مع الجراكسة في شمال الشام وفي القاهرة وعودته إلى عاصمته إستانبول . ويلقانا عبد الوهاب الشعراfi المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألمنا به في حديثنا عن المتصوفة في الفصل الماضي ، وله طبقاته الكبرى في تراجم الصوفية على مر السنين حتى زمنه ، وهي مطبوعة مرارا . ويلقانا في القرن الحادى عشر الهجرى زين الدين بن أبى السرور البكرى محمد الصديق وابنه شمس الدين محمد ولها كتب

مختلفة في العثمانيين ، وأهم منها عبد^(١) الرؤوف المناوى المتوفى سنة ١٠٣١ وله الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ، وصنف كتابا في الأحكام السلطانية وكتابا في معجم الحديث سماه كنوز الحقائق. وكان يعاصره الإسحاقى محمد بن عبد المعطى المتوفى سنة ١٠٣٢ وله لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول « وهو مطبوع . وملتقى بنور^(٢) الدين الحلبي على بن إبراهيم المولود بمصر المتوفى سنة ١٠٤٤ وله السيرة النبوية الحلبية المشهورة ، وهي مطبوعة مراراً . ويلقانا شهاب^(٣) الدين الخفاجى أحمد بن محمد المتوفى سنة ١٠٦٩ وله ربحانة الأئمة ترجم فيها لشعراء الشام والمغرب والحجاز ومصر أيام العثمانيين وهو مطبوع مرارا . وألفت كتب كثيرة في السيرة النبوية ، منها سيرة خير البرية للصبان المذكور بين النحاة والمتوفى بأخرة من زمن العثمانيين سنة ١٢٠٦ . وظلت مصر موئلا للعلماء - مؤرخين وغير مؤرخين - في زمنهم كما كانت في الأزمنة السابقة . ومن كبار المؤرخين الذين نزلوها حينئذ المقرئ المتوفى سنة ١٠٤١ مؤلف كتابي نفع الطيب وأزهار الرياض الموسوعتين الأندلسيتين المشهورتين .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

تعرب مصر

كان بمصر قبل الفتح العربى الإسلامى لغات وعناصر جنسية مختلفة . فقد كان بها إغريق منذ عهد البطلمة ، وكانت اللغة الإغريقية - منذ زمانهم وفى عهد الرومان - اللغة الرسمية للدولة . وكان بها بعض السريان فى الإسكندرية وبعض الأديرة ، وكانوا يهتمون بالطب ، ونُقل من لغتهم السريانية فيما بعد لعمر بن عبد العزيز كتاب فى الطب لأهرون القس . وكان بها رومان . وكثرتهم كانت من جنود الاحتلال الرومانى . وطبيعى أن يتكلموا لغتهم اللاتينية . وكان بها بعض اليهود وخاصة فى الإسكندرية وكانوا يتكلمون العبرية . وأهم من تلك العناصر جميعا جماهير مصر من القبط ، وهم عامة الشعب وسواده ، وكانوا يتكلمون القبطية ، وكانت لها لهجات تتفاوت تفاوت الأقاليم والبلدان المصرية البحرية والقبلية .

وبمجرد أن نزل العرب مصر لم يعد للآتينىة أى شأن ، فقد طُردت بقايا الرومان مع الجيش البيزنطى الذى غادر البلاد مدحورا مهزوما . وانحازت السريانية إلى الأديرة وأخذت فى الزوال . واضمحلت العبرية . أما اللغة الإغريقية فظلت حية فى الدواوين على ألسنة الموظفين بها وفى كتاباتهم حتى سنة ٨٧ للهجرة إذ أمر الوليد بن عبد الملك أخاه عبد الله والى مصر بنقل الدواوين من اليونانية إلى العربية^(١) . وسرعان ما هُجرت ونُبذت إلا كلمات قليلة سقطت فى العربية إما من الإغريقية مباشرة وإما منها عن طريق القبطية .

أما اللغة القبطية فظلت بعد اللغة الإغريقية منتشرة على كل لسان فى البلاد ، إذ كانت لغة

باللغتين اليونانية والعربية ، وانظر أدب مصر الإسلامية
(عصر الولاة - نشر دار الفكر العربى) للدكتور محمد كامل
حسين ص ٣٠ .

(١) خطط المقرئى ١٨١/١ وفيه أن نقل الدواوين
بمصر كان من القبطية إلى العربية وهو خطأ فقد كان من
الإغريقية إلى العربية ، كما تشهد بذلك أوراق البردى التى
نشرها جروهمان فى مواضع متفرقة وهى صادرة عن الولاى

التخاطب اليومي ، غير أنها كانت متخلقة ، إذ لم تحتفظ لنفسها بشيء من التراث الأدبي الفرعوني عند أمثال حوتب الكاتب وبنتااور الشاعر ، واستحالت لغة فقيرة مجدبة في معجمها اللغوي وفي أساليبها البيانية ، وكل ما كانت تحمله حين الفتح كتابات دينية جافة ^(١) ، ليس فيها شيء من روعة البيان ، كُتبت في العهد الروماني أو قبيل الفتح وبعده . وحتى من كان لديه حينئذ ملكة شعرية خصبة من القبط آثر أن ينظم شعره باليونانية محاكيًا لهوميروس أو لغيره من شعراء اليونان ^(٢) . ومعنى ذلك أنه لم يكن للقبطية تراث أدبي تستطيع أن تثبت به أمام العربية وتراثها الأدبي البديع . فأخذت تكسحها وتظفر بالسنة القبط عاما بعد عام .

وعاملان قويان أخذتا يعملان بسرعة على تعرب مصر . أما أولهما فدخل كثيرين من القبط في الإسلام لما رأوا من تعاليمه السامية ، ولما استقر في نفوسهم من أن من يسلم منهم يصبح له جميع حقوق العربي الفاتح فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم . يقول بتلر : « كان في ذلك باعث قوى لكثير منهم على الدخول في الإسلام لاسيما وقد طحن المقوقس الحاكم الروماني أو البيزنطي عقيدتهم (الأرثوذكسية) طحنا » ^(٣) . ومعروف أن الرومان أو قبل البيزنطيين ساموا القبط خسفا لا يطاق ، وكانوا ينهون طيبات مصر بها ، ويعتصرون خيراتها اعتصارا ، فكان الإسلام للقبط ملاذا وملجئا . وعدّوا العرب مخلصين لهم من ظلم لا يطاق ، وأخذوا يدخلون في دين الله الخفيف ، ويمضى بتلر قائلا : « وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم بعضهم من الجنود وبعضهم ممن حلّ منهم في مصر » . وكلما قطعنا شوطا زمنيا بعد الفتح تزايد عدد الداخلين من القبط في الإسلام ، يدل على ذلك تناقص ضريبة الدفاع المسماة بالجزية التي كانت تؤخذ من القبط ، وكانت لا تؤخذ إلا من القادريين على حمل السلاح ، فلا تؤخذ من شيخ ولا صبي ولا امرأة ولا راهب ، وقلما كانت تزيد على دينار ، وربما أصبحت نصف دينار ، وكان مقدارها زمن عمر بن الخطاب اثني عشر ألف دينار ، فنقصت في عهد معاوية إلى خمسة آلاف ألف ^(٤) ، مما يدل بوضوح على دخول كثيرين من القبط في الإسلام في الفترة الأولى من الفتح العربي ، بحيث لو قلنا إنه دخل نحو نصف السكان في الإسلام لم نكن مغالين . وظل عدد من

(٢) راجع أدب مصر الإسلامية ص ٤

(٣) بتلر ص ٢٤٣ .

(٤) بتلر ص ٤٠٣ وانظر البلدان لليعقوبي ص ٣٣٩ .

(١) انظر فتح العرب لمصر لبتلر ترجمة محمد فريد

أبي حنيد ص ٨٥ وموجز تاريخ القبط الملحق برسالة

ماريتا الرابعة (مراجعة مراد كامل) ص ١٥٥ وأدب مصر

الإسلامية ص ٦ .

يسلمون في ازدياد مع السنين حتى إذا ولي حيّان بن شريح لعمر بن عبد العزيز بعد نحو ثمانين عاما من الفتح رأيناه يكتب إلى عمر : إن الإسلام قد أضرب بالجزية ، حتى اضطرتت إلى اقراض عشرين ألف دينار أتممت بها عطاء أهل الديوان ، وكأنه كان يريد أن يبقى الجزية على من يسلمون من القبط ، فكتب إليه عمر كتابا شديد اللهجة قائلا : « أما بعد فقد بلغنى كتابك ، وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسولى بضررك عشرين سوطا على رأسك . فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ولم يبعثه جاييا يجمع الأموال ^(١) . » وكان كل هؤلاء المسلمين من القبط منذ عهد عمر بن الخطاب يُقبلون على حفظ بعض آيات القرآن الكريم واستظهار بعض الحديث النبوى وتعلم العربية مما عمل بوضوح على تعرب مصر .

وعامل ثان لا يقل عن هذا العامل خطرا في تعرب مصر ، هو هجرات القبائل العربية إليها بعد الفتح حين سمعت بنحسها وزروعها وثمارها . وعادة يقف المؤرخون عند هجرات كبيرة لتلك القبائل مثل هجرة القبائل القيسية في عهد هشام بن عبد الملك ومثل هجرة بنى سليم والقبائل الهلالية في عهد الدولة الفاطمية . غير أنه كان وراء هذه الهجرات سيل متدفق من هجرة القبائل وعشائرها إلى مصر . وكان كل وال في العهد الأموى يصحبه كثير من الجند . وكانت مصر قرية من الجزيرة العربية فتزلها كثيرون من قبائل الشمال وقبائل الجنوب والغرب والشرق . وتغنى كتب بيان هذه القبائل المهاجرة ومنازلها بمصر مثل كتاب البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقرئى . وطبيعى أن تختلط هذه القبائل بسكان مصر لافى مدنها فحسب . بل أيضا فى ريفهم . فقد سئلهم عمرو بن العاص أو قل سن لجنده أن يرتبعوا أو يقضوا الربيع فى ريف مصر ثم يعودوا إلى القسطنطينية . ونشأ عن هذا الاختلاط سريعا ضروب من المصاهرة بين بعض العرب والقبط عقب الفتح إذ يسمى ابن عبد الحكم طائفة من أبناء السلطيسيات القبطيات ^(٢) . من بينهم عون بن خارجة القرشى وعبد الرحمن بن معاوية بن حديج . وخارجة ومعاوية جميعا ممن حضروا الفتح . ولا بد أن اتسع ذلك فيما بعد . مع كثرة هجرة العرب . ومع اختلاطهم بالقبط . مما جعلهم يتعلمون لسانهم لكى يحسنوا التفاهم معهم . وكانت حاجتهم من وجهات كثيرة تدعو إلى ذلك ، فقد كان منهم من يقوم على جمع خراج الأرض للعرب وجمع الجزية . وكانت

تصلهم رسائل من الدواوين ويُضطرون للرد عليها ، فاضطروا لتعلم العربية ، واضطروهم إلى ذلك أيضا النظام القضائي ، فكان القبطي المدعى في قضية أو المتهم في حاجة إلى معرفة شيء من العربية . وكل ذلك عمل على ذبول القبطية ، ولكن غير صحيح أنها أخذت في الزوال من لسان القبط بعد نحو قرن من الفتح العربي كما زعم رونودوبعض الباحثين فقد ظلت حية ، يدل على ذلك أكبر الدلائل ما رواه المؤرخون من أن المأمون حين زار مصر لسنة ٢١٧ بعد الفتح بنحو قرنين كان يتزل في قرى مصر وضياعها ويستمع إلى القبط وماقد يكون لديهم من شكوى ، والتراجمة بين يديه يترجمون له مايقولونه بالقبطية^(١) . ويدور العام ويتولى الخلافة أخوه المعتصم ، فيأمر كيدر واليه على مصر أن يقطع عطاء العرب من الديوان^(٢) . وكان ذلك بدءا حقيقيا لتعرب مصر ، فإن كل من كان بها من العرب حتى جند الدولة اضطروا إلى أن يزاولوا مع القبط حياتهم ابتغاء الكسب ، فأخذوا يشاركونهم في الزراعة ، وهي مشاركة أقدم من ذلك منذ هجرة القبائل العربية الكبيرة إلى الحواف الشرقي في أواخر العصر الأموي ، غير أنهم جميعا الآن لم يعد لهم بُدٌّ من هذه المشاركة لا في الزراعة وحدها بل أيضا في التجارة والصناعة . وبذلك أصبح العرب في مصر جميعا مصريين ، يشاركون القبط في حياتهم المصرية وألوان الكسب فيها مشاركة تامة ، وكان ذلك إيذانا بأن يتم تعرب مصر نهائيا ، وأن تأخذ القبطية في الزوال والامحاء من السنة القبط في الريف والقرى وتُحل محلها العربية في جميع الألسنة .

والحق أن موجة التعرب كانت حادة وقوية منذ زمن الفتح بسبب كثرة من اعتنقوا الإسلام من القبط حتى ليقول بتلر : « إن التاريخ لم يذكر في حوادثه أمر أعجب من أن القبط انقسموا قسمين : قسم منهم امتزج كل الامتزاج بالإسلام ، والقسم الآخر بقى على دينه »^(٣) وهو يريد بامتزاج القسم الأول بالإسلام اعتناقه له ويعجب من ذلك ، ولا عجب ، لأنه يعرف السبب ، كما مرَّ بنا ، وهو سماحة الإسلام والمساواة في الحقوق بين من يسلم وبين الفاتحين وما يفرضه الدين الخفيف بين الطرفين من أخوة وثيقة . والمهم أن هذه الآلاف ممن أسلموا بل ربما الملايين ، كما يدل على ذلك نقص ضريبة الجزية مما أشرنا إليه ، أقبلوا على تعلم العربية ، حتى يحسنوا أداء شعائر الإسلام . ولم يلبث أن نبغ منهم كثيرون تُترجمُ لهم كتبُ التاريخ في الفقه والشريعة من مثل

والمقريزي ١٧٣/١ .

(١) خطط المقريزي ١٤١/١ .

(٣) بتلر ص ٤٢٥ .

(٢) الولاة والقضاة الكندي (طبعة جيست) ص ١٩٣

يزيد بن أبي حبيب الذي أقامه عمير بن عبد العزيز بأخرة من القرن الأول الهجري للفتيا بين الناس ، وقد ذكرناه في الفصل الماضي . كما ذكرنا من كبار القراء بمصر ورشا . وهو أيضا من سلالة القبط ، وتقرأ البلاد المغربية إلى اليوم بقراءته . ولا نلث أن نلتقي بعد ورش بذى النون المصري الإخميمي وله فضل تأسيس التصوف في العالم الإسلامي . وهذه الأسماء المنحدرة من سلالة من أسلم من القبط إنما هي رموز فقط . ووراءهم من لا يكاد يحصى من أفاض العلماء في كل فن .

وهذه الموجة الحادة من التعرب لم تقف عند من دخلوا في الإسلام من القبط . فقد أخذت العربية تشيع على ألسنة كثيرين من القبط أنفسهم . ويبدو أن كثيرين من الرهبان عنوا بتعلمها إذ نجد شماسا يسمى بنيامين كان يلزم الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان في أثناء ولايته أبيه على مصر يترجم له فصولا من الإنجيل ويشرحها^(١) . وحتى علماء الإسكندرية نراهم يقبلون على تعلم العربية ، حتى ليرسل خالد بن يزيد بن معاوية - كما مر بنا في الفصل الماضي - بطلب جماعة منهم لينقلوا له بعض كتب الكيمياء والطب ، وذكرنا هناك أن عمر بن عبد العزيز استقدم من الإسكندرية الطبيب ابن أبيجر ، وأسلم على يده . وربما ألف أو نقل له بعض رسائل طبية . ومر بنا أيضا أن الدوميلي ذكر كتابين في الكيمياء ألفها عالم مصري أو علماء لأوائل القرن الثالث الهجري ، وكان سعيد بن توفيل طبيب أحمد بن طولون يتقن العربية ، كما تدل على ذلك ترجمته^(٢) في طبقات ابن أبي أصيبعة . وملتقى بعده بسعيد بن البطريق بطريرك الإسكندرية (٣٢١ - ٣٢٨ هـ) وقد ذكرنا في الفصل الماضي له كتابا بالعربية في تاريخ البطارقة والخلفاء . وذكر له ابن أبي أصيبعة كتابا في الطب بالعربية . وكل تلك شواهد تؤكد أن مصر بقبطها ورهبانها وبطاركتها تعربت أو كادت في القرن الثالث الهجري ، يدل على ذلك أننا نجد ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين المتوفى في أواخر القرن الرابع الهجري يشكو شكوى مرة من ندرة اللسانين القبطي واليوناني في مصر . وليس معنى ذلك أن القبطية طردت نهائيا من مصر ومن كنائسها وأنه لم يعد بين القبط ورهبانهم من يعرفها . بل معناه أنها أخذت في الزوال وحلت محلها في ألسنة القبط العربية وخاصة في لغة التخاطب اليومي ، أما هي فأنحازت إلى الأديرة والصوامع البعيدة في الصحراء والصحيد . من ذلك ما يذكره المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ للهجرة عن نصارى

(١) انظر سير الآباء البطارقة لأسقف الأشمونين ساويرس (٢) راجع عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص ٥٤١ . ابن المقفع (بعض أجزاء منه طبع باريس) ص ٢٤ .

أديرة درنكة^(١) بالقرب من أسيوط من أنهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية . وأن لهم معرفة تامة بالرومية يريد اليونانية . على كل حال هذه أسراب قليلة حافظ عليها نصارى بعض الأديرة النائية . أما الكتلة القبطية فإنها تعربت - كما قدمنا - مبكرة منذ القرن الثالث الهجرى .

٢

كثرة الشعراء

كان نشاط الشعر بمصر محدودا زمن الأمويين . وقد يرجع ذلك إلى أن أكثر الفاتحين لمصر كانوا يمنية ، والشعر لا ينشط على السنة اليمنية نشاطه على السنة المضربين والقيسين . على أن القبائل القيسية والمضرية أخذت جموعها تنزل في مصر طوال الحقب الأموية . ولذلك ربما كان أولى من هذا التعليل لضعف الشعر بمصر حينئذ أن ماُنظم منه لم يسجله الرواة ولا اهتم أصحابه بتسجيله . ولولا ما سجله منه الكندى في كتاب الولاة والقضاة وابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر والمقرئى في الخطط لظل مجهولا لنا تماما . على أن ما سجلوه قليل ، وأكثره يتصل ببعض الأحداث التاريخية . وهو شعر في جملته متوسط ، وربما كان خير شعرائه أيام الأمويين ابن أبى زمزمة ، والشعر المنسوب إليه قليل ولا يوضح شخصيته . وحقا نشط الشعر بمصر زمن ولاية عبد العزيز بن مروان عليها (٦٥ - ٨٦ هـ) فقد كان جوادا ممدحا فانتجعه وقدم إليه مدائحه شعراء كثيرون حجازيون ونجديون وعراقيون ، منهم جميل صاحب بيشنة وكثير صاحب عزة وعبد الله بن الحجاج التغلبى وأبى بن خريم . ومن جذبه جوده ابن قيس الرقيات وله فيه مدائح بديعة^(٢) ويصف في إحدى مدائحه لعبد العزيز رحلة نيلية من القسطنطينية إلى حلوان وأهم شاعر حجازى امتدحه ولزمه نصيب وكان مُسترقا لكتانى ، وحين وفد عليه واستمع إلى مديحه أعجب به إعجابا شديدا ، وردَّ إليه حريته مما أثر في نفسه آثارا عميقة ، وأخذ يوالى نائله الغمر عليه ، وهو يوالى مديحه مديحا رائعا ، وله ترجمة في كتابنا العصر^(٣) الإسلامى . وفي كتاب الأغاني تفاصيل كثيرة بتراجم هؤلاء الشعراء الوافدين على عبد العزيز ، وما أضنى عليهم من النوال وأضفوا عليه من المديح .

كتابنا العصر الإسلامى (الطبعة التامة) ص ٢٩٩ .

(٣) العصر الإسلامى ص ٢٢٣ .

(١) الخطط ٥٦١ / ٣ .

(٢) انظر ترجمته في كتابنا الشعر والغناء في المدينة ومكة

لمصر بنى أمية (طبع دار المعارف) ص ٢٧٥ وكذلك في

ونغضى إلى زمن العباسيين وولاتهم وقضاتهم المتعاقبين على مصر . وتلقانا في كتاب الولاية والقضاة أشعار كثيرة تتصل بالأحداث أو بهجاء بعض القضاة أو بمدحهم ، وبصور ذلك إسحاق بن معاذ في مديحه للمفضل بن فضالة الذى ولى قضاء مصر سنة ١٦٨ للهجرة ، وعاد فهجاه ^(١) كما يصوره يحيى الخولاني في هجائه لعبد الرحمن العمرى الذى ولى قضاء مصر في أيام هرون الرشيد سنة ١٨٥ لكثرة ما اتخذ من الشهود ورضاه بانتساب بعض المصريين من سلالة الأقباط في العرب ، وهجاه أيضا بشغفه بالغناء وقبوله - فيما زعم - للرشوة ^(٢) . وفي هذه الأثناء نزل مصر أبو نواس الشاعر البغدادي المعروف قاصداً الخصيب بن عبد الحميد متولى الخراج ^(٣) بها حوالى سنة ١٨٠ وأخذ ينثر عليه مدائح رائعة ، ومدحته الرائية له : (أجارة بيتنا أبوك غيور) مشهورة . وأهم شعراء مصر حين زارها أبو نواس سعيد بن عُفَيْر والمعلّى الطائى ، ولسعيد أشعار في الولاية والقضاة للكندى تتصل بالأحداث والأشخاص بين سنتي ١٦٨ و ٢٠٩ . والمعلّى الطائى - بدون ريب - أشعر منه ، وأشعاره عند الكندى تتردد بين سنتي ١٩٠ و ٢١٤ وروى له ابن سعيد في قسم الفسطاط من كتاب المغرب أبياتا في هجاء القاضى العمرى يصفه فيها بالظلم وأنه يتردد إلى المغنيات لسماع الغناء ، وله مريئة رائعة لجارية له اختطفها منه القدر كانت تسمى « وَصْفاً » وفيها يقول ^(٤) :

ياموت كيف سلبتني وَصْفاً قدَّمَتها وتركتني خَلْفاً
وأخذت شِقْ النفس من بدني فقَبَرَتْهُ وتركت لي النَّصْفاً

وزاره يتصل بالولاية ومدحهم واحدا تلو الآخر ، ومن اتصل بهم ومدحهم عبد الله بن طاهر حين ولى مصر سنة ٢١١ وله يقول من مدحة طويلة ^(٥)

يا أعظم الناس عفوًا عند مقدرةٍ وأظلم الناس عند الجود للمال
لو أصبح النيلُ يجرى ماؤه ذهاباً لما أشرتَ إلى خَزَنِ بمثالٍ

ونزل مصر أبو تمام في بواكير حياته ، ويبدو أنه نزلها مرتين : مرة قاصدا عباس بن هبة الحضرى القائم على الشرطة والخراج لواليتها المطلب الخزاعى بأخرة من القرن الثانى ، ومرة ثانية

(١) الولاية والقضاة للكندى ص ٣٧٩ ، ٣٨٦ .

(٢) الكندى ص ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ - ٤٠٣ ،

٤١٣ ، ٤١٤ .

العصر العباسى الأول (الطبعة الثامنة) ص ٢٢٤ ، ٢٢٨ .

(٤) المقد فريد (طبعة لجنة التأليف) ٢٧٩/٣ .

(٥) الأغاني (طبع دار الكتب) ١٠٢/١٢ .

(٣) خطط المقرئى ١/ ٣٨٥ وانظر ترجمته في كتابنا

حين وليها عبد الله بن طاهر قاصداً له بالمدح ، وظل بها حتى سنة ٢١٤ كما تدل على ذلك أشعاره التى أنشدها الكندى فى مديح عبد الله بن طاهر وكذلك أشعاره فى رثاء عمير بن الوليد الوالى بعده . ويبدو أن صداقة انعقدت بينه وبين المعل الطائى وابنه حِطَّان . إذ نجد ينشد فى ديوان الحماسة قطعة بديعة لحِطَّان يصور فيها عاطفة الأبوة الرحيمة الشفيقة إزاء البنات والأولاد بمثل قوله ^(١) :

وإنما أولادُنا بيننا أكبادُنا تمشى على الأرضِ

وهو بجانب من التعاطف الحميم فى الأسرة المصرية سنتلقى به مرارا عند الشعراء المصريين . وأهم شاعرين مصريين فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ذو النون المصرى الإخيمى مؤسس التصوف الإسلامى المتوفى سنة ٢٤٥ وهو ينحدر من سلالة مصرية خالصة . والشاعر الثانى الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام المتوفى سنة ٢٥٨ للهجرة . وفيه يقول ياقوت : « كان شاعراً مفلحاً مدح الخلفاء والأمراء » ولحق أحمد بن طولون ولكن القدر لم يمهله . ومربنا أن أحمد بن طولون ولى إمارة مصر سنة ٢٥٤ وأسس بها الدولة الطولونية ، وقد أخذ ينهض بعمراتها فأنشأ قصراً ضخماً . كما مربنا فى غير هذا الموضع ، وألقى به ميدانا فسيحا للعب الكرة . وأنشأ خاراويه ابنه بعده بستانا كان من عجائب الدنيا لما فيه من الزهر من كل لون وشكل . ومربنا حديث مفصل عن كل هذه المنشآت . وعنى أحمد بن طولون ومثله ابنه خاراويه بالشعر والشعراء فأسبغ عليهم العطايا وأسبغ عليهما الشعراء مدائح كثيرة . ولعل ذلك ما جعل كثيرين من الشعراء يندبون دولتهم حين أزالتها العباسيون سنة ٢٩٢ للهجرة . ويذكر ابن تغرى بردى منهم إسماعيل بن أبى هاشم وسعيد القاضى الملقب بقاضى البقر ومحمد بن طشويْه وأحمد بن إسحق ^(٢) ، ويقول المقرئى : رأيت كتابا قدر اثنتى عشرة كراسة مضمنة فهرستاً بأسماء الشعراء الذين بكوا الدولة الطولونية « ويعلق على ذلك بقوله : « فإذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فكم يكون شعرهم ؟ مع أنه لا يوجد من ذلك الآن ديوان واحد » ^(٣) . وفى هذا ما يدل بوضوح على كثرة الشعراء بمصر حينئذ . وما يدل على ذلك أيضاً أن نرى الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ يؤلف كتابا فى إخبار شعراء مصر ^(٤) . فالشعراء تكاثروا بمصر منذ زمن الدولة الطولونية ، ومنذ

(٣) المخطوط ١/٦١٢

(٤) معجم الأدباء ٢/٤١٥

(١) الحماسة لأبى تمام بشرح المرزوق (طبع لجنة

التأليف) ١/٢٨٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ٣/١٤٠ وما بعدها

أخذ تعريب مصر يتكامل كما أسلفنا . ومن أهم شعراء هذه الدولة القاسم بن يحيى العَرَبِي شاعر خمارويه ، وله مدائح فيه وأشعار في وصف السفن والحيل والصيد . وللبحترى مدائح مختلفة في خمارويه وأبيه أحمد بن طولون ، ويذكر ابن تغرى بردى أنه زار مصر لمديح خمارويه ^(١) وأغلب الظن أن مديحه له ولأبيه إنما كان حين لقيهما في الشام ، فقد كانت تتبعها ، وكانا ينزلان بها كثيرا ، ومر بنا في الفصل الماضي أن خمارويه قُتل بدمشق على يد غلامه . ونزل مصر لعهد تلك الدولة الناشئ الأكبر أبو العباس المعروف بابن شرشير المتوفى بها سنة ٢٩٣ وكان من الشعراء المجيدين ، ويقول ابن خلكان إنه يُعدُّ في طبقة ابن الرومي والبحتري ونظرائهما ^(٢) ، وقد ترجمنا له في كتابنا العصر العباسي الثاني ، وأنشدنا له بعض أشعاره في جوارح الصيد وآلاته ، وله فيها أشعار بدعية كثيرة ، وأنشدنا أيضًا أشعارًا له رائعة في الغزل تملأ النفس إعجابا . وكانت له قصيدة من الشعر التعليمي تتناول فنونا من العلم في نحو أربعة آلاف بيت ، وقصيدة تاريخية في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم تبلغ نحو ألف بيت وكان له كتاب نقدى في الشعر وفضله . وبدون شك التفَّ حوله كثير من المصريين وأفادوا من شعره وعلمه ونقده بدليل أنه آثر المقام بينهم إلى مماته . ونزل مصر مثله منصور ^(٣) بن إسماعيل الفقيه المشهور بمقطعاته في الزهد . ويدور بنا الزمن دورة وتُظَلَّ مصر الدولة الإخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) ويظَلُّ الشعر ناشطا في أيامها ، ويترجم الثعالبي في كتابه اليتيمة لطائفة كبيرة من شعرائها مثل صالح بن مؤنس ومحمد بن هرون الأكمي وعبيد الله بن أبي الجوع والحسن بن محمد الشهواجي وصالح بن رشدين وابن أبي العصام وابن طباطبا الحسني الرُّسِّي ^(٤) . ونزل مصر في عهد كافور المتنبى ، كما مرَّ بنا في الفصل الماضي ، فأحدث نزوله حركة أدبية واسعة ، وكان ابن رشدين وابن أبي الجوع من كبار المعجبين به فعُتِبَا برواية شعره ، وظلا يدرسانه للطلاب بعد مبارحته مصر . ومن نزولها زمن كافور كشاجم شاعر الشام المتوفى سنة ٣٦٠ وله في أدبها شعر كثير . ونزلها أيضا في زمنه الناشئ الأصغر وامتدحه وامتدح وزيره ابن جُزْأية ^(٥) .

ويؤسس الفاطميون دولتهم بمصر وتظل نحو قرنين من الزمان ، تتحول فيها مصر إلى ما يشبه إمبراطورية ضخمة ، إذ يمتد سلطانها من شواطئ إفريقيا الشمالية إلى الفرات شرقا واليمن جنوبا ،

وقد جاءها المعز أول خلفائها الفاطميين وبرفته شاعره المؤمن بعقيدته الإسماعيلية ابن هانيّ الأندلسي، ومعه ابنه تميم الشاعر الشاب الفذ، وكان المعز نفسه شاعراً، روى ابن تغري بردي بعض شعره^(١)، وكان ابنه العزيز نزار الذي ولى الخلافة الفاطمية بعده أيضاً شاعراً^(٢) وكذلك كان الحاكم^(٣) والمستنصر^(٤)، فطبيعى أن يبعثوا نهضة شعرية في البلاد، خاصة أنهم كانوا يعنون بالدعاية لعقيدتهم الإسماعيلية، وقصدتهم الشعراء فأغدقوا عليهم الأموال والعطايا. وكان يصنع صنيعهم وزير المعز والعزيز: يعقوب بن كلّس. وكان يهوديا وأسلم. ودبر دولتها تدبيراً جيداً ومهد لها قواعد الدولة، وكان الشعراء يترددون عليه ينشدونه المدائح. ولعل مما يدل على كثرتهم حينئذ أننا نجد الذهبى وغيره من المؤرخين يقولون إنه لما توفى سنة ٣٨٠ رثاه مائة شاعر^(٥) ولابد أن من رثوا المعز وابنه العزيز كانوا أيضاً كثيرين، فضلاً عما كانوا ينثرون عليها أشعار المديح. غير أنه ينبغي أن نعود فنقيد هذا الكلام بعض التقييد لأن أهل مصر لم يكونوا راضين عن الفاطميين لعقيدتهم الإسماعيلية المفرطة في التشيع المنحرف، كما مر بنا في غير هذا الموضع. فلا يصح أن نتخذ من مديح الخلفاء الفاطميين مقياساً لمدى نشاط الشعر في مصر، فقد كان أوسع من ذلك وأكبر.

وإذا مضينا بعد المستنصر إلى عهد الخليفة الفاطمى الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) وجدنا خبراً مهما يسوقه المقرئ عنه إذ يذكر أنه بنى ببركة الحبش منظرة بها طاقات صوّر فيها جميع الشعراء، كل شاعر واسمه وبلده، وعلى جانب كل طاقة قطعة قماش كُتب عليها عند رأس كل شاعر قطعة من مدحه، وبجانب صورة كل شاعر رفّ مذهب. فلما دخل المنظرة وقرأ الأشعار أمر أن يوضع على كل رفّ صُرة محتومة فيها خمسون ديناراً، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صُرة بيده^(٦) وكان وزيره الأفضل بن بدر الجمالى شاعراً، وروى ابن ميسّر في أخبار مصر بعض شعره، وكان يجزل العطاء للشعراء. فمدحه كثيرون منهم. ويعرض أمية بن أبى الصلت في رسالته المصرية أسماء طائفة من مدّاحه وبعض مدائحهم ويلم ببعض من هجوه وهجائهم. ويسمى العباد الأصهباني في القسم المصرى من كتابه الخريدة أسماء طائفة من شعرائه. وكان الوزير طلائع بن رزّيك بأخرة من العصر الفاطمى شاعراً، والتف حوله كثير من الشعراء، وخصّهم شاعره الجليل بن الحباب بمصنف

(٤) المصدر نفسه ٨١/٥

(٥) النجوم الزاهرة ٤/ ١٥٨

(٦) الخطط ٢/ ٢٦٨

(١) النجوم الزاهرة ٤/ ٧٩

(٢) النجوم الزاهرة ٤/ ١١٣

(٣) النجوم الزاهرة ٤/ ١٩٦

نقل منه العمد الأصبهاني تراجم طائفة منهم ، ومن أهم شعرائه الرشيد بن الزبير وله كتاب في شعراء مصر في العهد الفاطمي سماه « جَنَّانُ الْجَنَانِ ورياض الأذهان » وهو مفقود ، غير أن العمد الأصبهاني انتفع بترجمه ، وبالمثل ابن سعيد في كتاب المغرب . ووفد على مصر زمان الفاطميين كثيرون من الشعراء النابئين في البلاد العربية أمثال أبي الرقعمق الأظفكي وصرع الدلاء البغدادى والتهامى المكى وابن حيّوس الدمشقى وأمية بن أبي الصلت الأندلسى المار ذكره آنفا .

ويظل نشاط الشعر المصرى في زمن الأيوبيين بل يزداد نشاطا على نحو ما يصور ذلك كتاب بدائع البدائع لعلى بن ظافر الأزدي ، وهو يسجل الأشعار التى كان ينظمها الشعراء في مجالسهم على البديهة . وتلقى هذه المجالس في كل مكان إذ يجتمع الشعراء ويتخذون موضوعا طريفا لنظم أشعار على البديهة دون بَطْء ودون أناة كأن ينظموا في بعض الأزهار إذا كان مجلسهم في حديقة أو ينظموا في فانوس السحور برمضان إذا كان مجلسهم في ليلة من لياليه ، ونحس في هذا الكتاب كأن الشعر كان على لسان . ومن الأدلة على ازدهار الشعر في أوائل زمن الأيوبيين وأواخر زمن الفاطميين أننا نجد العمد في خريدته يخص مصر بمجلدين ترجم فيها لمائة وأربعين شاعرا . وكان القاضي الفاضل في الدولة الأيوبية مثل طلائع بن رُزَيْك والأفضل بن بدر الجالى في الدولة الفاطمية ممدحا ، والتف حوله عشرات من الشعراء ، وكان بدوره شاعرا كبيرا . وأطلقت فتوح صلاح الدين وانتصاراته المدوية على الصليبيين ألسنة الشعراء في مصر وجميع البلدان العربية حتى لم يكذب شاعرنا به إلا قصده مادحا كما يقول ابن خلكان ^(١) . ونرى فاضل بن راجى الله العطار المصرى يقدم لابنه سلطان مصر بعده العزيز (٥٨٩ - ٥٩٥ هـ) كتابا في شعراء مصر لزمه سماه « الشعراء العصرية بالديار المصرية » ^(٢) . ويفد على مصر بأخرة من زمن الأيوبيين على بن سعيد الأندلسى كما يفد عليها ابن العديم علم حلب لزمه ويصحبه معه إلى بلدته ، وفيها يكتب له بين سنة ٦٤٤ و ٦٤٧ نسخة من كتابه المغرب ، وفيه قسم كبير خاص بمصر وبلدانها في الوجهين البحرى والقبلى ، وقد اشتركت في نشر القسم الخاص منه بالفسطاط وبه طائفة كبيرة من شعرائها ، ونشر القسم الخاص بالقاهرة وبه أيضا شعراء أيوبيون كثيرون .

وتعنى كتب التاريخ والتراجم بشعراء مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، وفي مقدمتها وفيات الأعيان لابن خلكان وفيات الوفيات لابن شاعر الكتبى والوافى بالوفيات للصفدى وكتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر . وكتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع

للسخاوى وكتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وكتايب السلوك والخطط للمقريزى وكتاب بدائع الزهور لابن إياس . ولا يكاد يوجد شاعر نابه زمن الأيوبيين والمماليك إلا وله ديوان مطبوع فقد طبعت دواوين القاضي الفاضل وابن سناء الملك وابن النيه والبهاء زهير وابن مطروح وابن الفارض والبوصيرى والقيراطى وابن نباتة وغيرهم ، بل طبعت دواوين لبعض الشعراء الفاطميين مثل تميم بن المعز وابن وكيع والشريف العقيلي والمؤيد الشيرازى وظافر الحداد وطلائع بن رزيك وابن قلافس .

ويظل لمصر نشاطها الشعرى زمن العثمانيين . ويؤلف شهاب الدين الخفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ كتابا فى شعراء زمنه سماه «ريحانة الألبا» ، خص مصر بالقسم الثالث منه ويذيل على الريحانة المحبى المتوفى سنة ١١١١ بكتاب سماه «نفحة الريحانة» جعل لشعراء مصر قسما كبيرا منه ، وبالمثل يذيل على نفحة الريحانة ابن معصوم المدنى المتوفى سنة ١١١٧ بكتاب سماه «سلافة العصر» ترجم فيه لطائفة من شعراء مصر لزمنه . وتلقانا تراجم مختلفة للشعراء المصريين فى شذرات الذهب للعماد وهو لا يتجاوز بتراجمه القرن العاشر . ونلتقى بطائفة منهم عند المحبى فى كتابه خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر وكذلك عند المرادى المتوفى سنة ١٢٠٦ فى كتابه «سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر» وأهم منه ومن العماد تاريخ الجبرى ، وهو يعنى فى الجزء بين الأولين بتراجم شعراء مصر حتى نهاية القرن الثانى عشر أى حتى نهاية أيام العثمانيين .

٣

شعر دورى ورباعيات وموشحات وديعيات

(١) الشعر الدورى

ذكرنا فى كتاب العصر العباسى الأول ما نفذ إليه الشعراء العباسيون من تجديد فى الأوزان ، وأهم من ذلك ما نفذوا إليه من تجديد فى القوافى أتاح لهم أن يستحدثوا اللون الشعرى المعروف باسم المزدوج . وقد خصّصوا به منظومات الشعر التعليمى ، وفيه تتحد القافية فى كل شطرين متقابلين وتتغير من بيت إلى بيت ، وكأن الوحدة فيه لم تعد البيت ، وإنما أصبحت الشطر . ويكثر بمصر كما يكثر بغيرها من الأقاليم العربية نظم المزدوجات التعليمية ، وكادوا لا يتركون علما دون أن ينظموا فيه الأراجيز المزدوجة ، وأكثروا من ذلك فى النحو واللغة والقراءات ، حتى الطب تلقانا فيه مزدوجات كثيرة . ومن أوائل ما يلقانا بمصر مزدوجة لابن وكيع التنيسى المتوفى سنة ٣٩٣

للهجرة في وصف فصول السنة ، وأهم من ذلك أن له مزدوجة مربعة بناها من أدوار ، كل دور بيتان تتحد شطورهما في القافية افتتحها بهذا الدور^(١) :

رسالةً من كَلِفٍ عَمِيدٍ حَيَاتُهُ فِي قَبْضَةِ الصَّدُودِ

بَلَّغَهُ الشَّوْقُ مَدَى الْجَهْدِ مَا فَوْقَ مَا يَلْقَاهُ مِنْ مَزِيدٍ

وتلاه بأربعة وأربعين دوراً . وقد كثر هذا النظام الدورى المكون من بيتين بيتين ، وشاع خاصة في العصر الحديث إلى اليوم .

ونظام دورى ثان هو المسمطات شاع مبكراً وعرضنا له في كتاب العصر العباسى الاول واستشهدنا له بمسطين لأبى نواس ، أحدهما من أربعة شطور والثانى من خمسة . والمسمط مشتق من السَّط وهو قِلادة تلتقى فيها عدة سلوك عند جوهرة كبيرة ، وكل دور في المسمط كأنه سلك يلتقى مع الأدوار أو الأسلاك الأخرى في قافية الشطر الأخير من الدور ، وكأنها الجوهرة التى تتجمع عندها الأسلاك . وتتحد الشطور السابقة للشطر الأخير في قافيتها وتتغير من دور إلى دور . ومن كان يشغف من المصريين بصنع المسمطات تميم ابن الخليفة المعز الفاطمى وكان شاعراً مجيداً . ومن مسمطاته مخمّس مدح به أخاه العزيز استهله على هذا النمط^(٢) :

دَمُ الْعُشَّاقِ مَطْلُولٌ وَدَيْنُ الصَّبِّ مَمْطُولٌ^(٣)

وَسَيْفُ اللَّحْظِ مَسْلُولٌ وَمُبْدَى الْحَبِّ مَعْدُولٌ

وإن لم يُصنَعْ لِلانْمِ

ويتوالى بعد هذا الدور ثلاثون دوراً على هذه الشاكلة ، فالشطور الأربعة الأولى تتحد قافيتها ، وقافية الشطر الخامس دائماً ميمية ، وهى عمود المسمط وقطبه الذى يدور عليه . وقد تدور المسمطات على شطر رابع أو على شطر سادس أو سابع ، وتسمى مربعات وسداسيات وسباعيات . وأشدّ العناد الأصهبان مسمطاً سباعياً^(٤) لشاعر إسكندرى يسمى موسى بن على . وأخذ الشعراء المصريون فى العصور المتأخرة يكثرّون من هذه المسمطات وأولعوا بتسسيط بعض القصائد المشهورة مثل بردة البوصيرى وهمزته فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم . ويخصى بروكلمان من تخميسات البردة . وتسيعاتها وتسيعاتها عشرات أكثرها لمصريين^(٥)

(٣) مطلول : مهمل ولادية له .

(١) البيتة ٣٥٦/١ .

(٤) الحريدة (قسم شعراء مصر) ١١٣/٢

(٢) ديوان تميم بن المعز لدين الله الفاطمى (طبع ونشر

(٥) بروكلمان (طبع دار المعارف) ٩١/٥

دار الكتب المصرية) ص ٣٨

وتظل المسططات وخاصة الخمسات تلقانا أيام العثمانيين في كتب التراجم من مثل ربحانة الألبا
ونفحة الربحانة وتاريخ الحيرى . ولأبى السعود الشعرانى المتوفى سنة ١٠٨٨ من محمّس نبوى (١) .

ياحادى العيس إن حَفَّتْ بك الكُربُ الحَقْوُ - هُدَيْتَ - بركب ساقه الطَّربُ
وَقُلْ لصبُّ غدا بالشوق يَتَّجِبُ . لمهبط الوحى حَقًّا تَرْحَلُ الثَّجْبُ
وعند هذا المرجى ينتهى الطلبُ

وتستمر في الخمس قافية الشطر الخامس في الشطور الخامسة من الأدوار التالية بائية على نحو
ما قدمنا في قاعدة نظمه .

(ب) الرباعيات

مرّ بنا في كتاب العصر العباسى الأول كثرة الرباعيات عند أبى نواس وأبى العتاهية . والرباعية
أربعة شطور من الشعر تؤلف بيتين ، تتحد شطورهما الأولى والثانية والرابعة في القافية ، أما الشطر
الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور في قافيته وقد لا يتحد . ولم يكن شعراء العصرين : العباسى
الأول والثانى يقصرون الرباعية على وزن معين . حتى إذا مضينا فى هذا العصر : عصر الدول
والإمارات وجدنا الفرس يكثرّون من استخدامها مع تسميتها باسم "دويت" أى بيتين .
ويشركهم شعراء العرب فى ذلك ، واستحدثوا جميعا لها وزنين هما : «فَعْلُنْ فَعْلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ
مُسْتَفْعِلُنْ» و «فَعْلُنْ مُتَفَاعِلُنْ فَعْلُنْ فَعْلُنْ» على نحو ما صورنا ذلك فى حديثنا عن الرباعيات فى
قسم العراق بالجزء الخامس من هذه السلسلة ، وما نمضى فى زمن الدولة الأيوبية حتى نجد الشعراء
يكثرّون من الرباعيات ، من مثل قول ابن مَمَّاتى (٢) :

ياغُصْنُ أراك حاملا عود أراك حاشاك إلى السَّوَاكِ يحتاج سِوَاكِ
قُلْ لى أنْهاك عن مجيئك نْهاك لو تمَّ وَفَاكِ بُسْتُ خَدَيْكِ وَفَاكِ

ومن نظموا فيها ابن النبيه وابن مطروح وابن قَزَل وغيرهم ، ويقول ابن سعيد الأندلسى الذى
زار القاهرة بأخرة من تلك الدولة كما مر بنا : «كثير من أهل القاهرة من يقول الدُّوَيْتِ»

السواك ، وفاك أى فك ، ومضى صاحبته غصنا لاستواء
قامتها . والتهى : العقل .

(١) نفحة الربحانة للمصطفى (طبعة الحلبي - تحقيق

عبد الفتاح الحلبي) ٥٣٨/٤

(٢) معجم الأدباء ١٢٤/٦ والأراك شجر يتخذ منه

أو الرباعيات . . ولم أسمع بها من شعرائها أحسن مما أنشدنيه لنفسه ابن أبي الإصبع :

قَبِلْتُ ثَنَايا كُجْجَانِ الْعَقْدِ مِنْهُ وَعَدَلْتُ عَنْ نُضَارِ الْخَدِّ
نَادَى مَاذَا؟ فَقُلْتُ: طَبْعُ عَرِي يَشْتَاقُ أَقَاحَ الرُّوضِ دُونَ الْوَرْدِ^(١)

ويُسهم في نظم الرباعيات أصحاب الشعر الصوفي وفي مقدمتهم ابن الفارض ، وله رباعيات تفوح بوجود مبرّح من مثل قوله :

رُوحِي لَكَ يَا زَائِرُ فِي اللَّيْلِ فِدَا يَا مُؤَنِّسَ وَحْشَتِي إِذَا اللَّيْلُ هَذَا
إِنْ كَانَ فِرَاقُنَا مَعَ الصَّبْحِ بَدَا لَا أَسْفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ صُبْحُ أَبَدَا

فهو يبذل روحه لمحبيه الربّاني مخلصاً صادقاً ، ويتمنى أن يظل نوره يضيء دُجَاه وأن لا يسفر عليه صباح ولا تنفلت أضواؤه من الأفق إن كانت لحظات التجلي تنقطع مع النهار وأنواره . وتظل الرباعيات حية في أيام العثانيين ، وكانت تستخدم أحيانا في المديح النبوي كقول الشهاب الخفاجي صاحب ربحانة الألباء^(٢) :

مَا جَرَّ لَظْلٌ أَحْمَدٍ أَذْيَالُ فِي الْأَرْضِ كَرَامَةً كَمَا قَالُوا
هَذَا عَجَبٌ وَيَا لَهُ مِنْ عَجَبٍ وَالنَّاسُ بَظْلُهُ جَمِيعًا قَالُوا

وهو يشير في الرباعية إلى ما قيل من أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يقع ظله على الأرض لأنه نور روحاني ، والنور لا ظل له . وفي البيتين تورية واضحة في كلمة قالوا ، فالأولى في البيتين من القول والثانية من القيلولة بمعنى استظلوا ونعموا .

(جـ) الموشحات

في أثناء ظهور الرباعيات والمسمطات أخذ يظهر شكل جديد من أشكال المنظومات الشعرية الدورية هو الموشحات ، ويذهب بعض الباحثين وخاصة من المستشرقين الإسبان إلى أنها فن أندلسي خالص نشأ من أغاني إسبانية أعجمية . ويذهب باحثون آخرون من المستشرقين غير

(١) المغرب لابن سعيّد (قسم القاهرة) ص ٣٧١ وفيه : (٢) ربحانة الألباء (نشر مكتبة الحلبي - تحقيق عبد الفتاح

الإسبان إلى أنها فن تطور عن الشعر العربي المشرق^(١) وفي رأي أنها فعلاً تطورت عن شعرنا المشرق وبالذات عن المسمطات والمخمسات ، أليست تتكون من أدوار مثلها وغاية ما في الأمر أن الشطر الأخير في دور المسمط يتعدد مع اتحاده في جميع الأدوار ، فقد يصبح شطرين متقابلين أو عدة شطور ، ويسمى قفلاً . ويشهد لذلك نفوذ ديك الجن المتوفى سنة ٢٣٥ إلى صنع منظومة موشحة^(٢) ، وكأنما اطلع عليها بعده بعض شعراء الأندلس ، وأخذوا في محاكاتها وانسعوا في هذه المحاكاة ، بحيث أخذت الموشحة عندهم صوراً كثيرة ، حتى لقد ينظمونها من أوزان مهملة ، بل حتى أصبحت كأنها محتكرة لهم ، وكأنهم هم الذين صاغوها وأهدوها إلى الشعر العربي وشعرائه في أقاليمه المختلفة . ومعروف أن الموشحة تتكون من أدوار أو أغصان كما أشرنا إلى ذلك ، ومن شطور تسمى قُفُلاً ، ومن خُرْجَة وتطلق على القفل الأخير . وتتحد شطور الأقفال دائماً في قوافيها المتقابلة في الموشح كله ، بينما تختلف قوافي الشطور في الأغصان من غصن إلى غصن مثلها في ذلك مثل أدوار المسمطات .

وقد أخذ شعراء المشرق العربي في محاكاة نماذجها الأندلسية منذ القرن السادس الهجري على الأقل ، ومن أقدم صور هذه المحاكاة بمصر موشحة تقف بين النبط الأندلسي وبين المسمط المشرق المشرق ، وهي لعل بن عيَّاد الإيمكندري المتوفى سنة ٥٢٦ ، فقد روى له العباد موشحة على هذا النمط^(٣) .

يا مَنْ أَلُوذُ بِظِلِّهِ فِي كُلِّ خَطْبٍ مَعْضِلٍ
لَا ثُلْتُ مِنْ أَصْحَابِهِ مَتَمَسِّكًا يَدَ السَّلَامِ
أَمَّا مِنْ كُلِّ بَاسٍ فِي الْحَوَادِثِ وَالصَّرُوفِ

وتتردد قافية الشطرين الأخيرين مع كل شطرين يعقبان الأدوار التالية ، وبذلك اتخذ منها ابن عياد قفلاً لموشحة على شاكلة الأندلسيين إذ يوحّدون قوافي الشطور في الأقفال ، بينما ينوعون في قوافي الأدوار كما ينوع أصحاب المسمّطات . وعادة يبتدئ الوشّاح الأندلسي بالقفل ويتلوه بالدور ، وقد يبتدئ بالدور ويتلوه بالقفل كما في هذه الموشحة . ولظافر الحداد مواطن ابن عياد

الأول ص ١٩٩ وقسم الشام من هذا الكتاب ص ٦١٤ .

(٣) الخريدة للصاد (قسم شعراء مصر - طبع لجنة

التأليف والترجمة والنشر) ٤٤/٢

(١) فن التوشيح للدكتور مصطفى عوض الكريم (طبع

ونشر دار الثقافة - بيروت) ص ١٠٨ وما بعدها .

(٢) انظر في هذه الموشحة المبكرة كتابنا العصر العباسي

المتوفى سنة ٥٢٩ موشحة طريقة يحتفظ بها ديوانه^(١).

وكان طبيعياً أن يتعرف المشارقة على الموشحات الأندلسية لكثرة الوافدين عليهم في الإسكندرية والقاهرة من الأندلس ، إما للحج وإما لطلب العلم فكانوا ينشدونهم موشحات مختلفة ، ومن لا نشك في أنه كان يكثر من إنشادها للمصريين : إسكندريين وقاهريين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز ، وفيه يقول ابن سعيد : « كان منشئاً للمنشور والمنظوم » وأقام بمصر عشرين سنة ، وصنّف في الأملحان وعنه أخذها أهل إفريقية^(٢) ، ولا بد أنها كانت مصحوبة بموشحات أنشدها لهم ، وقد توفى سنة ٥٢٩ . ونزل مصر اليسع بن عيسى بن اليسع بعده في عهد صلاح الدين وألف باسمه كتابه المغرب في أخبار محاسن المغرب^(٣) ، ولا بد أن يكون قد ضمنه بعض الموشحات . ونزلها أيضاً حكيم الزمان عبد النعم الجلياني الأندلسي^(٤) ، ومدح صلاح الدين الأيوبي مدائح كثيرة ، وكان له عشرة دواوين ثامنها يشتمل على موشحاته . ومثربنا ذكر معجم السلفي محدث الإسكندرية وقد سجّل فيه لبعض من تلمذوا عليه من الأندلسيين بعض ما أنشدهوه من الموشحات الأندلسية .

وهذه كلها إنما هي إشارات قاصرة إلى ما حدث في القرن السادس الهجري بمصر من انتشار الموشحات بها انتشاراً هياً لظهور وشاح كبير فيها هو ابن سناء الملك المولود سنة ٥٥٠ ومحدثنا العباد الأصهباني عن لقائه به سنة ٥٧١ ويشيد بشاعريته وينشد موشحة مبكرة له^(٥) . وكأنما اختارت المقادير ابن سناء الملك لا ليكون وشاحاً مصرياً ممتازاً ، بل لما هو أبعد من ذلك : ليضع عروض الموشحات ونظامها كما وضع الخليل بن أحمد عروض الشعر العربي ونظامه ، على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس : « دار الطراز » الذي ألفه في عهد السلطان الأفضل^(٦) بن صلاح الدين (٥٩٥-٥٩٦ هـ) وقد استهله بمبحث واسع في الموشحات وأقفاها وعدد شطورها وأنها تتردد في الموشح ست مرات في التام وخمس مرات في الأقرع^(٧) وقد تصل الأقفال إلى أحد عشر جزءاً^(٨) . ويقول عن الخرجة ، وهي القفل الأخير في الموشحة ، هي « أبراز الموشح وملحه وسكره

(١) ديوان ظافر الحداد ابن الإسكندرية (طبع مكتبة

مصر) ص ٣٣٧ .

(٢) المغرب (القسم الأندلسي - طبع دار المعارف)

١/٢٦٦ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ٢/٨٨ .

(٤) قوافل الوفيات ٢/٣٥ وطبقات الأطباء لابن

أبي أصيبعة ص ٦٣٠ .

(٥) الخريدة (قسم شعراء مصر) ١/٦٧ وما بعدها .

(٦) راجع مجلة الثقافة العدد ٦٢٨ سنة ١٩٥٦ .

(٧) دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك

تحقيق الدكتور جودة الركابي (طبع دمشق) ص ٢٦ .

(٨) انظر دار الطراز ص ٩٧ .

ومسكه وعنبره» ويقول إنه ينبغي أن يسبق إليها خاطر الوشاح قبل أن يتقيد بوزن وقافية معينة^(١)، ويقول أيضًا إن اللحن يستحسن فيها كما يستحسن أن تكون ماجة. ويلاحظ أن الموشحات من حيث الوزن قسمان: قسم يجرى على أوزان العرب وأشعارهم، وقسم لا وزن له^(٢)، إنما يزنه الإيقاع. والقسم الأول هو الأكثر وهو الذى دار على ألسنة العلماء والشعراء. واختار ابن سناء الملك فى كتابه للأندلسيين أربعًا وثلاثين موشحة، واختار لنفسه خمسًا وثلاثين، وله وراءها موشحات كثيرة إذ أنشد له أحمد السخاوى فى كتابه: «سجع الوزق المنتجة فى جمع الموشحات المنتجة» أربعًا وثلاثين موشحة سوى ما أنشده النواجى فى كتابه: «عقود اللآل فى الموشحات والأزجال».

ومعروف مدى ما وفره الوشاحون الأندلسيون لموشحاتهم من جمال الجرس والإيقاع متخذين لذلك وسيلتين مهمتين هما صفاء الألفاظ وعذوبتها ورشاقتها، وقصر الشطور، حتى تصبح نغما خالصا يلدّ الأسعاج والقلوب، وعرف ابن سناء الملك كيف يمتلك هاتين الوسيلتين، فإذا موشحاته لا تزل روعة موسيقية عن موشحات الأندلسيين من مثل قوله فى مطلع موشحة رواها ابن سعيد^(٣):

البَدْرُ يَحْكِيكَ	لولا تَشْنِيكَ
وأنت جُنَّةٌ ^(٤) الصديق	لولا تَجْنِيكَ
	لم يلق نُعْمِي ونعيم
	حملتني كلَّ عظيم
	وإن لى ذنبا قديم
بالضَّمِّ أجنيك	للصَّنْدُرِ أدنيك
لأن لى قلبًا رقيق ^(٥)	عساه يُعْديك

والكلمات تطير بخفة عن الفم لخلوة جرسها وعذوبتها فى النطق والسمع وجمال وقعها فى النفوس والأفئدة، وموشحاته فى دار الطراز أنغام حلوة وصور بديعة، على نمط هذا الدور أو الغصن فى إحدى موشحاته:

وَجْهُكَ يا أَحْسَنَ البَرِّيَّةِ قد جمع المِلْحَ والمِلاحَةَ

(٤) جُنَّة: وقاية
(٥) فى الأصل رقيقا

(١) دار الطراز ص ٣٢
(٢) دار الطراز ص ٣٣
(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٣٦٩

نرجسةً فيه مستحيه ووردةً تحتها أقاحه
والخالُ في الوجنة المضيئة في الماء لا يُحسن السباحه

وقد جمع في الدور أربع صورة للملاحه ، فالعين ملأى بالخضر والحياه ، والوجنة ورد ناضر ، تحتها أقحوان الثغر المتلألئ والخال في الوجنة غارق في ماء النضارة والحسن لا يريم . وبذلك أعد ابن سناء الملك المصريين بعده لكي يبرعوا براعة فائقة في نظم الموشحات ، ويتوفى سنة ٦٠٨ وكان يعاصره مظفر ^(١) الأحمى العيلاني المتوفى سنة ٦٢٣ صاحب الموشحة المشهورة :

كَلِّىْ يَأْسُحُبُ تَيْجَانُ الرُّبَى بِالْحُلَى
وَأَجْعَلِى سِوَارَهَا مُنْعَطَفَ الْجَدُولِ

والموشحة تفيض بكنوس الفرحة بالخمر والحديث عن ليلة الوصل والبهجة بالمحبيب، بهجة مابعدا بهجة. وكان يعاصره ابن النبيه المتوفى سنة ٦١٩ وفي ديوانه موشحة بديعة يقول فيها ^(٢) :

قَلْ لِمَنْ يَلُومُ فِي مُهْفَهَفٍ أَسْمَرٍ
ثَغْرِهِ النَّظِيمُ مُسْكِرٌ وَسُكَّرٌ

أَوْ لَوْ سَقَانِي أَطْفَأْتُ نِيرَانِي دُرَّةً ثَمِينَةً فِي الْيَاقُوتِ مَكْنُونَةً

وواضح تعبيره عن رضاب الثغر بأنه يطفى نيران قلبه وأن ياقوت الشفتين يحمل درة بل درراً ثمينة وهى كناية بديعة. ونمضى إلى زمن المماليك فنلتقى بكثير من الوشاحين ، وفى مقدمتهم العزازى وابن الوكيل. وظلت الموشحات مزدهرة فى أيام المماليك على لسان ابن نباتة وغيره ^(٣) وشاع استخدامها على لسان المتصوفة فى أذكاءهم، ولعلى بن محمد بن وفا شيخ الطريقة الوفائية فى زمنه المتوفى سنة ٨٠٧ ديوان موشحات صوفية لا يزال مخطوطاً ، وأُنشد منه السخاوى فى سجع الورق المذكور آنفاً خمسا وخمسين موشحة ونخص كلاً من العزازى وابن الوكيل بكلمة .

العزازى ^(٤)

هو شهاب الدين العزازى أحمد بن عبد الملك وكان تاجراً بقيسارية جهاركس فى القاهرة

والأزجال للنواجى بتحقيق عبد اللطيف الشهاوى ولابن نباتة فيه تسع موشحات وللمجد الدين بن مكانس أربع موشحات .

(٤) انظر فى العزازى المنهل الصافى ١/٣٤٠ وما بعدها

والنجوم الزاهرة ٩/٢١٤ وفوات الوفيات لابن شاكركنى

٨٨/١ والوافى ٧/١٥٢ والدرر لابن حجر ١/٢٠٥ .

(١) انظر فى مظفر وموشحه المغرب (قسم القاهرة) ص

٣٤٨ ، ٣٧٠ وراجع فيه معجم الادباء ١٩/١٤٨ وفوات

الوفيات ١١١/٢ ونكت الحميان ٢٩٠ والشذرات ٥/١١٠

(٢) ديوان ابن النبيه (طبعة عبد الله فكرى) ص ٥٤ .

(٣) انظر فهرس كتاب عقود اللآل فى الموشحات

قرب حى الغوريّة الحالى ويقول ابن تغرى بردى : كان أديباً مطبوعاً ظريفاً له النظم الرائق الفائق ولا سيما نظمته للموشحات فإنه غاية في ذلك . ويقول ابن حجر : له في الموشحات يد طويلة توفى سنة ٧١٠ وله ثلاث وثمانون سنة . وفي دار الكتب المصرية نسختان من ديوانه غير تامتين ، والديوان في خمسة أقسام : في مدائح الرسول وأهل بيته وفي مدائح الأمراء والوزراء والكتاب والقضاة ، وفي النكت والملح والألغاز والأحاجي ، وفي الغزل والتهاى والتعازي ، وفيما وقع بين أدباء عصره وشعره زمانه ، وفي غرائب الأوزان من الخمسات والموشحات . وفي مكتبة جامعة القاهرة مصوّرة منتخبة من ديوانه بخط الصفدى . ويذكر ابن تغرى بردى بعض موشحاته ، وبالمثل يذكر طائفة منها ابن شاعر في فوات الوفيات والنواحي في عقود اللآل في الموشحات والأزجال ، ومن أطرفها موشحة موزعة بين النشوة بالخمر وبالحب وبجمال الطبيعة استلها بقوله :

يا ليلّة الوصل وكأس العُقار دون استنار علّمتنى كيف خلّع العذار^(١)

اغتم اللذات قبل الذهاب

وجرّ أذيال الصبا والشباب

واشرب فقد طابت كنوس الشراب

واختتمها بقوله :

يا ليلّة أنعم فيها وزار شمس النهار حيّيت من بين الليالى القصار

وله في مطلع موشحة بديعة :

ماسلت الأهينُ الفواترُ من غمّد أجفانها الصّفاح^(٢)

إلا أسالت دما المحاجرُ من غير حربٍ ولا كفاح^(٣)

ومن طريف موشحاته موشحة بناها من رباعيات ، كما يقول ابن شاعر ، وهى في الحقيقة خميس رباعى ، وهو يدل كما تدل موشحاته على غزارة ينبوع الشعر عنده ، وأنه كان يتدفق على لسانه تدفقاً ، مع الحلاوة وحسن الألفاظ وجمال النغم والإيقاع .

(٣) المحاجر : ما استدار حول العيون وأراد بها العيون نفسها .

(١) خلّع العذار : كتابة عن الانهالك في الهجون

(٢) الصّفاح : السيوف

ابن الوكيل^(١)

هو محمد بن عمر بن المرحل المعروف بابن الوكيل الدمياطى ، ولد بدمياط سنة ٦٦٥ وانتقل مع أبيه إلى دمشق ، ونشأ بها ، وتولى التدريس فى غير مدرسة هناك ، ثم انتقل إلى القاهرة ، وأُسند إليه التدريس بها فى زاوية الشافعى والمشهد الحسينى والمدرسة الناصرية إلى أن توفى سنة ٧١٦ . ويقول السبكى : كان إماما كبيرا بارعا فى مشهد الشافعى يضرب به المثل فى البحث نظارًا مفرط الذكاء عجيب الحافظة . وبجانب ما كان يحفظ من كتب الفقه والحديث النبوى كان يحفظ مقامات الحريرى وديوان المتنبى ، ويشيد مترجموه بما كان له من شعر ورباعيات وموشحات . وكانت له مشاركة فى الشعر الشعبى : الزجل والبلايق التى تدور فى المزل . ومن قوله فى إحدى موشحاته :

ما أّحجَلَ قَدَّه غصونَ البانِ بين الورقِ
إلا وسبًا المها مع الفِزلاني حُسْنُ الحَدِيقِ

الصحة والسقام فى مقلته

والجئة والجحيم فى وجته

ما أبدع معنى لاسخ فى صورته

كالورد حواه ناعم الرّيحانِ بالطلّ سقى
والقدّ يميل ميلة الأغصانِ للسمعتنى

أحيا وأموت فى هواه كمدًا

من مات جوى فى حبه قد سعدا

يا عاذل لا أترك وجدى أبدا

وقد استخدم ابن الوكيل فى هذه الموشحة وزن الرباعيات ، ليدل على قدرته فى ضبط النظم واللحن ، وأنه لا يقل عن المحار الحلبي معاصره الذى حاكاه فيها وفى وزنها إبداعًا واقتانًا .

المحاضرة ٤١٩/١ والبداية والنهاية ٨٠/١٤ وطبقات الشافعية للسبكى ٢٥٣/٩ والبدر الطالع ٢٣٣/٢ وعقود اللآل فى الموشحات والأزجال للنواجى (انظر الفهرس) .

(١) راجع ترجمة ابن الوكيل فى الفوات ٥٠٠/٢ والوفاء بالوفيات ٢٦٤/٤ والنجوم الزاهرة ٢٣٣/٩ وشذرات الذهب ٤٠/٦ والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٤/٤ وحسن

وله موشحة جعل الشطور الثانية من نونية ابن زيدون المشهورة مضمنة في مطلعها وأقفاها كقوله في المطلع :

غدا مُنَادِينَا مَحْكَمًا فِينَا يَقْضَى عَلَيْنَا الْأُمَى لَوْلَا تَأْسِينَا
ويسرى التكلف إلى الموشحات بعد ابن الوكيل والعزazy ، غير أنها تظل حية وناشطة حتى أيام العثمانيين على نحو ما يلاحظ في كتب التراجم عند الشهاب الحفاجي وغيره ، وتلقانا عند المحبي موشحة بديعة لزين العابدين البكري المتوفى سنة ١١٠٧ للهجرة عارض بها موشحة لابن سناء الملك ، ومن قوله فيها ^(١) :

اعجبوا من حُسْنِ تلويح العيون تلکمُ حانَه
بِأَبَى مُرِّ الحَفَا بِالْدَّرِّ حَالِ
قَدْرُهُ قَدْ حَطَّ مِنْ قَدْرِ العَوَالِ
مطلبي من ثَغْرِهِ كَثُرَ اللَّالِ

والموشح يسيل عذوبة ، وأنشد الجبرقي لقاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ موشحاً ^(٢) عارض به موشحاً مشهوراً للسان الدين بن الخطيب .

البيديات

إذا تركنا الموشحات إلى البيديات وَجَدْنَاهَا قَدِيمَةً فِي الشعر المصري ، على الأقل منذ زار مصر أبو نواس وأبو تمام ، واستمع شعراؤها إلى ما في أشعارهما من طرائف البديع ومحسناته ، ولم يكن الشعراء المصريون يكثرُونَ من استخدام تلك المحسنات والطرائف ، إذ كانوا يستخدمونها من حين إلى حين دون إفراط ، وظل ذلك دأبهم في الحقب الأولى من زمن الدولة الفاطمية على نحو ما يلاحظ في شعر ابن وكيع التنيسي المتوفى سنة ٣٩٢ . وإذا مضينا إلى القرن الخامس لقينا أهم شعرائه الشريف العقيلي شاعر الخمر والطبيعة ، وشعره زاهر بالتشبيهات والاستعارات والجناس والطباق والمشاكلة ، ويتصنع في قلة لاستظهار بعض المصطلحات العلمية ، ولكن

(١) نفحة الرمانة ٥١٩/٤ والكتانة : جبة السهام أشار

النساء في الاستواء والاعتدال .

(٢) تاريخ الجبرقي ١٩٨/١

بها إلى سهام العيون . والعوالى : الرماح وتشبه بها قنود

ذلك كله لا يثقل عنده ولا نحس فيه بتكلف ، ونجد عنده التورية التي اشتهر بها المصريون في مثل قوله ^(١) :

وشاعِرٍ شعره فنونٌ نكلٌ يتيّ له طَنِينٌ
تُسخنُ عينَ العدوِّ منه قصائدٌ كلّها عيونٌ

فقد ورى في كلمة عيون المقابلة لعين العدو وهو إنما يقصد بها أبيات الشاعر النفيسة . وللتورية أمثلة أخرى في شعره ذكرناها في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » ، ونجدها كثيرة عند الشعراء بعده ، مما يدل على أن ظهورها بمصر لم يتأخر حتى زمن القاضي الفاضل وأيام الدولة الأيوبية كما ظن ذلك صاحب الخزانة ^(٢) . ومن يرجع إلى القسم المصرى من كتاب الخريدة للعماد الأصمباني وما ترجم فيه من شعراء مصر في القرن السادس الهجرى يلاحظ شيوع محسنات البديع على ألسنة شعراء القاهرة والإسكندرية ، كقول ابن قلاؤس في وصف مغن ^(٣) :

لا أشربُ الرّاحَ إلا ما بين شادٍ وشادنٍ
قُسمٌ ياندىمى فأنصتِ والليلَ داجٍ لداجينِ
طاوُغٌ على القُصْفِ والعزّ في كلّ حاسٍ مُحاسِنِ

والقطعة جميعها على هذا النمط من الجناس بين القافية والكلمة السابقة لها ، فشادٍ أى مغن تسبق كلمة شادن أى غزال ، وكلمة داج أى مظلم تسبق كلمة داجن أى مغن ، وكلمة حاسٍ أى للشراب تسبق كلمة محاسن . وهو بذلك يصعب المرور إلى جناسه . وكانوا يكثرّون في أشعارهم من الطباق ولهم فيه صور كثيرة طريفة كقول ابن هانئ الصغير في وصف سيف ^(٤) :

ومهنّدٍ سَبَّحَ الفِرْنَدُ بِصَفْحِهِ وَطَفَا فَيَحْسَبُ مُعْمَدًا مَسْلُولا

والفرند ما يرى في صفحة السيف مما يشبه ذيب الحمل أو الغبار . ومن حين إلى حين نرى عندهم الاقتباس من الذكر الحكيم وتضمنين بعض الشطور للجاهليين والإسلاميين والعباسيين كما

نرى التورية معانقة لجناس تام في قول ابن قادوس ^(١) :

لام العواذل مفرماً في حبّ مُلهيةً وقينةً
ولو أنّهم رأينَ تأثيرَ الغرام به وقينةً

والتورية والجناس واضحان في كلمة « وقينه » المكررة في نهاية البيتين ، والواو في الأولى عاطفة وفي الثانية من أصل الفعل : « وقى » وهي موضع التورية . وبجانب ذلك نجد عند الشعراء لعهد الفاطميين عناية بمراعاة النظر في الصور والكلمات ، واستخدموا في قلة شديدة مصطلحات العلوم وتسمّى باسم التوجيه ، وحتى الألفاظ نجدها مبثوثة في أشعارهم ، ويذكر العماد شاعراً من بينهم تسمى ابن مجبر كان يعنى بصنع الألفاظ فيما يبدو عناية شديدة ^(٢) .

ويحمل لواء هذه البديعيات في زمن الدولة الأيوبية القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الذي نشأ وتربّى في الدواوين الفاطمية على أمثال ابن قادوس وغيره من الشعراء والكتاب الفاطميين . ويجعله ابن حِبّة الحموى والصفدى إمام الشعراء في زمنه وبعد زمنه ^(٣) في استخدام المحسنات البديعية من تورية وغير تورية ، ويقولان إنه سار في دربه على منواله ونهجه ابن سناء الملك ومن خلفوه من شعراء الدولتين الأيوبية والمملوكية أمثال الجزار المتوفى سنة ٦٧٢ وناصر الدين ابن النقيب المتوفى سنة ٦٨٧ وعجى الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ والوراق المتوفى سنة ٦٩٥ وابن دانيال المتوفى سنة ٧١٠ ونصير الدين الحماص المتوفى سنة ٧١٢ . ونستطيع أن نضم إلى من سميّاهم من شعراء القرن السابع من جاءوا بعدهم طوال هذا العصر من أمثال ابن نباتة المتوفى سنة ٧٦٨ والقيراطي المتوفى سنة ٧٨١ وابن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ . وحتى شعراء الصوفية من أمثال ابن الفارض نجدهم يستخدمون هذه المحسنات بكثرة . وجعلها النقاد القطب الذي تدور عليه كتاباتهم في فن الشعر ، يتقدمهم في ذلك ابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة ٦٥٤ على نحو ما هو معروف عنه في كتابه « تحرير التجبير » .

وتصبح البديعيات المقياس أو المقاييس الدقيقة لإبداع الشعراء . وتتضمنها قصائد في مديح الرسول ﷺ تسمى البديعيات وتشرح شروحا مطولة ، ومن أهم هذه القصائد قصيدة للسيوطي أو بديعية سماها « نظم البديع في مدح خير شفيح » وله عليها شرح ، وكانت تعاصره عائشة

(٣) انظر خزنة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق)

الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٢ وقد جعلت بديعيتها في مائة وثلاثين بيتا . ويلاحظ أن استخدام الشعراء المصريين طوال هذا العصر للمحسنات لم يسمح ولم يثقل ولم يتحول إلى صور من التكلف المقيت حتى أيام العثمانيين ، وكأنما حالت العذوبة التي تنطوى عليها نفوسهم وأمزجتهم والتي تجري بها مياه النيل في أرضهم ، بين كل ذلك وبين ما استخدموه من محسنات البديع وتلاوينه . وقد بما لاحظ ذلك ابن سعيد صاحب كتاب المغرب حين نزل القسطنطينية والقاهرة واختلط بشعرائها ، إذ لم يلبث أن أنشد^(١) :

أيا ساكني مصرِ غداً الثَّيْلُ جارِكم فأكسبكم تلك الحلاوة في الشعرِ
وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقي سوى أثر يبدو على النظم والأثرِ
وسنذكر نفثات من آثار هذا السحر وما طوى فيه من حلاوة وعذوبة في تراجم الشعراء لتلك الأزمنة

٤

شعراء المديح

يكتظ الشعر العربي في مصر بالمديح منذ زمن الولاة المبكر أيام الدولة الأموية ، وخاصة في ولاية عبد العزيز بن مروان إذ كان جواداً ممدحاً ، فانتجعه شعراء الحجاز ونجد والعراق ، ويظل شعر المديح يجري على ألسنة الشعراء أيام الدولة العباسية ، ويزور أبو نواس مصر لمدح والى الخراج بها : الخصب ، ويضفي عليه مدائح رائعة ، ولا يلبث أن يزورها أبو تمام ، ويمدح عياش بن هبة الحضرمي القائم على الشرطة والخراج كما مربنا ، كما يمدح واليها عبد الله بن طاهر . ومن أهم شعراء مصر حينئذ المعلّى الطائي ، وأنشدنا في غير هذا الموضع بعض مديحه في عبد الله بن طاهر والى مصر للمأمون . ويظّلها عهد الدولة الطولونية ويتبارى شعراؤها في مديح أحمد بن طولون . وأهمهم في بواكير حكمه لمصر الحسن^(٢) بن عبد السلام المشهور بلقبه الجمل الأكبر المتوفى سنة ٢٥٨ ، وله من قصيدة في مديحه :

والنجوم الزاهرة ٣/٣٠ وله في كتاب الولاة والقضاة للكتاني أشعار متفرقة .

(١) فوات الوفيات ١/٢٣٦
(٢) انظر في ترجمة الجمل الأكبر معجم الأدباء لياقوت
١٢١/١٠ والمغرب لابن سعيد (قسم القسطنطينية) ص ٢٧٠

له يَدُ كَمْ خَلَّدَتْ مِنْ يَدِ سَحَابَةٍ عَمَّتْ بِأَنْوَانِهَا
انْظُرْ إِلَى مِصْرٍ بِسُلْطَانِهِ تَرَى الْهَدْيَ فَاضَ بِأَرْجَانِهَا

ومن شعراء الطولونيين المرمي^(١) القاسم بن يحيى المنسوب إلى جده أبي مريم السلولى أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو شاعر أبي الجيـش خـارويه اختصَّ به وأُسيغ عليه كثيراً من نواله ، وفيه يقول :

يقولون لى ما بالُ رَحْلِكَ دائماً بمِصْرٍ وَأَنْنى لَسْتُ عَنْ غَيْرِهَا أَرْضَى
وكيف رحيلى عن بلادٍ غدا بها أَبُو الْجَيْشِ وَالنَّيْلُ الَّذِى مَلَأَ الْأَرْضَا

وتوفى المرمي سنة ٣١٦ .

وكان الشعراء قد أخذوا يتكاثرون بالفسطاط منذ الدولة الطولونية كما مرَّ بنا . وأطرد تكاثرهم في عهد الدولة الإخشيدية ، وفي أيامها بدأ عصر الدول والإمارات الذى تؤرخ له في هذا الجزء وكان الإخشيد قد ملك مصر والشام ونغور الروم وخطب له بالحجاز واليمن . ولذلك يقول شاعره سعيد^(٢) بن فاخر من قصيدة يمدحه بها :

يا مَلِكَ الشَّامِ وَمِصْرَ إِلَى أَقْصَى نَغُورِ الرُّومِ وَالشَّامِ
وَالْيَمَنِ الْأَبْعَدِ لَاؤَالِ [مُدَّ كُكُكُمْ] رَفِيعًا قَادِرًا حَامِي

ويتوفى الإخشيد سنة ٣٣٤ بعد أن أوصى لمولاه أبي المسك كافور الحبشى بتدبير الدولة لابنيه : أو نوحور وعلى ، ويتوفى أولهما سنة ٣٤٩ ويخلفه أخوه على ويتوفى سنة ٣٥٤ وقيل سنة ٣٥٥ . ويستقل كافور بالملك حتى وفاته سنة ٣٥٧ وكان ساعده الأيمن في حكمه وزيره جعفر بن الفرات المعروف باسم ابن جرتوبة . وكان كافور ممدحا ، فقصده الشعراء من كل فجٍّ وفي مقدمتهم كُشاجم شاعر الشام ، والمتنبى إمام الشعراء لزمه وبعد زمنه . وكان أول ما أنشده يائته ، وفيها يقول :

(٢) انظر سعيدا (قاصى البقر) في المغرب (قسم الفسطاط) ص ١٩٧ و ٢٧٢ ولعله هو نفسه سعيد القاصى المذكور في النجوم الزاهرة ١٤١/٣ بين من رثوا الدولة الطولونية

(١) راجع في المرمي للمغرب (قسم الفسطاط) ص ١٣٦، ٢٧١ وانظر أشعارا متفرقة له في الولاية والقضاة للكشكى في أخبار خارويه وفي مقالات عنه بمجلة الحلة : العدد ١٤٢ ومجلة الكتب العراقية سنة ١٩٧٤ في عددي آب وتشرين الثغنى

قواصدُ كافورٍ تواركُ غيره وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَّ السَّوَابِيَا
وغيرَ كثيرٍ أَنْ يَزُورَكَ راجِلٌ فِيرْجِعَ مَلَكًا لِلْعِرَاقِينَ وَالْيَا

وظل المتنبي نحو أربع سنوات ينتظر أن يوليه كافور على بعض بلدان الشام التابعة لمصر . حتى إذا نفذ صبره ارتحل إلى العراق ليليل وهجاء هجاء مرا .

وتستقبل مصر سريعاً عهد الدولة الفاطمية ، إذ ينزلها جوهر الصقلي ويؤسس بها القاهرة ومسجدها العظيم الأزهر ويتبعه المعز الخليفة الفاطمي ، وتصبح القاهرة حاضرة لدولته الضخمة ودولة أبنائه وأحفاده من بعده ولا يلبث المعز أن يتوفى سنة ٣٦٥ ويخلفه ابنه العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) ويتخذ يعقوب بن كلّس وزيراً له ، وكانا يجزلان العطاء للشعراء . مما جعل ألسنتهم تلهج بمدحهما ، على شاكلة قول عبيد الله بن أبي الجوع في إحدى مدائحه ^(١) :

لولا العزيزُ وآراءُ الوزيرِ معا تَحْيِيَّتُنَا خطوبُ تَشْعَبُ الأُمَمَا

ولعم بن المعز في أبيه وأخيه العزيز مدائح طنانة ، ونزل القاهرة في عهد المعز أبو الرّقعصق الأنطاكي : أحمد بن محمد ، وأقام بها زماناً طويلاً حتى توفى سنة ٣٩٩ ويقول ابن خلّكان : « معظم شعره في ملوك مصر ورؤسائها : مدح بها المعز وولده العزيز والحاكم بن العزيز والقائد جوهر والوزير يعقوب بن كلّس وغيرهم من أعيانها » ^(٢) وينشد له قصيدة في مدح ابن كلّس . وكان محمد بن القاسم بن عاصم الملقب بصنّاجة الدوح شاعر الحاكم ، وأنشده في زلزلة حدثت بمصر من قصيدة في مدح ^(٣) :

بالحاكم العدلِ أضحى الدينُ معتلياً نَجَلُ الثُّلَا وسليلُ السّادَةِ الصُّلَحَا
مازُلْتُ مَصْرُ من كَيْدٍ يُرَادُ بها لَكِنَّا رَقِصْتُ من عَذْلِهِ قَرَحَا

وبلى الحاكم ابنه الظاهر ، وينزل مصر في أول عهده صريح ^(٤) الدلاء البغدادي ، ويمدحه

١٥٥/٣ .

(٣) للغرب (قم القاهرة) ص ٣٢٨ وانظر في صنّاجة
الروح حسن المحاضرة ٥٦٢/١

(٤) انظر صريح الدلاء في تمة البيّنة ١٤/١ وفي ابن
خلّكان ٣٨٣/٣ والعبر ١١٠/٣ والشفرات ١٩٧/٣

(١) راجع غلط المقرئ ٢٩٦/٢ وانظر في ابن
أبي الجوع البيّنة ٣٩٥/١ ومر بنا حديث عنه . تشعب :
تفرّق وتفسد .

(٢) ابن خلّكان ١٣١/١ وما بعدها وانظر في
أبي الرقعصق البيّنة ٣٢٦/١ والعبر ٧٠/٣ والشفرات

ويخلفه المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧) ويعتلى الوزارة بدر الحمالى سنة ٤٦٨ ويصبح الأمر والسلطان منذ هذا التاريخ بيد الوزراء . ويخلفه على الوزارة ابنه الأفضل (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) . وكان شاعرا كما كان ممدحا ، فبعث نهضة قوية في الشعر ، وصفها - كما مر بنا - أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية ، معددا فيها أسماء الشعراء في زمنه ممن ملاحوه وهجوه جميعا . ومن كبار مدأحه ظافر الحداد وسترجم له بين شعراء التشيع ، وحسن بن زيد الأنصارى وسترجم له بين الكتاب ، وله فيه مدائح رائعة من مثل قوله ^(١) .

أَيَاكَ الْغُرُّ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا كَأَن آصَالَهَا مِنْ رِقَّةٍ بُكَّرَ
أَخْمَلَتْ ذَكَرَ مُلُوكُ كُنْتُ خَاتَمَهُمْ وَأَنْجَمُ اللَّيْلِ فِي الْإِصْبَاحِ تَسْتَرُّ
بَعْضُ الْوَرَى أَنْتَ لَكِنْ فُقَّتْهُمْ شَرْفًا إِنْ الْحَجَارَةُ مِنْهَا الدَّرُّ وَالْمَدَرُّ
تَحَال رَاحَتُهُ وَالْمَشْرِفِيُّ بِهَا سَحَابَةٌ ظَلٌّ فِيهَا الْبَرْقُ يَسْتَعْرِ

ولفظه جزل متين وصوره بديعة ، مما يدل على شاعرية خصبة . ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية الوزير طلائع بن زُرَّيْكَ ، وكان مثل الأفضل الجمالى راعيا لكثير من الشعراء مثل ابن قادوس والقاضى الجليس والمهذب بن الزبير وأخيه الرشيد . وتزخر الخريدة وكتب الأدب بمدائحهم لطلائع . .

وكانت هناك مواسم كثيرة في زمن الدولة الفاطمية يقدم فيها الشعراء مدائحهم للخلفاء . في مقدمتها الأعياد وموالت الرسول صلى الله عليه وسلم والإمام على بن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء وابنيها الحسن والحسين والخليفة الذى بيده صولجان الحكم وعيد الغدير ويوم عاشوراء وليلى رمضان وأول رجب وأول شعبان وأول السنة وأعياد النصارى وليلة الغطاس وليلة التبروز ووفاء النيل وما يقترن به من فتح الخليج . وفي كل هذه الأعياد وما يماثلها كانت تقام احتفالات ضخمة ، وكان الشعراء يهتنون بها الخلفاء ، وكل يحاول أن يكون له قصب سبق على أقرانه ويصور لنا ذلك المقريزى من بعض الوجوه في احتفال بوفاء النيل سنة ٥١٧ لعهد الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) . إذ يذكر بعض الأشعار التى أنشِدت وما كان يصحبها من نقد يديه بعض المستمعين ، من ذلك ^(٢) أن ابن جبر أنشد في هذا الاحتفال مدحة استهلها بقوله :

(٢) خطط المقريزى ٢٥٣/٢ .

(١) الخريدة للعماد الأصبهاني (قسم شعراء مصر)

فُتِحَ الْخَلِيجُ فَسَالَ مِنْهُ الْمَاءُ وَعَلَتْ عَلَيْهِ الرَّايَةُ الْبَيْضَاءُ
فَصَفَّتْ مَوَارِدُهُ لَنَا فَكَانَهُ كَفَّ الْإِمَامِ فَعَرَفُهَا الْإِعْطَاءُ

فانتقد عليه الناس قوله : « فسال منه الماء » قالوا أى شىء يخرج من النهر غير الماء . وبذلك ضيعوا عليه ما قاله بعد هذا المطلع . وأنشد شاعر مدحة افتتحها بقوله :

لَمِنْ اجْتِمَاعِ الْخَلْقِ فِي ذَا الْمَشْهَدِ لِلتَّلِيلِ أَمْ لَكَ يَا بِنْتَ مُحَمَّدٍ

فهلّل الناس لمطلعه ، فأمر له الخليفة الأمر على الفور بخمسين ديناراً وخُلِعَ عليه وزيدٌ في جاريه . ومَرَّ بنا حديث المنطرة التى بناها الأمر للشعراء ببركة الحبش ورفوفها وما كان عليها من صُررٍ للشعراء وفى كل صُرّة خمسون ديناراً جزاءً وفاقاً لمديحهم ، وكأن ذلك كان مكافأة معلومة لهم . ويخلفه الخافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ويبدو أن الشعراء كانوا يتجادون أيامه فى تطويل مدائحهم ، فأمرهم أن يختصروها مما جعل أبا العباس أحمد بن مفرّج ينشده فى إحدى مدائحه ^(١) :

أَمَرْتَنَا أَنْ نَصَوِّغَ الْمَدْحَ مَخْتَصَرًا لِمَنْ لَا أَمْرَ نَدَى كَفَيْكَ يُخْتَصَرُ
وَاللَّهِ لَا بُدَّ أَنْ نُجْرِيَ سَوَاقِنَا حَتَّى يَبِينَ لَهَا فِي مَدْحِكَ الْأَقْر

فأمر الأمر بالعود إلى ما كانوا عليه .

وكان الصليبيون قد استولوا على بيت المقدس منذ أواخر القرن الخامس ، وأسسوا به مملكة وأضافوا إليها مملكة فى طرابلس وثالثة فى أنطاكية ورابعة فى الرها ، وبلغت مصر حينئذ من الضعف مبلغاً بعيداً لم تستطع خلاله أن تقاومهم إلا بعض تجريدات عسكرية وخاصة فى عهد وزيرها طلائع بن رزّيك ، تجريدات لم تُغن عنها شيئاً . وبينما اليأس يخيم على الناس إذا بعاد الدين زنكى يخلص الرها من أيديهم ، ويقضى على مملكتهم فيها قضاء مبرماً ، ويتابع جهاده ابنه نور الدين ، ويستغيث به شاور فى مصر ضد ضرغام فيرسل إليه أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الظروف سريعاً ، فينهى صلاح الدين حكم الفاطميين لمصر ، ويقبض على صولجان الحكم . ويتوفى نور الدين ، فيضم الشام تحت لوائه ، ويأخذ فى الانقضاض على الصليبيين ، وكلما التقى بهم دمر جموعهم تدميراً ، حتى كانت الموقعة الفاصلة : موقعة حطين التى

(١) الحريدة (قسم شعراء مصر) ٦٤/٢ .

استولى فيها المسلمون على الصليب الأعظم : صليب الصَّلْبوت ، وأسروا قواد الصليبيين وزعماءهم ومزقوا جموعهم شرمزق . ويقول المؤرخون إنهم أكثروا منهم في القتل والأسر حتى كان من يشاهد القتلى يظن أنه ليس وراءهم أسرى وكان من يشاهد الأسرى يظن أنه ليس وراءهم قتلى ، ويقولون إنه بلغ من كثرة الأسرى أن كان الأسير منهم يباع في أسواق الرقيق بثلاثة دنانير ، وفي هذا النصر العظيم أنشد العباد الأصهباني صلاح الدين مدحة رائعة يقول فيها ^(١) :

حططتْ على حِطَيْنِ قَدَرُ ملوكهم ولم تُبْقِ من أجناسِ كفرهم جِئْسًا
بطونُ ذئابِ الأَوْصِ صارتْ قبورهم ولم تَرْضَ أرضُ أن تكون لهم رَمِيمًا ^(٢)
سبَايا بلادُ الله مملوءةٌ بها وقد شَرِيتْ بِحَسَا وقد عُرِضَتْ نَحْسًا ^(٣)
يُطَافُ بها الأسواقُ لا راغِبٌ لها لكثرتها كم كثرةٌ توجب الوَكْسًا ^(٤)

وفُتحت لصلاح الدين بعد هذه المعركة أبواب مدن كثيرة في فلسطين ولبنان مثل نابلس وبيت جبريل (بير سبع) وقيسارية وحيفا وصَيْدَاء وبيروت . وتغنى الشعراء في مصر والشام والعراق بهذا النصر المبين . وسرعان ما تلاه صلاح الدين بفتح بيت المقدس ، وعمَّ الفرح بهذا الفتح جميع البقاع الإسلامية ، وتغنَّى به الشعراء طويلا من مثل قول محمد بن أسعد نقيب الأشراف بمصر ^(٥) :

أُتْرِى منامًا ما يَعْنِي أَبْصِرُ الْقُدْسُ يُفْتَحُ وَالْفَرَنْجَةُ تُكْسَرُ
قد جاء نصرُ الله والْفَتْحُ الَّذِي وَعَدَ الرَّسُولَ فَسَبِّحُوا واستغفروا
فُتِحَ الشَّامُ وطُهِرَ الْقُدْسُ الَّذِي هُوَ فِي الْقِيَامَةِ لِلْأَنَامِ المحْشَرُ

وكان هذا تحولاً واسعاً في قصيدة المديح المصرية ، فإنها لم تعد - كما كانت أيام الفاطميين - قصيدة تُشَدُّ في الأعياد والاحتفالات الرسمية : قصيدة مناسبات ، بل أصبحت قصيدة أنجاد حرية مظفرة . وتنبه لذلك أبوشامة في الروضتين فأتبع المواقع الحرية بما نُظِم فيها من مدائح تصور البطولة العربية تصويراً يملأ نفس كل عربى بالفتوة والقوة والمضاء ويدفعه دفعا إلى أن يكيل لأهواء العروبة والإقلام ضربات قاصمة .

(٤) الوكس : البيع بالخصارة .

(٥) الروضتين ١٠٥/٢ .

(١) الروضتين لأبي شامة ٨٣/٢ .

(٢) رمسا : قبرا .

(٣) نخسا : من النخاسة وهي بيع الرقيق .

ولا يكثر المديح الحماسي لصلاح الدين فحسب ، بل يكثر أيضا لقواده من إخوته ، وخاصة أخاه العادل ، وفيه يقول القاضي الفاضل من قصيدة بديعة ^(١) :

أَهْدَى كَفَّهُ أَمْ غَيْثُ غَوثٍ وَلَا بَلَغَ السَّحَابُ وَلَا كِرَامَةً
وَهَذَا بِشْرُهُ أَمْ لَمَعُ بَرْقٍ وَمَنْ لِلْبَرْقِ فِينَا بِالْإِقَامَةِ
وَهَذَا الْجَيْشُ أَمْ صَرَفُ اللَّيَالِي وَلَا سَبَقَتْ حَوَادِثُهَا زَحَامَةً
وَهَذَا الدَّهْرُ أَمْ عَبْدٌ لَدَيْهِ يَصْرِفُ عَنْ عِزِّهِ زِمَامَهُ
وَهَذَا الثَّرْبُ أَمْ خَذُّ لَكُمْنَا فَأَنَارُ الشَّفَاءِ عَلَيْهِ شَامَهُ

ويعرف هذا الأسلوب في البديع باسم تجاهل العارف بمبالغة في المديح ، فالقاضي الفاضل لا يدرى أكرم ما يصيبه هو وأمثاله من العادل أم غيث سحاب منهر ، بل إن السحاب دون كرمه الفياض . ولا يدرى أبشر وجهه الذي يتلأأ أم البرق ؟ غير أن البرق يعرض ويزول أما هو فقيم لا يريم . وأيضا لا يدرى ما يقوده إلى النصر جيش أم هو صرف الليالي ، بل إن الدهر عبد لديه يصدع بأمره ومشيتته ، ويعجب لما يسير عليه وكأنه يسير على خلود يرى عليها آثار الشفاء التي تقبل الأرض من دونه ، لكثرة الحشود المزدحمة على تقيلها ، وكأنها نفس الشامة التي نراها على الخدود .

ويظل جهاد الصليبيين الموضوع الأهم في مدائح السلاطين الأيوبيين حتى إذا كانت سنة ٦١٥ غزا حَمَلَةُ الصليب دمياط لعهد السلطان الكامل ، وظلوا بها نحو ثلاث سنوات ، وحدثتهم أنفسهم أن يتقدموا إلى الجنوب نحو المنصورة واستنفر السلطان الكامل أخويه المعظم عيسى صاحب دمشق والشام والأشرف موسى صاحب الولايات الشرقية حتى الفرات . وتجمعت جيوشهم وأنزلت بحملة الصليب هزائم ساحقة ولوا على إثرها فارين إلى البحر المتوسط وما وراءه . وتغنى البهاء زهير بهذا النصر المجيد في مدحة أنشدها السلطان الكامل وفيها يقول ^(٢) :

بِكَ اهْتَرَّ عِطْفُ الدِّينِ فِي حُلُلِ الثُّصْرِ وَرُدَّتْ عَلَى أَعْقَابِهَا مِلَادَةُ الْكُفْرِ
وَمَا فَرِحَتْ مِصْرٌ بِذَلِكَ وَحْدَهَا لَقَدْ فَرِحَتْ بِغَدَاؤِ أَكْثَرِ مَنْ يَصْرِ
فَمِنْ مِبلغُ هَذَا الْهَنَاءِ لِمَكَّةَ وَيُثْرِبَ يُنْبِئُهُ إِلَى صَاحِبِ الْقَبْرِ

(٢) البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرازق (طبعة سنة

١٣٥٤ هـ) ص ٦٥

(١) غزاة الأدب للحموي (طبع مطبعة بولاق) ص

والهباء زهير يصور تهلل الدين الحنيف باندحار الصليبيين وأن الفرحة بالنصر الباهر لم تعم مصر وحدها بل عمت أيضا بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وإنه لحرى أن تهأبها منازل الوحي في مكة والمدينة وأن يهأأ به الرسول في جدته الطاهر. وكأنما كان هذا النصر درسا ظل حملة الصليب يذكرونه نحو ثلاثين عاما، حتى كانت سنة ٦٤٧ إذ تجمّعوا بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، ونزلوا دمياط واتجهوا نحو المنصورة، غير أن المصريين بقيادة توران شاه آخر السلاطين الأيوبيين عصفوا بهم سنة ٦٤٨ وسحقوهم سحقا ذريعا، وأخذ لويس التاسع أسيرا وسُجن بدار ابن لقمان كاتب الإنشاء وكان يحرسه الطواشي صبيح. وأذعن لشروط الصلح التي فرضها توران شاه وخرج من مصر مع فلول حملته خاسئا مدحورا. وتطور الظروف سريعا، فُيقتل توران شاه وتخلّفه شجرة الدر فالسلطان أيك. ولعل التابع السريع لهذه الأحداث هو الذي عقد السنة الشعراء فلم يتغنوا ببطولة توران شاه وجيشه الباسل وما أذاق حملة الصليب من نكال شديد.

وتظل مصر وشعراءها دولة المالميك، وما توافى سنة ٦٥٧ حتى تكتسح سيول التتار الشام وتهبط إلى الجنوب في فلسطين ويلتقي بها جيش المالميك فيكيح جماعها في عين جالوت، ويردها قُطر والظاهر بيبرس إلى غير مأب. ويصبح بيبرس سريعا سلطان مصر سنة ٦٥٨ وكان على المهمة بعيد النظر، فأعاد الخلافة العباسية في القاهرة، وبذلك أصبحت مصر حامية الخلافة والإسلام. وعصره يُعد العصر الذهبي في زمن المالميك، وقد صورناه من بعض الوجوه وصورنا فتوحاته وحروبه المستمرة مع الصليبيين والتتار، وكيف قُرض للأوليين مملكتهم في أنطاكية، وما كان من تعقبه الدائم للتتار في الموصل. وسمع يوما بمجموع لهم على الشاطئ الشرقي للفرات، فخاضه إليهم وخاضه الجيش معه فقتل منهم مقتلة عظيمة ولم ينج منهم إلا القليل، وفي ذلك يقول ناصر الدين حسن بن النقيب الكناني - وكان حاضر الواقعة - من قصيدة طويلة^(١) :

ولما ترامينا الفرات بِخَيْلِنَا سَكْرَنَاهُ مِنَّا بِالْقَوَى وَالْقَوَائِمِ^(٢)
فَأَوْقَفَتِ النَّيَّارَ عَن جَرَيَانِهِ إِلَى حَيْثُ عُذْنَا بِالْغَنَى وَالْغَنَائِمِ

وكان الشعراء ينثون على بيبرس قصائدهم في كل معركة وكل نصر مظفر على التتار والصليبيين وفي أرمينية وآسية الصغرى، وبالمثل حين كان ينشئ المدارس والمساجد، وفي مدرسة الظاهرية

يقول السراج الوراق من مدحة بديعة^(١) :

وشَيْدَهَا للعلم مدرسة غداً عراقُ إليها شَيْقُ وشَامُ
ولا تذكُرْنَ يوماً نظاميَّةً لها فليس يُضاهى ذا النظامَ نظامُ

فهى فى رأى الوراق تفوق المدرسة النظامية التى أنشأها نظام الملك فى بغداد .
ولا يلبث أن يتولى مقاليد الحكم بعد يبرس السلطان قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) . ومربنا
بناؤه لمارستان ضخّم وإلحاقه به مدرسته المنصورية ، وفى ذلك يقول معين الدين عثمان بن
سعيد بن تولو التنيسى المصرى مستهلاً قصيدة فى مديحه بقوله^(٢) :

أنشأت مدرسةً ومارستاناً لتصحح الأديان والأبدان

ونازل قلاوون الصليبيين مرارا ، واستولى منهم على بعض الحصون . وخلفه ابنه السلطان
خليل (٦٨٩ - ٦٩٣) وكان بطلامغوارا فافتتح أيامه بجهاد حملة الصليب واستطاع فى أقل من
ثلاث سنوات أن يستخلص منهم عكا وصور وصيدا وبيروت وجميع سواحل الشام ، فلم يبق لهم
بلد ولا قلعة ، ومن بقى منهم ولّى على وجهه إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وكان الشعراء ما ينون
يهنئون السلطان خليل بفتوحه ، ولبى الدين المنبجى التاجر بالقاهرة قصيدة طويلة فى هنته
بانتصاراته المجيدة أولها :

بلغت فى الملك أقصى غاية الأمل وقت شأو ملوك الأعصر الأول

ونظم كثيرون من معاصريه قصائد وأشعارا مماثلة من ذلك قول البوصيرى شاعر المدائح النبوية
المشهور^(٣) :

قد أخذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا إليهم خيلاً تدلك الجبال دكا

وحقا أشبعوهم صكا وقتلا ودفعا إلى البحر المتوسط فى غير رجعة ولا مآب ، فقد سقطت
عكا آخر حصونهم ، بل لقد دمرتها مجانيق المصريين وحرقتها نيرانهم ، وفى ذلك يقول أحمد

(٣) ديوان البوصيرى (طبع مطبعة مصطفى الحلبي) ص
٢٣١ .

(١) المخطوط للمقرئ ٣٤١/٣
(٢) النجوم الزاهرة ٣٢٧/٧ .

ابن عبد الدائم الشَّارِمَسَاحِي (١) :

لا تعجبوا للمجانين التي رشقت عكا بنارٍ وهذتها بأحجارٍ
بل اعجبوا للسانِ النارِ قائلةً هذى منازلُ أهلِ النارِ في النارِ

وتتوقف حركة الفتوح ، فلم يعد في الشام صليبيون ، ويتحول شعر المديح إلى شعر مناسبات في الأعياد ، وحين يستولى سلطان على مقاليد الحكم ، وخاصة إذا قرب من نفوس الشعب مثل السلطان الأشرف شعبان (٧٦٥ - ٧٧٨ هـ) . وكان قد استولى على صولجان السلطنة في ربيع الثاني فقال ابن نباتة :

طلعةُ سلطاننا تبدتُ بكامل السَّعدِ في الطلوعِ
فأعجبُ لها تيك كيف أبدتُ هلالَ شعبانٍ في ربيع

وكانت أيام حكمه أيام أمن ورخاء وازدهار للآداب والفنون ، وفيه يقول شهاب الدين أحمد بن العطار (٢) :

للملك الأشرف المنصور سيِّدنا مناقبٌ بعضها يبدو به العجبُ
له خلائقٌ يبيضُ لا يغيِّرها صرْفُ الزمانِ كما لا يَصْدأُ الذهب

وللعطار أشعار كثيرة في أحداث زمنه أنشد منها ابن تغرى بردى طائفة في الجزء الحادى عشر من كتابه النجوم الزاهرة . ولما تولى مقاليد السلطنة الظاهر برقوق يوم الأربعاء التاسع عشر من رمضان سنة ٧٨٤ مدحه بقوله من قصيدة :

ظهورُ يومِ الأربعاء ابتدا بالظاهر المعتزُّ بالقاهرِ
والبشرُّ قد نَمَّ وكل امرئٍ منشرجُ الباطنِ بالظاهرِ

وربما كان أهم حدث يلقانا بعد ذلك فتح السلطان الأشرف برسباى لجزيرة قبرص إذ كانت موثلا لكثير من القراصنة الذين كانوا يعيشون فسادا في البحر المتوسط وما يحمل من سفن تجارة للمصريين ، كما كانوا يعيشون فسادا في شواطئ مصر والشام ، وأرسل إليها برسباى حملات ثلاثا انتهت بالاستيلاء عليها سنة ٨٢٩ وتغنى الشعراء بهذا النصر المجيد في عدة قصائد ، من ذلك

قصيدة زين الدين عبد الرحمن بن الخراط أحد كتاب التُّنُت ، وفيها يقول ^(١) :

بُشْرَاكَ يَا مَلِكَ الْمَلِكِ الْأَعْرَفِ بفتوح قبرسَ بالحسامِ المَشْرِقِ ^(٢)
فَكُحُّ تَفَتَّحَتِ السَّمَاوَاتُ الْعُلَا مِنْ أَجْلِهِ بِالْتَضَرِّ وَاللُّطْفِ الْحَمِيِّ

ولا نعود نسمع عن انتصارات حرية مجيدة أيام المالك ، ويصبح المديح مديح مناسبات للسلطين في توليهم مقاليد الأمور وفي الأعياد .

ويُظَلُّ مصر عهد العثمانيين وفيه يقدم الشعراء مدائحهم للولاة ونوابهم وكبار الموظفين في زمنهم ويكتظ تاريخ الجبرتي وغيره بأشعارهم على نحو ما يلقانا في مديح الوالي العثماني رضوان كتحدا المتوفى سنة ١١٦٨ وكان قد بنى لنفسه عدة قصور وعاش للهو ، وقصده الشعراء ومدحوه بالقصائد والأواجيز والموشحات والمقامات وأعطاهم الجوائز السنية . واتخذ له جلساء وندماء منهم عبد الله الإدكاوي ، وقد صنف في مدائحه كتابا سماه « الفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية » ومن كبار مداحه مصطفى اللقيمي الدماطي ، وله مقامة طويلة ضمنها أشعارا كثيرة في مديحه ، وله فيه مزدوجة فريدة ، يقول فيها ^(٣) :

مَلِكُ سَعْدٍ قَدْ سَمَا فِي عَصْرِهِ مُؤَيَّدٌ مَعْظَمٌ فِي مِصْرِهِ
مَعْرُزٌ كَيُوسُفٍ فِي قَصْرِهِ عَلَيْهِ مَنشُورٌ لَوَاءُ نَصْرِهِ

ومن مداح رضوان قاسم ^(٤) بن عطاء الله ، وله فيه مزدوجة بديعة ومدائح كثيرة ، وله أيضا فيه توشيح عارض به الموشح المشهور للسان الدين الخطيب ، وفيه يقول :

كُفُّ الْغَيْثِ عَلَى النَّاسِ هَمًّا فَأَعَادَ الْخِصْبَ بَعْدَ الْيَبْسِ
أَصْبَحَ الدَّهْرُ بِهِ مَبْتَسِمًا وَهُوَ فِي فِيهِ مَحَلُّ اللَّعْسِ

ويكثر مدح الشعراء لعلماء الأزهري الأجلاء ، ويلقانا ابن الصلاحى ^(٥) السيوطي كلفا بأستاذه الشمس الحفنى ، وله فيه مدائح كثيرة على شاكلة قوله :

(٤) الجبرتي ١٩٣/١ وما بعدها وانظر ترجمة قاسم في

١٨٤/٢ .

(٥) الجبرتي ٢٦٥/١ وما بعدها

(١) النجوم الزاهرة ٢٩٦/١٤ .

(٢) المشرق : نسبة إلى مشارف الشام أو اليمن ،
والسيوف المشرفة : سيوف حادة قاطعة .

(٣) الجبرتي ٢٣٢/١ .

إمام الهدى الراقى إلى ذروة العُلا إلى رتبة عنها الثوابُ تقعدُ
وما شئتَ قل فيه فأنت مصدِّقُ مزاياه تقضى والمحاسنُ تشهدُ

وأكثرُوا حينئذ من التأريخ بالشعر يؤرخون به قدوم والو أو مناسبة من المناسبات في آخر شعر
بالقصيدة إذ تحسب حروف الكلمات فيه بحسب الجمل فتكون سنة الولاية أو سنة المناسبة ،
وحسن أن نستعرض شعراء المديح الناجين على مر الحقب .

المهذب^(١) بن الزبير

هو الحسن بن علي الغساني ، ولد بأسوان في أوائل القرن السادس الهجري ، وبها ثقف علوم
العربية ، وأوى ملكة شعرية خصبة ، فلم يلبث أن لهج بالشعر ، وما نصل معه إلى سنة ٥٢٦ حتى
نراه يتصل ببني الكثر سراة بلدته ، ويمدح كبيرهم بقصيدة بديعة يقول فيها :

لن جهل المذاحُ طُرُقَ مديحك فإني بها من سائر الناس أعلمُ
وهل ليَ حمدٌ في الذي قلت فيكم ونُعائمُ عندى التي تتكلمُ

ونال على قصيدته جائزة كبيرة : ألف دينار . ودفعه طموحه الأدبي إلى التروح عن بلده إلى
القاهرة : حاضرة الفاطميين وموطن الشعراء الكبار . ونراه يمدح رضوان بن ولخشى وزير الخليفة
الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) ولعله هو الذي أنفذه في مهمة إلى اليمن ، فأكبَّ على كتب
النسب ، وألف فيه دائرة معارف ضخمة قال ياقوت إنها تقع في أكثر من عشرين مجلدا . ولم
تصرفه عنايته بهذه الدائرة عن الشعر والمديح . وأهم وزير اتصل به بعد ابن ولخشى طلائع بن
رُزَيْك (٥٤٩ - ٥٥٦ هـ) . وكان يعد أكبر شاعر في زمنه ، وقد ترجم له العباد الأصبهاني ترجمة
ضافية استهلها بقوله : « المهذب بن الزبير محكم الشعر كالبنا المشيد ، لم يكن في زمانه أحد أشعر
منه ، وله شعر كثير ومحل في الفضل أثر » . والغالب على شعر المهذب المديح .

ومن يدرس الشعر العربي يعرف أن قصيدة المديح تقوى تارة وتضعف أخرى ، فهي تقوى

الصعيد ص ١٣ ، ١٠٠ وابن خلكان ١/١٦١ في ترجمة
أخيه الرشيد وفوات الوفيات ٢٤٣/١ والنجوم الزاهرة
٣١٣/٥ وحسن المحاضرة للسيوطي ١/٥٦٣ .

(١) انظر في ترجمة المهذب وأشعاره خريدة القصر (قسم
شعراء مصر - طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢٠٤/١
ومعجم الأدباء ٤٧/٩ والنكت المصرية لمارة الجنى ص
٣٥ والطلع السعيد الجامع لأخفاء الفضلاء والرواة بأعلى

حين تعبر عن فتوح وانتصارات جديرة بأن يسجلها الشعراء ويتغنوها ، وهى تضعف حين تعبر عن زُلْفَى وما يتصل بالزلقى من رياء . ومعنى ذلك أنه توجد للمديح فى الشعر العربى قصيدتان لا قصيدة واحدة ، قصيدة ذات موضوع واضح ، وقصيدة ليس لها موضوع واضح ، ومن الضرب الأول مدائح أبى تمام فى قواد الدولة العباسية وحروبهم فى خراسان وفى آسية الصغرى ، ومنه أيضا مدائح المتنبى فى سيف الدولة وانتصاراته المجيدة ضد البيزنطيين . ومن الضرب الثانى مدائح مهيار وغيره من الشعراء للخلفاء والوزراء والحكام فى المناسبات والأعياد المختلفة . وفرق بعيد بين الضربين ، ففى الضرب الأول نقرأ حقائق واقعة ، بل يقرأ العرب تاريخهم فى صورة رائعة من الفناء والشعر ، أما فى الضرب الثانى فلا نقرأ حقائق ولا ما يشبه الحقائق ، ولا يقرأ العرب تاريخهم حربيا أو غير حربى ، إنما يقرءون ملقا وترلفا ورياء .

ويمكن أن ندخل مدائح المذهب بن الزبير للوزير طلائع بن رزّيك فى الضرب الأول ، لأنه ملأ أيامه ببطولة محققة فى حرب الصليبيين وردّهم عن بعض حصون فلسطين ، وفى كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين للمقدسى ما يصور ذلك . فقد كانت الجيوش المصرية فى أيام وزارته ماتى تنازل الصليبيين فى العريش وغزة وعسقلان ، وكان الأسطول المصرى يقوم بدور مهم فهو يُفزعهم فى « صور » و « عكا » وهو يقطع على بعض سفنهم فى البحر المتوسط طريقها إلى الموانى الشامية والفلسطينية . وكان طلائع يقود بنفسه بعض جيوشه البرية ، ويتصر على الصليبيين فى عسقلان وغير عسقلان ، والمذهب شاعره يتغنى بانتصاراته مبتهجا بمثل قوله :

لما أبوا ما فى الجفان قرّيتهم	بصوارم سلّت من الأجفان ^(١)
وثلّلت فى يوم العريش عروشهم	شبا ضراب صادق وطعان ^(٢)
ألجأتهم للبحر لما أن جرى	منه ومن دمهم معا بحران
ولأنت تخضب كلّ بحر زاخِر	ممنّ تحارب بالنجيع القانى ^(٣)
حتى ترى دمهم وخضرة مائه	كشقائق نثرت على الرّيحان
وكانّ بحر الروم خلّق وجهه	وطقت عليه منابت المّرجان ^(٤)

(١) الجفان : جمع جفنة وهى قصعة الطعام :

(٣) النجيع : الدم . القانى : شديد الحرارة .

والأجفان : جمع جفن وهو غمد السيف .

(٤) خلّق وجهه : طيب بالخلوق وهو الزعفران .

(٢) شبا : جمع شاة ، وهى حد السيف .

والمهذب بن الزبير فرح مبهج بما أفاء الله من نصر على ابن رُزَيْك في العريش ، فقد دقَّ أعناق الصليبيين هناك ، ونكصت بقيتهم على أعقابها إلى البحر منهزمة . ولا ريب في أن تصوير المهذب لدم الأعداء على صفحة البحر المتوسط بأنه خضاب أو هو شقائق أو ورد أحمر نثر على الرمحان ، وكان المتوسط قد خلَّق وجهه وطَّيب بالزعفران وطفّت عليه منابت المرجان ، لا ريب في أن ذلك كله تصوير بديع . ويذكر المهذب أن الأسطول المصري لقي فلول الصليبيين المنهزمين إلى البحر يقتل فيهم ويأسر ، يقول في سفنه وصنيعها بهم :

شَبَّهْنَ بِالْغُرَبَانِ فِي أَلْوَانِهَا وَفَعَلْنَ فَعَلَ كَوَاسِرِ الْعُقْبَانِ
وَأَتَتْكَ مُوقِرَةٌ بِسَبِيٍّ بَيْنَهُ أَسْرَاهُمُ مَغْلُولَةٌ الْأَذْقَانِ^(١)

وهو يصف الأسرى وقد غلَّت أعناقهم إلى أذقانهم فلا يستطيعون لره وسهم عطفًا ولا حركة ، ويؤنّه بقتل أحد أمرائهم ، قائلا :

قَتَلَ الْبِرْسَ وَمَنْ عَسَاهُ أَعَانَهُ لَمَّا عَتَا فِي الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ
وَأَرَى الْبَرِّيَّةَ حِينَ عَادَ بِرَأْسِهِ مَرَّ الْجَنَّا يَدُو عَلَى الْمَرَانِ^(٢)

وتصادف في أثناء ذلك أن وقعت زلازل شديدة في الشام دكَّت بعض حصون الصليبيين فذكر ذلك ابن الزبير ملتصقا له تعليلا طريفا إذ يقول لابن رُزَيْك :

مَا زُلْزِلَتْ أَرْضُ الْعِدَا بَلْ ذَاكَ مَا بِقُلُوبِ أَهْلِهَا مِنَ الْخَفَقَانِ

وله في ابن رُزَيْك مدائح كثيرة وراء هذه النونية . وكان يتقن فنون الشعر المختلفة من استعطاف وغير استعطاف ، وله في استعطاف أحد دعاة الفاطميين باليمن ميمية مشهورة ، كان أخوه الرشيد قد ذهب إليه في مهمة للدولة ، فهمَّ بقتله ، وسَجَنَهُ ، فأرسل إليه بتلك القصيدة يستعطفه لأخيه ، فعفا عنه وردَّ إليه حريته . واشتهرت القصيدة بغزلها وما يرمز فيه من لفة على أخيه ، إذ يقول :

يَا رَجُ أَيَّنَ تَرَى الْأَحْبَةَ يَمَّمُوا هَلْ أَتَجَدُوا مِنْ بَعْدِنَا أَوْ أَتَهْمُوا^(٣)
نَزَلُوا مِنَ الْعَيْنِ السَّوَادِ وَإِنْ نَأَوْا وَمِنَ الْفَوَادِ مَكَانَ مَا أَنَا أَكْمُ

(٣) أَتَجَدُوا : دخلوا نجدا . أَتَهْمُوا : دخلوا تهامة .

(١) موقرة : محملة .

(٢) الجنّا : الثمر . المران : الرماح .

رحلوا وفي القلب المعنى بعدهم وَجَدْتُ عَلَى مَرِّ الزَّمانِ مَحْمِماً
وتعوّضْتُ بالأنسِ رُوحِي وَحْشَةً لا أوحشُ اللهَ المنازلَ منهمْ
إني لأذكركم إذا ما أشرقتْ شمسُ الضحى من نَحْوكم فأسلمُ
لا تبعثوا لي في النسيم نَحْيَةً إني أغارُ من النسيم عليكمْ

والآيات تعبر عن عاطفة الحب المتناعة وأنه لن ينسى أحباءه أبدا نزلوا نجداً أو نزلوا تهامة ، فهم في سويداء فؤاده والوجد يبرّح به ، والوحشة منهم تلذع روحه ، وهو يستقبل شمس الضحى المشرقة من ديارهم بالسلام الحار . وما يلبث أن يعبر في البيت الأخير عن رقة ورهاقة حسّ بالغة ، وله من جملة قصيدة بيته المشهور :

وما لي إلى ماء سوى التَّيْلِ غُلَّةٌ ولو أنه - أستغفر الله - زمزمُ

وهو يصور أدق تصوير محبته لوطنه ، وهي محبة تملك دائماً على المصريين شغاف قلوبهم . وكان المذهب وأخوه الرشيد - وكان شاعراً مثله - وثقاً صلتها بشركوه وصلاح الدين حين قدما مصر لنجدة الوزير شاور ضد خصمه وضد الصليبيين ، ولم يلبث شاور أن قلب ظهر المجن لصلاح الدين وعمه شركوه ، واضطرا إلى مبارحة مصر فترة . وحينئذ يقتل شاور الرشيد ويسجن المذهب فينظم شعراً كثيراً في استعطافه ، ويرد إليه حريته ، وسرعان ما يتوفى سنة ٥٦١ للهجرة .

ابن قلاقس^(١)

هو نصر الله بن عبد الله بن قلاقس الإسكندري ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٣٢ ونشأ بها وسمع من شيوخها ، ولزم حلقة أبي طاهر السلفي أكبر المحدثين في عصره ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة فمدح بعض أولى الأمر المشرفين على الإسكندرية : وكان في أثناء ذلك يلزم صحبة شيخه السلفي وله فيه مدائح بديعة مثبتة في ديوانه من مثل قوله :

تَفِيضُ بَحَارِ العلمِ من كَلِمَاتِهِ فَإِنْ كُنْتَ ظَمآنًا فِرْدُ خَيْرِ مَثَلِهِ
فَيَأْتِيهَا المَحْمُودُ من كُلِّ نَاطِقِي عَلَى كُلِّ مَعْنَى فِي فِتْنَةٍ كُلِّ مَثَلِ

الجان ٣/٣٨٣ . وديوانه طبع قديماً بمطبعة الجوائب وراجعه وضبطه خليل مطران .

(١) انظر في ترجمة ابن قلاقس الخريدة (قسم شعراء مصر) ١/١٤٥ ومجمع الأدباء ١٩/٢٣٦ وابن خلكان ٥/٣٨٥ وحسن المحاضرة ١/٢٤٢ والشنرات ٤/٢٢٤ ومراة

تَحَاسَدَتِ الْأَيَّامُ فِيكَ هَلُم تَرَل مَتَى الْقَادِمُ الْجَذَلَانِ وَالْمَتَرَحِّلُ

وهو يشير إلى علم أستاذه وأنه كان مقصداً للراجلين في طلب الحديث من كل بقاع العالم الإسلامي . وليس في ديوانه مديح لوزير مصرى قبل شاور وزير العاصد (٥٥٧ - ٥٦٤ هـ) .
واتصل بكتاب الديوان لعده ومدحهم ، وفي مقدمتهم القاضى الفاضل ، وله فيه غرالمدائح ،
ومن قوله فى إحداها متخلصاً من الغزل إلى مديحه :

يَارَبُّ خَمَرُ قَمَّةُ كَأْسُهَا لَمْ أَقْنَعُ مِنْ شَرِبِهَا بِالشَّمِيمِ
أَتَبِعْتُ رَشَقًا قُبْلًا عِنْدَهَا وَقُلْتُ : هَذَا زَمْزَمُ وَالْحَطِيمِ
فَافْتَرَّ إِمَّا عَنْ أَقَاحِي الرَّبِّى تَضَحَّكَ أَوْ ذُرَّ الْعُقُودَ النَّظِيمِ
أَوْ كَانَ قَدْ قُبِّلَ مُسْتَحْسِنًا مَا حَبَّرَ الْفَاضِلُ عَبْدُ الرَّحِيمِ
مَنْ لَفْظُهُ رَاحٌ وَأَخْلَاقُهُ رَوْحٌ وَتِلْكَ الدَّارُ دَارُ النِّعَمِ

والآيات تصور قدرة رائعة على تكوين الصور الشعرية البديعة ، فقم صاحبه كأس خمر ،
وهو يرشفها وكأنه يرشف من ماء زمزم ويقبلها وكأنه يقبل الحطيم المقدس . وضحكت فخال
أقاحى الربى تضحك ، بل عقد در نظم . بل درر القاضى الفاضل عبد الرحيم ، مَنْ لَفْظُهُ خمر
وأخلاقه قَرَحَ وداره جنة الخلد ، ولعله يريد قصر الخلافة الذى كان يعمل به الفاضل كاتباً .
وليس فى شعره أى شائبة تدل أو تشير إلى أنه اعتنق التشيع ، وكان عهد وزارة شاور عهداً
مضطرباً أشد الاضطراب ، فسدت فيه أداة الحكم فساداً شديداً ، مما جعل شاور يضطر مع
ضرغام على الوزارة ، ويستعين بنور الدين أمير حلب ويرسل معه أسد الدين شيركوه وصلاح
الدين ، فيعيدانه إلى كرسى الوزارة ، وما يلبث أن يستعين ضدّهما بالصليبيين . ولعل هذا
الاضطراب الشديد الذى عانته البلاد حينئذ هو الذى جعل ابن قلاقس يفكر فى مبارحة مصر إلى
صقلية ، ويبدو أنه كان يسمع فى أثناء مقامه بالإسكندرية من مسلميها الداهيين إلى الحج تنويها
كثيراً بها وبرجالاتها ، وكانت قد سقطت فى أيدي النورماندين ولكن أمراءهم منذ روجار كانوا
لايزالون يعاملون المسلمين بها معاملة حسنة ، وأعانوهم على استمرار نشاطهم العلمى والأدبى .
على كل حال نفاجأ برحيل ابن قلاقس إلى صقلية فى شعبان سنة ٥٦٣ ولم يكذب يتزل بها حتى
أرسل بقصيدة يصف فيها رحلته البحرية إلى الجزيرة وصفاً بديعاً ، وكانت قد أعجبت مشاهدتها
الطبيعية فأنشد :

بلدُ أعارته الحمامُ طَوْقَهَا وكساه حُلَّةَ ريشِ الطاووسِ
فكانما الأزهارُ منه سُلَافَةٌ وكانَ ساحاتِ الديارِ كتومُ

وتنقلُ في بلدانها ، وكانت لا تزال عامرة بالمسلمين ، ونزل حاضرتها يلزم ، وتعرف على أكبر شخصية عربية بها : أبي القاسم بن الحجر ، ويبدو أنه كان رئيس ديوان المسلمين وصاحب الأمر والنهى فيهم ، وفيه دُبُج مدائح كثيرة ، مشيداً ببيانه وبلاغته ، وبحسن تدييره ، بمثل قوله :

ويمناك طَيْرٌ يُعْنِي وَسَعْدٍ أَصْفَرُ الظَّهْرِ أَسْوَدُ الْمَنْقَارِ
قَلَمٌ دَبَّرَ الْأَقَالِمَ فَالْكُتُبُ بِهُ مِنْ كُتَاتِبِ الْأَقْدَارِ

والبيت الثاني يشير بوضوح إلى أن أبا القاسم كان يصرف أمور المسلمين في صقلية ، ولعله لذلك تسميه بعض المصادر العربية صاحب صقلية ، وفيه كتب ابن قلاقس كتاباً سماه « الزهر الباسم من أوصاف أبي القاسم » وصف فيه رحلته إلى صقلية ومقامه بها نحو عامين ومدائحه فيه ، واحتفظ العاد الأصباهي في ترجمته بقطعة كبيرة من هذا الكتاب . وفي ديوانه مدائح كثيرة لشخصية ثانية بصقلية ، هي شخصية القاضي على بن أبي الفتح بن خلف الأموى ، ويقول العاد إنه نوه به في كتابه الزهر الباسم وقال عنه « حَذَقَ العلم الناظرة وحديقة الأدب الناضرة » وفيه يقول :

وكم لك في الفصاحة من أبايدٍ ملكَتْ بها الفَخَارُ على الإيادى^(١)
تَحَذَّتْكَ مِنْ صَقْلِيَّةٍ خَلِيلاً فَكُنْتَ الْوَرْدَ يُقَطِّفُ مِنْ قَتَادٍ
وَشِمَّتْكَ بَيْنَ أَهْلِهَا صَفِيًّا فَكُنْتَ الْجَمْرَ يُقْبَسُ مِنْ زَنَادٍ

وابن قلاقس لا يريد أن يهجو أهل صقلية بأنهم قتاد وشوك وابن خلف وحده هو الورد ، ولا أنهم زناد صلد وهو وحده الجمر ، وكل ما في الأمر أنه يريد أن يمدحه ، وبالغ في مديحه ، أما بعد ذلك فكان هناك أبو القاسم بن الحجر مملوحوه وراعيه فيها . وقد مدح بها آخرين ، منهم جُرْدُنَا وزير صاحب صقلية ، وفيه يقول :

وجرّدنا المدائح فاستقرتْ على أوصاف جرّدنا الوزير

وهو يشير مراراً إلى مجالس الشراب في صقلية ، وأنه قضى بها أياماً وليالى هنيئة ، كان يستمتع

(١) هوقس بن ساعدة الإيادى الحطّيب المشهور .

فيها بالاستماع إلى الغناء والموسيقى ورؤية الراقصات وهن يثنيان في نسق بديع من الحركات يقول :

وَمُعْنٌ تَنَاولَتْ يَدُهُ الْعَوْدَ فَعَادَتْ بِنَا إِلَى الْأَفْرَاحِ
بَيْنَ رِيحٍ مِنَ الزَّمَامِيرِ أُسْرَى بَيْنَ أَجْسَامِنَا مِنَ الْأَرْوَاحِ
وَصَبَاحٍ قَدْ عَقَدُوا طُرُرَ اللَّيْلِ لَوْ جَمَالًا عَلَى الْوَجْهِ الصَّبَاحِ
يَبْعَثُ الرُّوضُ مِنْهُمْ حَرَكَاتٍ سَرَقَتْ بَعْضَهَا طَوَالَ الرَّمَاكِ

وعاد ابن قلاقس إلى مصر ، فوجدها لا تزال مضطربة قبل تحول مقاليد السلطان إلى صلاح الدين ، ففكر في الارتحال عنها ، وولى وجهه نحو عدن سنة ٥٦٥ هـ استقبله استقبالا حسنا ياسر بن بلال وزير محمد وأبي السعود ابني عمران حفيد الداعي سبأ صاحبها ، فأغدق عليه نائلا غمرا ، وركب البحر الأحمر عائدا إلى مصر ، فانكسر المركب به وغرق جميع ما كان معه بالقرب من جزيرة دَهْلَك ، فعاد إلى ياسر ، وأنشده قصيدة دالية استلها بقوله :

صَدَرْنَا وَقَدْ نَادَى السَّمَا حُ بِنَا رِدُّوْا فَعُدْنَا إِلَى مَغْنَاكِ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
وَجَادِبْنَا لِلْأَهْلِ شَوْقٌ يَقِيْمُنَا وَشَوْقٌ لِمَغْنِيْنَا عَنِ الْأَهْلِ يَقْعِدُ
وَمَا فَاحَ فِينَا غَيْرَ ذِكْرَاكِ رَوْضَةً وَلَا سَا حَ فِينَا غَيْرَ نَعْمَاكِ مُورِدُ
فِيَا يَاسِرَا نَلْنَا بِهَ الْفَضْلَ يَاسِرَا وَيَا مَنْ وَجَدْنَا مِنْهُ مَا لَيْسَ يُوجَدُ
دَعَوْتَ بِصَوْتِ الْجُودِ حَتَّى عَلَى النَّدَى لَأَنْكَ تَرَوِي عَنِ بِلَالٍ وَتُسْنِدُ

والقصيدة كلها من هذا النمط البديع ، وما أروع بيتها الأخير ، وقد تصور ياسرا يؤذن بصوت الجود داعيا الناس إليه ، ويعلل ذلك تعليلا طريفا ، إذ يقرن اسم أبيه بلال إلى بلال مؤذن الرسول وهو يروى عنه ويقتهى به قدوة حسنة . وكان يحسن التعليل كما يحسن التصوير ، ومن طريف صورته وتعليلاته قوله في جارية سوداء :

رُبَّ سَوْدَاءٍ وَهَى بِيضَاءُ مَعْنَى نَافَسَ الْمَسْكَ عِنْدَهَا الْكَافُورُ
مِثْلَ حَبِّ الْعَيُونِ يَحْسِبُهُ النَّاسُ سُوَادًا وَإِنَّمَا هُوَ نَوْرُ
وهي صورة بديعة غريبة . ويكثر مثلها عنده ، كقوله يصف الشَّعْرَ وَأَنْ مِنْهُ مَا يَذْبُلُ سَرِيعًا

ومنه ما يخلد على الدهر ، ومنه القبيح ومنه الجميل ، يقول :

الشَّعْرُ مِنْهُ قَصِيرٌ عَمْرُهُ زَهْرٌ يَذْوِي وَمِنْهُ طَوِيلٌ عَمْرُهُ زَهْرٌ^(١)

أو كالعيون فهذى حظها حَوْلُ يُغَصُّ منها وهذى حظها حَوْرُ

وكان قد ظل عند ياسر نحو ستين وعاد في شوال سنة سبع وستين ، وركب البحر إلى عيذاب
تغر قوص على بحر القلزم ، وكأن الموت كان في انتظاره ، فلم يكذب يترها حتى لَبَّى نداء ربه وهو في
الخامسة والثلاثين من عمره .

ابن سناء ^(١) الملك

هو القاضي السعيد هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن القاضي المعتمد سناء الملك
السعدى ولد سنة ٥٥٠ بالقاهرة في بيت يسار ونعمة ، إذ كان أبوه وجده من كُتّاب الإنشاء في
الدولة الفاطمية ، كما يدل على ذلك تلقيبهما بلقب القاضي الذي كان يمنح لكبار الكتاب ،
وكانت قد انعقدت صلة وثيقة بين جده وأبيه وبين القاضي الفاضل حين كان يعمل معها في
الدواوين الفاطمية . ولما تطورت الظروف وأصبحت مقاليد الحكم في مصر بيد صلاح الدين
واتخذ القاضي الفاضل وزيراً له ومستشاراً قُربَ الفاضل منه جعفر بن سناء الملك وتوثقت الصلة
بينهما حتى كان ينييه عنه في غيبته مع صلاح الدين بالشام . وعُني جعفر بترية ابنه هبة الله منذ
نومة أظفاره ، فعهد إلى بعض القراء بتحفيظه القرآن الكريم ، حتى إذا حفظه اختلف إلى
حلقات العلماء وخاصة حلقة ابن بَرَى أكبر أئمة اللغة والنحو المصريين حينئذ . وأكبَّ يقرأ كتب
الفقه وعلم الكلام والمنطق على نحو ما يشهد بذلك استظهاره في أشعاره لبعض مصطلحات هذه
العلوم في الحين بعد الحين . ودفعه طموحه العلمى إلى الارتحال إلى الإسكندرية لسماع الحديث
على السُّنَى الكبير الحافظ السُّلَفَى أحمد بن محمد ، وفيه يقول :

وجئتُ إلى الإسكندرية قاصداً إلى كعبة الإسلام أو عَلمَ العِلْمِ
إلى أحمد المحيى شريعة أحمدٍ فلا علمتُ منه أباً أمةً الأمي

للحموى في مواضع متفرقة ومقالنا : « الروح المصرية في
شعر ابن سناء الملك » بكتابنا : « فصول في الشعر ونقده
وابن سناء الملك : حياته وشعره لحمد إبراهيم نصر » ومقدمة
محمد عبدالحق لنشرته للدبوان في الهند ، ونشره وحققه في
القاهرة محمد إبراهيم نصر .

(١) انظر في ترجمة ابن سناء الملك وأشعاره الخريدة
(قسم شعراء مصر) ٦٤/١ ومعجم الأدياء ٢٦٥/١٩
والمغرب لابن سعيد (قسم القاهرة) ص ٢٧٣ وابن خلكان
٦١/٦ ودير الذهبي ٢٩/٥ والشُّعْرَات ٣٥/٥ وحسن
الحاضرة ٢٤٣/١ وبدائع البداة لعل بن ظافر وخزانة الأدب

وقد أكبَّ على دواوين الشعراء يلتمهما كما أكبَّ على الموشحات الأندلسية في طليعة عمره كما يقول في مقدمة كتابه النفيس « دار الطراز » الذي سبق أن تحدثنا عنه وقلنا إنه وضع فيه عروض الموشحات ، وإنه يقوم في ذلك مقام الخليل بن أحمد في وضعه عروض الشعر العربي ، ونراه يختم بعض موشحاته بأقوال أعجمية مما يدل على معرفته بالفارسية . ويشهد وضعه لعروض الموشحات وضعاً نهائياً بذكاء خارق .

وقد فتحت موهبة ابن سناء الملك الشعرية مبكراً فتفتحاً راع القاضي الفاضل كبير أدباء زمنه ، فاستاذن أباه في أن يتخذ كاتباً بين يديه ، وأذن له ، وأضفى عليه من إعجابه بشعره وودَّه ما أصبح به أباً روحياً له ولفنه . ومن خير ما يصور هذه الأبوة الروحية كتابُ ابن سناء الملك المسمى « فصوص الفصول » ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية ، والكتاب في جمهوره مراسلات بين ابن سناء الملك وأبيه جعفر من جهة وبين القاضي الفاضل من جهة ثانية حين كان يذهب إلى الشام في رفقة صلاح الدين ، فيكتب الشاعر وأباه ، وخاصة حين يرسل إليه ببعض مدائحه فيه أو في صلاح الدين . وهي ليست مكاتبات إخوانية فحسب ، بل هي أيضاً ملاحظات نقدية على الشعراء السالفين والمعاصرين وخاصة ابن سناء الملك نفسه وأشعاره . وتموج رسائل الفاضل فيها بناءً غديٍّ عليه من مثل قوله عن بعض قصائده : « مايرينا من آية إلا هي أكبر من أختها ، وما يحلو علينا عروساً إلا وقد جمع بين حسننا وبِختها ، وقلما يُجمعُ بين الحسن والبِخت » ويفضِّلها على المعلقات . ويمدحه مرة ثانية فيقول : لله درُّ تلك الأنفاس التي تستخف عقول الرجال ، بل عقود الجبال . . . ولقد أبقي للآباء ذكراً ، وللأبناء فخراً ، وأرسلها مقلِّدات ، فأرهفها مجرِّدات ، وأثارها أوابد ، فنظمها قلائد » . ويشيد الفاضل بموشحاته كما يشيد بأشعاره رافعا منزلته فيها على منزلة الأندلسيين درجات . وبهنا ما يسجله كتاب فصوص الفصول من أنه كان ناقدًا كما كان شاعرا .

واختصر ابن سناء الملك كتاب الحيوان للجاحظ ، باسم روح الحيوان ، ويقول ابن خلكان إنها تسمية لطيفة ، ويذكر له كتاباً ثانياً باسم مصايد الشوارد . وكان ناثراً بارعاً كما كان شاعراً مبدعاً ، يقول ابن خلكان : « ومن نثره في وصف النيل في سنة كان ناقصاً ، ولم يوف الزيادة ، التي جرت بها العادة : « وأما أمر الماء فإنه نصبت مشاريعه ، وتقطعت أصابعه ، وتيمم العمود (عمود المقياس) لصلاة الاستسقاء ، وهمُّ المقياس من الضعف بالاستلقاء » . يقول ابن خلكان : « وهذا من أحسن ما يوصف به نقصان النيل » . وزعم ابن سعيد في كتابه المغرب أنه

كان غالبا في التشيع ، وربما دفعه إلى ذلك أنه وجده يمدح القاضي الفاضل في يوم عاشوراء ذاكراً
مقتل الحسين الشهيد فيه يقول :

يَوْمٌ يَسَاءُ بِهِ وَفِيهِ كُلُّ شَيْءٍ وَسْئَى

ولم يكن القاضي الفاضل شيعيا ، بل كان سُنِّيًّا ومثله ابن سناء الملك ، وهو لذلك يقول إن
ذكرى هذا اليوم تحزن السنين والشيعه معاً . وقد أشار في رثائه لبعض العلويين من أصحابه إلى نوم
الخلق عن ثار الحسين . وفي رأينا أنه ليس في ذلك ما يعارض سنته ، فإن مصرع الحسين يأسي له
الطرفان المتعارضان من أهل السنة والشيعه جميعا ، وقد صرح في مدحه للقاضي بأنه سني رغم
حبه وتشيعه له يقول :

وغلوتُ في حى له متشيعاً من ذا رأى متشيعاً متسنّناً

وليس من المعقول أن ينال حُظوة القاضي الفاضل وصلاح الدين شاعر شيعي غالٍ في تشيعه .
ويبدو أن الصفدى قرأ هذه التهمة عند ابن سعيد ، وأكدها عنده أنه قرأ في ديوان ابن الساعاتي
هجاء له في ابن سناء الملك حين سقط عن جواد له كان يسمى الجمل ، فزعم أنه إنما سقط عنه
ليغضه أم المؤمنين السيدة عائشة وأباها الصديق أبا بكر ، يقول :

أَبْغَضْتُ بِالطَّبِيعِ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَلَمْ تُحِبِّ أَبَاها فَجَاءَتْ وَقَعَةُ الْجَمَلِ

وهو هجاء لابن الساعاتي جرّه إليه أن اسم الجواد الجمل ، وله فيه أهاج مختلفة كما يشهد
ديوانه ، وكأنه ذكر ذلك كيذا له . وقد أشاد في مقدمته لفصوص الفصول بالصحابة جميعا ، ولم
يخص على بن أبي طالب بتتويه . ومربنا أنه تتلمذ على الحافظ السلفي أكبر سني في عصره .
وكان ابن سناء الملك يعيش في رغد من العيش ، لثراء أبيه ، وفي الديوان أنه أهداه مرة
بستانا ومرة فندقاً . وظل موظفا في ديوان الإنشاء منذ بواكير حياته ، وبعد وفاة صلاح الدين
واستعفاء القاضي الفاضل من عمله ظل يعمل في الديوان مع السلطان العزيز ثم أخيه السلطان
الأفضل ثم السلطان العادل وابنه الكامل ، حتى إذا كانت سنة ٦٠٦ عهد إليه السلطان الكامل
بتدبير ديوان الجيش ، غير أنه استعفاء فأعفاه . ولم يلبث أن توفي سنة ٦٠٨ . ولم يكن يعمل مع
كل أولئك السلاطين فحسب ، بل كان يقدم إليهم مدائحهم وكانوا يجزلون له في العطاء ، وبالمثل
كان يجزل له في العطاء أمراء البيت الأيوبي حين كان يمدحهم ، وفي ديوانه مدائح كثيرة لهم
ولصفي الدين بن شكر وزير السلطان العادل . فالأموال كانت تُمدَّقُ عليه بالإضافة إلى راتبه

وما ورثه عن أبيه مما يؤكد أنه عاش مترفا منعيا . وفي ديوانه أشعار كثيرة يصف فيها داره التي كانت تطلُّ على النيل وحديقتها وما كان بها من نافورات ، وكانت تمتد للشرءاء من أصدقائه وكانت تجرى بينهم فيها محاورات ومفاكهات طريفة .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ابن سناء الملك ، أكبر شاعر ظهر بمصر قبل العصر الحديث ، وقد أوضحنا في مقال عنه بكتابنا فصول في الشعر ونقده تمثله في أشعاره للروح المصرية ، من ذلك ما يجرى في أساليبه من السهولة التي تعد انعكاساً لما يشعُّ منها في روح المصريين أبناء النيل وأوديته وسهولة وما أسبغ على ساكني ضفافه من حياة سهلة ، مما دفعه إلى استخدام بعض الكلمات العامية المألوفة في السنة المصريين مثل « ياما بمعنى كثير جدا ، ومثل « وديني هو على أكثر » ومثل « على عيني » . ومن ذلك الرقة في ألفاظه ومعانيه وما يتصل بها من اللين والدمائة ، مما جعله يكثر من التغزل بمن فقدن أبصارهن من الفتيات والنساء كقوله في إحداهن :

شمسٌ بغير الليل لم تُحَجِّبِ وفي سوى العَيْنِ لم تُكْشَفِ
مُعَمَّدةُ المُرْهَفِ لكنها تَفْتِكُ بالغَمْدِ بلا مُرْهَفٍ^(١)

فهى شمس منيرة تحجبها غلالة من الليل ، شمس أصابها في عينها كسوف ، ونورها يغمر كل ما حولها وإن جفونها لتطبق على عينها إطباق الغمد على سيفه ، ومع ذلك تفتكان بمن يبصرهما كما يفتك السيف القاطع . ويتجسّد تمثل ابن سناء الملك للروح المصرية في تعلقه الشديد - مثل المصريين جميعا - بوطنه ونفوره من الغربة حين يذهب إلى القاضى الفاضل بالشام في إحدى القضايا المهمة ، حتى ليقول :

ووالله ما أَشْرَى الشَّامَ وَمُلْكُهُ وَغُوطَتَهُ الْخَضْرَاءُ بِشَبْرَيْنِ مِنْ شَبْرًا

فغوطة دمشق بمشاهدها الساحرة بل الشام وملكه وصولجانه ، كل ذلك لا يشتريه بشبرين من شبرا : إحدى ضواحي القاهرة . وصيغة مصرية رابعة ماثلة بالقوة في شعره هي حبه لأبويه وأسرته حياً يملك عليه كل شيء من أمره ، مما نراه ماثلا في مراتبه لأمه وأبيه وجده وزوجه وأخته وإخوته . وله في أبيه مدائح بديعة من مثل قوله وكأنه يمدح بعض السلاطين :

يا سائلا عن مَعَالِيهِ لِيَشْهَرَهَا الْبَدْرُ فِي الْأَفْقِ يَسْتَفِي بِشَهْرَتِهِ

ذاك الذى يَسْمُ الدهرُ العَبُوسُ بِهِ تَبْهًا وَتَبْهَجَ الدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِ
وَنَحْسُ فِي مَدِيحِهِ بِسَعَادَتِهِ سَعَادَةٌ غَامِرَةٌ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ عَنْ مَزَلَّتِهِ وَأَدْبِهِ وَعِلْمِهِ وَشَيْعِهِ فِي
إِجْلَالٍ وَإِكْبَارٍ يَفُوقَانِ الْوَصْفَ . وَأَيْضًا مَا تَمَازَى بِهِ مِصْرُ مَنْ تَعَلَّقَ بِالْأَيُّمِ نَجْدَهُ مِصْرًا فِي أَشَارِهِ .

وأهم من استفند مدائحه صلاح الدين والقاضى الفاضل ، ومعروف أن صلاح الدين قضى
على أسطورة الصليبيين وما كان يقال عن بأسهم وما أسسوه في الشام من ممالكهم فقد مزق
جموعهم تمزيقًا ، وردَّ فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . وقد مضى ابن سناء الملك يمدحه
مدائح رائعة منذ إعداده لحرب الصليبيين ومدَّ سلطانه على حلب وغيرها من ديار الشام ، وجمعه
للحرب تحت لوائه ، حتى ينقضَّ بهم على حملة الصليب ، وله يقول :

بِدَوْلَةِ الثُّرُكُ عَزَّتْ مَلَّةُ الْعَرَبِ وَبَابِنِ أَيُّوبَ ذَلَّتْ شَيْعَةُ الصُّلْبِ
وَقِي زَمَانِ ابْنِ أَيُّوبٍ غَدَتْ حَلَبٌ مِنْ أَرْضِ مِصْرٍ وَعَادَتْ مِصْرٌ مِنْ حَلَبِ

وكانه كان يستشعر في عمق أمنية توحيد العالم العربي . وله في صلاح الدين مدائح كثيرة يصور
فيها بطولته وبطولة جيوشه وسحقهم للصليبيين . وما زال صلاح الدين يتزل بهم الدمار ويأخذ
منهم الحصون والبلاد حتى كانت هزيمتهم الكبرى في موقعة حطين ، وفيها جرت دماؤهم أنهارًا
وتعمَّ الفرحة الديار العربية ، وبهنيئ ابن سناء الملك صلاح الدين بهذا النصر المبين قائلا :

لَسْتُ أَدْرَى بِأَيِّ فَتْحٍ تُهَنَّا	يَا مُنْبِلَ الْإِسْلَامِ مَا قَدْ تَمَنَّى
أَنَّهُنَّكَ إِذْ تَمَلَّكَتَ شَامًا	أَمْ تُهَنِّيكَ إِذْ تَمَلَّكَتَ عَدْنَا
قَدْ مَلَكَتِ الْجِنَانُ قَصْرًا فَقَصْرًا	إِذْ فَتَحْتَ الشَّامَ حِصْنًا فَحِصْنًا
لَكَ مَدْحٌ فَوْقَ السَّمَوَاتِ يَنْشَأُ	وَمَحَلٌّ فَوْقَ الْأَسْنَةِ يُبْنَى
حَمَلُوا كَالْجِبَالِ عُظْمًا وَلَكِنْ	جَعَلَتْهَا حَمَلَاتُ خَيْلِكَ عِهْنًا (١)
لَمْ تَلَاقِ الْجِيُوشَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ	مَكَ لَاقِيَتَهُمْ بِلَادًا وَمُدْنَا
وَتَصَيَّدَتْهُمْ بِحَلْقَةٍ صَيْدٍ	تَجْمَعُ اللَّيْثُ وَالْغَزَالُ الْأَعْنَا (٢)

(١) يشير إلى الآية الكريمة : (وتكون الجبال كالعهن) (٢) الغزال الأغصان : الذى يخرج صوته من غياشيمه .
المنفوش . والعهن : الصوف .

والقصيدة مديح رائع وتحمل كثيرا من الصور المبتكرة ، وقد مضى فيها بصور أخذ صلاح الدين لصليب الصليبوت الذى يزعم المسيحيون أن المسيح صُلب عليه ، ويغريه بإحراقه ، كما يصور أخذه لطبرية وعكا ونابلس وبيت جبريل وتينين وغيرها من مدن الشام وحصونه ، وذكر فتكه بأرناط صاحب الكرك بيده جزاء وفاقا لسوء فعله وقوله لتعرضه القبيح للحجاج المصريين ولإعداده أسطولا - كما مر بنا - لغزو مكة والمدينة ، ولما نُقل إليه عنه من استخفاً به بالرسول عليه السلام .

ومدائحه فى القاضى الفاضل كثيرة حتى لُتعدّ بالعشرات ، إذ كاد لا يترك مناسبة دون أن يهديه من أشعاره ، فهو يهديها له فى الأعياد وفى القدوم من الشام ومن الحج وفى انتصارات صلاح الدين ، إذ كثيرا ما ينوّه بها فى مدائحه له ، وهو فيها يبالغ بمبالغات كثيرة من مثل قوله :

صَوَّرَ اللهُ ذَلكَ الشَّخْصَ نَوْرًا وَجَمِيعُ الأَنامِ ماءٌ وَطِينُ

وقوله :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا خَادِمٌ أَنْتَ رَبُّهُ وَمَا الخَلْقُ إِلَّا عَالَمٌ أَنْتَ فَاضِلُهُ

وقوله :

الدَّهْرُ مَدٌّ إِلَيْهِ كَفْتُ مَفْتَقِرٌ فَدُّهُ لِلدَّهْرِ مِنْهُ لَحْظٌ مُحْتَقِرٌ
فِي كَفِّهِ قَلَمٌ إِنْ شَتَّ أَوْ قَلَرُ بِصُرْفِ الخَلْقِ بَيْنَ النِّفْعِ وَالضَّرْرِ

وهو يكرر معنى البيت الثانى ويطيل فيه ، وله يقول :

بِمِيمُونِ رَأَيْكَ كَانَ الفَتْوحُ وَمَنْصُورِ عَزَمِكَ كَانَ القَلْبُ

وكثيرا ما يردد هذا المعنى وكأنه يشير إلى قوله صلاح الدين المشهورة : لم أنتصر على الأعداء

بسببى وإنما انتصرت بقلم القاضى الفاضل ، وفيه يقول واصفا كرمه الفياض :

لَا يَسْتَقِرُّ المَالُ فَوْقَ بَنَانِهِ حَتَّى كَأَنَّ بَنَانَهُ مَحْرُوقُ
يَاطَالِبِينَ ذُرَى عُلَاهُ تَوَقَّفُوا وَمُؤْمِلِينَ نَدَى يَدِيهِ أَفِيقُوا

وهما بيتان رائعان فى وصف الجود ، وبحق كان القاضى الفاضل يستحق منه كل ثناء وكل

تكرم فقد رعاه أعظم رعاية ، ونوه بأشعاره تنويها ليس وراءه غاية وبحق ، يقول له :

شَكَرَى لِنِعْمَاكَ شَكَرَ الأَرْضُ لِلْمَطَرِ أَوَّلَا فَشَكَرَ سَوَادِ العَيْنِ لِلنَّظَرِ

فهو يشكره شكر الأرض المجدة للغيث المذرار الذى يحى مواتها ، بل شكر سواد العين لنور
البصر الذى يصلها بالوجود ومشاهده . وله فيه صور كثيرة مبتكرة مثل قوله فى جوده المنهمر على
الناس :

وقَصَّرَ البحرُ عنه فهو مكتسبٌ أما تراه بكفى مَوْجِهٍ التَّطَمَا
وولَّتِ السَّحْبُ - إذ جارتُه - باكيةً أما ترى الدمع من أجفانها أنسَجَا

فالبحر يشعر لزاء كرمه بقصوره حتى ليندب حظه ويلطم وجهه بكفى موجه ، وإن الغيث
ليبكى بدموع غزار لاتزال تنهل . ونحس بفرحة تسرى فى كثير من مدائحهم للفاضل كما نحس خفة
الظل الذى يشتهر بها المصريون وخاصة فى تخلصاته من الغزل إلى المديح كقوله :

ضُتُّ بطرفِ ظلٍّ يُعَدِّي سَقْمَهُ أَرَأَيْتُمْ مَنْ ضَنَّ حَقَّ بِالضَّنَا
إِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ ثُمَّ رَأَيْتَهَا مَاذَا عَلَى إِذَا هَوَيْتُ الْأَحْسَنَا
وَسَأَلْتُ مِنْ أَىِّ الْمَعَادِنِ ثَغَرَهَا فوجدتُ من عبد الرحيم المعدنا
أَبْصَرْتُ جَوْهَرَ ثَغَرَهَا وكلامه فعلمتُ حقًا أن هذا من هنا

وَضَنَّ صاحبه بالطرف وعدواه وضنَّها حتى بالسقم أو بالضَّنَا غريب ، وتلطَّف فى التخلص
من الغزل إلى مديح القاضى الفاضل عبد الرحيم ما شاء له التلطف والرشاقة وخفة الروح وعذوبة
الكلم . وله فى غزله كثير من هذه التصاویر المبتكرة ، كقوله :

أَقْتِ عَلَى عاشقِكِ الْقِيَامَةَ بورِدٍ لَحْدُ وَغُصْنٍ لِقَامَةٍ
فَمِنْ وَرْدٍ خَلِّكَ كَيْفَ النَّجَاةُ ؟! ومن غُصْنٍ قَدَّكَ كَيْفَ السَّلَامَةِ

وقوله :

وأشكو إلى ليلِ الغدائرِ غَدَرَهَا وأملى عليه وهو فى الأرض يكتب

وقوله :

ألقىَ حَبَائِلَ صَيِّدٍ مِنْ ذَوَائِبِهِ فصادَ قلبيَ بأشْرَاكِ مِنَ الشَّعْرِ

وقوله :

لَا تَحْشَ مَنِ فَنَى كَالنَّسِيمِ ضَنَا وما التَّسِيمُ بمخشى على العُصْنِ

وقوله :

يُعَانِقُهَا مِنْ دُونِي الْعِقْدُ وَحَدَّهُ فَيَا عَجَبًا يَا قَوْمُ هَلْ يَقْلَقُ الْعِقْدُ

وقوله :

سَأَلْتَنِي مَا حَالُ قَلْبِكَ بَعْدِي رَبَّةَ الْبَيْتِ أَنْتِ بِالْبَيْتِ أَخْبِرِي

وهو باب واسع عند ابن سناء الملك ويدل على شاعرية خصبة وأنه كان ما يزال يغوص وراء التصاوير حتى يأتي منها بفرائد عجيبة ، مع حلاوة الأسلوب وعذوبته ، مما يدل على أنه كان شاعرا مبدعا إلى أبعد حدود الإبداع . وسنعود إليه مرارا في عرض موضوعات الشعر الأخرى سوى المديح .

ابن نباتة^(١)

هو جمال الدين محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد ، من سلالة عبد الرحيم ابن نباتة خطيب سيف الدولة المشهور ، وقد غلبت عليه نسبته إليه . كان أبوه وجده من شيوخ الحديث ، وقد ولد لأبيه بزقاق القناديل في القاهرة ، واختلف من ترجموا له في سنة ولادته هل كانت سنة ٦٧٦ أو سنة ٦٨٦ وجمهورهم يؤكد أنه ولد في السنة الأخيرة ، غير أن هناك نصا عنه يذكر فيه أساتذته أو شيوخه في الأدب ، ويذكر من بينهم محيي الدين بن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ وليس من المعقول أن يتلمذ له ويأخذ عنه الأدب وهو في الخامسة أو السادسة من عمره ولذلك كنا نرجح أنه ولد في سنة ٦٧٦ على الأقل إن لم يكن قبيل ذلك . ويذكر مترجموه كثرة من شيوخه في الحديث من بينهم أبوه وجده . وتنقل في حلقات شيوخ الأدب وتفتحت موهبته الأدبية في الشعر والنثر مبكرة . وكان كثير من العلماء في مصر يرحونها إلى دمشق والشام في تلك الحقب . وبالمثل كان كثير من علماء الشام يرحونها إلى مصر والقاهرة ، ويرجع أبوه مصر إلى الشام

مواضع متفرقة وكتاب ابن نباتة المصري لعمر موسى (طبع دار المعارف) والأدب في العصر المملوكي لمحمد زغلول سلام (طبع دار المعارف) ٢٢١/٢ و طبع ديوانه قديما في مصر وهو في حاجة إلى طبعة محققة ، ومنه عطلوطات كثيرة في مكاتب العالم العربي والغربي

(١) انظر في ابن نباتة وشعره الدرر الكامنة ٣٣٩/٤ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وطبقات الشافعية طلسكي ٢٧٣/٩ والوفاء بالوفيات للصفدي ٣١١/١ والبداية والنهاية لابن كثير ٣٢٢/١٤ والنجوم الزاهرة ٩٥/١١ وشنرات الذهب ٢١٢/٦ والبدر الطالع ١٥٢/٢ . وخزانة الأدب للحموي في

حوالى سنة ٧١٠ وبتزل دمشق ، ويأخذ الطلاب عنه الحديث ^(١) ، ويستقر بها ويتولّى فيها بعد مشيخة الحديث بالمدرسة الظاهرية هناك . ولعل ارتحال أبيه عن مصر هو الذى حبّب إليه الرحلة وراءه إلى دمشق واتخاذها منذ سنة ٧١٦ دار مقام له ، وظل بها مدة تقارب نصف قرن أو بعبارة أدق نحو خمسة وأربعين عاما ، وقد ظل يحن إلى مصر حيننا متصلا بمثل قوله :

أو لمصرَ وأرض مصرَ وكيف لي .. بديار مصرَ مراتعا وملاعبا
حيث الشبيبة والحبيبة والوفا في الأقربين مشاربا وأصحابا
والدهرُ سلمٌ كيفما حاولته لا مثلُ دهري في دمشق محاربا

وقواده يهفو إلى مصروترباب مصر ونيل مصر ورياض مصر ومراتع صباه بها وملاعبه ، ويقول إنها ديار شبابه وجهه وديار الوفاء في الأقرباء وغير الأقرباء وديار الأمن والسلام ونعيمه . وفى أثناء مقامه بدمشق كان يتردد على حلب ، وبالأخص على حماة وصاحبها المؤيد أبى الفداء الذى استقبله أروع استقبال ، وقرر له راتبا سنويا : ستائة درهم غير ما كان يسبغه عليه من العطاء كلما قدم عليه بمدحة من مدائحه ، وظل يفد عليه حتى توفى سنة ٧٣٢ فوفد على ابنه الأفضل من بعده .

وفى دمشق والشام تفجر ينبوع الأشعار عند ابن نباتة حتى أصبح - كما يقول ابن كثير والسبكي - حامل لواء الشعر فى زمانه ، غير منازع ولا مدافع . وأروع أيامه حينئذ أيام اتصاله بالسلطان المؤيد ، ونراه لا يكتفى بما يقدم إليه من مدائح ، بل يؤلف الكتب باسمه ويهديها له مثل كتابه « سَرَحُ العيون فى شرح رسالة ابن زيدون » وهى الرسالة الهزلية ، ومثل كتابه « مجمع الفوائد » . وكان قد قرظه كثيرون من فضلاء دمشق وعلمائها وأدبائها ، مما جعله يؤلف فيهم كتابه « سجع المطوق » مترجا لهم ، وهو كتاب نفيس لا يزال مخطوطا . ونراه فى هذه الفترة : فترة اتصاله بالسلطان المؤيد وثيق الصلة بشيوخ دمشق وأعلامها ، من مثل ابن الزمكافى وابن صَصْرَى القاضى والشهاب محمود شاعر الشام وتقى الدين السبكي وابنه تاج الدين وابن فضل الله العمرى ، وله فيهم جميعا مدائح بديعة . وكان ابن فضل الله يتولى كتابة السر فى دمشق ، فكان

(١) انظر ترجمته فى الواقى بالوفيات ٢٧٠/١ والدرر

طبيعياً أن يقرب ابن نباتة ويعهد إليه بكتابة التوقيع . وكان أحياناً يُعزل عنها وأحياناً يعود إليها حتى سنة ٧٦١ . وفي هذه السنة استدعاه الناصر حسن سلطان مصر والشام إلى القاهرة في ربيع الأول وأمر أن يُصَرَّفَ له ما ينتجُ به وأن يرد عليه ما انقطع عنه من الراتب ، وعينه موقِعاً للُدُسْتِ وكانت قد تقدمت سنه ، فلم يستطع القيام بتوقيع اللُدُسْتِ ، فأعفاه السلطان حسن من الحضور وأمر بإجراء راتبه عليه ، كما أمر بنسخ ديوانه وحفظ نُسخٍ منه في المكاتب السلطانية . وبذلك أُمِّرَ على الشعراء ، مما جعله يلهج بمدحه والثناء عليه . ولم يلبث السلطان حسن أن توفي ، وكان راتبه ربما صُرف له وربما لم يصرف حتى توفي بمارستان قلاوون سنة ٧٦٨ للهجرة .

وكان تَبَعُ الشعر عند ابن نباتة فياضاً ، فله بجانب ديوانه الكبير ديوان سماه « القطر النبأ » وهو خاص بمقطوعاته الشعرية ، والقطر السكر والتورية في اسم الديوان واضحة ، يريد السكر النبات . وله ديوان خاص بغزلياته سماه « سوق الرقيق » . وديوانه الكبير يحتفظ بالمدائح ، وعُنِيَ كثيرون من معاصريه بمعارضته في بعض قصائده ، واشتهر الصفدي بكثرة إغاراته على معانيه ، وخاصة على تورياته البديعة وكان مغرماً بصنعها ، وألف في سرقات الصفدي منه كتاباً سماه « خبز الشعير » يريد أن سرقاته كخبز الشعير المأكول المنعوم ، واستهل خطبة هذا الكتاب بالآية الكريمة : (رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً) ويورد دائماً أبياته موضع السرقة ، ثم يورد سرقة الصفدي مثل قوله في الغزل مورياً .

ومولع بفخاخ يمدّها وشبّاك
قالت لي العين ماذا يصيدُ قلت كراكي

ويقول الصفدي :

أغار على سَرَحِ الكرى عند ما رمى الـ كراكي غزالٌ للبذور يحاكي
فقلت ارجعي يا عينُ عن وِردِ حسنهِ ألم تنظره كيف صادَ كراكي
والكرى : النوم ، والكراكي طير مفردة كركى . والتورية واضحة عند ابن نباتة وخفيفة رشيقة وقد أحالها الصفدي ثقيلة بما أضاف إليها من شرح وتطويل ، ومن ذلك قول ابن نباتة متغزلاً :

فديتُك أيها الرامي بقوسٍ ولَحَظُ يا ضناً قلبي عليه
لقوسك نحو حاجبك انجذابٍ وشيئُ المشي منجذبٌ إليه

ويقول الصفدى :

تَشْرَطُ مَنْ أَحَبُّ فَذُبْتُ وَجَدًا فقال وقد رأى جَزَعِي عَلَيْهِ
عَقِيقُ دُمِي جَرَى فَأَصَابَ خَدِّي وشيئةُ الشيء منجذب إليه
وتشبيهه الحاجب بالقوس والمجذابه إليه طبعي ، أما انجذاب الدم إلى الخَد وتشبيهه به فافرمته
بعيد .

وابن نباتة في شعره يمثل بحق ما تمتاز به الروح المصرية من الحقة والرشاقة . ويذكر السبكي في كتابه طبقات الشافعية أنه مدح ابن الزملاكاني بتأثية رائعة بدأها بالغزل ووصف الخمر ، وأنشدها ثم قال : « حاول أدباء عصره معارضته فيها فلم يحسنوا إحسانه ، بل قصّروا وتأخروا ولم يلحقوا شأوه »^(١) . وأروع مدائحهم ما نظمته في المؤيد صاحب حماة وابنه الأفضل ثم بعد ذلك في السلطان حسن ، وقد دُبِّح في المؤيد نحو أربعين قصيدة ومقطوعة من مثل قوله :

لو أَنَّ للبحر جَنَواه لفاض على وَجَهَ الثَّرَى بنفيس الدرّ منصودٍ
ولو أمرٌ على صُلْد الصِّفَا يده لَأَتَيْتُ العُشْبَ منها كُلُّ جُلُودٍ
ياحِبُّدا الملكُ السارى على شِمِّمٍ تَرَوَى وَتَنْقَلُ عن آبائه الصِّيدِ
أَغْنَى العَفَاةَ فلولا ناهياتُ تَقَى - أَسْتَغْفِرُ اللهَ - نَسَمَوه بمعبودٍ

وهو دائم الإشادة بجوده الفياض على العفاة والسائلين ، ويكثر من مديح أسرته الأيوبية وآبائه الصيد الشجعان وماشادوا لأنفسهم من بيت فخار ملّوه في أعلى السموات ولا يزال يتألق ويضيء بين الكواكب . وكان المؤيد مؤرخا كبيرا ، وعالما في العربية والفقه والأصول والطب والفلك والمنطق والفلسفة ، وبنوه ابن نباتة مرارا بعلمه من مثل قوله مشيرا إلى تصانيفه الكثيرة :
العالمُ الملكُ السيارُ سَوْدُدُهُ في الأرض سَيْرَ الدَّرَارِي بين أَفلاكِ

وقوله :

وللعلوم تصانيفٌ بدَتْ فَغَدَتْ نعم السَّوَارُ على الإسلام والسُّورُ
وكان مولعا بالتورية كما أسلفنا ، وكان يدخلها في مدائحه للمؤيد ، وورّى كثيرا باسم مدينته حماة عن الحماة الحقيقية ، ومن تورياته الطريفة في مديحه قوله :

أقسمتُ ما الملك المؤيدُ في الورى إلا الحقيقةُ والكرامُ مجازُ
هو كعبةُ للفضل ، ما بين الثدى منها وبين الطالبين حِجازُ

وواضح أنه ورئى في كلمة « مجاز » فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للحقيقة ، وإنما أراد بها المعنى البعيد وهو المَعْبَرُ ، ورئى في كلمة « حجاز » فلم يرد بها المعنى القريب الذى تشير إليه كلمة الكعبة وهو الحجاز لإقليم الكعبة المعروف ، وإنما أراد المعنى البعيد وهو الحجاز ، ومن ذلك قوله في مديح المؤيد :

يذكرنا أخبارَ مَعْرٍ بجوده ونشئى له لفظاً فينشئ لنا مَعْنَا

ومعنى بن أوس المزنى مشهور بجوده فى مفتتح العصر العباسى شهرة حاتم فى الجاهلية ، وقد ورئى آخر البيت فى مدلول كلمة معنى ، فلم يرد بها المعنى القريب المقابل للفظ وإنما أراد بها مَعْنَا المزنى .

ومملوحوه الثانى فى الديوان بعد المؤيد ابنه السلطان الأفضل ، وقد أنشده حين تولى إمارة حاة بعد أبيه تهنته بسلطنته وتعزية له عن أبيه ، تُعَدُّ من فرائد الشعر العربى ، وفيها يقول :

هناك محاذك العزاء المقدما فما عبسَ المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام فى ثغور مدامع شيبان لا يمتاز ذو السبق منها
مليكان هذا قد هوى لضريحه برغى وهذا للأسرة قد سها
كان ديار الملك غاب إذا انقضى به ضيغم أنشا به الدهر ضيغما
فإن يك من أيوب نجم قد انقضى فقد أطلعت أوصافك القر أنجما
وإن تك أيام المؤيد قد مضت فقد جددت عليك وقتا وموسما
هو الغيث ولئى بالثناء مشيعا وأبقاك بجرا بالمواهب منعمما

وعلى هذا النحو تمضى تهنته الأفضل جامعة بين التقيضين فى كل بيت : بين المدح والثناء ، وفى ذلك ما يصور براعة ابن نباتة وحدة ذهنه ودكانه وخصب شاعريته وسهولة أسلوبه ، وهى سهولة تتمم سهولة أشعار ابن سناء الملك ، بل سهولة أشعار المصريين عامة ، سهولة تقترن بعذوبة ، وكأنها نفس عذوبة مياه النيل ، وكان يحس ذلك معاصروه إزاء أشعاره وما تقترن به من حلاوة ، فقالوا إن أشعاره سكر نبات أو قطر نبات . وله فى مديح الأفضل وآبائه الأيوبيين :

قَوْمٌ لَذِكْرِهِمْ عَلَى صُحُفِ الْعُلَا
الْمَلِكُ بَعْضُ دِيَارِهِمْ فَلْيَتَرَلُوا
إِنْ يَبْقَ مَا ضِيحِهِمْ عَلَى سَنَنِ الْوَفَا
مَلَأَتْ مَوَاهِبُهُ الْقُلُوبَ مَهَابَةً
وَكَأَنَّمَا أَقْلَامُهُ بِسَوَادِهَا
لَا عَيْبَ فِيهِ سِوَى الْعِزَامِ قَصُرَتْ
أَصْلُ الْفَخَارِ وَكُلُّ ذِكْرِ مُلْحَقُ
وَالنَّجْمُ بَعْضُ جُلُودِهِمْ فَلْيَتَرَفُوا
فَلَأْتَهُمْ بَيْقَاءُ أَفْضَلِهِمْ بَقَا
فَالْقَلْبُ قَبْلَ الطَّرْفِ فِيهَا مُطْرَقُ
غُرْبَانُ بَيْنَ فِي الْخِزَانِ تَنْعَقُ
عَنْهَا الْكَوَاكِبُ وَهِيَ بَعْدُ تَحْلُقُ

وواضح أنه مع سهولة الأسلوب في القصيدة نحس كأن الألفاظ يستدعي بعضها بعضا مع جمال التصاوير فالقلب مطروق قبل العين هيبة ، والأقلام كأنها غربان فراق الخزانين الأمير ماتزال تنعق في أموالها بالين والبعد إلى غير مآب ، وعزائم الأفضل ماتقى محلفة في السموات البعيدة ، حتى لتعلو الكواكب في تحليقها المتغلغل في الفضاء ، وإن قومه لأصل الفخار وكل فخر لغبرهم إنما هو ملحق بفخرهم . وكان قد خرج مع الأفضل في رحلة صيد ، فوصفها في أرجوزة طويلة نيفت على مائة وستين بيتا ، وصف فيها رياض حماة ثم أطنب في وصف القنص بالشواهين والصقور والكلاب والبندق بمثل قوله :

وَكُلُّ شَاهِينٍ شَهَى الْمُرْتَمَى
بَيْنَا تَرَاهُ ذَاهِبًا لَصِيدِهِ
حَقٌّ تَرَاهُ عَائِدًا مِنْ أَفْقِهِ
وَكُلُّ صَقِيرٍ مُسْبِلٍ الْجَنَاحِ
ذُو مَقْلَةٍ لَهَا ضَرَامٌ وَاقِدُ
كَأَنَّمَا الْمُخْلَبُ مِنْهُ مِنْجَلُ
وَكُلُّ مَنْسُوبٍ إِلَى سَلُوقِ
طَاوِي الْفُؤَادِ نَاشِرِ الْأَظْفَارِ
يَعُضُّ بِالْبَيْضِ وَيَخْطُو بِالْقَنَا
كِبَارِي طَارٍ وَصَوْبٍ قَدْ هَمَّا^(١)
مَعْتَصِمًا بِأَيْدِهِ وَكَيْدِهِ^(٢)
مُلْتَزِمًا طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ
مَوَاصِلُ الْغَدُوِّ وَالرَّوَاحِ^(٣)
يَكَادُ يَشْوِي مَا يَصِيدُ الصَّائِدِ
لِخَصْدِ أَعْمَارِ الطَّيُورِ مَرْسِلِ
أَهْرَتَ وَثَابِ الْخُطَا مَمْشُوقِ^(٤)
بِاعْجَبًا مِنْهُ لَطَاوٍ نَاشِرِ
وَيَسْبِقُ الْوَهْمَ لِإِدْرَاكِ الْمَنَى

(٤) سلق تنسب إليها كلاب الصيد اللوقية . أهرت : واسع الشدق .

(١) الصوب : الطير . هما : سأل

(٢) الأيد : القوة

(٣) مسبل : مرسل

وإنما نتمثل بهذه الآيات جميعها من الأرجوزة لندل على أن أرجوزة الطرد والصيد المليئة بالألفاظ الغريبة عند أبي نواس ومن جاءوا بعده استحالت إلى هذه اللغة السهلة عند ابن نباتة بفضل مهارته الأسلوبية ، والآيات محملة بصور بديعة ، فقلعة الصقر كأنها شعلة نار ومخلبه كمنجل يحصد من الطير الأعمار ، وكل كلب سلوق يعض بأسنانه الحادة ويخطو بسيقان كأنها القتا أو الرماح القاتلة . وختم الأرجوزة بمدح الأفضل وبحق سماها : « نظم السلوك في مصايد الملوك » .

ومملوحة الثالث السلطان الناصر حسن ، مدحه بأخرة من حياته حين ألقى عصاه بالقاهرة ، وليس في مدحه له الحرارة التي ألقاها في مدح الأفضل وأبيه المؤيد ، وقد يكون ذلك لتقدم سنه ، وله بقول :

يَانَاَصِرَ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا لَقَدْ نَفَذْتُ أَقْلَامُ مَدْحِكَ فِي الدُّنْيَا بِسُلْطَانِ
دَانَتْ لَكَ الْخَلْقُ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضَرٍ وَفَاضَ جَوْدُكَ فِي قَاصِرٍ وَفِي دَانِي
هَذِي الْمَدَائِنُ مِنْ أَقْصَى مَشَارِقِهَا لَمُنْتَهَى الْغَرْبِ فِي طَوْعٍ وَإِذْعَانِ

وله وراء مدح السلاطين والأمراء والعلماء والكتاب مدح نبوى رائع . وبينه وبين صلاح الدين الصفدى محاورات ومراسلات ومعاتبات ، وأرسل إليه الصفدى قصيدة عتاب جعل شطورها الثانية أعجاز معلقة امرئ القيس ، مفتتحاها بقوله :

أَفَى كُلِّ يَوْمٍ مِنْكَ عَتَبٌ يَسُوؤُنِي كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عُلَى

ولعله كان يعاتبه لتسجيله عليه سرقاته منه في كتابه « خبز الشعير » المألف . وصنع ابن نباتة صنيعة فرد عليه بقصيدة من نفس الطراز شطورها الثانية مقتبسة من نفس الشطور في معلقة امرئ القيس استهلها بقوله :

فَطَمَتَ وَلَانِي ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَاتِبَا أَفَاطُمُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ
وَإِبْنُ نَبَاتَةَ كَثِيرُ الشُّكْوَى فِي شَعْرِهِ مِنْ بَوْسِهِ وَرَقَةُ حَالِهِ ، وَرَبَّمَا صَدَقَ ذَلِكَ عَلَى أَيَّامِهِ قَبْلَ لِقَاءِ
الْسلطان المؤيد الذى غمره بنواله ، وربما كان لكثرة عياله أثر في ذلك ، بل إنه يعلن هذه الكثرة في مثل قوله :

لَقَدْ أَصْبَحْتُ ذَا عُنُرٍ عَجِيبٍ أَقْصَى فِيهِ بِالْأُنْكَادِ وَقْفَى
مِنْ الْأَوْلَادِ خَمْسٌ حَوْلَ أُمِّ فَوَاحِرِيَاهُ مِنْ خَمْسٍ وَسِتٍّ

وكلمة ست لا يريد بها العدد كما يتبادر ، وإنما يريد أم عياله ، ويسمى سته أو سببته . وكان مرزاً ، حتى يقول ابن تغرى بردى في ترجمته بالمنهل الصافي إن كثيرين من أولاده توفوا في سن الخامسة والسادسة والسابعة ، فكان يألم لهم ويرثيهم مرثى كثيرة ، وله رثاء حار في السلطان المتوحد وابنه الأفضل . ويقول الشوكاني : هو أشعر المتأخرين ولا سيما في الغزليات .

عبد الله^(١) الشبراوى

من بيت علم وجلالة ، كما يقول الجبرى ، ولد في سنة ١٠٩٢ ومضى في نعومة أظفاره يحفظ القرآن الكريم ، ثم اختلف إلى الشيوخ بالأزهر يأخذ عنهم الفقه الشافعى ، وسرعان ما ظهرت براعته ، فأمل وحاضر الطلاب . واعترف له الجميع بالفضل والتعمق في الشريعة والعلوم الدينية ، مما أتاح له أن يتولى مشيخة الأزهر في سنة ١١٣٧ . وكان له جاه رفيع ومترلة عظمى عند الأمراء ورجال الدولة ، وكانت كلمته لديهم نافذة وشفاعته مقبولة . وصار لأهل العلم في مدة مشيخته للأزهر مقام على وهيبه ونجته عند الخاص والعام ، ومن مؤلفاته عنوان البيان وبستان الأذهان في الأدب والسلوك والأخلاق وشرح الصدور بغزوة بدر والإتحاف بحب الأشراف وديوان منائح الألفاظ في مدائح الأشراف ، وكلها مطبوعة بالقاهرة من قديم . يقول الجبرى : « وله ديوان يحتوى على غزليات وأشعار ومقاطع مشهور بأبدى الناس » . ومازال يتولى مشيخة الأزهر حتى وفاته سنة ١١٧١ عن نحو ثمانين سنة .

وللشبراوى مدائح في ولاية مصر العثمانيين ، وأهم وال دُيِّج فيه مدائحه عبد الله الكبورى أو الكبورى لأوائل العقد الخامس من القرن ، وكان جديراً حقاً بمدحه له ، إذ يقول الجبرى عنه : « كان خبيراً صالحاً منقاداً إلى الشريعة أبطل الحارات والمنكرات » ويقول « إنه كان من أرياب الفضائل وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى الأدب » . ويذكر أن للشبراوى فيه مدائح طنانة ، وفيه يقول :

سليلاً المكرمات ابنُ الكبورى كريمُ الطبع والأصلِ الشهير
أقام العدلَ في مصرٍ وأحياناً معاملةً بها بعدَ الدُّثورِ

وإن لمعت صوارمه بأرضي تسارعت العصاة إلى القبور
وإن حادثته في العلم تلقى بحورا موجها در الثحور
وإن ساومته شعرا فحدث عن ابن أبي ربيعة أو جرير
وإن تسمع تلاوته تجده حكي داود يلهج بالزبور
أدام الله دولته بمصر ومتعنا به دهر الدهور
وأنقذنا به من كل كرب وكف بغزوه أهل الفجور

ونسبح القصيدة جيد ، والشبراوى يمدح الكبورى بقضائه على أهل الفجور وإشاعته للعدل الذى لا تصلح حياة الأمة بدونه ، وينوه بعلمه وحسن تلاوته للذكر الحكيم كما ينوه بشعره ونثره . وقد مضى فى القصيدة يمدحه ببلاغته وتفوقه على نوابغ الشعراء من أمثال ابن هانئ الأندلسى ونوابغ الكتاب من أمثال الحريرى . وكثرت منذ زمن الممالك تقاريط الكتب والمصنفات الأدبية والبلاغية ، وللشبراوى من تقريظ لبديعه وشرحها لعل بن تاج الدين :

أذاك نغر تسمم أم ذاك لطف تجسم
أم روضة قد تغنى شخروها ونرسم
أم الصبا حين هبت أزال الهم والهم
قد كنت أعتب دهرى وأحسب الدهر أعقم
حتى رأيت عجيبا من فضلك الباهر الجم
فكل لفظك لطف وكل معنك محكم

والتقريظ طويل إذ تحول به الشبراوى إلى مدحة يشيد فيها بعلم على بن تاج الدين وحفظه وفهمه كما يشيد بنثره وشعره وذكائه وبراعته . وكان من عادة الشعراء حين يتولى أمير أو يتوفى هو أو بعض العلماء أو الأدباء أن ينظموا أبياتا فى تلك المناسبة ، إذا حُسبت حروف الكلمات فى شطرها الأخير بحساب الجمل أرخت لسنة الوفاة أو الولاية ونحو ذلك . وكان الشبراوى يشارك فى هذا الصنيع ، من ذلك تأريخه لوفاة الشيخ أحمد الدلنجاوى شاعر وقته المتوفى سنة ١١٢٣ للهجرة :

سألت الشعر هل لك من صديق وقد سكن الدلنجاوى لخذة
فصاح وخر مغشيا عليه وأصبح ساكنا فى القبر عنده
فقلت لمن أراد الشعر أقصر فقد أرخت : مات الشعر بعده

وللشيخ الشبراوى بعض غزليات رقيقة ، كان يفرد لها أحيانا مقطوعات قصيرة ، وأحيانا يجعلها فى مقدمات مدائحه على عادة الشعراء السابقين ، ومن قوله فى مقدمة إحدى مدائحه لعبد الله الكبورى :

أَعِدْ خَبَرَ الْعُدَيْبِ وَسَاكِنِيهِ وَكُرِّرْ طَيْبَ ذِكْرِهِمْ عَلَيَّا
فَإِنَّهُمْ - وَإِنْ هَجَرُوا وَصَدُّوا أَحَبُّ النَّاسِ كُلِّهِمْ إِلَيَّا

وواضح أن صياغة الشبراوى جيدة ، وفى شعره وشعر أمثاله من معاصريه ما يدل على أن الشعر كانت لاتزال فيه أيام العثمانيين بقية من حيوية وحياة .

٥

شعراء المراثى والشكوى

نشط الرثاء فى مصر من قديم ، وملتقى به زمن الولاة فى العهد الأموى ، ولعل أهم وال رثاه الشعراء حين موته عبد العزيز بن مروان ، وكان - كما مرَّ بنا - ممدِّحا ، وتصادف أن توفى بعد وفاة ابنه الأصغر بنحو شهر ، فبكاهما الشعراء ، وسجل الكندى بكاءهم لهما فى كتاب الولاة والقضاة كما سجل بكاءهم لدارهما المذهبة حين أمر مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين بحرقها وهو فارق بمصر وجيش العباسيين يطارد ، وكان عبد العزيز قد تأتق فيها ، وكأنما عزَّ على مروان أن تصير للعباسيين .

ونخصى فى زمن الولاة وتلقانا فى كتاب الولاة والقضاة مراثٍ مختلفة لنفر منهم ولبعض الشخصيات العربية ، وفى رأينا أن أهم مراثية خلفتها تلك الحقبة مراثية المعلّى الطائى لجاريته ، وقد أشرنا إليها فيما أسلفنا من حديث . وتظلَّ الدولة الطولونية مصر ، ومرَّ بنا ما كفلته لمصر من استقلال عن بغداد ومن نهضة عمرانية وعلمية وأدبية وما أقامته من آثار عظيمة فى مقدمتها قصر ابن طولون وميدانه الذى حوله خمارويه إلى بستان رائع واتخذ فيه بركة من الزئبق ، واتخذ لنفسه فى قصره مجلسا سماه مجلس الذهب نُقش على جدرانه صور بارزة له ولخطاياه وعلى رؤوسهن أكاليل الذهب المرصعة بالجواهر . وأغدقت الدولة على الشعراء إغداقا واسعا ، فلما قضى عليها جيش الخلافة العباسية بقيادة محمد بن سليمان - كما أسلفنا - وهُدمت آثارها بكاهها الشعراء وبكوا آثارها

بلموع غزار من مثل قول إسماعيل بن أبي هاشم ^(١) :

قِفْ وَقْفَةً بِفَنَاءِ بَابِ السَّاجِ وَالْقَصْرِ ذِي الشَّرَفَاتِ وَالْأَبْرَاجِ ^(٢)
 وربوع قوم أزعجوا عن دارهم بعد الإقامة أيما إزعاج
 فانظر إلى آثارهم تلقى لهم علما بكل ثنية وفجاج ^(٣)

ولسعيد القاصّ مريّة طويلة للدولة وآثارها احتفظ بها الكندي ^(٤) في كتابه الولاة والقضاة ،
 واقتطف بعض أبياتها ابن تغرى بردى وأنشدها مع ما أنشد من مرأى الشعراء للدولة وما كانت
 أقامت من قصور ومبان وآثار فخمة ضخمة ، ومن قول ابن أبي هاشم مخاطبا القصر وقد خلا
 من سكانه :

بِالله عندك عِلْمٌ مِنْ أَحْبَبْنَا أَمْ هَلْ سَمِعْتَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِنَا خَبْرًا

وتكاثر الشعراء - كما مرّ بنا في غير هذا الموضع - لعهد الدولة الإخشيدية ، غير أنهم لم ييکوها
 حين دخل جوهر الصقل مصر واستولى عليها باسم إمامه المعز لدين الله سنة ٣٥٨ وقد يرجع ذلك
 إلى أن مدة الإخشيد لم تطل ، وخلفه ابنه أنوجور حتى سنة ٣٤٩ فأخوه على حتى سنة ٣٥٥ وكان
 كافور مذبر مملكتها ، ولم يكن لها من السلطان شيء . وخلف عليا كافور حتى سنة ٣٥٧ وتوفى
 فخلفه أحمد بن علي بن الإخشيد وعمره إحدى عشرة سنة ، واضطربت أمور مصر اضطرابا
 شديدا ، ولم يتداركها الخليفة العباسي ببغداد ، وسرعان ما دخلت رايات المعز الفاطمي بقيادة
 جوهر ، واستولى على البلاد دون مقاومة تذكر ، وكأنما تنفست مصر الصعداء بزوال هذه الدولة
 فلم ييکها أحد من شعرائها على نحو ما يکوا الدولة الطولونية .

وتلقانا في أوائل الدولة الفاطمية مرثى مختلفة لعم بن المعز أول خلفائها بمصر ، وكان أكبر
 أولاده ، وكان المظنون أن يتخذ ولي عهده ، غير أن سيرته السيئة جعلت أباه يصرف ولاية العهد
 عنه إلى أخيه عبد الله ، حتى إذا توفى مبكرا سنة ٣٦٤ حولها إلى أخيه نزار الذي تلقب بلقب
 العزيز ، ولعم مرثية في أخيه عبد الله مطلعها ^(٥) :

كُلْ حَيًّا إِلَى الْفَنَاءِ يَصِيرُ وَالسَّيَالَى تَعْلَةُ وَغُرُورُ

وكان ابن طولون قد بنى مدينة القطائع فوق قلعة الجبل .

(٤) الولاة والقضاة ص ٢٥٣ .

(٥) ديوان عم بن المعز لدين الله الفاطمي (طبع دار

الكتب المصرية) ص ١٤٧ .

(١) النجوم الزاهرة ١٤٠/٣ . وانظر الولاة والقضاة ص

٢٥٢

(٢) باب الساج : أحد أبواب القصر .

(٣) التنية : الطريق في الجبل ، والفجاج . الطرق .

ويبكي شبابه بدموع غزار ، وما يلبث القدر أن يلم بأبيه المعز سنة ٣٦٥ ويرثيه بمقطوعة قصيرة تخلو من اللوعة على فقده ، وهو شئ طبيعي لتحيته له عن العهد . ويتوفى أخوه عقيل عن ثلاثين عاما ، ويبكي فيه الحسين الشهيد وآباءه الفاطميين . ويبكي جارية له بكاء فيه غير قليل من اللفة والحسرة على ما ضاع منه فيها من الجمال وحسن الصوت والغناء وطيب المدام كما يقول ، ويبكي بالمثل قينة مغنية . وله في الحسين مرثية رائعة ، وهو يبكيه بكاء مؤثرا قائلا^(١) .

نَحْرُوهُ غَيْرَ مَذْمُومٍ نَحَرَ الْهَدَايَا لِلضَّحِيَّةِ

ويصور موقعة كربلاء وما سُفك فيها من دماء البيت العلوي ، ويصف موكب النساء اللائي كنَّ مع الحسين وهنَّ مشهَّرات على ظهور الإبل إلى يزيد بالشام ولا من يرحمهن أو يشفق عليهن ، ويتوعد الأمويين بالويل والثبور والدمار ، والمرثية تكتظ بالأنات واللوعات الممضة . وثلثي بالمسبحي مؤرخ دولتهم المتوفى سنة ٤٢٠ ويذكر له ابن خلكان في ترجمته مرثية لأبيه ومرثية أخرى لأم ولده ، وفيها يقول^(٢) .

وباليتنى للموت قُدِّمْتُ قبلها وإلا فليت الموت أذهبتنا معا

وتكثر مرثى الشعراء لخلفاء تلك الدولة ، ومن ذلك مرثية أبي المناقب عبد الباقي بن علي التنوخي للمستنصر ، إذ يقول^(٣) :

وليس رَدَى المستنصر اليوم كالرَدَى ولا أمرُه أمرٌ يقاسُ به أمرٌ
وقد بكت الخنساء صخرًا وإنه ليبيكه من قَرَط المصاب به الصَّخْرُ

وقلما مات وزير في العصر إلا بكاه الشعراء وبالمثل القضاة وكبار الكتاب وأصحاب الوظائف العليا في الدولة ، وتلقانا من ذلك طرائف كقول ابن قادوس الدمياطي في مرثية^(٤) :

يا فجعاً هي في الجنان مسرةً لقدومه تختال في عُرفاتها
إن كان في الدنيا عليه مائتم فأراه عرسَ الجور في جئاتها

وحين قضى صلاح الدين الأيوبي على هذه الدولة لم يبكيها المصريون ولا ودَّعوا ، لأنهم لم يكونوا راضين عن عقيدتها الإسماعيلية المفرطة في الغلو ، وكان حكمها قد فسد فسادا شديدا على

(١) الديوان ص ٤٥٥ وما بعدها .

(٣) النجوم الزاهرة ٢٣/٥

(٤) الحريدة (قسم شعراء مصر) - ٢٣١/١ .

(٢) ابن خلكان ٣٧٨/٤

نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وتكفل بذلك شاعر من شيعتها هو عمارة اليمنى الذى ترجمنا له في الجزء السابق من هذا التاريخ للأدب العربى . ولعل بطلا لم ييكه الشعراء كما بكوا صلاح الدين محطم الصليبيين حين انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، وقد أقيمت عليه المآتم في غير بلد من البلدان العربية ، ورثاه كثير من الشعراء ، من ذلك قول العماد الأصهباني في رثائه ^(١) :

لا تحسبوه مات شخصا واحداً قد عمّ كلّ العالمين مماتُهُ
لو كان في عصر النبىِّ لأُنزلتْ في ذكرو من ذكرو آياته
ياراعيا للدين حين تمكنتُ من كل قلب مؤمن روعاته
فعلى صلاح الدين يوسف دائما رضوان ربّ العرش بل صلواته

وهى مرثية طويلة في مائتين وثلاثين بيتاً ، صوّر فيها جهاده في الدين واستبساله في حروب الصليبيين حتى استخلص منهم بيت المقدس وأكثر بلدانهم وحصونهم في الشام ما حقاً لهم محقاً ذريعا . ويتوفى صلاح الدين ويخلفه ابنه العزيز سنة ٥٨٩ كما مرّ بنا في غير هذا الموضع ويتوفى سنة ٥٩٥ ويخلفه أخوه الأفضل وما يلبث عمّه العادل أن يستولى منه على عرش مصر ، ويعمل على تغية آثار العزيز ويبيكى القاضي الفاضل قصره وقصر أبيه بمثل قوله مخاطبا القصر ^(٢) .
وكم قد حَجَجْنَا فِيكَ للمجدِ كعبَةً وكم قد أَقْبْنَا فِيكَ للحجِّ مَوْسِمًا
وكم قد وَجَدْنَا فِيكَ رَافَةً رَاحِيَةً إِذْ تُعْطَى حَظِيمًا وَزَمْزَمًا
ولابن سناء الملك مراث مختلفة في أصدقائه وأقربائه وأهله ، وله نذب رائع في أبيه ، تنهمر فيه دموعه ، وتنسكب ، وهو يذكر تقواه ونسكه ذكرى مضمّة ، وما يزال يندبه ويبيكه قائلا ^(٣) :

ويا أرضه إن ينكسف بك بذرُهُ فما برحتُ في الأرض تُكْسِفُ أَقَارُ

وينفس اللوعة والحرقة لموت الأب يلتاع لموت الأم وتظلم الدنيا في عينه ، وبحس كأنما كان في فردوس معها من فراديس الجنان وأخرج منه إلى غير أوبة يقول ^(٤) :

لَهَفَ نَفْسِي عَلَيْكَ يَا مَا بَقَلْبِي مِنْكَ يَا طُولَ حَسْرَتِي وَعَنَانِي
كَتَبْتُ فِي جَنَّةٍ فَأُخْرِجْتُ مِنْهَا وَاسْتَعَادَ الْعِطَاءَ رَبُّ الْعِطَاءِ

(٣) ديوان ابن سناء الملك (طبعة جيدر آباد) ص

(١) النجوم الزاهرة ٦٠/٦ وانظر خاتمة كتابه البرق

(٤) الديوان ص ٣ وما بعدها .

(٢) ديوان القاضي الفاضل (نشر بلوى) ص ٣٤ .

وكلمة « ياما » في الشطر الأول من كلمات العامية المصرية ومعناها كثير . ويلقانا بنفس اللهفة والحسرة والإحساس الحاد بالألم والحزن والضيق والوحشة في رثائه لجارية شابة ، اختطفها منه الموت دون شفقة أو رحمة ، ويظل يئن ويسكب دموعه إلى أن يقول (١) :

وأنسى من بعدها طولُ وحشتي وضاجعتي في مضجعي بعدها كُرتي
أيا تُرْبُ ما أنصفتَ نَصْرَةَ غُصْنِهَا أَهَذَا صَنِيعُ الثُّرْبِ بِالْغُصْنِ الرُّطْبِ

ويشتهر ابن النبيه بمروية دالية رائعة رثى بها ابنا للخليفة الناصر سنة ٦١٣ وهى من بدائع المراثى ، إذ يعزى الناصر عن ابنه فى أسى ولوعة ودعوة حارة إلى الصبر على المصاب بمثل قوله (٢) :

الموتُ نَقَادٌ عَلَى كَفِّهِ جَوَاهِرُ يَخْتَارُ مِنْهَا الْجِيَادُ
وَالْمَرْءُ كَالظِّلِّ وَلَا بُدَّ أَنْ يَزُولَ ذَاكَ الظِّلُّ بَعْدَ امْتِدَادِ

ولا يموت سلطان أيوبى بمصر حتى يندبه الشعراء ، ومن ندبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧ وهو يستعد لمنازلة لويس التاسع ، وخلفه ابنه توران شاه ففتك بالصليبيين فتكا ذريعاً ، وأخذ لويس التاسع قائد الحملة الصليبية أسيراً ، غير أن مماليكه لم يلبثوا أن فتكوا بالبطل : بطل موقعة المنصورة وبكاه غير شاعر مصرى من مثل قول ابن مطروح (٣) :

يَابَعِيدَ اللَّيْلِ مِنْ سَحَرِهِ دَائِمًا يَبْكِي عَلَى قَمَرَةٍ
خَلَّ ذَا وَانْدَبَ مَعِيَ مَلَكًا وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أَثَرِهِ

وحقاً ولَّتِ الدنيا الدولة الأيوبية على أثره وغربت شمسها المضيئة ، إذ استولى المماليك على صولجان الحكم بمصر . وأول سلاطينهم العقظام الظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التى سحق فيها التتار ، ودفع سيولهم إلى وراء حتى حلب فالعراق . وله بعد ذلك بلاء رائع فى حرب بقايا الصليبيين والاستيلاء على كثير من حصونهم بالشام . حتى إذا توفى سنة ٦٧٨ بكاه شعراء مصر بمثل قول محيى الدين (٤) بن عبد الظاهر :

(٤) انظر تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور

قلاوون لمحيى الدين بن عبد الظاهر (نشر وزارة الثقافة والإرشاد بمصر) ص ٢٥ .

(١) الديوان ص ٦٢ .

(٢) ديوان ابن النبيه (تحقيق عمر الأسد) ص ١٠٤ وما بعدها .

(٣) فوات الوفيات ١٨٥/١ .

هذا الذى هزمَ التتارَ فأصبحوا تغتالهم عند الكرى الأحلام
هذا الذى قهر الفرنج فكلهم تُردِيهم من رُعبِ الأوهام

وقلما يتوفى سلطان بعد الظاهر فى زمن المالك إلا ويكيه الشعراء .
ومرَّبنا الحديث عن ابن نباتة وممدوحه السلطان المؤيد الذى ذُيِّج فيه غرر المدائح ، حتى إذا
مات رثاه بمرث طنانة وفيها يكيه بكاء حارا من مثل قوله فى إحدى مرثياته :

نعى المؤيدَ ناعيه فوا أسفا للغيث كيف غدتُ عنا غَواديه
واروَعنا لصباح من رزيتِه أَظنَّ أن صباح الحشرِ ثانيه
ليت الحمامَ حَبَا الأيامَ موهبةً فكان يُفنى بنى الدنيا ويبقيه
ليت الأصاغر يُفدَى الأكبرون بها فكانت الشُّهُبُ فى الآفاق تُفدِيه

وهو تأبين ممزوج بندب وأنين ، وحسرة ما بعدها حسرة ، حتى ليتمنى لومات الناس جميعا
فداء للمؤيد بل يتمنى لو كانت الشهب تستطيع أن تفديه .

ويستولى العثمانيون على مصر ويتعاقب عليها ولاتهم ولشعرائها فيهم وفى كبار الموظفين حيث
يتوفون مرث كثيرة ، من ذلك قول الشيخ محمد الغمري فى رثاء الأمير إسماعيل بن إيواط المتوفى
سنة ١١٣٦ للهجرة ^(١) :

أفى أمانٍ وسيفُ الأمن قد غُمدَا ويدرُ أفق سماء العدلِ قد فُقدا
وشمسُ نصرٍ عباد الله قد كُسِفَتْ ودولة العزِّ ماتتْ بالذى لُجِدا
كم قد أغاث فقيرا من ظُلامته وأبدل الجور عدلا والفسوق هُدَى
وتكثر مرثى العلماء الأعلام وتكتظ بمرثيتهم كتب التراجم ، وخاصة منذ عصر المماليك ،
من ذلك قول ^(٢) عبد الباسط بن خليل الحنفى ، فى رثاء جلال الدين عبد الرحمن السيوطى حين
توفى سنة ٩١١ :

مات جلالُ الدين غوثُ الورى مجتهدُ العصر إمامُ الوجود
فباعيونُ انهملى بعده ويا قلوبُ انفطرى بالوقود

ويروى الجبرقى أنه لما مات الشيخ محمد العشماوى سنة ١١٦٧ قال بعض شعراء الوقت وه

السيد حسين الإدكاوي قصيدة أنشدت وقت الصلاة عليه مطلقها^(١) :

ما بين حرقة أدمعى وتولّهى نارٌ يؤجّجها لهيبٌ تولّهى
يا أرضُ ميدى ياسماء تشقّقى ياشمسُ نوحى يانجومُ تأوّهى

والمبالغة واضحة في البيت الثانى

وكان وتر الشكوى من الزمن وأحواله وتقلباته ونوائبه ورزاياه ومن نكد الحظوظ وبؤس الحياة مشدودًا دائمًا إلى قيثارات الشعراء يتغنون عليه آلامهم وأحزانهم وما يصيبهم من شر الحياة ونكرها ومن ضعة الحظوظ التى كتبت عليهم فيها ، ومن نزول المصائب التى تعصف بهم ، من مثل قول
نسيم بن المعز^(٢) :

أما والذى لا يملك الأمرَ غيره ومن هو بالسّرّ المكتم أعلمُ
لئن كان كتمانُ المصائب مؤلمًا لإعلانها عندى أشدُّ وألمُ
صبرتُ عن الشكوى خياءَ وعفّةً وهل يشتكى لدغ الأراقم أرقمُ^(٣)
وبى كلُّ ما يُيكي العيونَ أقلّه وإن كنت منه دائمًا أتبسّمُ

وكان نسيم يعيش في نعيم لأنه ابن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، غير أنه كان أكبر أبنائه وصرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله حتى إذا توفى صرفها إلى أخيه نزار الملقب بالعزیز الفاطمى . وعاش نسيم يتجرع مرارة هذه الغصة دون أن يستطيع التفوه بكلمة ، إلا مثل هذه الأبيات التى كان بنفسها عما يجثم في دخائله من ألم مرير . ويردد شعراء الدولة الفاطمية بعده شكواهم من الحياة وكوارثها والحظ وبؤسه وقصوره عن أمانهم كقول ظافر الحداد^(٤) :

ولى همّة تبغى النجومَ وحالةً تصحّف ماتبغيه فهو لنا ضدُّ
إذا رفعتنى تلك تخفضُ هذه فكلُّ تناوٍ فى إرادته الحدُّ^(٥)
فما حالُ شخصٍ بين هاوٍ وصاعدٍ وليس له عن واحدٍ منها بُدُّ
تولتني الأزراءُ حتى كأنما قوادى لكفى كلُّ لاطمة خدُّ

فهمته ماتزال تصعد به حتى يضافح النجوم وحظه مايزال يهبط به حتى يهوى إلى الدرك

(١) تاريخ الجيفى ١٨٩/١ .

(٢) الديوان ص ٣٩٨ .

(٣) الأرقم : الأقنوان .

(٤) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٣/٢ .

(٥) الحد : المنع .

الأسفل من البؤس والشقاء وكأنه في أرجوحة ما يزال صاعدا هابطا وماتزال الأرزاء والكوارث تنزل به بل تلطم فؤاده لطما عنيفا .

ويلقانا بأخرة من الدولة الفاطمية داود بن مقدم من أهل المحلة شمالي طنطا ويقول العماد :
كان منحوس الحظ غير مبخوت ، منكوب الجاه بحرفة الأدب منكوت ، وينشد له ^(١) :

لقد بكرتُ تلومُ على خمولى كأن الرزقَ يجلبهُ احتيالي
وكم أدليتُ من ذلِّهِ ولكنَّ بلا بَلَلٍ يُرَدُّ على قَدالي ^(٢)
وكم علَّقتُ أطاعى رجاءَ بخَلْبٍ بارقٍ ووميضٍ آل
ولا أنا بالكفافِ التَّزْرِ راضٍ ولا أنا عن طِلابِ الكُثْرِ سالٍ

فصاحبه تلومه على خموله وأنه يقعد عن طلب الرزق ، ومفتاحه ليس في يده ، وطالما أدلى بدلوه مع طلابه فعادت دلائهم ملاء ، وارتد عليه دلوه فارغا ، وكأنما يتعلق ببرق كاذب وسراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وهو مع ذلك لا يزال يطمع في الكثير وكان حريّا به أن يرضى بالترز القليل .

وتحفُّ الشكوى على ألسنة الشعراء في زمن الدولة الأيوبية وانتصاراتها المدوية ، إلا في بعض لحظات نعسة قد تمر بالشاعر فيشكو شكوى عارضة كقول ابن سناء الملك ^(٣)

يا خَيْبَةَ الحرِّ الذى لم يلق فوق الأرض حرًّا
وإذا اشتكى فقراً أسا ل الدمع من عينيه ثِرا
والخَلْقُ تُذْرى الدمعَ ما ء وهو يُذْرى الدمعَ جَمرا
وإذا تملكتِ اللسا مُ فإن موتَ الحرِّ أحرى

ولا أظن أن ابن سناء الملك اشتكى الفقر والبؤس يوما ، فقد كان يعيش في بحبوحة من الترف والنعيم ، ولذلك نطن أنه قال قصيدة هذه الأبيات في لحظة من لحظات غضبه ، وهى فعلا أبيات عارضة في ديوانه الضخم .

ويعود الشعراء إلى الشكوى في أيام المالك والحديث عن بؤسهم ، وكانوا يمزجون هذا الحديث بنخفة الظل التى عُرف بها المصريون ، حتى لتصبح الشكوى ضربا من الفكاهة أحيانا على

نحو ما هو معروف عن الجزار والوراق وابن دانيال ، وستترجم لهم في حديثنا عن شعراء الفكاهة .
ويأخذ هذا الحديث صورة عابسة جادة عند نفر من الشعراء ، وفي مقدمتهم ابن نباتة الذي أكثر - كما أسلفنا - عن الحديث عن كثرة عياله كقوله لأحد ممدوحيه :

يأسيدي دعوة ذي حالة أحالها الدهر وعدوانة
تقليسه في الشام بعد الغنى يعصى بأن القلب حرانة
فارق أولادًا وأهلا وما تحملت للبين أظعانة

فهو يستعطف ممدوحه لما أصابه الدهر به من البؤس والضعف وضيق العيش ، وقد فارق أولاده وأهله يبتغى أن يجد لهم ما يقوتهم وأن يعود لهم غنيا ثريا أوقى بسطة من الرزق . ويردد ابن نباتة ذلك كثيرا في أشعاره . ووراءه كثيرون في زمن الماليك كانوا يشكون مما يتجرعون من مرارة الحياة وعيشها البائس المضني . وساعد على ذلك أن الماليك لم يرعوا الشعراء في زمنهم رعاية الحكام من قبلهم ، وأنهم قلما كانوا يسبقون عليها عطائهم ، وحتى ما كانوا يعطونه لهم أحيانا كان نزرا قليلا ، فكان طبيعيا أن يستشعروا الحرمان والبؤس وأن يندبوا حظهم العاثر ، وأن يصبوا نقمتهم على الدهر والزمان . ثم حلت الحقبة العثمانية ، فزادتهم إغالا في البؤس واليأس والشكوى المريرة . ولعل من الخير أن نقف قليلا عند بعض شعراء الرثاء والشكوى في المراحل المختلفة لهذا العصر .

على بن النضر^(١)

من أهل الصعيد كان نحويا أدبيا روى عنه ابن بَرِّي وغيره ويقال إنه كان يحفظ كتاب سيبويه ، وكان متصرفا في علوم كثيرة ، وهو أحد قضاة الصعيد النابيين ، تولى قضاء الصعيد وإخميم في زمن الأفضل بن بدر الجالبي (٤٨٧ - ٥١٥ هـ) . ويبدو أن موهبته الشعرية استيقظت مبكرة ، مما جعله يقبل على شعر المديح محاكيا شعراء عصره . فمدح كثيرين من أعيان الصعيد وفي مقدمتهم بنو الكثر أعيان أسوان . ثم قصد بمدحهم الأفضل فرفع منزلته وعينه قاضيا للصعيد ، وفيه يقول أبو الصلت في رسالته المصرية التي كتبها عن شعراء مصر وأدبائها ، وقد

(مصر) للمعاد الأصماني ٩٠/٢ والطالع السعيد ص ٢٢٠
والبيعة للسيوطي ص ٣٥٣ .

(١) انظر في ترجمة ابن النضر وأشعاره رسالة أبي الصلت
أمية في نوادر المخطوطات لعبد السلام هرون (المجموعة
الأولى) ص ٤٠ وما بعدها وخريدة القصر (قسم شعراء

افتتحها بذكره قائلا : « من الأفاضل الأعيان ، الممدودين من حسنات الزمان ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع ، والفضل الباهر والنثر الرائع ، والنظم البارع ، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ، والرتبة الأولى » ويبدو أنه كان واسع الثقافة . ويقول الأذفوي صاحب الطالع السعيد : « أكثر شعره في تشكى الزمان والإخوان » . وكان قد قصد الأفضل في أول الأمر راجيا خلعة عنده أو ولاية فخاب أمله فيه وضاع رجاؤه ، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ويشكو الحنية والحرمان :

بين التعزُّز والتذلل مسلكٌ بادى المتارِ لِعَيْنِ كلِّ موفِّي
فاسلكه في كلِّ المواطن واجتنبْ كِبَرَ الأبيْ وذِلَّةَ المتملِّقِ
ولقد جلبتُ من البضائع خيرها لأجلْ مختارِ وأكرمِ متقى
ورجوتُ خَفَضَ العيشِ تحتِ رِواقه لابدُّ إنْ نفقتْ وإنْ لمْ تَنفَقِ
ظَنًّا شيئا باليقينِ ولمْ أخْل أنْ الزمانِ بما سقاني مُشْرِقِ^(١)
لأقارعنَّ الدهرَ دونَ مروءتى وحُرِّمتُ عَزَّ النُصرِ إنْ لمْ أَصْدُقِ

وهو ينصح غيره من الشعراء أن لا يصعروا خدعهم كبرا ، وأهم من ذلك أن لا يُسيما أنفسهم ذل الملق والخوان ، وليتخذوا منه وما صنع به الأفضل عبرة وعظة ، إذ قدم له بين يدي ما أمَّله منه قصيدة بديعة من قصائده ، فكان جزاؤه خيبة ما بعدها خيبة ، ومع ذلك فهو يمسك نفسه ، إذ هي أكبر من أن تنكسر ، بل إنه ليهدد بمقارعة الدهر ونزاله دون مروءته وعزة نفسه وفزع إلى غير قليل من الزهد والقناعة يحض عليهما ويذم الضراعة ، متأسفا على امتحان نفسه وإراقة ماء وجهه للأفضل دون طائل بمثل قوله :

لَهْفِي لِمَلِكٍ قَنَاعَةٍ لَوْ أَنَّنِي مَتَّعْتُ فِيهِ بِعِزَّةِ التَّمَلُّكِ
وَلَكَنِّي بِأَسَى كُنْتُ قَدْ أَحْرَزْتُهُ لَوْلَمْ تَعِثْ فِيهِ الْخَطُوبُ وَتَفْتَكُ
أَلَيْتُ أَجْعُلُ مَاءَ وَجْهِ بَعْدَهُ كَدَمَ يُهِيلُ بِهِ الْحَجِيجُ بِمَنْسِكِ
لَا أَنْشَأُنِي الْحَادِثَاتُ لِمِثْلِهَا وَرُمِيتُ قَبْلَ وَقْعِهَا بِالْمُهْلِكِ

لقد أضاع ملك قناعة كان هنيئا به متمتعا فيه بعز سلطانه ، وأضاع معه كثر يأس من الوزراء والحكام أمثال الأفضل كان مغتبطا به سعيدا ، ويقسم أن لا يريق ماء وجهه لأحد بعد الأفضل

(١) مشرق : جاعلى أغصن بما سقاني .

وما صنعه ، ويدعو على نفسه بالموت إن هو فكر أن يعود إلى المديح وهوان الاستجداء وذلّه ، ويتجه إلى ربه داعيا ضارعا بمثل قوله :

يا مستجيبَ دعاءِ المستجيرِ به ويا مفرجَ ليلِ الكُرْبَةِ الدّاجي
قد أرْتَجِيتُ دوننا الأبوابُ وامتنعتُ وجلُّ بائِكٍ عن مَنعٍ وإرتاجِ
نخافُ عدْلَكَ أن يجرى القضاءُ به ونرتجيك فكنْ للخائفِ الراجي

فقد أغلقت أبواب الرجاء من دونه ، وأظلمت الدنيا من حوله ، وغرق في كرب وغم ، وأخذته اليأس من كل جانب ، فلا أمل ، بل قنوط مقيم ، حتى ليخشى على نفسه من أن يغلق الله عنه بابه ، وإنه ليمتلئ خوفا ورجاء . ويعزى نفسه ويدعوها إلى الصبر الجميل :

يا نفسُ صبرا واحتسابا إنها غمراتُ أيامِ تمرُّ وتُجلى
لا تياسى من رُوحِ ربِّكِ واحذري أن تستقرى بالقنوط فتُخذلى

إنه يتمنى لنفسه أن تخلص من محنة اليأس الذى يملؤها شقاء وعناء ومسرة ولوعة ، فيخفف عنها ذلك كله أو يحاول أن يخففه بما يدعوها إليه من الصبر على البلاء وأن لا تياس من روح ربها فإنه لا يياس من روحه إلا الظالمون لأنفسهم المستسلمون للقنوط وأهواله .

وكان على بن النضر يحميد الرثاء كما يحميد الشكوى من الزمان وأهله ، وله مراثية بديعة في إبراهيم ابن الزبير حاكم قوص لسنة ٧٢٢هـ للهجرة وهو جد المهذب بن الزبير الشاعر المار ذكره ، استهلها بقوله :

يا مَزْنُ ذا جَدَّتْ الرُّشيدُ قَفَفَ معي نَسَفَحَ بساحته مَزَادَ الأُدْمَعِ^(١)
وامسَحْ بأردانِ الصُّبا أركانهُ كي لا يُلَمَّ به شحوبُ البَلَقِ
وبودُ نفسى . لو سَقَيْتُ ترابهُ دَمَ مُهَجَّتِي ووقيتهُ بالأضلعِ

وهو يتجه إلى المزن أو السحاب الممطر محاولا أن يستوقفه ليسفح أمطاره معه على قبر صاحبه ، بل ليسفحها معا عليه قربانا من الدموع ، ويتوسل إليه أن يمسح بأكام الصُّبا أركانهُ ، حتى يظل ناضرا لا يلم به شيء من شحوب البلقع أو الفقر من حول جدته ، وكان بود نفسه لو فداه بروحه وسقى ترابه دم مهجته ووقاه بأضلعه ، ويخاطب قبره مُلتاعا بقوله :

(١) مزاد : جمع مزادة وهى القرية .

لَتَنْفَسَتْ فِيكَ الصُّبَا مَفْتُوقَةً بِسِيمِ مِسْكِ رِيَاضِهَا الْمَتَضَوِّعِ
أَوْ مَا عَجِبْتَ لِطَوْدِ عِزٍّ بَاذِخٍ مُسْتَوْدَعٍ فِي ذِي الثَّلَاثِ الْأَذْرَعِ
وَلَحْدُ مَنْ وَطِئَ الْكَوَاكِبَ رَاقِيًا كَيْفَ ارْتَضَى مِنْ بَعْدِهَا بِالْزِمَعِ
وَلَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى رِبْوِكَ شَاكِيًا وَبِهَا الَّذِي بِي مِنْ أَسَى وَتَوَجُّعِ

وهو يدعو للقبر أن تهب عليه ريح الصُّبَا العطرة بمسك الرياض ذكى الرائحة وأن يظل ذلك دائما أبدا ، ويعجب لهذا الجبل الشامخ عزا أن تطويه ثلاث أذرع ومن وطئ الكواكب بقدمه راقيا أن يرتضى التزول تحت اليرمع أو الحجارة الرخوة ، وإنه - مثل كل ما حوله من الربوع - ليمتلئ حسرة وأسى وتوجعا ما بعده توجع . ولعل في ذلك كله ما يصور ملكة ابن النضر الشعرية الخصبية .

على بن عَرَام^(١)

شاعر أسوان مسقط رأسه وموطنه ، بل شاعر الصعيد قاطبة ، دفعه طموحه في شبابه إلى أن ينزل الفسطاط ويأخذ عن علمائها اللغويين من أمثال ابن بركات وغير اللغويين . وكان فيه ذكاء وحب للعلم وفنونه ، فبرع في غير فن ، وصنف تصانيف كثيرة . ويبدو أنه أثر المقام ببلدته أسوان ، وله في أعيانها غير مدحة ، وكان كثير الوفود على حكام الصعيد من الأيوبيين في قوص وغير قوص ، من مثل مبارك بن منقذ وتوران شاه . ويقول العماد الأصبهاني إنه سأل عنه سنة ٥٧٣ فقالوا له إنه حَيٌّ في أسوان ، وكان لا يزال يذكرها حين يبرحها فترة في حنين بالغ ، حتى ليقول في إحدى رحلاته وقد ذكرها ، فكأنما نكأ جرحا في فؤاده إذ يقول متلهفا في العودة إليها حين نفاه بنو الكثر أعيانها إلى إسنا :

وَلَا بَارَكَ الرَّحْمَنُ فِيمَنْ أَزَاحَنِي عَنْ الظِّلِّ وَالْمَاءِ الرُّؤَالِ الَّذِي يَجْرِي
مَقِيلٌ وَلَكِنْ أَيْنَ مَنَى ظِلُّهُ وَسُقْيَا وَلَكِنِّي بَعِيدٌ عَنِ الْقَطْرِ

فهو يتمنى وقت قبلولة بأسوان وشربة من مائها السلسبيل ، إنها نعيمه وفردوسه الذي لا يماثله فردوس ، وسرعان ما عاد إليها وظل بها حتى توفي سنة ٥٨٠ . ويقول صاحب الطالع السعيد :

المحاضرة ١/٥٦٥ .

(١) انظر في ابن عرام وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم شعراء مصر) ١٦٥/٢ والطالع السعيد ص ١٩٨ وحسن

« لم يكن في أرض مصر من يدانيه في فضله ويضاياه في نبه » . ويشيد به وبشعره العباد الأصهباني إشادة رائعة ، ويذكر أن بعض أصدقائه أحضر له ديوانه فوجده من طبقة عالية ، مما جعله يعرض منه ألوانا ، ويقول : « قد أوردت من جملة نظمه الفائق الرائق ، ولفظه الرائع الشائق ، ما إذا حُسِرَ ^(١) اسلحر . . ولا ين عَرَّام في ميدان النظم عَرَّام ^(٢) » ، وبابتكار المعاني الحسان غرام ، ولرويته في إذكاء ^(٣) نار الذكاء خُبرام . . وكل سحر وخمر سوى منسوج فِدَامِه ^(٤) ومزوج مدامه حرام ، اعجب : بحرفي الصَّعيد ^(٥) يُقَصِّدُ بالتيَمِّم لمانه ، ونجم في صعود السعود لا يَرْتَقِي إلى سمائه . . ويتلو العباد ذلك بطائفة من أشعاره مرتبة على حروف الهجاء ، ويذكر له من قصيدة في رثاء بعض العلويين ، وربما كانت من أشعاره في زمن الفاطميين ، وفيها يقول :

إنما هذه الحياة غرورٌ كَسَرَابٍ بدا لنا في فِجَاجٍ
تَتَّبِعُ الحُلُوَّ من جَنَى عَيْشِهَا الحَلْدَ وَ بِمَرٍّ من الرِّزَايا أَجَاجٍ ^(٦)
نحن فيها كمثل ركبٍ أناخوا ساعةً ثم أُرْهِقُوا بانزعاجٍ

وتلك سنة الحياة : غرور كلها وسراب سرعان ما يزول ، وحُلُو سرعان ما يحول مرا وملح أجاجا ، وما أشبه الناس فيها بركب أناخوا قليلا وجميعهم وقوف ، كل منهم ينتظر دوره في الرحيل ، فالكل راحلون إلى أجداثهم وقبورهم فهي قرارهم ومنزلهم ولا مآب لهم منه ولا خلاص . وله مراثية في ابن عمه هبة الله بن عَرَّام ، وكان شاعرا محسنا وفيه يقول :

مَنْ لِسود الخطوب غَيْرُكَ يُجَلِّبُ هـا وقد غاب منك بدرٌ منيرٌ
مَنْ يَحُوكُ القَرِيصَ مِثْلَكَ يُسْدِي هـ على خَيْرَةٍ بِهِ وَيُنِيرُ ^(٧)
ليس في العَيْشِ بعدَ فَقْدِكَ خَيْرٌ حَبْدًا وَاقْدُ الرَّدَى لو يَزُورُ
كان ظَنِّي إذا المَنايا انتَحَنَّا أَنَّنِي أَوَّلُ وَأَنْتَ آخِرُ ^(٨)

(٦) أجاج : شديد الملوحة .

(٧) يسدي : من السدى وهو مايمد طولاً في النسيج .

ينير : ينعم أو يجعل له لحة وهي مايمد عرضاً في النسيج

يريد أنه يحكم الشر إحكاماً دقيقاً

(٨) انتحنا : قصدنا .

(١) حسر : انكشف .

(٢) عَرَّام : قوة وشدة

(٣) إذكاء : إيقاد .

(٤) الفدام : ما يوضع على قم الدن تصفية مافيه .

(٥) الصعيد : الوجه القبلي وهي أيضا وجه الأرض

والتراب

كيف لي بالسُّلُو عنه وطىُّ الدُّ قلب من فقدَه جَوَى منشورٌ
فسقى قبره نداءُ ففيه لِكراه غِنَى وريُّ غَزيرُ

وهو شديد اللوعة على ابن عمه وصديقه ، ولذلك يخلط نديه بتأينه ، إذ فقد البدر الذى كان ينير فى دجى خطوب الدهر وكوارثه ، وإنه ليندب للشعر شاعره المبدع الذى كان ينسج خيوطه نسجا محكما ، وكأنما فقد كل نعيم فى دنياه وكل خير ، حتى ليتمنى الموت ، إذ لم يعد له بقاء بعده ، ولا عاد يعرف كيف السلوان عنه ، وقلبه منطو على نار من الجوى لا تحبو ولا تهدأ ، وإنه ليذكر نداء وكرمه الذى طالما أغدقه على من حوله ، ويدعو الله أن ينزله على جدته شآبيب رحمة .

ويروى العماد لابن عرام قصيدة بل متاحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر ناديين موتاهم باكين ، استلها بقوله :

الرَّدَى للأنام بالمرصادِ كل حَيٍّ منه على ميعادِ
كيف يُرَجَى ثباتُ أمرِ زمانٍ هو جارٍ طبعاً على الأصدادِ
فإذا سرَّ ساء حَتْمًا وَيَقْضَى بوجودِ إلى بلى ونفادِ

فالموت غاية كل حى ، والناس جميعا يسقطون فى قراره العميق ، لكل منهم موعده لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، وبالحال من سخرية للزمان ، فإنه لا يبق للإنسان على شيء ، وحتى لو سره يوماً لساء يوماً أو أياماً ، وإنه ليسلبه كل ما أعطاه حتى وجوده وحياته . ويمضى فى نفس القصيدة أو المراثية قائلاً :

نحنُ فى هذه الحياة كسفرٍ	ربما أُعجلوا عن الإرواد ^(١)
عرسوا ساعةً بها ثم نادى	بالرحيل المجدُّ فيهم مُنادٍ ^(٢)
كم أبٍ واله بئكل بنيه	كم يتيمٍ فينا من الأولادِ
يدعى المرء لمرث أرضٍ ودارٍ	سَقَّها غيرَ لائقٍ بالسَّدادِ
وهو موروثها إذا كان يبقَى	وهى تَبْقَى على مدى الآبادِ
وقصَّاراهُ أنْ يشيعَ محمواً	لأَ بأكفانه على الأعوادِ

(٢) عرسوا : نزلوا آخر الليل للراحة .

(١) الإرواد : الإمهال .

وما أبأس الحياة من رحلة ، وما أبأس ركب هذه الرحلة ، فليس لهم فيها حق في الريث والأناة ، ولا في العهل والوقوف ، إنما لا تريد عن ساعة تتزلها قافلة ، وسرعان ما يصيح في ركبها مناد بالرحيل السريع ، وكل من في الركب يبكي وينوح ويئن أنيناً لا ينقطع ، أب يئن ويذرف الدموع مدراً على أبنائه ، وأبناء أبنام يتنون ودموعهم لا تجف ولا ترقأ على آباتهم وأمهاتهم ، وكأنما يقطعون جميعاً وادياً كله غُصص وآلام ، إنه وادى الموت يحوسون خلاله ، وهم لا يدرون . وأعجب العجب أن يحرص الإنسان على إرث الأرض وملكها ، وهو موروثها وملوكها الذي سرعان ما يزول ويفنى ، بينما هي باقية على كُرِّ الدهور ، وما أعظمها عبرة ، فكل إنسان مها بلغ من الثراء أو المجد يخرج من دنياه كغيره محمولاً على أعواد ، وسرعان ما يلقى عليه رداء التراب الثقيل . ويقول ابن عَرَام

وَإِذَا الْأَهْلُ وَالْأَقَارِبُ وَالْأَخُ بَابُ رَاحُوا فَأَنْتَ فِي الْإِثْرِ غَادٍ
فَالْقَبُورُ الْبُيُوتُ مَضْجَعُنَا فِيهِ هَا وَمَا إِنَّ سَيِّئَ الثَّرَى مِنْ وَسَادٍ
كَمْ أَحَالِ الْبَلَى إِلَيْهِ قَدِيمًا جَسَدًا نَاعِمًا مِنَ الْأَجْسَادِ
شَاهِدُ الْمَوْتِ لَانْعُ فِي جَبِينِ الْ حَيٍّ مَنَا فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ

فالكل ميت ، وكل ما هناك سابق ومسبق ورائع وغادٍ إلى القبور : البيوت الدائمة التي نضطجع فيها على وسائد الثرى ، لا فرق بين إنسان وإنسان ، فنحن جميعاً بنو الموت ، ونحن جميعاً سكان القبور ومنذ يولد الإنسان يلوح على جبينه ساعة ميلاده شاهد موته وأنه ملق به - طال أجله أو قصر - وراء تراب وأحجار .

ابن النقيب^(١) : الحسن بن شاور الكتافي

ولد بالفسطاط سنة ٦٠٨ وتوفي سنة ٦٨٧ وهو بذلك من شعراء الدولتين : الأيوية والمملوكية ، وكانت له عناية بالحديث النبوي . روى عنه الحافظ الدمياطي وغيره ، واتصل بالأيوبيين ، فعينوه في دواوينهم ، وقد لقيه ابن سعيد الأندلسي مؤلف كتاب المغرب حين زار

وحسن المحاضرة للسيوطي ٥٦٩/١ وشذرات الذهب لابن
العماد ٤٠٠/٥ .

(١) انظر في ابن النقيب : الحسن بن شاور المغرب في
حل المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٥٨ وفوات
الوفيات لابن شاکر ٢٣٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٧٦/٧

مصر في أوائل العهد الرابع من القرن السابع ، يقول : « اجتمعت به وهو يتولى لسلطان مصر معدن الزمرد ، فأبصرت شخصاً مجسداً من الفضائل معنونا عن بيته - إذ يُنسَبُ إلى شاور وزير المعاضد الخليفة الفاطمي - بما يبدو عليه من كرم الشئال » وصنف كتاباً سماه « منازل الأحباب ومنازه الألباب » . وفي شعره ومترلته الشعرية يقول ابن سعيد : « هو عندى من أفراد شعراء العصر المتغفلين في القوص على المعاني الخاترين من غايات الإحسان ما يقصر في إطرابه عنه الثالث والمثاني » ويقول ابن شاكِر : « شعره جيد عذب منسجم فيه التورية الرائعة اللاتقة المتمكنة . وهو أحد فرسان تلك الحلقة الذين كانوا من شعراء مصر في ذلك العصر ، ومقاطيعه جيدة إلى الغاية » . وابن شاكِر يقصد بالحلقة السراج الوراق والجزار والحامى الذين كانت أسماؤهم على كل لسان لحنه وروحهم وكثرة ما كانوا ينظمونه من التوريات ، وكان ابن النقيب على شاكلتهم يكثر منها ومن طريف تورياته :

أنا العُدْرِيُّ فاعذُرْنِي وسامعُ وجَرَّ علىَّ بالإحسان ذَيْلاً
ولما صِرْتُ كالمجنون عِشْقاً كتمتُ زيارتي وأتيت ليلاً

وكلمة « ليلاً » في نهاية البيت الثاني لا يريد بها الليل الحقيقي إذ جاء بها تورية عن صاحبتة « ليلي » . وهى تورية تدل على ما وراءها من سرعة بديهته ، ورقة حسه ، وله غزل بديع سنشد منه قطعة في حديثنا عن شعراء الغزل . وله محاورات كثيرة مع من سميناهم من الشعراء ، وكتب إليه ابن سعيد بيتيه اللذين أنشدناهما في غير هذا الموضع ، وهما :

أيا ساكني مصرِ غدا النبيلُ جاركم فأكسبكم تلك الخلاوة في الشعرِ
وكان بتلك الأرض سحرٌ وما بقى سوى أثر يبدو على النظم والتثيرِ

وأجابه ابن النقيب من قطعة كتب بها إليه متواضعا :

ولا تَطْلُبْنِ سحرَ البيان بأرضنا فكم فيه موسى مبطلُ آيةِ السحرِ
ولا رِقَّةَ الشعرِ الذي كان أولاً وكيف رقيق الشعرُ مع قسوة الدهرِ

وإنما ذكرنا هذه الإجابة لما فيها من شكوى الدهر وقسوته ، منذ الثلاثينيات من عمره ، ولا ندرى هل ظل موظفا بالدواوين في عهد المماليك أو أنه أثر الغزلة مكتفياً بما ورثه عن آبائه ؟ . وأكبر الظن أنه ظل متصلاً بالمماليك ودواوين الدولة ، يدل على ذلك ما رواه ابن تغرى بردى ،

مما مرّ بنا في غير هذا الموضع من أنه كان حاضرا وقعة الظاهر بيبرس مع التتار على شَطِّ الفرات سنة ٦٧١ وكيف أنه صوّر انتصاره تصويرا رائعا .

وحانت منه التفاتة فيما يبدو إلى جندي قبل المعركة كان في الساقة وعرف أن له نظراء لا يوضعون في مقدمة الجيش وإنما يوضعون في مؤخرته ، أو لعله إنما التفت قبل كل شيء إلى نفسه ، فتأثر وبلغ به التأثير حدا بعيدا من الإحساس بالظلم ، وإذا هو ينشد في ألم بالغ :

نحن	إلا	قطاعة	الأجناد	وبرايات	غرّ هذا	النادى ^(١)
نحن	إلا	حكاية	وخيال	وحديث	لحاضر	ولبادى
نحن	إلا	غسالة	لمراق	لقذور	تفرغت	وزبادى
نحن	إلا	زبالة	ضَمَّها الزَّب	ال	فوق	الأكوام للوقاد
جرّدونا	فما	قطعنا	فردّو	نا -	وقد أحسنوا -	إلى الأغاد
وعرّضنا	على	براذين	جيشي	ما	استعدت	لحملة وطراد ^(٢)
ورماح	لم	تعتقل	لطعان	وسيوف	ما جرّدت	لجلاد
فهم	لا فرق	في يد	الفارس	الكش	حان	منا أو في يد الحداد

ويبدو أنها شكوى بلسان فريق من الفرسان ، ممن وضعوا في مؤخرة الجيش الذى يقوده الظاهر بيبرس لحرب التتار يريدون أن يكونوا في أول الصفوف لمنازلة العدو التتارى ودحره دحرا لا تقوم له قائمة بعده ، ويسوق ابن النقيب الشكوى في مرارة ، إذ يقول على لسان هؤلاء الفرسان متهمّا : ما نحن إلا نُحَاثَة الأجناد بل نحن حكاية وخيال وحديث مردد ، بل غسالة لمراق بل زبالة ، ولعله يبالغ في تصوير ما أصاب هؤلاء الفرسان من ظلم ويبدو أنهم كانوا مثله بلغوا من العمر عتيا فوضعوا في المؤخرة . على أن في شكوى ابن النقيب ما يدل على أن فرسان المقدمة إنما كانوا يختارون من أصلب الجنود وأعتاهم ، إذ كانوا هم وغيرهم يعرضون ، ويختارون في أثناء العرض وبعد الاختبار ، وهو لذلك يقول إنهم جرّدوهم لينظروا إلى أى حد هم سيوف قاطعة قلما لم يقطعوا رءوسهم إلى الأغاد أو إلى المؤخرة ، ويلقى التبعة على البغال التى ركبوها ، فإنها

(٢) براذن جمع برذون : بغل ضخمة .

(١) القطاعة : النحاتة كالبراية .

لم تكن ممرنة على العدو الشديد والغارة السريعة ، وأيضاً فإن السيوف والرماح كانت قد علاها الصدأ ولم تعد صالحة للتزال ، فسيان هي في يد الفارس البطل منا أوفى يد الحداد كى يشحذها ويزيل عنها الصدأ . وتلقانا عند ابن النقيب شكوى مرددة من البؤس والفقر ، في مثل قوله :

يَا قُفْلَ بَابِ الرِّزْقِ يَا ذَا الَّذِي مازال عند الفتح قُفْلًا عَسِرَ
أُفْرَطَ فِي الْعُسْرِ وَلَا بُدَّ أَنْ تَنْفَسَ أَوْ تَنْدُقَ أَوْ تَنْكَسِرَ

وهو يشعر كأن باب الرزق أغلق من دونه ، وهو يعالج فتحه ، ولا يفتتح ، ويشكو ما يلقاه من عسر وضيق وضنك ، ويأس من فتح هذا القفل بأى مفتاح من مفاتيح طلب الرزق فيأمل في أن ينفس وتفتح أغلقة أويندق أويكسر . وتجتمع عليه الشيخوخة والعوز والإملاق ، فينشد :

وَجَرَّدْتُ مَعَ قَفَرِي وَشَيْخُوخَتِي الَّتِي تَرَاهَا فَتَوَمَّى عَنْ جُفُونِي مَشْرَدُ
فَلَا يَدْعَى غَيْرِي ثِيَابِي فَلَانِي أَنَا ذَلِكَ الشَّيْخُ الْفَقِيرُ الْمَجْرَدُ

وحق ثيابه نزعها البؤس عنه ، فهو شيخ فقير عريان مسهّد لا ينام . ولعل في ذلك كله مبالغة ، وهى على كل حال تدل على مدى إحساسه بلوعة البؤس واستطالته عليه في شيخوخته . ويبدو أن محنته بالحياة لم تقف عند ضيق ذات اليد ، فقد اتسعت لتشمل الأصدقاء والأصفياء ، حتى يقول :

لَا تَتَّقْ مِنْ آدَمِيٍّ فِي وَدَائِهِ بَصْفَاءَ
كَيْفَ تَرْجُو مِنْهُ صَفْوًا وَهُوَ مِنْ طِينٍ وَمَاءٍ

فطبيعى - فى رأيه - أن لا يُصْنَى إنسان لصديقه إخاء . لأنه لا يعرف الصفاء ، بل هو دائماً كدر وكذلك كل ما يتصل به إذ هو مركب من طين وماء .

عبد الله^(١) الإدكاوى

ولده بإدكو بالقرب من رشيد سنة ١١٠٤ وألحقه أبوه بكتّاب بها حفظ فيه القرآن الكريم ، حتى إذا أتمه ذهب فى طلب العلم إلى القاهرة ، فحضر دروس العلماء بها فى زمنه ، واشتهر بأدبه .

وشعره ، ولزم السيد على برهان زاده نقيب الأشراف ، وظل يسبغ عليه من عطاياه ، وحجَّ معه بيت الله الحرام سنة ١١٤٧ وزار قبر الرسول ﷺ وعاد إلى القاهرة ، وأقبل - كما يقول الجبرتي - على تحصيل الفنون الأدبية فنظم ونثر ، ومهر وبر ، وهو في أثناء ذلك يكثر من رحلاته إلى رشيد والإسكندرية ويطارح أدباءهما . وتزوج حيثذ وأصبح صاحب عيال ، وتوفى النقيب المذكور ، فلزم الشيخ عبد الله الشبراوي المترجم له بين شعراء المديح ومدحه بقصائد كثيرة ، حتى إذا توفى سنة ١١٧١ لزم الشيخ الشمس الحففى ، وأنشد الجبرتي بعض مديحه فيه ، وله يخاطبه من قصيدة :

يا بهجةَ العصر يامنْهَاجَ كلُّ علَّا يأمُحِيَّ الدين بالآثار والسُّننِ

وظل يلزمه إلى أن توفى سنة ١١٧٨ وصوِّح روض عزَّه بعده إلى أن توفى سنة ١١٨٤ . وله تصانيف كثيرة منها الدرة الفريدة في شرح مدحة نبوية ، وهداية المتوهمين في كذب المنجمين ، ومختصر شرح بانث سعاد للسيوطى ومنظومة في علم العروض والمقامة الصحفية ضمنها ألفاظا تتغير معانيها بالتصحيح ومقامة أخرى مجنونة ، ونضاعة الأريب في شعر الغرب ، وهى مجموعة من أشعاره . وله أيضاً تخميس بانث سعاد والدر المنتظم في الشعر الملتزم والفوائح الجنانية في المدائح الرضوانية جمع فيها أشعار المادحين للأمير رضوان كتحدا ، ثم أورد في خاتمتها ماله من الأمداح فيه نظما ونثرا ، وفيه يقول :

رضوانُ أوحَدُ من تَقَرَّدُ بالعطا فَنائِجُ الأجواد بعضُ هباتِهِ
الفارسُ المَقْدَامُ في يومِ الوَغَى والمرهبُ الآسَدُ في وثباتِهِ

ومن تصانيفه « الدر الثمين في محاسن التضمين » . وبجانب ذلك كله ديوانه وهو مرتب على الحروف الهجائية .

ويورد الجبرتي قطعة من شعر الإدكاوى تدل على براعته وقدرته على استخدام فنون البديع من تضمين وغير تضمين ، ونراه يستعيد قدرة الحريرى في بناء الأبيات من كلمات منقوطة وأخرى عاطلة أو كلها منقوطة أو كلها عاطلة أو الكلمات تتكون من حرف عاطل فحرف منقوط ، وكذلك في صنع أبيات تُقرأ شطورها طردا وعكسا ، فهى تقرأ من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين ، وهو ما كانوا يسمونه « ما لا يستحيل بالانعكاس » مثل قوله :

ارْعَ لَخِلْ إِنْ أَسَا وَائْسَ لَخِلْ إِنْ عَرَّا

وكان يكثر من تشطير بعض القصائد المشهورة ، وكذلك من تخميس بعض الأبيات ، وتصنع لاستظهار مصطلحات بعض العلوم ، ولكن في خفة ودون أن نصطدم عنده بتكلف شديد ، كقوله مستظها لمصطلحات المنطق ، إذ يذكر المناطق كثيرا المقدمات والبراهين والنتائج :

وشقائتي قالت لنا بين الربا بمقدمات ما بها إيهام^(١)
برهان سعدى الآن أنتج قائلا دغ وجنة المحبوب فهي ضرام

وله مرث مختلفة فيمن سميناهم من الشيوخ رعانه وفي غيرهم من علماء عصره ، ومن رثاهم وتفعج عليهم طويلا الشيخ حسن المدابغي المتوفى سنة ١١٧٠ للهجرة ، موله فيه مرثتان مطلع أولاهما :

مضى عالم العصر الإمام لرؤيه حميد المساعي فاندبته وبالغ
وفي خاتمها ينشد :

ولما قضى ذاك المذهب نجه وآب برضوان من الله سايع
دعوت أحبائي وقلت لهم قفوا معي عند ذا التاريخ نبكي المدابغي
ومطلع الثانية :

صبرا فذا الدهر من عاداته الخن وفي تلونه قد حارت الفطن
ويختتمها بقوله :

والحور جاءتك بالبشرى مؤرخة حليت من حلل الأبرار يا حسن

ولم ينشد له الجبرتي شيئا من مرثيته الأخرى ، وكأنه اكتفى بالإشارة إلى مرثيته في المدابغي ، ومع ذلك فقد أنشد له مقطوعة في رثاء نفسه وبكائها قبل موته ، وفيها يقول :

ليت شعري إذا دنا يرافقي أجلى ثم هيئا لي تُرابي
واغندوا بي إلى محل به صخ جى جفوني وليس يُرجى إياي
هل إذا غربلوا التراب ألقوا ذرة من عظمي فيا لمصابي
وينح هذى الدنيا التي تحرق الأكس باد قد مرقت يلحدي إهابي
وبذاك القفر اغتديت رهينا ليس لي من زاد ولا من ركاب

وهو يذكر ساعة الموت وقد حُفر لحده والمشيعون يحملون نعشه إلى سمثواه ، وما يلبثون أن ينصرفوا عنه إلى غير رجعة أو مآب ، وقد بلى جسده في التراب ولم تبق من عظامه باقية . ويتساءل هل إذا فتشوا عن ذرة من عظامه أيجدونها أم لا يجدون إلا عدما ، فقد مزقت الدنيا إهابه وعظامه في لحده . وكأنما لا يكفيها ما تصنعه بالإنسان في حياته من إحراق كبده . وإنه ليندب نفسه ويكيها وقد غدا وحيدا غريبا في قفر موحش ، بل غدا حبيسا لا زاد ولا ركاب إلى يوم الحشر ، وفي الحق أنه كان شاعرا مجيدا وهو يعد أنه الشعراء المصريين في زمنه .

٦

شعراء الدعوة الإسماعيلية

مر بنا - في غير هذا الموضع - أن الدولة الفاطمية قامت على أساس العقيدة الإسماعيلية الشيعية وأنه كان لهذه العقيدة طائفة من المبادئ جعلتها متطرفة غاية التطرف ، بل جعلتها تنفصل عن نظرية أهل السنة انفصالا تاما . وقد عملت بقوة على نشر هذه المبادئ منذ أول الأمر متخذة دعاة لها في أقطار العالم الإسلامي ، ودفعت معهم الشعراء إلى تقريرها والعمل على إذاعتها وفي مقدمتهم ابن هانئ وسنخسه بكلمة . وتميم بن المعز أول خلفائها بمصر يرددها في أشعاره لأخيه الخليفة العزيز ، ولا نكاد نتقدم في ديوانه حتى نجد نجده يخاطبه بقوله في إحدى مدائحه ^(١) :

إِنَّمَا أَنْتَ حُجَّةُ اللَّهِ لَاحِتٌ فِي الْبَرَايَا وَوَارِثُ الْأَنْبِيَاءِ

والحجة عند الإسماعيلية مصدر الحكم ولا يراجع في حكمه لأن حكمه الحق ، ويقول عنه وارث الأنبياء مشيرا بذلك إلى نظرية الدور التي تزعم أن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار حتى إذا ختم الأئمة من الأنبياء بالرسول ﷺ بدأت أئمة آل البيت ، وبذلك يصبح العزيز وغيره من الأئمة الفاطميين ورثة للأنبياء ، على نحو ما يزعم تميم . ونمضي في الديوان وفي قراءة مدائحه للعزيز ، وسرعان ما نلتقي بقوله فيه ^(٢) :

وَهُوَ لِسَانُ التَّقَى وَمَقْلَتُهُ . وَهُوَ يَمِينُ الْعُلَا وَيُسْرَاهَا
صُورٌ مِنْ جَوْهَرِ النَّبُوَّةِ إِذْ كَانَ الْوَرَى طِينَةً وَأَمَوَاهَا
فَن يَطْعُهُ يَفْزُ بِطَاعَتِهِ وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ

وواضح في البيت الثاني ما كان يردده شعراء الفاطميين من أن الأئمة منهم ومن الأنبياء خلُقوا من جوهر لطيف مصقٍ وأن أجسادهم ليست كأجساد البشر المادية الغليظة ، بل هي أجساد نورانية شفافة . والبيت الثالث يصور بوضوح مبدأ طاعة الإمام في مذهب الإسماعيلية وأنها واجبة بحيث يقوِّض إليه أتباعه أمورهم دون أى مناقشة أو سؤال ، إذ هي فريضة توجب طاعة الإمام ، وجزء لا يتجزأ من إيمانهم بالدعوة الإسماعيلية . وكانوا يزعمون أن كل إمام من الفاطميين له مرتبة قائم القيامة أو كما يسمونه المهدي المنتظر ، وبذلك يخاطب تميم أخاه قائلاً^(١) :

أنت المسمَّى المرجئ قبل مولدو والخامسُ القائم المذكورُ في الكتب •
وهو يشير في أول البيت إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون في الإمامة من فكرة الوصية الشرعية وأن كل إمام تالو وصى لسلفه كما قدَّر الله وقضى ولا راد لقضائه ، ويقول إنه القائم أو المهدي المنتظر وأنه خامس الخلفاء الفاطميين منذ جهرهم بالدعوة في المغرب ، وهم المهدي والقائم والمنصور والمعز ثم العزيز الخامس ، أما من كانوا قبلهم فلم يجهروا بالدعوة بل كانوا مستترين يدعون لها سرا . ويقول تميم أيضا في العزيز^(٢) :

ما أنت دون ملوك العالمين سوى روح من القدس في جسم من البشر
نورٌ لطيفٌ تنهى فيك جوهره تناهياً جاز حدَّ الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التي سبقت خلق الهيولى وبسط الأرض والمدبر
والبيت الأول يشير فيه تميم بصراحة إلى ما كان يؤمن به الإسماعيليون من أن للإمام نسبتين : نسبة بروحه إلى عالم القدس ، ونسبة بجسده إلى عالم الطبيعة ، أما نسبته إلى عالم القدس فهي الجانب النوراني فيه ، وهو جانب صاف لطيف ، يجعل عقله فوق عقول البشر ، عقلاً ممثلاً للعقل الكلى الفعال المتصل بالله ، وقد سماه بالعلة الأولى ، وجعله معنى من معانيه . وأوغل الإسماعيليون في هذا التصور حين قالوا إن الإمام مدبر الكون ، وما يقولون إلا زورا وبهتانا . وتميم يقول إن هذا العقل الأول أو العلة الأولى أول ما خلق الله ، فهو سابق لخلق الهيولى أو المادة وخلق الأرض وما عليها . ونغضى في قراءة ديوان تميم فنجده يقول في لإحدى مدائحه للعزيز^(٣) :

وإنَّ جميع الغيب لله وحده تبارك من ربٍّ ومن صمَدٍ وترٍ
وما علمتُ منه الأئمة إنما رَوَّوه عن المختار جدَّهم الطَّهرِ

(٣) الديوان ص ٢٠٧ . والوتر : الفرد .

(١) الديوان ص ٦٩ .

(٢) الديوان ص ٢٢٤ .

ونتميم يجعل الغيب في البيت الأول لله وحده ، وأشرك الرسول ﷺ معه في علمه ، وكأنه يصدر في ذلك عن قوله جلَّ شأنه : (عالمُ الغيب فلا يُظهر على غيِّه أحداً إلا من ارتضى من رسول) ولو أنه سكت عند بيان ذلك لما كان في كلامه غلو ، ولكنه لم يسكت بل أضاف أن الأئمة يعلمونه عن طريق الرسول مشيراً إلى ما يزعمه الإسماعيلية من توارث أئمتهم لعلم الغيب عن الرسول وهو تهاد في الغلو والبهتان .

وسرى ابن هاني يتأدى مثل تميم في الغلو ، بل لعله يزيد عنه درجة أو درجات ، ونرجع إلى كتب التاريخ والشعر والشعراء فلا نجد أصداء واضحة لها فضلاً عن أن تكون قوية في أشعار من خلفوها في القرنين الرابع والخامس للهجرة إلا ما كان من المؤيد داعي الدعاة لعهد المستنصر ولم يكن مصرياً ، بل كان إيرانياً ، وسنخصصه بكلمة بعد ابن هاني ، والشاعر المصري الوحيد الذي ردَّد هذا النغم الإسماعيلي الغالي هو ظافر الحداد المتوفى سنة ٥٢٩ هـ وسنترجم له بعدهما ، وكان يعاصره على بن محمد الأخفش وهو مغربي وليس مصرياً ، ونرى العباد الأصهباني ينشد له في الخريدة بيتاً في الخليفة الأمر قاتلاً^(١) :

إلى ذِرْوَةِ النُّورِ العَلَّائِيْ إِنَّهُ إِلَى ذِرْوَةِ النُّورِ الإِلَهِيِّ يُنْسَبُ

وهو ينسب الأمر إلى نور الأنوار ، إلى النور الإلهي الذي يعم الأكوان . ويذكر له العباد قصيدة في الخليفة الحافظ ملاحظاً أن الغلو أفضى به إلى الكفر الصريح ، إذ يقول فيه مستطرداً من وصف الخمر إلى مديحه^(٢) :

صِرْفُ جِرَالٍو يرى تحريمها	من يرى الحافظ قَرْدًا صَمَدًا
بَشَرٌ فِي الْعَيْنِ إِلَّا أَنَّهُ	مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ نَوْرٌ وَهْدَى
جَلَّ أَنْ تُذَكِّرَكَ أَعْيُنُنَا	وَتَعَالَى أَنْ تَرَاهُ جَسَدًا
فَهَوَّ فِي التَّسْبِيحِ زُلْفَى رَاكِعٍ	سَمِعَ اللَّهُ بِهِ مَنْ حَمِيدًا
تُذَكِّرُ الْأَفْكَارُ فِيهِ نَبَأًا	كَادَ مِنْ لِجَالِهِ أَنْ يُعْبَدًا

وهو يسبغ على الحافظ صفات الله من الفردية والصلدية ، وكان دعائهم يزعمون أن الله

ينبغي أن ينزه عن الصفات والأسماء ، وأن ما في القرآن الكريم من أسمائه وصفاته إنما هي صفات العقل الكلى الأول وأسماءه . ومربنا آتفا أنهم كانوا يزعمون أنه ممثل الأئمة ، ومن هنا أضفوا عليهم أسمائه وصفاته ، وبالغوا فجعلوهم تجسدا للذات العلية ، بل إن ابن الأخفش ينحى الحافظ من كل تجسد ومادة ، فهو نور خالص لا تدركه الأعين . ويتأدى في هذا الغلو والبهتان الآثم ، حتى يكاد يجعله معبود الإسماعيلي في ركوعه وقيامه . ويلقانا نفس الغلو المقيت عند الشريف ابن أنس الدولة داعي دعايته ، إذ يروى أن الخليفة الحافظ صعد المنبر يوم عيد ، فوقف بإزائه ، وقال يخاطب المصلين ^(١) :

خشوعاً فإن الله هذا مقامه وهمساً فهذا وجهه وكلامه
وهذا الذي في كل وقت بروزه تحيَّاته من ربنا وسلامه

وهو غلو ما بعده غلو ، بل هو انحراف عن جادة الدين ما بعده انحراف ، وكأنما الحافظ تجسيد للذات الإلهية على نحو ما جسّد المسيحيون الرب في المسيح .

ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية يحيى بن حسن بن جبر ، وله مجموع ^(٢) في مدائح بنى أبي أسامة كتاب الإنشاء في عهد الحافظ والأمر من قبله ، ألفه سنة ٥٢٥ وجعله الشيخ الأُمَينى في الغدير من شعراء المستنصر في سنة ٤٨٧ وهو متأخر عنه بشهادة ترجمة العماد الأصبهاني في الخريدة إذ أنشد له شعراً في ابن ^(٣) رُزْيك الوزير الفاطمي من سنة ٥٤٩ حتى سنة ٥٥٦ وله قصيدة في فضائل علي بن أبي طالب وبكاء الحسين أنشدها صاحب «الغدير» وفيها يقول ^(٤) :

يا آل أحمد كم يكابد فيكم كبدى خطوباً للقلوب بواكى
كيدى بكم مقروحة ومدامعى مسفوحة وجوى قوادى ذاكى
وإذا ذكرت مصابكم قال الأسى لجفونى اجتنى لذيد كراك ^(٥)
وابكى قليلا بالطفوف لأجله بكت السماء دماً فحق بكالك

وهو يغلو في مديح على بن أبي طالب ، وينسب له كثيراً من معجزات غير ثابتة ، كرد الشمس إليه بيا بل لقضاء فرض كان سيفوته وقته ، ويزعم أن الريح سُحِّرت له رُخاء ، ويقول إنه

(٤) شعراء الغدير ٣١٣/٤ وانظر أدب الطغ ٣٢٨/٢ .

(٥) كراك : نومك .

(١) عجل للقرئى ٢١٤/٢ .

(٢) الخريدة ١٠٥/٢ .

(٣) الخريدة ٣٣١/٢ وما بعدها .

أحيا الموتى إلى غير ذلك من مزاعم غير صحيحة . ونقف عند ثلاثة من أعلام الدعوة الإسماعيلية هم ابن هانيء والمؤيد في الدين وظافر الحداد .

ابن هانيء^(١)

هو محمد بن هانيء المهلبى الأندلسى ، ينتمى إلى المهلب بن أبى صفرة الأزدي القائد المشهور في زمن بنى أمية ووالهيم فترة على خراسان ، ويقال إنه من سلالة حفيده يزيد والى المنصور العباسى على إفريقية ، وقيل : بل من سلالة أخيه رُوح واليه بعده . ويبدو أن أبناءهما ظلوا بعد وفاتها بإفريقية ، وكان من سلالتها أبو الشاعر هانيء ، إذ يقال أنه كان من قرية من قرى المهديّة بتونس وكان شاعرا أديبا نزع إلى الأندلس داعيا - فيما يبدو - للمذهب الإسماعيلى هناك ونزل إشبيلية وفيها وُلد له الشاعر سنة ٣٢٠ أو سنة ٣٢١ على اختلاف الروايات ، وبها نشأ وعكف على الأدب ، وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فاتصل بصاحب إشبيلية وحظى عنده ، غير أنه كان كثير الانهالك فى اللذات ، واتهم بأنه يعتنق مذهب الفلاسفة ، أولعله اتهم باعتناقه المذهب الإسماعيلى متابعا فى ذلك أباه . وكانتا تعدان تهنتين خطيرتين هناك فنصحه مملوحوه بالغيبة عن البلدة مدة فبارحها إلى إفريقية فى السابعة والعشرين من عمره ونزل بجعفر بن على الأندلسى أمير الزاب وأخيه يحيى فأكرماه ومدحها الشاعر مدائح بديعة . بمثل قوله فى جعفر :

المشرقات النيرَاتُ ثلاثةُ الشمسُ والقمرُ النيرُ وجَعْفَرُ

وسمع به المعز فطلبه من جعفر وأخيه فلما وصل إليه بالغ فى الإنعام عليه وخاصة حين رآه يعتنق المذهب الإسماعيلى ويلجج فى مديحه بمبادئ المذهب التى أسلفنا الكلام عنها ، بل لكأنما اتخذ أشعاره أداة لتسجيلها فى صور مغالية غلوا شديدا . وكان شاعرا مبدعا فأبدع فى مدائحه ، كما أبدع فى مديح قواده وخاصة فى جوهر الصقلى فاتح مصر ، وله فيه حين يَمِّم بحيشه مصر من القيروان عينية رائعة استهلها بقوله :

اللسان الدين ٢١٢/٢ والمغرب لابن سعيد (طبع دار المعارف) ٩٧/٢ ومعجم الأدباء ٩٢/١٩ وابن خلكان ٤٢١/٤ وعبر الذهبى ٣٢٨/٢ والشذرات ٤١/٣ ودبوانه طبع قديما بالهند .

(١) انظر فى ابن هانيء وترجمته وشعره كتاب التكملة لابن الأبار ص ١٠٣ والمطبع للفتح بن خاقان ص ٧٤ والمطرب لابن دحية (الفهرس) والجنوة للحميدى : ٨٩ وبغية المتلمس رقم ٣٠١ ونفع الطيب (الفهرس) والإحاطة

رَأَيْتُ بَعْضَ فَوْقَ مَا كُنْتُ أَسْمَعُ وَقَدْ رَاعَى يَوْمٌ مِنَ الْحَشْرِ أَرْوَعُ
غَدَاةَ كَانَ الْأَفْقَ سُدًّا بِمِثْلِهِ فَعَادَ غُرُوبُ الشَّمْسِ مِنْ حَيْثُ تَطْلُعُ

وَنَوَّهَ بِالْجَيْشِ وَعِظَّمَهُ وَرَحَلَهُ جَوْهَرَ الْمَظْفَرَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَلَمْ يَلْبَثْ جَوْهَرَ أَنْ أُرْسَلَ إِلَى
الْمَعْرِ يَهْتَهُ بِفَتْحِ مِصْرَ سَنَةِ ٣٥٨ فَهَتَفَ ابْنُ هَانِيٍّ فَرَحًا مُسْتَبْشِرًا :

يَقُولُ بَنُو الْعَبَّاسِ هَلْ فُتِحَتْ مِصْرُ قَقْلَ لَبْنَى الْعَبَّاسِ قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ
وَمُنْذُ جَاوَزَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ جَوْهَرُ تَصَاحَبَهُ الْبُشْرَى وَيَقْدُمُهُ النَّصْرُ

وَجَمَعَ الْمَعْرِ أَسْبَابَهُ وَتَوَجَّهَ إِلَى مِصْرَ سَنَةِ ٣٦٢ وَشَبِعَهُ ابْنُ هَانِيٍّ وَرَجَعَ إِلَى أَسْرَتِهِ بِالْمَغْرِبِ
لَاخِذَهَا مَعَهُ وَاللِّهَاقَ بِهِ ، وَتَجَهَّزَ وَتَبِعَهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ اغْتِيلَ فِي بَرْقَةِ شَهْرِ رَجَبِ سَنَةِ ٣٦٢ وَيَقَالُ إِنَّهُ لَمْ
يَشَّعْ الْمَعْرِ بَلْ كَانَ فِي صَحْبَتِهِ إِلَى أَنْ دَخَلَ مِصْرَ ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَغْرِبِ لِأَخْذِ عِيَالِهِ ، وَاغْتِيلَ بِبَرْقَةِ كَمَا
ذَكَرْنَا . وَلَمَّا بَلَغَتْ الْمَعْرِ وَفَاتِهِ حَزَنَ عَلَيْهِ وَتَأَسَّفَ قَائِلًا : هَذَا الرَّجُلُ كُنَّا نَرْجُو أَنْ نَفَاخِرَ بِهِ شَعْرَاءَ
الْمَشْرِقِ فَلَمْ يَقْدِرْ لَنَا ذَلِكَ . وَلَعَلَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرِيدُ أَنْ يَفَاخِرَ بِهِ مِنْ حَيْثُ رُوعَةُ شَعْرِهِ فَحَسَبَ ، بَلْ
كَانَ أَيْضًا يَرِيدُ أَنْ يَفَاخِرَ بِهِ مِنْ حَيْثُ اسْتَظْهَارِهِ لِلْعَقِيدَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَمِبَادِئِهَا الْمَقْرُطَةِ فِي الْغُلُوفِ افْرَاطَا
بَعِيدًا حَتَّى لَتَنْحَرِفَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَجَادَّتْهُ .

وَبِمَجْرَدِ أَنْ نَقْرَأَ فِي دِيْوَانِ ابْنِ هَانِيٍّ نَرَاهُ يَرُدُّ أَنْ إِمَامَةَ الْفَاطِمِيِّينَ رِبَانِيَّةً وَأَنَّهَا فَرِيضَةٌ مَكْتُوبَةٌ
عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَأَنَّهُمْ يَتَوَالَوْنَ بِتَرْتِيبٍ إِلَهِيٍّ وَأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ كُلِّ زَلَلٍ وَأَنَّ طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ
مِنْ أَطَاعَتِهِمْ اسْتَحَقَّ رِضْوَانُ اللَّهِ وَمِنْ عَصَاهُمْ كَانَ مَالُهُ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ، يَقُولُ فِي الْمَعْرِ :

إِمَامٌ رَأَيْتُ الدِّينَ مُرْتَبِطًا بِهِ فِطَاعَتُهُ فَوْزٌ وَعَصْيَانُهُ خُسْرُ

وَهُمْ دَائِمًا مَبْرَأُونَ مِنَ الذَّنُوبِ مُطَهَّرُونَ مِنَ الْآثَامِ ، بَلْ هُمْ نُورُ اللَّهِ وَمَشْكَاةُ فِي الْعِبَادِ ،
يُضِيئُونَ لِلنَّاسِ حَيَاتَهُمْ ، وَيَكْشِفُونَ عَنْهُمْ ظُلُمَاتِ الضَّلَالِ ، وَكَأَنَّهُمْ يُيْمُونُ نُورُ اللَّهِ أَوْ كَأَنَّهُمْ
يُشَارِكُونَ فِيهِ ، يَقُولُ فِي الْمَعْرِ :

وَمَا كُنْتُ هَذَا النُّورِ جَبِينِهِ وَلَكِنْ نُورَ اللَّهِ فِيهِ مُشَارِكُ

وَيَكْرُرُ هَذِهِ الْفِكْرَةَ كَثِيرًا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ مَا دَحَا لِلْمَعْرِ :

تَسْعَى بَنُو اللَّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ لَتَضَىءَ بِرَهَانًا لَهُمْ وَتَلُوحَا
وَجَدَ الْإِيَّانُ سَنَّاكَ تَحْقِيقًا وَلَمْ تُحِطِ الظُّنُونُ بِكُنْهِهِ تَصْرِيحًا

وقد انتقل ابن هانيء نقلة واسعة فقد جعل المعز نوراً خالصاً ، وكأنما ليس فيه شيء من المادة ولا من الطبيعة البشرية ، ويصرح بذلك إذ يقول إن العيان والحس إنما يشهدان سناه وضيائه فحسب ، أما هو فكانه الذات العلية لا تحيط الظنون بكنهه وحقيقته ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ويعود إلى مثل هذا الغلو الشائن في مدحه للمعز قائلًا :

أَتَبَعْتُهُ فِكْرِي حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ غَايَاتَهَا بَيْنَ تَصَوُّبٍ وَتَصَعِيدٍ
رَأَيْتُ مَوْضِعَ بَرهَانٍ يُلُوحُ وَمَا رَأَيْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيفٍ وَتَحْدِيدِ

وقد خطا ابن هانيء في الغلو هنا خطوة أبعد من سابقتها إذ جعل المعز يخلو من كل صورة للمادة ، بل كأنما جعله الخالق نفسه ، إذ نفى عنه ما ينفيه المعتزلة عن الله من كل تشبيه وتجسيد ، فلا حد له ولا كيف ولا هيئة بأى شكل من الأشكال . وقد بدأوا كما بدأ المسيحيون في مسيحهم بأن في الإنسان لا هوتا وناسوتا أوروها وجسما . وبالفرا فخلَّصوا - مثل ابن هانيء - أُنْمَتهم من كل أثر للمادة ، وجعلوهم روحاً أو نوراً خالصاً ، بل جعلوهم نفس الله بأسمائه وصفاته ، حتى لنرى ابن هانيء يقول في المعز :

مَا شَتَّ لَآ مَا شَاءَتِ الْأَقْدَارُ فَاحْكُمْ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

ويقول فيه أيضاً :

نَدْعُوهُ مُنْتَقِمًا عَزِيزًا قَادِرًا غَفَّارًا مُؤَبِّقًا الذُّنُوبِ صَفُوحًا

فالمعز الواحد القهَّار المنتقم العزيز القادر الغفار . وعلى هذا النحو زين لهم دعائهم وشياطينهم أن يتزهوا الله عن أسمائه وصفاته في القرآن الكريم ويسبغوها على أُنْمَتهم ، ضلال ما بعده ضلال ومروق لا يدانيه مروق . ومن هذا الباب ما يزعمه ابن هانيء في المعز من أنه مقسَّم الأرزاق بين العباد :

رَأَيْتَكَ مَنْ تَرَزُّقُهُ يُرَزِّقُ مِنَ الْوَرَى دِرَاكًا وَمَنْ تَحْرِمُ مِنَ النَّاسِ يُحْرِمُ

فمن شاء رَزَقه ووسَّع رزقه ومن شاء حرَّمه وضَيَّق عليه وجعل حياته ضنكا ، وكل شيء في الأرض بل في الكون بمشيئته حتى ليقول ابن هانيء فيه :

أَدَارَ - كَمَا شَاءَ - الْوَرَى وَتَحْيِزَتْ عَلَى السَّبْعَةِ الْأَفْلَاكِ أَنْمَلُهُ الْعَشْرُ

فهو لا يهيمن على شئون الناس وأحوالهم فحسب ، بل هو أيضا يهيمن وسيطر على الأفلاك التي تصدر عنها الحركة في الكون . وكل ذلك لما لجأوا فيه من أن الإمام يمثل العقل الفعال المسيطر على الوجود ، فجعلوه نفس هذا العقل الذي آمن به الفلاسفة ، وجعلوه لذلك العلة الأولى أو علة العلل التي ينبثق عنها الكون ، مما جعل ابن هاني يقول عن المعز :

هو عِلَّةُ الدنيا وَمَنْ خُلِقَتْ له ولعلِّ ما كانت الأشياء

وماذا بقي لخالق الكون ؟ وحتى الحياة والموت ملكها ابن هاني للمعز يوزعها على الناس كيف يشاء إذ يقول مخاطبا للمعز :

لك الدهرُ والأيامُ تَجْرِي صُرُوفُها بما شئتَ من حَتَفٍ ورزقٍ مقسَّمٍ

فهو الذي يحيي ويميت وهو الذي يدبِّرُ الدنيا ويصرِّفُها ، وهو الذي يهيمن على الكون وينسِّقُه ، وهو الرازق ومانع الرزق وهو المنتقم العزيز الغفار وهو الواحد القادر القهار . ولا نعجب بعد ذلك كله لابن هاني إذ يقول :

أرى مَدْحَهُ كالمُدْحِ لله إِنَّه قُنُوتٌ وتَسْبِيحٌ يُحِطُّ به الْوَزْرُ

ويستضيء ابن هاني بفكرة الدور عند الإسماعيلية مرارا وما يذهبون إليه من أن الأئمة الفاطميين خلفاء الأنبياء وأنهم يتنظمون معهم منذ آدم في أدوار سبعة ، كل دور يُخْتَمُ بإمام سابع نبي أو من الخلفاء الفاطميين ويسمونه الناطق وهو يمثل عندهم العقل الأول الفعال الذي تحولت إليه قدرة الله وأسمائه وصفاته ، ومن هنا كانت تطلق على ممثله من الأئمة ، وهو الإمام السابع الحامل للنور الرباني الذي يتمثل في كل إمام سابع منذ آدم . ولما كان المعز نهاية السبعة الثانية من الأئمة الفاطميين فإنه كما يتمثل فيه نور كل إمام سابع قبله من الأنبياء يتمثل فيه نور نوح :

لو كنت نوحاً منذراً في قومٍ مازادهم بدعائِهِ تَضَلُّيلاً

ويتمثل فيه قبس موسى وشعلته وهدهد :

من شُعْلة الْقَبَسِ التي عُرِضَتْ على موسى وقد حارَتْ به الظلمات

ويتمثل فيه نور المسيح الذي كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله :

أَقْسَمْتُ لولا أن دُعِيَتْ خَلِيفَةً لدُعِيتَ من بعد المسيح مَسِيحاً

ويمثل فيه نور الرسول ﷺ المشاهد في كل نور بملكوته السموات : في الشمس والقمر والكواكب والنجوم :

وكانما أنت النبي محمدٌ وكانما أنصارك الأنصارُ

ويبلغ به الإلحاد في الدين أن لا يكتفى بحلول أرواح الأنبياء في المعز ، بل يجعل الله يحل فيه ، بل لكانه الله ، جلّ جلاله عن أن يتعلق بذاته العلية شيء من ترهاته إذ يقول في غير استحياء للمعز حين حلّ بقرية رقادة بجوار القيوان :

حَلَّ بِرَقَادَةَ الْمَسِيحُ حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو الْمَعَالَى وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

وكان ابن هاني شاعرا فذا بارعا ، ولما لنأسى له حين سخر ملكاته الشعرية الخصبية التي منحها له ربه في الدعوة للعقيدة الإسماعيلية الضالة . وهو في رأينا يُعدّ مسئولا إلى حد كبير عن اندفاع الشعراء بعده في هذه الدعوة الخاطئة المنحرفة ، وهو أيضا إلى حد ما يعد مسئولا عن ضلال الخليفة الحاكم الفاطمي حين قال بعد جده المعز : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ، وتبعه في ضلاله ومروقه من تبعه . وكان ابن هاني يكثر من التشبيهات والاستعارات أحيانا في أشعاره ، ونفذ إلى صور كثيرة مبتكرة كقوله في مطلع قصيدة مدح بها جعفر بن علي الأندلسي :

فَنَقَتَ لَكُمْ رِيحُ الْجِلَادِ بِعَنْبَرٍ وَأَمْدُكُمْ فَلَقَى الصَّبَاحَ الْمُسْفِرَ
وَجَنِيئُكُمْ ثَمَرَ الْوَقَائِعِ يَانَعًا بِالنَّصْرِ مِنْ وَرَقِ الْحَدِيدِ الْأَخْضَرِ

وهو يتصور الجلاد أو القتال ربحا عاصفا يفوح منه شذى العنبر والطيب وهو يهب في الصباح المشرق الجميل . ونفذ إلى صورة بديعة إذ تخيل السيوف شجرا مورقا مثمرا وهم يجنون منه النصر المأمول ، والقصيدة تكتظ بأبيات رائعة .

المؤيد^(١) في الدين الشيرازي

هو هبة الله بن أبي عمران موسى بن داود ، ولد بشيراز في العقد الأخير من القرن الرابع

إبراهيم نشر د . محمد عبد القادر عبد الناصر ، وانظر معجم الأدباء ١٧٥/٣ وما بعدها في ترجمة أبي العلاء .

(١) انظر في المؤيد ديوانه ومقدمته بتحقيق الدكتور محمد كامل حسين وكتابه : في أدب مصر الفاطمية ص ٥٩ ونشره للسيرة المؤيدية وراجع مختصر المجالس المؤيدية لحاتم بن

المجربى لأبيه موسى ، وكان من دعاة الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وتقدم في الدعوة ، حتى استحق لقب حُجَّة إقليم فارس ، ونشأ ابنه على مثاله في الإخلاص لتلك الدعوة ومازال يسمى له عند الحاكم الخليفة الفاطمي (٣٨٦ - ٤١١ هـ) حتى جعله خليفة له في فارس ، ومنحه نفس اللقب الفاطمي : الحجة ، وهو لقب رفيع من ألقابهم . وكان سيوسا ، فتقرب من نفوس أتباعه وأخلصوا له ، وحاول أن يدخل أباكاليجار الحاكم البويهي في عقيدته ، ويقال إنه عقد له مجلسا كان يلقي فيه كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد الكتامي داعي الدعاة لعهد المعز ، وأيضا فإنه بنى مسجدا بالأهواز ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين ، وطلب من أتباعه أن يؤذّنوا فيه بأذان الإسماعيليين : «حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» . ومن أهم أتباعه حينئذ ناصر مجسرو . وتنبه له الخليفة العباسي ببغداد ، فأرسل إليه من يتعقبه ، وخشى على نفسه ، ففرّ موليا وجهه نحو مصر والقاهرة : مركز دعوته ، ووصل إليها سنة ٤٣٧ لمعهد الخليفة الفاطمي المستنصر ، واستقر بها ، وحضر مجالس الدعوة فيها ، وعيّنهُ الوزير اليازوري رئيسا لديوان الإنشاء ، وظل في هذا العمل حتى سنة ٤٥٠ وهو يتصل سرا بدعاة الدولة في إيران والعراق ، وأحس خطر طغربك السلجوقي حين تستقيم له العراق ، فرما فكر في الاستيلاء على الشام ومصر ، وكانت العلاقة ساءت بين طُغْرُبُك وأخيه إبراهيم ، وكان قد ولاه على الموصل ، فأعلن العصيان لأخيه ورحل إلى بلاد الجبل فتبعه بجيشه ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، ورأى المؤيد في الدين الفرصة سانحة فكاتب البساسيري مقدم الأتراك ببغداد . وذهب إليه بنفسه محمّلا بالأموال من المستنصر ، ومحدثنا في سيرته كيف أخذ يستميل أمراء العرب في طريقه إلى بغداد وكيف نفروا معه ، يؤازرهم أهل الكوفة وواسط وحلب ، وكيف وصل إلى بغداد ، حيث وجد البساسيري قد أبعد الخليفة العباسي القائم بأمر الله إلى «عانة» سنة ٤٥٠ ودعا على المنابر باسم المستنصر بالله ، وظل ذلك نحو عام ، حتى إذا قضى طغربك على عصيان أخيه وثورته قدم إلى بغداد وقضى على البساسيري ودعوته وأعاد الخليفة العباسي إلى عرشه . وفرّ في هذه الأثناء المؤيد إلى القاهرة ، وتولى بها مرتبة داعي الدعاة جزاءً لجهوده وإن كانت قد أخفقت إخفاقا ذريعا ، غير أنه حقق للفاطميين حلما طالما رجوا تحقيقه وهو أن يُدعى على منابر بغداد باسمهم ولو إلى حين اقصر . وكتابه «السيرة المؤيدية» يصور فيه حياته من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠ وما اضطرب فيه من أحداث ، وهو لذلك يعد وثيقة تاريخية مهمة .

وأخذ المؤيد في أثناء اضطلاعه بمرتبة داعي الدعاة يلقي دروسه بالجامع الأزهر ، وقد جمعها

في كتابه « المجالس المريدية » وهي تضم ثمانمائة مجلس له ، وقد اختصرها حاتم بن إبراهيم الداعي اليمنى ، وعُني بنشر مختصره وتحقيقه الدكتور محمد عبد القادر عبد الناصر وهو موسوعة كبيرة في العقيدة الفاطمية والتأويل الباطني وما يتصل به من الحكمة التأويلية ، ويشتمل على مناظرات مع مخالفيه وردود عليهم ، لعل من أهمها ردوده على ابن الراوندي ودحض آرائه الإلحادية ^(١) . وله رسائل متبادلة مع أبي العلاء المعري ناظره فيها طويلا في تحريمه على نفسه أكل الحيوان وكل ما ينتجه من اللبن والبيض وعسل النحل ، وقد احتفظ بها ياقوت في معجمه . وكان شاعرا كما كان كاتباً ناثراً ، وحقق الدكتور محمد كامل حسين ديوانه ونشره بالقاهرة ، وهو في مديح المستنصر الفاطمي وآبائه والدعوة إلى العقيدة الفاطمية وكل ما يتصل بها من التأويل الباطني الموقوف على الأئمة الفاطميين وآبائهم من البيت العلوي ، فهم وحدهم الذين يعرفون أسرار التأويل في القرآن على نحو ما خصَّ الله « الخضر » الرجل الصالح بأسرار لم يعرفها موسى عليه السلام ، وبالمثل الأئمة يعرفون من الأسرار في تأويل الذكر الحكيم ما لا تعرفه العامة ، وفي ذلك يقول في أولى قصائده بديوانه محتجا بقصة الخضر على جهل العامة بسر الملكوت أو أسرارهم ووقفها على الأئمة :

يا قومُ سرُّ الملكوت هذا يجعلُ أصنامكمُ جُذاذا
سرُّ له صاحبُ موسى الخضرُ قال معي . لن تستطيعَ صبرا
تدبروا القصة ماذا يَمَّا من قصَّها إن لم تكونوا نُوما

وكان كل إمام خضرُ زمنه ، وهو وحده الذي يعرف أسرار الكون وبواطن الآيات القرآنية ، وهي معرفة اختص الله بها الوصي الأول على بن أبي طالب وأبناءه الأئمة . والمؤيد في الدين بذلك يرفع الأئمة درجات على سائر الخلق ، بل هي العقيدة الفاطمية التي تجعلهم نورا خالصا . لا تعلق بهم مادة ولا ما يشبه المادة على نحو ما رأينا عند ابن هاني ، وقد مضى المؤيد وراءه يردّد تقديسه للأئمة وأنهم فوق الطبيعة البشرية ، ومضى يسبغ عليهم كثيرا من الصفات الربانية ، حتى يجعلهم القائمين على الجنة والنار فيدخلون الجنة بأتباعهم ويزجّون بأعداءهم في الجحيم ، يقول :

يقسمون الجنان والنارَ فيهم فلكل نصيبه الموجب

كبرت كلمة بل كلماتٍ تخرج من فمه ، ويتأدى في هذا الضلال فيجعل زيارة الإمام أداء

(١) انظر في ذلك كتاب تاريخ الإلحاد في الاسلام لعبد الرحمن بلوى (نشر مكتبة النهضة) ص ٧٥-٨٨ .

لفريضة الحج يقطع إليها أصحابه القلوات للتبرك به ، فهو القبلة والغاية التي ليس بعدها غاية ، يقول :

هَلَمْ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي بِسَاحَتِهَا سَكَّانُهَا أَمِينُوا الْمَوْتَ
إِلَى عِلْمِ الْإِيمَانِ وَالْقَبْلَةِ الَّتِي عَلَيْهَا بَلَامِسْكَ دَلَّلْتَ وَوَجَّهْتَ
وَمِيزَانُ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي بِهِ تُؤْفَى الثَّوَابَ الْجَزَلَ إِنْ أَنْتَ وَفَّيْنَا
فَالْمُسْتَنْصِرُ وَأَمْثَالُهُ مِيزَانُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ، بطاعتهم ومقدارها يكون الثواب وبعضياتهم
ومقداره يكون العذاب ، وما يزال المؤيد يردد مثل هذا الضلال والبهتان في ديوانه .

ومما رددته المؤيد طويلا نظرية الدور التي تصور إيمان الإسماعيلية في أئمتهم وأنهم مثل العقل
الفعال الأول في عالم الطبيعة ، وهم لذلك يعدون مدبرين للكون ، وأيضا فإن أسماء الله الحسنى
تُسَبِّحُ عَلَيْهِمْ ، وقد رتبوا في أدوار تشترك معهم فيها الأنبياء والرسل منذ آدم ، وكل منهم يمثل من
سبقوه في هذه الأدوار من الأئمة والرسل ، وفي ذلك يقول في المستنصر وآله :

سَلَامٌ عَلَى الْعَتَرَةِ الطَّاهِرَةِ	وَأَهْلًا بِأَنْوَارِهَا الزَّاهِرَةِ
سَلَامٌ بَدِئُ عَلَى آدَمَ	أَبِي الْخَلْقِ بَادِيهِ وَالْحَاضِرِ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ بَطَوَفَانِهِ	أُدِيرْتُ عَلَى مَنْ بَقِيَ الدَّائِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى مَنْ أَنَاهُ السَّلَامُ	غَدَاةً أَحَقَّتْ بِهِ النَّائِرَةُ (١)
سَلَامٌ عَلَى قَاهِرٍ بِالْعَصَا	عُصَاةً فَرَاعَنَ جَائِرَةَ
سَلَامٌ عَلَى الرُّوحِ عَيْسَى الَّذِي	بِمَعْنَاهُ شَرَفَتْ نَاصِرَتُهُ (٢)
سَلَامٌ عَلَى الْمُصْطَفَى أَحْمَدٍ	وَلِيٍّ الشِّفَاعَةِ فِي الْآخِرَةِ
سَلَامٌ عَلَى الْمُرْتَضَى حَبِيرٍ	وَأَبْنَائِهِ الْأَنْجَمِ الزَّاهِرَةِ
سَلَامٌ عَلَيْكَ فَحْصُولُهُمْ	لَدَيْكَ أَيَا صَاحِبِ الْقَاهِرَةِ
بِنَفْسِي مُسْتَنْصَرًا بِالْإِلَهِ	جُنُودُ السَّمَاءِ لَهُ نَاصِرَةُ
شَهِدْتُ بِأَنَّكَ وَجْهُ الْإِلَهِ	وَجُوهُ الْمَوَالِي بِهِ نَاصِرَةُ

وواضح أن المؤيد بدأ سلامه بآل البيت ، ثم تلاهم بآدم ونوح صاحب الطوفان وإبراهيم
الذي ألقاه النمرود في النار فجعلها الله عليه بردا وسلاما وموسى صاحب العصا التي استحالت

ثعبانا في مجلس فرعون فإذا هي تلقف كل ما جاء به سحرته من سحر رهيب ، وعيسى الروح الأمين الذي شرفت به مدينته الناصرة ، ومحمد المصطفى الشفيق المشفق في الآخرة ، وعلى أوحيد المرتضى وأبنائه الأئمة الأنجم الزاهرة . ويقول إن المستنصر لديه محصول كل هؤلاء الرسل وكل الأئمة فهو الرسول وهو عيسى وهو موسى وهو إبراهيم الخليل وهو نوح وهو آدم وهو على والأئمة جميعا قبله إماما إماما . وهو بذلك وارث الأئمة والرسل ، وارث علومهم ومعجزاتهم وخوارقهم . ولا يكتفى المؤيد بكل ذلك ، إذ يقول إن الملائكة جنده الذي ينصره في معاركه ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يتقدم خطوة بل خطوات إذ لا يُسبغ عليه صفات الله وحدها ، بل يجعل ذاته نفس ذات الله إذ يقول إنه وجه الإله ، وكأنه اتحد معه في ذاته تعالى الله عن هذا البهتان الآثم علوا كبيرا ، وهو ليس بهتانا فحسب ، بل هو ضلال مبين .

ظافر^(١) الحداد

هو ظافر بن القاسم الإسكندري ، من سلالة قبيلة جُذام اليمنية ، كان أبوه حدادا بالإسكندرية ، ولد له في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، ويبدو أنه أرسله في صباه إلى الكتاب ، ورأى من ذكائه ما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء ، وهو مع ذلك يعاونه في حرفته . وأكب الصبي على حفظ الشعر وكانت له ملكة خصبة ، سَوَتْ منه شاعرا كان يلفت أقرانه ، كما لفت كثيرين من شعراء الإسكندرية ، وكانت بها آنذاك نهضة شعرية واسعة ، جعلت شعراءها يتكاثرون ، كما جعلت العماد الأصمباني في الخريدة يترجم لكثيرين منهم . ولعل شيئا من العجب يداخلنا إذ نجد بين الشعراء هناك شاعرا حدادا ، ولكن إذا عرفنا أن الثقافة العربية الإسلامية كانت طوال الحقب السالفة ثقافة شعبية عامة إذ كانت تُلقى بالمساجد ، ولكل شخص الحق في أن يجلس إلى حلقة الشيخ الذي يريد الاستماع إليه ، وكانت للشعراء في المساجد حلقات ، مما أتاح لشباب العامة المشاركة في الشعر وفي العلوم العربية والإسلامية ، وتكثر هذه الظاهرة بين شعراء الدولة المملوكية ، إذ نجد بينهم جزارا وحماسيا ووراقا وخياطًا وكحالا . وقد

والنجم الزاهرة ٣٧٦/٥ وه في أدب مصر الفاطمية ،
للدكتور محمد كامل حسين ص ١٩٠ وظافر الحداد لحنين
نصار وديوانه بتحقيقه (نشر مكتبة مصر) .

(١) انظر في ترجمة ظافر وشعره الخريدة (قسم شعراء
مصر) ١/٢ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢٧/١٢ ووفيات
الأعيان لابن خلكان ٤٠/٢ والرسالة المصرية لأبي الصلت
أمية في الجزء الأول من نواذر المخطوطات لعبد السلام هرون

تفتحت موهبة الشعر عند ظافر مبكرة وتهايت له فرصة أن يتألق اسمه بين شعراء مدينته ، فإن ابن ظفر واليها من قبل الخليفة الفاطمي تصادف أن ورم خنصره وبه خاتم ، فخشى عاقبة الأمر وطلب حداذاً كي يكسر حلقتة ، فجاءوه بظافر ، فلما كسر الحلقة أنشده بديها :

قَصَّرَ فِي أَوْصَافِكَ الْعَالَمُ وَاعْتَرَفَ النَّائِرُ وَالنَّازِمُ
مَنْ يَكُونُ الْبَحْرُ لَهُ رَاحَةً يَضِيقُ عَنْ خِنْصَرِهِ الْخَاتَمُ

فاستحسن ذلك منه ابن ظفر ووهبه الحلقة وكانت من ذهب . وكان بين يديه غزال مستأنس قد رضى أوطوى قوائمه ، وجعل رأسه في حجره ، فقال له أحد الحاضرين : إن كنت ذا خاطر سمح فأنشدنا أسرع من لمح البصر في هذا الغزال المستأنس ، فقال ثوًا :

عَجِبْتُ لَجَرَأَةِ هَذَا الْغَزَالِ وَأَمِرٍ تَخْطِئُ لَهُ وَاعْتَمَدُ
وَأَعْجَبُ بِهِ إِذْ بَدَأَ جَائِئًا فَكَيْفَ أَطْمَأَنَّ وَأَنْتَ الْأَسَدُ

فزاد ابن ظفر وجلساؤه في الاستحسان . وكانت هناك شبكة مسدولة على باب المجلس تمنع الذباب من دخوله ، فتأملها ظافر وقال بديها :

رَأَيْتُ بِبَابِكَ هَذَا الْمَنِيْفَ شِبَاكًا فَأَدْرَكْنِي بَعْضُ شَكِّ
وَفَكَّرْتُ فِيمَا رَأَى خَاطِرِي فَقَلْتُ الْبَحَارُ مَكَانُ الشُّبْكِ
وَكَانَتْ هَذِهِ الْحَادِثَةُ سَبِيًّا فِي اشْتِهَارِ ظَافِرٍ بِمَدِينَتِهِ ، وَتَهَادَاهُ أَعْيَانُهَا وَقَضَاتُهَا مِثْلَ ابْنِ أَبِي حَدِيدٍ
قَاضِيهَا وَلَهُ فِيهِ مَدَائِحُ طَرِيفَةٌ .

وطمح ظافر إلى لقاء الأفضل بن بدر الجمالي وزير الفاطميين ، وكان قد حجر على الخليفة الأمر وأصبح له الملك والسلطان كله ، فاتخذ الأسباب إلى لقائه ، ولم يكد يستمع منه إلى مديحه حتى أكبره وقلّعه على أقرانه ، وسكن ظافر بجواره في القسطاط ، وأخذ يدبج فيه مدائح طنانة ، وهو يغدق عليه من نواله مع راتب قدره له ، وإلى ذلك يشير قائلا :

وَهَذَا الْجَنَابُ الْأَفْضَلُ يُكَيِّنِي ذُرَى ظِلِّهِ إِنْ إِذْنُ لِسَعِيدُ

وقدّر لهذه السعادة أن ينحسر ظلها عن ظافر إذ دبر الخليفة الأمر للأفضل من قتله غيلة سنة ٥١٥ للهجرة ، وولى الوزارة بعد الأفضل المأمون البطائحي ، ولظافر فيه مدحتان يشكو فيهما من عوزة وضيق ذات يده ، ومع ذلك يشكره على ما أولاه من نعم . ويبدو أن ما نعم به في زمن الأفضل

من أموال انقطع بعده إلا قليلا ، وكان أبواب المأمون لم تكن مفتوحة له إلا من حين بعيد إلى حين ، ولا يلبث الخليفة الأمر في سنة ٥١٩ أن يصادر المأمون ثم يقتله . حيثئذ نجد ظافرا يفكر في تقديم مدائحه للخليفة ، ولم يكن شيعيا فضلا عن أن يكون إسماعيليا طوال أيامه الماضية ، فقد رأيناه حين نزل الفسطاط يقصر مدائحه على الوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، وكان سنيًا ، وكان المأمون البطاحي من رجاله ، ولعله لذلك لم يكن شيعيا أو بعبارة أدق لم يكن غالبا في تشيعه . على كل حال ليس في مديح ظافر له وللأفضل ما يدل على صلته بالتشيع الإسماعيلي حتى هذا التاريخ . ولكن المأمون قُتل ، وكأنما دُفع دفعا لكي يمدح الخليفة الأمر ، فأكتبُ على ديوان ابن هاني الأندلسي يدرسه ليتمثل معاني العقيدة الإسماعيلية ، ويرى نهجه في عرضها بمدحها ليحتذيه ، يقول في إحدى مدائحه للأمر مصرحا بذلك دون أي مواربة :

أَجَادَ ابْنُ هَانِي فِي الْمَعْرِزِ مَدَائِحًا هَدَاهُ إِلَيْهَا ذَلِكَ الْفَضْلُ وَالْمَجْدُ
وَقَدْ جَادَ مَدْحِي فَيْكَ لَمَّا رَأَيْتُ مَا رَأَى فَاسْتَوَى الْمَدْحَانُ وَالْإِبْنُ وَالْجَدُّ

ونراه في نفس هذه القصيدة يردد ما رده ابن هاني من أن طاعة الخليفة أو الإمام الفاطمي فريضة واجبة ، على كل إسماعيلي أن يعتنقها وأن يؤدي واجباتها ، يقول :

فَمَنْ عَاشَرَ أَحْيَاهُ نَدَاهُ وَمَنْ يَمُتَ عَلَى حَبِّهِ طَوْعًا فَسَكُنْهُ الْخُلْدُ
أَطَاعَتْهُ أَسْرَارُ الْقُلُوبِ دِيَانَةً فَمَا لَامِرِي لَمْ يَعْتَقِدْ حَبِّهِ رُشْدُ
فَطَاعَتْهُ فَرَضٌ وَخَدَمَتْهُ تَقَى وَنُصِرَتْهُ دِينٌ وَمَرْضَاتُهُ جَدُّ

فطاعة الأمر وأمثاله من الأئمة فرض مكتوب ، فمن أطاعه فاز بالرضوان ومن عصاه كانت عاقبته الخسران ، وإن مرضاته لجَدُّ أو حظ أكبر ، ولا إسلام إلا بطاعته وموالاته ومحبته . والأمر مثله مثل الأئمة قبله ، يرتفع فوق حدود الطبيعة البشرية ، إذ هو مثل العقل الفعال الأول الرابط بين الله والوجود ، وهو بذلك النور الإلهي ، نور السموات والأرض . ولن يفهم ظافر كل هذه الفلسفة الإسماعيلية المنحرفة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع ، وهو لذلك سيلتقط دون تعمق من ابن هاني فكرة النور التي يرددها في مديحه للمعز قائلا في الأمر :

إِمَامٌ تَبْدَى لِلْوَرَى مِنْ جَبِينِهِ ضِيَاءٌ بِهِ تُشْفَى بِصَائِرِهَا الرُّمْدُ
وَنُورُكَ مَا يُهْدِي الصَّبَاحَ لِنَظِيرٍ وَلَوْلَاهُ ضَلَّ النَّاسُ وَامْتَنَعَ الْقَصْدُ

وكان ظافرا ينقل ذلك عن ابن هانيء دون أن يدرك مقصده تماما وأن ممدوحه نور السموات والأرض ، وبالمثل نقل عنه نظرية الأدوار التي تزعم أن الأنبياء والأئمة الفاطميين إنما هم مظاهر دورية للعقل الفعال وحلقاته البادئة بآدم والتي يتتظم فيها نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثم على وأبناؤه وأحفاده من الأئمة الطاهرين ، ويلم ظافر بظاهر من ذلك كله قائلا في مدحة أخرى للآمر :

أنت الذى بعثَ الإلهُ لنا بهِ آباءَهُ فتمثَّلوا بِمُثْلِهِ
هذا ضياءُ اللهِ والمعنى الذى تتفاضلُ العلماءُ فى تعليلِهِ
مازال يَنقُلهُ الإلهُ مُطَهَّرًا عن ظَهَرٍ مثلِ ذبيحِهِ وخليلِهِ
وتوارثتهُ الأنبياءُ وسادةُ الدُخْلِ خلفاءُ حتى حانَ وقتُ حلولِهِ

فآباء الأمر من الأئمة والأنبياء قد تمثلوا فيه بميراثهم الربانى من النور الذى يعم أطباق السموات والأرض ، ومازال الله ينقل هذا النور من نبي إلى نبي ومن إمام إلى إمام من مثل إبراهيم وإسماعيل وذبيحه ومثل على وجعفر الصادق إلى أن حلَّ في الأمر المطهر المحضوف بالعبادة الإلهية والثقة النورانية ، ومن ثمَّ كان ابن هانيء يقول في المعز أنه جوهر الملكوت وأنه العقل المدبر للكون . ولم يكن ظافر يتغلغل في العقيدة الإسماعيلية هذا التغلغل ، بل كان يقف كما رأينا عند ظاهر من أقوال ابن هانيء في المعز ويرددها في الأمر . وهو معنى ما قلناه في غير هذا الموضع من أن المصريين انصرفوا عن العقيدة الإسماعيلية ولم يحاول أحد منهم أن يكون داعية لهم على شاكلة المؤيد وابن هانيء . ولعل مما يؤكد ذلك عند ظافر أننا نجد بضيف إلى قيثاره مديحه للآمر وترين لا نجدهما عند ابن هانيء ، وهما ميراث الأمر وآبائه للرسول ﷺ ، مما جعله يتغنى بمعجزاته الخارقة من المعراج وغير المعراج ، ثم الاتساع بخياله في بيان سحق جيوش الأمر للصليبيين ، وكانوا قد استولوا في عهده على بيت المقدس وكثير من ثغور الشام وبلدانه ، والخليفة ووزيره الأفضل والمأمون يغطون في غفلة لا تدانها غفلة ، وكان ظافرا يحاول إيقاظ الأمر ودفعه للذب عن حرُمات الإسلام ودياره أمام حملة الصليب ، وهو في ذلك إنما كان لسانا للمصريين يعبر عن فزعهم للغزو الصليبي وما يأملون من القضاء على حملة الصليب قضاء مبرما . وهذا الوتر في مدائح ظافر للآمر ووتر الميراث النبوى أتاحا لمدحته له أن لا تقف عند المبادئ الإسماعيلية في مدح الأئمة الفاطميين إلا لاما وإلا عند هذا الظاهر المسطحي منها الذى صوَّلناه .

ودليل ثان على أن هذه المبادئ لم تتعمق نفس ظافر أنه حين قُتل الأمر سنة ٥٢٤ وتولى ابن عمه الخليفة الحافظ واتخذ أبا علي بن الأفضل الجمالي السني وزيراً له ، حيث نجد ظافراً يمدحه مدحاً يخلو خلواً تاماً من هذا الغلو الإسماعيلي الذي رأيناه في مدائح الأمر . وكان من المبادئ الإسماعيلية أن يتولى الخلافة ابن الخليفة وتصادف أن الأمر لم يترك ابناً ، وقيل بل ترك طفلاً رضيعاً اسمه الطيب ، وتعصبت له جماعة سميت الطيبية وتعصبت جماعة أخرى سريعاً للحافظ عبد المجيد ابن عم الأمر ، وأخذت له البيعة واستولى على مقاليد الخلافة . وظل من ذلك جَمْرٌ مختف وراء الرماد ، مما جعل ظافراً يدافع في بعض مديحه للحافظ عنه وعن حقه في الخلافة قاتلاً :

ورثَ ابنُ عمِّ محمدٍ من بعده حقَّ الخلافةِ مُنْصَفاً في نَقْلِها
وورثتَ أنتَ عن ابنِ عمِّك حقَّها فجرى قياسُ خلافةٍ في شكلها

الحافظ ورث الخلافة عن الأمر كما ورثها عن الرسول ﷺ ابن عمه علي بن أبي طالب رأس الأئمة . ولا يبلغ ظافر فيما كان يعتقده الإسماعيليون في أنتمهم من معانٍ قدسية ومن رفعهم عن حدود الطبيعة البشرية المادية ، فهو إنما يمدح الحافظ بميراثه للرسول مما يجعله يطيل في بيان معجزاته . ولعلنا لا نغلو إذا قلنا إن كل ما استبقاه من العقيدة الفاطمية في مديحه قوله .

يَاحُجَّةَ اللَّهِ التي أَبَدْتُ لَنَا بِكَمَالِهَا الْآيَاتِ وَالْبُرْهَانَا

وكأنما حدث انقلاب في مديح ظافر للحافظ بالقياس إلى مديحه للأمر ، وليس له في الحافظ إلا قصيدتان مع أنه عاش في مدة خلافته خمس سنوات ، إذ توفي سنة ٥٢٩ . وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يدل على أن ظافراً لم يكن إسماعيلياً بالمعنى الدقيق ، وإنما هي فترة محدودة نحو أربع سنوات اضطر فيها لمديح الأمر على طريقة القوم ، مما جعله يعود إلى ديوان ابن هانئ يستظهر ما فيه أو بعضاً مما فيه ، ولم يَعدْ استظهاره قشوراً ، ردّها حيناً في مديح الأمر ثم كفّ عنها في مديح الحافظ إلا ما سقط عفا .

وبدون ريب كان ظافر شاعراً بارعاً وفيه يقول العباد الأصهباني في ترجمته له بكتابه الخريدة :
« ظافر ، بحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر .. حَدَّادٌ لو أَنْصِفُ لَسَمِّيَ جَوْهَرِيًّا ، وكان باعتزائه إلى نظم اللَّائِي حَرْبِيًّا ، أَهْدَى بِرَوِيَّ شعره

الرَّوَى لِلْقُلُوبِ الصَّادِيَةِ^(١) رِيًّا ، فياله ناظما فصيحاً مفلحاً جَرِيًّا^(٢) . وحقا شعره غاية في السلاسة والعدوية ، وهي ظاهرة عامة تلاحظ دائما في شعر المصريين ، كما يلاحظ عندهم على الأقل حتى زمن ظافر أنهم لا يتصنعون للبديع ومحسناته المعقدة ، قد تأتي عندهم وقد يستخدمونها أحيانا ولكن في خفة ورشاقة . ودائما تلقانا عند ظافر العدوية والرقعة على نحو مانرى في مثل قوله متغزلا :

ياساكنى مصرٍ أما مِنْ رَحْمَةٍ فيكم لمن ذهب الغرامُ بِلَبِّهِ
أمن المروءِ أن يزورَ بلادكم مثلى ويرجعَ مُعْدَمًا من قلبهِ

وهما بيتان في منتهى السهولة ، وكان ينفذ كثيرا إلى صور طريفة مبتكرة ، وقد يبعد فيها حتى لتصبح كأنها رؤى حاملة على شاكلة قوله :

لئن أنكرتْ مقتلَها دَمَهُ فنهْ على وَجَّتَيْهَا سِيمَهُ
وها في أناملها بَعْضُهُ دَعْتُهُ خِضَابًا لكى تُوهِمَهُ

وواضح أنه كان عند ظافر حظ من الخيال المفرق في الوهم إغراقا يروع قارئه ، وسنشد له قطعة من غزله في الفصل التالى ، ونكتفى بصورة واحدة من صورته الحاملة العجيبة لندل على هذه المقدرة البارعة ، وهي صورة وصف فيها الهرمين وأبا الهول وصفا لم يقع لشاعر من قبله ولا من بعده ، يقول :

تأملُ بَنِيَّةَ الهرمين وانظُرْ وبينهما أبو الهولِ العجيبُ
كَعَمَارَتَيْنِ على رحيلِ لمحبوبين بينهما رقيبُ
وماءُ النَّيلِ تحتهما دموعُ وصوتُ الريحِ عندهما نجيبُ

وهي صورة مركزة لمشهد واسع كبير استحال إلى هذه الرؤيا الخاملة ، فالهرمان كأنهما عاريتان أو هودجان هرميا الشكل لمحبوبين بينهما أبو الهول وكأنه رقيب ، يشهدهما ساعة الوداع ، وهما يذرغان الدمع مدرارا ، ويهمن تحت أقدامهما نهرا فياضا كبيرا هو نهر النيل ، والريح من حولهما تتحب وتئن أنينا لا ينقطع . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن ظافرا كان أبرع شاعر عرفته مصر زمن الدولة الفاطمية .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لعل موضوعاً لم يشغل شعراء مصر طوال هذا العصر كما شغلهم الغزل ، الذى يصور عاطفة الحب الإنسانية الخالدة ، والذى طالما تغنى به الشعراء مصورين حبيهم للمرأة وهيامهم بها ، وما شعروا به من سعادة حين أقبلت عليهم ولو بعض الإقبال وما شعروا به من شقاء حين كانت تعرض عنهم ولو بعض الإعراض . أما حين كانت تقبل فكأنها تناولهم شراباً هنيئاً بل رحيقاً صافياً لا يدانيه رحيق ، وأما حين كانت تعرض فكأنها تلقى عليهم شواظاً من نار يلدع قلوبهم وأفئدتهم ، ويصور الشاعر كيف يتصل ذلك كله بقلبه وبنفسه وبأحاسيسه ومشاعره ، يصور ما يجد فى حبه من لذة أو ألم ومن نعيم أو حليم . ولا يكاد يوجد حب إلا وهو يخشى القطيعة والفراق إلى غير مآب ، فإن حدث الفراق فإنه يشكو ويضرع ويستعطف . لقد حُرِّم حتى من الإشارة واللحمة من بعيد ، ولكن الأمل فى اللقاء يظل يراوده مها تجرُّع من الآلام واحتمل من ألوان العذاب ، ويبعد ويبعد فى تصوير عذابه وآلامه لعل صاحبه تعطف عليه وتعيد ما كان بينها وبينه من وصال . وحقا قد تلقانا فى تضاعيف ذلك صور من الحب الجسدى الذى تمليه الغرائز ، وهو خليق بالازدراء ، إنما الذى يملؤنا إعجاباً هو الحب العذرى العفيف الطاهر الذى يشغف قلوب أصحابه ويملؤهم بوجد ليس بعده وجد ، وجد لا يتجلبون منه ولا يستخزون ، لأنه لا يتعلق بمأرب مادية ، فحسبهم الوصال واللقاء ، وهنىء لهم عذابهم بهذا الحب الذى ليس بعده عذاب ، إنه حب قوى حار ، حب نقي صاف ، حب يمتلئ إحساناً . وسواء استحال هذا الحب نارا من اليأس أو نورا من الأمل فإن تعقبه عند الشعراء المصريين وعرضه فيه كثير مما يلدئ النفس ويمتعها ، وخاصة ما نفلوا إليه من غزل وجداني صادق فى وصف حبيهم وما انطوت عليه قلوبهم من مشاعر الصباية ، مما سنراه واضحا عند ابن النيبه والبهاء زهير .

ويُخِيلُ إِلَى الْإِنْسَانِ كَأَنَّمَا أَوْقَدَ الْحُبُّ جَنُودَ مِنَ النَّارِ لَا تَنْطَفِئُ أَبَدًا فِي قُلُوبِ الشَّعْرَاءِ ، فَهَمُّ دَائِمًا يَصْلُوْنَهَا وَيَصْلُوْنَ مَعَهَا الْبَعْدَ وَالْفَرَاقَ ، وَحَقٌّ مَعَ الْقَرَبِ يَصْلُوْنَ عَذَابَ الْحُبِّ ، دُونَ إِشْفَاقٍ أَوْ عَطْفٍ أَوْ رَحْمَةٍ ، عَلَى نَحْوِ مَا يَقُولُ ابْنُ هَانِي^(١) .

فَتَكَاتُ طَرْفَةً أَمْ سَيْوُفُ أَيْلِكُ وَكَتُوسُ خَمِيرٍ أَمْ مَرَّاشُ فَيْكُ
أَجْلَادُ مُرْهَفَةٍ وَفَتَكُ مُحَاجِرٍ مَا أَنْتِ رَاحِنَةٌ وَلَا أَهْلُوكُ
يَا بِنْتَ ذِي السَّيْفِ الطَّوِيلِ نِجَادُهُ أَكْذَا يَجُوزُ الْحَكْمُ فِي نَادِيكَ
عَيْنَاكَ أَمْ مَغْنَاكَ مَوْعِدُنَا وَفِي وَادِي الْكَرَى أَلْقَاكَ أَمْ وَادِيكَ
قَدْ كَانَ يَدْعُونِي خِيَاثَةً طَارِقًا حَتَّى خَعَانِي بِالْقَنَا دَاعِيكَ
مَنْعُوكُ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى وَسَرَّوَا فُلُو عَثَرُوا بِطَيْفٍ طَارِقٍ ظَنُّوكُ

وهو لا يدري كيف يتقى فتكات طرف صاحبه التي تشبه أتم الشبه فتكات سيف أيها ، وإنها جميعا لتصيبه في الصميم دون أى رافة ، وإنه ليأثس بأسا شديدا من رافة أيها وأهلها ، فلا يأمل في رؤية لها أو لقاء ، ويتعلل بلقائهما ورؤيتهما في الكرى والأحلام ، ويألم ألما شديدا ، فقد منعوا طيفها من الإلام بعينيه في الحلم ، وإنه ليبست خائفا منهم حذرا ، أن تسفر له عن وجهها الباسم حتى في النوم ، فما أشقاه وما أشد عذابه ، إذ لا يجنى من حبه لها سوى الألم والحرمان واللوعة . ولم يكن تميم بن المعز الفاطمي أقل منه لوعة وأسى حين صور وداعه لصاحبه ، وهي لا تقل عنه أسمى والتبعا ، يقول^(٢) :

مَازَالَ فِي الْحُبِّ شَوْقٌ مَوْجِعٌ وَأَسَى مَبْرَحٌ يَقْطَعُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا
حَقٌّ رَمَى الْبَيْنَ بِالتَّفْرِيقِ أَلْفَتْنَا وَحَلَّ مِنْ وَضَلْهَا مَا كَانَ قَدْ عَقِدَا
فَأَوْ مِنْ لَوْعَةٍ مَشْبُوبَةٍ وَجَوَى فِي الصَّدْرِ لَمْ يُتَّقِ لِي صَبْرًا وَلَا جَلْدَا
قَالَتْ وَعَبَّرْتُهَا مَخْلُوطَةً بِدَمٍ تَجْرَى وَأَنْفَاسُهَا مَرْفُوعَةٌ صُعْدَا
لَا تَطْلُبِ النُّطْقَ مَعِيَ بِالسَّلَامِ لَهَا أَبْقَى فِرَاقُكَ لِي رَوْحًا وَلَا جَسَدَا

وهو يصور أساء في حبه وكيف يفتت منه الأحشاء والكبد ، وإذا البين ينبع بالفراق ، فيلتاع لوعة تستمر بين جوانحه ، ويتألك ويفقد الصبر والجلد ، بينما هي تذرف الدمع مدرارا مرسله

(١) ديوان ابن هاني (طبعة زاهد علي) ص ٥٣١ . (٢) ديوان تميم ص ١٣١ .

أنفاسا حارة ملتية ، وتلطّف له قائلة لا تطلب منى التلق بالسلام ، فلم أعد أستطيع الكلام ،
وتشعر كأن الفراق يكلفها من الجهد فوق ما يطيق جسدها وروحها ، بل لكأنما لم يعد لها جسد
ولا روح . ويعود إلى تصوير لوعة هذا الفراق لمحجوباته في الديوان مرارا بمثل قوله (١) :

قالتُ وقد نالها للبين أوجعُ والبينُ صعبٌ على الأحباب موقِعُ
اجعلْ يديك على قلبي فقد ضَعُفَتْ قُوَاهُ عن حَمَلِ ما فيه وأضْلَعُهُ
كأنّني يومٌ ولّتْ - حَسْرَةً وأسى - غريقٌ بَحْرٍ يرى الشاطئ ويُسَمِّعُهُ
فقد ارتفع نبضها وعلت ضرباته ، وتحس كأنما لم يعد في قلبها فضلٌ من قوة تستطيع به أن
تحمّل صدمة الفراق المروعة ، وتحمّ يبادلها نفس الشاعر ونفس الآلام والأوجاع ، وإنه لينوب
حسرة وأسى لفراقها ، ولا يستطيع أن ينقذها وينقذ نفسه من هذه المحنة ، وكأنه غريق تلعب به
الأمواج وهو يرى الشاطئ ولا يستطيع وصولا إليه . وحمل الرغْم من أنه كان أميرا وكان ابن الخليفة
المعز تلقانا عنده مشاعر الحب الحقيقية التي ترتفع عن أدراَن الحس ، ومن طريف قوله في بعض
غزله (٢) :

قلتُ اسْمَحْ لي بتقيلِ أعيش به قالت : وأيُّ محبٌ قبل القمرَا
ومرّ بنا في ترجمة ظافر الحداد أن له غزلا رقيقا يطير عن الفم بخفة وأنشدنا له قطعتين ، واشتهر
بقصيدة له ذالية أو اختار أن تكون ذالية ليدل على قدرته في النظم على هذه القافية التي يظن أنها
تستعصب على الشعراء ، وهي قصيدة غزلية ، تجرى على هذا القبط (٣) :

لو كان بالصبر الجميل مَلَاذُهُ ماسَحٌ وابلٌ دمعهُ ورَدَاذُهُ
من كان يرغبُ في السلامة فليكن أبداً من الخلقِ المراض عيَاذُهُ
لا تخدعَنَّك بالفتور فلأنه نَظَرُ يضرُّ بِقَلْبِكَ استِلْذَاذُهُ
يا أيها الرّشأ الذي مِنْ طَرْفِهِ سهمٌ إلى حَبِّ القلوب نفاذُهُ
دُرٌّ يلوح بِفَيْكِ مَنْ نَظَامُهُ خمرٌ يجولُ عليه مَنْ تَبَاذُهُ (٤)
وقناة ذاك القَدِّ كيف تقوّمَتْ وسينانُ ذاك اللّحْظِ ما فولَاذُهُ
رَفَقًا بجسمك لا يذوبُ وإنني أخشى بأن يَجْفُو عليه لآذُهُ (٥)

(١) الديوان ص ٢٦٠ .

(٢) الديوان ص ١٥٢ .

(٣) ابن خلكان ٥٤٠/٢ والنجم الزاهرة ٣٧٦/٥ .

والقصيدة على هذه الشاكلة تسيل رقة وعذوبة ، حتى مع قوافيها الذالية ، وتملأ صوره النفس بهجة ، فهذا الرشأ أو الظبي الجميل الغرير يرسل سهامه وهى سهام حقيقة تنفذ إلى حبِّ القلوب وسويدائها ، ويخال دُرّاً ملء فيها ويتساءل من نظمه في هيئته البديعة ، أما ما حوله من رُضاب أوريق فخمر حقيقية ويتساءل من النباذ الذى صنع هذه الخمر العجيبة . ويشد به العجب وهو ينظر إلى قامته صاحبه واستوائها الرائع ، ويتساءل أى فولاذ صلب اتُّخذ منه سنان لحظها المرفف القاطع النافذ إلى الأفتدة . وإن جسد صاحبه ليذوب رقة ما بعدها رقة ونعومة ما تماثلها نعومة ، حتى ليظن كأن اللاذ أو الحرير الذى تلبسه ينبو عليه لشدة لطفه ورهاقه . وله يتغزل موجهاً الخطاب إلى معاتبه في حبه وتهالكه فيه ^(١) :

عَتَتْ وَلَكِنِّي لَمْ أَعِ وَأَيْنَ مَلَأُكَ مِنْ مَسْمَعِي
وَمَا قَدَرْتُ عَتِيكَ حَتَّى يَزِيلَ غَرَامَا تَمَكُّنٌ مِنْ أَضْلَعِي
وَمَا دَامَ لَوْمُكَ إِلَّا وَاتَّ بَتَ تَقْدِيرُ أَنْ جَنَانِي مَعِي
مَضَى كَيْ يَوَدُّعُ سُكَّانُهُ غَدَاةَ الْفِرَاقِ فَلَمْ يَرْجِعْ
قَوَادِي فِي غَيْرِ مَا أَنْتَ فِيهِ فَخُذْ فِي مَلَامَتِهِ أَوْدَعْ

والقطعة تنوح برقة الحسّ ولطفه إلى أبعد حدود الرقة واللطف اللذين يشتر بهما أهل القاهرة من قديم ، وليس فيها لفظة غريبة بل كأنه تعمد أن يختار ألفاظها أقرب ما تكون إلى لغة الحياة القاهرة اليومية . ولا نبعد إذا قلنا إنها تعد هى ونظيراتها عند ظافر مقدمة للغزل الوجداني الصافي الذى سنعرضه عند ابن التّيبه ومعاصريه . وهو يقول لصاحبه في القطعة بمنتهى الرقة والتلطف كفى عتاباً فقد سلبت محبوبتى عقلى وسمعى ، وملك حبها جنانى ، بل لقد مضى وراءها منذ الفراق ولم يعد . فأنا لا أعقل ولا أسمع شيئاً مما تقول ، ويتلطف إليه غاية اللطف حين يترك له الخيرة فى أن يستمر فى لومه أويكف عنه ، وعادة المحبين أن يعنفوا بلائيمهم فى الحب ، وظافر لا يعنف بل يتلطف فى ود ارقيق .

وربما كان من تنمة الرقة فى غزل الشعراء المعاصرين لظافر أن نجد ابن قادوس الدمياطى يتغزل بجارية سوداء ، محاولاً بكل ما استطاع أن يرد عنها ما يُظنُّ من قبح السواد ، يقول ^(٢) :

وعاذلو مُخْتَفِلٍ مجتهدٍ في عَزَلٍ
يلومني في ظَنِيَّةٍ مخلوقةٍ من كُحْلٍ
إن السَّوَادَ عِلَّةٌ من نورٍ هذى المُقْلُ
والْحَجَرُ الْأَسْوَدُ لم يُخْلَقْ لغير القُبْلِ
والقَارُ - مذ كان - وعاءُ السَّلْسَبِيلِ السَّلْسَلِ

فقد دافع عن تلك الجارية دفاعا بديعا . إذ جعلها مخلوقة من الكحل الذي تزدان به الحسان في عيونها ، بل جعلها مخلوقة من سواد العيون الذي تبصر به من حولها النور المبتثق في الكون ، وإنه ليذكر الحجر الأسود وإكباب الحجاج على تقبيله ، كما يذكر القار أو القطران واتخاذها في دعم الجدر لآنية الماء العذب . وهو ظرف بالغ من ابن قادوس ، ظرف نعرفه دائما للشعراء المصريين . وكانوا يستنون هذا الظرف بكثير من الصور الخيالية المبتكرة ، وقد يبالغون في وصف هيامهم بمبالغة بعيدة على نحو ما نقرأ للمهذب بن الزبير^(١) :

إذا أحرقت في القلب موضعَ سُكْنَاهَا فن ذا الذي من بعدُ يُكرم مَثْوَاهَا
وما الدَّمْعُ يومَ البَيْنِ إِلَّا لآلِيٍّ على الرَّسْمِ في رسمِ الديارِ نثرانها^(٢)
وما أَطْلَعَ الزَّهْرَ الرَّبِيعُ وَإِنَّمَا رأى الدَّمْعُ أَجْيَادَ الْغُصُونِ فَحَلَّاهَا
ولما وقفنا للوداع وترجمتْ لعينيَّ عما في الضمائرِ عَيْنَاهَا
بدتْ صورةً في هيكلي فلو أَنَا ندينُ بأديانِ النَّصَارَى عِبْدَانَهَا

وهو يشكو من النار التي دلعتها صاحبتة في قواده ، ويقول لها إنه مسكنك فإذا لم تبق عليه فأين يكون مثواك ، استعطاف واسترحام ، فقلبه ملئ بها فتونا بل نارا موقدة ، وقد أزمعت البين والفراق وهو ينثر دموعه نثرا . ويمتد به الخيال فيظن أن الندى العالق بغصون الأشجار دموعه ، يعلن سحرها له وشغفه بها ، وكيف يعث جالها بقواده ، حتى لتبدو له وكأنها صورة في هيكل تقدم لها القرايين والتراتيل ، ويوشك أن يعبدها كما يعبد النصارى المسيح . ونحس عند المهذب نقلة لشعر الغزل المصري ، إذ يستحيل وجداً وصباة ورقة وخفة من مثل قوله^(٣) :

(١) (٣) الحريدة ٢١٦/١ .

(١) معجم الأدياء ٦١/٩ .

(٢) على الرسم : على العادة .

هُمْ نُصِبَ عِني أَنْجَلُوا أَوْ غَارُوا
فَارَقْتَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ فِي نَاطِرِي
تَرَكَوا الْمَنَازِلَ وَالْأَدْيَارَ فَلَهُمْ
وَاسْتَوْتَنُوا الْيَدَ الْقِفَارَ فَأَصْبَحَتْ
فَلَنْ غَدَتْ مَصْرٌ فَلَاةٌ بَعْدَهُمْ
أَوْ جَاوَرُوا نَجْدًا فَلِي مِنْ بَعْدِهِمْ
وَالدَّهْرُ لَيْلٌ مَدَّ تَنَاءَتْ دَارُهُمْ
وَمَتَّى قَوَادِي أَنْصَفُوا أَوْ جَارُوا^(١)
مَّا تَمَثَّلَهُمْ لِي الْأَفْكَارُ
إِلَّا الْقُلُوبَ مَنَازِلُ وَدِيَارُ
مِنْهُمْ دِيَارُ الْإِنْسِي وَهِيَ قِفَارُ
فَلَهُمْ بِأَجَازِ الْقَلَا أَمْصَارُ^(٢)
جَارَانِ : فَيُضِ الدَّمْعُ وَالتَّذْكَارُ
عَنِّي وَهَلْ بَعْدَ النَّهَارِ نَهَارُ

إنه لن ينسأهم أبدا مها أنجدوا أو غاروا ومها شرقوا أو غربوا ، ومها أنصفوه أو ظلموه ، لقد فارقه وصورهم ماثلة في خياله لا تبرحه ، وحقا تركوا المنازل والديار ، ولكنهم تركوا وراءهم مترا عظيما ، لا تزيله صورهم ، إنه قلبه الملتاع المطوى على حبهم . وينظر إلى الديار والمنازل حوله بمصر فيظنها فلوات ومفاظات ، فقد غادروها قفرا يبايا خرابا إلى ديار كانت خالية موحشة فأصبحت بهم أمصارا ، وليس من جار له في قفره الحرب إلا جاران : تذكأرهم ودموعه المنهلة التي لا ترقأ أبدا ، وقد أظلمت الدنيا في عينيه . حتى غدا النهار مظلما داجيا ، فقد أخذوا معهم كل شيء حتى النهار وضيأه . وله أبيات غزلية خفيفة من مثل قوله^(٣) :

لَمْ يَهْنُ قَطُّ عَلَيْنَا بَعْدُكُمْ مِثْلًا هَانَ عَلَيْكُمْ بُعْدُنَا
لَمْ تَبَالُوا إِذْ رَحَلْتُمْ غُدُوَّةَ أَيْ شَيْءَ صَنَعَ الدَّهْرُ بِنَا
وقوله^(٤) :

أَحْبَابُنَا مَابَالَكُمْ فِينَا مِنَ الْأَعْدَاءِ أَعْدَى
وَحَيَاةٍ وَدُّكُمْ وَتُرْ بَةِ وَصَلَكُمْ مَاخَنَتْ عَهْدَا
والرقة واضحة في الأبيات ، وواضح في البيت الأخير الظرف المصري ، فالوصل مات وقبر والمهذب يحلف - كما يحلف المصريون حتى اليوم بأعزائهم وتُرْبهم أو قبورهم - بتربة الوصل العزيز وما سكب عليه من الدموع الحارة .

(٣) الخريدة ١/٢١٩ .

(٤) الخريدة ١/٢١٤ .

(١) أنجدوا : دخلوا نجدا . غاروا : دخلوا الغور أي
تامة .

(٢) أجواز : جمع جوز : وسط .

ويلقانا في أوائل أيام صلاح الدين الأيوبي على بن الدباغ الإسكندري ، ومن بديع ماله في الغزل أبياته المشهورة^(١) :

يَا رَبُّ إِنْ قَدَّرْتَهُ لِمُقَبَّلٍ غَيْرِي فَلِلْمَسَاكِ أَوَّلَ الْأَكْوَاسِ
وَلَنْ قَضَيْتَ لَنَا بِصَحْبَةِ ثَالِثٍ يَا رَبُّ فَلَيْكَ شَمْعَةٌ فِي الْمَجْلِسِ
وَإِذَا قَضَيْتَ لَنَا بَعِينَ مَرَاقِبٍ فِي السَّرِّ فَلَتَكُ مِنْ عَيُونِ التَّرْجِسِ

وابن الدباغ يصور في أبياته أنانية الحب وكأنه يحب نفسه كما يحب محبوبته ، بل هو يرى فيها ظلال نفسه ، ولذلك يتمنى لها ما يتمنى لنفسه من أن لا يقبل شفتيها سوى المسواك للوضوء والأكؤوس أو الأكواب للشراب ، وأن لا يصحبها ثالث إلا أن يكون شمعة تضيء المجلس ، وإذا كان لابد من عين لرقيب فلتكن من عيون الترجس .

وكان القاضي الفاضل وزير صلاح الدين يمنح إلى استخدام المحسنات البديعية وإلى صور مختلفة من التكلف ، وكان قد نشأ بمصر وتنفس في حياتها الأدبية ولعله لذلك يؤثر من حين إلى حين السهولة في غزله وأن يمتنع من المعين المصري العذب كقوله^(٢) :

يَا طَرْفُ مَالِكٍ سَاهِدًا فِي رَاقِدٍ يَاقَلْبُ مَالِكٍ رَاغِبًا فِي زَاهِدٍ
مَنْ يَشْتَرِي عَمْرِي الرَخِيسَ جَمِيعَهُ مِنْ وَضْلِكَ الْغَالِي يَوْمٍ وَاحِدٍ
عَاتِبْتُهُ فَتَوَرَّدَتْ وَجَنَاتُهُ وَالْقَلْبُ صَخْرٌ لَا يَلِينُ لِقَاصِدٍ

والقطعة مكتظة بالطباق ولكن لا تكاد نحسه ، لأن الألفاظ متداخلة متواصلة ، وهو يصور فيها انصراف المحبوبة عنه ، بينما هو واليه بها واحد ، وعاتبها فتضرجت وجناتها بالخنجل ، غير أنها ظلت منصرفة عنه لا تلين له ولا تعطف عليه ، ومن غزله البديع قوله^(٣) :

تُرَى لَحْنِي أَوْ حَنِينِ الْحَائِمِ جَرَتْ - فَحَكَتْ دَمْعِي - دُمُوعُ الْغَائِمِ
وَهَلْ مِنْ ضُلُوعٍ أَوْ رُبُوعٍ تَرَحَّلُوا فَكُلُّ أَرَاها دَارَسَاتِ الْمَعَالِمِ
لَقَدْ ضَعَفَتْ رِيحُ الصَّبَا فَوَصَلَتْهَا فَمَنَى لَامِنَهَا هُبُوبُ السَّائِمِ

وهو ترداد طريف ، فهو لا يدري أبحاكي السحاب في قطره المنهل حنينه الملتاع أو هو يبلى

(٢) الخزانة ص ٢٤٧ .

(٣) الخزانة ص ٢٤٦ .

(١) الخريدة ١٣٣/٢ وخزانة الأدب للحموي (طبع

مطبعة بولاق) ص ٢٤٦ .

الحمام وما ترسل من حنين شجي ، وهو لا يدري أيضا أى منازل رحل عنها أحبابه أهى الربوع أو الضلوع . فكلاهما أطلال دارسة ، ويبلغ به الخيال أن يظن أنفاسه الحارة امتزجت بنسيم الصبا ، فأحاطته سمائم لافحة .

ولتلق بخِذْنِ القاضى الفاضل ورفيقه : ابن شناء الملك أكبر شعراء مصر فى العصر ، وشعره بموج يوجد لا حدود له ولا ضفاف ، وجد يشق به تارة وينعم به تارة ، إذ يذوق لذة الحب المؤلمة والحلوة ، حتى إذا اختلس قبة أو ضمة كاد يطير من الفرح طيارا ، مها تأبَّت عليه محبوبته ومها صدت عنه ونفرت منه ، بل إنه ليلقى ذلك كله بحنان لا يماثله حنان ، يقول (١) :

لا أجازى حبيبَ قلبى بجُرْمَةٍ أنا أحنى عليه من قلب أمّة
ضنّ عنى بريقه فتحيّد ت إلى أن سرّفته عند لثيّه
وإلى اليوم من ثلاثين يوما لم تزل من فمى حلاوة طعمه
إن قلبى لصدّره ورقادى ملك أجفانه وروحى لجسمه
يكسر الجفنَ بالفتور ومالى عمل عند كسرو غير ضمه

والآيات تموج بالعدوية والظرف ، فكله حنان لصاحبه ، حتى ليفوق حنوّه عليها حنوّ الأم . ومازال بها حتى اقتطف منها خلسة قبة ، ومرت الأيام ولا تزال حلاوتها فى فمه ، ويشعر كأن كل شىء فيه لها : قلبه وروحه ، وملك أجفانها رقاد وسهده . وتصنّع فى البيت الأخير لاستخدام مصطلحى الكسر والضم عند النحاة ، ومع ذلك أوقعها فى موضعها ، فلا نحس فيها تصنعا ولا ما يشبه التصنع ، ومن قوله (٢) :

نعم المشوق وأنعم المشوق فالعيش كالخضر الرقيق رقيق
خضر أدير عليه معصم قبة فكان تقبلى له تغنيق
ونعم لقد طرق الحبيب وماله إلا حدود العاشقين طريق
فرشوا الحدود طريقه فكأنما زفرائهم لقدمه تطريق (٣)
واقى وصبح جبينه متنفس وأنى وجيد رقيب مخنوق

(٣) التطريق : تسهيل الطريق للمارة .

(١) الديوان ص ٦٦٤ .

(٢) الديوان ص ٥٠٢ .

وهي لحظة من لحظات الحب الحلوة صورها ابن سناء الملك تصويرا بديعا ، فقد سعد العاشق الوطان بما أنعم عليه العشوق من لقاء ، وأحس بابتهاج ما بعده ابتهاج ، فقد زارته المحبوبة الفاتنة التي شغفت قلوب كثيرين ، وإنهم ليفرشون طريقها بخمودهم لتطأ عليها ، مرسلين زفرائهم ، وكأنما يمهّدون بها الطريق لها ، وقد وافت بجيئها المشرق لإشراق الصباح ، وغصّ الرقيب بريقه حتى كأنه مخنوق . ومن طرائف غزله قوله ^(١) :

سَعِدْتُ بِبَدْرِ خَدِّهِ بُرْجُ عَقْرَبٍ فَكَذَّبَ عِنْدِي قَوْلَ كُلِّ مَنْجَمٍ
وَأَقْسَمُ مَا وَجَّهُ الصَّبَاحَ إِذَا بَدَا بِأَوْضَحَ مِنِّي حُجَّةً عِنْدَ لَوْمِي
وَلَا سَمًا لَمَّا مَرَرْتُ بِمَنْزِلِي كَفَضْلَةِ صَبْرٍ فِي قَوَادِ مَتِّمٍ
وَمَا بَانَ لِي إِلَّا بَعُودُ أَرَاكِ تَعَلَّقَ فِي أَطْرَافِهِ ضَوْؤُ مَسِّمٍ ^(٢)
وَقَفْتُ بِهِ أَعْتَاضُ عَنْ لَثَمِ مَبْسَمٍ شَهِيَّ لِقَابِي لَثَمَ آثَارِ مَسِّمٍ ^(٣)
بَكَيْتُ بِكَلَّتِي مُقَلَّتِي كَأَنِّي مَتَمُّ مَا قَدَ فَاثَ عَيْنِي مُتَمِّمٍ

وهو يقول إنه سعد برؤية هذا البدر وما سال على خده من عقرب الشعر ، مما جعله يكذب قول المنجمين أن برج العقرب في السماء إذ رآه على خد صاحبه الفاتنة . وإن فتنها وما تدلّع في قلبه لأنصع برهان له عند لاثميه ، أنصع من الصباح في وضوحه وضياؤه . وقد مرّ بمنزلها الذي لا يكاد يبين ، كما لا يكاد يبين الصبر في قواد العاشق الوطان ، وبان له بفضل عود أراك كانت تستاك به صاحبه قبل الوضوء ، إذ تعلّق بأطرافه ضوء من مبسمها ، واهتدى إليها وإلى منزلها على لأنائه فوقف مبهوتا مشدوها ولا أمل له في قبلة يقتطفها أو ما يشبه القبلة ، وأقبل يلثم آثار منسمها . أو طريقها باكيا بدموع غزار ، باكيا بمقلتيه وكأنه يتمم بكاء متمم بن نويرة على أخيه مالك وقد اشتهر بكثرة بكائه عليه ، وكان أعور فما زال يبكيه حتى دمعت عينه العوراء . وعلى هذا النحو لا يزال ابن سناء الملك يتقلب بين لحظات حب مؤلمة مبكية وأخرى مفرحة مبهجة . وكان يذوب لطفًا ورقة مما جعله يتغزل - كما أشرنا في ترجمته ، ببعض من فقدن بصرهن ، وهو يحتال في غزله بهن على إيراد ألوان من حسن التعليل ترفع عنهن هذا الضيم الذي نزل بهن ، من مثل قوله ^(٤) :

فَتَسْتَحْنِي مَكْفُوفَةً نَاطِرَاهَا كَتَبَا لِي مِنَ الْجِرَاحِ أَمَانَا

(١) الديوان ص ٦٩٨ .

(٢) المنسم : طرف خف البعير ويريد راحلة الجبّة .

(٣) مبسم : نقر

(٤) الديوان ص ٨٤٦ .

فَهِيَ لَمْ تَسْلُ الْفُتُورَ حُسَامًا لَا وَلَمْ تَحْمِلِ اللَّحَاطَ سِنَانًا^(١)
وَهِيَ بِكَرِّ الْعَيْنَيْنِ مُحْصَنَةً الْأَجْدُ فَنَ مَا افْتَضَّ مِيلُهَا^(٢) الْأَجْفَانَا
قَصَرَتْ عَشَقَهَا عَلَى فَلَمْ تَعِدْ شَقُّ فَلَانًا إِذْ لَمْ تُعَايِنِ فَلَانَا
لَا وَلَمْ تَبْصُرِ الرِّجَالَ فَتَخْتَا رَ عَلَى مُلْتَحِيهِمُ الْمُرْدَانَا
عَمِيَتْ مِنْ هَوَايَ وَارْتَحَلَ الْإِنْزَا سَانُ مِنْ عَيْنِهَا وَأَخْطَى الْمَكَانَا
عَلِمْتُ غَيْرِي عَلَيْهَا فَخَافْتُ أَنْ تَسْمَى غَيْرِي لَهَا إِنْسَانَا

وهو يعلن إليها فتنته بحسنها ، وهي فتنة ممزوجة بغير قليل من الرضا والغبطة ، إذ أمن عندها أن تصمى سهام عينيها قلبه ، أو يصحبه حسام الفتور وسنان اللحاظ ، ويصفها ببيكاراة العينين وطهارة الأجفان ، إنها عذراء البصر ، لم يمس ميل الكحل عينيها ، وإنما لتفرد بالحب إذ لم تر ولم تبصر سواه ، فهو دنياها غير مفكرة في شيب وشبان ، إذ لا تعرف الفرق بين أصحاب اللحي والمردان . وتبلغ به الرحمة والإشفاق والعطف عليها أن يقول إنها فقدت بصرها بسبب حبه ، وبذلك خلا مكان إنسان العين منها ، وكأنما عرفت غيرته عليها حتى من إنسان عينيها ، فتحتت عنها ، حتى لا يكون لها إنسان سواه . وكل ذلك لطف من ابن سناء الملك ورقة ورحمة وعطف وحنان ما بعده حنان . وهو يحق يعد في الذروة من شعراء العرب النابهين الذين يمتازون بدقة الحس ورهافة الشعور وروعة المعاني والتساوير .

ويتفجر هذا الغزل الوجداني البديع على كل لسان بعد ابن سناء الملك ، وكان من أهم الأسباب في ازدهاره الشعر الصوفي الذي ذاع وشاع منذ زمن الدولة الأيوبية ، فإن الصوفية من أمثال ابن الكيزاني وابن الفارض أذاعوا فيه وجدا ملتاغا وكان لذلك أصداءه الواسعة في غزل الشعراء ، فأنفكوا من أصداف البديع ومن الأخيلة الجامدة المتحجرة ، وأخذوا يصورون حبهم وما يذوقون فيه من الوجد والصبابة وما يثير في قلوبهم من المشاعر والعواطف وما يصطلون فيه من العذاب والآلام : آلام الفراق وعذاب الإعراض ، من ذلك قول الحسن بن شاور في بعض غزله^(٣) :

قَلَدْتُ يَوْمَ الْبَيْنِ جَيْدَ مَوْدَعِي دُرَّرًا نَظَمْتُ عَقُودَهَا مِنْ أَدْمَعِي

(١) - اللحاظ : مؤخر العين ممايل الصدغ .

العين .

(٢) - الميل : المكحل أو المروء وهو ما يوضع به الكحل في

(٣) - فوات الوفيات ١/٢٣٦ .

وحدا بهم حادى المطى فلم أجد
 يانفسُ قد فارقتِ يوم فراقهم
 هيهات يرجعُ شملُنا بالأجرع
 بحياتنكم جودوا على تكررما
 فلقد عدمتُ الصبرَ يوم فراقكم
 يانازحين فهل لكم من عودةٍ
 لو لم تعودوا للديار وترجعوا
 قلبى ولا جلدَى ولا صبرى معى
 طيبَ الحياةِ ففى البقا لا تطمعى
 ويعود أحبابى الألى كانوا معى^(١)
 فعسى خيالكم يلمُ بِمَضْجَعِى
 وتضرمتُ نارُ الأسى فى أضلعى
 نزعَ التفرق ما بقى من مدمعى
 هلكت من شوقى وقرط توجعى

وابن شاور فى أول الأبيات يبكى يوم الين والفراق شاعرا بأنه يعجز عن احتمال هذه المحنة التى خانته فيها صبره وتجلبده ، بل التى توشك أن تقضى عليه ، لقد تفرق شملهم ، ولم يعد هناك أمل فى لقاء بالأجرع : لقاء أحبابه ومهوى قواده . ويستحلفهم وقد حرموه طلعة وجوههم فى البقظة أن لا يحرموه طيفهم فى المنام ، لعله يخفف من نار الحب المضطربة فى صدره . ويتمنى عودة لهم أورجة ترد إليه روحه وترد عنه أوجاعه من الحب الملتب وأوصابه .

ونلتقى بتقى الدين^(٢) السروجى المولود سنة ٦٢٧ والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٩٣ ويقول عنه أبو حيان : كان مع زهده وعفته مغرما بحب الجمال وكان يغنى بشعره الغرامى المغنون لركة انسجامه وعذوبة ألفاظه ، ومن غزله :

أتعم بوصلك لى فهذا وقته
 يا من شغلْتُ بحبه عن غيره
 بالله إن سألوك عنى قل لهم
 أوقيل مشتاقُ إليك فقل لهم
 يا حسن طيفٍ من خيالك زارنى
 قضى وفى قلبى عليه حسرة
 يكفى من الهجران ما قد دُقْتُه
 وسلوتُ كلَّ الناس حين عشقته
 عبْدَى ومِلْكُ يَدَى وما أعتقته
 أدرى بذنا وأنا الذى شوقته
 من عظم وجدى فيه ما حَقَّقْتُهُ
 لو كان يمكنى الرقاد لحقته

وهو يتضرع لمحبه أن ينعم عليه بالوصل بعد طول الهجران والعذاب فى حبه وانشغاله الدائب بعشقه ، ويقول متذللًا له إنه عبده وملك يده ولن تُرد إليه حريته ، ويشكو لواجع الشوق ،

٤٦٦/١ وخزانة الأدب للمحوى (طبع بولاق) ص

(١) الأجرع : الأرض ذات الحزونة للمشكلة للرمل .

(٢) انظر فى ترجمة السروجى وشعره فوات الوفيات

ويأسى لنفسه إذ رأى طيفه في المنام ولم يكذب يحققه أو يتحقق منه حتى قرَّ النوم من عينه ، وهو لا يتمنى لقاء كعادة المحبين ، ليأسه منه ، وإنما يتمنى لو عادت له رؤيته في منامه ، أو لو طال حلمه وطال رقاؤه قليلا حتى يشفى منه غلَّة حبه . ويعلق ابن حجة الحموى في خزانته على هذه الأبيات بقوله : « ما نفتات السحر إذا صدقت عزائمها بأوصل إلى القلوب من هذه النفثات ولا لسلاف ثغر النبايب مع حلاوة التقبيل عذوبة هذه الرشقات » . ومن غزله :

قصدَ الحِمَى وأتاه يَجْهَدُ في السَّرى حتى بدتْ أعلامُه وقبَابُه
ورأى لليلَى العامريَّةَ منزلا بالجود يُعرَفُ والنَّدَى أصحابُه
قد أشرعتْ بيضُ الصَّوَارِمِ والقَنَا من حوله فهو المنيعُ حجابُه
وعلى حِمَاهِ جلالَةٌ من أهله فلذلك طارقةُ العيون تهابُه
كم قُلبتْ فيه القلوبُ على الثَّرى شوقا إليه وقُبِّلَتْ أعتابُه

وهو يرمز لصاحبه بليلى العامرية وكأنه مجنونها وعاشقها قيس الذى ملأ اليد بأغاني حبه ، ويقول إنه ما زال يدأب في السرى أو السير الليلالى المتصلة حتى بدت أعلام حيَّها وقبابه أو خيامه ، وباللهول لقد وجد من دون رؤيتها السيوف والرماح مشرعة وشعر بجلال وهيبة لا يماثلها هيبة وجلال ، وهناك رأى كثرة من العشاق يضمون الثرى إلى صدورهم مقبلين الاعتبار آمِلين أملا يائسا فى أن يرفع الحجاب . وكان يعاصر السروجى فخر الدين بن لقمان كاتب بيبرس وقلاوون ، وله غزليات رقيقة مثل قوله (١) :

كُنْ كيف شئتَ فإننى بك مغرَمٌ راضٍ بما فعل الهوى المتحكِّمُ
ولئن كُمتُ عن الوشاة ضابِئى بك فالجوانحُ بالهوى تتكلَّمُ
أشتاقُ من أهوى وأعلم أنى أشتاق مَنْ هو فى الفؤاد مخيمُ
يامنْ يصدُّ عن الحب تدلُّلاً وإذا بكى وجداً غداً يتبسَّمُ
أسكتك القلبَ الذى أحرقته فحذارٍ من نارٍ به تتصرَّمُ

وهو راض من صاحبه بكل ما تصنع من إقبال وإعراض ، وإنه ليخفى حبه عن الوشاة بل

(١) النبل الصافي لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب

يكنمه بينا جوائحه تنطق به وتعلنه ، ويعجب أن يشناق صاحبه ويود لقاءها ، بينا هي مخيمة في قواده لا تبرحه . وإنما لتمعن في التدلل ، وحتى إن بكى وجدا سرعان ما تبسّم . ويحذرهما من هذا الدلال وما يطوى فيه من اللعب . فقد أسكنها قلبه الذي أحرقتة ، ولا تزال نار الحب فيه مضطربة مدلعة . ولابن نباتة غزل وجداني كثير من مثل قوله ^(١) :

أهلاً بطيفي على الجرّاء مُحْتَلَسٍ والفجرُ في سَحَرِ كالثغر في لَعَسِ ^(٢)
والنجمُ في الأفقِ الغري مُنْحَدِرٌ كشُعْلَةٍ سقطتْ من كَفِّ مُقْتَبِسِ
ياحِبِّدا زمنُ الجرّاء من زمنٍ كلُّ الليالي فيه ليلة العُرسِ
وحبِّدا العيشُ معَ هيفاء لوبرزتْ للبدر لم يَزُهْ أو للفضن لم يَمِسِ
محروسة بشعاع البيض ملتصعاً ونورُ ذاك المحيّا آية الحُرسِ
يَسْتَعِي وَرَا لَحَظْهَا قلبي ومن عجبٍ سَعَى الطريدة في آثار مفترسِ
ليت العنولَ على مرأى محاسنها لو كان ثَنَى عَمَى عَيْنِهِ بِالْحُرسِ

وهو يصور فرحته بالطيف الذي رآه في حلمه اختلاصاً لأواخر الليل والفجر يتلجج في الآفاق المظلمة تبلغ الثغر في لعس الشفاه ، والنجم يسقط في الأفق الغري منحدرًا سقوط شعلة من كف مقتبس . وتعاوده ذكرى ليالي الجرّاء المفرحة فرح ليالي العرس ، وهو يعيش رانيا إلى حبيته التي لورآها البدر لغض من زهوه ولو رآها الفضن لغض من ميسانه وخيالاته . ويقول إنها ممّعة محروسة بسيوف باترة ، وآية حراستها هذا النور الذي يُشِعُّ وجهها في الآفاق ، ويعجب أن يسعى قلبه وراء لحظها سعى طريدة الصيد وراء مفترسها ، ويقول إن ضياءها أحال عيني العنول عشوائين ، فهو لا يصبرها ، ويتمنى لو ثنى ذلك بخرسه وانعقاد لسانه ، فلا يتحدث عنها أي حديث من قريب أو من بعيد .

ومن كانوا يكثرّون من الغزل التّواجي ^(٣) شمس الدين محمد بن حسن صاحب كتاب حلبة الكيت في الحمر والتلماء وآدابهم ، وبعد أكبر شعراء القرن التاسع الهجري ، توفي سنة ٨٥٩

٢٢٩/٧ والنجم الزاهرة ١٧/١٦ والبدر الطالع للشوكاني
١٥٦/١ وصفحات لم تنشر من بدائع الزهور (طبع دار المعارف) ص ٢٧ . وبدار الكتب المصرية مخطوطة من ديوانه . ومن كتبه عقود اللآل في الموشحات والأزجال .

(١) النجم الزاهرة ٩٦/١١ .
(٢) الجرّاء : الأجرع أو الحزن . اللعس : سواد الشفة .
(٣) انظر في التواجي وشعره الضوء اللامع للسخاوي

للهجرة ، ومن غزله قوله :

خَلِيلِيْ هَذَا رَنْعُ عَزَّةٍ فَاسْعِيَا إِلَيْهِ وَإِنْ سَالَتْ بِهِ أَدْمُعِي طُوفَانُ
فَجَفَنِيْ جَفَا طَيِّبِ الْمَنَامِ وَجَفَنَهَا جَفَانِيْ ، فَيَالَهُ مِنْ شَرِّكَ الْأَجْفَانِ

ونمضى في قراءة مثل هذا الغزل الوجداني المتنازع حتى إذا أظلم لواء العثمانيين البلاد أخذ يفيض
معينه في القلوب والنفوس وخاصة عند نور الدين على العسيلي ، وسنخصه بكلمة ، ومثله خربجه
وتلميذه يحيى^(١) الأصيلي ، الذي يقول في بعض غزله :

بَدَا بِوَجْهِ جَمِيلِ الْوَصْفِ وَالشَّانِ يَقُولُ : سَبْحَانَ مَنْ بِالْحَسَنِ وَشَانِي^(٢)
كَأَنَّهُ رَوْضَةٌ غَنَاءُ مَزْهُرَةٌ مِنْ دَمْعٍ عَاشَقَهَا تُسْقَى بِغُدْرَانِ
أَشْبَهْتُ فِي حَبِّهِ وَرَقَّ الْحِمَى فَعَدَا كُلُّ يَبِثٍّ الْجَوَى شَجَوًا عَلَى الْبَانِ

فالله جل شأنه زين وجهها بالجمال حتى كأنها روضة ، أليس يشبه الشعراء النفر بالأقحوان ،
والحد بالورد والشقيق والعين بالفرجس ، لذلك جعل وجهها كأنه روضة تسقى من دموع العشاق
بغدران ، ومضى يستكمل خياله فورق الحمى وحامه ييث جواه شجوا على أغصان البان وهو يشبه
على مَنْ قَامَتَا تَحَاكِي قَامَةَ الْبَانِ . وتخرج على يد الأصيلي يوسف^(٣) المغربي ، وغزله كغزل أستاذه
يسيل غدوبة من مثل قوله :

جَعَلُوا الصَّبَاحَ مِبَاسًا ثُمَّ الْفَلَاحَ مَ صَفَائِرًا ثُمَّ الرِّمَاحَ قُدُودًا
وَالْوَرْدَ خَدًّا وَالْغُصُونَ مَعَاطِفًا وَالْبَذْرَ قَرَقًا وَالْغَزَالَاتِ جِيدًا
وَرَأَتْ غُصُونُ الْبَانِ أَنْ قُدُودَهُمْ فَاقَتْ فَأَضْحَتْ رُكْعًا وَسُجُودًا

وتشبيه قدود الحسان بالرماح وغصون البان لضمورهم واستقامتها مشهور . وكان المغربي
والأصيلي والعسيلي يَكُونُونَ في الغزل زمن العثمانيين مدرسة متاثلة في رشاقة الموسيقى وجمال
الصياغة ، وإن كان التكلف قد أخذ يعم في الغزل بعدهم وفي أيامهم . ولعبد الله الإدكاوي :

(٣) راجع في يوسف المغربي ربحانة الألبا ٣٢/٢ وما
بعدها وخلاصة الأثر ٥٠١/٤ .

(١) راجع في يحيى الأصيلي ربحانة الألبا ٣٨/٢ وصلافة
المصر لاين مصروم ص ٤١٥ وخلاصة الأثر ٤٨٠/٤ .

(٢) وشان : زينة .

عقيقُ دمعى غداً فى الجزع كالديمِ
وانهلَّ مُنسجماً من نار مضطرمِ
ظبى نفور أنيس ناعس يقظ
إن أرض يغضب وإن أقرب نأى صلفاً
مهفهف مابدت للغصن قامته
وإن تيسم ما برق بكاطمة
ما فيه عيب سوى تفير مُقلته

مذبان سكان بانو الحى والعلم
ملآن وجداً إلى خشف بذى سلم
بالليل متشح بالصبح ملتئم
وإن أذل يته بالعز والشمم
إلا انتفى ذابل الأوراق ذا صرم
له وميض يحلى داجى الظلم
وتفكها فى فواد المذنف السقم

والعقيق : خرز أحمر ، يقول الإدكاوى إنه مازال ييكى حتى اختلط دمه بالدم القانى وتناثر فى الجزع أو جانب الوادى وكأنه ديم مسكوبة مذ بعد سكان الوادى والعلم أو الجبل وما بهما من شجر البان ، وإنه لييكى وأحشاؤه تضطرم بوجد مبرح إلى خشف أو ظبي من ظباء ذى سلم بنجد ، وإنه لظبي نفور أنيس ناعس يتشح بوشاح أسود من شعره ، ويلثم بلاثام منير من وجهه . وإن لقيه راضياً غضب وازور عنده وإن قرب منه نأى بجانبه ، وحتى إن ذل له تاه عليه سلفاً وشماً أو تكبرا . وهو مهفهف ضامر دقيق الحصر ، وما يرى الغصن قامته حتى تذبل أوراقه خجلاً ويلتاع لوعة ملتهبة . وإن ابتسامته لتضىء الكون من حوله ضياء لعله أكثر من ضياء البرق الهاعا فى الليالى الداجية . ويجعل عيه الوحيد نور عينيه الذى طالما تغنى الشعراء به وبما يرسل من سهامه التى تصمى أفتدة المرضى بالحلب ، وتفتك بهم فتكا . وواضح ما يداخل هذا التصوير من مبالغة وتكلف شديد . وحرى بنا أن نقف عند نفر من شعراء الغزل الوجدانى الذين صوروا ما اختلج فى خبايا قلوبهم وصدورهم من وجد مبرح ولوعات ممضة .

ابن النيه^(١)

هو الكمال أبو الحسن على بن محمد بن يوسف المعروف باسم ابن النيه ، ولد بمصر حوالى سنة ٥٦٠ واختلف إلى كتاب حفظ فيه القرآن الكريم وبعض الأشعار على عادة لداته ، ثم أخذ يختلف

تحقيقاً بديها وطبع طبع حجر فى القرن الماضى . وطبع الديوان حديثاً بتحقيق عمر محمد الأسعد (نشر دار الفكر) بيروت .

(١) انظر فى ابن النيه وترجمته وشعره ابن خلكان ٣٣٦/٥ وروايات الوفيات ١٤٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٤٣/٦ وحسن المحاضرة ٥٦٦/١ وشذرات الذهب ٨٥/٥ ومقدمة عبد الله فكرى للديوان إذ جمعه ورتبه وحققه

إلى حلقات العلماء والأدباء ، وفتحت ملكته الشعرية ، ورنا إلى الالتحاق بدواوين صلاح الدين ووزيره الكاتب البليغ القاضي الفاضل راعي الأدباء في عصره ، وفي ديوانه مدائح مختلفة له ، وليضع أمامه الدليل الواضح على قدرته البيانية ضَمَّن جميع أبيات إحدى مدائحه له كلمات من سورة المزمل مقتبسا لها في قوافيه بقوله في مطلعها :

قَتُّ لَيْلِ الصُّدُودِ إِلَّا قَلِيلًا ثُمَّ رَتَّلْتُ ذَكَرَكُمْ تَرْتِيلًا
وَوَصَلْتُ الشَّهَادَ أَقْبَحَ وَضَلِي وَهَجَرْتُ الرِّقَادَ هَجْرًا جَشِيلًا

ويبدو أن القاضي الفاضل لم يُعْجَب بالقصيدة ، فلم يَعيِّن في دواوين صلاح الدين وأيضا لم يَعيِّن في دواوين ابنه العزيز ، حتى إذا ولي شئون مصر السلطان العادل سنة ٥٩٦ رآناه يقدِّم مدائحه إليه وإلى وزيره الصفِّي بن شُكْر . ويبدو أن صداقة انعقدت حيثُذ بينه وبين الأشرف موسى بن السلطان العادل ، حتى إذا ولاه أبوه على الرُّها سنة ٥٩٨ اصطحبه معه واتخذهُ كاتبه . وأخذت إمارته أو مملكته تتسع ، فشملت خِلاط وميافارقين ونصيبين ومعظم بلاد الجزيرة . وكان ينتقل الأشرف موسى في بلدان إمارته وكانت أكثر إقامته بالرُّقة لموقعها على الفُرات وابن النيه معه يلازمه ، ولا يترك مناسبة من انتصار في حرب أو عيد إلا ويقدِّم له مدائحه . ومن أهم هذه المناسبات - كما مر بنا في غير هذا الموضع - قدومه إلى مصر بجيش جرار ساعد به سلطانها أخاه الكامل في سحق الصليبيين بموقعة دمياط ورد فلولهم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وقد تغنى ابن النيه بذلك طويلا بمثل قوله :

دَمِيَاطُ طُورٍ وَنَارُ الْحَرْبِ مَوْقِدَةٌ وَأَنْتَ مُوسَى وَهَذَا الْيَوْمُ مِيقَاتُ
أَثْلَجَتْ صَدَرَ رَسُولِ اللَّهِ وَانْكَشَفَتْ عَنْ سَرَّحَةِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا غَامَاتُ
اللَّهُ أَكْرَمُ أَنْ تُمَسَّى مَزَامِرَهُمْ تُتْلَى وَتُنْسَى مِنَ الْقُرْآنِ آيَاتُ

وهو يستغلُّ اسمه في مديحه ، فيقرنه إلى موسى الرسول ومعجزته في الطور ، ويذكر في القصيدة أن عصاه تلففت كل ما أفكروا ، ويصور كيف اندحر الصليبيون وتوزعهم المسلمون قُلا وأسرًا وسيًّا ، ومن بقى منهم عاد إلى البحر المتوسط وما وراءه بنجزي لا يماثله خزي .

ويدل ديوان ابن النيه على أنه كان يعيش لدى الأشرف موسى معيشة مبهجة يتمتع فيها بالرياض ومجالس الأنس والطرب حتى وفاته بتَصيلين سنة ٦١٩ . ومع ما كان فيه من هتاء لم

ينس وطنه ، بل ظل يحنُّ له ، وظل حنينه يتفرق في تضاعيف أشعاره كأقوى ما يكون الشعور الصادق لدى المحبين الواهين ، كقوله مكثياً عن مصر بالعقيق أحد وديان الأراضي المقدسة في المدينة النورة الذى طالما تغنى به شعراء الصباة والحب الملتاع :

يَا بَارِقًا أَذْكَرَ الْحَشَا شَجَنَهُ مَنْزَلْنَا بِالْعَقِيقِ مَنْ سَكَنَهُ
وَمَرَبْعُ اللَّهِوَ يَانَعُ خَضِلُ أَمْ غَيْرُ الدَّهْرِ بَعْدَنَا دِمْنَهُ^(١)
يَا بَرِّقُ هَذَا جَسْمِي يَذُوبُ ضَنًى وَمَهْجِي بِالْعَقِيقِ مُرْتَهَنَهُ
بَلَّغْ حَدِيثَ الْحَمَى وَسَاكِنَهُ لِمَغْرَمِ أَنْحَلَ الْهَوَى بَدَنَهُ
أَشْقَى الْحَبِيبِ عَادِمٌ وَطَرًّا فَكَيْفَ إِنْ كَانَ عَادِمًا وَطَنَهُ
سَقِيًّا لِأَيَامِنَا الَّتِي سَلَفَتْ كَانَتْ بِطَيْبِ الْوَصَالِ مَقَرَنَهُ
لَوْ بَعِثَ يَوْمٌ مِنْهَا وَكَيْفَ بِهِ كُنْتُ بِعُمُرِي مُسْتَرَحْصًا ثَمَنَهُ

وابن النبيه فى أول الأبيات يخاطب برقاً أذكره ما يعتلج فى أحشائه من الشجن أو الأشجان على بعده عن موطنه بوادى النيل ، ويتساءل عن السكان والأحباب وهل لا يزال مربع اللهب والشباب كعهده به يوم فارقه من النضرة والجمال أَمْ غَيْرُ الدهر بعده الديار وتبدل الحال . ويشكو للبرق ارتهان مهجته وراءه وتحلفها بمصر وكيف أنه يذوب ضناً وسقماً ونحولاً متمنيا لو يسمع شيئاً يطمئنه عن الحمى وساكنته . ويقول إن أشقى المحبين من عدم الوصال بمحبوبه فكيف بالحب المقتون الذى عدم الوصال بوطنه ، ويدعو بالسقيا لأيام وصاله الهنيئة الماضية له ، ويتمنى لو حج إلى هذا الوطن المقدس تقديس العقيق أو عاد إليه ، ويقول إنه يقدم حياته كلها راضيا بيوم واحد يقضيه بين ربوعه . وابن النبيه بذلك يصور تصويراً رائعاً تعلق المصريين فى غربتهم بوطنهم وشغفهم به ومدى حنينهم إليه وطمئنه إلى جرعة من نيله فى ظلاله وبين رياضه .

وإذا أخذنا نقرأ فى ديوان ابن النبيه أحسننا بوضوح أنه يمثل فى غزله أرواح القاهرة المصرية بكل ما عُرف عنها من اللماعة والرقّة وخفة الظل لا فى موسيقاه وجمال أنغامه فحسب ، بل أيضا فى تصوير مشاعره ووجداناته وعواطفه ، دون أى حجاب من أصداف المحسنات البديعية ، فهو قلما يستخدمها بل يترك نفسه على طبيعتها ، مما جعل غزله يرتفع إلى مستوى وجدانى سام ، دون

(١) خضل : مبتل تدنى . الدمن : جمع دمة : آثار

ترداد الأوصاف المادية الحسية للمرأة ، فحسبه أن يصور عاطفته إزاءها في رقة متناهية . وهياً ذلك قديماً لغزله أن يكثر التغنى به في ديار الجزيرة والموصل وفي الشام ومصر واليمن^(١) لرقته ورشاقته وصفاء موسيقاه ، ومازال المغنون والمغنيات يتغنون بأشعاره ، وتتغنى بها السيدة أم كلثوم وغيرها ، ومن ذلك قوله :

أَفْدِيهِ إِنْ حَفِظَ الْهَوَى أَوْضِعَا مَلِكَ الْفَوَادِ فَمَا عَسَى أَنْ أَصْعَا
مَنْ لَمْ يَذُقْ ظُلْمَ الْحَبِيبِ كَظْلَمِهِ حُلُومًا فَقَدْ جَهَلَ الْحُبَّ وَادَّعَى^(٢)
يَا أَيُّهَا الْوَجْهُ الْجَمِيلُ تَذَارِكِ الصَّبَّ السَّحِيلَ فَقَدْ وَهَى وَتَصَفَّصَعَا
هَلْ فِي قَوَادِكُ رَحْمَةٌ لِمَتِّمْ ضَمَّتْ جَوَانِحُهُ قَوَادًا مَوْجَعَا
هَلْ مِنْ سَبِيلٍ أَنْ أَبْتُ صَبَابَتِي أَوْ أَشْتَكِي بَلَوَايَ أَوْ أَتَضَرَّعَا

وهو يفدى محبوبه بروحه سواء حفظ العهد أو ضيعه فهو لا يملك إزاءه في الحالين إلا أن يزداد تعلقاً بحبه وشغفا ، بل إنه ليتقبل ظلمه ويحمده شراباً سائغاً ، وإلا حق عليه أنه دعى حب . ويتضرع إليه أن يتداركه ، فإن كل شيء فيه حتى بدنه وهن ولم يعد يستطيع احتلالاً ، وبسترحه لو هن جسده وأوجاع روحه ، لعله يستطيع أن يشه شيئاً من حبه أو من محبته فيه . ولا تقل جمالاً وروعة عن هذه الأغنية في أيامنا الأغنية التالية :

أَمَانَا أَيُّهَا الْقَمَرُ الْمُطْلُ فَمَنْ جَفَنَيْكَ أَسِيافُ تُسَلُّ
يَزِيدُ جَمَالُ وَجْهِكَ كُلَّ يَوْمٍ وَلِي جَسَدٌ يَذُوبُ وَيُضْمَحَلُّ
وَمَا عَرَفَ السَّقَامُ طَرِيقَ جَسْمِي وَلَكِنْ دَلُّ مِنْ أَهْوَى يَدُلُّ
إِذَا نُشِرَتْ ذَوَائِبُهُ عَلَيْهِ تَرَى مَاءَ يَرْفُ عَلَيْهِ ظِلُّ^(٣)
وَقَدْ يَهْدِي صَبَاحُ الْخَدِّ قَوْمًا بَلِيلَ الشَّعْرِ قَدْ تَاهَا وَضَلُّوا

وابن النيه يتوسل إلى صاحبه أن لا تسل عليه أسياف جفنيها وأن تثبى عليه فلا تفتك به ، حتى يتمتع بجمال وجهها الذي يزداد ويتضاعف كل يوم ، بينما يذوب بدنه أضمحلالاً وتضاولاً ونحوها . وما عرف السقم يوماً طريقاً إليه إلا عن طريق حبه لها وهيامه بها ، بينما هي تدل عليه

(٢) الظلم بفتح الظاء : ريق الشعر ويريقه .

(٣) الفوالب : صفات الشعر .

(١) انظر كتاب شعر الغناء الصنعاني للذكور محمد عبده

غانم (طبع دار الكاتب العربي ببيروت) ص ١٧٧ .

وترداد كل يوم دلالا وإعراضا . وماذا يبصر؟ إنه لا يبصر إلا جالا فأتنا جسدا ساحرا رقيقا رقة الماء يهتر عليه من الشَّعر ظل ناضر باهر . ويقول :

يا ساكني السَّفح كم عَيْنُ بكم سَفَحَتْ نَزَحَتْمْ فَهَيَ بَعْدَ الْبُعْدِ قَدْ نَزَحَتْ
لَهْفَى لَطِيئَةً أَنْسَى مِنْكُمْ نَفَرَتْ لَا بَلْ هِيَ الشَّمْسُ زَالَتْ بَعْدَ مَا جَنَحَتْ
يَبْضَاءُ حَجَبِهَا الْوَاشُونَ* حِينَ وَشَوَا عَنَى وَلَوْ لَمَحَتْ صَبْنُ اللَّجَبِ لَمَحَتْ
يَقْتَصُّ مِنْ وَجَّتَيْهَا لَحْظُ عَاشِقِهَا إِنْ ضَرَجَتْ قَلْبَهُ بِاللَّحْظِ أَوْ جَرَحَتْ
مَنْ لِي بِسَلْمَى وَفِي أَجْفَانِ مُقْلَتِهَا لِلْحَرْبِ يَبْضُ حَدَادُ قَطْ مَا صَفَحَتْ
وَأَسْوَدُ الْخَالِ فِي مَحْمَرِّ وَجَّتَيْهَا كِمِسْكَةٍ نَفَحَتْ فِي جَمْرَةٍ لَفَحَتْ

وفي القطعة جناس بين « السفح وسفحت » بمعنى صَبَّت العين الدمع ، وكذلك بين « نزحتم » بمعنى بعدتم و« نزحت » العين بمعنى نقد دمعها ، ويُضاهى بين « الواشون » و« وشوا » في البيت الثالث وبين « لمحت » من لمح البصر واختلاسه و« نحت » في آخر البيت من المحو والإزالة ، والبيت الأخير به جناس ناقص بين « نفحت ونفحت » . والجناسات جميعها جناسات خفيفة على اللسان والأذان ، لأن صانعها موسيقى ماهر في قياس الأنغام ، وهو في أول القطعة يشكو لساكني السفح من كثرة ما سفحت دموعه وسكبت حتى لقد جفَّت عيناه ، ويقول كأن محبوبته سلمى ظلية نافرة بل لكأنها الشمس مالت إلى الغروب ولو أنها أطلت بطلعتها المضيئة على الليل لمحت ظلمته محوا ، ويتخيل كأنما يقتصُّ بالنظر إلى وجتَيْها من جرحها لقلبه جرحا لا يندمل أبدا . وهي مبالغه مسرفة . ويتمنى لقاء سلمى مع ما قد يصيبه من فتك عينيها الساحرتين ، ويتصور الخال في خدها الوردي كحجَّة من المسك تعلقت بحجرة لافحة ، فانتشر منها أريج عطر . ومن غزله الذي يقطر حسنا ورقة قوله :

تعالى الله ما أَحْسَنَ شَقِيقًا حُفَّ بِالسَّوْسَنِ
خُدُودُ لَنَمُهَا يُبْرَى مِنَ الْأَسْقَامِ لَوْ أَمَكْنَ
فَمَا تُجَنِّى وَحَارِسُهَا يَقْفُلُ الصَّدْغُ قَدْ زَرَقْنَ^(١)

(١) زرقن الصدغ : جعل الشعر المسدل على الخلود كالحلقة .

أَبْتُ هَوَاهُ مِنْ حُرْقِ لَنَجْمِ اللَّيْلِ لَمَّا جَنُّ .
وَكَمْ أَسْكَنْتُهُ قَلْبِي فَسَارَ وَأَحْرَقَ الْمَسْكَنَ

وهو يعلن افتتانه بجمال صاحبه واحمرار خلودها المشبه لورد الشقيق المحفوفة بخصل السوسن من شعرها الذهبي ، ويقول إن لثم خلودها يبرئ السقم ، ولكن من يستطيع أن يصل إليها ؟ إن أحدا لا يمكنه أن يقتطف من خلودها شيئا من زهرات الحب ، فإن وراءها حارس أمين من شعرها لوى على خلودها قفلا كالحلقة ، فلا يستطيع أحد إليها وصولا . وإنه ليث هواه وما يذوقه من حرارته اللافة للنجم حين جَنُّ الليل ودجت ظلماته ، معلنا إليه هذا الهوى الذى لم يعد يستطيع اكتفائه . ويأسى لنفسه ومصيره ، فكم أسكن محبوبته قلبه فعبثت به بل أحرقت وأتت عليه . ومن غزله الرائع :

أَمَّا وَبِيَاضٍ مَبْسُوكِ النَّقَى	وَسُمرَةٌ مِسْكَةُ اللَّعْسِ الشَّيْءِ ^(١)
لَقَدْ أَسْقَمْتُ بِالْهَجْرَانِ جِسْمِي	وَأَعْطَشَنِي وَصَالُكَ بَعْدَ رِيٍّ
إِلَى كَمْ أَكُمُّ الْبُلُوى وَدَمْعِي	يَبُوحُ بِمُضْمَرِ السَّرِّ الْحَقِيٍّ
وَكَمْ أَشْكُو لِلْأَهِيَةِ غَرَامِي	فَوَيْلُ لِّلشَّجِيِّ مِنَ الْحَلِيِّ
تَغَاذَلْنِي وَتَزَوَى حَاجِبِيهَا	كَمَا انْبَرَتْ السَّهَامُ عَنِ الْقَيْسِ
وَتَخْتَرِقُ الصَّفُوفَ بِرَيْقِ فِيهَا	وَهَلْ يَخْفَى شَذَى الْمَسْكِ الشَّدِيِّ
يَذُودُ شَبَا الْقَنَا عَنْ وَجَّتَيْهَا	كَمَنْعِ الشُّؤْلِ لِلرُّودِ الْجَنِيِّ ^(٢)
إِذَا مَا رُمْتُ أَقْطَفُهُ بَعِينِي	تَقُولُ حَذَارٍ مِنْ مَرَعَى وَبِيِّ ^(٣)

وابن النبية يُقَسِّمُ لمحبوبته بمسماها الفاتن وسمرة شفاهاها اللعس أنها أسقمت جسمه بهجرانها بعد الوصال وبما أصابته به من ظمأ بعد ريٍّ ، ويقول إلى كم أكتم محنتي في الحب ودمعي يبوح بسرِّي وإلى كم أشكو للآهية غنى ، وصدق المثل القديم : ويل للشجي من الحلى . ويعجب أنها تغاذله أو تمد له أسباب الغزل ، بينما تقطَّب حاجبها وتزوى ما بينها ، ويلتمس لها عذرا ، فكان حاجبها قوسان يرسلان السهام ، ولا بد لها كالقوس ووترها من الشد والجذب في أثناء الرمي

(٣) وى : ونجم .

(١) اللعس : سواد الشفة .

(٢) شبا القنا : حد الرماح .

بالسهم والنبال ، ويقول إن شذاريقها كشذا المسك وأريجها يعلن عنها من بعيد . ويتحدث الشعراء كثيرا عن السيوف والرماح المسلولة من العيون على الناظرين للجمال المصون ، ويرسم ابن النبية من ذلك صورة رائعة ، فعيون صاحبته بما يحمها من الرماح تذود عن وجتها الفاتنتين كما يذود الشوك عن الورد حين تمتد يد لاجتائه أو اقتطافه ، ويقول إنه حتى حين يريد أن يقتطف بعينه لا يشفتيه شيئا من ورد وجتها تقول له حذار من مرعى وخيم العواقب .

وكل هذا غزل وجداني موج باللهفة والظمأ واللوعة الملتبة التي لا سبيل إلى إطفائها في قلب المحب الوهمان ، وهو دائما يستعطف ويتوسل ويتضرع ، ولا يجيب حتى بنظرة أو كما يقول باقتطاف نظرة إلى الوجه الفاتن . وقد تراءت لنا صور من هذا الغزل الوجداني الصافي المتنازع عند ظافر الحداد والمهذب بن الزبير وابن سناء الملك غير أنه تكامل عند ابن النبية في هذه الصورة الرائعة التي تخلو من المتاع الحسى والتي يسيل فيها الشرقة وعذوبة وسلاسة . وما أشك في أن الحاجر شاعر الموصل استلهم في غزله الوجداني الذي تحدثت عنه في الجزء الخامس من هذه السلسلة لتاريخ الأدب العربي هذا الغزل الوجداني لابن النبية نزيل دياره حين كان الحاجر لا يزال شابا في نحو الخامسة عشرة من عمره ، وتلاه التلعفري الموصل الذي تحدثنا عن غزله الوجداني المتنازع يستضيء فيه بابن النبية أيضا ، ولاحظ ذلك صاحب فوات الوفيات ، فقال في ترجمته إن قصيدة التلعفري التي أنشد منها قطعة في ترجمته بالكتاب المشار إليه والتي يستلها بقوله :
أَيَّ دَمْعٍ مِنَ الْجَفُونِ أَسْأَلُهُ إِذْ أَتَتْهُ مَعَ النَّسِيمِ رِسَالَةٌ
إنما نظمها معارضة ومحاكاة لقصيدة ابن النبية :

بَدْرٌ رَمٍ لَهُ مِنَ الشَّعْرِ هَالَةٌ مِنْ رَأَى مِنَ الْحَمِيمِ هَالَةٌ^(١)

فهى من نفس الوزن والروى ، بل المحاكاة عند التلعفري لابن النبية أوسع من هذا ، إذ هي محاكاة لغزله الوجداني الرائع لافي أساليبه السلسلة السائغة فحسب ، بل أيضا في مضمونه المليء بالأسى المبرح والوجد الملتهب ، مع الرقة والدعابة واللفظ وخفة الروح . وسقطت القيثاره من يد ابن النبية بوفاته وكانت مصر قد أنجبت البهاء زهير ، وإذا هو يستخرج من قيثارته نغما رائعا لهذا الغزل الوجداني على نحو ما سنرى عما قليل ، وهو نغم يبلغ به الذروة التي كانت مأمولة لهذه الصباية

(١) هالة الأولى : دارة القمر . وهاله الثانية : من هاله

الشيء إذا أعجبه وروعه .

الوجدانية ، وإذا كان شرر هذا النغم قد تطاير عن طريق ابن النبيه إلى الموصل فإنه تطاير عن طريقه وطريق البهاء زهير إلى الشام وإلى يثاات عربية مختلفة .

البهاء^(١) زهير

هو بهاء الدين زهير بن محمد ، ينتهى نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة القائد المشهور في العراق وإيران زمن بنى أمية ، ولد لأبويه المصريين في وادى نخلة بالقرب من مكة في أثناء حَجَّها خامس ذى الحجة سنة ٥٨١ . وكان أبوه رجلا صالحا يشهد بذلك وصفه على نسخة خطية من الديوان بدار الكتب المصرية بأنه : « العارف محمد قدس الله روحه »^(٢) وقد تؤذن كلمة العارف بأنه كان صوفيا أو على صلة بالصوفية والتصوف ، ويبدو أنه أقام مع ابنه وزوجه في مكة ناسكا بضع سنوات ، إذ يشير البهاء في بعض أشعاره إلى ذكريات له فيها أيام طفولته ، بمثل قوله :

تذكرتُ عهدًا بالمحْصَبِ من مِئى ومادونه من أَبْطَحٍ وحَجُونِ^(٣)
منازلُ كانتُ لى بهن منازلُ وكان الصَّبَا لى بها وقَرِيفى

وعاد العارف محمد بزوجه وابنه إلى بلدته بالصعيد : قوص ، وكانت حينئذ عاصمة الصعيد وباب المسافرين من مصر والمغرب والأندلس في البحر الأحمر من سواكن وعيذاب إلى الحجاز ، وكانت بها حركة تجارية واسعة ونهضة علمية وأدبية ناشطة ، وهى منشأ البهاء ومرباه ، فيها تلقن العلم والأدب والشعر . وتعرف في أثناء ذلك على خِذنه ورفيقه ابن مطروح ، وانعقدت بينهما صداقة حتى المات . وفي ديوانه قصيدة قصيرة مدح بها الملك المنصور حفيد صلاح الدين وكان قد ولى شئون مصر بعد أبيه العزيز فترة قصيرة سنة ٥٩٥ وأغلب الظن أنه أرسل بها إليه من قوص وهو لا يزال في الرابعة عشرة مما يدل على أن ملكته الشعرية تفتحت في سن مبكرة .

وينشد ابن خلكان له أبياتا من قصيدة مدح بها جَلَدك التقوى والى دمياط سنة ٦٠٥ وأكبر الظن أنه أرسل أيضا بها إليه من قوص . ونراه في سنة ٦٠٧ يقدم مدحه لوالى بلدته قوص : مجد

وطبع في القاهرة مرارا وفي بيروت .

(٢) انظر في ذلك البهاء زهير للشيخ مصطفى عبد الرازق ص ٥ .

(٣) المحصب : موضع رمى الجار بمنى . والأبطح : أبطح مكة وهو واديا . والحجون : جبل بها .

(١) انظر في ترجمة البهاء زهير وشعره ابن خلكان

٣٣٢/٢ والنجوم الزاهرة ٦٢/٧ وحسن المحاضرة ٥٦٧/١ .

٢٣٣/٢ وشذرات الذهب ٢٧٦/٥ . و« البهاء زهير » :

بحث بقلم الشيخ مصطفى عبد الرازق . وقد طبع ديوانه بكمبريدج سنة ١٨٧٦ بتحقيق يلرم مع مقدمة وتعليقات ،

الدين إسماعيل اللطى يهته فيها بولايته على أعلاها ، وأعجب به اللطى فاتخذة كاتباً له ، وظل يعمل معه نحو عشر سنوات ، ثم أخذت العلاقة تفتّر بينهما ، ويبدو من استعطافاته له في بعض أشعاره أنه عزله من منصبه فهاجر من بلدته إلى القاهرة . ويظن بعض الباحثين أن هذه الهجرة حدثت في سنة ٦١٩ وفي رأينا أنها تسبق هذا التاريخ بسنة أو أكثر إذ نراه يهني السلطان الكامل الأيوبي في انتصاره العظيم سنة ٦١٨ على الصليبيين وطردهم من دمياط أو طرد قلوبهم إلى البحر المتوسط وما وراءه . ويأخذ في دعم صلته بأبناء السلطان الكامل منذ هذا التاريخ ، ويحاول الاتصال بابنه الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم إلى القاهرة سنة ٦٢١ ويقدم له ملحقين ، ويخف على قلب أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ويلحقه بخدمته ، ويلبّيه منشداً فيه قصيدة بدیعة يقول فيها :

لَبِّسِكَ يَا مَنْ لَا مَرَدَّ لِأَمْرِهِ وَإِذَا دَعَا الْعَبُوقَ لَا يَتَعَوَّقُ^(١)
الصَّالِحُ الْمَلِكُ الَّذِي لَزَمَانِهِ حُسْنُ يَتِيهِ بِهِ الزَّمَانُ وَرَوَّعُ
سَجَدْتُ لَهُ حَقَّ الْعُبُونِ مَهَابَةً أَوْ مَا تَرَاهَا حِينَ يُقْبَلُ تَطْرِقُ

ويصحبه معه حين أصبح في سنة ٦٢٩ نائبا عن أبيه في حكم بعض البلدان الشرقية في نواحي الفرات . وعاش البهاء مع الملك الصالح في رغد ، ينعم بالحياة ويهاجها . ويتنقل معه في بلدان إمارته ، غير أنه لم ينس موطنه ، فقد ظل يذكره وظل لا ينسى أيامه فيه وأصدقائه ، ولا ينسى نيله الغدق ورياضه ومراكبه المصعدات المنحدرات ، ويتلهف على العودة إلى واديه والخلي بجباله واكتحال عينيه بحسنه وبساكنيه وكل ما فيه ، بمثل قوله :

سَقَى وَادِيًا بَيْنَ الْعَرِيشِ وَبَرْقَةٍ مِنْ الْغَيْثِ هَطَالُ الشَّائِبِ هَتَانُ^(٢)
بِلَادُ إِذَا مَا جِئْتَهَا جِئْتَ جَنَّةً لَعَيْنِكَ مِنْهَا كَلِمَا شَتَّ رِضْوَانُ
تَمَثَّلَ لِي الْأَشَوَاقُ أَنَّ تَرَاهَا وَحَصْبَاءَهَا مِسْكُ يَفُوحُ وَعِيقَانُ^(٣)
فِيَا سَاكِنِي مِصْرٍ تُرَاكِمُ عَلِمْتُمْ بَأَنِّي مَالِي عَنْكُمْ الدَّهْرُ سُلُونُ
عَسَى اللَّهُ يَطْوِي شَقَّةَ الْبَعْدِ بَيْنَنَا فَتَهْدَأُ أَحْشَاءُ وَتَرْقَأُ أَجْفَانُ

كثير المطر .

(١) العروق : نجم في طرف الهجرة يتلو الثريا .

(٢) الشايب : حصابها : حصاها . العيقان : النعب الخالص .

(٣) الشايب : جمع شؤبوب وهو دفعة المطر ، وهتان :

فهو يدعو للوادي من شرقيه إلى غريبه أن يظل يسقيه من الغيث هطال مدرار ، ويتصور الوادي جميعه فردوسا لا يشبه فردوس وترابه وحصباءه مسكا وذها خالصا ، وهو لا يسلو أهله ولا ينسأهم أبداً ويتمنى لو قصرت المسافة وعاد إلى موطنه ينظر ما شاهده ، حتى تجف دموعه المنهله ، وتهدأ أحشأؤه الموجهة .

ويستولى الملك الصالح في سنة ٦٣٦ على دمشق فيتحول معه إليها ويتملى بغوطتها ورياضها ، ولا يلبث الملك الصالح أن يفكر في الاستيلاء على أملاك داود ابن عمه صاحب الكرك في جنوبي الأردن ويتزل نابلس ، غير أن مؤامرت تحاك له ، ويُعْتَقَلُ بسببها عند ابن عمه داود في الكرك ، ويظل البهاء زهير بنابلس حافظا لعهد . وتُرَدُّ إليه حريته ، ويتجه إلى مصر فيستولى من أخيه الصغير العادل على مقاليد الحكم بها سنة ٦٣٧ ويولى البهاء زهير ديوان الإنشاء ، والبهاء يكاد يطير فرحا برجوعه إلى موطنه وتعظم منزلته عند الملك الصالح ويصبح مستشاره الأعلى وأمين سره ، وكان خيرا نبیلا ففتح - كما يقول ابن خلكان - خلقا كثيرا بحسن وساطته عنده وجميل سفارته . ومن حين إلى حين كان يرحل مع الملك الصالح إلى دمشق ، وفي آخر رحلة لها هناك جاءهما خبر الحملة الصليبية على دمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وتصادف أن كان الملك الصالح مريضا ، فصمَّم على منازلة لويس وجيشه في أقرب فرصة ، وحُمِلَ من هناك في محفَّة حتى نزل بطناح بالقرب من المنصورة في شهر المحرم سنة ٦٤٧ ومضى يستعدُّ للقاء الصليبيين وهو يجاهد المرض جهادا عنيفا حتى شهر شعبان إذ لبَّى نداء ربه . وقبيل وفاته بقليل عُزل البهاء زهير من منصبه ، ويذكر المؤرخون أن ذلك كان بسبب تقصيره في الالتفات إلى إشارة كان قد كتبها الملك الصالح على كتاب كان مرسلًا لابن عمه داود صاحب الكرك ، مما أغضب الملك الصالح . ونظن أنه رجع ذلك السهو إلى تقدمه في السنِّ ، فأعفاه من منصبه وأسندته إلى نائبه فخر الدين ابن لقمان . ويقال إنه حاول بعد وفاة الملك الصالح إعادته إلى منصبه ، وكأنما عَزَّ ذلك على البهاء فلم يقبل تقلده ، وقيل : قَبِلَهُ فترة ثم استعفى منه . وفي ديوانه مدائح مختلفة أرسل بها إلى الناصر الأيوبي حين استولى على دمشق ، وأكبر الظن أنه أرسل بها إليه انتظارا لبعض رفده ، ولزم بيته نحو ثمانى سنوات عرف فيها شطف العيش بعد رَغَدِهِ ومَرَّهُ بعد حُلُوهِ إلى أن فارق دنياه سنة ٦٥٦ في وباء حدث بالفسطاط والقاهرة .

ويدلُّ شعر البهاء على أنه كان صاحب نفس كريمة كبيرة ، ويقول ابن خلكان في ترجمته :
« كنت أود لو اجتمعت به لما كنت أسمعُه عنه فلما اجتمعت به رأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم

الأخلاق ودعائه السجاياء . وما مر من حديثنا عنه يدل على أن حياته ظلت ، حتى أعفاه الملك الصالح من منصبه وهو في نحو السابعة والستين من عمره ، حياة سهلة ليس فيها حرمان ولا شيء من بؤس ، بل فيها غير قليل من النعيم ، وفي شعره وصف كثير لمجالس أنس مع الرفاق والأصدقاء ، وفيه ما يدل أيضا على شغفه بالطبيعة ومجالها الفاتنة . وله مراسلات شعرية رقيقة مع ابن مطروح خلدن صباه وشبابه في قوص . وشعره يكتظ بالمرح والتفاؤل والدعوة إلى الفرح بمُتَع الحياة وطرح المهوم عن عاتق الإنسان ، يقول :

أيها الحاملُ هَمًّا إن هذا لا يدومُ
مثل ما تَقْنَى السَّرا ت كذا تَقْنَى المهومُ

والغزل هو الموضوع الأساسي في ديوانه ، وهو غزل وجداني من نفس المعين الذي كان يستمد منه ابن النبيه ، بل ربما كان يتقدم خطوة أو خطوات نحو السهولة ، مما جعل ابن خلكان يقول : « شعره كله لطيف ، وهو - كما يقال - السهل الممتنع » . وليس كل ما يلاحظ عليه السهولة فحسب ، فهو يتميز فيه حتى من ابن النبيه بالأوزان القصيرة والمجزوءة . وهو مثله يتقن بالحب وتبارحه في تدفق وانطلاق ، وقلما نجد عندهما معا روايب تصويرية من تقليد القدماء ، وما يجيء من ذلك يُعرض عرضا جديدا ، وأيضا ما يجيء أحيانا من جناس وغير جناس من المحسنات البديعية يجيء في خفة ورشاقة . فالشعر - وخاصة الغزل - ليس محسنات ولا تصاوير محفوفة مما يتردد على الألسنة ، وإنما هو مشاعر وانفعالات وعواطف . وقد يكون ذلك غريبا على أذواق الباحثين الذين طالما ردّدوا أنه لم يبق عند الشعراء منذ أيام الدولة الأيوبية سوى الأخيلة والتصاویر المتجمدة ، وسوى المحسنات البديعية التي استحالت إلى أصداف ينقصها البريق واللمعان .

وينبغي أن لا نجعل ذلك خاصة فريدة من خصائص البهاء زهير وحده ، فهذا الغزل الوجداني لم يكن خاصا بالبهاء زهير ، فقد كان يشرّكه فيه - كما أسلفنا - ابن النبيه وأيضا ابن سناء الملك ، وله مقدمات قديمة نجدها عند المهذب بن الزبير وظافر الحداد . ولا ريب في أنه لطبيعة مصر السهلة وطبيعة نيلها العذب السُّلس أثر كبير في ذلك ، فعلى نحو ما يمتد الوادي في مصر سهلا لا تنوء فيه ، كذلك شعره وشعر أصحابه تمتد لغته سهلة دون أي صعوبات ، وعلى نحو ما يجري النيل مترقا متدفقا كذلك شعره وشعر أصحابه يسيل عذبا سائغا شرابه . وكما أن الوادي يتطوى على السهولة كذلك النفس المصرية نفس سهلة لطيفة لا خشونة فيها ، نفس

طُبِعَتْ عَلَى اللَّيْنِ وَالرِّقَّةِ وَالِدِمَائَةِ ، مِمَّا انْعَكَسَتْ آثَارُهُ عِنْدَ ابْنِ سَنَاءِ الْمَلِكِ وَابْنِ النَّبِيِّ . وَمِنْ الْحَقِّ أَنَّ الْبَهَاءَ زَهِيرًا كَمَا خُلِقَ لِيَلْبِغَ بِتَصْوِيرِ هَذِهِ النَّفْسِ كُلِّ مَا يَسْمُهَا مِنْ عُنُوبَةٍ وَخُفَةِ ظِلِّ وَرِشَاقَةٍ .

وَرَبَّمَا كَانَ مِنْ أَسْبَابِ انْدِلَاعِ هَذَا الْغَزْلِ الْوَجْدَانِي عَلَى لِسَانِ الْبَهَاءِ زَهِيرًا مَا أَثَرْنَا إِلَيْهِ فِي صَدْرِ حَدِيثِنَا عَنْهُ مِنْ أَنَّ أَبَاهُ كَانَ صُوفِيًّا أَوْ عَلَى صِلَةٍ بِالتَّصَوُّفِ وَالصُّوفِيَّةِ مِمَّا جَعَلَهُ يُحْفَظُ مُبَكِّرًا - وَتَدَوَّرَ عَلَى لِسَانِهِ - أَشْعَارَهُمُ الْمَلِيَّةَ بِالْوَجْدِ الْإِلَهِيِّ وَتَبَارُجِهِ ، وَانْطَبَعَ هَذَا الْوَجْدُ فِي نَفْسِهِ وَبُئِيَ فِي حَبِّهِ . وَجَعَلَ اخْتِلَاطُهُ بِهَذِهِ الْبَيْتَةِ يُعَمِّقُ هَذَا الْوَجْدَ وَأَشْوَاقَهُ بِأَكْثَرٍ مِمَّا عَمَقَهُ فِي نَفُوسِ الشُّعْرَاءِ مِنْ حَوْلِهِ ، وَإِنْ كُنَّا نَسْتَبْقِي بِصِفَةِ عَامَةِ أَثَرِ هَذَا الْوَجْدِ الصُّوفِيِّ فِي غَزَلِهِمْ جَمِيعًا ، مِمَّا دَفَعَ بِقُوَّةٍ لظَهْوَرِ هَذَا الْغَزْلِ الْوَجْدَانِي الصَّادِقِ . وَمَعْرُوفٌ أَنَّ صُوفِيَّةَ مِصْرَ مِنْ أَمْثَالِ ابْنِ الْكِزَّانِيِّ وَابْنِ الْفَارُضِ مِمَّنْ سَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ بَثُّوا فِي أَشْعَارِهِمْ وَجْدًا لَا ضَفَافَ لَهُ ، وَكَأَنَّ الْبَهَاءَ زَهِيرًا اسْتَمَدَ جَلُوهُ مِنْ هَذَا الْوَجْدِ الْمُبْرِجِ نَشْرَ شَرِّهَا فِي غَزَلِهِ . وَكَثِيرًا مَا نَعَثَ عِنْدَهُ عَلَى آيَاتِ تَصْوِيرِ تَأَثُّرِهِ بِالصُّوفِيَّةِ كَقَوْلِهِ فِي بَعْضِ غَزَلِهِ :

أَنَا فِي الْحَقِيقَةِ أَنْتُمْ هَذَا اعْتِقَادِي فِيكُمْ

وَلَوْ أَنَّنا لَمْ نَعْرِفْ أَنَّ الْبَيْتَ لَهُ وَسُئِلْنَا لِمَنْ هَذَا الْبَيْتَ لَقُلْنَا إِنَّهُ لِأَحَدِ الصُّوفِيَّةِ يَعْبُرُ فِيهِ عَنْ مَبْدَأِ الْإِتِّحَادِ الْمَعْرُوفِ عِنْدَهُمْ : إِتِّحَادِ الْحُبِّ بِالْمَحْبُوبِ . وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

يَا مَنْ إِلَيْكَ الْمَشْتَكِي أَنْتَ الْعَلِيمُ بِحَالِيهِ

وَكَأَنَّهُ مَتَّصُوفٌ يُخَاطَبُ الذَّاتَ الْعَلِيَّةَ ضَارِعًا مُسْتَغْفِرًا ، وَهُوَ إِنَّمَا يُخَاطَبُ صَاحِبَتَهُ الَّتِي دَلَعَتْ نَارَ الْحُبِّ فِي قَوَائِدِهِ . وَهَذَا الْجَانِبُ مِنْ غَزْلِ الْبَهَاءِ زَهِيرٍ جَعَلَ بَعْضَ قِصَائِدِهِ تَلْتَبِسُ عِنْدَ الْأَسْلَافِ بِقِصَائِدِ ابْنِ الْفَارُضِ ، مِنْ ذَلِكَ رَأْيَتُهُ الْمَشْهُورَةُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

غَيْرِي عَلَى السَّلْوَانِ قَادِرٌ	وَسِوَايَ فِي الْعِشَاقِ غَادِرٌ
أَشْكُو وَأَشْكُرُ فَعَلَهُ	فَاعَجَبٌ لِمَا لَوْ مِنْهُ شَاكِرٌ
لَا تَنْكُرُوا خَفَقَانِ قَدْ	جِي وَالْحَبِيبُ لَدَيَّ حَاضِرٌ
مَا الْقَلْبُ إِلَّا دَارُهُ	ضُرِبَتْ لَهُ فِيهَا الْبَشَائِرُ
بِالْيَلِ طُلُفٌ يَاشُقُ دُمٌ	إِنِّي عَلَى الْحَالِينِ صَابِرٌ
لِي فِيكَ أَجْرٌ مُجَاهِدٌ	إِنْ صَحَّ أَنَّ اللَّيْلَ كَافِرٌ

والقصيدة في ديوان البهاء زهير ، وهي أيضا في ديوان معاصره ابن الفارض المتصوف المشهور ، وفي رأي أن الالتباس الذي جعل الرواة يظنون أن القصيدة لابن الفارض جاءهم من أنها تحمل فكرة الغيبة والحضور التي يرددها كثيرا ابن الفارض في غزله الرباني ، على نحو ما يلاحظ في البيت الثالث ، وإن اختلف المترعان في الفكرة ، وبالمثل البيت الرابع فقد يشير من طرف خفي كسابقه إلى فكرة الاتحاد بالمحجوب . وفي البيتين : الأول والثاني جناسات ناقصة وفي البيت الأخير تورية بالكفر بمعنى الشرك بالله والمراد السر . على كل حال يلفتنا الالتباس بين شعر البهاء زهير وابن الفارض إلى ما قلناه من أن أصداء من الوجد الصوفي انعكست في شعر البهاء زهير . ويبدو أن انعكاسها بدأ مبكرا ، إذ نراها واضحة في غزل قصيدة يمدح بها مجد الدين اللمطي إذ يقول :

لها خَفَرٌ يَوْمَ اللقاءِ خَفِيرُهَا فما بَالُهَا ضَنَّتْ بما لَا يَضِيرُهَا^(١)
أَعَادَتْهَا أَنْ لَا يُعَادَ مَرِيضُهَا وَسِيرَتْهَا أَنْ لَا يُفَكَّ أَسِيرُهَا
وَمَا أَتَا كَالطَّيْفِ فِيهَا صَبَابَةٌ لَعَلَّ إِذَا نَامَتْ بَلِيلُ أَزْوَرُهَا
مِنَ الْغَيْدِ لَمْ تَوْقَدْ مَعَ اللَّيْلِ نَارُهَا وَلَكِنَّا بَيْنَ الضُّلُوعِ تُشِيرُهَا
يَقَاضَى غَرِيمُ الشَّوْقِ مَنَى حُشَاشَةٍ مَرُوعَةً لَمْ يَبْقَ إِلَّا يَسِيرُهَا

والصور في القطعة دقيقة فَخَرٌ صاحبه أَوْخَجَلُهَا وحيَاؤُهَا يحرسها يوم لقائه ، فلماذا تبخل عليه بما لا يضرها ؟ وهل من عادتها أن لا تعود مريضها ومن سيرتها أن لا تفك قيود أسيرها ؟ . وهو تضرع وتوسل لطيف . ويقول إنه أصبح كالطيف شبحا متضائلا تخيلا . ويتسع به الخيال فيتمنى لو أصبح طيفا حقا وزارها في المنام وتضاعيف الأحلام . وهي صورة طريفة من مبتكرات خياله . ويقول إنها لم توقد نارها ليلا كعادة الناس اكتفاء بإيقادها بين ضلوعه وجوانحه . ويقول إنه لم يبق منه إلا بقية روح مرؤعة من حبا مفرغة . وفي القطعة جناسات وتساوير لا نحس فيها بتكلف ، بل نحس كأنها جوهر الأبيات ومعانيها . ووراء هذه القطعة قطع وقصائد كثيرة تسيل رقة وخفة وعذوبة ، مع مسها للقلب بما يودعها من كلمات تشيع حتى أيامنا في اللغة اليومية الدارجة من مثل قوله :

تَعِيشُ أَنْتِ وَتَبْقَى أَنَا الَّذِي مِتُّ عِشْقًا
 حَاشَاكَ يَانُورَ عَيْنِي تَلَقَى الَّذِي أَنَا أَلْقَى
 وَلَمْ أَجِدْ بَيْنَ مَوْتِي وَبَيْنَ هَجْرِكَ فَرْقًا
 يَا أَنْعَمَ النَّاسِ بِالْأَمْنِ إِلَى مَتَى فِيكَ أَشَقَى
 لَمْ يَبْقَ مِنْي إِلَّا بِقِيَّةٌ لَيْسَ تَبْقَى
 قَدْ كَانَ مَا كَانَ مِنِّي (وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى)

والقطعة تفيض بالسهولة والبساطة والرقّة واللفظ مع جمال الجرس واتساق الكلمات ، ومع ما يداخلها من ألفاظ اللغة اليومية مثل : « مت عشقا » و « يانور عيني » و « قد كان ما كان مني » وأيضا مع ما يداخلها من الاقتباس القرآني في الشطر الأخير .

وكان الشعراء المصريون في زمنه وقبل زمنه يستظهرون بعض كلمات الحياة العاملة أو اليومية ، ولكنه توسع فيها وأكثر منها كثرة مفرطة ، وهي كثرة تجعل غزله يمس أوتار القلوب والأفئدة ، ومن طريف غزله :

مَنْ الْيَوْمَ تَعَارَفْنَا وَنَطَوَى مَا جَرَى مِنَّا
 وَلَا كَانَ وَلَا صَارَ وَلَا قُلْتُمْ وَلَا قُلْنَا
 وَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ مِنْ الْعَنْبِ فَبِالْحَسَنِ
 فَقَدْ قِيلَ لَنَا عَنْكُمْ كَمَا قِيلَ لَكُمْ عَنَّا
 وَمَا أَحْسَنَ أَنْ نَرْجِعَ لِلْوُضَلِ كَمَا كُنَّا

والقطعة كلها من اللغة الدارجة ، وقد عرف كيف يلتقط منها هذه الكلمات والعبارات الفصيحة ، وكأنها لا تفصل من لغتنا اليومية ، بل تفصل من القلوب والأفئدة . والقطعة عتاب ولكنه عتاب مملوء لطفًا وظرفًا وتسامحًا ورقّة ودماثة ، ودائمًا تجري في غزله هذه الرقّة الحلوة التي تشبه ماء النيل العذير الصافي والتي تجعل القلوب تتعلق بغزله من مثل قوله :

قَصُّرُوا مَدَّةَ الْجَفَا طَوَّلَ اللَّهُ عُمْرَكُمْ
 شَرَّفُونِي بِزُورَةٍ شَرَّفَ اللَّهُ قَدْرَكُمْ
 قَدْ صَبَرْتُمْ وَلَيْتَنِي كُنْتُ أُعْطِيتُ صَبْرَكُمْ

لو رأيتم محلكم من فؤادى لسركم
لو وصلتم محبكم ما الذى كان ضرکم

والقطعة خفيفة خفة شديدة ، والدعاءان فى البيتين : الأول والثانى من الأدعية المتداولة على ألسنة المصريين فى لغتهم اليومية ، وإنه ليتضرع لصاحبه مظهرًا لها ما يحتمله من الصبر وجهدها لعلها تشفق عليه وتخلصه من عذاب الهجر والحرام . وهو لا يتخرج من إعلان تذلل فى الحب . بل من إعلان عبادته لمحبوته ، يقول :

سأشكر حبًا زان فيك عبادتى وإن كان فيه ذلة وخشوع
أصلّى وعندى للصّابة رقة فكلّ صلاتى فى هوالك خشوع

فغزله فيها ليس شعرا فحسب ، بل هو أيضا صلاة وتراثل يقدمها لمن شغفت قلبه حبًا ، بل عبادة وخشوع ودين ، يتعبّد لها كما يتعبّد الوثنيون للوثن ، ويأسى لنفسه ولهذا الحب الذى فتن به ، بل الذى عبث به حتى جعله يعبد محبوته ، يقول :

لى حبيبٌ عبّدته وَيَحَ مَنْ يَعْبُدُ الْوَثْنَ

وكانه يريد أن يسترجع نفسه من محراب هذا الحب ، ولكنه لم يسترجعها أبدا ، فقد ظل يُتشدّ تراثل غزله الوجدانى البديع .

وكان البهاء زهير يعرف فى وضوح ما ينشئ من هذا الغزل الرائع ، يدل على ذلك ما رواه الحموى فى خزائنه من حوار^(١) له مع ابن سعيد الأندلسى حين أطلعه على كتاب المغرب ورأى الأندلسيين يكثرّون فى الغزل من أصداف التشبيهات والاستعارات فإنه قال له إن لنا فى الغزل طريقا آخر سماه الطريق الغرامى يقصد هذا الغزل الوجدانى . ثم لقيه مرة أخرى وأنشده : « يابانَ وادى الأجرع » وقال له : أشتى أن تكمل هذا المطلع ففكر ابن سعيد قليلا وأنشد : « سُقِيتَ غَيْثَ الأدمع » فقال البهاء : والله حسن لكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول : « هل مِلْتَ من طربِ معى » . وفى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على إحكام البهاء للغة الغزل الوجدانى ومعانيه فى عصره ، وهو ما جعل معاصريه فى الديار الشرقية على شواطئ القرات وفى دمشق والشام وفى القاهرة ومصر يشغفون بديوانه ويروونه ، ويشهد بذلك ابن خلكان إذ يقول عنه :

« أجازني رواية ديوانه وهو كثير الوجود بأيدي الناس ». وما يدل على ذلك من بعض الوجوه ما جاء في طبعة المستشرق بلمر لديوان البهاء من أنه اعتمد في تحقيقه للديوان على مخطوطة بمكتبة أكسفورد كتبها شرف الدين بن الحلوى الشاعر الموصلى الأصل الدمشقي الدار والمولد . ونصّ ابن خلكان في ترجمة البهاء زهير على أن هذا الشاعر لقيه ومدحه بقصيدة أحسن فيها كل الإحسان ، وطبعا طلب إليه أن يجيزه رواية الديوان فأجازه له . وأنشد ابن تغري بردي لابن الحلوى قصيدة^(١) في نهاية الرقة ، يتضح فيها تأثره بالبهاء وفيها يقول :

هَلالٌ وَلَكِنْ أَفْقُ قَلْبِي مَحَلُّهُ غَزالٌ وَلَكِنْ سَفْحُ عَيْنِي عَقِيقُهُ^(٢)
عَلَى خَدِّهِ جَمْرٌ مِنَ الْحَسَنِ مُضْرَمٌ يُشَبُّ وَلَكِنْ فِي قَوَادِي حَرِيقُهُ

وشاع هذا الغزل الوجداني في الشام وغير الشام ، وبدون ريب لمصر وشعرائها ابن سناء الملك وابن النيه والبهاء زهير فضل شيوعه وذيوعه بعدهم في مصر والبلدان العربية .

ابن^(٣) مطروح

هو جمال الدين يحيى بن عيسى بن مطروح ، ولد بأسبوط سنة ٥٩٢ هـ ونشأ وأقام بقوص دار العلم والأدب والشعر حينذاك ، واختلف إلى ما بها من حلقات العلماء والأدباء ، وفيها تعرّف على البهاء زهير وكان يكبره بنحو عشر سنوات . وأعجب به البهاء ، فاتخذاه رفيقا وصديقا ، واستمع إلى أشعاره وملكته الشعرية فتفتح فكان يشجعه . ويبدو أنه حين عُيِّن حاكم قوص مجد الدين اللمطي البهاء كاتبه ، كما مرّ بنا في ترجمته ، سعى لديه ليسند عملا إلى صديقه ابن مطروح ، يدل على ذلك ما في ديوانه من مدائح موجهة لمجد الدين ، وأكبر الظن أنه حين سخط مجد الدين على البهاء وأعفاه من منصبه سخط بالمثل على ابن مطروح وأعفاه من عمله . وحاول أن يستلّ من نفسه سخطه عليه ، كما تشهد بذلك قصيدة يستعطفه بها استلها بقوله :

لَكَ اللَّهُ إِنْ الْعَفْوُ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَمِثْلُكَ أَوْلَى مِثْلِي الصَّفْحَ وَالْعَفْوَ

(١) النجوم الزاهرة ٦٠/٧ . ٢٨٥/٦ ورمّة الجتان ١١٩/٤ وشذرات الذهب ٢٤٧/٥ .

(٢) العقيق : اسم وديان ومواقع متعددة في المدينة ونجد . والنجوم الزاهرة ٣٧٠/٦ ، ٢٧/٧ وحسن المحاضرة ٥٦٧/١ . وديوانه طبع قديما في القسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ وهو في حاجة إلى نشرة محققة .

(٣) انظر في ترجمة ابن مطروح وأشعاره ابن خلكان

ولم يجد الصديقان بدءاً من ترك قوص والاتجاه إلى القاهرة ، ومُرت بنا مدحة رائعة للبهاء مدح بها السلطان الكامل عقب انتصاره الحاسم على الصليبيين سنة ٦١٨ وبالمثل نجد ابن مطروح يمدح الكامل منوها بهذا الانتصار بمثل قوله :

يَانَا صَرَ الدِّينَ الحَنِيفِ بِسِيفِهِ وَمِثْلُ أَهْلِ الشُّرْكِ وَالطَّغْيَانِ

وقد يدل ذلك على هجرة الصديقين معا إلى القاهرة في تلك السنة إن لم يكن قبلها ، وكما اتجه البهاء إلى أبناء الملك الكامل يمدحهم وفي مقدمتهم الملك المسعود صاحب اليمن حين قدم منها إلى القاهرة سنة ٦٢١ كذلك مدحه ابن مطروح ، ومدح أيضا عمه الأشرف موسى ممدوح ابن النبيه ، وله مدائح مختلفة في أمراء بني أيوب . ويقول ابن خلكان في ترجمته إنه تنقلت به الأحوال في الخدم والولايات ، ولا نعرف بالضبط ما هي هذه الخدم والولايات التي عمل بها . ومُررنا أن البهاء زهير وثق صلته بالملك الصالح نجم الدين أيوب ، ونرى ابن مطروح يلتحق بخدمته ، ولا ندرى أى الصديقين قدم صاحبه إليه ، ويذكر ابن خلكان أن ابن مطروح كان في خدمة الملك الصالح حين أصبح نائبا لأبيه الملك الكامل على البلاد الشرقية : الرُّهَا والرَّقَّة وغيرهما في سنة ٦٢٩ وظل معه هناك حتى إذا استولى الملك الصالح على مقاليد الأمور بالقاهرة سنة ٦٣٧ استبقاه في دمشق فترة ثم استقدمه إليه سنة ٦٣٩ وعيَّنه ناظرا في الخزانة ، ولم يزل ينعم بقره وحظوته منه حتى سنة ٦٤٣ إذ عيَّنه وزيرا له في دمشق يدير شئونها ، فارتفعت منزلته . وقدم عليه الملك الصالح في سنة ٦٤٦ ولم تعجبه بعض تصرفاته فعزله من منصبه وسَّيره مع جيش للاستيلاء على حمص . وسمع بحملة لويس التاسع ومن انضموا إليه من حملة الصليب وأنهم اجتمعوا بجزيرة قبرس لقصد مصر ، فسحب جيشه المحاصر لحمص وعاد به إلى مصر في شهر المحرم سنة ٦٤٧ وخيَّم به على المنصورة وابن مطروح في خدمته وهو متغير عليه متكره إلى أن توفي في شعبان سنة ٦٤٧ وقاد ابنه توران شاه المعركة ، ودمر الحملة الصليبية ، وأسّر لويس التاسع وسُجن بدار ابن لقمان بالمنصورة والطواشي صبيح يحرسه إلى أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار وعاد مهزوما مدحورا مع فلول جيشه الصليبي إلى البحر المتوسط وما وراءه . وأغلب الظن أن ابن مطروح لم يحضر المعركة فقد عاد بعد وفاة الملك الصالح إلى داره بالفسطاط وانقطع إليها ، وشاع أن لويس التاسع يعدُّ حملة ثانية لمصر فكتب إليه قصيدته اليدبية :

قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جِئْتَهُ . مَقَالَ صِلْتِي مِنْ قَوْلِي نَصِيحْ

آجَرَكَ اللهُ عَلَى مَا جَرَى مِنْ قَتْلِ عِبَادِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
 أَتَيْتَ مَصْرًا تَبْتَغِي مُلْكَهَا نَحْسِبُ أَنْ الزُّمَرِ - يَاطْبُلُ - رِيحُ
 فَسَاقَكَ الْحَيْنُ إِلَى أَذْهَمِ ضَاقَ بِهِ عَنْ نَظَرِكَ الْقَسِيحِ^(١)
 وَكُلُّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعَتْهُمْ بِحَسَنِ تَدْبِيرِكَ بَطْنُ الضَّرِيحِ
 خَمْسُونَ أَلْفًا لَا تَرَى مِنْهُمْ إِلَّا قَتِيلًا أَوْ أُسِيرًا جَرِيحُ
 وَفَقَّكَ اللهُ لِأَمْسَالِهَا لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَسْتَرِيحُ
 وَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَضْمَرُوا عَوْدَةً لِأَخِذْ ثَائِرٍ أَوْ لِقَصْدٍ صَحِيحُ
 دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا وَالْقَيْدُ بَاقٍ وَالطَّوَاشِي صَبِيحُ

ويعلق ابن تغرى بردى على القصيدة بقوله : « لَهِ دَرُّهُ ! فِيمَا أَجَابَ عَنْ الْمُسْلِمِينَ مَعَ اللَّطْفِ وَالبَلَاغَةِ وَحَسَنِ التَّرْكِيبِ ». والقصيدة تمتلئ بالسخرية والتهكم ، فقد ظن لويس ظنا كاذبا أن مصر قرية النال فإذا من دونها حُرُ رِقَابِ الكثرة من جيشه وأسر البقية في الأغلال . ويسخر منه سخرية قاتلة حين يطلب إليه أن يعيد أمثال تلك الغزوة المشتومة حتى يستريح منهم عيسى وتُخَزَّرَ رِقَابُهُمْ جميعا . ويسخر من البابا ودعوته لهم أن يتجهوا بحملاتهم الصليبية الحاسرة إلى الشرق ، ويقول له ساخرا متهمكا : لاتزال دار ابن لقمان التي سُجِنَتْ فيها على حالها ، ولايزاد القيد أو الغلُ باقيا ولا يزال حارسك صبيح في انتظارك . كلمات مسمومة وكأنها سَفُودٌ يَشْوِيهِ عليه ، مع لطف التعبير ودقته ورهافته ومع الوخر الأليم .

وظل ابن مطروح ملازما داره إلى أن لَبَّى نداء ربه في مستهل شعبان سنة ٦٥٠ ونراه في الستين الأخيرتين من حياته طوال مقامه بمنزله يكثر من الابتهال لربه أن يغفر له ، حتى إذا توفى وَجَدَ البَيْتَانِ التَّالِيَانِ فِي رَقْعَةٍ تَحْتَ رَأْسِهِ :

أَتَجَزَّعُ لِلْمَوْتِ هَذَا الْجَزَعُ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ فِيهَا الطَّمَعُ
 وَلَوْ بِذُنُوبِ الْوَرَى جِثَّةُ فَرَحْمَتُهُ كُلُّ شَيْءٍ تَسَعُ

ويقول ابن خلكان : « كانت خلاله حميدة جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضية ، وكانت بيني وبينه مودة أكيدة . وله ديوان أنشأني أكثره » . ويبدو أن ديوانه المطبوع لا يحتفظ

بجميع أشعاره ، ومن أكبر الأدلة على ذلك أننا لا نجد فيه شيئا من مدائح في الملك الصالح إلا مقطوعة ذُكر فيها عرضا مع أنه ظل في خدمته نحو عشرين سنة ، بينما نجد في الديوان غير ملك أو أمير أيوبى ، وربما كان حذف مدائح من الديوان من صنيع الشاعر نفسه ، وكأنما عَزَّ عليه أن يُغزل من منصبه ، فانتقم لنفسه بحذف تلك المدائح .

ومرَّ بنا آنفا أنه نشأت بينه وبين البهاء زهير مودة صافية منذ أيام صباه وشبابه في قوص ، حتى كانا كالأخوين ، وامتدت بينهما هذه المودة الحلوة طوال حياتهما ، وجنَّيا منها واقتطفا أزهارا أو ثمارا هنيئة ، كما يوضح ذلك ديواناهما وما فيها من مراسلات شعرية بينهما . وهو مثل صديقه يكثر من شعر الغزل الوجداني غير أنه كان يميل أكثر منه إلى الرمز عن وجده باتخاذ غالبا البدويات رمزا لمحبوباته ، وكأنه يريد أن يقرن وجده بوجود مجنون ليلي وأضرابه من شعراء نجد ، حيث يبتدئ في وجده وجه شذا الحنان والشوق الذى يكتظ به من قديم الغزل العذرى وما يُطوى فيه من حرارة ولوعة ، على شاكلة قوله :

هي رامةٌ فخذوا يمينَ الوادى	وذروا السيوف تَقَرُّ في الأغادِ ^(١)
وحذارٍ من لحظاتٍ أعينَ عينها	فلكم صَرَغْنَ بها من الآسادِ ^(٢)
مَنْ كان منكم واثقا بفؤادو	فهناك ماأنا واثقٌ بفؤادى
ياصاحبى ولى بجِرعاء الحمى	قلبٌ أسيرٌ ماله من فادى ^(٣)
سلبته منى يوم بانوا مقلَّة	مكحولةٌ أجفانُها بسواد
وبحى من أنا فى هواه مَيَّتْ	عَيْنٌ على العُشاق بالمرصاد
كيف السيلُ إلى وصالٍ محجَّب	ما بين يبيضُ ظُبا وسُرَّ صِعاد ^(٤)
حرسوا مُهَفِّهَفَ قَدَّوْ بمثَقَفو	فتشابه الميَّاس بالمَيَّادِ ^(٥)

وواضح أنه رمز لحبه والتباعد فيه برامة في نجد وظبائها ساحرات الأعين اللاتي يصرعن بهن الأسد ، وقد خلف قلبه أسيرا هناك ولا من يفديه سلبته منه عين فاتنة مكحولة أجفانها بسواد

صعدة : القناتة أو الرمح .

(١) رامة : موضع بالبادية .

(٥) الميَّاس : المتبختر . الميَّاد : المتأبل ، والمتصف :

(٢) العين : بقر الوحش .

الرمح .

(٣) جرعاء الحمى : أرضه ذات الحزونة

(٤) الظبي : جمع ظبة : حدالسيف . الصعاد : جمع

آسر ، وأحد لا يستطيع أن يصل أوليماً بتلك الديار : ديار رامة والحبيبة ، فمن دونها سيوف
ورماح مسلولة مشرعة ، ويعجب أن يُحرَسَ قُدُّها الرشيقي المتبختر المختال برمح مشبه لها مياد
أواميَّال . ويقول :

سَفَرْتُ وجاءتْ في الغَلائِلِ تَنبُئِي فَأَرْتُكَ حَظًّا المجتَلَى والمجتَنِي
وَرَنْتُ فما تُغْنِي الثَّامُ وَالرَّقَى وأَيْكَ عن لَحَظَاتِ تلك الأَعْيُنِ
بدويَّةٌ كم دونها من ضاربٍ بالسيف مرهوبٍ السُّطَّا لم يُوْمَنِ
لا يَخْدَعُكَ لَحْظَ طَرْفٍ فَاتِرٍ أَبَدًا ولا تَأْمَنُ لِعَظْفَةٍ لَّيْنِ
أَلْبَسْتَنِي يَاهَا جَرَى ثوبَ الضَّنَا وأَخَذْتَنِي يَا تَارِكِي من مَأْمَنِي

لقد رفعت عن وجهها نقابها فشغفت قلبه حبا وافتتانا ، ومدَّت بصرها إليه فوق في حبال
أعينها مسحورا ولم تعد تغنيه الثام والرقى ، وإنما لدوية أعراية تحميها السيوف المرفهة . وينصح
صاحبه أن لا تخدعه العيون الناعسة ولا القدود اللينة عايسبيان له من آلام وأوصاب دون أن
يدوق شيئا من وصال ، ويشكو لصاحته البدوية ضناه وتباريح حبه ، يقول :

خَلَدُوا جَذْرَكُم من طَرْفِهَا فَهَوَّ سَاهِرٌ وليس بَنَاجِرُ من دَهْتُهُ المَحَاجِرُ
فَإِنَّ العِيونَ السُودَ وَهِيَ فَوَاتِرُ تَقْدُّ السِيفِ الْبَيْضَ وَهِيَ بَوَاتِرُ
وَلَا تُخَدَّعُوا من رَقَّةٍ في كَلَامِهَا فَإِنَّ الحَمِيَّا لِلْعَقُولِ تُخَايِرُ
من القَاصِرَاتِ الطَّرْفَ غَارَتْ لِحْسِنُهَا ضَرَّائِرُهَا وَالنِّيرَاتُ الضَّرَّائِرُ
إِذَا هَا اشْتَهَى الخَلْخَالُ أَخْبَارَ قُرْطِهَا فَيَاطِبُ مَا تُمْلِي عَلَيْهِ الضَّفَائِرُ

وهو يحذر من طَرْفِ صاحبه ، فالسهم دائمة مصوبة منه ، ومن تصبه محاجرها تصبى قلبه ،
وباللعجب فإن العيون الفاترة الناعسة تقد السيوف الباترة القاطعة ، ويحذر من رقة كلامها المعسول
فهو كالخمر يذهب بالعقول . ويقول إنها عفيفة مصونة ، تغار من حسنها الفاتن قريبتها
الحسنات والكواكب النيرات . والصورة في البيت الأخير رائعة ، فضفائر شعرها تطول حتى
تلمس خلعها وكأنما تحدته بأخبار قرطها ، ومن غزله في بواكير حياته :

خَدَّ تَوَقَّدَ إِذ تَرَقَّرَ مَاؤُهُ لَهْفِي عَلَى التَّوَقُّدِ المَتَرَقِّ
حَقِّ الحَلِيِّ لِحُسْنِهَا مَتَوَسَّسٌ فَاعْجَبُ لِحَسَنِ اللِّجَادِ مَنْطَقِي

ياشمسُ قلبي في هوائك عطاردُ لولا تعرضه لها لم يُحزَقِ
لم انس ما قالتْ وقد لمستْ يدي ماذا لقينا منه أو ماذا لقي
وأقول ياأختَ الغزالِ ملاحَةً فتقول لا عاش الغزالُ ولا بقي

يقول إن خد صاحبه المتوهج حمرة كأنه نار موقدة ، وماء جماله ونضرتَه يتلألأ فيه ويترقق ،
ما يملؤه فتنة به ولهفة عليه . ويقول إن حسننا يُنطق حتى الجاد ، وما وسوسة حليها إلا إعجاب منه
بها ، وما هو قلبه قد احترق من تعرضه لشمس حسننا كما احترق عطارد أقرب الكواكب السيارة
للشمس من تعرضه لنورها الحار المشتعل ، ويذكر رقة قلب صاحبه وأنها حين لقيته وسلمتْ
أظهرت له عطفًا وشفقة ، حتى إذا شَبَّها بالغزال حسنا وملاحه قالت له مدلة : لا عاش الغزال
ولابقي ، فهي أكثر منه فتنة وسحرًا وجمالًا . ويقول :

هزُّوا القدودَ وأرهفوا سُرَّ القنا - واستبدلوا بدلَ السيوفِ الأعينا
وتقدَّموا للعاشقين فكلُّهم أخذ الأمانَ لنفسه إلا أنا
لاخيرَ في جَفَنِ إذا لم يكنجلَّ أرقاً ولا جسمٍ بجافاهُ الضنا
لما انتفى في حِلَّةٍ من سُندسٍ قالتْ غصونُ البانِ ما أبقي لنا
شَبَّهتُه بالبدر قال : ظلمتني - يا عاشقي والله - ظلما بينا

وهو يتصور هؤلاء الفاتنات كأنهن يقدن معركة رماحها قدودهن وسيوفها عيونهن وكل من
حوله يطلب منهن الأمان إلا هو ، فقد تعلق بإحداهن ، وهو لا يرى للحياة قيمة بدون الحب
والسهاد فيه وضنا الجسم والنحول . ويرى صاحبه في حلة سندسية خضراء ، فيتصور كأن غصون
شجر البان الذي طالما تغنى به المحبون تقول : ما أبقت لنا من الحسن والنضرة والجمال ، ويشبها
بالبدر فتقول له مدلة كصاحبه السابقة : ظلمتني ظلماً بيناً فهي أكثر منه جمالا وحسنا وروعة . ومن
أبياته البديعة التي تتداولها كتب الأدب قوله في بعض غزله .

لبسنا ثيابَ العناقِ مزررةً بالقُبْلِ

ولعل في كل ما قدمت ما يصور غزل ابن مطروح الوجداني وما أشاع فيه من الرقة واللفظ
واللمانة والظرف وعذوبة الروح وخفة الظل .

برهان^(١) الدين القيراطي

هو إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن عسكر ، ولد لأبيه سنة ٧٢٦ . والقيراطي نسبة إلى قيراط بلدة بمحافظة الشرقية سميت فيما بعد باسم كفر النحال وُضعت إلى مساكن مدينة الزقازيق ، كان أبوه شيخا جليلا ولى القضاء بالمنوفية ودمياط وأسيوط ، ودرس في مدرسة كانت تجاور الإمام الشافعي وبمشهد السيدة نفيسة والجامع الأزهر توفى سنة ٧٤٠ . ونشأ برهان الدين بالقاهرة وحفظ القرآن الكريم واختلف إلى حلقات العلماء إلى أن برع في الفقه وعلمى الأصول والعربية وأكب على كتب الحديث وأخذها عن أئمتها ، ودرس وحديث بالقاهرة . واستيقظت فيه مبكرة موهبته الشعرية ، فكان ينظم المدايح ويدبجها في السلطان حسن وغيره ، وسلك في شعره طريقة ابن نباتة ، وتلمذ له ورأسه . وله في وصف شعره ونثره تقرير بديع احتفظ بفقرات منه الحموى في باب الاقتباس بخزائنه . ويقول ابن تغرى بردى في ترجمته بالمنهل الصافي : « هو شاعر عصره بعد الشيخ جمال الدين بن نباتة وأقرب الناس إليه من دون تلامذته ومعاصريه من شعراء عصره ، مع علمي بمن عاصره من الشعراء ولا حاجة لنا إلى ذكرهم فإنه أرق وأحلى وأرشق » . ويقول ابن حجر : « كان له اختصاص بالشيخ السبكي وأولاده وله فيهم مدائح ومراثي وبينهم مراسلات » ويقول ابن العماد في الشذرات : « له في تاج الدين السبكي غرر المدائح » واحتفظ تاج الدين في كتابه « طبقات الشافعية » بمراسلات بينه وبين القيراطي استغرقت نحو ثمانين صحيفة ، وأنشد مرثية له في أبيه مطلعها :

أَمْسَى ضَرِيحُكَ مَوْطِنَ الْغَفْرَانِ وَمَحَلٌّ وَفْدٍ مِلَاتُكَ الرَّحْمَنِ

ورأى أن يجاور بمكة مثل كثيرين من علماء عصره وقبل عصره ، فرحل إليها ، وأخذ عنه جماعة من علمائها والقادمين عليها ورووا عنه ديوانه . ويذكر ابن حجر بعض تلاميذه من جلة المحدثين في القاهرة أمثال شيخ الحفاظ أبي الفضل العراقي والشيخ بدر الدين البشتكي ، وفي مكة أمثال جمال الدين بن ظهيرة وتقي الدين الفاسي المذكور في مصادره ، وقد كتب عنه بعض شعره

(١) انظر في ترجمة برهان الدين وأشعاره المنهل الصافي

لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب المصرية)

١/٧٠ والنجوم الزاهرة ١١/١٩٦ وطبقات الشافعية للسبكي

٩/٣١٤-٣٩٨ ١٠/٣٣١ والدرر الكامنة لابن حجر

٢/٣٢ وشذرات الذهب لابن العماد ٦/٢٧٠ والعقد الثمين

في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين القاسمي (طبع القاهرة)

٣/٢١٧ . وله ديوان أسماء مطلع النيرين طبع بمصر سنة

١٢٩٦ هـ ومنه عدة مخطوطات بدار الكتب المصرية .

وأجاز له روايته ، ومازال طلاب علمه وشعره يعكفون على حلقاته بمكة حتى توفي بها سنة ٧٨١ .
ولبرهان الدين غزل وجداني كثير ، أوكما يسميه البهاء زهير غزل على الطريقة الغرامية ، غزل
يقدمه صاحبه لمحبوته مؤملا في الوصال ، ودائما لا وصال بل دموع وأشواق ووصف للصباية
والغرام والوجد الذي لا تنطفئ ناره في قلوب أصحاب هذا الغزل ، مع مشاعر غامرة من اللطف
والرقة ، ومع الألفاظ والأساليب الرشيقة من مثل قوله :

بأبي لحظ غزالٍ قائلٍ في الفلوات^(١)
أخذتُ بابلُ عنه بعضَ تلك النفثاتِ
حسناتُ الخدِّ منه قد أطالتِ حَسراتي
أعشقتُ الشاماتِ منه وَهَى أسبابُ ممانِي
إنَّ للموتِ بأقدا حِ جفوني سكراتِ
قلت قد مِتُّ غراما قال لي مُتْ بجياني

والأبيات تطاير عن الفم بخفة ، وهو يشكو من لحظ غزال بدوى يقضى أوقات قيلولته في
الفلوات ، غزال ينث في كل ما حوله السحر ، بفتنته وجمال وخطوده التي ملأت قلب الشيخ
حسرات ، لأنه يتمنى الدنو منها ليتعلّى بحسنها وما فيها من شامات تزيدها حسنا وجمالا ، وإنه
لينوب - أوكما يقول - ليموت وجدا والتياعا ، وتلك سكرات الموت تملأ أقداح جفونها ،
ويتضرع إليها قائلا إنه مات غراما ، فتضحك في خبث مدلة عليه قائلة له : « مت بجياني » ومن
نفس هذا المعين المتدفق السلس يقول :

غرامى فيك ياقرى غريمى وذكرك في دُجى ليلي نديمى
وملئنى الحميمُ وصدَّ عني ومالى غير دمعى من حَميمِ
وكم سأل العواذل عن حديثي فقلت لهم على العهد القديمِ
وعمَّ يسائلون ولى دموعُ تحدّثهم عن التَّبا العَظيمِ
بدت في خدّها شاماتُ مسكٍ كحظي أو كليلي أو هومى
إذا نيرانُ خَدَيْهَا تَبَدَّتْ رَأَيْتُ بَيْنَ جَنَاتِ التَّعِيمِ
ومن شغفى بِعُصْنِ القَدِّ منها أَغارَ على الثُّصُونِ من النسيمِ

(١) قاتل : من القبلولة وهى وسط النهار ، وفعله قال

وكأنى بصاحبته في الأبيات هي نفس صاحبته الأولى ، ويقول إن غرامها غريمه وذكرها
نديمه طوال الليل ، والتورية في البيت الثاني بديعة فقدمه الحميم والصديق في حب صاحبته ، ولم يبق
له إلا مدحه الحميم الخارير افقه . ويسيل البيت الثالث صفاء وعذوبة مع مافيه من الجناس وكذلك
البيت الرابع وما به من اقتباس عن سورة « النبا » وتعجب أن يتساءلوا ودموعه تجرى على
خدودها ، ويقول إن شامت خدودها الضاربات إلى السواد كأنها نقط مسك أو كأنها مقطعة من
حظه معها أو من ليله أو من هوم حبها المشتعل في حنايا صدره . ويعجب أن يجمع خداه
بجمرتها المتوهجة بين نيران الجحيم حرارة وجئات النعيم وورودها الفاتنة . ويعلن غيرته عليها حتى
ليغار من النسيم إن هبَّ على ما يشبه غصنها من غصون الرياض النَّاضرة . ويقول :

يا مَنْ هَجَرْتُ عَلَى هَوَاهُمْ عَاذِلِي	أُبْجِلُ فِي شَرْعِ الْهَوَى أَنْ أَهْجِرَا
طَلَعْتُ بِدَوْرُ الثَّمِّ مِنْ أَرْزَارِكُمْ	فَعَدَا اصْطِبَارُ الصَّبِّ مُتَقَصِّمَ الْعُرَا
مِنْ كُلِّ هَيْفَاءِ الْقَوَامِ كَأَنَّهَا	غُضْنُ يَحْرُكُهُ النَّسِيمُ إِذَا سَرَى
ذُكِرَتْ فَصَغَّرَهَا الْعَذُولُ جِهَالَةً	حَتَّى بَدَتْ لِلنَّاضِرِينَ فَكَبْرَا
وَجَهَلْتُ مَعْنَى الْحَسَنِ حَتَّى أَقْبَلْتُ	فَرَأَيْتُهُ فِيهَا يَلُوحُ مَصُورَا
لَمَّا دَرْتُ أَنِّي الْكَلِيمُ مِنَ الْهَوَى	جَعَلْتُ جَوَابِي فِي الْحَبَةِ لَنْ تَرَى ^(١)
يَا مَنْ إِذَا مَا مَرَّ حُلُوْ حَدِيثُهَا	أَغْنَاكَ عَنْ مَرِّ الْعَتِيقِ وَأُسْكِرَا ^(٢)
أَرْخَضْتُ يَوْمَ الْيَنِّ سِعَرَ مَدَامَعِي	وَتَرَكْتُ قَلْبِي بِالْغَرَامِ مَسْعُرَا ^(٣)

وهو يتضرع إلى صاحبته أن لا تذيقه ألم الهجران وأن تنقذه منه ، فقد نفذ صبره إذ رآها مع
صواحبها الفاتنات وهن يمسْنَ مَيْسَ الغصون حين يداعبها النسيم ، ويقول إن العذول كان يحاول
الغض من جالها تسرية عن نفسه فلما رآها بهت وصاح . الله أكبر : أما هو فيرى فيها كل معاني
الفتنة مصورة مغرية . ولما علمت مقدار وجده المبرح بها لم يأخذها عليه إشقاق أو رحمة ، بل
مضت تُدِلُّ عليه ، وتقول له : لن تراني . ويعود إلى نداءها والتضرع إليها مصورا روعة حديثها
وحلاوته المسكرة ، ويقول لها : لقد أرخصت مدامعي وأسعرت قلبي أو أشعلته نارا موقدة . وفي
البيتين الأخيرين طباق وجناس مندمجان في هذا الأسلوب السهل السائغ ، ويقول :

(٣) في مسر تورية لأنها إما من السعرو وهو المعنى المتبادر
غير المراد ، وإما من السعير أى الجحيم وهو المعنى المراد .

(١) الكلم : الجريح . لن ترى : لن تراني .

(٢) يريد بالعتيق الحمر العققة .

علموا بأنّي لا أحولُ فعدّبوا ودَرّوا بأنّي عاشقٌ فتغصّبوا^(١)
 قتلوا المتّيم في الهوى ونظلموا وجتّوا عليه بصدّهم وتعتّبوا
 ومهفّف لولا حلاوة وجهه ما كان مرّ عذابه يُستعذبُ
 إن كان يرضى أن أموت صباةً فجميعُ ما يرضاه عندي طيّبُ
 يا باخلاّ وله أجودُ بمهجتي رفقًا على صَبِّ عليك يعذبُ
 إن ملّت فالأغصانُ يُعهدُ مِثلها أو غِيتَ فالأقمار قد تنغيّبُ

وهو يقول إن صاحبه عرفت أنه لا يستطيع حولاّ عنها فتادت في تعذيبه ، ولم ينفعه عندها عشقه . فقد أظهرت له سخطا وغبضا ، ومع أنها فككت بحبها تشتكى منه ظلما وجورا . وماتزال تتجنّى عليه ، ويقول إن جمال وجهها هو الذي جلب له هذا العذاب المرير ، وإنه ليستعذبه إرضاء لها . حتى ليطيب له الموت في سبيلها . ويقارن بينه وبينها ، فهو يجود لها بروحه ، وهي شحيحة شحا شديدا ، لا تجود له حتى بنظرة . ويعلل نفسه قائلا : إن مالت عنه فذلك طبيعي ، لأنها غصن رشيق ، وطبيعة الأغصان أن تميل مع الرياح ، وكذلك إن وعدته وغابت فطبيعة الأقمار أن تنغيّب عن الآفاق .

وكان القيراطي يكثر من التوريات ، واختار له ابن حجة الحموى منها فصلا^(٢) طريفا أودعه خزانته ، من مثل قوله :

تنفّس الصبحُ فجاءتْ لنا من نحوه الأنفاسُ مِسْكِيه
 وأطربتْ في العود قُمْرِيه وكيف لا تُطربُ عُودِيه

وعودِيه لها معنيان : القمرية التي تطرب على عود الشجر ، والمغنية الضاربة على العود ، والتورية واضحة . ولعل فيما سبق ما يوضح الغزل الوجداني أو الغرامي عند القيراطي ، وكان - كما أسلفنا - شيخا من شيوخ الحديث النبوي في عصره ، وكان طلابه يختلفون إليه في أخذه عنه بالقاهرة ومكة . ولا ريب في أن إسهام مثله في هذا الغزل يدلّ دلالة قاطعة على أن موجته بمصر في هذا العصر كانت حادة وأنها عمت حتى شيوخ الحديث وحفاظه من أمثال القيراطي . ووراءه كثيرون من الشيوخ الفقهاء والمحدثين المصريين خلفوا دواوين تحمل سيولا من هذا الغزل الوجداني الرقيق أمثال ابن دقيق العيد وابن الصائغ الحنفي وابن حجر

(١) أحول : أنحول .

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ٣٨١ .

نور الدين^(١) على المُسَلَّى

من علماء مصر وفضلائها وشعرائها في القرن العاشر الهجري توفي سنة ٩٩٤ للهجرة وكان فقيها شافعيًا تلمذ لشيوخ الأزهر ، وأظهر براعة في فنه ، وعكف على التأليف والتدريس ، وفيه يقول الشهاب الخفاجي : « نور حدة الزمان ونور (زهر) حديقة الحسن والإحسان وكحل عيون الفضلاء والأعيان » وعاش طويلا ، وتعلق بأخرة بالسادة البكرية ، فقابلته الدهر - كما يقول الشهاب الخفاجي - بوجه طليق . ويبدو أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة ، فقد غطى اشتهاه بشعره على شهرته بالعلم والفقه والفضل ، وغلب عليه الغزل من مثل قوله :

سَقَى الحِمَى ولياليه التي سَكُفَتْ من أدمعى ومن الوَسْمَى هَتَانُ^(٢)
لى فى الديار سقاها المزن صَيِّهُ غزالُ حُسْنٍ بديع الخلق قَتَانُ^(٣)
يَارَبَّ الحسَن قد بالغتْ فى تلى أما لهجركِ يالْمَيَاءُ هجرانُ^(٤)
هلا نظرتِ إلى مُضْنَاكِ راحمةً فكان يشفع منك الحسنَ إِحْسَانُ

وهو لا يمل الدعاء بأن يُسَقَى الحمى وليالى حبه فيه أمطار الربيع ودموعه الهاطلة أبداً فى الديار غزال سحره وخلب لبه . ويهتف بسرب الحسن أن يلتفت إليه وبصاحبته لمياء أن تصله بعد طول الهجر والعذاب ، حتى ولو بنظرة عطف وإشفاق على مضناها الذى طال عناؤه وشقاؤه وحرمانه . ويقول :

كَأَنَّ الذى أهْوَى على نفسه جَنَى فال على تلك المحاسن بالْفَتَكِ
فأغرق خَدَّيه بماءِ جماله وأوقع فى الظَّلْماءِ ناظرَه التُّركى
وهاجَفْتُهُ يبكى عليه من الفُتَا وها خَصْرُهُ من ثِقَلِ أُرْدافه يُشْكى

وهو يجعل المحبوب التركي جانباً على نفسه ، فقد أغرق خديه فى ماء جماله أو بعبارة أخرى فى رونق حسنه ، وكأنما كحل ناظره الأسود بالظلام الداجى فلمع بريقه ، ويتخيل كأنما جفنه يبكى

(٣) المزن : السحاب . صَيِّهُ : مطره .

(٤) الربوب : القطيع من الظباء أو البقر الوحش .
والاستعارة واضحة .

(١) انظر فى نور الدين العليل وترجمته ربحانة الألبا

(تحقيق عبدالفتاح الحلوى) ١٩٧/٢ وما بعدها وشنرات

الذهب ٤٣٤/٨

(٢) الوسمى : مطر الربيع . هتان : هطال .

على ضنائه وكأنما خصره يشكو من ثقل أردافه ، وقد استعمل يشكى مثل العامية بدلا من يشكو الفصيحة ، ويقول في إحدى الجوارى .

دَبَّتْ لَهُ ذُؤَابَةٌ كَحَبِيَّةٍ مِنْ خَلْفِهِ
تَحْمِي ضَعِيفَ خَصْرِهِ مِنْ خَارِجِي رِذْفِهِ

وهو يشبه الضفيرة بحية وكأنها تحمي خصره من ثقل ردفه ، وقد عبر عنه بأنه من الخوارج مبالغة ، ويقول :

كُلُّ فِعَالِ الْحَبِّ مَحْمُودَةٌ وَإِنْ تَجَافَى وَتَجَنَّى وَتَاه
فَوَضَّلَهُ قَطَعُ لَدَاءِ الْأَسَى وَهَجَرَهُ قَطَعُ لِقَوْلِ الْوِشَاءِ

فهو يرضى من محبوبته حتى هجرها ليقطع ألسنة الوشاة ، وهو جانب فيه من النظرف والركة ورهافة الشعور مما يمتاز به أهل القاهرة ، وله قصيدة بديعة في دولا ب (ساقية) روض صورته فيها ينوح ويئن دائما لفراقه روضه إذ كان شجرة ضخمة في إحدى الرياض قطع أوصالها غبي ودق عظمها في ضلوعها ، فهي ماتني تبكى على عهدا بالرياض ، وماتني عيونها جارية بالدموع . وفي الحق أنه كان شاعرا بارعا ، ومر بنا أنه يكون مع تلميذه يحيى الأصيلي وتلميذ يحيى الشاعر يوسف المغربي مدرسة في الغزل زمن العثمانيين كانت تمتاز بدقة الحس ورهافة الشعور .

٢

شعراء الفخر والمجاء

الفخر والمجاء غرضان قديمان من أغراض الشعر العربي ، فنذ الجاهلية يتغنى الشعراء بمفاخرهم الذاتية ومفاخر قبائلهم وأقوامهم ، وبالمثل يتغنون بأهـاج فردية تتصل بفرد بعينه ، وأخرى جماعية تتصل بالقبائل والأقوام ومثالبهم . ولا ريب في أن وتر الفخر الذي شدّه الشعراء إلى قيثاراتهم كان وترا خصبا ، إذ وقع الشعراء عليه كثيرا من الألحان الخلقية الرفيعة ، مما يتصل بالمرورة والكرم والوفاء والكرامة وغير ذلك من الفضائل الحميدة ، كما وقعوا عليه كثيرا من الألحان الحماسية التي تصور بسالتهم الحرية وما أذاقوه أعداءهم من الهزائم الساحقة . وظلت هاتان المجموعتان من الألحان طوال الحقب التالية ، وظل العرب في كل مكان يردّدونها صحائف تربية

مثالية وأناشيد حرية حماسية . وشعراء مصر منذ نشط فيها الشعر يشاركون في المجموعتين ، يشارك فيها الأمراء وأبناء الشعب ، من ذلك قول العباس بن أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية^(١) :

لله دَرَى إِذْ أَعْدُو عَلَى فَرْسِي إِلَى الْهِيَاجِ وَنَارُ الْحَرْبِ تَسْتَعْرِ
وَفِي يَدِي صَارْمٌ أَفْرِى الرُّعُوسَ بِهِ فِي جَدِّهِ الْمَوْتُ لَا يُبْقِي وَلَا يَذَرُ

والبيتان من قصيدة حماسية ملتهبة ، ومعروف أنه أخطأ في هذه الحماسة وما اقترن بها من شجاعة ، إذ وجَّهها إلى أبيه ثائرا عليه . وأخفقت ثورته . وينزل مصر في أيام كافور الإخشيدي المتنبئ ، وتستدير حوله ندوة كبيرة تروى شعره وتتدارسه وكلُّ ما فيه من فخر مضطرم وحماسة ملتهبة . وتستقبل مصر الدولة الفاطمية ويدخلها المعز الفاطمي ، ومعه ابنه الشاعر النابغة تميم ، وله فخر كثير ، وسنفرده له ترجمة عما قليل ، ونلتقي بعده بولي الدولة بن خيران صاحب ديوان الإنشاء بمصر في عهد الظاهر والمستنصر المتوفى سنة ٤٣١ ونراه يبدئ ويعيد في الفخر بشعره وكتاباتاته من مثل قوله^(٢) :

وَلَقَدْ سَمَوْتُ عَلَى الْأَنَامِ بِخَاطِرِ اللَّهِ أَجْرَى مِنْهُ بَحْرًا زَاخِرًا
فَإِذَا نَظَّمْتُ نَظَّمْتُ رَوْضًا حَالِيًا وَإِذَا نَثَرْتُ نَثَرْتُ دُرًّا فَخِرًا

فهو يفتخر بخواطره الغزيرة التي تنسكب من ذهنه كأنه بحر زاخر ، وهو يهدي منها إلى الناس والآفاق أشعارا رائعة ورسائل بديعة . ونلتقي بغير شاعر فاطمي يفخر بنفسه فخرا حماسيا ملتهبا على شاكلة قول الحسن بن زيد الأنصاري^(٣) :

مَنَالُ الثَّرْيَا دُونَ مَا أَنَا طَالِبُ فَلَا لَوْمَ إِنِّ عَاصَتْ عَلَى الْمَطَالِبِ
وَأِنِّي وَإِن لَمْ يَسْمَحِ الدَّهْرُ بِالْمَتَى فَلِي فِي كَفَالَاتِ الرِّمَاحِ مَآرِبُ
تُقَرَّبُ لِي مُسْتَبْعَدَاتِ مَطَالِبِي جِيَادِي وَعَزْمِي وَالْقَنَا وَالْقَوَاضِبُ

فما يطلبه ويتمناه فوق الثريا في أعلى عِلين من السموات ، وطبيعي أن لا تناله يده أحيانا ، ومع ذلك هو لا يئأس أن ينال من الدهر مطالبه ومآربه بفضل رماحه وجياده وسيوفه القواضب

(٣) الحريدة (قسم شعراء مصر) ٦٩/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ٢١/٣ .

(٢) معجم الأدباء ٨/٤ .

القاطعة وعزمه الذى لا يُقَلّ ، إنه مملوء فتوة وقوة صلبة ينيلانه كل ما يتمنى . وكان يعاصره الرشيد بن الزبير أخو المهذب الذى ترجمنا له فى الفصل الماضى وقلنا هناك إنه وقعت لأخيه الرشيد محنة باليمن إذ ذهب رسولا عن الدولة الفاطمية إلى أحد دعائها فسجنه وهمّ بقتله مما جعل المهذب يستعطفه لأخيه بقصيدة رائعة ، ردّ عليها بمجرد سماعها حرّيته ، إذ عفا عنه وأطلقه ، ونرى الرشيد يعلن فى قوة أن نفسه لم تنكسر ولم يصيبها أى وهن بسبب هذا الحادث ، يقول (١) :

جَلَّتْ لَدَى الرِّزَايَا بِلْ جَلَّتْ هِمَمِي وهل يضرُّ جلاء الصَّارمِ الذِّكْرِ
لو كانت النَّارُ لِلْيَاقُوتِ مُحَرَّقَةً لكان يَشْتَبُهَ الْيَاقُوتُ بِالْحَجَرِ
لا تُغَرَّرُنَّ بِأَطَارِي وَقِيمَتِهَا فإنما هي أَصْدافٌ عَلَى دُرَرٍ
ولا تَظُنُّ خِفاءَ النِّجْمِ مِنْ صِغَرٍ فالذَّنْبُ فى ذاك مَحْمُولٌ عَلَى الْبَصَرِ

وهو يقول إنه تحمّل الرزايا والمصائب التى نزلت به جَلْدًا شجاعا ، بل لقد جَلَّتْ همته جلاء السيف الباتر ، ويضرب مثلا بالياقوت فالنار مما اضطرمت لا تحرقه ، وإلا كان حجرا لا غناء فيه . وينظر إلى أطواره وثيابه البالية فيقول لصاحبه : لا تغرنك هذه الأطار الخلقة فإنها أصداف وقشور وأغطية للآلئ ثاقبة ، ويضرب مثلا بالنجم فى السماء تستصغر الأبصار رؤيته ، والذنب فى الصغر للبصر لا للنجم .

ونمضى إلى زمن صلاح الدين وما حققت مصر فى أيامه من مجد حربي عظيم بسحقها الصليبيين فى ديار الشام واستخلاص بيت المقدس وغيره من أيديهم ومحققهم محقا لا يكاد يبق منهم ولا يذر . وكان لابد لمصر من شاعر يتغنّى لها بهذا المجد البطولى الذى توجّها به صلاح الدين ، وتغنّى ابن سناء الملك أكبر شعرائها حينئذ ببطولة صلاح الدين وجنده المصريين فى قصائد حماسية مضطربة ، كما مر بنا فى ترجمته ، وليس ذلك فقط ، فقد مضى يفخر فى أشعاره فخرا عارما ، وكان كل ما تجمع فى صدر صلاح الدين وأبطال جيشه من أحاسيس تجمع فى صدر ابن سناء الملك وقلبه ، فإذا هو يتغنّى بمثل هذا النشيد الرائع (٢) :

سَوائِ يَخافُ الدَّهْرَ أَوْ يرهَبُ الرَّدَى وَغَيْرَى يَهْوَى أَنْ يَكُونَ مَحْلُودًا
وَلَكِنِّى لَا أَرْهَبُ الدَّهْرَ إِنْ سَطَا وَلَا أَحْذَرُ الْمَوْتَ الرُّؤْمَ إِذَا عَدَا (٣)

(٣) الرُّؤْمَ : السريع .

(١) ابن خلكان ١٦٢/١ .

(٢) الديوان ص ١٦٥ .

ولو مدَّ نحوى حادثُ الدهرِ طرفهُ لحدثتُ نفسى أن أمدَّ له يدَا
توقُّدُ عزمي يترك الماءَ جمرَةً وحيلةُ حلمي تترك السيفَ مِرْدَا
وأظماً إنَّ أبدى لى الماءَ مِنةً ولو كان لى نَهْرُ الحجرِ موردا
ولو كان إدراكُ الهدى بتدليلٍ رأيتُ الهدى أن لا أُميلَ إلى الهدى
وإنك عَبدى يا زمانُ وإننى على الكُره منى أن أرى لك سيِّدا
ولو علمتُ زُهرَ النجومِ مكانتى لخرتُ جميعا نحو وجهى سَجِّدا

وكانه لم يعبر في هذه الأنشودة الفريدة عن شعور كل مصرى لزمه حمل السلاح وسفك به دماء الصليبيين المعتدين الآثمين فحسب ، بل لقد عبر بها عن شعور كل مصرى على مر الزمن بأجماد أمته الحرية والحضارية . وإنه ليشمخ بنفسه في أعلى الأفلاك والسموات ، فإذا هولا يرهب الدهر ولا يرهب الموت الزؤام ، ولو مد الدهر طرفه إليه لتنازله بعزم صادق يُشعل الماء جمرا ملتها ويرد السيف كليلا صلداً لا يقطع . ويمتلئ صدره بإحساس الكرامة ، حتى إنه ليظماً إن أبدى له الماء مِنةً ، بل إنه ليموت ظمأ حتى لو كان نهر الحجر مورده وحقق له وروده كل ما أمله ، وحتى الهدى لو كان إدراكه بشيء من الهوان لرفضه . ويبلغ من استصغاره للدهر وأحداثه أن يشعر في قوة سيطرته عليه حتى كأنما ذلَّ له ودان ، بل حتى كأنما أصبح له عبداً مسترقاً ، وهو مع ذلك يشعر في كبرياء بتعظيم شديد عليه ، حتى ليقول إن النجوم الساطعة لورأت وجهه لخرت ساجدة تقدم له التراتيل ، وكأنما تجسدت في روحه مضر الخالدة الجديدة بكل تقديس .

ومن طريف ما يلقانا من الفخر بعده فخر ابن نبأته الكثير بشعره وكان حاملَ لواء الشعر في زمنه ، ومن قوله :

من مبلغُ العُرب عن شعري ودولته أن ابن عبادَ باقٍ وابنُ زيدونا
إذا رأيت قوافيها وطلعتَها فقد رأيتُ مقتلَكَ البحرَ والثونا
كأنَّ ألفاظها في سمع حُسدها كواكبُ الرَّجم يَحرقن الشياطينا

وهو يقول إن من سمع شعره عرف أن الأندلس لم تُنس ، فلا تزال حية نضرة ولا يزال شعراؤها العظام من أمثال المعتمد بن عباد أمير إشبيلية وشاعره الوجداني ابن زيدون . وقد ورى في البحر والنون يريد بها بحر الشعر ونون القافية في القصيدة لا الحوت ، ويسمى حساده باسم

الشياطين تسقط عليهم آيات قَصِيدِهِ كَشْهَبِ الرَّجْمِ فيحترقون ويستحيلون رمادا تذروه الرياح .
وقلما نلتقى في الحقبة العثمانية بفخر إلا ما يتصل بالشمائل والأخلاق الكريمة .

ومنذ سال الشعر على ألسنة المصريين سال معه هجاء كثير ، وكان الشعراء يقذفون بسهامه -
كما مربنا في غير هذا الموضع - الولاة والقضاة كلما انحرفوا عن الصراط السوي على نحو ما يصور
ذلك كتاب الولاة والقضاة للكندى . ومعروف أن أحمد بن طولون استقل بمصر وأسس بها
الدولة الطولونية ، وضم إلى لوائه الشام ، وله أعمال مجيدة كثيرة ، ولم يكن يخلو منه ظلم وعسف
وسفك للدماء كما يقول ابن تغرى بردى وفي كتاب الولاة والقضاة شاعر يسمى محمد بن أبي داود
كان كثيرا ما يهجو مزريا على ماشده من المارستان وغير المارستان ، وفيه يقول من أشعار مقذعة
كثيرة حتى بعد وفاته :

وَكَمْ ضَجَّ النَّاسُ مِنْ خَلْفِ سِرِّهِ تَضَجُّ إِلَى قَلْبٍ عَنِ اللَّهِ مُغْفَلٍ

قلبه غافل عن ذكر ربه وعن حوائج الناس وهم يضجون خلف حجابيه وحرسه . ولا نشك
في أن ابن أبي داود ظلم ابن طولون ، فقد كان يعنى بالرعية وبني جامعه المشهور وعهد إلى بعض
العلماء بالتدريس فيه . وأهاجى المتنبي في كافور الإخشيدي مشهورة ، وقد ظلمه بدوره ظلما يئنا .
وكان المصريون قد احتضوا به حين نزوله في إلفسطاط وعقدوا له ندوة كبيرة ظلت طوال مقامه بين
ظهورائهم ، ومن لزمه فيها وروى عنه شعره صالح بن رشدين ، وعبيد الله بن أبي الجوع وله
نقائض وأهاج مع صالح بن مؤنس ، وله يقول صالح ^(١) :

هَاجِيكَ فَمَا قَالَه مَادَحُ فَأَنْتَ فِي صَفَقَتِكَ الرَّابِحُ
يَا أَيُّهَا الصَّعُو الَّذِي لَمْ يَزَلْ يَرْقُصُ حَتَّى دَقَّ الْجَارِحُ ^(٢)

وهو يسمى هجاءه له مدحا لأن فيه ذكرا له ، ومثله ليس شيئا حتى يذكر ، ويقول له إنك
عصفور صغير لا يزال يرقص على الأغصان من غصن إلى غصن حتى يدق عنقه صقر أونسر
جارح . ونمضى إلى زمن الدولة الفاطمية وما أخذت تنشره من عقيدتها الشيعة الغالية الرافضة .
وما زعمته للأئمة من نسبة إلى عالم القدس وأنهم من جوهر روحى مصفى وأنهم يعلمون الغيب

مما عرضنا له في غير هذا الموضع . ويروى أن الخليفة العزيز بن المعز صعد المنبر في يوم جمعة ،
فرأى ورقة كتب فيها شاعر مصرى هذين البيتين ^(١) :

بالظلم والجور قد رَضِينَا وليس بالكُفْرِ والحمَاقَةِ
إِنْ كُنْتَ أُعْطِيتَ عِلْمَ غَيْبٍ فَقُلْ لَنَا كَاتِبَ الْبَطَاقَةِ
فتناولها العزيز وقرأها ولم ينس بيت شفة .

وظل شعراء مصر طويلا مغاضبين لهذه الدولة معرضين عنها ، كما أسلفنا ، وكان مما أثار
حفيظتهم بالإضافة إلى نخلتها المنحرفة اتخاذها وزراء لها من اليهود ممن أعلنوا إسلامهم ، وكان كثير
من المصريين يشك في صحة إسلامهم وأنهم يتخذون ذلك ذريعة للاستيلاء على الوزارة
والمناصب الكبرى في الدولة ، وكان منهم صدقة بن يوسف الفلاحى وزير الخليفة المستنصر واتخذ
أبا سعد التستري اليهودى مديرا للدولة معه فصاح أحد الشعراء المصريين بالخليفة سائرا
غاضبا ^(٢) :

يهودُ هذا الزمانِ قد بلغوا غايةَ آمالهم وقد ملكوا
العزَّ فيهم والمالَ عندهم ومنهمُ المستشارُ والملكُ

وهى سخرية من المستنصر قاتلة ، مما اضطره إلى التزول على إرادة الشاعر والشعب ، فاعتقل
الوزير الفلاحى ولقى حتفه على يده . وعلى نحو ما كان المصريون يتعرضون للفاطميين بالهجاء كانوا
كذلك يتعرضون لوزرائهم هاجين هجاء مرأ على نحو ما هجا الشاعر جاسوس الفلك الجرجرائى
وزير المستنصر وكان أقطع الدين لخيانة ظهرت عليه في أيام الحاكم ، فلما ولى الوزارة استعمل
الأمانة الزائدة والاحتراز الشديد فخاطبه جاسوس الفلك قائلا ^(٣) :

يا أحمقًا إسمعْ وَقُلْ ودّعْ الرقاعةَ والتحامقْ
أمنَ الأمانةِ والتقى قُطِعَتْ يدَاكَ من المرافقِ

ولم يكن الوزير مصرى الأصل بل كان من جرجرايا من أرض العراق . واشتهر الناجى المصرى
بمقطعاته الهجائية الكثيرة فى الأفضل بن بدر الجمالى وزير الخليفة الأمر ، وفيه يقول ^(٤) :

(٣) ابن خلكان ٤٠٨/٣

(٤) الحريدة ١٠٣/٢ .

(١) النجوم الزاهرة ١١٦/٤

(٢) حسن المحاضرة ٢٠١/٢

قُلْ لَابْنِ بَذْرِ مَقَالَ مِنْ صَدَقَةٍ لَا تَفْرَحَنْ بِالْوِزَارَةِ الْخَلْقَةَ
إِنْ كُنْتَ قَدْ نَلْتَهَا مُرَاغِمَةً فَهَيَّ عَلَى الْكَلْبِ بَعْدَكُمْ صَدَقَهُ

وهو هجاء مقذع إقذاعا شديدا . ونرى داود بن مقدم المحلى الملقب برضى الدولة المار ذكره
يهجو بعض أصحاب الدواوين وما كانوا عليه من فساد فى جمعهم للضرائب ، يقول (١) :

وَكُتَّابٍ لَهُمْ أَبَدًا حُمَاتٌ تُعَدُّ لَهَا الرُّقَى مِثْلَ الصَّلَالِ (٢)
بَأْيِدٍ تَبْتَدِرُونَ إِلَى الرِّشَاوَى كَأَيْدَى الْحَيْلِ أَبْصُرْتَ الْحَالِ

فكانهم يشبهون الزناوير والعقارب والأفاعى ، إن لم يقدم لهم الرشاوى لسعوا من يجمعون منهم
الضرائب كما يلسع الزنبور والعقرب بحمتهما أو إبرتهما وكما يلسع الصِّل أو الأفعى بسمه القاتل .
ونلتقى فى أثناء ذلك بدعابات ساخرة كقول ابن قادوس يتكلم على الرشيد بن الزبير وكان شديد
السواد (٣) :

إِنْ قُلْتَ مِنْ نَارٍ خُلِقَ تَ وَفُقْتَ كُلُّ النَّاسِ فَهَمَّا
قُلْنَا صَدَقْتَ فَا الَّذِى أَطْفَاكَ حَتَّى صِرْتَ فَحْمًا

وهى دعابة قد يقلبها الرشيد لما فيها من فكاهة خفيفة ، ولابن قادوس أحيانا هجاء ملىء
بالسوم وخاصة ممن يضيق بهم كقوله فى مناقب مايزال يتلون لكل شخص باللون الذى يعجبه ،
يقول (٤) :

حَوْلَهُ الْيَوْمَ أَنْاسٌ كُلُّهُمْ يُزْهَى بِرَأْيِهِ
وَهُوَ مِثْلُ الْمَاءِ فِيهِمْ لَوْ نُهُ لَوْ أَنْثَاءُ

ونغضى إلى زمن الأيوبيين ، ويلقانا ابن سناء الملك ساخطا على بعض معاصريه ، يكوهم
بسياط هجائه وخاصة من يسمى ابن عثمان ، حتى ليود أن يُصَفَّعَ بالنعال على حد قوله (٥) :

وَكَمْ لَهُ مِنْ وَقْعَةٍ لَمْ تُبْقِ مِنْهُ بَاقِيَةٌ
وَمَا عَلَيْهِ قَطُّ مِنْ صَفْعٍ النَّعَالِ وَاقِيَةٌ

(٣) الخريدة ١/٢٢٩ .

(١) الخريدة ٢/٤٧ .

(٤) الخريدة ١/٢٣٣ .

(٢) حات : جمع حمة وهى إبرة الزنبور والعقرب .

(٥) الديوان ص ٨٧٦ .

والصلال : الأفاعى .

فهو يتصوره يُصَفَّعُ بالتَّعَالِ ولا مغيث له ولا مجير ، وللنَّهَاء زهير بعض مقطوعات في الهجاء ، وهو لا يقذع فيه ، بل يفسح للدعابة والوخز الخفيف الذي لا يدمي ، وقد لا يتعدى وصفه بالثقل كقوله ^(١) :

رَبُّ نَقِيلٍ لُبُغْضٍ طَلَعَتْهُ أَخْشَاءُ حَتَّى كَانَهُ أَجْلَى
وَكَلِمَا قَلْتُ لَا أَشَاهِدُهُ أَلْقَاءُ حَتَّى كَانَهُ عَمَلَى

وكان الشعراء يتعرضون أحيانا للوزراء يهجونهم كقول ابن مطروح يهجو هبة الله بن صاعد الفائزى مستغلا اسم أبيه في هجائه ^(٢) :

لَعَنَ اللَّهُ صَاعِدًا وَأَبَاهُ فَصَاعِدًا
وَبَيْنِيهِ فَنَازِلًا وَاحِدًا ثُمَّ وَاحِدًا

وهو كصاحبه البهاء زهير لا يتسع في هجائه ولا يقذع فيه ولا يفحش .

ويظل الشعراء طوال عصر المماليك يترشون سهام الهجاء ، ويلقانا في أوائله الجزار والوراق ولها . أهاج فكهة كثيرة سنعرض لها في غير هذا الموضع ، وكان يعاصرهما البوصيرى شاعر المديح النبوى الرائع ، وكان يعمل موظفا في دواوين الأقاليم ، وله هجاء عنيف في طوائف الموظفين جميعا أو كما يسميهم المستخدمين من كتابِ خراجٍ وقضاةٍ وغير قضاة ، ومن قوله فيهم ^(٣) :

ثَكَلْتُ طَوَائِفَ الْمُسْتَحْدِمِينَ فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ رَجُلًا أَمِينًا
أَقَامُوا فِي الْبِلَادِ لَهُمْ جُبَاةٌ لَقَبُصٌ مُقَلَّلًا كَالْمُقْطَعِينَا
تَحِيلَتِ الْقَضَاةُ فَخَانَ كُلُّ أَمَانَتِهِ وَسَمَّوْهُ الْأَمِينَا
وَكَمْ جَعَلَ الْفَقِيهُ الْعَدْلَ ظُلْمًا وَصَيَّرَ بَاطِلًا حَقًّا مُبِينَا

فهو يشكو من فساد جميع الموظفين ، فعمال الخراج كأنهم من أصحاب الإقطاع وهم يجمعون ما تغله إقطاعاتهم ، والقضاة يخنون الأمانة والفقهاء يجمعون بقتاؤهم المضللة الظلم عدلا والباطل حقا ، ويردد ذلك في أشعار كثيرة تصور فسادهم جميعا وكيف كانوا يجمعون ثروات طائلة بطرق غير مشروعة . وسرى لابن دانيال أهاجى فكهة كثيرة في حديثنا عن شعراء الفكاهة . وبما يلاحظ

(٣) الديوان ص ٢١٨ .

(١) البهاء زهير للشيخ مصطفى عبدالرازق ص ٢٢ .

(٢) النجوم الزاهرة ٥٨/٧ .

أن المصريين قلما يفحشون في هجائهم ، وكثيرا ما يتحول إلى ما يشبه عتابا رقيقا كقول ابن مكناس المتوفى سنة ٧٩٤ هاجيا^(١) :

نَعَمْ نَعَمْ مَحَضَّتُهُمْ صِدَقَ الْوَلَا تَطُولَا^(٢)
وما رَعَوْا عهدا ولا مسودَّةً ولا ولا

وفي كلمة « ولا » الأخيرة تورية واضحة إذ يريد بها مقصور ولاء . ونراه حين يصادر أمواله وبغاله وخيله السلطان الظاهر برقوق لا يشتم ولا يهجو بل يكتفى بقوله^(٣) :

رَبُّ خُذْ بِالْعَدْلِ قَوْمًا أَهْلَ ظُلْمٍ مَتَوَالِي
كَلَّفُونِي بَيْعَ خَيْلِي بِرَخِيصٍ وَبِغَالِي

والتورية في كلمة بغالى مع كلمة برخيصة - وهو يريد بغاله الحقيقية - واضحة ، وهو يعمد إليها في هذا الظرف الحرج من محنته .

ونظل نلتقي بالهجاء في أيام العثمانيين ، من ذلك قول الشهاب الخفاجي من قصيدة جميعها على النمط التالى^(٤) :

يَا ضَيْعَةَ الْهَمِيَانِ مِنْ عَائِلِي قَبِيلِ عِيدٍ أَعَوَزَ الْفُطْرَةَ^(٥)
وَيَا قَفَا الْمَهْزُومِ مِنْ فَارِسِي أَدْرَكَهُ فِي سَاحَةِ قَفْرَةٍ
وَبَهْتَةَ السُّكْرَانِ مِنْ هَاجِمِي فِي لَيْلَةِ مَظْلَمَةٍ قَرَّةٍ^(٦)
وَيَانَعِيًّا جَاءَ عَنْ وَاحِدٍ إِلَى عَجُوزٍ . مَا هَا أُسْرَةٌ

ونخصى القصيدة على هذا النحو الساخر اللاذع المضمي تكيل الدم لمهجوه كيلا وتهزأ به وتسخر منه سخرية قاتلة .

وتلقانا مطارحة^(٧) طريفة بين الشاعر المعروف باسم شبانة المتوفى سنة ١٢٠٠ للهجرة والشاعر قاسم بن عطاء الله المتوفى سنة ١٢٠٤ ، فقد نظم شبانة - يداعب قاسما - قصيدة هجائية طويلة يقول فيها :

-
- (١) ربحانة الألبا للخفاجي (طبعة الحلبي) ص ٤١ .
(٢) تطولا : تفضلا .
(٣) النجوم الزاهرة ١٢/١٢٩ .
(٤) نفحة الربحانة للمجى ٦١٢/٤ .
(٥) الفطرة : النقل في لغة المصريين العامية . الهميان : كيس النقود .
(٦) قررة : باردة .
(٧) تاريخ الجبقي ١٢٨/٢ .

سبحان من قسم الثَّو سَ لقاسمٍ وأذلَّ هامةً
وكساه ثوبَ جنايةٍ يَحْزَى بها يومَ القيامةِ
ومضى يتمه بأنه يعين لصوص البيوت ويسرق الحرير ويسلّ الكحل من العيون ، وردّ عليه
قاسم هاجيا مداعبا ، من نفس الوزن والقافية ، وكأنها يعيدان لنا نقائص جرير والفرزدق يقول
قاسم :

جَلَّ الذى . قسم الشُّقا لشبانةٍ وله أدامة
بعمامةٍ لوخالها ال قَلًا توهّمها بِرامَة
موروثيةٍ عن جَدِّهِ من قبل أن تُبْنَى القِمَامَة
لو كان يصلحُ للصلا ة لحقَّ للقرِّد الإمامَة

والقَلًا مقصور القَلَاء وهو من يَقلّ اللحوم والأطعمة ، والبرام : القدر الذى يُقَلّى فيه . يشير
بذلك إلى ضخّم رأسه وقذارة عمامته . ولعله يريد بالقمامة كنيسة القيامة بالقدس ، وقد بنيت
حوالى سنة ٣٢١ للميلاد . والدعابة واضحة فى الأبيات . ونقف قليلا عند بعض شعراء الفخر
والهجاء :

نعم (١) بن المعز

هو تويم بن المعز مؤسس الدولة الفاطمية بمصر ، ولد لأبيه سنة ٣٣٧ بمدينة المهديّة التى بناها
جده عبيد الله المهدي بتونس ، وقد تحول عنها ابنه الخليفة المنصور فى نفس السنة التى ولد فيها نعم
حفيده إلى مدينة أسسها هناك سماها المنصورية ، وولد لأبيه بعده على التوالى عبد الله ونزار
وعقيل ، وكان المعز قد بوع بولاية العهد فى حياة أبيه المنصور ، وجُدِّدت له البيعة حين توفى سنة
٣٤١ . وكان فى الثانية والعشرين من عمره ، وكان حصيفا سيّوسا ، دانت له إفريقية من تونس
إلى المحيط ما عدا سبتة فإنها ظلت - كما مر بنا فى غير هذا الموضع - مع عبد الرحمن الناصر الأموى
صاحب الأندلس ، وسيّر جوهرًا قائده إلى مصر فافتتحها سنة ٣٥٨ - كما مر بنا فى غير هذا
الموضع - ودخلها المعز فى سنة ٣٦٢ وكان على المهمة يحكم تدبير الأمور حازما منتهى الحزم ،

الفاطمية للدكتور محمد كامل حسين ص ١٧٠ ومقدمة
ديوانه (طبعة دار الكتب المصرية) .

(١) انظر فى نعم وترجمته وأشعاره البيعة ٤٣٦/١ وابن
خلكان ٣٠١/١ والحلة السيام (طبعة د . حسين مؤنس)
٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٥٦٠/١ وكتاب فى أدب مصر

وانضج حزمه إلى أقصى حد في صرفه ولاية العهد عن ابنه الأكبر تميم ، وكان لا يزال في المنصورية بثونس ، حين تأكد أنه يسير سيرة معوجة منحرفة ، مما جعل واليه على صقلية أحمد بن الحسن الكلالي يستأذنه في قتل أحد أبنائه لمشاركته تيمما في مجونه ^(١) .

ويبدو أن المعز حاول - دون جدوى - أن يرد ابنه إلى الطريق السوي حتى إذا فشلت محاولته صرف ولاية العهد عنه إلى أخيه عبد الله ^(٢) ، ولم يلبث عبد الله أن توفي حين نزل مع أبيه في مصر فجعل المعز ولاية العهد لأخيه نزار الذي خلف أباه حين وفاته بالقاهرة سنة ٣٦٥ متسميا باسم العزيز .

وليس من ريب في أن المعز عُني بتربية ابنه تميم الذي كان يعدّه لولاية العهد منذ نعومة أظفاره ، فأحضر له المعلمين الدينيين واللغويين وعهد إلى بعض دعاة النحلة الفاطمية بتلقينها له ، وكانت للغلام موهبة شعر فذة ، فأكب على الشعر العربي في أزمنته المختلفة بتزود منه ، وسرعان ما استيقظت فيه موهبته ، فمكف على اللهو والجون لا يردعه رادع . وانتقل مع أبيه إلى مصر ، فمضى في سيرته ، يحيا للهو والجون . ويموت أخوه وأبوه فبرئهما رثاء فائرا ، وهورثاء يدل على مكنون ضميره وأنه كان يشفر في أعماقه بأن أباه سلبه حقه . وهو في ديوانه يكثر من مديح أخيه العزيز ، ونحس صدقه في هذا المديح وإخلاصه له ، ومع ذلك كان لا يسلم من الوشاة بينه وبين أخيه ، مما جعله يبعده مرة إلى عين شمس بجوار القاهرة ومرة ثانية إلى الرملة بفلسطين ، ويألم ألاما شديدا لغرفته وبعده عن ملاعب مجونه ، وسرعان ما يرد العزيز إليه حريته . وهما فترتان صغيرتان في حياته الهنيئة بالقاهرة حتى وفاته سنة ٣٧٤ .

وكان العزيز يصدق عليه إغداقا عظيما ، فقد جعل القصور على بركة الحبش - بمصر القديمة الآن - خالصة له ، وكانت تطل على النيل ومن حولها حدائق بديعة ، ووهب له بستانا عظيما يعرف باسم المعشوق ، غير ما كان يصفى عليه من الأموال الضخمة . وكل ذلك أتاح له أن يحيا حياة ترف وهو في قصوره وبساتينه ورياضه وفي الأديرة . وكان ينتهز فرصة الأعياد الكثيرة : الأعياد الإسلامية والمسيحية والفارسية ، فيشارك الشعب في مراحه وقصفه ، سواء فيما كان يقيم من

الذي ذكرناه فقد كان لا يزال في مطالع شبابه ، وقد عاد نصرها عنه مرة ثانية بعد وفاة أخيه عبدالله . وربما كانت كتابة تميم بأبي على قاطعة في أنه أنجب فضلا .

(١) سيرة جوفز (تحقيق د : كامل حسين) ص ١٢٠ .

(٢) ذكر ابن الأبار في الحلة السراء أن السبب في صرف المعز لولاية العهد عن تميم أنه لم ينجب ولدا . غير أن صرفها عنه وهو لا يزال في نحو العشرين من عمره يؤكد السبب

مضارب وسراذقات وقباب ببركة الحبش أو فيما كان يتخذ من قوارب تضاء بالشموع ليلاً في النيل ، والمغنون والمغنيات يطربون الناس . وهو يمر بزوارقه على قواربهم ، ويستمع إلى من معهم ويُسْمِعهم بعض قياته . وفي ديوانه ما يصور كتوس اللهو والمجون التي كان يعبّ منها عباً ، ومربنا مديحه لأخيه العزيز وما أذاعه ونشره فيه من مبادئ الدعوة الفاطمية الإسماعيلية وعقيدتها في الإمام وارتفاعه عن البشر بجوهره الروحاني اللطيف وجسده النوراني الشفاف وعقله الكلي الفعال وإسباغ الصفات الربانية عليه . ويتمادى تيم في ذلك ومثله حتى لكأنه داعية من دعاة الدولة ودعاة أخيه العزيز خاصة وحسبنا ما صورناه عنه في حديثنا عن المديح . وهو في الديوان يضيف إلى هذا المديح فخراً يمتزج أحياناً بعقيدته في الأئمة ، وكأنه الإمام المنتظر ، إذ يقول :

أنا الصبحُ	أنا الشمسُ	أنا البدرُ	الذي يسرى
أنا المرجوُ	في العُسرِ	أنا المرجوُ	في السُرِ
أنا المُسبِلُ	للنُعمي	أنا الكاشفُ	لِلضُرِّ
أنا الراتقُ	للفَتْقِ	أنا القاصمُ	للظُّهرِ

وكانما تجسدت فيه شخصية أحد الأئمة ، فهو نور الصبح ونور الشمس ونور القمر ونور الأنوار الذي يستمد منه كل نور ، وهو مدبر الكون ومقسّم الرزق المرجو في العسر واليسر والمسبغ للنعمي والكاشف للضر الراتق للفتق القاصم للظهر . ويستمر فيقول إنه هو الحاطم للعظم والجابر للكسر والعالم بالذكر ، يريد أنه العارف لبواطن الذكر الحكيم ، كما يزعم الإسماعيليون لأئمتهم . ولا يبعد أن يكون مثل هذا الفخر هو الذي كان يتخذه الوشاة أداتهم للوقعة بينه وبين أخيه العزيز ، مما جعله يعلّده ، كما ذكرنا ، مرة إلى عين شمس ومرة إلى الرملة . وتتردد أصداء من هذه المعاني في أشعاره في صوت عال تارة ، وتارة ثانية في صوت خفيض ، ومن قوله في ذلك :

أبني علىٰ إن نكنْ نُنمى إلى	حَسْبِ أَنَا فِ بِنَا وَجْدٌ أَرْوَعاً ^(١)
فلقد علمتُ أني أغشى الوغى	وَأَنُوبُ فِي الْجَلِي قَوْلَا مُسْمِعاً ^(٢)
ولقد علمتُ أني رُضْتُ العلا	يَقْبَعًا وَحَاوَلْتُ الْمَكَارِمَ مُرْضِعاً ^(٣)

(١) أَنَا فِ : أنفرت وارتفع .

(٢) الْجَلِي : اليعق : التي في إبان شبابه .

(٣) مُرْضِعاً : صيغة بالغة من

فَدَعُوا لِيَ الشَّرَفَ الَّذِي شَدِيدُهُ إِذْ هَضُمُوهُ فَأَنْكَفَا وَتَصَغَّضَا (١)
 لِي فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ جَوْلَةً يَغْلُو بِهَا قَلْبُ الزَّمَانِ مُصَدِّعًا
 فَادْفَعْ بِجِدِّ السَّيْفِ كُلِّ ظُلَامَةٍ إِنْ لَمْ تَجِدْ يَوْمًا سِوَاهُ مَدْفَعًا
 فَبِذَاكَ أَوْصَانِي الْوَصِيَّ وَرَهْطُهُ وَعَلَى فَرَضٍ أَنْ أُطِيعَ وَأُسْمَعَا

وهو يخاطب أسرته العلوية ذات الحسب العالى والحظ العظيم واضعا بين يديها شجاعته ونفوذه في الأمور العظيمة برأيه المحكم وشعره البليغ ، ويزعم أنه راض العلاء وساسها في مطلع شبابه وأنه حاول المكارم منذ كان في المهد مرضعا . وإذن فليعطوه حقه والشرف الذي يمنونه منه ، وكأنه ينذرهم ويهددهم ويتوعددهم إن لم يردوا عنه ظلمهم ويردوا إليه الحق المسلوب ، ويزعم أن تلك وصية جده أبي الأوصياء على بن أبي طالب وأبناؤه من الأئمة وأن فرضا عليه أن يسمع ويطيع . ولا ريب في أن هذه المعزوفة التي كان يوقعها كثيرا على قيثارته كان يضيّق بها العزيز ، غير أن غمتها سرعان ما كانت تنكشف عن صدره حين يستمع إلى مدائح تميم فيه وترديد قلميته ووجوب طاعته .

ومعزوفة ثانية كان كثيرا ما يعزفها تميم ويلحنها على وتر القنبر في قيثارته ، ونقصد ردوده العنيفة على فخر عبد الله بن المعتز العباسي بأسرته العباسية الهاشمية . وله إزاجه موقفان : موقف يختار فيه قصيدة من قصائد ابن المعتز في فخره بأسرته وينقصها نقضا بما يصور من مفاخر أسرته الفاطمية . وموقف ثان لا يتقيد فيه بقصيدة معينة يرثي عليها ، وهو في الموقف الثاني حر يختار أي وزن ينظم فيه وأي قافية ، أما في الموقف الأول فيتقيد بوزن القصيدة التي يرد عليها وقافيتها على شاكلة ما كان يحدث بين جرير والفرزدق في نقائضها ، ومن قصائد الموقف الأول رائية لابن المعتز استلها بقوله : « أَيُّ رَجُلٍ لَالَ هَنْدٍ وَدَارٍ ، عَمِدَ تَمِيمٌ إِلَى نَقْضِهَا بِقَصِيدَةٍ تَمَازِلُهَا فِي الْوِزْنِ وَالرَّوْيِ ، وَفِيهَا يَقُولُ ، رَأْدًا عَلَى ابْنِ الْمُعْتَزِ وَالْعَبَّاسِيِّنِ جَمِيعًا :

لَيْسَ عَبَّاسُكُمْ كَمَثَلٍ عَلَى هَلْ تَقَاسُ النُّجُومُ بِالْأَقَارِ
 مَنْ لَهُ الصُّهْرُ وَالْمَوَاسَةُ وَالنُّصْرَةُ ، وَالْحَرْبُ تَرَعَى بِالشَّرَارِ
 مَنْ دَعَاهُ الثِّبِيُّ خِدْنًا وَسَمًا هُ أَنْكَأَ فِي الْخِضَاءِ وَالْإِظْهَارِ

(١) هضموه : من هاض العظم إذا حطمه وكان على وشك أن ينجر .

مَنْ لَهُ قَالَ أَنْتَ مِنْى كَهَارِو نَ وَمَوْسَى أَكْرَمَ بِهِ مِنْ نِجَارِ^(١)
 ثُمَّ يَوْمَ الْقَدِيرِ مَا قَدْ عَلِمْتَ خَصَّصَهُ دُونَ سَائِرِ الْحُقُصَارِ
 مَنْ لَهُ قَالَ : لَاقَى كَعْلَى لَا وَلَا مُنْصَلُّ سَوَى ذِي الْفَقَارِ^(٢)
 مَنْ تَوَطَّأَ الْفِرَاشَ يَخْلُفُ فِيهِ أَحْمَدًا وَهُوَ نَحْوُ يَثْرَبَ سَارِ
 وَلَنَا حُرْمَةُ الْوِلَادَةِ وَالْأَعْمَ سَامَ وَالسَّبْتِ وَالْهَدَى وَالْمَنَارِ
 نَحْنُ أَهْلُ الْكِسَاءِ سَادِسْنَا الرُّو حُ أَمِينُ الْمَهِيْمِ الْجَبَّارِ
 حُجَّجٌ كُلَّمَا تَأَمَّلَهَا الْعَا لِمُ بَانَتْ لَهُ بَيَانَ النَّهَارِ

ونعم يوازن بين جده على بن أبى طالب وعمه العباس بن عبد المطلب ، ويفاخر بأنه صهر الرسول ﷺ وساعده الأيمن فى الحرب ، ويشير إلى حديث نبوى ترويه الشيعة : أن النبى عليه السلام قال : « على منى بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى » . وهم يستدلون بهذا الحديث على أن عليا ليس أحق بالخلافة من العباس فحسب ، بل هو أيضا - فى اعتقادهم - أحق من الشيخين : أبى بكر وعمر بالخلافة . ويذكر يوم غدِيرِ خُمٍّ وهو موضع بين مكة والمدينة أنه فى الرسول ﷺ على ابن عمه على ، وقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، وتذهب الشيعة إلى أن الرسول عليه السلام أوصى فى هذا اليوم بالخلافة لعلى . ومنذ أواسط القرن الرابع الهجرى يتخذ الشيعة هذا اليوم الموافق للثامن عشر من ذى الحجة عيداً لهم . ويشير تميم إلى ما يرويه الشيعة من أن الرسول قال : لاقى إلا على ولا سيف إلا ذو الفقار : سيفه . ويذكر أنه هو الذى اصطفاه الرسول لينام فى فراشه ليلة خرج مع أبى بكر مهاجراً إلى المدينة ، مخترباً حصاراً مسلحاً ضرته قريش حول بيته ، حتى لا تنتبه إلى خروجه ، وكانت قد بُيِّتَ القضاء عليه (يريدون أن يُطْفِئُوا نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره) . ويقول إنهم يشتركون مع العباسيين فى أنهم من سلالة أعمام رسول الله ويرتفعون فوقهم درجات بأنهم أبناء بنت رسول الله السيدة فاطمة الزهراء . ويشير إلى ما تقصّ الشيعة من أن الرسول أتى كِسَاءَ عليه وعلى السيدة فاطمة وعلى زوجها وابنيها الحسن والحسين وكان سادسهم - كما يقول تميم - جبريل وقال : نحن أهل البيت فى خبر يردونه . ويذكر جهاد على المبرورى غزوات الرسول وخاصة فى بدر وأحد وخيبر وكيف أبلى فيها جميعاً بلاء عظيماً . ويقول هذه كلها براهين ساطعة كالشمس بأفضلية على وارتفاع منزلته على عمه ، ويهدد العباسيين

بحرب مبيدة تعصف بهم عصفا شديدا .

وتتم في الموقف الثاني الذي لا ينقض فيه قصيدة بعينها لابن المعتز ليح على هذه المعاني نفسها في رده على العباسيين وفخره عليهم فخرا مضطرا بشر كثير ، يريد به أن يثبت أن العلويين أحق بالخلافة من أبناء عمومته سواء من جهة إرثهم لها عن طريق جدهم على وجدتهم فاطمة بنت الرسول عليه السلام أو عن طريق وصاية الرسول بها لعل أو عن طريق خدماته الجللى للدين الحنيف ونصره . ويمد طرفا من هذا الجدل إلى بنى أمية وهو يقصد أصحاب الأندلس في أيامه . وكان أخوه العزيز كتب إلى صاحبها الأموي - ولعله المستنصر بن عبد الرحمن الناصر - كتابا يسبه فيه ويهجو ، فكتب إليه : « أما بعد فإني قد عرفنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبتك والسلام » فاشتد ذلك على العزيز وأفحمه عن الجواب ^(١) . ولعل ذلك ما جعل تيمم يتصدى للأمويين ويفخر عليهم بمثل قوله :

إِنْ قُرَيْشًا بِعُلَا هَاشِمٍ	تَفْخِرُ فِي عَقْوَةِ عَرِيْسِهَا ^(٢)
إِنْ يَكُ مِنْ يَاقُوتِهَا هَاشِمٌ	فَعَبْدُ شَمْسٍ مِنْ ضَغَايِسِهَا ^(٣)
اسْمُ إِلَى الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ	أَهْلُ مَعَالِيهَا وَتَقْدِيْسِهَا
دَعِ عَبْدَ شَمْسٍ وَأَبَاطِيلَهَا	فَقَدْ بَدَا اللَّهُ بِتَنَكُّيْهَا
قَبِيلَةُ مَا طَهَّرَ اللَّهُ مَنْ	شَايِعَهَا مِنْ إِثْمٍ تَنْجِيْسِهَا

فهاشم جد الرسول والعلويين فخر قريش في ساحة غيلها الملتف ، وهو وبنيه ياقوت قريش ومعدنها النفيس أما بنو أمية فحجارة صلده ، وللهاشميين بفضل الرسول علاهم وقديستهم ، أما عبد شمس وبنيه فأصحاب أباطيل مزورة ، وقد هدم الله دولتهم في المشرق ، وإنها لقيلة آتمة إنما فظيما ، وإنها لتضم كل من شايعها وصمة شنيعة . ويستمر فيذكر سفكهم لدم الحسين وسبيهم لمن كن معه من النساء ، مسجلا بذلك عارا عليهم لا يماثله عار .

(٣) الضغاييس : جمع ضغوب : الضمير اللين .

(١) ابن خلكان ٣٧٢/٥

(٢) عقوة : ساحة . عريس : غيل الأسد .

طلّاع^(١) بن زُرّيك

أرمنى الأصل قَدَم إلى زيارة مشهد الإمام على بن أبى طالب بالنجف ، وكان لا يزال شابا واعتنق مذهب الشيعة الإمامية ، وتعرّف في أثناء زيارته له على شخص يسمى ابن معصوم يبدو أنه كان من دعاة الفاطميين ، فحبّب إليه زيارة القاهرة والانتظام في خدمة القوم ، ولقيت دعوة الرجل من نفسه قبولا حسنا ، فسار إلى مصر ، وترقى في خدمة الفاطميين حتى وُلّوه حاكما لمّنية الحصبب بالصعيد (المنيا الآن) وحدث أن تأمر عباس الصنهاجى وزير الخليفة الظافر مع ابنه نصر على قتل الخليفة سنة ٥٤٩ هـ وتمت المؤامرة ، فاستغاث بيت الفاطميين بطلّاع ضد عباس ، فأقبل يريد محاربته حتى إذا قرب من القاهرة فرعباس بما نهب من أموال القصر الفاطمى إلى الشام ، وقتله الصليبيون في الطريق . ودخل طلّاع القاهرة فخلّعت عليه الخلع الخاصة بالوزارة ونُعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين . وكان قد ولى الخلافة الفاطمية ابن للظافر تلقب بالفاتر (٥٤٩ - ٥٥٥ هـ) وكان صبيا لا يعدو خمس سنوات ، فدبّر الدولة طلّاع وأحسن تدبيرها ، حتى إذا توفى الفاتر بعد نحو ست سنوات اختار للخلافة بعده طفلا لم يبلغ الحلم من الأسرة هو عبد الله بن محمد الملقب بالعاضد ، وزوّجه ابنته ، وأصبح صاحب الأمر كله في الدولة . وأخطأ إذ قطع رواتب الخاصة ، فلم يدّر عام في خلافة العاضد حتى دُبّرت له مؤامرة لقتله ، فقتل سنة ٥٥٦ هـ ويقال إن العاضد نفسه هو الذى أعمل الحيلة في قتله لاستبداده بالأمر من دونه ، وخاصة أنه كان شيعيا لا على مذهب الفاطميين الإسماعيليين ولكن على مذهب الإمامية . ويقول المقرئى : « كان رجل وقته فضلا وعقلا وسياسة وتديبرا » . ولم يكن يستر عقيدته الإمامية بل كان يعلنها ويجادل فيها الفقهاء الإسماعيليين ، وصنف في ذلك كتابا سماه « الاعتاد في الرد على أهل العناد » ويقول المقرئى إنه جمع له الفقهاء وناظرهم عليه . وكان يجادل أيضا بقوة عن مذهب المعتزلة في القدر وأن الإنسان حر الإرادة لا مجبر كما يقول القدرية ، وله في ذلك قصيدة سماها : « الجوهريّة في الرد على القدرية » ومن قوله في الرد عليهم :

النكت المصرية عليه وعلى حياته وأجاده ومدائمه ومدائح
غيره فيه ، ونشر محمد هادى الأسنى ديوانه في النجف ،
وأودع في مقدمته ثبنا مفصلا بمصادر ترجمته .

(١) انظر في طلّاع وترجمته وأشعاره الحريدة ١٧٣/١
والغريب (قسم القاهرة) ص ٢١٧ وابن خلكان ٥٢٦/٢
والجزء الخامس من النجوم الزاهرة في مواضع مختلفة (انظر
الفهرس) وخطط للمقرئى ١٩٢/٣ وبني عمارة اليمنى كتابه

يَا أُمَّة سَلَكْتَ ضَلَالًا بَيِّنًا حَتَّى اسْتَوَى إِقْرَارُهَا وَجُحُودُهَا
مِلْتَمٌ إِلَى أَنَّ الْمَعَاصِيَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا بِسِتْقَادِيرِ الْإِلَهِ وَجُودُهَا
لَوْ صَحَّذَا كَانَ الْإِلَهِ بِزَعْمِكُمْ مَنَعَ الشَّرِيعَةَ أَنْ تُقَامَ حُدُودُهَا

وقد فتح أبوابه للشعراء ، وكثير منهم كانوا يختلفون إلى مجلسه في منزله وخاصة المجلس بن
الحباب والمهذب بن الزبير وابن قادوس ، وأصبحت القاهرة لعهد كعبة للقصاد من شعراء البلاد
العربية أمثال ابن الدهان الموصلي وعمارة اليمني ، ولكل هؤلاء الشعراء فيه قصائد طنانة ، وفيه
يقول العماد : « نفق في زمانه النظم . والنثر واسترقَّ بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء ،
واتخذهم لنفسه جلساء ، ورحل إليه ذوو الرجاء ، وأفاض على الداني والقاصي بالعطاء . » وقد
أدار العماد كثيرا من تراجمه في القسم المصري من كتابه الخريدة عليه وعلى مدائحه . وألف في أيامه
الرشيد بن الزبير كتابه « جنان الجنان ورياض الأذهان » في معاصريه من الشعراء ومادحيه
وافتحه بترجمته ، كما ألف شاعره المجلس بن الحباب كتابا قصره على مدائح الشعراء فيه .

وقد حقق محمد هادي الأميني ديوانه ونشره بالنجف في نحو مائة وخمسة وعشرين صحيفة ،
ويقول ابن خلكان إنه رأى ديوانه وإنه كان يقع في جزءين ، وكان ديوانه المنشور وإنما هو
مقتطفات من ديوانه الأصلي ، واتهم بعض معاصريه بأن كثيرا من أشعاره ليس له وإنما هو من
صنع شاعريه : المجلس بن الحباب والمهذب بن الزبير ، ويبدو أنها تهمة غير صحيحة ، وأنه ربما
كان يرجع إليها لتصحيح بعض أشعاره إن صح ما قيل من أنها كانتا يصلحان له شعره . وأكثر
الديوان المنشور في مديح آل البيت ورثاتهم ورثاء الحسين خاصة ، ولعل هذا هو سبب النغم
الحزين الكثير في شعره ، إذ الشيعة دائما محزونون منذ مقتل الحسين وقد اتخلوا يوما يندبون فيه هو
يوم عاشوراء ، وجعلوا شعارهم السواد ، وهو سواد يطبع كثيرا من أشعار طلائع بالتشاؤم والتفكير
الكثير في الموت ، حتى في يومه البهيج يوم جلوسه في الوزارة إذ نرى الدنيا تتحول بهجتها أمام
عينيه حزنا وشؤما وموتا ، وإذا هو ينشد حين تربعه في دَسْت الوزارة :

انظُرْ إِلَى ذِي الدَّارِ كَمْ قَدْ حُلَّ سَاحَتَهَا وَزِيرُ
وَلَكُمْ تَبَخُّرَ آمَنَّا وَسَطَّ الصَّفوفِ بِهَا أَمِيرُ
ذَهَبُوا فَلَا وَاقَهُ مَا بَقِيَ الصَّغِيرُ وَلَا الْكَبِيرُ
وَلِثَلْ مَا صَارُوا إِلَيْهِ مِنْ الْفَنَاءِ غَدًا نَصِيرُ

وكان طلائع شجاعا بل مثالا عاليا من الشجاعة والبطولة ، ففضى يعدُّ الجيش المصرى لحرب الصليبيين ونازلهم مرارا برًّا وبحرا ، وظل ينازلهم ويقاثلهم طوال أيامه ، حتى لقيه معاصروه بأبى الغارات ، فقد كان جيشه لا ينى آيبا ذاهبا إلى مواجهة الصليبيين وسحق جموعهم فى جنوى فلسطين ودقُّ أعناقهم وسفك دمائهم فى حزونها وسهولها وعلى سفوح جبالها ، وله فى تصوير ذلك قصائد كثيرة من مثل قوله :

تَوَلَّتْ عَلَيْنَا فِي الْكَتَائِبِ وَالْكَبِ بِشَائِرُ مِنْ شَرْقِ الْبِلَادِ وَمِنْ غَرْبِ
جَعَلْنَا جِبَالَ الْقُدْسِ فِيهَا وَقَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا عَتَاقُ الْخَيْلِ كَالْتَقْفِ السُّهْبِ^(١)
وَقَدْ أَصْبَحَتْ أَوْعَارُهَا وَحُزُونُهَا سَهْلًا تَوَطَّ لِلْفَوَارِسِ وَالرُّكَبِ
وَلَمَّا غَدَتْ لَأَمَاءَ فِي جَنَبَاتِهَا صَبَّيْنَا عَلَيْهَا وَابِلًا مِنْ دَمٍ سَكَبِ^(٢)

وهو فرح مبتهج بنصر جيشه على حملة الصليب وما أذاقهم من التقتيل ونثر دمائهم على جنات فلسطين حتى سالت هناك أنهارا . وكثيرا ما كان يرسل ببشائر انتصاراته على الصليبيين إلى صديقه أسامة بن منقذ الشَّيْزَرِيِّ وكان قد زار مصر وأقام فيها مدة أيام عباس الصهاجى وانعقدت بينه وبين طلائع صداقة فكان يخبره بانتصاراته حتى يستثير نور الدين صاحب حلب لتضييق الحناق على حملة الصليب ، وكانت فرحته بالغة حين انتصر الجيش المصرى بقيادة ضرغام عليهم فى سنة ٥٥٣ نصرا عظيما ، وصور ذلك لأسامه فى ميمية استلها بقوله :

أَلَا هَكَذَا فِي اللَّهِ تَمْضَى الْعَزَائِمُ وَتَمْضَى لَدَى الْحَرْبِ السِّيُوفُ الصَّوَارِمُ^(٣)
وَتُعْزَى جِيُوشُ الْكُفْرِ فِي عَقْرِ دَارِهَا وَيُوطَا حِجَاهَا وَالْأُنُوفُ رَوَاغِمُ^(٤)
خِيُولُ إِذَا مَا فَارَقَتْ مَصَرَ تَبْغَى عِدَا فَلَهَا النَّصْرُ الْمُبِينُ مَلَاظِمُ
يَسِيرُ بِهَا ضِرْغَامُ فِي كُلِّ مَا زَقَ وَمَا يَصْحَبُ الضَّرْغَامُ إِلَّا الضَّرَاغِمُ^(٥)
فَقُولُوا لِنُورِ الدِّينِ لَا قُلَّ حَدُّهُ وَلَا حَكَمَتْ فِيهِ اللَّيَالِي الْعَوَاشِمُ^(٦)
تَجَهَّزْ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ وَلَا تَهِنْ وَتُظْهَرْ فَتُورَا أَنَّ مَضَتْ مِنْكَ حَارِمُ

(٤) عقر : وسط .

(٥) الضراغم : جمع ضرغام وهو الأسد .

(٦) العواشم : الشديدة الظلم .

(١) عتاق الخيل : كرامها . التقف : القفلة . السهب : المسوى .

(٢) وابلا : مطرا شديدا . السكب : الهائل السائل .

(٣) الصوارم : جمع صارم وهو السيف القاطع .

وهو يشيد بجيش مصر الباسل وانتصاره المدمر للصليبيين : انتصار أسده الهادرة ، ويدعو أسامة إلى إبلاغ نور الدين هذا الانتصار ، وكان حملة الصليب قد استولوا منه على حصن حارم تجاه أنطاكية وعقدوا معه هدنة ، ويدعوه إلى نقض ما أبرم معهم والاستعداد لحربهم حتى يضيق عليهم في الأطراف الشمالية كما يضيق الجيش المصرى في الأطراف الجنوبية .

وكان الأسطول المصرى لا يزال يجوب سواحل الشام ويفتك بسفن الصليبيين وأغار على عكا وثغر بالقرب من حمص يسمى أنطراطوس ونكّل في الثغرين بحملة الصليب وسفهم فكبح طلائع إلى أسامة قصيدة يسأله فيها أن يشير الملك العادل نور الدين بذلك ويستنهضه لفتح القدس يقول :

إن بعض الأسطول نال من الإف رنج مالا يناله التأميلُ
فحوى من عكا وأنطراطوسِ عِدَّة لم يُحِط بها التحصيلُ
أليغن قولنا إلى الملك العا دل فهو المرجو والمأمول
قل له كم تُناطل الدين في الكف ر فاحذر أن يغضب المطولُ
سير إلى القدس واحتسب ذاك في الد ه فبالسير منك يُشفى الغليل

وواضح أن جيوش مصر وأساطيلها لعهد طلائع كانت ماتزال تغدو وتروح إلى حملة الصليب منزلة بهم الهزائم تلو الهزائم . ودائما يستحث طلائع في حماسياته إلى أسامة صاحب نور الدين أن يزحف إلى حملة الصليب شمالا ، بينما يزحف هو إليهم جنوبا ، حتى يقعوا بين شقي الرخا فتدور عليهم الدوائر . ولعل في ذلك ما يشير بوضوح إلى أن مصر لم تقصر في واجبا إزاء حملة الصليب لعهد طلائع ، وكانت تُعدّ حتى أيامه مقصرة في القيام بهذا الواجب ، قصرت أيام الأفضل بن بدر الجمالي ومن جاء في إثره من الوزراء ، فلما أُلقيت مقاليد الأمور إلى طلائع وضع نصب عينيه أن تنهض بواجبها ، فجهّز الجيوش والأساطيل وأمدّها بالرجال والعتاد . ودائما ييب في كثير من حماسياته بنور الدين أن يهجم عليهم شمالا بينما يهجم هو عليهم جنوبا ، حتى يمزقوا كل ممزق ، غير أن يدا آتمة امتدت إليه ، فحالت دون أمانيه في الانتصار الحاسم على حملة الصليب إذ قضت عليه ، وراثه عماره وغيره من الشعراء مرثى حارة .

ابن (١) الذُرَيّ

هو الوجه على بن يحيى الذُرَيّ أصله أو أصل آبائه من ذروة بلدة باليمن ، وفي ترجماته ما يدل على أنه نشأ بمصر إن لم يكن ولد بها ، وهو من شعراء الدولتين الفاطمية والأيوية ، ويقول ابن سعيد : إنه رأى ديوانه وقرأ فيه مدائح في الخليفة العاضد في صباه وأخرى في صلاح الدين وأخيه العادل والقاضي الفاضل وابن شكر وزير العادل . ويذكر بعض المعاصرين أنه توفي سنة ٥٧٧ وقد ذكره العماد في الخريدة التي ألفها في أوائل العقد الثامن من القرن السادس ، فقال إنه شاب نشأ في هذا الزمان ، وفي كلام ابن سعيد المار أنه مدح الخليفة الفاطمي العاضد في صباه ، وذكر أنه مدح ابن شكر وزير العادل منذ سنة ٥٩٥ ولم يذكر السيوطي في حسن المحاضرة تاريخ وفاته ، غير أنه ذكره بعد ابن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ وكل ذلك يؤكد أنه لحق القرن السابع وعاش فيه فترة من الزمن .

وكان ابن الذروري شاعرا مجيدا نوه به معاصروه في المديح ، وأنشد له ابن شاعر في الفوات مقطعات غزلية بديعة ، ويبدو أن ابن سعيد لم يكن يعجب به ، إذ قال إنه اطلع على ديوانه فوجده دون ما كان يظن ، ومن غزلياته قوله :

يَابَانُ إِن كَانَ سُكَّانَ الْحَمَى بَانُوا ففَيْضُ شَأْنِي لَهُ فِي إِثْرِهِمْ شَانُ
مَنْ لِي بِأَقَارِئِ أَنْسٍ فِي دُجَى طُرُرٍ أَفْلَاكُهَا الْعَيْسُ وَالْأَبْرَاجُ أَظْعَانُ^(٢)
مِنْ كُلِّ قَانِيَةِ الْحَدَّيْنِ نَاهِدَةٍ لَوْ كَانَ لِلْضَمِّ أَوْ لِلثَّمِّ إِمْكَانُ

وفي البيت الأول توريتان فكلمة بان الأولى نوع من الشجر طالما ذكره المحبون ، وبانوا بعدها بمعنى بعدوا ، ولفظ شأن الأول : واحد الشئون وهي مجارى الدمع و « شان » في آخر البيت بمعنى خبر . والصورة في البيت الثاني تامة وبديعة ، فهو يتحنن لويلقى أقمارا مضية في ليال شديدة من الطور ، ويقول إنهن ركنن العيس فكأنما تحولت بهن أفلاكا وتحولت الأظعان أبراجا . ولعل

(١) انظر في ابن الذروري وترجمته وأشعاره الخريدة

١٨٧/١ وللغريب (قسم القنطرة) ص ٣٣٣ و ٣٤١ والقوات

١٨٨/٢ وحسن المحاضرة ١/٥٦٥ و ٢/٤١٦ والروستين

٢٧/٢ وفي مواضع متفرقة والخرانة ص ١٢٣ وابن خلكان

في مواضع من تراجمه (انظر القهوس) .

(٢) الطور : جمع طرة وهي مقدمات شعر للمرأة الذي

تصفه على جبهتها . العيس : الإبل .

موهبة الشعرية لم تبرز في فن كما برزت في فن الهجاء ، وقد اشتهرت له قصيدة فيه نظمها في شاعر معاصر له أحذب هو ابن أبي حُصَيْنَة وفيها يقول :

لَا تَظُنُّنَّ حَدْبَةَ الظَّهْرِ عَيْبًا فَهِيَ لِلْحَسَنِ مِنْ صِفَاتِ الْهَلَالِ
وَكَذَاكَ الْقِسْيُ مُحْدَوِّدَاتٌ وَهِيَ أَنْكِي مِنَ الظُّبَا وَالْعَوَالِ ^(١)
وَإِذَا مَا عَلَا السَّنَامُ فِيهِ لِقُرُومِ الْجَمَالِ أَيْ جَمَالِ ^(٢)
وَأَرَى الْإِنْخِنَاءَ فِي مَنْسِرِ الْكَأ سِرٍ يُلْقَى وَمِخْلَبِ الرُّثْبَالِ ^(٣)
قَدْ تَحَلَّيْتَ بِإِنْخِنَاءٍ فَأَنْتَ الْـ رَآحِمُ الْمُسْتَمِرِّ فِي كُلِّ حَالِ
وَتَعَجَّلْتَ حَمْلَ وَزْرِكَ فِي الظَّهِـ رٍ فَأَمَّا فِي مَوْقِفِ الْأَهْوَالِ
كُونَ اللَّهُ حَدْبَةً فِيكَ إِنْ شَدَّ سَتَ مِنْ الْفَضْلِ أَوْ مِنْ الْإِفْضَالِ
فَأَنْتَ رَبُوءٌ عَلَى طَوْدٍ حِلْمٍ مِنْكَ أَوْ مَوْجَةٍ بِبَحْرِ نَوَالِ
مَارَاتُهَا النِّسَاءُ إِلَّا تَمَنَّتْ لَوْ غَدَتْ حَلِيَّةً لِكُلِّ الرَّجَالِ
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْهَجَرِ بُدٌّ فَعَسَى أَنْ تَزُورَنِي فِي الْخِيَالِ

وهو هجاء مؤلم أشد الإيلام ، إذ يعرض فيه حدبة ابن أبي حُصَيْنَة على أنها ميسم جمال وصفة من صفات الحسن في الهلال ، يأخذ في بيان حسننها وفضائلها ، فالقسي أشد فتكا من أسنة السيوف والرماح ، وهي مصدر جمال كالسنام للجبال ، وما كان الانحناء عيبا في منقار النسور ومخلب الأسد المصور . ويتصوره راكعا مدى حياته ، ويعود فينقن عنه تقواه وصلاته ، ويقول إن حدبته وزر كبير مجسّد تعجل حمله في دنياه . ويعود إلى السخرية والتهكم فيقول إنها ربوة تعلو طود حلمه أو موجة تعلو مياهه ، ويبلغ من السخرية به مبلغا بعيدا حين يزعم له أن النساء تعدّها حلية وتتمنى لو تحلّى بها كل الرجال . ويتمادى في سخريته ، فيقول إنه مفتون برؤية جماله ، ولكنه هاجر له أبدا فيتمنى لو رآه . خيالا في منامه وأحلامه . ونحز فقيها متأدبا وخز الإير فيقول فيه :

هُوَ فِي الْفَقْهِ مَاهِرٌ لَا يُبَارَى وَأَدِيبٌ فِي جُمْلَةِ الشُّعْرَاءِ
لَا إِلَى هَؤُلَاءِ - إِنْ طَلَبُوهُ - وَجَسَدُهُ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ

(١) الظبا : جمع ظبه وهي حد السيف . والعوالى :
الرماح .

(٢) قروم الجمال : عظامها

(٣) منسر الكاسر : منقار الطير الجارح . الرثبال :
الأسد .

فهو يدعى الفقه وإذا طلبه الناس بين الفقهاء لم يجدوه وهو يدعى الأدب وإن طلبه الناس بين الأدباء افتقدوه ، وهو يشير إلى الآية الكريمة في سورة النساء : (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) . وكان يعاصره في شبابه شاعر يسمى هبة الله بن وزير دخل معه حماما فقال ابن وزير :

لله يومٌ بحمامٍ نعمتُ بهِ والماءُ ما بيننا من حَوْضِهِ جارى
كانه فوق شَفَافِ الرُّخَامِ ضُحَى ماءٍ يسيل على أبوابِ قَصَارِ
والقَصَارُ : مبيض الثياب وغاسلها ، وكان الشاعر غفل ، فشبه الماء بالماء . وانتبه الصديق ابن الذرؤى الفرصة ، فقال على البديهة :

وشاعرٍ أوقد الطبعُ الذكاءَ له فكاد يَحْرِقُه من فَرَطِ إِذْكَاءِ
أقام يُجْهَدُ أياماً قَرِيبَةً وشَبَّه الماءَ بعد الجُهدِ بالماءِ

وشاع الشطر الأخير على السنة المصريين إلى اليوم لكل من يصيبه مثل هذا العي في الكلام عمدا أو غفلة . وكان أحدا لم يكن يسلم من لسان ابن الذرؤى حتى الأصدقاء ، بل أيضا حتى الطبيعة ، إذ نجده يهجو النيلوفر ، وهو ما يسمى في الريف المصرى باسم البشنين وهو زهر متفاوت الزرقة والحمرة بديع المنظر ، ولم يشفع له حسنه عند ابن الذرؤى فعمد إلى هجائه بقوله :

وَنَيْلَوْفَرٌ أَبَدَى لَنَا باطِنًا له مع الظاهر الخضرُ حُمْرَةً عَنَدَمَ^(١)
فَشَبَّهَتْهُ لَمَّا قَصَدْتُ هِجَاءَهُ بكاسات حِجَامٍ بها لَوْنُهُ الدَّمُ^(٢)

وكانه يريد أن يقول إنه يستطيع أن يقبِّح كل حسن مها يكن حسنه حتى زهر النيلوفر الذى طالما تغنى به الشعراء المصريون من قبله ومن حوله ، وقد تغنوا به طويلا من بعده .

(٢) الحجام : محترف أخذ الدم بالهجم .

(١) العندم : خشب أحمر يتخذ للصبغة .

أحمد^(١) بن عبد الدائم

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشَّرْمَسَاحِي نسبة إلى شَرِّ مَسَاح : بلدة قريبة من المنصورة في شمال الدلتا ، ولد في أوائل زَمَنِ المَالِك سنة ٦٦٣ وأقبل مثل لداته على الدراسات الدينية واللغوية ، وأكْبَّ على الشعر حتى مهر فيه غير أنه لم يتجه به إلى زهد وتصوف ولا إلى غزل ومديح ، وإنما اتجه به إلى الهجاء يسلق الناس بلسانه ويخافون شره فيبادرون إلى إعطائه بعض التوال . ولم يقف بهجائه عند أهل مصر فقد كان يرحل إلى دمشق ويتخذ هناك نفس الوسيلة ، ويقال إنه دخل على قاضيه شهاب الدين الحَوَّيِّي وقدم إليه قصيدة هجو فردّها إليه وقال له : كأنك ذاهل ، فقال له : لست بذاهل ، بل صنعت ذلك عمدا لأشهر فإنك إذا أدبني قال الناس : ما هذا ؟ فيجيبهم المؤدبون : هذا غريم القاضي ، فأشهر ، فوصله وعفا عنه . وكان لا يقف في الهجاء عند حد ، إذ كان يستخدمه كما رأينا في هجو القضاة كذبا وبهتاناً ، وبالمثل كان يستخدمه في هجو علماء الدين غير متورع ، من ذلك أن المظفر بيبرس الجاشنكير كان يقرب منه في سلطنته بعد خلع الناصر بن قلاوون لنفسه سنة ٧٠٨ كلا من الفقيه ابن عدلان وزميله الفقيه ابن المرحّل الدمياطي ، حتى إذا دار العام عزل نفسه وعاد الناصر بن قلاوون ، ولم يُضْع ابن عبد الدائم الفرصة ، فقد مدح الناصر بقصيدة يهنته فيها بعودته إلى عرشه ويهجو المظفر بيبرس ويعرّض بصحبته لشمس الدين محمد بن عدلان وصدر الدين محمد بن زين الدين الملقب بابن المرحّل وبابن الوكيل ، ومن قوله فيها :

وَلِيَّ الْمَظْفَرِ لَمَّا فَاتَهُ الظَّفَرُ وَنَاصِرُ الْحَقِّ وَافَى وَهُوَ مُنْتَصِرُ
فَقُلْ لِيَبِيرَسَ إِنْ الدَّهْرَ أَلْبَسَهُ أَثْوَابَ عَارِيَةٍ فِي طَوْلِهَا قِصْرُ
لَمَّا تَوَلَّى تَوَلَّى الْخَيْرُ عَنْ أَمِيرٍ لَمْ يَحْمَدُوا أَمْرَهُمْ فِيهَا وَلَا شَكَرُوا^(٢)
وَكَيْفَ تَمْشِي بِهِ الْأَحْوَالُ فِي زَمَنِ لَا التَّيْلُ وَافَى وَلَا وَاظَاهُمْ مَطَرُ
وَمَنْ يَقُومُ ابْنُ عَدْلَانَ بِنُصْرَتِهِ وَابْنُ الْمَرْحَلِ قُلُّ لِي كَيْفَ يَتَصَرُّ؟

(٢) تولى الأولى بمعنى تقلد الحكم . وتولى الثانية بمعنى أدير وأعرض .

(١) انظر في أحمد بن عبد الدائم وترجمته وأسماءه القهزات ٨٦/١ والدرر الكاسية لابن حجر ١٧١/١ والنجوم الزاهرة ٩/٩ ، ٢٤٩ .

وكان قد تصادف أن المطر لم يسقط في سنة ٧٠٩ بأرض مصر وقصّر النيل في فيضانه أجذبت بعض البلاد وارتفع السعر . وعفا الناصر عن الشيخين في انضمامهما ضده إلى بيبرس الجاشنكير ، وكان ابن عدلان يتولى نيابة الحكم فأعفاه منها ، ومّرّ به ابن عبد الدائم فأنشده :

والله ماسرّنى عزلُ ابنِ عدلانِ

فقال له : جزيته خيرا . فأكمل البيت قائلا :

من غير صَفْعٍ ولا والله أرضانى

وشاعت القصيدة . وكان آخر شيخ رماه بهام هجائه قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة وكان يشرف على الأوقاف ، وكأنه أراد أن يبتزّه ، وكانت فيه صرامة فازدراه فانتقم لنفسه بهجائه وهجاء ابنه سنة ٧١٣ وكان فقيها ورعاً مثل أبيه ، وتمضى القصيدة على هذا النمط .

متى يسمعُ السلطانُ شكوى المدارسِ ، وأوقافُها ما بين عافٍ ودارسٍ^(١)
يموت عديمُ القوتِ بالجوعِ حسرةً وَيَشْبَعُ بالأوقافِ أهلُ الطَّيَالِسِ^(٢)

وأخذ يتهم القاضى وابنه بعظائم هما منها براء ، وكلها كذب وبهتان وافتراء ، وكاد القاضى ينزل به عقابا صارما لولا أن تدخل بعض الأمراء واستعفاه فعفا عنه . وازدراه الناس بعد هذه الحادثة ازدراء شديداً ، وساءت حالته ، فإن لحوم العلماء مسمومة . وأخذ ينتقل في البلاد لا يتحرى طريق الرشاد إلى أن عاجلته منيته حوالى سنة ٧٢٠ وكأنما كان غمة زالت عن صدور الناس والشيخوخ في زمنه .

حسن البدرى الحجازى الأزهرى^(٣)

يقول الجبْرِتى في ترجمته : « كان عالما فصيحاً مفوها متكلماً منتقداً على أهل عصره وأبناء عصره » . ويقول كان أبوه ملازماً لقراءة كتاب الصحاح الستة : صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن ابن ماجه وسنن أبى داود وسنن النسائى وجامع الترمذى . وقد تفتحت موهبة الابن في سن

(٣) انظر في حسن البدرى الحجازى الأزهرى تاريخ

(١) عاف ودارس : محو زائل .

الجبْرِتى ٧٥/١ وما بعدها .

(٢) الطيالىس : جمع طيلسان وهو كساء كان خاصا

بعلماء الدين تمييزاً لهم .

مبكرة وعُنى بنظم كثير من المتون العلمية مثل رسالة الوضع للعلامة العضد ، والدرّة السنيّة في الأشكال المنطقية ورموز الجامع الصغير ، وكانت وفاته سنة ١١٣١ للهجرة . وكان قد أصبح شاعراً كبيراً ويصف الجعبرى شعره فيقول : له في الشعر طريقة بدیعة وسليقة منیعة ، على غيره رفيعة ، وقلماً تجد في نظمه حشواً أو تكلّة ، وله أرجوزة في التصوف في نحو ١٥٠٠ بيت على طريقة الصادح والباغم ضمنها أمثالا ونوادر وحكايات ، وديوانه على حروف المعجم سماه باسمين : « تنبيه الأفكار للنافع الضار وإجماع الایناس من الوثوق بالناس شرح فيه حقيقة شرار الخليفة من الناس ، المنحرفة طباعهم عن طريقة قويم القياس » . وواضح من تسميته لديوانه أن شعره أوجهوره على الأقل لم يكن مديحاً وهجاء وغزلاً وعتاباً وما إلى ذلك من موضوعات الشعر المعروفة إنما كان نقداً للمجتمع ، وهو نقد يشوبه كثير من الذم لسلك الناس حتى ليدعو إلى اعتزالهم لما يتصفون به من الطمع والجشع والأنانية ، والعامل من اجتنبهم وفّر منهم فرار السليم من الأجرب لا من الأبعاد فحسب بل أيضاً من الأقارب ، يقول :

أخى فطناً كنّ واحذر الناسَ جملةً ولا تكلّ مغرورَ الظنون الكواذب
ولا سماً نوعُ الأقارب إنهم عقابك في الدنيا وعُقرُ العقارب^(١)

ويستمر في هجو الأقارب وأنهم يتمنون الموت لك ، إن كنت ثرياً ليرثوك ، وإن كنت فقيراً كنت لديهم خسيساً أخس من الكلاب . وهو على هذا النحو سيئ الظن بالناس حتى بالأقرباء من ذوى الرحم ، وكاد لا يسلم من سياط ذمه وهجائه أحد حتى المتصوفة ، يقول فيهم من قصيدة طويلة :

احذرْ أولى التَّسبيحِ والسَّبحةِ	والصُّوفِ والعُكَّازِ والشَّمْلَةِ ^(٢)
قد صار إبليس لهم تابعاً	يقول يا لِّلْعَنُونِ والتَّجْدَةِ
مما حَوَّيْتُمْ علِّمُوني فما	لِي عنكم في المكر من غُبَّةِ
لكم قِبادى وانقيادى وما	مثلكم في النادِ والثَّدْوَةِ ^(٣)
وأنتم تاجى على هامى	ماهِمْتِ إلَّا كنتمْ هِمَّتِي ^(٤)

(١) التاد : التادى حلفت الياء لضرورة الشعر .

(٢) همت : من هام بهم إذا خرج على وجهه لا يدرى أين يتوجه .

(٣) همر : بيت أو منزل .

(٤) الشملة : شال كالطيلسان يتلفح به على للتكئين والصبر .

وهو طبعاً يقصد نفراً من المتصوفة حادوا عن طريق التصوف وانحرفوا عن واجباته ومسئوليته ، وتورطوا - كما يقول في القصيدة - في بعض الآثام ، وكان يؤذيه منهم من يدعون الجنون وتظنهم العامة أقطاباً وأولياء ، حتى إذا ماتوا شادوا لهم أضرحة وجعلوها مزاراً ، يقول :

لَيْتَنَّا لَمْ نَعِشْ إِلَى أَنْ رَأَيْنَا كُلَّ ذِي جَنَّةٍ لَدَى النَّاسِ . قُطِبَا
عَلَمًا هُم بِهِ يَلُودُونَ بَلْ قَدْ تَخَذُوهُ مِنْ دُونِ ذِي الْعَرْشِ رَبًّا
إِذْ نَسُوا اللَّهَ قَاتِلِينَ فُلَانٍ عَنْ جَمِيعِ الْأَنْثَامِ يُفْرِجُ كَرْبًا
وَإِذَا مَاتَ يَجْعَلُوهُ مَزَارًا وَلَهُ يُهْرَعُونَ عُجْمًا وَعَرَبًا

وكاننا بإزاء داعٍ مصرى يدعو ضد الصوفية ومن كانت تسميهم العامة بالجنوديين وتقيم لهم الأضرحة والمزارات وتطلب منهم الدعاء أحياء وتقدم لهم النذور أمواتاً . ومع كثرة أشعاره في هذا الجانب لم تترك وراءها في مصر أثراً . على أننا نجده يوجه ذمه وهجاءه - ظلماً وعدواناً - لبعض رجال الدين كما وجهه إلى المتصوفة ، وهو في ذلك كله يسرف في هجائه وذمه ، فلا رجال الدين انصرفوا عن التقوى ولا المصريون اتخذوا أقطاب الصوفية أرباباً .

٣

شعراء الطبيعة ومجالس اللهو

عاش شعراء مصر على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه ، ينعمون بمباهه المتدفقة العذبة وبما ينشئ من غروس وزروع وثمار وأزهار ، وهو يجرى ناقلاً لعبابه من حوض إلى حوض ، بأنحاء الحياة والجمال في كل ما يمس ، مما جعل العرب يلقبون مصر حين فتحوها بأنها فردوس الدنيا . وقد وصفها القرآن الكريم بأنها جنات وعيون وزروع ومقام كريم . وفي كل مكان نعم الشعراء بهذه الجنات يسرّحون الطرف فيها والخيال ، فتكون لديهم حاسة الجمال ، ويتمتعهم الشعور بما خصّ الله ديارهم من هذا النعيم الذي يقصر أى وصف عن تصويره . وطبيعى أن يتردد ذكر النيل على ألسنة الشعراء وذكر مشاهد رياضه الفاتنة وقواربه وسفنه الشراعية . ومحدثنا ابن قيس الرقيات حين زار مصر لعهد واليها عبد العزيز بن مروان في العصر الأموى عن رحلة نيلية له من الفسطاط إلى حلوان . وعنى شعراء مصر بعده بوصف مثل هذه الرحلة ووصف النيل وزوارقه وسفنه ، غير أن الشعر المصرى في عصر الولاية لم يبق منه القليل وإلا بقية تتصل بالأحداث والولاية والقضاة

احفظ بها الكندى . وتبدو العناية بتدوين أشعار الشعراء منذ عهد الدولة الطولونية ، ونجد المرمى القاسم بن يحيى شاعر خارويه يخصص النيل بقصيدة بديعة يصور فيها مراكبه بمثل قوله ^(١)

وَمَطَايَا لَا يَفْتَدِينَ وَلَا يَسْ أَمَّنَ كَذُّ الْبُكُورِ بَعْدَ الرُّوْحِ ^(٢)
أَصْلُهَا الْبَرُّ وَهِيَ سَاكِنَةٌ فِي الْ سَبْحِ سَكْنَى إِقَامَةٍ لَا بَرَحِ
وَإِذَا أُوقِرَتْ فَذَاتُ وَقَارٍ وَإِذَا أُخْلِيَتْ فَذَاتُ مِرَاحٍ ^(٣)
جَارِيَاتٌ مَعَ الرِّيحِ وَطَوْرًا كَاسِرَاتٌ بِالْجَرَى جِدُّ الرِّيحِ
سَارِيَاتٌ لَا يَشْتَكِينَ سُرَى اللَّيْلِ لَمْ يَلْ يَرْتَقِبْنَ ضَوْءَ الصَّبَاحِ
لَا يَحْفَنَ الْغَارَ يُقَدِّفْنَ فِيهَا وَيَحْفَنَ الْمُرُورَ بِالضُّحَاخِ ^(٤)

ويطلب في تصوير المراكب ، فهي في الماء وهي خالية تماما من الماء ، وهي ذات أجنحة بيضاء وإن لم يكن لها جناح حقيقى ، وهي من البيض ويطل شطرها الأسفل بالقار ، فهي يضاء سوداء من ذوات الألواح لا الأرواح ، وتقر على الشاطئ فتسكن دون ذلة في السكون ، وتسير على صفحة النيل وتجذ في سيرها دون اعتزام جهاج ، وكأنها على الماء قصور متحركة ، وتنساب في النيل خفيفة خفة الأفاعي ، وتتجمع أحيانا فتظنها كباشا سودا تقابل للنطاح . ومع ضؤولة ملاحها يحسن تدبير جريها مع الرياح مكافحا في ذلك أشد الكفاح ، وله مساعدون يكثر من الصباح حتى كأن السفن تجري خوفا من صياحهم . وهو تصوير بديع للسفن السابجة في النيل من شاطئ إلى شاطئ ومن مكان إلى مكان . ويوجز تميم بن المعز القول في وصف النيل وسفنه فيقول ^(٥) :

يَوْمَ لَنَا بِالنَّيْلِ مُحْتَصِرٌ وَلِكُلِّ يَوْمٍ مَسْرَةٌ قِصَرٌ
وَالسُّفُنُ تَجْرَى كَالْحَيُولِ بِنَا صُعْدًا وَجَيْشُ الْمَاءِ مُنْحَدِرٌ
فَكَأَنَّمَا أَمَاجُهُ عُكِّنُ وَكَأَنَّمَا دَارَاتُهُ سُرُرٌ ^(٦)

(٤) الغار : جمع غمر وهو لاء الكثير المعين الضحاح : لاء القليل لاعمق فيه .

(٥) ديوان تميم ص ٧٤١ .

(٦) المعن : جمع عكة وهي ماثل من ظاهر البطن وطياتها .

(١) انظر مقالا من المرمى لجلال ناجى بمجلة الكتاب العراقية في العدد الثامن من السنة الثامنة

(٢) الرواح : الرجوع في المشى .

(٣) أوقرت : حملت حملا قليلا . المراح : للريح والشاط .

والصورة الأخيرة للنيل بديعة ، فكأن أمواجه عُكِّنَ أو ثُنِيَت أمامية لأجساد عارية وكأنما
فواراته أو داراته في فيضانه السُّرُّ أو النقر الصغيرة أو الثُّكَّت في بطون من كن يهدين إلى النيل من
عرائسه . ولعم أشعار كثيرة في وصف الحدائق والأزهار والثمار . ومن أوصافه الطريفة قوله في
الناعورة ^(١) :

تشنّ وليست بمحزونة أنين الحبّ الكثيب الحزين
فتنطق بالصوت لا من قم وتقف بالدمع لا من جفون
كان لها ميتا في الثرى فأدمعها هُمع كل حين ^(٢)
إذا زمرت أطربت نفسها فغنت بمخلفات اللحن
غناء يرقص كيزانها ويظهر فيهن وثب المجون
فتهوى فوارغ في برها وتضعدها منها ملاء العيون

والناعورة تن أنين الحب اللانس الحزين وتشكو لا بفم وتبكي لا من عين ، وتلحن مختلف
اللحن وكيزانها ترقص هاوية فارغة وصاعدة ممتلئة ، لا تلتقي أبدا . ولظافر الحداد أشعار كثيرة في
الرياض والثمار والأزهار ، ومن قوله في النخل وبُسرُه أو بلحه ^(٣) :

النخل كاليف الحسان تزيّنت فليسن من أثمارهن قلائدا

وكانها في خياله فانتات تترين حول جيدها بعقود البسر الزمردية والياقوتية ، ويشبه طلعتها
الأخضر وهو لا يزال مغلقا على سنابل البلح البيضاء في أول تكونها بسلاسل من فضة يضمها حق
من خشب الصندل طيب الرائحة . أما حين يتفتح الطلع ويظهر بلحه الأخضر المتصل بسنبله
الصفراء فكأحل من زبرجد رموسها مسها الذهب . وأما الخوص الأخضر وتحت البلح الأحمر
فزبرجد يشر عقيقا ، وكأنما الطبيعة جميعها من حول الشاعر جواهر نفيسة .

ويتغنى ظافر بركة الحبش في مصر القديمة وكانت تشرف عليها قصور تميم ، كما يتغنى بجزيرة
الروضة التي يفتقر النيل عندها أمام القاهرة وسرعان ما يجتمع ، ويجعلها منه هي وأختا لها بجوارها
بمتلة السراويل ، ويعجب ابن قلاص بغروب الشمس وراء النيل فيقول ^(٤) :

(٣) حسن الماخضة ٤٣٥/٢ .

(٤) الديوان ص ٧٥ .

(١) الديوان ص ٤٢٤ .

(٢) هم : سواكل .

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربةً واعجب لما بعدها من حُمرة الشفقِ
غابتْ وأبدت شعاعاً فيه يخلفها كأنما احترقتْ بالماء في الفرقِ
وللهلال فهل وافي لثِقْدَها في إثرها زورقٌ قد صيغَ من ورقٍ^(١)

وهي صورة خيالية بديعة ، فقد غابت الشمس بل احترقت في النيل وخلفت فيه شعاعاً ، كما خلفت على صفحة الأفق حمرة الشفق ، ويتسع به الخيال فيتصور الهلال زورقاً من فضة جاء لإنقاذها من الفرق . ويموج بصدر البهاء زهير الحنين إلى مصر وهو مع الملك الصالح في الديار الشرقية نواحي الفرات ، فيتشوق إلى النيل ورحلاته النيلية فيه ، وينشد^(٢) :

حبذا النيلُ والمراكبُ فيه مُصعداتٍ بنا ومنحدراتٍ
ولياليُ بالجزيرةِ والجدِ حِزّةٍ فيما اشتيتُ من لذاتي
بين روضٍ حكى ظهورَ الطواويـسِ وجوً حكى بطونَ البزاةِ^(٣)
حيث مَجْرَى الخليجِ كالحَيّةِ الرُّقْدِ طاء بين الرياضِ والجَنّاتِ
هاتِ زفنى من الحديثِ عن النِّيلِ لي ودغنى من دِجَلَةِ والفراتِ

إنه يذكر ذكرى عطرة رحلاته النيلية وامواج النيل تصعد بقاربه وغيره من القوارب وتنحدر ، وماتى صاعدة منحدره ، كما يذكر ذكرى عطرة مجالس أنسه في الجزيرة وجزيرة الروضة والطبيعة متبرجة بأزهارها وورودها من حوله وهي مختلفة الألوان البهجة كأنها ألوان الطواويس في جو صاف صفاء بطون البزاة الطائرة ، والنيل يجري في خلجانه وبين رياضه كأنه حيات تسعى ، حيات لا تنفث السم بل تنفث الحياة في الوديان والسهول الخضراء الجميلة ، ويخفق قلب البهاء مراراً بهذا الحنين في أشعاره . وتُظِلُّ مصرَ أيامُ المالكِ ويَظِلُّ الشعراءُ يتغنون بالطبيعة المصرية ومفاتيها الرائعة من النيل وقواربه ونزهاته وأشجاره وأزهاره ، ولابن مكناس المتوفى سنة ٧٩٤ وُصِفَ لشجرة سُرّو باسقة قصّد موضعها مع بعض رفاقه ، ووَصَفَ معها القارب المظلي بالقار الذي ركبه ، يقول^(٤)

مالتْ على البُهرِ إذ جاشَ الحَرِيرُ به . كأنها أذنْ مالتْ لإصفاء

(١) ورق : فضة . طويلة الساق والذهب .

(٢) البهاء زهير ص ٢ .

(٣) البزاة : جمع بازى وهي جنس من الصقور الصغيرة

(٤) خزنة الأدب للحموى ص ٤٢٤ .

كَانَ صَمْنُهَا الْحَمْرَا بِقَشْرَتِهَا الْـ لِدُكْنَاءِ قُرْصُ عَلَى أَعْكَانٍ سَمْرَاءِ
نَسَعَى إِلَيْهَا عَلَى جَرْدَاءِ جَارِيَةٍ مِنْ آلَةِ كَهْلَالِ الْأَفْقِ حَدْبَاءِ
سُودَاءِ تَحْكِي عَلَى الْمَاءِ الْمُصْنَدَلِ شَا مَةً عَلَى شَفَةِ كَالشَّهْدِ لَعْنَاءِ

والتصوير في الأبيات بديع ، فشجرة السرو المائلة على النيل كأنها أذن مالت لتصني إلى
خَرِيرِهِ ، ويتخيلها بلونها الأحمر الداكن وهي منحنية على أمواج النيل في فيضانه كأنها قرص
ملتصق بطيات بطن لسمرء عارية . ويقول ابن مكناس إنهم سَعَوْا إِلَيْهَا فِي سَفِينَةِ حَدْبَاءِ كَهْلَالِ
الْأَفْقِ سُودَاءِ ، ويتخيلها على ماء النيل الداكن المعطر عطر خشب الصندل شامة مطبوعة لا على
خَدٍّ ، وإنما على شفة ضاربة إلى السواد تقطر شَهْدًا وَعَسَلًا مصفى .

وبجانب شعر الطبيعة المصرية ومفاتها الجميلة نجد شعراء يتغنون بمجالس الأنس والشراب ،
وقد زار مصر - كما مر بنا - أبو نواس أكبر من تغنوا بالخمير وكثوسها وسقاتها وتلدماها ، ولكن
يبدو أنه لم يخلف من مجونه أثرًا أو آثارًا واضحة ، لأن الشعب المصرى بطبيعته معتدل ولا يجترئ
على ما حرّمه الدين ، وفي رأى أن المصريين إنما كانوا يحاكون شعراء العصر العباسى في المديح وغير
المديح ودفعتهم هذه المحاكاة أو قل دفعت نفرا منهم نلتقى به منذ أيام الطولونيين إلى التغنى بالخمير ،
إما إدمانا عليها وإما محاكاة وتقليدًا لأبى نواس وأضرابه . وكان أول ما ساعد على ظهور هذا النفر
أن أحمد بن طولون مع تمسكه بالدين كان لا يتحرج من معاورة الخمر ومثله ابنه خجارويه ، ويقال
إنه كان يشرب أربعين رطلا من النبيذ^(١) . فحاكما بعض الشعراء في احتساء الخمر ، وأخذوا
يقصدون لها الأديرة ، واشتهرت منذ هذا الحين أربعة أديرة ذكرها الشافعى في كتابه الديارات ،
وهى دير القُصَيْرِ على قمة الجبل الشرقى ويشرف على طرة والنيل ، وكان خجارويه كثيرا ما يزوره ،
ودير مَرَحْنًا بمصر القديمة على شاطئ بركة الحبش ، ودير نَها بالجيزة ، ودير طمويه بجوار حلوان .
ويلقانا في أيام الإخشيديين غير شاعر يعكف على كثوس الخمر حتى الثمالة ، يتقدمهم أحمد بن
محمد بن طباطبا نقيب الأشراف العلويين بمصر ، وفيها يقول :^(٢)

أَتَرَكُ الشَّرْبَ وَالْأَمْطَارُ دَائِمَةً وَالطَّلُّ مِنْهَا عَلَى الْأَشْجَارِ مَشُورُ
وَالْعُصْنُ يَهْتَرُ كَالثَّشْوَانِ مِنْ طَرَبٍ - وَالْوَرْدُ فِي الْعُودِ مَطْوًى وَمَنْشُورُ

وإذا كان نقيب الأشراف يشربها حتى الغالة فقد حاكاه غير شاعر من مثل سعيد المنبوز باسم قاضي البقر وصالح بن مؤنس ومحمد بن عاصم وابن أبي العصام ، وكان الأخيران يلان بالأديرة ، وكان ثانيهما خاصة يتهتك في شرها ويجترى على الدين في غير استحياء حتى ليقول في وصف مجلس آثم من مجالسه ^(١) :

مجلسٌ لا يرى الإلهُ به غَيْدَ رَ مُصَلٍّ بلا وضوءٍ وطُهرٍ
سُجَّدٌ للكثوس من دون تَسْيِيحٍ سوى نَعْمَةٍ لعودٍ وزمرٍ

فهو يعيش معيشة مزرية ماجنة أشد ما يكون المحون مستهترة أسوأ ما يكون الاستهتار .
ونلتقى بتميم بن المعز ، ومربنا أن أباه حرمه من ولاية العهد لانحرافه وسوء سلوكه وما سمعه عن مجونه ، وله في الخمر أشعار كثيرة ، وقد يسوق الحديث فيها منفردة ، وقد يجمع بينها وبين جلال الطبيعة أو بينها وبين بعض صواحيبه ، ومن قوله فيها وفي الورد ^(٢) :

ووردٍ أعارته الغواني خُدودَهَا وأهدى إليه المسكُ أنفاسَ مَفْتُوقَةٍ
كَأَنَّ النَّدَى فِيهِ مَدَامُعُ عاشِقِي أُرِيقَتْ غَدَاةَ الْبَيْنِ فِي خَدٍّ مَعشوقَةٍ
أَدْرَنَّا كُثُوسَ الرِّاحِ فِي جَنَابَاتِهِ عَلَى حُسْنِ مَرَاهِ وَرَقَةٍ تَوْرِيقَةٍ

وواضح أنه يحسن التصوير ، فالورد خدود الغواني وهو عبق بشذا المسك ، وكأن الندى فيه دموع عاشق تناثرت على خد معشوقه يوم الفراق ، وهو يشرب على حسنه ورقة أوراقه . ومن طريف ماله في المزج بين الخمر وصاحبته قوله ^(٣) :

ناولتها مثل خَدَّيْهَا مُشْعِشَعَةً صَرَفَا كَانَ سَنَاهَا ضَوْءٌ مِقْبَاسٍ ^(٤)
فَقَبِلَتْهَا وَقَالَتْ وَهِيَ ضَاحِكَةٌ وَكَيْفَ تَسْقِي خُدُودَ النَّاسِ لِلنَّاسِ
إِذَا تَنَاوَلْتُ خَدَّيْ كُنْتُ نَائِلَةً نَفْسِي وَهَذَا لِعَمْرَى غَيْرُ مَنَاقِسِ

والفكرة بديعة ، فالخمر تشبه خديها بلونها ووهجها ، وتناولت كأسها منه وقبلته مازحة قائلة له : كيف تسقي خدود الناس للناس ؟ وكأنه قدَّم لها خدودها لتشرها ، بل كأنه قدم لها نفسها ،

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٢٧٣ .

(٢) الديوان ص ٢٤٩ .

(٣) الديوان ص ٢٩٨ .

(٤) المقياس : شعلة النار .

وهل من أحد يشرب نفسه ، وإنه لقياس غريب ، بل لا ينقاس . وقبس منه الفكرة ابن هاني الصغير المتوفى لأواخر العهد الفاطمي ، إذ يقول في خمريته له ^(١) :

ومفهفٌ أبدى الشبابُ بخذه صدغاً فرقوقَ وزده في آسه ^(٢)
تلهبُ الصُّهباءُ في وجناته فتسير من عينيه في جلّاسه
حتى إذا ملأَ الزجاجةَ خده نوراً وفاحَ الخمرُ من أنفاسه
خالَ الزجاجةَ أفعمتَ بدمامةٍ فدنا ليشرب نُوره من كاسه

وهو يقول إن صدغ الشعر أو خصلته تمتزج بخده كما يمتزج الآس الأبيض بالورد ، ويتسع به الخيال فيقول إن الخمر تلهب في خده فتلهب السحر في عينيه فيسير منها إلى جلّاسه ، حتى إذا ملأ خده الكأس نورا ظلها ملئت خمرًا ، واستحال ظنه يقينا ودنا من الكأس يريد أن يحتسيها . ولا ينسأ الملك خمريات مرحة في لغة سهلة سلسلة من مثل قوله ^(٣) :

أين كثوسى وأين أكوانى فهى وحقّ المجونِ أُولى بى
يبدو عليها الحبابُ إن مُزجتُ مثلَ عيونٍ بغيرِ أهدابِ
تأتى ويأتى السرورُ يتبعها كأنه واقفٌ على البابِ
أسجدُ شكرًا لها إذا طلعتُ كأن كاسى لدىّ محرابِ

وهو يصور في خمرياته مرحًا وابتهاجا ، ومربنا أنه كان يعيش في بلهنية ونعيم ، وقلما كان يعترضه في حياته شوك يؤذيه ، فهى ورد عطر ، وهى ترف ، وكل وسائل الترف مهيأة له ، لذلك لا نعجب إذا رأيناه مرحا في خمرياته .

وكانت حياة ابن النبيه هنيئة لينة ناعمة مثله ، مما جعل خمرياته تطفح بالمرح والابتهاج والشعور بأن كل ما فى الكون والطبيعة رائق شائق ، ومن طريف خمرياته قوله ^(٤) :

باكرُ صَبوحَكَ أَهْنَا العيشِ باكرُهُ فقد ترنّم فوقَ الأيكِ طائِرُهُ ^(٥)
واللَّيْلُ تجرى الدردارى في مجرته كأزروض تطفو على نهرِ أزهرة ^(٦)

(٥) الأيك : الشجر الملتف .

(٦) الدردارى : الكواكب الثلاثة . المجرة : مجموعة من

النجوم تبدو كوشاح أبيض .

(١) الحريدة (قسم مصر) ٢٧٠/١ .

(٢) رقوق : مزج .

(٣) الديوان ص ٣٤

(٤) الديوان ص ٩١

فَانْهَضْ إِلَى ذَوْبٍ يَأْقُوتِ لَهَا حَبَبٌ تَتُوبُ عَنْ نَعْرِ مَنْ تَهْوَى جَوَاهِرُهُ
 حَمْرَاءَ فِي وَجْهَةِ السَّاقِ لَهَا شَبَّةٌ فَهَلْ جَنَّاها مَعَ الْعَنْقُودِ عَاصِرُهُ
 سَاقٍ تَكُونُ مِنْ صُبْحٍ وَمِنْ غَسَقٍ فَايْبُضْ خَدَّاهُ وَاسْوَدَّتْ غَدَائِرُهُ^(١)
 تَعْلَمْتُ بَأَنَّهُ الْوَادِي شَمَائِلُهُ وَزَوَّرْتُ سَحَرَ عَيْنِهِ جَاذِرُهُ^(٢)
 فَلَوْ رَأَتْ مُقْلَتَا هَارُوتَ آيَتَهُ الـ كُكْبَرَى لَأَمِنْ بَعْدَ الْكُفْرِ سَاحِرُهُ

والفرحة تسرى في الخمرية ، وتلف كل شيء فيها ، فالطير يتغنى فرحا على الغصون ، والسماء منورة بكواكبها الساطعة ، وحباب الكأس كأنه ثغر الحبيبة ، والخمر حمراء كخدها وكأنما الجاني اقتطف خمرته مع عنقودها وما أجمل بياض خديها المشرقين وسواد صفائرها البهيجة ، وكأنما قبست بانه الوادي رشاقتها ، وزوَّرت جاذره سحر عينها الخلابتين ، ولو رآه هاروت لآمن بربه وكفَّ عن سحره .

ويكثر من الخمريات شعراء اللهو والخمر في أوائل عصر الماليك مثل الجزار والوراق وابن دانيال ومستحدث عنهم بين شعراء الفكاهة . ولعل مما يشهد بأن كثيرين ممن كانوا ينظمون الخمريات إنما كانوا ينظمونها محاكاة وتقليداً ولم يكونوا يتعاطون الخمر ولا تورطوا في إثمها أن نجد فقيها كبيرا من فقهاء زمن الماليك هو صدر الدين محمد بن عمر المشهور باسم ابن المرحل وابن الوكيل المتوفى سنة ٧١٦ ينظم فيها خمرية تداولها الرواة في عصره وبعد عصره استهلها على هذا النمط^(٣) .

لِيَذْهَبُوا فِي مَلَامِي آيَةً ذَهَبُوا فِي الْخَمْرِ لَا فِضَّةً تَبْقَى وَلَا ذَهَبُ
 لَا تَأْسَفُنَّ عَلَى مَالٍ تَمَزَّقُهُ أَيْدِي سُقَاةِ الطَّلَا وَالْخُرْدُ الْعَرَبُ^(٤)
 فَمَا كَسَوْا رَاحَتِي مِنْ رَاحِيهَا حُلَلًا إِلَّا وَعَرَّوْا قَوَادِي الْهَمِّ وَاسْتَلَبُوا

وقد مضى يجيب فيها ويفرى بها على عادة المجان ، مما جعل بعض الناس يتهمه بمعاقرتها ، وقُدِّم للقضاء وثبتت براءته من وزرها الآثم ، وعاد إلى دروسه وعاد إليه طلابه . وللشيخ برهان الدين القيراطي الذي مرت ترجمته بين شعراء الغزل خمريات بدوره ، وكان فقيها ومحدثا ، وكأنه

(٣) الفوات ٥٠٢/٢ .

(١) الفسق : الظلام . الندائر : الصفائر

(٤) الطلاد : الخمر . الخرد : جمع خريدة وهي البكر الحية .

(٢) الجاذر : جمع جاذر وهو ولد البقرة الوحشية المعروفة بجمال عينيها .

ينطق بلسان شاعر ما جن كبير ، إذ يقول ^(١) :

كم ليلة نأدمتُ بدرَ سماءها والشمسُ تُشرقُ في أكفِ سقَاتِها
والبدرُ يُستَرُّ بالغيومِ ويَنجَلِي كتنفُسِ الحساءِ في مرَاتِها
خالفْتُ في الصُّبَّاءِ كلَّ مقلِّدٍ وسعيتُ مجتهداً إلى حاناتِها
أحرَّكَ الأوتارَ إن نفوسنا سكناؤها وَقَفُّ على حركاتِها
ومليحةٍ أرغمتُ فيها عاذلي قامتُ إلى وصلي برغم وُشَاتِها
ياخَجَلَةُ الأغصانِ من خَطَرَاتِها وفضيحةِ الغزلانِ من لَفَاتِها

والقيراطي إنما يستخدم مهارته الفنية التي صوّرها في غير هذا الموضع ، ليدل على براعته في محاكاة المجان لزمّنه ، بل لعل أحدا من معاصريه لا يستطيع اللحاق به في مثل هذه الآيات ، وهو يجمع فيها بين جمال الطبيعة في الليالي القمرية وبين الصبهاء أو الخمر وصاحبته أو الغزل ، وهي طويلة ، وقد توه بها الأسلاف طويلا لروعتها الموسيقية والتصويرية .

وأخذ يزاحم الخمر في عصر الماليك تعاطي الحشيش ، وحين أمر الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦ هـ . بإغلاق حانات الخمر وحَطَمَ دَنَانِها أمر بحرق الحشيش ، وأشار إلى ذلك ابن دانيال في بعض شعره ويقول حين أبطلت المنكرات في أيام السلطان لاجين سنة ٦٩٦ وفي مقدمتها الخمر والحشيشة ^(٢) :

احذرْ نديمي أن تنوق المُسَكِّزَا أو أن تحاولَ قَطُّ أمراً مُنْكَرَا
ذِي دَوْلَةٍ المنصورِ لاجينَ الذي قهرَ الملوكَ وكانَ سلطانَ الوري
إياكَ تَأْكُلُ أخضرًا في عصره ياذا الفقيرُ يصيرُ جِسْمُكَ أحمرَا

والأخضر : الحشيش . ويشير إلى العقاب الشديد الذي سيتزل بمتعاطيه ، ونهى ابن دانيال بالمثل عن تعاطي الخمر . وسرعان ما يذهب عصر لاجين كما ذهب عصر الظاهر بيبرس ، ويعود نفر من الناس إلى الحشيشة والخمر ، ومن تعلق بها ابن الصائغ ، وله فيها عدة ^(٣) مقطوعات من مثل قوله :

عصر الأيوبيين للدكتور محمد كامل حسين ص ١٠٧ وما بعدها .

(١) للملح الصافي ٧٢/١

(٢) فوات الوفيات ٣٨٨/٢

(٣) انظر في هذه المقطوعات كتاب دراسات في الشعر في

قم عاظمى خضراء كافورية قامت مقام سلافة الصهباء
يغدو الفقير إذا تناول درهما منها له تبة على الأمراء

ووصفها بأنها كافورية لأنه كان يزرع منها كثير ببستان كافور في القاهرة ، ويلقانا كثيرون
يفضلون عليها الخمر لمجالسها وكوسها ودنانها وقيانها .

وتظل الحشيشة والخمر على السنة الشراء في الحقبة العثمانية ، وما نقرأ لهم قول أبي
المواهب^(١) البكرى المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة :

وقهوة تَنْضَحُ مِنْكَأَ وَلَا بِدَعْ فِي الْفِنْجَانِ شَكْلُ الْغَزَالِ^(٢)
تديرها هيفاء ممشوقة خُودُ تُثْنَتُ فِي بُرُودِ الدَّلَالِ^(٣)
بُثْرَةٌ أَوْطَرَةٌ وَزَعَتْ أَفْكَارَنَا بَيْنَ الْهَدَى وَالضَّلَالِ
تقول للشمس وقد أقبلت تلثمي ما أنتِ إلا خيال

وربما كان من أسباب شيوع الخمرات على السنة بعض الشيوخ أيام المماليك والعثمانيين أنها
كانت قد شاعت على السنة الصوفية من أمثال ابن الفارض وابن عري متخذين من نشوئها رمزاً
لنشوة الحب الإلهي ، فلم يجد كثيرون حرجاً في نظمها ومحاولة التفتن فيه . ونقف عند نفر من
شراء الطبيعة ومجالس اللهو ، وكلهم من الشراء أيام الفاطميين ، أما من جاءوا بعدهم فقد
مزجوا بين المجنون والفكاهة الشعبية وسنخضهم ببعض الحديث .

ابن^(٤) وكيع النيسبي

يسوق ابن خلكان لابن وكيع نسباً طويلاً ، فيقول هو الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن
خلف الضبي ، ووكيع لقب جده محمد بن خلف ، ويذكر أنه كان من أهل القرآن والفقه والنحو
والسير وأيام الناس وأخبارهم ، وله مصنفات كثيرة ، ويقول إنه كان نائباً في الحكم بالأهواز في
إيران لعبدان الجوالقي وإنه توفي سنة ٣٠٦ ييغداد ، ويذكر عن الشاعر أنه بغدادى ومولده

وتتمة البيعة ٢٩/١ وحلقة الكيت في مواضع مختلفة
والعمدة لابن رشي (طبعة أمين هندية) ٢١٦/٢ وابن
خلكان ١٠٤/٢ .

(١) ربحانة الألبا ٢٢٦/٢

(٢) قهوة : خمر .

(٣) خود : الشابة الحسن .

(٤) انظر في ابن وكيع وترجمته وأشعاره البيعة ٣٥٦/١

بتنيس، وهى مدينة كانت بقرب بورسعيد الحالية، وتمتد في بحيرة المنزلة، واشتهر أهلها^(١) بصناعة النسيج والتفوق في صنع الثياب الشفافة والملونة، ويذكر المؤرخون والجغرافيون أنها كانت تكتظ بالجنان والكروم والفواكه والأشجار والأزهار والطيور من كل لون، وأكثر أغذية أهلها السمك، وهم مياسير أصحاب ثراء، وأكثرهم حاكمة، وهم يحبون النظافة والدماثة والغناء واللذة وأكثرهم يبيتون سكارى. ويبالغ الأسلاف في وصف ما كان بهذه المدينة أو الجزيرة التي اندثرت من مشاهد طبيعية ومن جنات ورياض. وفيها وُلد ابن وكيع كما يقول ابن خلكان ولا نعرف تاريخ مولده، أما وفاته فمعروف تاريخها وهو سنة ٣٩٣ وكذلك مكانها وهو مسقط رأسه تنيس. ولا نعرف الأسباب التي دفعت أباه إلى اتخاذ تنيس دار مقام له ولأسرته، وقد نشأ فيها الشاعر وثقف. ويبدو أنه طلب المزيد من الثقافة والتعرف على أدباء القاهرة فرحل إليها، وكانت شاعريته تفتح فتحت فلفت إليه الأنظار، ولا ندرى متى كان ذلك تماما، غير أن من المؤكد وجوده في القاهرة حين نزلها المتنبى سنة ٣٤٦ ويبدو أن صلة انعقدت بينه وبين ابن حنّابة وزير كافور، وكانت العلاقات قد ساءت بينه وبين المتنبى، حيثذ رأينا ابن وكيع يؤلف كتابا في سرقات المتنبى سماه المنصف إرضاء للوزير، ويقول ابن رشيق في العمدة: «سماه كتاب المنصف، مثل ما سُمي اللديغ سليما، وما أبعده عن الإنصاف». ولم يكن المتنبى من ذوق ابن وكيع، وبون بعيد بين ذوقيهما، فالمتنبى شاعر جاد منتهى الجد، لا يعرف اللهو ولا الخمر ولا المجون، وابن وكيع شاعر ماجن منتهى المجون، فاندفع يريد أن يسقط المتنبى من عليائه وأتى له ذلك؟! ويبدو أنه كان ثريا، فأعانه ثراؤه على انغماسه في المجون، ويدل على هذا الثراء أننا لا نجد رواية شعره يذكرون له قصائد في ابن حنّابة ولا في الخلفاء الفاطميين وقد عاصر منهم المعز والعزیز والحاكم، فحسبه دائما كأس وطاس، حتى ليؤثرهما على تولى منصب الخلافة الرفيع يقول:

وإن أتوك فقالوا كُنْ خليفَتنا فقلْ لهم إننى عن ذاك مشغولُ
وارْضَ الخمولَ فلا يَحْظَى بِلَدَّتِهِ إلا امرؤُ خاملٌ في الناس مجهولُ
واسفِكْ دَمَ القهوةِ الصُّهباءِ تُحَيِّ بِهِ روحى فإن دم الصُّهباءِ مطلوبُ^(٢)

فهو يؤثر حياة الخمول والمجون على حياة العزة حتى لو كانت الخلافة، ويبدو أنه تمثل كل

(٢) مطلوب: مهذر لا يُطلب ثاره.

(١) انظر فيهم نقول المقرئى عنهم في كتابه المخطوط

ما في ديوان أبي نواس من مجون حتى الجانب السيء عنده جانب الغلمان ، إذ نراه يداعب غلاما نصرانيا في مربعة مزدوجة طويلة أشرنا إليها في الفصل الماضي ، شكا له فيها من حبه وعذابه فيه ، ومضى يتوعده نظرفا إن لجَّ في هجره أن يشكوه إلى القساوسة والرهبان والأسقف والمطران والبطرك ، ويقول له كيف تحمل قتل الروح وهو ما لم يأت به المسيح ولا أخبر به يوحنا ومثي ولوقا ومرقس .

وكل ذلك على سبيل الدعابة ، ونظن ظنا أنه لم يكن متورطا في هذا الإثم ، وكل ما في الأمر أنه هو ومن نظموا فيه بعده على مر السنين . إنما كانوا يحاكون فيه مجان بغداد نظرفا ودعابة على نحو ما يتضح في مربعة ابن وكيع المزدوجة . وربما كان من أسباب ذلك كثرة النصارى في تنيس كما يقول المقریزی وكثرة حاناتهم فيها ومن بها من السقاة والغلمان . ومن المؤكد أنه كان لا يطيل مكثه في القاهرة فهو دائم الرجوع إلى بلدته ناعما بثرائه فيها وبمشاهدها الطبيعية . وله بجانب هذه المزدوجة المربعة مزدوجة ثانية في وصف فصول السنة يبدوها بوصف فصل الصيف وحره وغباره وما يجلب لشارب الخمر من الصداق ، ويتلوه بفصل الخريف وأهويته واختلاف برده وحره ، ويتبعه بفصل الشتاء وما فيه من برد وأمطار وزكام وحاجة مدمنى الخمر فيه إلى الدفء وإيقاد النار ثم يفيض في بيان محاسن الربيع المنتشرة في كل عناصر الطبيعة من شمس وقر وطيور ورياض وأزهار وثمار ، مما ينعم به شارب الخمر ويجد فيه هناءه . ونقتطف الأبيات التالية من خمرة له جمع فيها بين وصف الخمر ووصف الطبيعة في الربيع وصف مشغوف بها مفتون ، يقول :

أَبْدَى لَنَا فَصْلُ الرَّبِيعِ مَنْظَرًا	بِمِثْلِهِ تُفْتَنُ أَلْبَابُ الْبَشَرِ
فَالْأَرْضُ فِي زَيْ عُرُوسٍ فَوْقَهَا	مِنْ أَدْمَعِ الْقَطْرِ نِثَارٌ مِنْ دُرٍّ ^(١)
أَمَا تَرَى الْوَرْدَ كَحَدَيْ كَاعِبٍ	رَاوِدَهَا ، فَاْمْتَنَعَتْ مِنْهُ بَشَرٌ
كَأَنَّمَا الْخَمْرُ عَلَيْهِ نَفَضَتْ	صِبَاغَهَا أَوْ هِيَ مِنْهُ تُعْتَصِرُ ^(٢)
أَخْجَلَهُ التَّرْجِسُ إِذْ جَادَلَهُ	فَاحْمَرَّ مِنْ قَرَطٍ حَيَاءٍ وَخَرَّ
وَانْظُرْ إِلَى الْأَطْيَارِ فِي أَرْجَائِهِ	إِذَا دَعَا التَّاكُلُ فِيهَا وَصَفَرُ ^(٣)
كَأَنَّمَا - تَصَفَّرُ فِي رِيَاضِهَا -	سِرْبٌ قِيَانٍ فَوْقَ بُسْطٍ مِنْ حَيْرٍ ^(٤)

(١) التاكل : من قدت ابتها .

(٢) حبر : جمع حبرة ، وهى القطعة من نسج الحرير .

(٣) الثار : ما يثر على العروس ليلة الزفاف من الدراهم

الفضية

(٤) صباغها : لونها .

والتسكُّ في عصر الصِّبا كأنه من قبحه خَلَعُ عِذارٍ في الكبر^(١)
فاشربْ عُقارا لو أصابتْ حَجَرًا لطارَ من خَفْتِه ذاك الحَجَرُ
كأنما الأوطارُ فيها جُمِعَتْ فليس في العيش لجافها وطر^(٢)

وإنما أظننا في اقتطاف هذه الأبيات لندل على براعة ابن وكيع في تصوير الطبيعة تصوير
الصب المقتون بها ، فهي عروس جميلة موشاة بألوان زاهية ، ورأتها السماء فعمشتها وأخذت
تبكي بأجفان المطر ، وما أروع الورد ، إنه كوجنتي فتاة راودها ولهان بها ، فانشئت حياة
وتضرجت وجنتاها خفرا . ويعجب ابن وكيع أشد العجب هل الخمر نفقت لونها القاني على
الورد أو هي معصورة منه ومستخرجة ، أو لعل الترجس جاد له فاحمر لقوة حجته خجلا . وفي
أرجاء هذا الروض البديع يغنى الطير غناء شجيا مؤثرا ، وكأنه أسراب قيان تغنى فوق بسط من
سندس وحرير . ويدعو إلى اللهو واللذة في زمن الصبا والشباب ، ويزعم أن التسك وهجران
المتاع في بواكير الحياة ذميم مثل خلع العذار والمجون في الكبر . وكأنه نظم هذه الحميرية في شبابه .
ويزعم ما زعمه أبو نواس قبله من أن الخمر لو مست حجرا لمسه السرور ، وأنها تجمع الأوطار
والمنى . ودائما يقول إنه عاكف على شرب الخمر وسط مباحج الطبيعة ، غير مرعٍ ولا مزدجر على
شاكلة قوله :

جانبْتُ بعدك عَفْنِي ووقارِي وخلعتُ في طرق المجون عِذارِي
خوفتني بالنار جُهْدَكَ دائِبًا ولججتُ في الإرباب والإندار
خوف كخوفك غيرَ أني واثقٌ بجميل عَفْوِ الواحد القهار
انظُرْ إلى زهر الربيع وما جَلَتْ فيه عليك طرائفُ الأنوار
تاحتْ لنا الأطيَّارُ فيه فَأَرَهَجَتْ عُرْسَ السرور وماتمَ الأطيَّار^(٣)
فاشربْ معتَقَةً كأنْ نسيما مسكٌ تَضَوُّعُه يَدُ العطار^(٤)
مع مُسْمِعٍ حَلَفَتْ له أوتارُه أن لا تنافرَ رَنَّةَ الزمار
فطنَ بِمِرْكٍ كُلِّ عَصِيٍّ ساكنٍ تحريكُه لسواكن الأوتار

وهو يعلن لصاحبه أنه انغمس في المجون غير مصغ لتخويفه له من عذاب النار ، إذ يأمل في

(٣) أرهجت : أثارت .

(٤) تَضَوُّعُه : تذكى رائحته وتشرها .

(١) خلع العذار : كتابة عن التهلك والإغراق في

المجون .

(٢) الوطر : الأمانة .

عفو الله وغفرانه ، وهو يكرر هذه النعمة كثيرا في خمرياته ؛ ويقول له : انظر إلى ما حولك من جال الطبيعة الساحر وما فيها من بدائع النور والزهر وما يتشرفها من نواح الطير الذي يستثير حزنه كما يستثير فيه السرور والفرح . ويدعوه إلى شرب الخمر ذكية الرائحة وسط مباحج الطبيعة على ألحان مغن حاذق يجيد العزف حتى ليحرك في السامع كل عضو ساكن منه تحريكه لسواكن أوتاره . وفي كتاب اليتيمة قطعة كبيرة من شعر ابن وكيع . وكان له ديوان رآه ابن خلكان سقط من يد الزمن ، ولو وصلنا لعرفنا بوضوح مدى تأثيره في الشعراء المصريين بعده وفيما نظموه من شعر الخمر والطبيعة ، ومع ذلك ففي رأينا أن هذه القطعة كافية في بيان أثره فيمن خلفوه . وهذه هي أول مرة نلتقي فيها بشاعر في إقليم عربي يعيش للخمر والطبيعة ولا يعني أى عناية بالمديح .

الشريف^(١) العقيلي

هو علي بن الحسين بن حيدرة ينتهى نسبه إلى عقيل بن أبي طالب ، وتاريخ مولده غير معروف وكذلك تاريخ وفاته ، غير أن الثعالبي ترجم له في اليتيمة باسم أبي الحسن العقيلي وأردف الاسم بكلمة رحمه الله والثعالبي ترجم لشعراء أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ، وقد يفهم من قوله رحمه الله ، أن العقيلي لا بد أن يكون قد توفي قبل وفاته ومعروف أن الثعالبي توفي سنة ٤٢٩ ، ويقول ابن سعيد في المغرب : « سألت عن العقيلي جماعة من أهل مصر فلم أرفهم من يتحقق أمره ، وقال لي أحد الشرفاء المعنيين بأنساب الشرف : كان في المائة الرابعة » . وقد يشهد لذلك أننا نجد في ديوانه أبياتا ينوه فيها بالحسين بن جوهر وزير الحاكم ، وكان من بين من قتلهم سنة ٤٠١ . ويبدو أن كلمة « رحمه الله » في اليتيمة وضعها الثعالبي - إن كان هو الذي وضعها - خطأ أو سهوا فقد جاء في خطط المقرئ ما يشير إلى أن العقيلي امتدت حياته حتى سنة ٤٤٨ إذ ذكر أنه أنشد المستنصر الفاطمي صبيحة يوم عرفة في هذه السنة :

قُمْ فَانْحَرْ الرَّاحَ يَوْمَ النَّحْرِ بِالماءِ وَلَا تُضَحَّ ضُحًى إِلَّا بِصَهَاءِ^(٢)
أَدْرِكْ حَجِيجَ الدَّامِي قَبْلَ نَفَرِهِمْ إِلَى مَنَى قَصْفِهِمْ مَعَ كُلِّ هِيفَاءِ

الخلبي . بتحقيق د. زكي المحاسنى .

(٢) انحر : اذبح . يوم النحر : يوم الأضحية . تضحي : تذبح الأضحية . الصهواء : الخمر .

(١) انظر في الشريف العقيل وترجمته وأشعاره اليتيمة ٤١٥/١ والمغرب (قسم القسطاط) ص ٢٠٥ وقد أنشد ابن سعيد قطعة كبيرة من شعره وراجع الفوات ٩٩/٢ والفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٤٨٣ ومقدمة ديوانه (طبع

فخرج المستنصر في ساعته بروايا الخمر تُزجى بنغمات حُداة الملاحى وتساق ، حتى أناخ بعين شمس (بجوار القاهرة) في كبكبة من الفسّاق فأقام بها سوق الفسوق على ساق ، يقول : « وفي ذلك العام أخذته الله وأخذ أهل مصر بالسنين ^(١) » وكأن ذلك كان في أول عام من أعوام المجاعة المشهورة لعهد المستنصر التي بدأت سنة ٤٤٢ وظلت سبع سنوات ، حتى هلك الحرث والنسل . والخبر يدل على أن الشريف العقيلي عاش على الأقل حتى هذه السنة ، ويستدرك صاحب المغرب على من ذكر له أنه كان في المائة الرابعة قائلا : « وقفت في الخريدة (للعماد الأصبهاني) على ترجمته فدلّ على أنه متأخر العصر عن المائة الرابعة » . ولعل في ذلك كله ما يشهد بأنه عاش مطالع شبابه في القرن الرابع ، وامتدت به الحياة فعاش دهراً في القرن الخامس . وهو من أهل الفسطاط ، وكان ثريا ثراء مفرطاً حتى قال ابن سعيد : كان له بها منتزهات ، وهو في ذلك مثل تميم بن المعز ، فهما جميعاً من سكانها وأصحاب البساتين والقصور بها ، غير أن تيمماً شغل في ديوانه بمديح أبيه وأخيه العزيز ، أما العقيلي فكما يقول ابن سعيد « لم يكن يشتغل بخدمة سلطان ولا مدح أحد » ويشهد بذلك ديوانه فليس فيه مديح لخليفة من الخلفاء الفاطميين ، فيه فقط بعض إخوانيات قليلة ، وكذلك بعض فخر وهجاء ، ولا نبالغ إذا قلنا إنه استغرقه شعر الطبيعة والخمر والحب وكأنه امتداد لابن وكيع التنيسي . . ينظم أشعاره لنفسه ويتغنى لها بالطبيعة ومفاتها مازجاً بينها وبين الخمر في نشوة وفرح ومسرة . ونشعر كأنما يتففض أمامها انتفاضاً يعم كيانه كله ، وهو يشاهد جداولها ومياهاها ورياضها وأشجارها وأزهارها ويركها ، حتى لتتحول أمامه معبداً ما يزال يقدم إليه تراتيله مصحوبة ببخور الخمر وشذاها ، وكأن حياته وعبادته إنما تأتلف من الطبيعة والخمر وكثوسها المترعة ، وهو يدعو دائماً إلى احتساء هذه الكثوس ، وكأنه يعب من الطبيعة ما يعب من فنها ، ثم يعب من الخمر ما يعب من دنائها ، مع القدرة البارة على التصوير والتحول بالمناظر الواسعة في الطبيعة إلى مناظر مركزة ، كالكوّة تتجمع فيها الأشعة فتتحول إلى ما يشبه قوس قزح رائع بديع ، يقول داعياً إلى المتاع بجبال الطبيعة وشرب الخمر العتيقة :

الْقَيْمُ ممدودُ السُّرَادِقُ وَالزَّهْرُ مفروشُ النَّارِقِ ^(٢)
وَالْقَاشُ قد نُقِشَتْ لَنَا مِنْهُ الْمَجَالِسُ وَالْمَرَافِقُ

(٢) النّارِق : الوسائد .

(١) خطط المقرئى ٥٨٣/٢ . والسنين : الجذب .

أشـجـارـه وثمرـه مثلُ الترابِ والخانق^(١)
 قد غَتَّتِ الأطيارُ في طرقاته كلَّ الطرائق
 فاعتقَ فؤادك فيه من رِقِّ الهمومِ بشرِبِ عاتق^(٢)
 فالأقحوانُ غصونُه بيضُ النواصي والمفارق
 ومرادُ الأمطارِ قد كُحِلَتْ بها حَدَقُ الحدائق

والطبيعة من حوله قد تجمعت في حفلٍ بسرادق بهيج وسائده من الزهر الملون ، وكذلك مجالسه ومتكاته كأنما قد قُطِّعتْ وفُصِّلَتْ من القاش أو من نسيج حريري متعدد الأصباع ، بينما تطلُّ عليه من الأشجار والثمار التراب والقلائد . والطير تشدو وتغني ، منظر فاتن ومعنى ساحر ، جدير بالشراب المزيل للهموم ، والأقحوان يتأيل على أغصانه وكل ما في الحدائق آخذ زيتته وزخرفته ، حتى العيون لم تنس كحلها ، عيون الأزهار البديعة ، فقد ناولتها الأمطار مراد تتمم بها زينتها وحسنها الفاتن . ومن قوله في مطلع الربيع .

قد بِيَضَّتْ قُبَّةُ السماءِ وزُوِّقَتْ قَاعَةُ الفضاءِ
 فالسماء بسحبها البيضاء الممتدة على الأفق من كل جانب كأنها قُبَّةٌ بِيَضَّتْ ، والربيع بأزهاره وأنواره كأنه قاعة متألقة نُقِشَتْ ونُمِّقَتْ بمنمنمات الربيع وزخارفه البديعة . وعلى نحو ما تجسد الطبيعة في مناظر يمثل فيها التجميع والحشد والتركيز يكثر عنده التشخيص وبث الحياة في عناصر الطبيعة من مثل قوله :

قد حبا طِفْلُ الصباحِ بين داياتِ الرياحِ
 وقوله :

السُّحْبُ تُرْضِعُ من بنات الأرض ما جعلَ الربيعُ لها الغصونَ مهودا
 وقوله :

أمهاتُ الثمارِ بين الروابي تائماتُ بلبسِ خُضْرِ الثيابِ
 وبناتُ الكروم تُجَلِّي بما قد صاغه الماء من عقود الحجابِ

فطفل الصباح يحبو بين دابات الرياح والسحب ترضع أزهار الأرض على مهود النصوص ،
وأمهات اللام من الأشجار يملؤها التيه والدلال بثيابها الخضراء ، والماء يجلو الخمر من بنات
الكروم بما يصوغ لها من عقود الحجاب . وعلى هذا النحو ما نزال نحس عند الشريف العقيلي
باندماجه في الطبيعة وتملأ عينيه وقلبه بمشاهدها الساحرة ، فهو مسحور بها سحراً لا حدود له ،
سحراً كان يحس إزاءه بنشوة كنشوة الخمر ، وكان لا ينسى النشوتين جميعاً حتى في غزله كقوله :

قامتُ قِيامَةً رَوْحِها لرواحي إن التَّوَيَّ لقيامَةً الأرواحِ
وبكتُ فصار الدَّمْعُ في وَجَناتِها مثل الحَبَّابِ على كُتوسِ الرِّاحِ
وكانَ صَفْحَةً وَجْهها لما بَكَتُ رَوْضُ يرْصَعُ ورْدُه بأفْواحِ

وقرار هذه الأبيات الروض وما يرصعه من أنوار وأزهار وهو القرار العام لشعره ، فهو شاعر
الرياض ومباهجها ، وهي أنشودته أو أناشيده التي ظل يتغنّى طوال حياته بها وبما كانت تُلقَى في
وهمه وخياله من رؤى وأحلام وأشباح لا تكاد تحصى ، مما جعل الاستعارة المكنية القائمة على
التشخيص تكثر في أشعاره كثرة مفرطة ، مع التفوق فيها والبراعة ، ولاحظ ذلك الصفدى من
قديم فقال : « مارأيت أحدا من شعراء المتقدمين أجاد الاستعارة مثله ولا أكثر من استعاراته
اللائقة الصحيحة التخيل » .

ابن^(١) قادوس

هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل الدمياطي المشتهر باسم ابن قادوس ، من شعراء النصف الأول
من القرن السادس الهجري ، ذكره أبو الصلت الشاعر الأندلسي نزيل مصر في رسالته التي
ألفها عن الشعراء المصريين حوالى سنة ٥١٠ مما يدل على أن نجمه أخذ يلعب ويتألق في المحافل
الأدبية بالقاهرة منذ هذا التاريخ . وله مدائح مختلفة في الأفضل بن بدر الجبالى المقتول . كما مرّ بنا
سنة ٥١٥ . ويبدو أن نجمه ظل يصعد في الأدب حتى عمل في الدواوين الفاطمية ، ومازال
يترقى بها حتى أُسندت إليه - مع الموفق بن الحلال - رياسة ديوان الإنشاء ، واستمر يتقلدها حتى

الماضرة للسيوطي ١/٥٦٣ ومقالا لنا عنه في مجلة الثقافة
العدد ٦٨٩ .

(١) انظر في ابن قادوس وترجمته وأشعاره الحريدة
(قسم شعراء مصر) ١/٢٢٦ والرسالة المصرية في المجموعة
الأولى من نوادر المخطوطات نشر عبد السلام هرون وحسن

نزل به القضاء سنة ٥٥١ للهجرة . ورياسته لهذا الديوان تجعلنا مهيتين لأن يكون شعره - مثل النثر المصرى الكتابى فى تلك الحقبة - مرصعا بالبديع ، كقوله فى الأفضل :

ملكُ تذلُّ الحادثاتُ لعِزِّه يُعيد ويُبدي والليالى رواعمُ
وكم كربةٍ يوم التزالي تكشفتُ بحملاته وهى الغواشى الغواشم^(١)
تشيد بناء الحمدِ والمجدِ يفضُّه . وهن لآساس الهوادى هودام^(٢)

وواضح أن فى البيت الأول طباقا بين « يعيد ويبدى » وأن فى البيت الثانى والثالث جناسا ناقصا بين « الغواشى والغواشم » وكذلك بين « الهوادى وهودام » . وكان بارعا فى صنع ما يسمى فى البديع بحسن التعليل ، إذ كان يعرف كيف ينفذ إلى تعليلات طريفة إن هو رضى عن شيء ، فإنه يلتمس له ما يحسنه كقوله الذى أنشكدهناه بفواتح الفصل فى جارية سوداء :

يلومنى فى ظبية مخلوقة من كُحْلِ
والحجرُ الأسودُ لم يُخلَقْ لغير القبلِ

فهو يرد عن السواد فى الجارية قبحه ، إذ يجعلها مخلوقة من كحل العيون الذى تزين به النساء ، وقد مضى يقول - كما مر بنا - إن السواد هو الذى يمنح العين السوداء بصرها ونورها ، ما يبلغ حجر كريم ما يبلغ الحجر الأسود من القدسية ، حتى لينال عليه الحجاج بالقبل . وفى شعاره توريات يصنعها نظرفا . وكل شيء يؤكد أنه كان شاعرا بارعا ، غير أن ديوانه سقط من يد الزمن ، وهو فى شعره يتغنى بالخمر وينفذ فى وصفه لها إلى تصاوير بديعة ، ويبدو أنه كثيرا ما كان يشرها مع صحبه فى الأديرة ، يقول :

قُم قبل تأذين النواقيسِ واجلُ علينا بنتَ قيسِ
عروسَ دَنِّ لم يدع عثقا إلا شعاعا غيرَ ملموسِ
تُجلى علينا باسمًا نعرها فلا تقابلها بتغيسِ
مذهبة اللون إذا صفقت مذهباً للهَمِّ والبوسِ

نَارٌ إِلَى النَّارِ دَعَا شُرُثُهَا وَشَرَّدَتْ بِالْعَقْلِ وَالْكَيْسِ
فِي رَوْضَةٍ كَانَتْ أَزَاهِيرُهَا كَأَنَّهَا رِيشُ الطَّوَاوِيسِ

وهو يحتسبها مع رفاقه في بستان دبر ، وهو يعبّ منها متمليا بجمال الطبيعة ، وهي تجلى عليهم عروسا رشيقة معتقة ، كأنما لم يبق منها عتقها إلا شعاعا يفرّج الهموم حين يمسّ الخلق ، وإنها لذات ثغر باسم بما يطفو عليها من حجاب ، وابن قادوس يشرها وهو غير ناس أنها محرمة وأنه يتناولها من يد إبليس ، وكأنه أمل في عفوره . وعلى نحو ما كان يمزج بين الخمر والطبيعة ، محتسبا كثوس النشوة منها جميعها ، كذلك كان يمزج بينها وبين الغزل في مثل قوله :

وَلَيْلَةٍ كَاغْتَاضِ الطَّرْفِ قَصَرَهَا وَضَلُّ الْحَبِيبِ وَلَمْ تَقْصُرْ عَنِ الْأَمَلِ
بُنَا نَجَازِبِ أَهْدَابِ الظَّلَامِ بِهَا كَفُّ الْمَلَامِ وَذَكَرَ الصَّدِّ وَالْمَلَلِ
وَكَلِمَا رَامَ نَطَقًا فِي مَعَاتِبِي سَدَّدْتُ فَاهُ بِطَيْبِ اللَّثْمِ وَالْقَبْلِ
وَبَاتَ بَدْرُ تَمَامِ الْحَسَنِ مُعْتَنِي وَالشَّمْسُ فِي فَلَكِ الْكَاسَاتِ لَمْ تَقِلْ^(١)
فَبْتُ مِنْهَا أَرَى النَّارَ الَّتِي سَجَدْتُ لَهَا الْمَجُوسُ مِنَ الْإِبْرِيْقِ تَسْجُدُ لِي
رَاحُ إِذَا سَفَكَ التَّدْمَانُ مِنْ دَمِهَا ظَلَّتْ تُقَهِّقُهُ فِي الْكَاسَاتِ مِنْ جَدَلِ^(٢)
فَقُلْ لِمَنْ لَامَ فِيهَا إِنِّي كَلَفْتُ مُغْرَى بِهَا مِثْلَ مَا أُغْرِيتَ بِالْعَدَلِ^(٣)

والخمرية بديعه يصور فيها ابن قادوس ليلة من أروع ليالي وصاله ، يعاتب فيها صاحبه مصرحا بما اقتطفا فيها من أزهار الوجد والوله والصبابة ، بينما شمس الخمر تنفّلت أشعتها من أفلاكها في الكثوس مشرقة غير غاربة ، ويشعر كأنها نفس النار التي طالما سجد لها المجوس تسجد له حين تصب من إبريقها في كأسه ، ويعجب أن يسفك دمه الشارب فتسيل من الدن إلى كأسه غير محزونة ، بل مستبشرة ، بل ضاحكة مقهقهة لشدة فرحها وسرورها . ويقول لعاذله في شرها كفى عذلا ، فإنني مولع بها ولوعك باللوم والعذل . وحسبنا هذه الخمرية وسابقتها لندل على تفوق ابن قادوس في تصوير الشغف بالخمر إما حقيقة وإما محاكاة لشعراء بغداد من أمثال أبي نواس ومعاصريه .

(٣) العذل : اللوم .

(١) نخل : تغرب .

(٢) جدل : سرود .

عبد^(١) الباقي الإسحاق المنوف

من شعراء القرن الحادى عشر الهجرى أيام العثمانيين ، ولد بمنوف وبها نشأ ، وتلقى العلم على شيوخها ، ثم نزل القاهرة وأكبَّ على حلقات علمائها ينهل منها ، حتى أصبح من علمائها ، وعُنى بالتاريخ ، وكان شاعرا بارعا ، ويصفه المحبى بأنه تجاوز فى الرقة الحد وأنه يمتاز بجلاوة معانيه وعذوبة مبانيه ، ومازال ينظم الشعر حتى توفى بمسقط رأسه سنة ألف ونيّف وستين ، وقد أنشد له طائفة من أشعاره ، استلهمها بخمرية ممزوجة بالغزل على هذا النمط .

تمشّت لنا تُخجِلُ الكوكبا فنناديُتها مَرَحَبًا مَرَحَبًا
أدارتُ بحضرتنا قهوةً وطافتُ بكأسِ الطُّلّا مُذهبا^(٢)
رَنّتُ ورمّنتى بأحاطها وقد أذكرتنى عَهْدَ الصُّبا
وغنّتُ لنا فطربنا لها وياحُسَنَ ذاك الذى أطربا

وهو يتغزل بساقية مغنية أسرت لبّه ، وقد دارت عليه بكثوس الخمر ، وهو ينتشى بها ويبحال المغنية كما يقول ، مصرّحا بذلك مجاهرا فى غير مداراة . وفى قصيدة ثانية يذكر مجلسا للهو والغناء نعم به بين مشاهد الطبيعة فى عفاف لا يدانيه عفاف . ومن قوله فى خمرية راقصة :

رقص المجلسُ أنسا فاجعلِ الجرّة كاسا
واسقنى بالزُّقِّ والطّا سِ . فإنى طِبْتُ نفسا
وأقِمْ لِلهُو والدِّ ذَات فى حانى عُرُسا
كيف لا وهىَ ترينى فى دُجا الظلماء شمسا
وتقيم المَيتَ حيا بعد ما جاور رَمَسا

وهو لغرامه بالخمر وشغفه بها يريد أن يحتسبها جرارا وزقا وطاسا لا كاسا فحسب ، وتصوّر نفسه كأنما يعيش فى حان يحاها فيه شمس ، ترد إلى الونى الحياة ، تعبيرا بذلك عن شدة تعلقه بها ، ويقول :

القرن الحادى عشر ٢/٢٨٩
(٢) الطُّلّا : الخمر .

(١) انظر فى عبد الباقي الإسحاق وترجمته نفحة الرحانة
للمجى ٤/٥٨٩ وكذلك كتابه : خلاصة الأثر فى أعيان

أَمَلْ لِي الْكَاسَ تَمَامًا وَاسْقِنِي جَمَامًا ^(١) فَجَامًا
 اسْقِنِي بِالْكُوبِ وَالْكَاسِ سِىْ فُرَادَى وَتَوَامًا ^(٢)
 ثُمَّ بِالْجَرَّةِ فَالْجَرَّةِ حَتَّى أَنْتَرَامِي
 اسْقِنِي حِينَئِذٍ بِالْزُّقِ حَتَّى لَا كَلَامًا
 ثُمَّ أَزْهِى مَوْضِعٍ فِي الْبَرِّ فَاخْتَرَهُ مَقَامًا

وهو صَبُّ بالخمر يريد أن يحتسبها حتى الثمالة ، بل يريد أن يشربها أوطالا جاما فجاما وكثوسا وأكولبا وجَرَّت متوالية حتى يفقد الكلام ويغيب عن حسه ، وهو يشربها في أزهى موضع بالروض قد عُبِت فيه الأزهار بأريجها العطر . وكأنما يعيد الإسحاق في أيام العثمانيين ذكرى أبي نواس وأمثاله من الماجنين العباسيين .

٤

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

مرَّبْنَا أن مصر عرفت الزهد والنسك الديني من قديم ، ويكفي أنها هي التي أنشأت في المسيحية نظام الرهبنة الذي شاع منها وانتشر في العالم المسيحي . وقد أقبلت على الإسلام بمجرد اعتناقها له ونزول العرب المسلمين فيها تنهل منه ، ورأيناها تسهم منذ زمن الولاة في نشر مذهبي مالك والشافعي ، كما أسهمت في القراءات عن طريق مقرئها المشهور : ورش . وأكبت على الحديث النبوي وتفسير الذكر الحكيم وأخذت تدرسها كما تدرس القراءات والفقه ، وتكونت لها طبقات من علماء الدين ومن الوعاظ والقصاص ، وكان كل من شدا منهم شعرا نظم في الزهد والوعظ أياتا كان يتداولها الناس على نحو ما كانوا يتداولون أشعار الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ وظلوا يتداولون بعده أشعار منصور بن إسماعيل الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٣٠٦ من مثل قوله ^(٣) :

كُنْ بِمَا أَوْتِيَتْهُ مُغْتَبِطًا تَسْتَدِمُ عَمَرَ الْقَنُوعِ الْمَكْنُوعِ
 إِنْ فِي نَيْلِ الْمَنَى وَشَكَّ الرَّدَى وَقِيَاسُ الْقَصْدِ عِنْدَ السَّرَفِ
 كَسْرَاجِ دُمْنِهِ قُوَّتُهُ فَلِذَا غَرَّقَتْهُ فِيهِ طُفْيِ

(٣) نكت الميمان ص ٢٩٨

(١) الجام : إثناء من فضة .

(٢) توام : توام : من الاثنين إلى مازاد .

وهو يدعو إلى القناعة والاكتفاء بالقليل وعدم التطلع إلى مُنى عريضة يكون فيها حَتَف صاحبها ، ويقول لابد من القصد والاعتدال لتظل للإنسان مُنته وقوته ، أما إذا أفرط وتجاوز الاعتدال والقصد فإنه لاشك صائر إلى الهلاك . وإذا تركنا الفقهاء إلى الشعراء وجدناهم يرددون بعض أشعار زاهدة وبعض مواعظ ، واتخذوا - كما أسلفنا - من زوال الدولة الطولونية عبرة كبرى للدهر ونكباته ، وأخذت العظة وما يتصل بها من شعر الزهد تتكاثر على ألسنة الشعراء ، ولتيم بن المعز قصيدة في القرافة ومقابرها وما تبعث في النفس من خشية الله ، وفيها يتجه إلى ربه قائلا أو مناجيا (١) :

رجوئكَ ياربُّ لا أنى أطفئتُ طوَعَ أولى الانتهاء
ولكننى مؤمنٌ موقنٌ بأنك ربُّ الورى والسَّماء
وأنتَ أهلُّ لحسنِ الظنونِ وأنتَ أهلُّ لحسنِ الرجاء

فهو يرجو الله ويبعده لا خشية عقابه ولا خوف ناره ، ولكنه يبعده لأنه أهل لعبادته ، فهو رب الكون ، رب الأرض والسماء ، وهو يرجوه للرجاء لا لشيء وراءه من مآرب الحياة أو مآرب الآخرة . فشيء من ذلك لا يعلق بنفسه ، وإنما يعلق بها اليقين والإيمان بأنه الرب الأعلى الخلق بكل عبادة وكل رجاء .

ومن يتصفح ديوان الشريف العقيلي شاعر الطبيعة والخمر يجده يختم كل قافية من قوافيه المرتبة على الحروف الهجائية بأبيات واعظة ، كأنما يكفر بها عما نظمه من مجون في نفس القافية ، كقوله في قافية الباء (٢)

أيها التائه الذى ضلَّ عما يراد به
إنَّ للعَرَضِ وقفةً أمرها غيرُ مُنتبه
فانتبه قبل أن تُرى مذنباً غير منتبه

ووعظيات الشريف ليس فيها روح ، لسبب طبيعى وهو أنه لم يكن شاعرو عظم وزهد ، وإنما كان شاعر خمر وطبيعة ، ومع ذلك فأغلب الظن أنه هو الذى أوحى لشعراء الموشحات الأندلسية في الحقب المتأخرة بفكرة الموشحات المكفرة لموشحاتهم الماجنة .

ونلتقى بظافر الحداد بعد تيم ، وهو يذكّر دائماً بالموت كقوله ^(١) :

كُنْ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى وَجَلٍ وَتَوَقَّعْ سُرْعَةَ الْأَجَلِ
تَخْدَعُ الْإِنْسَانَ لَذَّتْهَا فَهِيَ مِثْلُ السَّمِّ فِي الْعَسَلِ
أَنْتَ فِي دُنْيَاكَ فِي عَمَلٍ وَاللَّيَالَى فِيكَ فِي عَمَلٍ

فالسعيد في رأى ظافر من وضع الموت نصب عينيه ، ولم يغتر بمتاع الحياة ولذتها فهي كالسم في العسل ، لاتزال تسرى في الجسم ، ولاتزال الأيام والليالي تعمل عملها فيه ، حتى يفنى فجأة وعلى غير أهبة أو انتظار . ولا بن التضر يدعو دعوة حارة إلى الزهد والقناعة ^(٢) :

جِهَادُ النَّفْسِ مَفْتَرَضٌ فَخُذْهَا بِآدَابِ الْقِنَاعَةِ وَالزَّهَادَةِ
فَإِنْ جَنَحْتَ لِذَلِكَ وَاسْتَجَابَتْ وَخَالَفَتْ الْهَوَى فَهُوَ الْإِرَادَةُ
وَإِنْ جَمَعَتْ بَهَا الشَّهَوَاتُ فَاكْبَحْ شَكِيمَتَهَا بِمِقْمَعَةِ الْعِبَادَةِ
عَسَاكَ تُحِلُّهَا دَرَجَ الْمَعَالَى وَتَرْفَعُهَا إِلَى رُتَبِ السَّعَادَةِ

وهو يحض على جهاد النفس وترويضها على الزهد في طيبات الحياة ، فإن خالفت هواها وأصغت لك فهي الأمنية المبتغاة ، وإن استعبدتها الشهوات فاكبح جاحها بالنسك والعبادة ، فهي خير مؤدب ومروّض مدلل لها حتى ترقى إلى درج المعالي وتصعد إلى رتب السعادة . ومن تبتلاته إلى ربه ^(٣) :

يَا مُسْتَجِيبَ دَعَاءِ الْمُسْتَجِيرِ بِهِ وَيَا مُفَرِّجَ لَيْلِ الْكُرْبَةِ الدَّاجِيِ
قَدْ أُرْتَبَجْتُ دُونَنَا الْأَبْوَابُ وَامْتَنَعَتْ وَجَلَّ بِأَبْكَ عَنْ مَنَعٍ وَإِرْتَاكِ
نَخَافُ عَدْلَكَ أَنْ يَجْرِيَ الْقَضَاءُ بِهِ وَتَرْتَجِيكَ فَكُنْ لِلْخَائِفِ الرَّاجِيِ

وهو تبتل وتضرع رقيق إلى الذات العلية ، إذ يدعو الله المفرج لظلمات الكربة ، الكاشف لليلها الداجي ، أن يفتح له الأبواب بعد أن أغلق دونه كل باب ، وإنه ليتعلق بالأمل في رحمته

رحمة تمنح العدل أن يجرى القضاء به متوسلا بخوفه ورجائه في رحمة الله الواسعة ، ولا بن سناء الملك^(١) :

أقول داري وجيراني مغالطةً والقبر داري والأموات جيرانى
في وحشة القبر والدود المقيم به شغلٌ لنفسى عن داري وبُستانى
سأوسع القبر بالأعمال أصلحها جهدى وأبسُ زهدى قبل أكفانى

فليست داره هي الدار الحقيقية له وليس جيرانه هم جيرانه الحقيقيون ، فداره الحقيقية القبر وجيرانه الأموات حول قبره ، وإنما لدار مفزعة ، دار وحشة وديدان تنتظره ، دار ضيقة وسيحاول أن يمد أطنابها بالأعمال الصالحة ، وسيسرع إلى ثياب الزهد في الحياة الدنيا يلبسها قبل أن يلبس أكفانه ويترل رسمه وحفرته المظلمة .

ويكثر ابن مطروح من مناجياته لربه كقوله^(٢) :

يَا مَنْ عَلَا فِي مُلْكِهِ فَاقْتَرَبْ وَمَنْ بَدَا فِي نَوْره فَاحْتَجَبْ
وَمَنْ هُوَ الْقَصْدُ لِأَهْلِ الثَّهَى وَالْمَطْلَبُ الْأَسْنَى وَكُلُّ الْأَرْبِ
عَوْدَتِي الْأَنْسَ فَلَا تَنْسَنِي وَهَبْنِي الرَّحْمَةَ فِيمَا تَهَبُ

وهو يتضرع إلى ربه الذي علا في ملكوته وهو أقرب إليه من حبل الوريد ، والذي يملأ الدنيا نورا وضياء من حوله ، وهو محتجب لا يراه أحد ، والذي هو المقصد والمطلب الأسنى وكل الأرب والأمل ، والذي عوده الأنس به ، أن لا ينساه وأن يهبه من خزائنه العلية ورحمته الواسعة .

ويظل شعر الزهد والتبتل إلى الله مزدهراً زمن الممالك ، من ذلك قول عبد الملك الأرمني القصوى المتوفى سنة ٧٢٢ متعلقا بعفو ربه^(٣) :

قَالَ لِي النَّفْسُ وَقَدْ شَاهَدْتُ حَالِي لَا تَصْلُحُ أَوْ تَسْتَقِيمُ
بِأَيِّ وَجْهِ تَلْتَقِي رَبَّنَا وَالْحَاكِمُ الْعَدْلُ هُنَاكَ الْغَرِيمُ
فَقُلْتُ حَسْبِي حُسْنُ ظَنِّي بِهِ يُنِيلُنِي مِنْهُ النَّعِيمُ الْمَقِيمُ

قالت وقد جَاهَرْتَ حَتَّى لَقَدْ حَقَّ لَه يُضْلِكَ نَارَ الْجَحِيمِ
قلت معاذَ الله أن يَتَّبِلَى بِنَارِهِ وَهُوَ بِحَالِي عَلِيمٌ

والمراجعة بين عبد الملك ونفسه طريفة ، فهي تلومه على حاله المعوجة وسلوكه غير الصالح وتقول بأى وجه تلقى غريمك وهو ربك ، فيرد عليها بأنه حسن الظن بالله وعفوه ، وأنه سيدخله جنات النعيم . فتسأله متعجبة أنجهز بذلك ولا تحفيه ، لقد حقت عليك النار . فيقول معاذ الله أن يصلبه ربه الجحيم وهو العالم بحاله وصحة نيته في إيمانه .

ويقول الحافظ المحدث شمس الدين أبو المعالي ابن القماح المتوفى سنة ٧٤١ للهجرة (١) :

أَضِرُّ عَلَى حُلُوِّ الْقَضَاءِ وَمُرِّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ بِالْغُ أَمْرِهِ
وَأُثِبْتُ فِكْمِ أَمْرِ أَمْضُكَ عُسْرُهُ لَيْلًا فَبَشْرُكَ الصَّبَاحُ بِبُسْرِهِ
وَاضْرَعْ إِلَى اللَّهِ الْكَرِيمِ وَلَا تَسْلُ بَشْرًا فَلَيْسَ سِوَاهُ كَاشَفَ ضُرِّهِ

وهو يدعو إلى الرضا بكل ما يأتي به القضاء من حلو ومر ، فتلك إرادة الله ولا راد لأمره ، وينصح بالثبات حتى تنكشف ظلمة الغمة وتسفر عن بشرى مضيئة ضوء الصباح وأن يلجأ الإنسان إلى ربه ويضرع إليه ، فهو وحده كاشف الغم ومفرج الحزن .

ونلتقى ببتلات وأدعية كثيرة عند الشيوخ ، من ذلك قول قاضي القضاة ابن التتسي المالكي المتوفى سنة ٨٥٢ للهجرة (٢) :

إِلَهَ الْخَلْقِ قَدْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي فَسَامِعْ مَا لِعَفْوِكَ مِنْ مِشَارِكِ
أَغِثْ يَاسِيدِي عَبْدًا فَقِيرًا أَنَاخَ بِيَابِكَ الْعَالِي وَدَارِكِ

فهو يتضرع لربه أن يعفو عن ذنوبه ، ويستغيث به ، فهو عبد فقير من عبادته ، ألقى عصاه بيبابه ، آملاً في قبول تضرعه ، ويورى تورية واضحة في قوله : « دارك » فعناه القريب الدار الحقيقية بدلالة كلمة الباب قبلها ، والمعنى البعيد المقصود أن يدركه قبل أن يئأس من عفوه ورحمته .

ويلقانا زهد كثير في الحقبة العثمانية من مثل قول محمد بن أحمد الحنطادى في الدعوة إلى القناعة

وأن لا يفكر الإنسان في رزق الغد^(١) :

نَأْنُ وَلَا تَجْزَعُ لِأَمْرِ تَحَاوُلُهُ فَخَيْرُ اخْتِيَارِ الْمَرَةِ مَا لِلَّهِ فَاعْلُمَةُ
تَقِيًّا بِظُلِّ اللَّهِ مِنْ رَوْضِ قَوْلِهِ أَلَسْتُ بِكَافٍ تَلَحُّقُكَ فَوَاضِلُهُ^(٢)
وَعِزُّ تُهْنٍ دُنْيَاكَ وَاعْنِ بِتَرْكِهَا وَلَا تَحْفَلَنْ بِالرِّزْقِ فَاللَّهُ كَافِلُهُ

فهو يدعو إلى الصبر في طلب الرزق وأن لا ييأس الإنسان ، بل يدع شأنه لربه فإنه ضامن رزقه ولن ينساه ، وحرى بالإنسان أن يستظل بمثل قوله : (أليس الله بكاف عبده) مؤمنا بأنه يتكفل بعباده ولا يترك ظامئا إلا سقاه ولا عاريا إلا كساه ، وما العز الحقيقي إلا رفض الدنيا وما الغنى الحقيقي إلا تركها وعدم التعلق بها وأن لا يشغل الإنسان نفسه برزق الغد ، فالله كافله وضامنه .

وقد تحدثنا في الفصل الأول عن نشأة التصوف بمصر وأنه أخذ طريقه فيها إلى الظهور منذ سنة ٢٠٠ للهجرة ولم يلبث ذو النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ للهجرة أن رفع صرحه سامقا ، إذ يعد المؤسس الحقيقي للتصوف الإسلامي وترتيب أحواله ومقاماته ، وقد ذكرنا أطرافا من آرائه الصوفية وبعض تلاميذه من أعلام الصوفية بعده في الشام والعراق وإيران ، وكان مصر التي يرجع إليها الفضل في قيام نظام الرهبة في المسيحية يرجع الفضل إليها أيضا في قيام التصوف في أركان العالم الإسلامي ، أو قل بعبارة أدق يرجع الفضل في قيامه إلى أحد أبنائها وهو ذو النون المصري ، وممرا بنا تصوير ذلك من بعض الوجوه وكيف أنه كان أول من وضع تعريفا للوجد الصوفي وأول من ذكر كأس المحبة الربانية التي هي جوهر التصوف وقوامه ، ومن ضيائها استمد في قوله مخاطبا ربه^(٣) :

لَكَ مِنْ قَلْبِي الْمَكَانُ الْمَصُونُ كُلُّ لَوْمٍ عَلَيَّ فَيْكَ . يَهُونُ
لَكَ عِزُّمُ بَأَن أَكُونَ قَتِيلًا فَيْكَ وَالصَّبْرُ عَنْكَ مَا لَا يَكُونُ

وكانه أول قتيل بل أول شهيد في الحب الإلهي ، فقد سبح في بحاره وغرق بين أمواجه ، غرق في مياه عميقة ، مادداً بصره إلى القاع وأعماق الأعماق ، يريد أن يرتوى وأن يحظى بأمانيه من الوصال ، محتملا في ذلك جهودا مضنية ، وفي ذلك يقول^(٤) :

(١) سلافة المصرايين معصوم (طبع القاهرة) ص ٤١٨

(٣) ابن خلكان ١/٣١٦

(٤) طبقات الصوفية للسلمي ص ٢٧ .

(٢) تقياً : استظل .

أَمُوتْ وَمَا مَاتَ إِلَيْكَ صَبَابِي وَلَا قُضِيَتْ مِنْ صَدَقِ حُبِّكَ أَوْطَارِي
تَحْمَلُ قَلْبِي فَيْكَ مَا لَا أَبُوءُ . وَإِنْ طَالَ سُقْمِي فَيْكَ أَوْطَالَ إِضْرَارِي

فصباباته بالحلب الإلهي لا تنقضي ، إنه لا يزال يريد أن يكون حبه لربه لا يدانيه حب ، ولا يزال يجد فيه نصبا وشقاء ، ولذته التي لا تحد إنما هي في هذا الشقاء والنصب الذي لا يشبه نصب . وتناول كأس هذه المحبة منه كثيرون في العالم الإسلامي . ويدور الزمن بمصر دورات وتدخل في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وسرعان ما تنشأ بمصر الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وكانت تعارض التصوف حتى لا يطفئ على عقيدتها التي صورناها في غير هذا الموضع وبصرف المصريين عنها ، ومن هنا تراجعت موجهة في عهدها ، ومع ذلك فينبغي أن لا ننظر أنه تلاشي ، فقد ظل حبله ممدودا بعد ذى النون . ومررنا من متصوفها بعده أبو بكر الدقاق الكبير المتوفى سنة ٢٩٠ وبنان الحال المتوفى سنة ٣١٦ وأبو علي الروذباري المتوفى سنة ٣٢٢ ويعد السيوطي بعض أسماء لمتصوفة ظهوروا في عهد الدولة الفاطمية^(١) مثل ابن الترجمان المتوفى سنة ٤٤٨ ويقول عنه : كان شيخ الصوفية بديار مصر . وولتقى بأخراة من أيام الفاطميين بصوفى كبير هو ابن الكيزاني وسنترجم له عما قليل . ومررنا أنه أخذ يتضح في التصوف منذ قيام الدولة الأيوبية اتجاهان ، اتجاه فردى فلسفى واتجاه جماعى سنى ، ومثل الاتجاه الأول ابن الفارض وسنخصصه بترجمة ، ومن تلاميذه ابن الخيمي محمد بن عبد المنعم المتوفى سنة ٦٨٥ ولم يتجه بتصوفه اتجاه ابن الفارض الفلسفى ، بل وقف به عند الوجد والحديث عن الشوق وأكثر من ذكر معاهد الحب على طريقة العذريين ، واشتهر بأنه تنازع مع محمد بن إسرائيل صوفى الشام في قصيدة صوفية واحتكما إلى ابن الفارض ، فشهد لابن الخيمي أنها من نظمه ، وفي فوات الوفيات قطعة من شعره ، ومن قوله في الذات الإلهية^(٢) :

وَحَجَّبَ عَنَّا حُسْنَهُ نَوْرَ حَسَنِ فَمِنْ ذَلِكَ الْحَسَنِ الضَّلَالَةُ وَالْهُدَى
فَيَا نَارَ قَلْبِي حَبِّدَا أَنْتِ مُصْطَلَى وَيَادَمْعَ عَيْنِي حَبِّدَا أَنْتِ مَوْرِدَا

وشعره الصوفى يهبط عن شعر ابن الفارض كثيرا . وكان يعاصره كتاكت المصرى الواعظ

المقرئ المتوفى سنة ٦٨٤ ونحس عنده قبسا من ابن الفارض في مثل قوله ^(١) :

حَضَرُوا فَمُنْظَرُوا جَمَالَكَ غَابُوا وَالْكُلُّ مَذْ سَمِعُوا خَطَابَكَ طَابُوا
فَكَأَنَّهُمْ فِي جَنَّةٍ وَعَلَيْهِمْ مِنْ خَمَرٍ حُبُّكَ طَافَتِ الْأَكْوَابُ
أَنْتَ الَّذِي نَاولَتْنِي كَأْسَ الْهَوَى . فَإِذَا سَكَرْتُ فَمَا عَلَيَّ عِتَابُ

ويقول ابن تغرى بردى إنها قصيدة مشهورة عند الفقراء يريد الصوفية ، وواضح أنه يصور في هذه الأبيات الغيبة التي طالما صورها ابن الفارض والتي تعنى عنده السكر وفقدان الوعي ، فقد غاب عن وعيه حين أحس بمشاهدته للجمال الرباني وكأنما طافت أكواب الخمر الإلهية ، وتناول منها كوبا ، جعله يغيب عن الوجود شاعرا بوجود لا يشبهه وجد ، وجد بالجمال الإلهي المطلق الذي يسرى في كل كائن جميل مستمدا منه حسنه وجماله ، يقول ^(٢) .

مَنْ أَنْتَ مَحْبُوبُهُ مَاذَا يَغَيِّرُهُ وَمِنْ صَفَوَاتٍ لَهُ مَاذَا يُكَدِّرُهُ
هِيَاثَ عَنْكَ مِلَاحُ الْكُونِ تَشْغَلُنِي وَالْكُلُّ أَعْرَاضُ حَسَنِ أَنْتَ جَوْهَرُهُ

وكان الله يشاهد في كل جميل بالكون ، أو قل كأن كل جميل يستمد منه جماله ، أو يشاهد فيه جماله ، وفكرة الشهود ستعرض لها عند ابن الفارض عرضا أكثر سعة . وبدون ريب أثر ابن الفارض في صوفية مصر وغير مصر بعده آثارا تضيق وتتسع حسب مواجد الصوفي .

ويلقانا صوفي من أتباع ابن عربي ، مربنا ذكره في الفصل الأول ، وهو عبد العزيز بن عبد الغنى الحسنى المتوفى سنة ٧٠٣ وفي شعره ما يدل على تلمذته لابن عربي إذ يقول ^(٣) :

وَجَدْتُ بَقَائِي عِنْدَ فَقْدِ وَجُودِي فَلَمْ يَبْقَ حَدٌّ جَامِعٌ لِحُدُودِي
وَأَلْقَيْتُ سِرِّي عَنْ ضَمِيرِي مَلُوحًا بِرَمَزٍ إِيْشَارَاتِي وَفَكَ قُبُودِي
فَأَصْبَحْتَ مَنِي دَانِيَا بِمَعَارِفِي وَقَدْ كُنْتَ عَنِّي نَائِيَا بِجُمُودِي

ويقول ابن حجر معلقا على الأبيات : « وهذا نفس الاتحادية لا شك فيه » . يريد أن الأبيات تصدر عن فكرة الاتحاد بالذات العلية التي كان يؤمن بها ابن عربي ، وكان له ديوان

(١) انظر ترجمة كناكت في الفوات ١٠٨/١ والنجوم
(٢) النجوم الزاهرة ٣٦٥/٧
(٣) الدرر لابن حجر ٤٨٤/٢ الزاهرة ٣٦٤/٧ .

كبير ، ويذكر له قصيدة نونية طويلة اسمها البصوب وهي ملكة النحل .
ومن المؤكد أن التزعة الفلسفية في التصوف بمصر كادت تنحسر بعده إلا قليلا ، إذ مضت مصر
تؤثر التصوف السني وما أشاعه من الطرق الصوفية الكثيرة ، وقد أفضنا في بيان ذلك بالفصل
الأول ، وكان من أهم الطرق التي تأسست بها الطريقة الشاذلية ، ومن أهم أصحابها ابن عطاء
الله السكندري الصوفي الواعظ تلميذ مؤسسها أبي الحسن الشاذلي وأبي العباس المرسى ، ومن
شعره قصيدة يقول فيها ^(١) :

ويا صاح إن الركب قد سار مسرعا ونحن قعود ما الذي أنت صانع
أترضى بأن تبقى المخلف بعدهم صريع الأمانى والغرام يتنازع
وهذا لسان الكون ينطق جهرة بأن جميع الكائنات قواطع

فهو يهتف بصاحبه أن يتبع ركب المحبوب ولا يتخلف ، حتى لا يفقد أمانيه ويضيع منه حبه ،
بل إن الكون كله ليهتف به أن يرحل وراءه ويهاجر له ، فجميع الكائنات ماترال مهاجرة تتبعه .
وكثير من شعر هؤلاء الصوفية كانوا ينظمونه ليردده المنشدون في الذكر بين صفوف الذاكرين الله
كثيرا يملئهم حماسة وإمعانا في ذكر الله وتسيحه ، من مثل قول عبد الغفار بن أحمد بن نوح
القوصي الصوفي المتوفى سنة ٧٠٨ للهجرة :

أنا أفتى أن ترك الحب ذنب آثم في مذهبي من لم يحب
دُق على أمرى مرارات الهوى فهو عذب وعذاب الحب عذب
كل قلب ليس فيه ساكن صَبوة عذرية ماذا قلب

ويكثر هؤلاء الشعراء من الصوفية في أيام المماليك ، ومن أشهرهم برهان الدين بن زقاعة ،
المتوفى سنة ٨٥٩ عن سن عالية ، وكان يتبرك به السلطان برقوق وابنه السلطان فرج ، وله في
الحب الصوفي ومواجهه أشعار كثيرة من مثل قوله ^(٢) :

رأى عقلى ولبى فيه حارا فأصرم في صميم القلب نارا
ألا يالانى دغنى فلانى رأيت الموت حجا واعتارا
وأهل الحب قد سكرُوا ولكن صحا كل وفرقتنا سكارى

(٢) النبل الصافي ١/١٥٤ والنجوم الزاهرة ١٤/١٢٦ .

(١) النجوم الزاهرة ٨/٢٨٠

وهي نار كانت لا تزال مشتعلة في قلوب الصوفية ، نار حميم للذات العلية ، نار لا تنطفئ أبداً في أثناء حميم بل جهادهم الشاق العنيف في هذا الحب ، الذي كانوا لا يزالون يرحلون إليه رحلتهم الصوفية المجهدة حباً وعمرة ، وما يزالون راحلين هائمين مفضين إلى سكر لا يدانيه سكر ، متجربين عن كل رغبة في النفس ، حتى لكأنما تتعطل إرادتهم ويموت كل شئ إلا رغبتهم الجامحة في الوجد الرباني .

ويلقانا شعراء صوفية كثيرون في كل طريقة من طرق الصوفية بل إن كثيرين من أصحاب هذه الطرق التي كان يرثها الأبناء عن الآباء كانوا شعراء ويمجى الشعر على ألسنتهم على نحو ما نقرأ عند السادة الوفاة الشاذلية والسادة البكرية في أيام المالك وأيام العثمانيين من مثل قول على بن وفا :

تَغَيَّبَ عَنْ عَيْنِي فَغَيَّبْتُكَ شَاهِدِي وَوَجَّهْتُكَ مَشْهُودِي وَمَا عَنكَ عَائِقُ
فَإِنْ غَبْتَ فَالْأَشْبَاحُ مِنِّي مِفَارِبُ وَإِنْ لُحْتُ فَالْأَرْوَاحُ مِنِّي مِشَارِقُ

ويتلو الشهاب الخفاجي البيتين بطائفة من أشعار أبنائه ويقول لهم أنفس قدسية أفيضت عليها العلوم الدنية^(١). ونشأ للصوفية وطرقهم من قديم مريدون كثيرون كانوا لا يزالون ينوّهون بأصحاب طرقهم وأساتذتهم، وقد يبالغون في ذلك، فيطلبون منهم الهداية إلى طريق التقوى والصلاح^(٢).

وكان المديح النبوي يقترن بشعر التصوف من قديم ، ومنذ حسان بن ثابت وكعب بن زهير والشعراء بمدح الرسول ﷺ . وأخذت هذه المدائح تتكاثر منذ القرن الرابع الهجري ، تكاثر على ألسنة أهل السنة مجسدين في الرسول المثل الكامل للمسلم في نسكه وجهاده في سبيل نشر دعوته ورسالته النبوية ، وكذلك على ألسنة الشيعة ذاهبين إلى أن نوره المحمدي يتجسد في أئمتهم من بعده . وبالمثل على ألسنة المتصوفة وقد أخذوا منذ الحلاج يشيعون فكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول مبدأ الوجود الروحي للحياة الإنسانية ، بل مبدأ النور في الكون ، منه يستمد ضياءه . وقد مضى كل هؤلاء المادحين ينوّهون بصحابة الرسول وبمعجزاته المادية ومعجزته الكبرى القرآنية ، مع التوسل إليه بطلب الشفاعة يوم العرض وأن يكون دائماً معينا لهم ونورا هاديا . وما زال الشعراء المصريون - مثلهم مثل شعراء العالم الإسلامي يتغنون بمدح الرسول ﷺ ، حتى إذا نشبت

الحروب الصليبية ، وكانت حرباً دينية ، أخذ حملة الصليب يهاجمون رسول الإسلام برسائل منكرة ، واندلعت الحروب بين المسلمين وبينهم فكان طبيعياً أن يزدهر المديح النبوى للرد على أعداء الإسلام من جهة ، ومن جهة ثانية لرفع سيرته العطرة وجهاده فى نشر رسالته شعاراً يتخذ منه الذائدون عن حمى الإسلام القدوة الحسنة دالماً فيهم الحماسة لدق أعناق الصليبيين وسحقهم سحقاً ذريعاً . وكاد لا يخلو ديوان شاعر مصرى حيثذ من مدحة أو مدائح نبوية ، وخاصة منذ ظهور البوصيرى أنه مادم مصرى للرسول ، بل أنه مادم عربى له على الإطلاق ، وسنخصه بكلمة ، ولكتيرين من معاصريه مدائح نبوية طنانة ، ونكتفى بأن نشير من بينهم إلى شيخ الإسلام تقي الدين محمد بن على المشهور باسم ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ وله أكثر من مدحة نبوية ، ومن قوله فى مديحه **عليه السلام** ^(١) :

لم يبق لى أملٌ سواك فإنْ يَفُتْ ودُعْتُ أيام الحياة وداعا
لاستلذُّ لغير وجهك منظرا وسوى حديثك لأريد سماعا

وكان العزازى معاصره المار ذكره بين الوشاحين يكثر من المديح النبوى ، ومن قوله فى بعض مديحه للرسول الكريم ^(٢) :

أَفَى النَّبِيِّنَ بَرهَانًا وَمَعْجَزَةً وَخَيْرُ مَنْ جَاءَهُ بِالوَحْيِ جَبْرِيلُ
سَلِّ إِلَهُهُ بِهِ سِيفًا لِلْمِتِّهِ وَذَلِكَ السِّيفُ - حَتَّى الْحِشْرِ - مَسْلُوكُ
وَيْلٌ لِمَنْ جَحَدُوا بَرهَانَهُ وَتَنَى عِنَانَ رُشْدِهِمْ غَيٌّ وَتَضْلِيلُ

ولابن سيد الناس صاحب السيرة النبوية المتوفى سنة ٧٣٤ للهجرة ديوان خصه بمديح الرسول عليه السلام سماه « بشرى اللبيب بذكر الحبيب » مخطوط بدار الكتب المصرية . ولابن نياته وبرهان الدين القيراطى مدائح نبوية مختلفة ، ويظل الشعراء يمدحون الرسول الكريم مدائح كثيرة ويطرد ذلك فى الحقبة العثمانية عند الشهاب الخفاجى وغيره ^(٣) ، كما يطرد التوسل به وطلب الشفاعة ، ع نحو ما نجد عند عبدالله الإدكاوى من مثل قوله متوسلاً ^(٤) :

(١) الفوات ٤٨٧/٢ . (الحلبي) ٤١٣/٤ وما بعدها ، وقد أنشد الهبى فى كتابه قطعا

كثيرة من المدائح النبوية .

(٢) (٤) تاريخ الحبلى ٣٥٣/١ .

(١) الفوات ٤٨٧/٢ .

(٢) المنبل الصاى ٣٤٣/١ .

(٣) وانظر نغمة الرخانة للمحى (طبعة عيسى البابى

يأربُ بالهادى الشفيعِ محمدٍ مَنْ قد بدا هذا الوجودُ لأجلِهِ
كُنْ لى معيًا فى معادى واكفَى همُّ المعاش وما أرى من ثِقَلِهِ
واستَرِّ بفضلِكَ زَلَّتْى واغفرْ بعدُ لك سَيِّئَتى واشفِ الحشا من غِلِّهِ

وهو يضرع إلى الله متوسلا إليه بالرسول الشفيع يوم القيامة لأهل دينه أن يكون عوناً له في معاده ومعاشه ، وأن يغفر له ذنوبه ويستريحه ، وحرى بنا أن نتوسع قليلا في الحديث عن بعض شعراء التصوف والمذيع النبوى :

ابن (١) الكيزاني

هو محمد بن إبراهيم الكتانى المقرئ الواعظ الشافعى ، مصرى الدار ، من شعراء الحب الإلهى وما يتصل به من الأحوال والمقامات ، اشتهر باسم ابن الكيزانى ، من شعراء مصر فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، إذ توفى سنة ٥٦٢ للهجرة ، وقد رأى ابن سعيد صاحب كتاب المغرب الذى زار مصر فى العقد الخامس من القرن السابع الهجرى ديوانه يباع بكثرة فى سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، غير أنه لم يصلنا إذ سقط من يد الزمن ، وقد هُوِّن منه العاد الأصهبلى فى كتابه « الحريدة » طائفة كبيرة من شعره ، تصور إلى حد بعيد مواجده الصوفية ، ونراه يقدم لها بأنه « فقيه واعظ مذكر حسن العبارة مليح الإشارة لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عذوبة وحلاوة .. وله ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله ، لما أودع فيه من المعنى الدقيق ، واللفظ الرشيق ، والوزن الموافق ، والوعظ اللائق ، والتذكير الرائع الرائق . ودفن عند قبر الشافعى » ويقول عنه : عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهور بالتحقيق فى علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ومعرفة بالقديم مكون الحديث إلا أنه ابتدع مقالة ضلَّ بها اعتقاده ، وزلَّ فى مزالقتها سداده ، إذ ادعى أن أفعال العباد قديمة والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة » وهم أشباه الكرامية بخراسان « فهو عالم

(١) انظر فى ترجمة ابن الكيزانى وأشعاره المغرب لابن سعيد (القسم الخاص بالفسطاط) ص ٢٦١ وما بعدها ، وتذكرة الحفاظ ١٣١٩/٤ والحريدة (قسم مصر) ١٨/٢ وابن خلكان ٤٦١/٤ وطبقات الشافعية للسبكي ٩٠/٦

والواقى بالوفيات للصفدى ٣٤٧/١ والنجوم الزاهرة ٣٦٧/٥ ، ٣٧٦ . وراجع مقالين لنا عن ابن الكيزانى فى مجلة الثقافة ، المجلدين ٦٩٢ ، ٦٩٣ .

بالسنة والفقه والشريعة وبالفلسفة وعلوم الأوائل ، غير أنه صاحب مقالة خاصة تشبه مقالة الكرامية في خراسان . ويقول المقدسي الذي زار مصر في أواخر القرن الرابع الهجري إنه كان لهم محلة بالفسطاط ، ومن الممكن أن تكون هذه المحلة ظلت حتى عصر ابن الكيزاني ، وهو بذلك كان كراميا صوفيا ، أو صوفيا على مذهب الكرامية القائلين بالتشبيه على الذات العلية للعباد ، وهو تشبيه كان يقرن بالتنزيه ، وتبدو الفكرة معقدة ولكن من الممكن تصورها ، فأتت إذ تشاهد كأننا جميلا ترى فيه خالقك ، مع تنزيهه عن أن يكون هونفس الكائن الجميل . وليست هذه الفكرة كل ما يميز الكرامية ، فقد كانوا يعتقدون - كما اعتقد الكيزانية - فكرة القدم في أفعال العباد لا في أفعال الله وحدها ، وقد أنكر الهاد ذلك على ابن الكيزاني . وهو والكرامية معه إنما يريدون قدمها في العلم الإلهي ، ومادام العلم الإلهي قديما فهي قديمة مثله . ومربنا أنفا أن الهاد قال إنه كانت تتبعه بمصر لمعهده في النصف الثاني من القرن السادس الهجري فرقة كانت تعتق نحلته ، ويقول القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ : « لابن الكيزاني بمصر وسواحل الشام فرق تنتمي إليه في المعتقد وأكثرهم بحوف مصر » ويقول ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ : « بمصر طائفة ينسبون إلى ابن الكيزاني ويعتقدون مقالاته » . وفي ذلك ما يدل على أن منزعه الصوفي ظل معروفا بمصر وظل له أتباع طوال القرن السابع الهجري على الأقل . ويبدو أنه كان هناك من يعارضه في حياته وبعد مماته ، فقد ذكروا أن الفقيه نجم الدين الحبوشاني نبش قبره في عهد صلاح الدين وأخرج منه عظامه ، وقال : « لا تنفق مجاورة زنديق إلى صديق » ويقصد بالصاديق الشافعي . وقد نقله إلى سفح المقطم ، يقول ابن خلكان : « وقبره مشهور هناك يزار ، وزرته مرارا ، رحمه الله » ويقول ابن تغري بردي : « لا يلتفت لقول الحبوشاني فيه لأنها أهل عصر واحد ، وتهور الحبوشاني معروف » . وتجمع كتب التراجم على أنه كان ورعا زاهدا ، بل متصوفا متقشفا ، وقد أنشد له الهاد أكثر من ثلاثمائة بيت في الحب الإلهي ، تسيل عذوبة ورشاقة وخفة من مثل قوله :

تَلَذُّ لِي فِي هَوَى لَيْلِي مَعَاتِنِي	لَأَنَّ فِي ذِكْرهَا بَرْدًا عَلَى كَيْدِي
وَأَشْتَهِي سَقَمِي أَنْ لَا يَفَارِقَنِي	لَأَنَّهَا أَوْدَعَتْهُ بَاطِنَ الْجَسَدِي
وَلَيْسَ فِي النَّوْمِ لِي مَا عَشْتُ مِنْ أَرَبٍ	لَأَنَّهَا أَوَقَفَتْ جَفْنِي عَلَى السُّهْدِي
وَلَوْ تَمَادَتْ عَلَى الْهَجْرَانِ رَاضِيَةً	بِالْهَجْرِ لَمْ أَشْكُ مَا أَلْقَى إِلَى أَحَدٍ
اللَّوْمُ أَشْبَهُ بِي مِنْهَا وَإِنْ ظَلَمْتُ	أَنَا الَّذِي سَقْتُ حَتَّى فِي الْهَوَى يَبْدِي

ولو أننا لم نعرف قاتل هذا الشر وأنه من الصوفية لظنناه شاعرا عذريا ، فهو يشكو الصد والمجر ويرمز عن الذات الإلهية بليلى ، ويتأدى في العتاب ، ملعنا سقمه وسهده ، بل لقد عرض نفسه للموت والهلاك . وابن الكيزانى مثله مثل شعراء الحب الإلهى جميعا فقد رفعوا كل الحواجز بينهم وبين أصحاب الغزل العذرى ، معبرين بما فى غزلهم من حسية واضحة عن رموز ومعان صوفية ، حتى لئرى ابن الكيزانى يقول :

أترعم ليل أننى لا أحبها وأنى - لما ألقاه - غير حمول
فلا ووقوفى بين ألوية الهوى وعصيان قلبى للهوى وعذولى
لو انتظمتنى أسهم المجر كملها لكنت على الأيام غير ملول
ولست أبالى إذ تعلقت حبها أفاضت دموعى أم أضرت نحولى
وما عبتى بالنوم إلا تغلُّ عسى الطيف منها أن يكون رسول

وهل من «ارق بين هذه الأبيات وأبيات الحب العذرى ؟ إنه ليذكر وقوفه بمعاهد الهوى وعصيانته للعنول أو العواذل وصبره على المجران الألم وما يحافى فيه من البكاء والنحيب والسقم والنحول ، ويأمل فى طيف يزوره فى الحلم ليلا ، ولكن لنحذر هذا الفهم الظاهرى للأبيات فابن الكيزانى إنما يتخذ ذلك كله رموزا عن معانى حبه وهيامه بالذات العلية ، وهو هيام لانهاى غير محدود بحس ولا ما يشبه الحس ، هيام كله لوعة ووجد ، وجد سماوى علوى يتدلج شرره فى كل جسمه وجوارحه وحشاه وهو صابر لا يتألم ولا يشكو ، بل يجد لذة لا يبلغها وصف فى آله ، حتى ليعذد دمه فى سبيل حبه طائعا مختارا ، فهو النور الذى يضىء فى جنات قلبه وقراهه ، وهو الحمر الروحانية التى سرت فى شرايينه ، فلم يعد يملك إزاءها حولا ولا قوة ، يقول :

جرَّ كيف شئتَ فلستُ أولَ عاشقٍ كأسُ المحبةِ فى محبتِ سقَى

إنه لم يعد فى حال صحو بل أصبح فى حال سكر بالعشق الإلهى الذى لا حدود ولا ضفاف له ، عشق ما إن يأمل فيه بلقاء محبوبه ، حتى يتعد عنه ، تاركا له الحصرات والدموع ، لقد كان شهوده قاب قوسين أو أدنى ، وسرعان ما طار الحلم وولى الأمل ، وينادى ابن الكيزانى :

يا حادى العيس اضطرب ساعة فهجنى سارت مع الركب
لاتخذ بالتفريق عن عاجلي رفقا بقلبِ الهائم الصب

وهو يعبر عن ضياع الأمل في لقاء المحبوب بالرحلة ولوعاتها الممضة في نفوس العشاق تعبيراً رمزياً عن آلامه وأوصابه وأوجاعه النفسية ، فلم يعد يستطيع اللحاق بمحبوبه فضلاً عن مشاهدته . وعلى نحو ما يعبر عن ذلك تعبيراً حسياً بالرحلة كذلك يعبر عنه - كما عبر المحبون العنريون طويلاً - بيبكاء الديار والوقوف على الأطلال الدارسة أو العافية ، بمثل قوله :

بِرُبُّكِا عَرَجًا سَاعَةً نَنُوحُ عَلَى الطَّلَلِ الدَّارِسِ
فَقِيضُ الدَّمْعِ عَلَى رَسْمِهِ يُتَرْجَمُ عَنْ حُرْقِ الْبَائِسِ

ودائماً يتعلق ابن الكيزاني بخيط من الأمل في مشاهدة محبوبه ، ونوره يتألق له ولا يراه ، ويبحث عنه بين الأطلال ، ويسأل عنه العيس ، وهي ملحّة في المسير ، لتلتفت إليه ، وهو هام على وجهه غارق في دموعه ، ونار الحب تنقد في أحشائه ، يقول :

يَا مَنْ يَتِيَهُ عَلَى الزَّمَانِ بِحَسَنِهِ اعْطِفْ عَلَى الصَّبِّ الْمَشُوقِ التَّائِهِ
أُضْحَى يَخَافُ عَلَى احْتِرَاقِ قَوَادِهِ أَسْفًا لِأَنَّكَ مِنْهُ فِي سَوْدَاتِهِ

ودائماً تلقانا عند ابن الكيزاني هذه اللوعة ونارها التي توشك أن تحرق والتي ما يزال ينوقها ويمسلي بها مالكة عليه قلبه متأثرة منه بكل شيء ، إنه ليس حبا فقط ، بل هو حب وعنة أو هو سعادة وعذاب ، وهو راض بذلك كل الرضا ، حتى لا يطلب لحبه دواء ولا شفاء ، يقول :

اضْرِبُوا غَنَى طَبِيبِي وَدَعُونِي وَحَبِيبِي
عَلِّلُوا قَلْبِي بِذِكْرَا هُ فَقَدْ زَادَ لَهْيِي
طَابَ هَتَكِي فِي هَوَاهُ بَيْنَ وَاشٍ وَرَقِيبِ
لَا أَبَالِي بِغَوَاتِ الثَّنْفِ سِ مَادَامَ نَصِيبِ
لَيْسَ مِنْ لَامَ وَإِنْ أَطُ حَبَّ فِيهِ بِمَصِيبِ
جَسَدِي رَاضٍ بِسُقْمِي وَجُفُونِي بِنَحْيِي

إن الداء هو نفس اللواء وإن العلة هي نفس الشفاء ، وهو لا يفكر في براء من علة أو داء ، لأنها سعادته الغامرة ، وحقاً إنها يثيران حريقاً في قواده ، غير أن ما يشره معها من رحيق المحبة الرابطة المصني ينسبه الحريق وناره المتظلية التي لاتنطفئ في سويداء قواده أبداً .

ابن الفارض (١)

هو عمر بن كمال الدين على الفارض ، كان أبوه من حاة بسوريا ، هاجر منها في مطالع شبابه إلى القاهرة ، وفيها رزقه الله ابنه عمر سنة ٥٧٦ للهجرة ، فهو مصرى المولد والمنشأ والمرئى والحياة . كان أبوه من علماء الفقه والشرعة ولُقِّب بالفارض لكتابته الفروض على النساء والرجال . ولَّى نيابة الأحكام بالقاهرة والفسطاط ، ويقال إنه عُرضت عليه وظيفة قاضى القضاة فأبأها ولزم قاعة الخطابة بالجامع الأزهر يتنسك . وعُنِيَ بابنه فألحقه بدروس العلماء بالعلوم الشرعية واللسانية ، حتى إذا شبَّ دفعه إلى التقوى وعبادة الله ومعاشرة المستضعفين من المتصوفة في الجبل الثانى من المقطم ، وهناك أخذ عمر يتجرد للعبادة والنسك . وأحسَّ برغبة شديدة للمقام بمكة مهبط الوحي على الرسول ﷺ فرحل إليها ، ومكث بها خمسة عشر عاما سائحا في أوديتها عابدا الله ناسكا مؤملا في أن تفيض عليه الفتوحات الإلهية ، مكثرا من الصلاة والصيام ، حتى فُتحت له الأبواب المغلقة ، وشعر كأنه في مقام الشهود للذات العلية . وعاد إلى وطنه ، غير أنه ظل يأسى لفراقه مهبط فتوحاته الإلهية بمثل قوله :

ياسميرى رُوحٌ بمكةً روحى شادياً إن رغبته فى إسعادى
كان فيها أنسى ومِعراجُ قدسى ومُقامى المقامُ والفتْحُ بادى

ولزم مناسك العبادة وخاصة وادى المستضعفين بالمقطم والجامع الأزهر ، يذكر الله ويسبحه ويعبده حق عبادته ناسكا خاشعا متضرعا ، شاعرا من وقت إلى آخر أنه أصبح في مقام الشهود لربه ، فيشخص بصره ويغيب عن كل ماحوله غيبة قد تطول أياما وهو لا يسمع صوتا ولا يرى أحدا ولا يشرب ولا يطعم ولا ينام ، فقد غاب عن كل حواسه وغمره نور شهوده للذات العلية ، ومضى يعكف على التقوى والنسك والصلاة ، وشاع أمره في القاهرة فكان الناس يزدهمون عليه إذا سار في الطرقات يلتسمون منه الدعاء ، وهو غائب عنهم ، مشغول بحبه لربه وبما ينظم في هذا

للكور محمد مصطفى حلمى وكتابنا فصول في الشعر ونقده ص ١٩٧ وما بعدها . وديوانه طبع بمصر مرارا طبعات مستقلة ، وطبع مع شرح عبد الغنى النابلسى وهو شرح صوفى رمزى ، ومع شرح حسن البورينى على ظاهر اللفظ دون تأويل .

(١) انظر فى ابن الفارض وترجمته وأشعاره النجوم الزاهرة ٢٨٨/٦ وابن خلكان ٤٥٤/٣ وميزان الاعتدال ٢١٤/٣ وعبر الذهبي ١٢٩/٥ والبداية والنهاية ١٤٣/١٣ ولسان الميزان ٣١٧/٤ وشذرات الذهب ١٤٩/٥ وحسن المحاضرة ٥١٨/١ وكتاب ابن الفارض والحب الإلهي

الحب من أشعار لعلها أروع مانظمه الصوفية في حبه الإلهي ، حتى لُقّب بحق سلطان العاشقين للذات الربانية . وهي أشعار تموج بوجود ملتحاح لا حدود له ، متخذاً لذلك لغة العشاق العذريين وما يذكرونه من معاهد المحبوبة يريد معاهد مكة التي هبط عليه فيها النور الإلهي ، وأيضاً ما يذكرونه من نسيم الصبا المحمل بشذى المحبوبة ، وهو في أثناء ذلك يئن وينوح آملاً في الوصال وأن يشرق عليه النور الرباني ، متجرعاً غصص الحمر والصد والسهاد ، ويصبح فيمن تحدّثه نفسه بسلك هذا الطريق المخوف بما لا يحصى من الأشواك والصعاب :

هو الحبُّ فاسلَّمْ بالحشا ما الهوى سَهْلُ فما اختاره مُضْنَى به وله عَقْلُ
وعِشْ خَالِياً فالحبُّ راحته عَنَّا وأَوَّلُهُ سُقْمٌ وَآخِرُهُ قَتْلُ

وهو لا يريد القتل الحقيقي ، بل يتخذهُ رمزاً للحظات الفناء في الذات العلية حين يتجرد الصوفي - مثل ابن الفارض - من حواسه ومن كل وجوده فلا يشعر بزمان ولا بمكان ، وكأنما غاب عن حياته ، بل كأنما مات بسبب حبه شهيداً ، وهو موت لا يتحقق تصوف بدونه ، حتى ينمحي المتصوف في الذات الربانية ونورها الإلهي ، وحتى لا يرى في الوجود سوى ربه المائل في الكون وكائناته وكل شيء فيه ، يقول :

تراه - إن غابَ عني - كلُّ جارحةٍ في كلِّ معنى لطيفٍ راتني بهجٍ
في نعمة العود والثاني الرخيم إذا تألفاً بين ألحانٍ من الهزج^(١)
وفي سكر غزلان الخائل في برِّد الأصائل والإصباح في البلج^(٢)
وفي مساقط أنداء الغمام على بساطِ نورٍ من الأزهار مُنتجج
وفي مساحير أذبالِ النسيم إذا أهدى إليَّ سحيراً ، أطيّب الأرج^(٣)

فهو يرى الله وجلاله وجماله مائلاً في جميع أركان الكون وعناصره : في أنغام العود والثاني المرافقة لألحان الهزج ، وفي مشهد غزلان الرياض وقد انتعشت قلوبها بأنغام الأصيل والصباح ، وفي الأزهار والورود مساقط أنداء الغمام وهي متناثرة هنا وهناك على أبسطة الطبيعة البهيجة ، وفي النسيم يملأ الجو سحراً بشداه وأريجهِ العطر . وابن الفارض لا يعبر بذلك ومثله في أشعاره عن إيمانه

(٣) الأرج : الشذى والرائحة العطرة .

(١) الرخيم : اللين الناعم .

(٢) البلج : أول إسفار الصبح وانتشار الضوء .

بوحدة الوجود التي كان يؤمن بها غلاة الصوفية من أمثال ابن العربي ١٠٠٠ صره ، فهو إنما يريد أن يقول إن نور الله منبث في الكون بجميع كائناته وعناصره ، متجل في كل منظره ومشاهده ، وذلك هو سر وجوده وهيامه وولفه بربه ، يريد أن يشرق عليه ضياء جماله . ويظل يحلم بشهوده حلما متصلا مجاهدا في سبيل ذلك محتملا من العذاب ما يطاق وما لا يطاق ، متغنيا بالجمال الرباني وما يَصْلَى فيه من هجر ، هاتفا من قواده :

تَهْ دَلَالًا فَانْتَ أَهْلُ لِذَاكَ وَتَحَكُّمُ فَالْحَسَنُ قَدْ أَعْطَاكَ
وَتَلَافِي إِنْ كَانَ فِيهِ اتِّلَافِي بِكَ عَجَلٌ بِهِ جُعِلْتُ فِدَاكَ
فَقَتَّ أَهْلُ الْجَمَالِ حُسْنًا وَحُسْنِي فِيهِمْ فَاقَّةٌ إِلَى مَعْنَاكَ

وهو يضيف إلى الذات العلية التحكم والدلال على طريقة أصحاب الحب العذري ، ولا يلبث أريج الحب الصوفي أن يعقب في البيت الثاني ، فهو يطلب أن يتلف في حبه مادام في تلفه اتلافا بربه المحبوب ، وهو لا يريد التلف الحقيقي إنما يريد الفناء المطلق في ربه وجماله الذي يفوق كل جمال ، بل إن كل جميل ليفتقر إلى جماله المتجلى في الكون بنوره . وعلى نحو اتخاذ ابن الفارض للغزل العذري رمزًا لحبه الصوفي نراه يتخذ الخمر ونشوتها رمزًا لهذا الحب ، ولا خمر ولا كتوس ولادنان ولا سقاء ، وإنما هو جمال الذات الإلهية الذي شغف به حتى ليظن كأنما نهل من شراب قدسى مسكر ، فهو سكران دائما منتشئ غائب عن وجوده . ومن قوله في ذلك من قصيدة بديعة :

شَرِبْنَا عَلَى ذِكْرِ الْحَبِيبِ مُدَامَةً سَكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرَمُ
لَهَا الْبَدْرُ كَأْسٌ وَهِيَ شَمْسٌ يُدِيرُهَا هَلَالٌ وَكَمْ يَدُو - إِذَا مُزِجَتْ - نَجْمُ
وَأَنْ خَطَرْتُ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِ امْرِئٍ أَقَامْتُ بِهِ الْأَفْرَاحُ وَارْتَحِلَ الْهَمُ
وَلَوْ نَفَّضُوا مِنْهَا ثَرَى قَبْرِ مَيِّتٍ لَعَادَتْ إِلَيْهِ الرُّوحُ وَانْتَعَشَ الْجِسْمُ

وهو يقول إن سُكْرَهُ بتلك المدامة أو الخمر قديم أقدم من الوجود ، وهو يشير إلى فكرة الحقيقة المحمدية التي يذهب المتصوفة إلى أنها تسبق نشأة الكون ، وأن أضواء مازالت تفيض من تلك الحقيقة في نفوس الأنبياء ونفس الرسول ﷺ ونفوس المتصوفة من بعده حتى تجلت في ابن الفارض ، ومن هنا يقول إن سكره بها ونشوته يسبقان الخليفة . ويقول إنها تجلب الفرح وتطرد

الهم ، ونحى الروح لاجازا بل حقيقة ، فلو صبها على قبر ميت لعادت إليه الروح ودبت فيه الحياة . ويمضى فيقول : إنها صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هواء ، ونور ولا نار ، وروح ولا جسم . خمر ربانية لا تشوبها أى شائبة مادية ، خمر ينتشى بها ابن الفارض وأمثاله فيغيبون عن وجودهم غيبة كلها متاع وكلها نعيم لا حدود له . وديوانه كله من هذا الطراز انتشاء وسكر وحب ووجد ووله والنياع ، وتطول إحدى قصائده حتى تبلغ سبعائه وستين بيتا أو تزيد ، وهى تائية وتسمى التائية الكبرى لأن له بجانبها تائية صغرى ، وهو فيها يصور معراج القديس بمكة وفتوحه التى هبطت عليه هناك وإنعماؤه حيثذ فى الحقيقتين : الإلهية والمحمدية ، حتى ليتكلم فى بعض أجزاء القصيدة باسمها ، وهو يستهلها ببيان شربه من كأس المحبة الربانية ونشوته بها وما تجشمه فى معراجها من أهوال وخطوب وعمن ، وكلها كما يقول منح من ربه وعطايا اجتازها فى معراجها ، خالصا إلى الانعماء والفناء فى الذات العلية حتى ليقول :

ولم تَهَوَّنِيْ مَا لَمْ تَكُنْ فِيْ فَنَاءٍ ولم تَفْنَ مَا لَمْ تُجْتَلَبْ فِيْكَ صُورِيْ
كلاناً مُّصَلًِّ واحداً ساجداً إلى حقيقته بالجمع فى كلِّ سَجْدَةٍ
وما كان لى صَلَّى سِوَايَ ولم تكن صلاتى لغَيْرِيْ فى أَدَا كُلِّ رُكْعَةٍ

وكانه يشعر فى البيت الأول أنه لا يزال دون الحب الإلهى لاتصاله بل لاتصافه بالصفات البشرية . ويقول فى البيت الثانى إنها ينبغي أن تُمَحَى فيه حتى يفنى فى الذات الربانية وتتجلّى فيه الصورة الإلهية ، وما يلبث أن يقول فى البيت الثالث إن حواسه تعطلت وتعطلت فيه كل إرادة وشعور ، حتى فنى فناء مطلقا فى ربه ، متخطيا مرتبة الصحو إلى مرتبة الشهود أو كما يسميها الجمع ، وكأنما يصلى لنفسه أو لربه متجليا فيه ، يقول :

وطاحَ وجودى فى شهودى وَبَنَتْ عن وجودِ شهودى ماحياً غيرَ مثبتٍ
وفى الصَّحْوِ بعد المحوِّ لم أَلِكْ غيرها وذاتى بذاتى إذ تَجَلَّتْ تَجَلَّتْ

فهو قد انمحق وفنى فناء كلياً فى الذات العلية ، وبلغ من هذا الانعماء والفناء أعلى مراتبه ، إذ لا يعتريه فى حال المحو والغيبة مع الشهود للنور الربانى ، بل أيضا يعتريه فى حال الصحو ، فهو دائماً محوٌّ فإن فى الذات الإلهية . وهو دائماً يعلن أنه متمسك أشد التمسك بالكتاب وأداء الفرائض

الدينية وبالسنة والحديث النبوى ، فنها يستمد فى كل موارد الروحية . وقد أشار مرارا إلى أن لب تصوفه وما يذهب إليه من عقيدة الفناء فى الذات الربانية إنما يصدر فيه عن الرسول ، يقول :

وجاء حديث فى اتحادى ثابت رويته فى الثقل غير ضعيفة
يشير بحب الحق بعد تقرب إليه بنقل أو أداء فريضة

وهو يشير إلى الحديث النبوى المشهور : « ماتقرب إلى عبدى بشئ أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبيته ، فإذا أحبيته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها . وإن سألنى أعطيته ، ولئن استعاذنى لأعبدته » . وفكرة الانحاء والفناء واضحة فى الحديث ولعل فى ذلك ما يشير بوضوح إلى أن تصوف ابن الفارض وأمثاله إنما كان تصوفاً إسلامياً خالصاً . وما زال يتنسك لربه حتى وفاته سنة ٦٣٢ للهجرة .

البوصيرى^(١)

هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حماد ، كان أبوه من بوصير وأمه من دلاص ، فكأن لنفسه من اسم بلديهما لقباً هو الدلاصيرى ، غير أن اللقب الذى غلب عليه ، وبه اشتهر ، هو البوصيرى . واختلف م ترجموا له فى تاريخ مولده كما اختلفوا فى تاريخ وفاته ، والأرجح أنه ولد سنة ٦٠٨ وتوفى سنة ٦٩٨ وفى بل ولد سنة ٥٩٨ وتوفى قبل السنة السالفة قليل سنة ٦٩٤ أو ٩٥ أو ٩٦ أو ٩٧ وقيل بل سنة ٦٨١ والصحيح ما رجحناه . واختلف مثل لداته إلى الكتابات حتى حفظ القرآن الكريم ، ثم انتظم فى حلقات الشيوخ يأخذ عنهم علوم الشريعة واللغة ، ويبدو أن ميوله الأدبية اتضحت فيه مبكرة وتفتحت فى نفسه ملكاته الشعرية ، مما جعله يتنظم فيمن يعملون فى الكتابة الديوانية ، وعين فى دواوين بليس بالشرقية . ومربنا هجاؤه للموظفين هناك وتسجيله عليهم

والخطط الجديدة لمل مبارك ٨/١٠ وكتابتها فصول فى الشعر ونقده ص ٢٢٩ - ٢٥٤ . وديوانه (طبعة الخطى) بتحقيق محمد سيد كيلانى . وأورد بروكلمان فى كتابه تاريخ الأدب العربى ٨١/٥ ترجمات برده إلى اللغات الأجنبية وتخصيساتها وتشظياتها وشروحها المختلفة وكذلك المترجمة .

(١) انظر فى البوصيرى وحياته وأشعاره الفوات ٤١٢/٢ والرواى بالوفيات للصفدى ١٠٥/٣ وحسن المحاضرة ٥٧٠/١ وشذرات الذهب ٤٢/٥ ومقدمة ابن حجر الميضى على شرح مدحه الفمزية النبوية ولطائف اللين لابن عطاء الله السكندرى وطبقات الصوفية للشمراوى ١١/٢ وما بعدها ،

الحياة للدولة وأكل أموال الناس بالباطل . ويبدو أنه زهد في العمل معهم سريعا وعاد إلى القاهرة ، محترفا إقراء القرآن للصبية وبعض الفتية في مسجد الشيخ عبد الظاهر ، وكان مسجدا مغمورا وتصادف أن أمر الملك الصالح في أثناء توليه لمقاليده الأمور بمصر (٦٣٧ - ٦٤٧ هـ) بتوزيع ألف دينار على طلبة العلم . ولم يصب منها مسجده المغمور وطلابه شيئا ، فنظم على لسان المسجد شكوى للملك الصالح استهلها بقوله :

ليت شعري مامقنضي حِرْمانِي دون غيري والألفُ للرَّحْمَنِ
أتراني لا أَسْتَحَقَّ لكوني جامعًا شملَ قارئِ القرآنِ

ونراه كثير الرحلة إلى البلدان المصرية والاتصال بمن فيها من الولاة ، وله فيهم بعض المدائح وكذلك في بعض وزراء الدولتين الأيوبية والمملوكية وفي بعض الأمراء والسلاطين ، ويبدو أنه كان يضطر للمديح اضطرارا ، ليوفر لأولاده الكثيرين الطعام والثياب ، ويصرح بذلك مرارا في مديحه بمثل قوله :

إليك نشكو حالنا إننا عائلةٌ في غاية الكثرة

وكما تلقانا في أشعاره المبكرة أهاج مختلفة لموظفي الشرقية تلقانا عنده دعابات مختلفة تصور المزاج المصري المعروف بالميل إلى الفكاهة والنادرة ، وربما أراد بشكواه في مدائحه من فقره وبؤسه إلى الدعابة ، ويقول :

ولو أنني وحدي لكنتُ مريدًا في رباطٍ أوعابداً في مَعَارَةٍ

وكأنه كان يشعر في أعماقه بأنه خُلِقَ لالكون إنسانا يضطرب في الحياة ومشاغلا اليومية ومكاسها الضرورية له ولأسرته ، وإنما ليكون عابدا ناسكا في رباط صوفي أو في كهف يخلو فيه للنسك والعبادة . ويبدو أنه مدَّ إحدى رحلاته إلى الاسكندرية وتعرف على أبي الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية المشهورة ، وانتظم في سلك مريديه وطريقته الصوفية ، حتى إذا خلفه أبو العباس المرسى على الطريقة ظل يلزمه ، حتى عُدَّ ثاني اثنين من تلاميذه هو وابن عطاء الله السكندري ، وفي ديوانه قصيدة دالية يمدحه بها ، ويعزیه في شيخه أبي الحسن حين توفي سنة ٦٥٦ ويشيد به إشادة رائعة إذ كان من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، يقول :

اسْأَلْ طَرِيقَ مُحَمَّدٍ شَرِيعَةَ حَقِيقَةِ وَمُحَمَّدِي الْمَحْتَدِ
 إِنْ الْإِمَامَ الشَّاذِلِي طَرِيقَهُ فِي الْفَضْلِ وَاضِحَةً لَعَيْنِ الْمُهْتَدِي
 قُطْبُ الزَّمَانِ وَغَوْنُهُ وَإِمَامُهُ عَيْنُ الْوُجُودِ لِسَانُ سِرِّ الْمَوْجِدِ

فهو قطب الزمان وإمامه ، وعين الوجود إذ كان يؤمن المتصوفة بأن القبس الإلهي المبثوث في الأنبياء نُقل إليهم وإلى أئمتهم ، ويقول إنه من أهل الشريعة المحمدية والحقيقة الصوفية ويشير إلى أنه سليل الرسول ﷺ فهو محمدى نسبا وحقيقة صوفية وشريعة إسلامية .

ويبدو أن البوصيري منذ صلته بالطريقة الشاذلية لم يتجه بأشعاره نحو المحبة الإلهية على نحو ما اتجه ابن الفارض ، بل اتجه إلى المديح النبوي ، وبلغ فيه ذروة لم يبلغها أحد قبله ولا في زمنه ، فقد نظم فيه ديوانا رائعا . وكان الصليبيون ، شامت وجوهمهم ، يكتبون رسائل ضد الدين الحنيف وصاحبه ، فرد عليهم طويلا في مديح النبوي ، وأفرد للرد عليهم وعلى اليهود قصيدة طويلة في نحو مائتين وسبعين بيتا ، داحضا افتراءاتهم على الرسول الكريم ناقضا ما ادعاه النصارى من ألوهية المسيح وصلبه وما جاء في التوراة المخرفة من ارتكاب الأنبياء للمعاصي ، وسمى قصيدته « المخرّج والمردود على النصارى واليهود » ويتحدث في حماسة فياضة عن صفات الرسول وسيرته ومعجزاته الباهرة وانتصاراته الساحقة على أعدائه وأعداء الله . ويكثر من المديح النبوي ومن التنويه بالخلفاء الراشدين والصحابة وآل البيت مصورا في الرسول أزالة النور المحمدي المعنوي لبَّ الوجود وروحه ، وكأن للرسول وجودين هذا الوجود المعنوي الذي يستمد منه الكون وجوده والذي تعاقب في الأنبياء منذ آدم ، ووجود ثان حسي مادي هو وجوده حين وُلد ثم بُعث بشيرا ونذيرا ، وبذلك اتحد المعنى والصورة أو قل الحقيقة المحمدية الأزلية وصورة الإنسان ، على نحو ما نقرأ في قوله :

مُحَمَّدٌ حُجَّةُ اللَّهِ الَّتِي ظَهَرَتْ بِسُتَّةٍ مَالَهَا فِي الْخَلْقِ تَحْوِيلُ
 مِنْ كَمَلِ اللَّهِ مَعْنَاهُ وَصُورَتُهُ فَلَمْ يَفْتَهُ عَلَى الْخَالِيقِ تَكْمِيلُ
 مِنْ آدَمَ وَلَحِينَ الْوَضْعِ جَوْهَرُهُ الـ حَمَكُونُ فِي أَنْفَسِ الْأَصْدَافِ مَحْمُولُ
 فَلَنْسَبُوهُ إِمَامًا وَمُسَبِّدًا بِيْهِ وَلِلْفَخْرِ تَعْجِيلُ وَتَأْجِيلُ

ودائما يعصف الحنين بقلبه إلى زيارة مكة والمدينة عصفاً للوجد الملتاع ، ودائما يردد معجزات

الرسول وجهاده في غزواته ، ودائما يكرر حقيقته الأزلية ، حتى لكانه مبدأ الوجود ومبدأ النبين وأيضا خاتمهم ، يقول :

كان سِرًّا في ضمير الغيب من قبل أن يُخْلَقَ كونٌ أو يكونا
تشرق الأكوأُن من أنواره كلما أودعها الله جَبِينا
ختم الله النبين به قبل أن يَجْبَلَ من آدم طِينا
فَهو في آباءهم خير - أب وهو في أبنائهم خير البينا

فهو السر الأول في الكون أو هو العلة الأولى ، خُلِقَ قبل الكون وخلق قبل أن يُجْبَلَ أو يخلق آدم ، وكل نور في الكون مستمد منه ، وهو مبدأ الأنبياء ومنتهاهم ، وهو أبوهم المعنوي الأزلي ، فيه تبدأ الحياة وإليه تنتهى . ويكثر البوصيرى في مدائحه النبوية من الضراعة للرسول أن يقبل توبته وأن يكون شافعه يوم القيامة حتى ينال رضوان ربه وغفرانه .

ويشتهر البوصيرى بمدحته النبوية المسماة بالهمزية وقد سماها « أم القرى في مدح خير الورى » وهى في نحو أربعمئة وخمسين بيتا وعُنى كثيرون بشرحها ، وهو فيها يحمل سيرة الرسول حتى يوقد حمية الشباب المحاربين للصليبيين ، ويفتحها بفكرة الحقيقة المحمدية وأن الرسول سر الوجود ونوره الذى يفيض على الكون وعلى الأنبياء من قديم ، يقول :

كيف تَرَفَّى رَقِيكَ الأنبياء ياسمَاء ما طاولتها سماء
إنما مثّلوا صفاتك للناس كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضلٍ فما تصد دُرُ إلا عن ضوئك الأضواء

فالرسول لا تبلغ منزلته ودرجته الرفيعة منزلة أى نبيٍ أو رسول ، إنه في أعلى عليين ، وكل رسول إنما مثّل جانباً من صفاته الربانية ، كما تمثّل النجوم المترتبة على صفحة الماء النجوم على صفحة السماء . وإن كل ضوء ونور في الكون ليستمد من مصباحه ، فهو منبع كل نور ومصدره . ويتحدث عن مولده وما اقترن به من دلائل النبوة ، ويفيض في الحديث عن سيرته حتى مبعثه ، ويعدد بعض معجزاته الباهرة وفي مقدمتها الإسراء ، ويصور جهاده الباسل في نشر دينه ، ويرد على النصارى واليهود افتراءاتهم على الدين الخفيف ، ويعرض بعض معتقداتهم الفاسدة ، ويلم بعداء اليهود للإسلام وحريم لرسوله . ويصور حجّته إلى مكة وأداء المسلمين

لمناسك الحج . وينوه بمواقف كبار الصحابة وبالصحابة جميعا وبأستاذيه الشاذلى وخليفته
 أبى العباس المرسى ، ويتضرع فى أثناء ذلك للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه فى محو ذنوبه .
 وأروع من هذه المدحة النبوية مدحته الميمية المسماة بالبردة وقد عارضها كثيرون ويقال إنه كان
 قد أصابه فالج ، فنظم هذه القصيدة وأخذها شفيعا لدى الله كى يعافيه ، وظل يكرر إنشادها
 ويبكى ويدعو ويتوسل ، ونام فرأى النبى ﷺ يسح على وجهه بيده المباركة ويلقى عليه بردة ،
 وانتبه فوجد نفسه معافى ، وشاعت القصة وسميت القصيدة البردة . وهويفتحها متغزلا بحجازية
 من ذى سلم أشعلت الحب فى قلبه ، وهو إنما يتخذها رمزا لوجده الملتاع بحب الرسول عليه
 السلام ، ويلم بأصل من أصول الطريقة الشاذلية . وهو كبح جاح النفس وردّها عن شهواتها .
 ويتحدث عن فضائل الرسول مبتدئا بفضيلة الزهد وكيف أنه لولاه لم تخرج الدنيا من العدم
 ويسترسل فى تصوير الحقيقة المحمدية الأزلية قائلا :

فاقَ النبيّن فى خَلْقِي وفى خَلْقِي ولم يدانوه فى عِلْمِي ولا كَرَمِي
 وكلُّهم من رسول الله ملتَمِسٌ غَرَفًا من البَحْرِ أَوْرَشَقًا من الدِّيمِ
 فإنه شمسٌ فضلي هم كواكبها يُظهِرُنْ أنوارها للناس فى الظُّلَمِ

فهو يفوق الأنبياء صورة وخلقا وعلمًا وكرمًا وكلهم يلتمس من علمه وحكمته ويستمد من
 نوره ، فنوره يتجلّى فى الأنبياء جميعا ومها تعددوا فى الأزمنة فإنهم شخصية واحدة وحقيقة
 واحدة هى الحقيقة المحمدية . ويفيض البوصيرى فى بيان معجزات الرسول ، وخاصة القرآن
 معجزته الكبرى كما يفيض فى بيان جهاد الرسول وصحابته لأعداء الرسول ودينه الحنيف حتى
 استسلموا صاغرين . ويضرب للرسول أن يكون شفيعا له عند ربه كما يضرب لله أن يلطف به فى
 دنياه وآخرته . ولا تزال هذه القصيدة وأختها الهمزية تنشد إلى اليوم فى حفلات الموالد وحلقات
 الذكر الصوفى وله بجانبها فى المدائح النبوية أناشيد أخرى رائعة .

محمد بن أبي الحسن ^(١) البكري الصليقي

من سلالة أبي بكر الصديق بمصر ، ولد بها سنة ٩٣٠ وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وأقبل على حفظ المتون والتلقى على شيوخ عصره . يأخذ ما عندهم ، وكان أستاذه الأول أباه ، وجلس مكانه في الجامع الأزهر للتدريس بعد وفاته وعمره لا يتجاوز إحدى وعشرين سنة ، وكان يدرس لطلابه فقه الشافعي ، وله شرح على متن أبي شجاع . وكان آية في العلم والزهد واشتهر بتعمقه في العلوم الشرعية واللغوية والصوفية ، وورث عن أبيه مشيخة السادة البكرية وله يناجي ربه :

رَبِّ إِنِّي عَبْدٌ ذَلِيلٌ ضَعِيفٌ فَلِحَالِي بِاللَّطْفِ مِنْكَ تَدَارَكُ
كُلُّ قَطْرٍ أَصَابَنِي مِنْكَ بَحْرٌ كَيْفَ وَالْحَالُ فِيَّ تَجْرَى بِحَارُكَ
كُلُّ جِزْءٍ مِنِّي لِسِرِّكَ دَارٌ عَمَّرَ اللَّهُ يَاحِبِّي دِيَارُكَ
مَنْ رَأَى رَأَاكَ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ أَيْ شَكٍّ وَقَدْ جَعَلْتُ مَرَارُكَ

وتمثل في الأبيات مثولا بينا فكرة الاتحاد بالذات الربانية المعروفة عند المتصوفة وما يتبعها من فكرة الفناء ، فناء الإنسان عن صفاته البشرية ، وهي فكرة رأيناها واضحة عند ابن الفارض : وله قصائد كثيرة يصف فيها حبه ومواجهه الروحية من مثل قوله :

حَبِيبُكَ دَانٍ رَقِيبٌ قَرِيبٌ فَاذَا الْبُكَاءُ وَمَاذَا التَّحِيبُ
نَعَمْ هُوَ دَانٍ وَلَكِنِّي بَعِيدٌ فَقِيدٌ طَرِيدٌ غَرِيبٌ
بُكَانِي عَلَى لَأَنِّي بُلِيتُ بَدَاءَ الصُّدُودِ وَعَزَّ الطَّيِّبُ

وعلى هذا النحو دائما هو واله ملتحاق بيني الوصال ، ومحجوبه قريب منه ، بعيد لأنه لا ينيله أمنيته من الوصول وهو لذلك دائم القلق ، ويث والحبوب منصرف عنه معرض . وهو يهتف

للعيدروس (طبع بغداد) ص ٤١٤ وكتاب بيت الصليقي
للسيد محمد توفيق البكري وما ذكره من مراجع .

(١) انظر في محمد بن أبي الحسن ربحانة الألبا للخفاجي
٢٢٠/٢ وأكمل الترجمة بعد ترجمته لابنه أبي المواهب ص
٢٢٣ وراجع شذرات الذهب ٤٣١/٨ والنور السافر

وينادى آملا راجيا ويردد مارده ابن الفارض وغيره من الصوفية قبله . من الحديث عن مدامة الحب الإلهي ورحيقه المسكر للصوفية .

وللبكرى استغاثات كثيرة بالرسول ﷺ حبيب الله خير مبعوث قرّبه الله إليه ، وسره الأعلى الذى لا يخيب أمله ، والذى ينال سؤله اللائذ . ومن قوله فى إحدى استغاثاته :

يا أكرم الخلق على ربِّهِ وغيرَ من فيهم به يُسألُ
قد مسَّنى الكربُ وكُم مرةً فرُجَّتْ كَرَّيَا بعضُهُ يذْهَلُ
وأنتَ بابُ الله أىِّ امرئٍ أتاه من غيرِكَ لا يدخلُ

ويضيف فى استغاثاته بالرسول إلى تفريج الكرب عنه وإقالته من عثراته الشفاعة له من ذنبه يوم المحشر بما أوتى من محبة الله ورؤيته له فى عروجه إلى السموات .

٥

شعراء الفكاكة

من أهم ما يميز مصر قديما وحديثا ميل أهلها إلى الفكاكة والتندير والدعابة ، وقد صورنا ذلك تصويرا جامعا فى كتابنا « الفكاكة فى مصر » مستعرضين هذه الخصلة فى مزاج المصريين من عصر الفراعنة حتى العصر الحديث . ونراها واضحة طوال هذا العصر . بل منذ أن وجدت مصر شخصيتها الأدبية زمن الدولة الطولونية على نحو ما يتضح من نبز شاعر بلقب الجمل الأكبر ، وخطفه شاعر كان يلقب بالجمل الأصغر ، ويقول ابن سعيد . « كان ينحو فى الظرافة والتطايب منحى الجمل الأكبر ^(١) » . ولا يلبث أن يقول فى سعيد القاص شاعر الإخشيد الملقب هو الآخر بقاضى البقر : « من شعراء الإخشيد وزاد اختصاصه لديه بما كان فيه من الخلاوة والتندير والهزل ^(٢) » . وإذا مضينا إلى زمن الدولة الفاطمية وجدنا ظاهرة النبز بالألقاب دعابة للشعراء

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧١ .

(١) المغرب لابن سعيد (قسم الفسطاط) ص ٢٧٠

تسع ، إذ ينز غير شاعر بلقب غريب كما يوضح ذلك كتاب الخريدة للعماد الأصمهاني إذ يلقانا فيه شاعر لُقّب بِشَلَّلَع وثان بالوضيع وثالث بالكاسات ورابع بالجهجهان وخامس بالنساس إلى غير ذلك من ألقاب .

ومن أوائل الشعراء في هذا العصر ابن وكيع التنيسي ومرت في الفصل الماضي مربعة مزدوجة له ، جعل موضوعها غزله بفلام مسيحي ، وقد مضى فيها يداعبه ، منذرا له ، إن ظل هاجرا ، أن يشكوه إلى القساوسة ويتسع في ذلك محتجا بتعاليم المسيح ووصايا متى ولوقا ومرقس ويوحنا ، ويقول إنه سيشكوه إلى الأسقف فإن لم يقلع عن هجره شكاه إلى المطران ، فإن لم يكف شكاه إلى البطريك . وكانت تفتن بهذه الفكاهة سخرية شديدة بالفاطميين ووزرائهم عرضنا لها في حديثنا عن الهجاء . وأدى هذا الميل إلى السخرية والفكاهة والرغبة في التندير بالمصريين إلى الاتساع في القذف بسهام التورية ، وهي تكثر في سماء أشعارهم طوال هذا العصر حتى لتشبه النيازك التي يكثر إلقاؤها إلى الفضاء في الأعياد ، فلاتزال النيازك تلقى ليلة العيد ، ولايزال الشعراء المصريون يرمون بتورياتهم قدحا ومدحا وغزلا على كل لون من مثل قول الشريف العقيلي مثنيا على زامر ونابه أو ناياته ^(١) :

وزامر يكذبُ فيه عائبَةٌ تكثرُ في صنعتِه عجائبٌ
يحجبُ صبرَ المرءِ عنه حاجِبَةٌ كأنما نايأته ذوائبه

والتورية واضحة في حاجب وذوائب . ومن تعلقوا بصنع التورية في الحقبة الفاطمية ابن قادوس - كما مر في غير هذا الموضع - ومثله قر الدولة جعفر بن دؤاس ، وله يقول في ابن أفلح أحد الكتاب الشعراء وكان شديد السواد ^(٢) :

هذا ابنُ أفلحَ كاتبٌ متفرّدٌ بصفاته
أقلامُه من غيرِه ودوائه من ذاته

وتلقانا بجانب التورية دعابات كثيرة للشعراء في زمن الفاطميين ، يداعبون بها زملاءهم من الشعراء وأصدقاءهم من الكتاب والعلماء والأطباء ، من ذلك دعابة مشهورة للقاضي الجليس

(١) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٦٣/٢ .

(٢) الخريدة ٢١٩/٢

شاعر الفاطميين ووزيرهم طلائع ابن رزيك وجّه بها إلى طبيب تعهّده وكان محموداً ، فلم ير أعلى يديه وفيها يقول (١) :

وَأَصْلُ . يَلْتَقِي مَنْ قَدْ غَزَانِي . مِنْ السُّقْمِ الْمَلْحُ بِعَسْكَرَيْنِ
طَيْبٌ طِبُّهُ كَغُرَابٍ بَيْنِي . يَفْرُقُ بَيْنَ عَافِيَتِي وَبَيْنِي
أَتَى الْحُمَى وَقَدْ شَاخَتْ وَبَاخَتْ . فَرَدُّ لَهَا الشَّبَابَ بِنُسَخَتَيْنِ
وَدَبَّرَهَا بِتَدْبِيرٍ لَطِيفٍ . حَكَاهُ عَنْ سِنَانٍ أَوْ حُنَيْنٍ (٢)
وَكَانَتْ نَوْبَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ . فَصِيرَهَا بِحَذَقٍ نَوْبَتَيْنِ

والجلّيس يداعب الطبيب فبدلاً من أن يصله بعافيته فرق بينها ، ويقول إنه جاء في أواخر الحمى وقد شاخَتْ وبَاخَتْ أو فترت فإذا هو يرُدُّها الشباب بورقتين من سَقُوف الدواء أو كما يقول بنسختين ، وكأنما أحكم تدبيره في ردِّ قوة الحمى إليها فإذا هي لاتعاوده في اليوم نوبة بل نوبتين . ولعل القارئ لم ينس ابن الذرّوى في الحقبة الأيوبية ووصفه لحدة ابن أبي حصينة وصفا ساخرا لاذعاً . ومن طريق ما نقرأ من دعايات في هذه الحقبة دعاية البهاء زهير مع أحد أصدقائه ، وقد جعل موضوعها بغلته ، يقول (٣) :

لَكَ يَا صَدِيقِي بَغْلَةٌ . لَيْسَتْ تَسَاوِي خَرْدَلَهُ
تَمْشِي فَتَحْسِبُهَا الْعَيُوبُ . نُ عَلَى الطَّرِيقِ مُشْكَلَةٌ (٤)
وَتُخَالُ مَدْبِرَةً إِذَا . مَا أَقْبَلْتُ مُسْتَعْجِلَهُ
مَقْدَارُ خَطْوَتِهَا الطُّو . يَلَهُ حِينَ تَسْرِعُ أَنْمَلَهُ
تَهْتَزُّ وَهِيَ مَكَانَهَا . فَكَأَنَّمَا هِيَ زَلْزَلَهُ

ويريد البهاء زهير بالخردلة أقل شيء في الصغر ، ويقول إنها حين تمشي يُظَنُّ أنها مقيدة لبطنها الشديد ، ويجعلها مدبرة حين تقبل ومقدار خطوتها الطويلة أنملة فما بالنا بخطوتها القصيرة ، وإنها لتهتز واقفة لاتسير ولا تتحرك كأنما هي زلزلة .

(١) الخريدة ١٩٢/١ .
(٢) سنان هو سنان بن ثابت بن قرّة من أطباء القرن .
الثالث ومثله حنين بن إسحق .
(٣) كتاب البهاء زهير للشيخ مصطفى عبدالرازق ص ٥٤ .
(٤) مشكلة : مقيدة .

وتكثر التورية في شعر القاضي الفاضل وزير صلاح الدين كثرة مفرطة من مثل قوله متشوقا إلى مصر وإلى شربة من ماء النيل^(١) :

بأفقه قُلْ للتَّيْلِ عني إِنِّي لم أَشْفِ من ماء الفُرَاتِ غَلِيلا
وسَلَى الفَوَادَ فإنه لى شَاهِدٌ أَن كَانَ طَرْفِي بالبِكَاءِ بَحِيلا
ياقْلِبْ كَمْ خَلَفْتَ ثُمَّ بُيِّنَتْ وَأظُنْ صَبْرَكَ أَن يَكُونَ جَمِيلا

فقد غاب عن مصر مع صلاح الدين في بعض رحلاته وحملاته إلى الموصل ، وهو يعلن أن ماء الفرات لن يشفي غليله ، ولن يكف بكأؤه شوقا إلى مصر ورياضها ونيلها . والتورية واضحة في كلمة جميل بعد ذكره لبينة صاحبة جميل الشاعر الغزل القديم .

ويتوقف ابن حجة الحموى بكتابه خزانة الأدب في حديثه عن التورية ملاحظا أنه خلفت القاضي الفاضل شعبتان^(٢) : شعبة مبكرة وشعبة لاحقة ، أما المبكرة فجميعها مصريون وجميع اللاحقة شاميون ، ويعدّد المبكرة ومن قاموا عليها من المصريين في القرنين السادس والسابع للهجرة مسميا لهم ، وهم ابن سناء الملك من مثل قوله في بعض غزله^(٣) :

مَلَكْتَ الخَافِقِينَ فَتَهْتَ عُجْبًا وَلَيْسَ هُمَا سَوَى قَلْبِي وَقُرْطُكَ

فهى لا تمتلك قرطها الخافق المهتر وحده بل تمتلك أيضا قلبه الخافق ، والتورية في كلمة الخافقين وهما الشرق والغرب . ويذكر ابن حجة بعد ابن سناء الملك شعراء القرن السابع المصريين : الجزار والوراق وابن النقيب والحمامي وابن دانيال ومحيي الدين بن عبد الظاهر ، وسنلم ببعض توريات من سنترجم لهم منهم ، ومن توريات ابن النقيب قوله المشهور^(٤) :

أَقُولُ وَقَدْ شَتَّوْا إِلَى الحَرْبِ غَارَةً دَعَوْنِي فَلَانِي آكَلُ الخُبْزَ بِالْجُبْنِ

والتورية في الجبن واضحة . ومن توريات الناصر الحمّامي قوله في بعض غزله^(٥) :

وَيُظَنِّي حَيًّا رَوَيْتُ بِرَيْقِهِ فَإِذَا دَعَا قَلْبِي بِجَاوِبِهِ الصَّدَى

(٣) الديوان ص ٤٦٣ والخزانة ص ٣٠٠

(٤) خزانة الأدب ص ٣٠٨

(٥) نفس المصدر ص ٣٠٨

(١) خزانة الأدب للحموى (طبع مطبعة بولاق) ص

٣٠٠

(٢) خزانة الأدب ص ٢٩٨ .

والمعنى القريب للصّدَى المتصل بالدعاء والجواب رجح الصوت ، والمعنى البعيد المراد الذى ورى عنه النصير الحامى هو العطش . ويتوقف ابن حجة طويلا عند توريات ابن نباتة ، وقد روى منها أكثر من مائة تورية ، غير مارواه مما أخذته عنه الصفدى وغيره ، ومن طريف تورياته قوله لمن أهدى إليه تمرًا رديثًا غالبه نوى ، إذ كتب إليه ^(١) :

أرسلت تمرًا بل نوى فقبلته يد الوداد فما عليك عتاب
وإذا تباعدت الجسم فودنا باقى ونحن على النوى أحباب
والمعنى القريب المتبادر لكلمة النوى هو نوى العمر ، والمعنى البعيد الذى أراده ابن نباتة هو البعد والفراق .

ويترك ابن حجة توريات ابن نباتة إلى توريات من جاء بعده من المصريين أمثال ابن الصائغ الحنفى وفخر الدين بن مكانس وبدر الدين البشتكى وابن أبى الوفا وابن حجر العسقلانى المصرى . وتستمر التورية فى الحقبة العثمانية وكأنها والزاج المصرى صنوان لايفترقان . ويلقانا فى أيام العثمانيين شاعر فكه كان يعيش للهلز هو عامر الأنبوطى وسنترجم له عما قليل بين شعراء الفكاهة فى العصر .

ابن ^(٢) مكنسة

هو إسماعيل بن محمد الإسكندرى عاش فى القرنين الخامس والسادس للهجرة إذ توفى سنة ٥١٠ هـ وفيه يقول أبو الصلت فى الرسالة المصرية : « شاعر مكث التصرف ، قليل التكلف ، يفتن فى نوعى جد التعريض وهزل ، وضارب بسهم فى رقيقه وجزله » . وكان مع جودة شعره يتبدل فى مديحه وبلغ منه ذلك أنه انقطع إلى عامل مسيحى يسمى أبامليح فى عهد بدر الجبالى وزير المستنصر وكأنه لم يجد عند بدر ما يغنيه ، فلما تحولت الوزارة منه إلى ابنه الأفضل وتعرض لاستباحته لم يقبله ولم يقبل عليه ، لقوله فى رثاء أبى مليح :

طويت سماء المكرما	ت وكورت شمس المديح
ماذا أرجى فى حيا	فى بعد موت أبى مليح

والخريدة ٢٠٣/٢ وفوات الوفيات ٣٦/١ ومعجم السلفى فى مواضع متفرقة .

(١) خزانة الأدب ص ٣٦٢

(٢) انظر فى ابن مكنسة وترجمته وأشعاره الرسالة المصرية لأمية بن أبى الصلت نشر عبد السلام هرون

ويبدو أن البيت الثاني هو الذى آذى نفس الأفضل ، فأعرض عنه وكفله عز الدولة بن فائق
ويبدو أنه كان من كبار رجال الدولة الفاطمية ، وله فى المديح كثير من الأبيات الطريفة كقوله :

يلقاك مبهجاً والغيثُ فى يدهِ يَهْمِي فيجمعُ بين الشمس والمطرِ
وقوله :

الطَّوْدُ حاسدٌ حِلْمِهِ وَأَنَاتِهِ وَالسِّيفُ حاسدٌ بِأَسِهِ وَمَصَانِهِ
وله أشعار غزلية كثيرة كان يعرف كيف يسوق فيها أفكارا وصورا مبتكرة ، وهو كالسابق إليها
أوسابق فعلا من مثل قوله يصف خصلة من الشعر التوت على خد جميل فى شكل عقرب :

قُلْتُ إِذْ عَقَرَبَ الدَّلَا لُ عَلَى خَدِّهِ الشَّعْرُ
مَارَرْنِي قَطُّ قَبْلَ ذَا عَقَرَبُ حَلَّتِ الْقَمَرُ

والحديث عن عقرب الشعر وقرنه ببرج العقرب قديم ، وربما كان أروع من هذه الصورة ،
وهى بحق صورة مبتكرة له قوله :

لَا تَخْدَعَنَّكَ وَجَنَّةُ مَحْمَرَةٍ رَقَّتْ فِي الْيَاقُوتِ طَبْعُ الْجَلْمِدِ

وعلى شاكلة هذه الصورة المبتكرة قوله :

الْحَسَنُ فِي وَجْنَتِهِ وَطَرْفِهِ يَفْتَحُ وَرْدًا وَيَغْضُ نَرْجِسًا

وكانت له أشعار كثيرة فى المجون والخمر ومعاقرة الدنان ، وكثيرا ما ينفذ منها إلى صور وخيالات
بديعة من مثل قوله يصف الخمر وهى تُصَبَّ من إبريق :

إِبْرِيقُنَا عَاكِفٌ عَلَى قَدَحٍ كَأَنَّهُ الْأُمُّ تَرْضَعُ الْوَلَدَا
أَوْعَابِدُ مِنْ بَنَى الْمَجُوسِ إِذَا تَوَهَّمُ الْكَأْسَ شُعْلَةً سَجْدًا

وكان فى ابن مكنسة ميل شديد إلى الفكاهة والدعابة ، وله فى ذلك نواذر وأشعار كثيرة ،
كان فيها يتاجز على طريقة أبى الشمقمق الذى عرضنا له فى كتاب العصر العباسى الأول ، إذ كان
دائم التصوير لبؤسه وفقره وخلو داره من الطعام وعبث الجرذان فيها وبنات وَرْدَانِ أو الصراصير ،
ويتابعه ابن مكنسة واصفا قبح داره وضيقها ، قائلا :

لَيْ بَتُّ كَأَنَّهُ بَيْتُ شَعْرِ لَابِنِ حَجَّاجٍ مِنْ قَصِيدِ سَخِيفٍ
 أَيْنَ لِلْعَنَكِبُوتِ بَيْتٌ ضَعِيفٌ مِثْلُهُ وَهُوَ مِثْلُ عَقْلِ الضَّعِيفِ
 بَقْعَةٌ صَدُّ مَطْلَعُ الشَّمْسِ عَنْهَا فَأَنَا - مَذْ سَكَنْتُهَا - فِي الْكُسُوفِ

وهو يذكر عبث بنات وردان فيه وضيقة الشديد وقبحه ، ويقول أنه يشبه بيت شعر سخيـف من أشعار ابن حجـاج المـفحـشة ، ويقول إنه - مذ سـكنه - في الكسوف ولا يريد كسوف الشمس وهو المعنى القريب الملائم لما قبله ، وإنما يريد المعنى البعيد من الخجل والاستحياء الشديد . وهي تورية واضحة . ومن قوله الفكـه يشكو شيخوخته ووهن عظمه وكلال بصره :

عَشْتُ خَمْسِينَ بَلْ تَرَى دُرٌّ رَقِيعًا كَمَا تَرَى
 أَحْسَبُ الْمُقْلَ بُنْدُقًا وَكَذَا الْمِلْحَ سَكْرًا
 وَأُظِنُّ الطَّوِيلَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُدَوَّرًا
 قَدْ كَبُرَ بَرٌّ يَبْرُ يَبْرُ تٌ وَعَقْلِي إِلَى وَرَأِ
 عَجَبًا كَيْفَ كُلُّ شَيْءٍ أَرَاهُ تَغْيِيرًا
 لَا أَرَى الْيَبْضَ صَارَ يُؤْ كُلُّ إِلَّا مُقَشَّرًا
 وَإِذَا دُقَّ بِالْحِجَا رِ زَجَاجٌ تَكْسَرًا

وهو يعلن في مطلع الأبيات أنه عاش ماجنا رقيقا ، وكأنه لن يكفَّ عن رقاـعته ومـجـونه ، ويصور شيخوخته وضعف نظره حتى لم يعد يفرق بين ثمر الدوم المسمى بالمقل والبندق ولا بين الملح والسكر ولا بين الطويل والمـلـدور ، ويـجـسـم ارتعاشه في شيخوخته بالبيت الرابع إذا لم يكـد يلفظ بكلمة كبرت حتى ارتعش به فـه مـكوـنا شطرا من بيت ، ويعجب أن كل شيء تغير ، ونقرأ ما تغير فنستغرق في الضحك ، إذ تحولت الحقائق في عقله الكليل إلى عجائب ، فالبيض يؤكل مقشرا ، والزجاج إذا دق بالحجارة تكسر . وما من ريب في أن هذه الفكاهة فيه والدعابة هي التي جعلت المصريين لزمـنه يلقبونه ابن مكنسة .

الجزلر^(١)

هو يحيى بن عبد العظيم ولد سنة ٦٠١ وتوفى سنة ٦٧٩ فهو من شعراء الدولتين : الأيوبية والملوكية ، نشأ بالقسطاط فى أسرة كانت تحترف الجزارة ، ويقول ابن سعيد صديقه فى ترجمته له بكتاب المغرب : دكا كين أسرته فى القسطاط عاينتها وأبصرته معهم بها . وكان فى أول أمره قصباً وسال الشعر على لسانه وكانت ملكه خصبة فاحترفه ، وقصد به السلاطين والأمراء وعمال الدولة فى الاسكندرية والمحلة ودمياط . وروى ابن سعيد فى ترجمته قطعة كبيرة من شعره ومدائحه ، ويرجع تاريخ بعضها إلى سنة ٦٢٧ ويقول صاحب مسالك الأبصار : « قال الشعر وهو صغير أول ما احتلم » وطاف بأركان بيت له واستلم . ويشيد ابن سعيد بكرمه وما أغدق عليه من برة ، ويذكر دعوته له مرارا للترنزه مع طائفة كبيرة من شعراء جيله أمثال ابن النقيب والسراج الوراق . وكانت للجزار مسامرات ولقاءات كثيرة مع البوصيرى والحامى وابن دانيال ، وجعله كرمه يقترب ممن كانوا يفدون على مصر أمثال ابن العديم وابن خلكان وابن سعيد الذى يشيد بوصف مروءته وكرمه وحسن عشرته . ويحيل إلى الإنسان كأن لم يبق سلطان ولا وزير ولا قاض ولا كبير فى الدولة إلا أسبغ عليه مدائحه ، وهى مدائح وسطى ليست بالغة الجودة ، ومع ذلك يقول الصفدى : « لم يكن فى عصره من يقاربه فى جودة النظم غير السراج الوراق ، وهو كان فارس الحلبة ، ومنه أخذوا وعلى نمطه نسجوا ومن مادته استمدوا » ويقول ابن سعيد : « رزق من حسن الاهتداء لغرائب المعانى وبدائع الألفاظ ما يدل على غوص فكره ، وطريقه من أسهل الطرق التى يميل إليها العامة ولا ينكرها الخاصة ، لقرب مأخذها وحسن مترعها » .

وابن سعيد دقيق كل الدقة فى وصف لغة الجزار بأنها سهلة تميل إليها العامة ، مع فصاحتها ، وهى ظاهرة ترجع إلى نشأته ، وأنه ترى بين طبقة العامة فى القسطاط لزمته ، فطبيعى أن لا ينجح فى أشعاره إلى الألفاظ الغريبة إنما ينجح إلى الألفاظ الواسطة بين لغة العامة ولغة الخاصة بحيث يرضى الطرفين ويقع منها موقعا حسنا . والجزار إحدى حلقات هذه السلسلة التى تصور صلة عامة

الزاهرة ٣٤٥/٧ وشذرات ابن الهاد ٣٦٤/٥ ومطالع البدور للزولى ١٩١/٢ وما بعدها ، ومكتبة جامعة القاهرة مصورة لمتخبات من شعره بخط الصفدى فى ١٨٠ ورقة .

(١) انظر فى الجزار وترجمته وشعره المغرب (قسم القسطاط) ص ٢٩٦ وحسن الحاضرة ٥٦٨/١ وغوات الوفيات ٦٣٠/٢ ومسالك الأبصار لابن فضل الله العبرى (مخطوطة دار الكتب المصرية) ١٢ الورقة ١٦٦ والنجوم

الشعب المصرى دائما بالشعر العربى صلة لاتنقطع ، إذ دائما نرى شعراء من طبقة العامة الكادحة يرقون فى الشعر إلى درجة عالية مثل ظافر الحداد فى الحقبة الفاطمية ، وكثير من معاصرى الجزار كانوا مثله من أبناء عامة الشعب نذكر منهم صديقه الوراق ، وكان ورّاقا يبيع الكتب ، وكذلك صديقه الحمامى ، وكان له حَمَام يقوم عليه ، ومثل مجاهد الخياط بالفسطاط ، وله فيه بيت مشهور لزمناها دار على الألسنة إذ يقول :

وليس يرجوه غيرُ كلبٍ وليس يخشاه غيرُ ثيسٍ

وردّ عليه الجزار غير غاضب بل كأنما يريد استمرارًا فى الدعابة :

يرجئنا بنو كلبٍ ويخشانا بنو عجلٍ

ويبد أنه كان يعود فى بواكير حياته إلى القصابة والجزارة مما جعل صديقا له يسمى شرف الدين يعاتبه ويكثر من عتابه ولومه لتركه الأدب إلى حرفة الجزارة فقال :

كيف لا أشكرُ الجزارةَ ما عشتُ حِفاظًا وأرفضُ الآدابا
وبها أضحتِ الكلابُ تُرجى نى وبالشعرِ كنتُ أرجو الكلابا

ولابد أن أزمة كرامةٍ مرت به ، فانسحب فترة إلى دكاكين أهله ، ولكن سرعان ما عاد إلى الأدب وإلى الكرام من ممدوحيه وأصدقائه وزملائه الكثيرين .

وربما كان أهم ما يتصف به الجزار ميل متأصل فى نفسه إلى الفكاهة والدعابة ، مما جعله يُشَبِّه بابن مكنسة وأبى الشمقمق العباسى فى الشكوى من بؤسه وفقره مداعبا متفكِّها بمثل قوله :

لى من الشمس خِلعةٌ صفراءُ لا أبالى إذا أتانى الشتاءُ
بيتى الأرضُ والفضاءُ به سو رُ مَدَارٌ وسَقَفُ بَيْتِ السَّمَاءِ
لو ترائى فى الشمسِ والبردُ قد أُنْزَحَلَ جِسمى لقلتُ إني هَبَاءُ
كلما قلتُ فى غَدٍ أدرك السَّو لَ أتانى غَدٌ بما لا أشاءُ

فحتى الثياب لا يجدها ، وبيته الأرض وسقفه السماء ، وقد أنخله البرد حتى صار شبحا لا يكاد يرى ، وكل يوم يأمل ويرجو ويخيب الأمل والرجاء ، إذ لا ينال شيئا من دنياه سوى اليأس والشقاء ، ويعود إلى وصف داره قائلا :

ودار خرابٍ بها قد نزلتُ ولكن نزلتُ إلى السابعة
فلا فرق ما بين أنى أكونُ بها أو أكونُ على القارعة
وأخشى بها أن أقيم الصلاة فتسجد حيطانها الراكعة
إذا ما قرأتُ : (إذا زُلْزِلَتْ) خشيتُ بأن تقرأ : (الواقعة)

إنها دار خربة هوت به إلى الأرض السابعة ولا سقف ولا حيطان فكأنه على القارعة أو على الطريق . وإنه ليخشى أن يقيم بها الصلاة فتنقض حيطانها . ويتندر قائلاً إذا قرأت في صلاتي سورة الزلزلة خشيت أن تقرأ هي سورة الواقعة ، والتورية واضحة ، ويعود إلى ثيابه ويصف جبّة له هذا الوصف الفكه :

لِي نِصْفِيَّةٌ تَعْدُ مِنَ الْعُمُرِ سِنِيًّا غَسَلْتُهَا أَلْفَ غَسَلَةٍ
كُلَّ يَوْمٍ يَحُوطُهَا الْعَصْرُ وَالذُّقْرُ وَمَا تُقَرُّ بِعُسْلَةٍ
أَبْنِ عَيْشِي بِهَا الْقَدِيمَ وَذَاكَ التَّسْبِيحُ فِيهَا وَخَطَرْتُ وَالشَّمْلَةَ
حَيْثُ لَا فِي أَجْنَابِهَا رَقْعَةٌ قَطُّ وَلَا فِي أَكْثَامِهَا قَطُّ وَصَلَهُ

فهى نصفية أو « جبّة » طالما لبست وغُسلت وصُبغت ، وفي كلمة « العصر » تورية لأنها كانت شائعة الدلالة على عصر الخصبين تأديبا للمجرمين وتقريرا لهم ، وترشحها في البيت كلمة الإقرار بالعملة وهى بفتح العين الجنابة وبالضم النقود . والشملة لاتزال تستعمل في العامية المصرية على ما يتلفع به الرجال من الصوف أو الحرير ، وهى فصيحة . والأبيات مختارة من قطعة طويلة مضحكة في وصف هذه الجبة البالية . وصلى التراويح عند الوزير بهاء الدين بن حنّا فقرأ الإمام في ركعة من ركعات التراويح سورة الأنعام ، فقال ثَوًّا :

مَالِي عَلَى الْأَنْعَامِ مِنْ قُدْرَةٍ لَاسِيًّا فِي رَكْعَةٍ وَاحِدَةٍ
فَلَا تَسْؤِمُونِي حُضُورًا سِوَى فِي لَيْلَةِ الْأَنْفَالِ وَالْمَائِدَةِ

ولكلمة الأنفال معنى قريب هو السورة الكريمة ومعنى بعيد هو الهبات ، وهو المراد ، وبالمثل لكلمة المائدة معنى قريب هو سورتها في القرآن ومعنى بعيد هو مائدة الطعام وهو المراد . وله في أطعمة رمضان : القطائف والكنافة وما إليها مداعبات كثيرة من مثل قوله :

سَقَى اللَّهُ أَكْثَافَ الْكَنَافَةِ بِالْقَطْرِ وَجَادَ عَلَيْهَا سُكَّرَ دَائِمُ الدَّرِّ

والقطر هنا السكر ، والدر : الهطلان والكثرة .

وتزوج أبوه امرأة متقدمة في السن ، فضى ينتقم منه ومنها بفكاهات واصفا فيها هرمها ، مصورا ضعف عقلها لكبر سنها وقبح وجهها كما يزعم بمثل قوله :

تَزَوَّجَ الشَّيْخُ أَبِي شَيْخَةً لَيْسَ لَهَا عَقْلٌ وَلَا ذِهْنٌ
لَوْ بَرَزَتْ صُورُهَا فِي الدُّجَى مَا جَسِرَتْ تَبَصُّرُهَا الْجِنَّ
كَأَنَّهَا فِي فَرْشِهَا رِمَّةٌ وَشَعْرُهَا مِنْ حَوْلِهَا قُطُنٌ
وَقَائِلِي قَالَ فَا سَيِّئًا فَقُلْتُ مَا فِي فَهَّا سَيِّئٌ

والبيت الثالث شديد الإقذاع لهذه المرأة المسنة ، واستخدام التورية في البيت الأخير إذ سئل عن سنّها أى عمرها ، فجعل السؤال عن أسنانها .

وينظم في حمار له مقطعات كثيرة فكهة ، ومات فأكثر من رثائه محاكيا بشارا في رثائه لأنثاه ، وجمع بعض معاصريه مراثيه لحماره في مجلد ، وهى مراث تدور على الدعابة الخالصة . ومن قوله اللاذع في أحد البخلاء لأيامه :

لَا يَسْتَطِيعُ يَرَى رَغِيْبًا عِنْدَهُ فِي الْبَيْتِ يُكْسِرُ
فَلَوْ أَنَّهُ صَلَّى - وَحَا شَاهَ لَقَالَ الْخَبِيزُ أَكْبَرُ

وفي الحق أنه كان جعبة فكاهة ودعابة ، وهو أحد من أكثروا لزمنه صنع التوريات ، وقد روى له ابن حجة طائفة كبيرة ، منها قوله :

قُلْتُ لَسَقُمُ الْجِسْمِ مَنِ وَقَدْ أَفْرَطَ بِي قَرُطٌ ضَنًّا وَاكْتِتَابٌ
فَعَلْتُ بِي يَأْسُقُمُ مَا لَمْ يَكُنْ تُتَبَسُّ - وَاللَّهِ - عَلَيْهِ الثِّيَابُ

والشطر الأخير له معنيان : المعنى الظاهر الضنا والنحول حتى لاتكاد الثياب تلبس ، والمعنى البعيد المراد وهو : مالا يصح ولا يجوز أبدا .

السراج ^(١) الوراق

هو سراج الدين عمر بن محمد بن حسن رفيق الجزار وصديقه ، وُلد مثله بالفسطاط سنة ٦١٥ وتوفي سنة ٦٩٥ وفيه يقول ابن تغرى بردى : « كان إماما فاضلا أديبا مكثرا متصرفا في فنون البلاغة ، وهو شاعر مصر (الفسطاط) في زمانه بلا مدافعة » ويقول صاحب فوات الوفيات : « كان حسن التخیل ، جيد المقاصد ، صحيح المعاني ، عذب التراكيب عارفا بالبدیع وأنواعه » . ولم يكثر أحد من الشعر إكثاره إذ كان ديوانه سبعة أجزاء كبار ، وأكثره مقطوعات قصيرة . ويمتاز شعره - مثل الجزار - بالسهولة المفرطة ، لسبب طبيعى ، وهو أنه نشأ في أسرة شعبية متواضعة ، وما زال الشعر يصعد به حتى عَينَ كاتباً للدرج عند بعض الأمراء ، ويبدو أنه لم يظل في ذلك طويلا وأنه احترف الوراق ، وفي شعره مدائح لبعض السلاطين والأمراء كقوله في الظاهر بيبرس أثناء الاحتفال بافتتاح مدرسته الظاهرية :

وشيدَها للعلم مدرسةً غدا عراقُ إليها شيقٌ وشامٌ
ولا تذكُرْنَ يوما نظاميَّ لها فليس يضاهي ذا النظامِ نظامٌ

وهو يحملها فوق نظامية بغداد المشهورة التي بناها بها نظام الملك الوزير السلجوقي المشهور ، وقد عرضنا لها في حديثنا عن العراق بالجزء السابق من هذه السلسلة ومدى إنفاقه عليها وعلى العلماء والطلاب بها ، وما حبس عليها من أوقاف دائرة ، وكان لها شأن بعيد في النهضة العلمية ببغداد . ومربنا حديث عن المدرسة الظاهرية في فصل الثقافة . وللوراق مراثية بديعة في المعز أليك حين قتل ، يقول فيها :

نقيمُ عليه ماتما بعد ماتمِ ونسفحُ دمعاً دون سَفحِ المقطُمِ

وله شعر غزل كثير مثل الجزار ولا نحس عنده بحرقه ولا بلوعة ، مثله في ذلك مثل صاحبه ، ومن قوله في بعض غزله :

٣٠٠ وما بعدها ومطالع البدور ٩٠/١ وخطط للقرىزى ٣٤١/٣ . ومن ديوانه مخطوطة بدار الكتب المصرية ومصورة بخط الصفدى في مكتبة الجامعة في ١٨٠ ورقة .

(١) انظر في السراج الوراق وترجمته وأشعاره فوات الوفيات لابن شاکر ٢١٣/٢ والنجم الزاهرة ٨٣/٨ وشنرات النخب ٤٣١/٥ وعزارة الأدب للحموى ص

فِي خَدِّهَا ضَلَّ عِلْمُ النَّاسِ وَاخْتَلَفُوا أَلِلشَّقَاتِي أُمَ لِلوردِ نِسْبَتُهُ
فَذاك بِالْخَالِ يَقْضَى لِلشَّقِيقِ وَذا دَلِيلُهُ أَنَّ ماءَ الوردِ رَيْقُهُ

وَإذا غَضَضْنَا النِّظَرَ عَنْ حَشَرِهِ لَعَلَّ النَّاسَ وَاخْتَلَفَهُمْ فِي خَدِّ صَاحِبَتِهِ ، فَإِنَّ الصُّورَةَ تَبْدُو بَعْدَ
ذَلِكَ بَدِيعَةً وَمَعْرُوفٌ أَنَّ الشَّقِيقَ قَامَتْ الْحَمْرَةُ ، وَقَدْ أَبْدَعَ فَعَلًا إِذْ جَعَلَ دَلِيلَ نِسْبَةِ الْخَدِّ إِلَى الْوردِ
رَى صَاحِبَتِهِ الشَّيْبَةَ بِمَاءِهِ . وَمَنْ غَزَلَهُ أَيْضًا :

لَا تَحْجُبِ الطَّيْفَ إِنِّي عَنْهُ مَحْجُوبٌ لَمْ يَبْقَ مِنِّي لِفَرْطِ السُّقْمِ مَطْلُوبٌ
وَلَا تَتَّقِ بَأْنِي إِنِّ مَوْعِدُهُ بَأَنَّ أَعِيشَ لِلْقِيَا الطَّيْفَ مَكْنُوبٌ
هَذَا وَخَدُّكَ مَحْضُوبٌ يُشَاكِلُهُ دَمْعٌ يَقْبِضُ عَلَى خَدِّي مَحْضُوبٌ
تَأْوُدُ الْغُصْنَ مَهْتَرًا فَأَنْبَأَنَا أَنَّ الَّذِي فِيكَ خُلِقَ فِيهِ مَكْسُوبٌ

وَإِنَّهُ لَيَتَمَنَّى رُؤْيَا خِيَالِ الْمَحْبُوبَةِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَهِيَاهُ ، وَيَقُولُ إِنَّهُ يَبْكِي دُمَا قَانِيَا كَخَدِّ صَاحِبَتِهِ
فِي حَمْرَتِهِ . وَيَزْعَمُ أَنَّ مِيلَانَ الْغُصْنِ وَاهْتِزَازَهُ إِنَّمَا هُوَ خَلْقٌ فِيهِ اكْتَسَبَهُ مِنْ تَقْلِيدِ صَاحِبَتِهِ . وَهُوَ
يَسْتَعِيرُ صُورَةَ الْكَسْبِ فِي الْبَيْتِ مِنْ رَأْيِ الْمُعْتَرِثَةِ فِي أَنَّ الْإِنْسَانَ يَكْسِبُ عَمَلُهُ فَيَعْمَلُ لَا يَقْدِرُ مَقْدُورٌ
عَلَيْهِ .

وَأَهْمِيَةُ السَّرَاجِ الْوَرَّاقِ فِي تَارِيخِ الشَّعْرِ الْمَصْرِيِّ كَأَهْمِيَةِ الْجَزَارِ ، إِنَّمَا تَرْجِعُ إِلَى جَانِبِ الْفِكَاهَةِ
وَالدَّعَابَةِ عِنْدَهُ ، وَقَدْ خَطَأَ بَفْنِ التَّوْرِيَةِ خَطْوَةً أَوْسَعَ مِنْ خَطْوَةِ صَدِيقِهِ الْجَزَارِ ، مُسْتَغْلًا فِيهَا إِلَى
أَبْعَدِ حَدِّ لِقَبِهِ : السَّرَاجُ الْوَرَّاقُ كَمَا اسْتَغْلَى الْجَزَارُ لِقَبَهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ تَوْرِيَاتِهِ . وَمَنْ التَّوَكَّدَ أَنَّ السَّرَاجَ
أَرَى عَلَيْهِ فِي هَذَا الْبَابِ حَتَّى قَالَ لَهُ بَعْضُ مَعَاصِرِهِ : « لَوْلَا لِقَبُكَ وَصِنَاعَتُكَ لَذَهَبَ نَصْفُ
شَعْرِكَ » وَمِنْ تَوْرِيَاتِهِ فِي لِقَبِهِ السَّرَاجِ قَوْلُهُ مَا دَحَا :

كَمْ قَطَعَ الْجُودُ مِنْ لِسَانِي قَلَّدَ مِنْ نَظْمِهِ الثُّجُورَا
فَهَا أَنَا شَاعِرٌ سِرَاجٌ فَاقْطَعْ لِسَانِي أَرِذْكَ نُورَا

وَهُوَ يَشِيرُ إِلَى السَّرَاجِ الْحَقِيقِيِّ حِينَ يَقُولُ « اقْطَعْ لِسَانِي » وَهُوَ إِنَّمَا يَرِيدُ التَّوَالِ الَّذِي يَقْطَعُ لِسَانَهُ
وَيَزِيدُهُ مَدْحًا وَتَنْوِيهَا وَإِشَادَةً . وَمِنْ تَوْرِيَاتِهِ فِي لِقَبِهِ الْوَرَّاقِ :

وَاخْجَلَّتْنِي وَصَحَائِفِي قَدْ سَوَّدَتْ وَصَحَائِفُ الْأَبْرَارِ فِي إِشْرَاقِ

وفضبحتي لمُعْنِفٍ لِي قَائِلِي أَكْذَا تَكُونُ صَحَائِفُ الْوَرَّاقِ

فهو خجل من لقاء ربه بصحائفه السود ، ويقول له لائمته : أَكْذَا تَكُونُ صَحَائِفُ الْوَرَّاقِ
سوداء ، بينما ينبغي أن تكون مشرقة بيضاء كصحائف زملائه من الوراقين . ومن تورياته في غير
لقبه « السراج » وصناعته « الوراق » :

أَصُونُ أَدِيمَ وَجْهِي عَنْ أَنَاثِي لِقَاءِ الْمَوْتِ عِنْدَهُمُ الْأَدِيبُ
وَرَبُّ الشَّعْرِ عِنْدَهُمُ بَغِضٍ وَلَوْ وَافَى بِهِ لَهُمُ حَبِيبُ

ولكلمة حبيب معنيان : معنى قريب من الحب ، ومعنى بعيد هو أبو تمام إذ اسمه حبيب ، وهو
المعنى المراد . ومن تورياته البديعة قوله :

دَعِ الْهُونَى وَانْتَصِبْ وَاکْتَسِبْ وَاتَّخَذْ فَنَفْسُ الْمَرْءِ كَدَّاحَةٌ
وَكُنْ عَنِ الرَّاحَةِ فِي غَزَلَةٍ فَالْضُّفْعُ مَوْجُودٌ مَعَ الرَّاحَةِ

ولكلمة الراحة معنيان : معنى أول هو الراحة من الاستراحة ، ومعنى ثان هو الكف أو اليد ،
ومن تورياته في بقلة معروفة في مصر باسم « الرجل » ، وقد أضافه بعض أصدقائه ، فداعبه
قائلا :

وَأَحْمَقِي أَضَافْنَا بِبِقَلَةٍ لِنَسْبَةِ بَيْنَهُمَا وَوُضِلَتْ
إِذْ مَدَّ فِي وَجْهِ الضُّيُوفِ رِجْلَهُ

وهو لا يريد مد الرجل الحقيقية ، وإنما يريد مد طعام الرجل على المائدة ، مما يدل بوضوح
على حضور بديهة الوراق . ومن تورياته .

فَرَّ لِي عَابِرٌ مَنَامًا فَصَّلَ فِي قَوْلِهِ وَأَجْمَلَ
وَقَالَ : لَا بَدَ مِنْ طُلُوعِ فَكَانَ ذَلِكَ الطُّلُوعُ دُمْلُ

والطلوع : الصعود والرقى ، واستغل الوراق تسمية العامة للدمل طلوعا ، وصنع هذه التورية
البارعة . وفي كتاب خزانة الأدب للحموي توريات كثيرة للسراج الوراق اقتطفنا منها ما أنشدناه .
ووراءها توريات لا تقل عنها لطفا وبراعة .

ابن (١) دانيال .

هو شمس الدين محمد بن دانيال ، ولد سنة ٦٤٦ للهجرة بالموصل وتركها فتى إلى القاهرة ، ولا نعرف أسباب هجرته من بلده ولا تاريخ هذه الهجرة ، ويقال إنه نزل القاهرة في سن العشرين ، ويلقب بالكحّال ، ويقولون : كان له دكان كحل داخل باب الفتوح ويلقبونه بالحكيم وليس معروفا بالضبط هل احترف طب العيون أو كان تاجر كحل وبائعه فقط . وأغلب الظن أنه كان يعالج العيون لقوله :

ياسائل عن حرفتي في الورى واضبعتي فيهم وإفلاسي
ما حال من درهم إنفاقه يأخذه من أعين الناس

والعورية في الشطر الأخير واضحة ، وهي عبارة تدور على ألسنة العامة ، يقولون يأخذ حقه من عينه أي رغم أنفه ، وهو لا يريد ذلك إنما يريد الإشارة إلى صنعته وحرفته . وكانت تتعقد في دكانه أغلب الليالي ندوة سمر يجتمع فيها كبار الفكهين لزمته من أمثال الجزار وابن النقيب والوراق والحمامي ، ويروى أنهم جاءوه يوما فقالوا له : نحتاج إلى عُصَبَات يومئون بذلك إلى أن من يداوى عيونهم يُجهز على بصره فيصبح ضريرا محتاجا إلى عصا تقوده ، فقال لهم على الفور : ليس عندي إلا أن يكون فيكم من يقود لله تعالى . وكان يلزم الأشرف خليل ابن السلطان قلاوون قبل تقلده الحكم في عهد أبيه ، وأعطاه يوما فرسا ومرت أيام فإذا به يراه على حمار أعرج ، فقال له : يا حكيم أما أعطيناك فرسا تركبه ؟ فأجابه مسرعا : نعم بعته وزدت على ثمنه واشتريت هذا الحمار ، فضحك الأشرف وأعطاه فرسا آخر . ومن تورياته الطريقة قوله :

قد عَقَلْنَا والعَقْلُ أَيُّ وثاقٍ وصَبَرْنَا والصَّبْرُ مرُّ المذاقِ
كلُّ من كان فاضلا كان مثلي فاضلا عند قسمة الأرزاق

وكلمة « فاضلا » الثانية ليست من الفضيلة كسابقتهما . وإنما من الفضل بمعنى الزائد عن

الطالع للشوكاني ١٧١/٢ وكتابنا الفكاهة في مصر (طبع دار الهلال) ص ٥٣ وما بعدها .

(١) انظر في ابن دانيال وترجمته وأشعاره فوات الوفيات ٣٨٣/٢ والدرر الكامنة لابن حجر ٣٨٢/٣ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٧/٦ والنجوم الزاهرة ٢١٥/٨ والبدور

الحاجة . وهذا الجانب الفكه في ابن دانيال استطاع أن ينفذ منه إلى صنع ثلاث تمثيلات أو كما يسميها بابات لتمثل على مسرح خيال الظل في أيامه ، وهو مسرح دُمِّي متحركة متحاوره ، واسم أولاهها « طيف الخيال » ، والثانية « عجب وغريب » ، والثالثة « متم » . وتصور الأولى الحياة الاجتماعية لعهد الظاهر بيبرس . والثانية تصور سوقا مصرية ومن فيها من أخلاط الناس والأمم وقد جمدت السنتهم عند لهجاتهم الوطنية في بلدانهم وصور معينة من كلامهم تثير الضحك في النظارة . وتصور الثالثة الحيل وخاصة حيل المحبين مع صور مضحكة من عراك الديكة ونطاح الكباش والثيران .

وأبداع المسرحيات الثلاث وأطرافها « طيف الخيال » وهي مسرحية شعرية نثرية ونثرها مسجوع كثر المقامات وليس فيها لفظ غريب ، وكأنما حاول ابن دانيال أن يجعلها قريبة قرىبا شديداً إلى عامية أهل القاهرة لزمه ، وهو يفتتحها بتقديمه لطيف الخيال الأحذب الموصلى متغنيا بفضله وجده وهزله ، ويسلم سلام القادم ويرد عليه الرئيس السلام مادحا له ولحديثة بمثل قوله :

قسماً بحسن قوامك الفتان يا أوحداً الأمراء في الحدبان
يامشبه الغصن الرطيب إذا انثنى من حذبتيه يمس بالرمان
ياعجلاً شكل الهلال بقده حاشاك أن تُعزى إلى نقصان

ويستمر في تحسين حديثه ، فهو صاحب ردفين ، وهو جمل جليل السام ، بل هو كالعود الأحذب المطرب . ويرد طيف الخيال عليه : لأفض الله فاك ، ولا أقال من سيف الحسبة قفاك . وكان الخاسب رجل شرطة وقانون ، فهو يمتنى أن يظل سيفه مسلطاً على قفاه . ويغنى طيف الخيال بأبيات يستقبل بها النظارة من الحاضرين ، ويذكر أنه جاء مصر من الموصل زمن الظاهر بيبرس حين أمر في سنة ٦٦٦ بتحريم المنكرات وإغلاق الحانات وإعدام أحد أصحابها المسمى ابن الكازرونى بعد تجريسه في الطرقات وفي عنقه دن نبيذ أو نبادية . وإلى ذلك يشير طيف الخيال ، إذ يقول ابن دانيال على لسانه :

لقد كان حد السكر من قبل صلبي خفيف الأذى إذ كان في شرعنا جلداً
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي ألا تَبْ فإن الحد قد جاوز الحد
والتورية واضحة في كلمة « جاوز الحد » إذ لا يريد المعنى المتبادر من مجاوزة الشيء لحده

وإفراطه ، وإنما يريد مجاوزة الحد الشرعى فى العقوبة . ويتوقف طيف الخيال الأحذب ليرثى إبليس وغواياته ويندب تحطيم أوانى الخمر وذئانه وندمانها وسقاتها بمثل قوله :

مات - يا قوم - شَحْنًا إبليسُ وخلا منه رَبُّعُه المأنوسُ
والقَنَافى به تَكْثُرُنَّ والخَمُّ سارٌّ من بعد كسرها محبوسُ
وذَوو القَصْفِ ذاهلون وقد كا دتْ على سَيْلِها تسيلُ النفوسُ
والحَرَافِيشُ حولها يتباكو ن بنارِ ثُراعِ منها المحوسُ
وقضيبُ و نرجسُ وسُعادُ باكياتُ ونُزْهَةٌ وعَروسُ

والمرثية طويلة ، واكتفينا منها بهذه الأبيات لندل على ما تخرج به من هزل ودعابة . ويذكر طيف الخيال أنه جاء إلى مصر يبحث عن أخيه الأمير وصال ، وهو أمير مزيف ، ويظهر أخوه ، ويطلب الأمير كاتبه ، ويحدثه فى توقعات وودائع ، ويأمره بكتابة تقليد بولاية ، تدليسا واقتراء . ويلقب الكاتب طيف الخيال بلقب صُرْبَر انتقاما منه حين هزئ به ، فى مقابل لقب لشاعر بغدادى مشهور يسمى صُرْدَر . ويذكر وصال لأخيه أنه قد عزم على ترك الخلاعة والمجون والتوبة إلى الله والعمل بعمل أهل السنة والجماعة ، بادئا بالزواج . وتبدأ مشاهد التمثيلية من حين هذا اللقاء بين وصال وأخيه وتدور حول مشكلة الخاطبة فى الحقب الماضية وما كان ينشأ عنها من أغلاط فى تبين حقائق العروسين ، فالزوج يدعى أنه من أمراء الموصل ومعه كاتبه وحاسبه المزيف ، وحقيقته أنه بانس فقير لا يملك شَرَوَى نَقير كما يقول بلسانه فى التمثيلية ، حين طُلب منه المهر . وقد أُطلق البخور ورُشَّ الطَّيِّب على الحضور ويُشد :

أَمَسِيْتُ أَفْقَرَ مَنْ يَروُحُ وَيَعْتَدِي ما فى يدي من فاقتي إلا يدي
فى منزلٍ لم يَخُجِ غَيْرِي قَاعِدًا فإذا رَقَدْتُ رَقَدْتُ غَيْرَ مَمْدَدٍ
وترى البعوضَ يطير وهو بريشه فإذا تَمَكَّنَ فوق عِرْقٍ يَقْصِدِ
والفأرُ يَرْكُضُ كالخَيْولِ تَسَابَقَتْ من كُلِّ جَرْداءِ الأديمِ وأَجْرَدِ
وترى الخنافسَ كالزَنُوجِ تَصَفَّفَتْ من كُلِّ سوداءِ الأديمِ وأَسْوَدِ
هذا ولى ثوبٌ تراه مرَّعًا من كُلِّ لونٍ مثل ريشِ الِهْدُهِدِ

ومع ذلك يُزَفِّ الأمير وصال على عروسه . وحين تكشف عن وجهها يصيبه الدهول لهرمها

وقبحها المتناهي ، وينادى على الخاطبة وتأتيه ويشكو منها . وينشد طيف الخيال على لسانه شكوى مرة من زوجته . ويصور ما يتعاطاه من الحشيش وما يرسم له من الخيالات والأوهام ، حتى ليرى وجهه في زير مملوء ماء فيظن به لصا إذ يراه يعبس ويضحك مثل عبسه وضحكه ، فيحطمه حطما : وتموت الخاطبة وينوح عليها زوجها بمثل قوله :

ساعدوني بالنُّوح والتعديد بعد فقد العجوز أم رشيد
هلكت آخر اللبالي السود باليالي الوصال بالله عُودي

والتمثيلية تزخر بالمواقف المتناقضة كما تزخر بهذه الروح الفكهة ، ويتخللها الغناء والرقص ويطرّد فيها التسلسل ، وشخصها في غاية الوضوح . وهي تصور جوانب كثيرة من الحياة الاجتماعية والسياسية وعلاقات الرجال بالنساء وعلاقات الشعب بحكامه في تلك الحقبة . وما زال ابن دانيال يتمتع أهل القاهرة بتمثيلياته الهزلية وفكاهاته التي كانت تدور في أفواه الناس حتى وفاته سنة ٧١٠ للهجرة .

عامر^(١) الأنبوطي

يقول الجبرقي في ترجمته : « شاعر مفلق هجاء » ويقول إنه كان يقيم في بلده ويلم بالقاهرة من حين إلى حين فيزور العلماء والأعيان ، وكلما رأى قصيدة مشهورة سائرة قلبها وزنا وقافية إلى الهزل والطبيخ ، فكان الشيوخ والشعراء يتحامونه ويكرمونه ويجزلون له في العطاء ، وكان فيه ظرف يجعلهم يأنسون لكلامه ويهشون لشعره الفكه . من ذلك نظمه لألفية في الطعام على غرار ألفية ابن مالك في النحو ، استهلها بقوله :

يقول عامر هو الأنبوطي أحمد زني لست بالقنوطي^(٢)
وأستعين الله في ألفيّه مقاصد الأكل بها محويّه
فيها صنوف الأكل والمطاعم لذت لكل جائع وهائم^(٣)
طعامنا الضاني لذيذ اللهم لحما وسمنا ثم خبزا فالتقم

(٢) القنوطي : كلمة جلبتها القافية ولعله يريد بها اليأس

(٣) الهائم : شديد العطش .

(١) انظر في ترجمة عامر الأنبوطي وشعره الجبرقي

فلانها نفيسة والأكل عَمَّ مطاعمٌ إلى سناها القلبُ أَمَّ (١)
والأصلُ في الأخبارِ أن تُقَمَّرَا وجُوزُوا التَّقْدِيدَ إذ لا ضررا (٢)

ولاريب في أن شيوخ الأزهر وطلابه حين كانوا يسمعون منه شيئا من أشعار هذه الألفية يفرقون في الضحك إغراقا ، لأنه نقل أكثر صنيع ابن مالك في ألفيته النحوية الجادة منتهى الجد إلى هذه الألفية الجليدة المضحكة غاية الضحك . ورأى أن لامية العجم للطغرائي تستولى على إعجاب الشعراء والناس منذ زمنه في القرن السادس لما تحمل من حكم وخبرات تنفع الناس في حياتهم وسلوكهم ، فنظم على وزنها وقافيتها لامية في المطاعم من مثل قوله :

أناجرُ الضَّانِ تَرْيَاقُ من العللِ وَأَصْحُنُ الرِّزِّ فيها منتهى أُملى (٣)
ولا خليلٌ يَدْفَعُ الجوعَ يرحمَنِي ولا كريمٌ يَلْحَمُ الضَّانَ يسمح لي
طال التلهف للمطعم واشتعلتْ حُشاشَتِي بِحَامِ اليَت حين قُلِّي
أريد أكلًا نفيسًا أَسْتَعِين بِهِ على العبادات والمطلوبِ من عملِ

وكانت لابن الوردي الشامي المتوفى سنة ٧٤٩ قصيدة لامية جعلها جميعا حكما وأمثالا ، طارت شهرتها بين معاصريه ومن خلفوهم فصاغ على وزنها لامية حكيمة في الطعام ، يقول فيها :

اجتنبْ مطعومَ عدسٍ وبَصْلٍ في عِشاءٍ فَهوَ للعقلِ خَبَلٌ
وعَنِ البِصَارِ لَا تُغْنِ بِهِ ثَمْسٌ في صَحَّةِ جِسْمٍ من عِلَلٍ
وَاحْظِلْ بالضَّانِ إِنْ كُنْتَ قَتَى زَاكِيَّ العقلِ وَدَعِ عَنكَ الكَسَلَ
من كِبَابٍ وَضُلُوعٍ قَدْ زَكَّتْ أَكْلُهَا يَنْتِ عَنِ القلبِ الرَّجَلَ

وطعام العدس والبصل وكذلك البيصار من الأكلات الشعبية المصرية ، وهو ينهى عن أكلها ويدعو إلى أكل لحم الخرفان الضاني وما يتخذ منه من طعام الكباب واللحم المشوى .

وكان عامر بهذه الأشعار وما يماثلها يطرف معاصريه في القاهرة ويسرى عن نفوسهم بهزله ويجعلهم يستفرون في الضحك ، بما يعرض عليهم في أشعاره الفكهة من أصناف الأطعمة وألوان

(١) أَمَّ : قصد .

(٣) أناجر : جمع أنجر ويطلق في العامية على أواني الطعام وطهيه الكبيرة .

(٢) تقمر : كلمة عامية أى تعرض على النار

الحلوى ، مع إكثاره من دعاء ربه أن يُنبئه « كبابا » ودواء من الحلوى والخشاف . وما زال ذلك دأبه في أشعاره حتى توفي سنة ١١٧٣ للهجرة .

٦

شعراء شعبيون

ليس معنى هذا العنوان أن شعراء مصر لهذا العصر ينقسمون إلى شعبيين وغير شعبيين ، فشعراؤها جميعا كانوا شعبيين إذا أردنا من نشأوا في بيئات شعبية ولم يكونوا من أبناء القصور أو من الطبقات الأرستقراطية . ونستطيع أن نستثنى فقط تميم بن المعز أول خلفاء الدولة الفاطمية بمصر ، فهو وحده الذى نستطيع أن نقول عنه إنه نشأ في ترف ونعيم ، أما بعد ذلك فالشعراء كانوا من أبناء الشعب ، وكثيرون منهم كانوا من طبقة الدنيا التى تتمتع الحرف والصناعات ، بل هم أنفسهم كانوا يمتحنون تلك الصناعات والحرف على نحو ما مر بنا في حديثنا عن ظافر الحداد وأنه نشأ حدادا ، وتفجر ينبوع الشعر على لسانه ، فترك عالم الحدادة إلى عالم الشعر والفن . ويلقانا كثيرون من هؤلاء الشعراء المحترفين حرفا متنوعة مثل الجزار والوراق ومجاهد الخياط والحامى النبين عرضنا لهم في حديثنا عن شعراء الفكاهة .

ومعنى ذلك أننا لا نريد أن نتحدث عن شعبية شعراء العصر بهذا المعنى من نشأتهم في الأوساط الشعبية ، فهي نشأة مشتركة تجعلهم جميعا شعراء شعبيين ، إنما نريد معنى أدق من ذلك معنى يتصل بلغة طائفة من شعراء مصر في العصر رأوا أن ينظموا بلغة الحياة اليومية حتى يصلوا مباشرة إلى التأثير في الناس باستخدام العامية لغتهم في التخاطب اليومي . وكانت قد نشأت في البلاد العربية فنون شعرية عامية ، هي الزجل أنشأته أو استحدثته الأندلس ، والموايَا استحدثته أهل واسط بالعراق ، والكان وكان استحدثته بغداد ومثله القوما . وسرعان ما شاعت هذه الفنون في العالم العربى وخاصة الزجل والموايَا .

والزجل أنواع منه ما يسمى بالاسم الأصلى وهو الزجل ويختص بالغزل والنسب والخمر والطبيعة ، ومنه ما سمَّته مصر بُلُقًا وجمعه على بلاليق ، وهو ما تضمن الغزل أو الخلاعة والأحاض ، ومنه ما سُمِّي قَرْقِيًا وهو ما تضمن الهجاء أو الهزل ، ومنه ما سُمِّي مكفَّرًا وهو ما تضمن المواعظ والحكمة ، وكأنهم اشتقوه من تكفير الذنوب . ومررنا أن الشريف العقيلي في القرن

الخامس كان يختم كل قافية من قوافي ديوانه بأبيات مكفّرة لما قدم في القافية من مجون .

وأخذت مصر منذ القرن السادس الهجري تشترك في صنع الزجل بأنواعه السابقة ، ولأخذت تُلطف أساليبه وأوزانه حتى بلغت فيه غاية لاتكاد تدرك ، وكما أقبلت على الزجل بالمعنى العام أقبلت على البُليق وهو زجل هزل ويقول ابن سعيد في منتصف القرن السابع الهجري : « كان بالفسطاط جماعة يصنفون البُليق ، وهو على طريقة الزجل الأندلسي ، منهم ساكن البُليق ، ومن بُلّيقاته :

بَسَى من الدين الثاني نرجع لديني الحقاني
نرجع لديني الأول عن التّسا لَسْ نتحوّل
إن كنت في ذا تتحوّل اصفّع وقطّع آذاني

وهذا من الطراز العالي في هذا الفن ، وهو عنوان كاف عن غيره ^(١) . واشتهر في القرن السابع ابن دقيق العيد ينظم البلايق ^(٢) . ومن اشتهر في القرن الثامن بصنع البلايق زين الدين القوصي وقدروى له ابن حجر بُلّيقاً ^(٣) ومثله سراج الدين عمر بن مولا هم ، وقدروى له ابن تغرى بردى بُلّيقاً ^(٤) هزلياً رقص به منشدوه بين يدي السلطان حسن ، وفيه يقول :

من قال أنا جندي خلق فقد صدق
عندي قبا من عهد نوح على الفتوح ^(٥)
لو صادفوا شمس السطوح كان احترق

وقد أشار بقوله : « أنا جندي خلق » أي هرم إلى بُلّيقا مملوك السلطان وكان واقفا بين يديه ، وأغرق السلطان في الضحك واستعاد البُليق مرارا . ويحانِب البلايق تلقانا أزجال كثيرة في هذا العصر ، من ذلك مطلع زجل رواه صفي الدين الحلي ، وكان قد نزل القاهرة في العقد الثالث من القرن الثامن الهجري ، وهو يجري على هذا النمط ^(٦) :

(١) المغرب (قسم الفسطاط) ص ٣٦٥

(٢) انظر بعض بُلّيقات ابن دقيق في الطالع السعيد ص

٣٢٧

(٣) الدرر الكامنة ١٤/٣

(٤) النجوم الزاهرة ٣١٧/١٠ - ٣١٨ .

(٥) القبا : ثوب يلبس فوق الثياب أو يتمنطق عليه .

(٦) العاقل الحلي لصفي الدين الحلي نشر ولهم هو نرباخ

بألبانيا ص ٢٧ .

مَنْ نَعَشَقُوا سِيدَ الْمَلَاخِ فِي خَدُّوْ مَا وَنَارُ طَرَزُوا مِنْ زَانُوا بِالْحِذَارِ
عَرَضْتُ لَوْ بِالْإِتْمَاحِ صَارَ وَرَثُوْ كَالْبَهَارِ^(١) وَتَبَدَّلَ لُونُوْ بِالصَّفَارِ

وَأَنشَدَ زَجَلًا مِصْرِيًّا كَامِلًا ، قَالَ : سَمِعْتُهُ لِلْمِصْرِيِّينَ ، وَهُوَ يَصُورُ خُفَةَ رُوحِهِمْ وَرَقَّتَهُمْ
وَلَطْفَهُمْ وَظَرْفَهُمْ ، وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ ^(٢) :

لَسَ غَرِيبٌ مِّنْ فَارَقَ أَوْطَانُوْ أَوْ بَعِثَ عَنْ نَاضِرُو الْحَيُوبِ
إِلَّا مِّنْ دَارُو قُبُلْ دَارُو وَالْحَبِيبِ عَنْ نَاضِرُو مُحْجُوبِ
حَبِيبِيْ عَنِّيْ حَبِيبُوهُ أَهْلُوْ وَأَسْرَفُوْ فِي جَمْعِ حُطَاوِ
وَالرَّقِيبِ قَدْ غَيَّبُوا عَنِّيْ حَتَّى عَنِيَ قَيْدَ الْفَاوِ
كُلْ يَوْمَ لِأَجْلُوْ يَغِيظُ قَلْبُو رَبِّ غِيْظُ قَلْبِ الَّذِي غَاوِ
مَآخِطَرُ إِلَّا وَهُوَ خَائِفُ أَوْعَبِرُ إِلَّا وَهُوَ مَرْعُوبِ
لَسَ نَطِيقُ نَلْفِظُ مَعُوْ لَفْظُهُ لَا وَلَا يُرْسِلُ إِلَيْهِ مَكْتُوبِ
رَيْتُ حَبِيبِيْ فِي الرِّيَاضِ يَمْرُخُ بَيْنَ أَقْرَانُوْ وَأَثْرَابُوْ
قَلْتُ قَدْ صَحَّ الْمَثَلُ فِينَا مِنْ لِقَى أَحْبَابُونَسِيْ أَصْحَابُوْ
قَالَ لِيْ قَدْ ضَجَّتْ بِنَا أَعْدَانَا وَرَمُونَا قَلْتُ مَا صَابُوا

وَالزَّجَلُ يَسِيلُ رَقَةً وَنَعُومَةً وَعُلُوبَةً . وَقَدْ رَوَى صَاحِبُ خَزَانَةِ الْأَدَبِ قِطْعَةً مِنْ زَجَلِ ابْنِ
الْقَهَّاجِ فِي وَصْفِ التَّرْجَسِ ^(٣) . وَلَمَّا تَوَفَّى السُّلْطَانُ الْأَشْرَفُ شُعْبَانَ سَنَةِ ٧٧٨ حَزَنَ النَّاسُ عَلَيْهِ حُزْنَ
عَظِيمًا وَرَثَاهُ الشُّعْرَاءُ بَعْدَهُ قِصَائِدًا ، كَمَا رَثَاهُ الزَّجَالُونَ وَمِنْ قَوْلِ أَحَدِهِمْ ^(٤) :

كُوكِبُ السَّعْدِ غَابَ مِنَ الْقَلْعَةِ وَهَلَّأُوْ قَدْ انْطَفَأَ بِأَمَانِ
وُزَحَلْ قَدْ قَارَنَ الْمُرِيخُ لِكُسُوفِ شَمْسِي الضُّحَى شُعْبَانِ

وَمِنْ أَطْرَفِ الْأَزْجَالِ الْمِصْرِيَّةِ لِعَهْدِ الْمَمَالِكِ زَجَلٌ نَشَرْتُهُ قَدِيمًا بِمَجْلَةِ الثَّقَافَةِ ^(٥) نَظَّمَهُ زَجَالُ
مِصْرِيٌّ فِي رِثَاءِ الْفِيلِ مَرْزُوقٍ ، وَهُوَ فِيلٌ كَانَ قَدْ أَهْدَاهُ تَيْمُورْلُوكُ فِي أَوَائِلِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ الْهَجْرِيِّ
إِلَى سُلْطَانِ مِصْرَ ، وَتَصَادَفَ أَنَّ الْغُلَامَانَ الْمُؤَكَّلِينَ بِهِ سَارُوا مَعَهُ نَحْوَ بُولَاقٍ وَرَجَعُوا بِمَآزِفِينَ بِهِ عَلَى

(٤) النجوم الزاهرة ٨٣/١١

(٥) مجلة الثقافة : العدد رقم ٣٧١ لسنة ١٩٤٦ .

(١) البهار : زهر أصفر .

(٢) العاقل : الخلال ص ١٠٩ .

(٣) خزنة الأدب ص ٢١٩ .

قنطرة ضعيفة فوق ماء ، فانخسفت به ولم يقدر أحد على إنقاذه ومات ، وخرج الناس زمرا يتفرون عليه ، وأنشأ فيه بعض الزجالة مرثية بديعة ، وفيها يقول على لسان زوجته باكية له نادبة :

سهم الفراق قد صاب قلبي يا مسلمين
ونا غريبة هندية قلبي حزين
وعيطت حتى أبكت جيرانها^(١)
من كثر مانحت ناحوا لأحزانها
من نارها صارت تلطم بودانها^(٢)
حتى الزرافة جاءتها متحسرة
تبكى على الفيل اللي مات في القنطرة

وكانت لدى هذا الزجال روح فكهة ولفات ذهنية بديعة ، إذ جعل زوجة الفيل هندية كما جعلها تلطم « بودانها » أو آذانها ، واختار الزرافة لتساعددها في حزنها لما يبدو عليها دائما من تأمل وحزن كأنما ضاع منها شيء . ويبدو أن الزجل ازدهر حيثئذ بمصر . وفي دار الكتب بجلد نفيس لأحمال زجل مصرية مطبوع بباريس .

وتظل الأرجال حية في الحقبة العثمانية ومثلها المواليا ، وهى الفن الشعبي العامى اللطيف الذى استكثر منه المصريون ومعروف أنه يخرج من بحر البسيط ، ونجده في ديوان ابن الفارض الصوفى ، واشتهر به في عصر المماليك أبو بكر بن العجمي عين كتاب الإنشاء في مطلع القرن التاسع الهجرى وكان إمام فن المواليا^(٣) لزمه وضروبه المتشعبة ، ومن موابياته :

للحِبِّ قالوا معنَّاك الذى اذبلتو جدلُو بقلبه فقلبو فيك خبلتو
فقال أقسم لو أنَّ البوس سبلتو ومات ، للشرق مادرتو وقبلتو^(٤)

قد تكون من القبلة بضم القاف وهو المعنى المتبادر لسبقها بكلمة البوس ، وقد تكون من القبلة بكسر القاف أى ماأداره نحو القبلة بعد موته وهو المعنى المراد .

(١) عيطت : بكت .

(٢) ودانها بالعامية : آذانها .

(٣) خزنة الأدب ص ٤٣ .

(٤) درتو : كلمة عامية أى أدت . وفي قبلتو تورية لأنها

وتظل المواليا حية في أيام المالك وأيضاً في أيام العثمانيين . وكانت تتوزعها منذ القرن السابع الهجري الأنواع التي مرت في الرجل وهي : البليق ، وموضوعه الغزل وقد تصحبه الخلاعة ، وأنشد الجبرقي من أمثله الغزلية البارعة قول الشيخ شمس الحفني الشافعي الخَلَوِيُّ :

خَطَرٌ عَلَى غَزَالِي مَرَّ مَا أَتَكَلَّمُ فَوْقَ جَفُونِهِ وَقَلْبِي وَالْحِشَاءُ أَكَلَّمُ
إِيشُ كَانَ يَضُرُّهُ إِذَا بِالرَّاسِ لِي سَلَّمَ حَتَّى أَسَرَ مَهْجَتِي لَوْلَا السَّلَامُ سَلَّمَ

والنوع الثاني القَرَقِيا وينظم في الهزل والفكاهة وما يتصل بها ويسوق الجبرقي منه مثل قول حسن شَمَّة .

قَالُوا تَحِبُّ الْمَدْمُسُ ؟ قُلْتُ بِالزَّيْتِ حَارٌّ وَالْعَيْشُ الْإِيضُ تَحِبُّهُ قُلْتُ وَالْكِشْكَارُ
قَالُوا تَحِبُّ الْمَطْبَقُ ؟ قُلْتُ بِالْقَنْظَارِ قَالُوا أَشْ تَقُلُّ فِي الْخَضَارِيِّ قُلْتُ عَقْلِي طَارَ

والفول المدمس طعام شعبي لأهل مصر ومثله الكشك ، والمطبق نوع من الرقاق محشو بالنقل والسكر ، أما الخضار فن طيور البحيرات . والنوع الثالث من المواليا المكفّر وينظم في الحب الإلهي والمديح النبوي والمواظ وفي ديوان ابن الفارض منه أمثلة متعددة . ويسوق منه الجبرقي قول الشيخ شمس الحفني أو الحفناوي وهو مواليا يمكن قراءتها معربة على هذا النظم .

بِاللّهِ يَا قَلْبُ دَغَ عَنْكَ الْهَوَى وَاسَلَّمَ مِنْ كُلِّ مَيْلٍ وَوَفَى عَهْدَهُمْ أَسَلَّمَ
وَالزَّمْ حِمَى سَادِقٍ مِنْ أُمَّهُمْ يَسَلَّمَ وَاسَلَّمَ سَبِيلَ التَّقَى يَوْمَ اللَّقَا تَسَلَّمَ

ويقول صفي الدين الحلي إن القوما خاصة بسحور رمضان من قول المغنين في آخر كل بيت فيها « قوما قوما للسحور » . أما الكان وكان فالشطر الأول من البيت فيه غالباً يكون أطول من الشطر الثاني وهو خاص بالحكايات والخرافات والمراجعات فكأن قائله يحكي ما كان وكان . ويقول إن فن القوما وكذلك فن الكان وكان لا يعرفها سوى أهل العراق ^(١) . ويحكي ابن تفرى بردى منه منظومة في وقعة قوصون ساقى الناصر بن قلاوون وما كان من قتله ، وهي تستهل على هذا النظم ^(٢) :

مَنْ الْكَرْكُ جَانَا النَّاصِرُ وَجَبَ مَعَهُ أُسْدُ الْغَابَةِ

ووقعتك يا أمير قوصون ما كانت آلا كدابة

ويبدو أن المصريين حاكوا فن القوما العراقي أيضا ، إذ نرى الجبرتي في الحقبة العثمانية يتوقف مرارا ليقول إن هذا الشاعر أو ذاك كان ينظم في الزجل والقوما والكان وكان والموالي والبليق^(١) ونقف قليلا عند بعض أصحاب هذا الشعر الشعبي العامي .

إبراهيم^(٢) المعمار

هو جمال الدين إبراهيم بن علي المعمار ، يقول فيه صاحب فوات الوفيات : « إبراهيم الحائك وقيل المعمار وقيل الحجار عامي مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة لاسيا في الأزجال والبلاليق » ويقول الصفدي : « عامي مطبوع تقع له التوريات المليحة المتمكنة المطبوعة الجيدة ولاسيا في الأزجال والبلاليق ، بحيث إنه في ذلك غاية لاتدرك ، أما المقاطيع الشعرية فإنه يقعد به عنها مراعاة الإعراب وتصريف الأفعال » ويقول ابن تغري بردي : « كان ذكي الفطرة قوى القرينة لطيف الطبع » ويقول ابن حجر : « كان يلزم القناعة ولايتردد إلى أحد من الأكابر إلى أن مات في الطاعون سنة ٧٤٩ ومن قوله فيه قبل موته .

قُبِّحَ الطاعون داءً فَقَدْتُ فِيهِ الْأَحَبَّةَ
بِيعَتِ الْأَنْفُسُ فِيهِ كُلُّ إِنْسَانٍ بِحَبِّهِ

وفي كلمة « حبة » تورية واضحة لأن الطاعون يصحبه دمّل كبير ، وله توريات كثيرة كما قال من ترجموا له ، من ذلك قوله :

ياقلبُ صبرًا على الفراق ولو رُميتَ مِنْ تَحِبُّ بِالْبَيْنِ
وَأَنْتَ يَادَمْعُ إِنْ ظَهَرَتْ بَمَا يُخْفِيهِ قَلْبِي سَقَطَتْ مِنْ عَيْنِي

وفي كلمة « سقطت من عيني » تورية إذ لا يريد معناها القريب وهو تحدر الدمع من عينه وإنما يريد معناها المعروف في العامية إلى اليوم وهو أنه ضاع ولم تعد له مكانة . وكان الناصر بن قلاوون

والوافي ١٧٣/٦ والدرر الكامنة لابن حجر ٥٠/١ وتاريخ

ابن إياس في مواضع متفرقة وخزانة الأدب ص ٣٨٥ .

وله زجل ماجن في كتاب عقود اللال للنساجم،

(١) انظر الجبرتي ٢٩٠/١ .

(٢) انظر في المعمار وترجمته وأشعاره فوات الوفيات

٥٥/١ والنجوم الزاهرة ٢١٢/١٠ والمنهل الصافي ١٧٤/١

يألفه ويقربه منه لطرافة تورياته وله في زوجه مداعبا :

لما جَلَوْا عِرْسِي وَعَايَشْتُهَا وَجَدْتُ فِيهَا كُلَّ عَيْبٍ يُقَالُ
فقلت للدَّلال ماذا ترى؟ فقال: ما أَضْمَنُ إِلَّا الحلال

والدلال : جالب العروس ، ولكلمة الحلال معنيان : ضد الحرام والمباح . ومن تورياته مداعبا بعض من أمر بصفعه ، فحتى في هذا الموقف يفرع إلى التورية قائلا :

ما كان صَفْعُ بالرِّضا لكنه من خَلْفِ أُذُنِي
لولا يَدٌ سَبَقَتْ له لأمرته بالكفِّ عني

وفي البيت الأول تورية في كلمة « من خلف أذني » إذ تحمل معنيين هما القفا موضع الصفع وعدم الاكتراث . وفي البيت الثاني تورية في كلمة « يد » إذ لها معنيان هما النعمة والصفع باليد . وبالمثل لكلمة « الكف » معنيان هما : الانصراف عن الشيء والصفع بالكف . ومن تورياته :

وخادمٍ يعلو على عشاقه برتبةٍ من الجلال نالها
وإسنه - وهو العجيب - محسنٌ وكم دموعٍ في الهوى أسالها

وفي كلمة « أسالها » تورية إذ تحمل معنى قريبا هو إسالة الدمع ومعنى بعيدا من الأسى وهو الحزن كأنه يرق لحبيه حين يرى دموعهم ويحزن لهم . ومن لطائف تورياته :

ما مصرٌ إلا منزلٌ مستحسنٌ فاستوطنوه مشرقًا أو مغربًا
هذا وإن كنتم على سفرٍ به فيقيموا منه صعيدًا طيبًا

وقد اقتبس الشطر الأخير من الآية القرآنية : (فيقيموا صعيدًا طيبًا) وهو لا يريد معنى الصعيد في الآية وهو وجه الأرض وإنما يريد صعيد مصر ووجهها القبلي ، وهي تورية بديعة ، ومن ذلك قوله :

حَزَنَ الحَزْنَ لما أن رأى نِيلَنَا قد عمَّ سهلا وجَبَلِ
ورأى الأرض لنا قد أخرجتْ سُبلاتِ ذاتِ حَبٍّ فاخْتَبَلِ
وبكى إذ رَمِدَتْ أَعْيُنُهُ زادها اللهُ عروقا وسَبَلِ

والسبل : داء يصيب العين بغشاوة كأنها نسج العنكبوت بعروق حمراء ، وهو لا يريد هذا المعنى فهو لا يريد الدعاء على الخزان وإنما يريد الدعاء لأرض مصر ونيلها وأن تزيد عروق قح وسبل كما تقول العامة أو سنبلات . ومن تورياته :

شهرُ الصيام تولَّى فراقه يومُ عيدي
فقليل شيعُ بستُ فقلت أيضا وسيدي

وكلمة « ست » لها معنيان معنى قريب هو الأيام الستة البيض التي تصام نفلا بعد رمضان ، ومعنى ثان هو السيدة ، وقد وجه العبارة إلى هذا المعنى كما يشهد بذلك الشطر التالي . ولم تُغن كتب الأدب والتراجم برواية شيء من بلاليقه . ومن موالياته :

مَزَجْتُ يوما مع الحُبِّ الرشيْق القَدَّ وقلت آهَى على من قَبْلَكَ في الحَدِّ
فسلَّ سيفو من أَجْفَانو لقتلى حَدَّ قلت انتهى الأمر يا حَبِيبِي لهذا الحَدِّ

وفي كلمة « الحد » الأخيرة تورية إذ لها معنيان : العقوبة مثل كلمة الحد السابقة ، والنهاية المفرطة . ومن موالياته أيضا :

رمى ، أَصاب صميمَ القلب زين الزَّين وَأَصْبَحْتُ مُضْنَى قَلْقٍ أَخْشَى حلول الحَيْنِ
وكنْتُ قبلُ خَلِيٍّ لم أَشْكُ وشكَّ البين سالمٌ من العشق حتى صابني بالعَيْنِ

ولكلمة « صابني بالعين » معنيان هما الحسد ، وإصابة المحب لمحبه بعينه وسهامها القاتلة . وله مواليات وأشعار مفحشة كثيرة كان يقولها نظرفا لأهل زمنه .

الغُبَارَى (١)

هو خلف بن محمد الغُبَارَى عاش في القرن الثامن الهجري ، وكان فقيها وعالما وأديبا وشاعرا ينظم الشعر الفصيح ولكنه اشتهر بنظم الزجل . ونرى السلاطين منذ الناصر بن قلاوون يقرّبونه منهم ، كما نراه ينظم أرجالا مختلفة في أحداث مصر ، ولا يعرف تاريخ وفاته ، ويقال إن مثدنة

للنواحي ص ٢٥٥ وكتاب « الزجل والزجالون » لأبي بنية ص ٢١ .

(١) انظر في الغباري تاريخ ابن إياس في مواضع متفرقة من القرن الثامن الهجري ، وراجع زجلا له في عقود اللآل

المسجد بقلعة الجبل سقطت عليه فمات ودُفن تحت أنقاضها ، وهو يعد أستاذ فن الزجل لزمته ،
فعنه تلقاه كثير من المصريين ، ويبدو أنه نظم في موضوعات كثيرة : في المديح والرثاء والأحداث
السياسية ، ومن زجل له في مديح السلطان شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ) وكان محبوباً من رعيته :

حُبّ قلبي شعبان موفق رشيد وجمالو أشرق ومالو حدود
وأبوه الحسن وعمه الحسين وارث الملك من جُودود لجودود
زَعَقِ السعد بين يديك شاوِش فرح القلب بعد ما كان حزين
ونصب لك كرسي على المملكة وظهر لك نصره بفتحو الميّن
والعصائب من حولك اشتالت - خفقت في الركوب عليك - البنود
فاحكم احكم في مصر ياسلطان فجميع الجنود لحسك جنود

والشاوِش : رتبة عسكرية ، ويريد الغبارى أن السعد مثل بين يدى السلطان شعبان مؤتمراً
بأمره ، ويقول إن العصائب أو جماعات الفرسان والرجالة اشتالت أى رفعت البنود والأعلام
كناية عن أنه أصبح في مصر صاحب الأمر والنهى والسلطان . ونراه متصلاً بابنه السلطان على
(٧٧٨ - ٧٨٣ هـ) ناظماً الأزجال في الأحداث الكبرى لأيامه ، من ذلك زجل طويل نظم في
وقعة العريان بالبحيرة القريبة من الإسكندرية ، وفي مطالعه يقول :

جا الحَبْرَ يوم الأربعاء بأنو في ليلة الأخذ
جا دمنهور عرب خلدوا سوقها وأخربوا البلد
وابن سلام أميرهم هو الذى للجميع حشد
فبرز أيتمش سريع بمالك وجند نوب
وعُدّد ما لها عدد ويطلبوا لهم طلب
حضرُوا ما التقوا أخذ من جميع العرب حضر

وله وراء ذلك أزجال كثيرة في النصائح والوصايا والحكم ، ولعلها أروع مما أنشدناه ، إذ
كانت تفصل من روحه ومن خبرته بالحياة ، وكأنما يريد بها إلى حسن الترية وإحكام السلوك
والانتفاع بخبرة الآباء والأسلاف وتجاربهم في الحياة ، من مثل قوله في زجل طويل :
في الناس رأينا للخير معادن والبر يوجد في كثر مئة

وَأَنْ رُمْتُ جَوْهَرَ فِي الشَّخْصِ مَكْنُونٌ فَجَوْهَرَ الشَّخْصِ حَسَنَ فِطْنَةٍ
وَأَنْ كَانَ تَرِيدَ صِحَّةَ الْمَعَانِي وَشَرَحَ مَا فِي الْبَيَانِ مَحْرُورٌ
خُذْ فِرْعَ يَأْيِدُكَ مِنْ أَصْلِ حَنْظَلٍ وَازْرَعْ جَنْدُورَهُ فِي أَرْضِ عَثِيرٍ
وَاسْقِيهِ بِمَاءِ بَانَ وَوَرْدٍ مَمْزُوجٍ وَعَقِدْ جُلَّابَ وَحَلٍّ مُكْرَرٍ (١)
وَحِينَ تَشُوفُهُ عَقْدَ ثَمَارِهِ وَآنَ أَوَانِهِ وَحَلَّ فَصْلِهِ
ذُوقُهُ تَرَاهُ مَرَّ وَالسَّبَبُ فِيهِ مَا يَرْجِعُ الْفِرْعَ إِلَّا لِأَصْلِهِ

ولغة هذا الزجل تختلف عن لغة الزجلين السابقين ، فهي أكثر خفة وقربا من اللغة العامية المصرية ، وليس ذلك فحسب فهي تكظ بالصور والاخيلة البديعة ، وكأننا بازاء شاعر بارع يحسن تأليف الصور وايرادها في موضع البراهين الساطعة ، ومن طريف حكمه ووصاياه في هذا الزجل نفسه قوله ناصحا صادقا :

لَا تَخْتَقِرْ أَيَّ ابْنِ آدَمَ فِي طَوْلِ حَيَاتِكَ وَلَا تَنْمُهُ
كَمْ حَى خَامِلٌ يَقُولُ عَلَيْهِ مَا يَعْرِفُ اسْمَ الْبَيْمِ مِنْ اسْمِهِ
وَأَنْ جِيتَ صَلَاحَتُهُ فِي يَوْمٍ بَيَانٌ لَكَ تَظْهَرُ مَعَارِفُهُ وَيَنْجَلِي عِلْمُهُ
وَيُشَبِّهُ الرُّوضَ حِينَ يَبْدُو شَوْكُهُ وَالْوَرْدَ مُسْتَوْرٍ مِنْ تَحْتِ سَيْلِهِ
وَالْبَحْرَ تَلْقَى الرِّمَمَ نَعُومٌ بِهِ وَالْدَّرَّ غَايِصٌ مَخْلُوطٌ بِرَمْلِهِ

وهي وصية نفيسة أن لا يبادر الإنسان إلى الحكم حكما سريعا على شخص دون تبين حقيقة ومعرفة جوهره ، والسُّلُّ في العامية : الشوك . ويمثل هذا الزجل كان الغبارى إمام فنه في زمنه غير مدافع .

(١) البان : شجر مقدود الأغصان تشبه به الحسان .
والجلاب : ماء الورد والزمهر .

ابن سودون (١)

هو على بن سودون أكبر شخصية شعبية فكهة في القرن التاسع الهجري عُنى في بواكير حياته بحفظ القرآن الكريم وتحصيل العلوم والمعارف حتى أصبح شيخاً فقيهاً ، وعُيِّن إماماً بأحد المساجد في القاهرة ، وكان فيه ميل متأصل إلى الفكاهة والمزحل وقدرة على نظم الأشعار المازلة الفكهة ، فشغف الناس به ، وتنافسوا في رواية أشعاره ودعاباته . ولم يلبث أن عُنى بجمعها وأضاف إليها بعض حكايات فكهة مكونا من ذلك كتابه أو ديوانه : « نزهة النفوس ومضحك العيوس » وجعله في خمسة أبواب : الباب الأول في القصائد والتصاديق ، ويقصد بالتصاديق مقدماتها وهي قصائد نُظمت بالفصحى ، والباب الثاني في الحكايات الملائيق وواضح من اسمه أنه أقاصيص قصيرة ، والباب الثالث في الموشحات الهبالية كما يقول وهي بالعامية ومثل هذا الباب باب التزجل والموايلا التالى فهو أيضا عامى اللغة . أما الباب الخامس فجعله للطرف العجبية والتحف الغريبة ، وكان البابين الثالث والرابع هما الخاصان بالشعر الشعبي العامى وإن كانت العامية عنده تتسرب إلى الباب الأول : باب القصائد ، ومن الطريف أن عاميته شعرا ونثرا تقترب جدا من عاميتنا الحديثة ، وقد يكون في ذلك ما يشير إلى أن مصر بلد محافظ . وبدون ريب يصور ابن سودون في كتابه مزاج المصريين الفكه . وفكاهته تقوم على ضروب من المفارقة المنطقية . تجملك تشعر بغير قليل من فقدان التوازن على شاكلة قوله في وصف الربيع وجمال طبيعته :

إلى الربيع أرى الأهواء تُلَوِّنِي لما بدا زَهْرُهُ فى حسن تلوِينِ
قد عطَّرَ الأرضَ نَشْرُ الفول حين سرتُ نُسَيْمَةً سَحْرا مِنْهُ تَحْيِيْنِي
كَأن زهرته أُمُّ الخُلُول إذا فَلَقَّتْهَا فوق نَعْناعٍ بَصَحْنُونِ
وكاد يشبه تاجُ القمح باميةً لولا شعورُ كأعرافِ البراذين^(٢)
واعجب من الماء وَسَطَ البحر كيف غدا يمشى بلا قدمٍ سَحْبًا على الطَّيْنِ
مُسْلَسلا قد جَرَى بإصاح منطلقا فاعجب لمن جمع الضِّلَّينِ فى حينِ

نزهة النفوس ومضحك العيوس مطبوع في القرن الماضي وطبع حديثا .

(٢) البراذين : جمع برذون وهو البغل .

(١) انظر في ابن سودون شذرات الذهب ٣٠٧/٧

ومقائيل لنا في تحليل ديوانه بمجلة الكاتب العندين رقم ١٠ ، ١٢ وراجع كتابنا الفكاهة في مصر ص ٦٧ وديوان

ومن يراه يتحدث عن الربيع والزهر في البيت الأول يظن أنه سيستمر في الحديث عن الجمال الهاجع في الطبيعة وأزهارها وورودها ورياحيتها ، وإذا هو يسقط به إلى النشر الفائح من نبات القبول وإلى زهره الذى يشبه صدقة أم الخلول التى يَظْعَمُها المصريون واضعين على الخلول التناع والبهارات . أما القمح فتشبه سنابله البامية : الخضار المعروف ، لولا ما يتدلّى من سنابله من شعور كأعراف البغال والخيل . ويعجب عجباً لاحد له من جريان الماء على الطين ، ويسمى الماء مسلسلاً إذا جرى منحدرًا . ويستغل الكلمة ابن سودون إذ لها هذا المعنى ومعنى ثان من السلسلة بمعنى مقيدا بالسلاسل .

ونحن في أثناء ذلك كله نضحك ، لما أصاب توازننا المنطقي من اختلال ، وكأنما الأشياء تهوى أمامنا من حائق . ومن ذلك قوله .

عجبٌ عجبٌ هذا عجبٌ بَقَرًا تَمْشِي ولها ذنبٌ
ولها في بُزْزِها لَبَنٌ يبدو للناس إذا حلّوا
من أعجب ما في مصر يُرى الـ كَرْمٌ يُرى فيه العنبُ
والنَّخْلُ يُرى فيه بَلَحٌ أيضا ويُرى فيه رُطْبُ
والركبُ معَ ماقد وَسَقَتْ في البحر بجبلٍ تنسحبُ
والناقة لا منقارَ لها والوزة ليس لها قَتَبُ

وحين نقرأ قوله عجب ، نظن أنه سيعرض علينا بعض العجائب فإذا هو يعرض بديهيات غاية في البدهاة ، في صورة مغرقة من التباله . ونحس كأن عدوانا أصاب منطقنا أو وقع عليه ، فالبقرة تمشي ولها ذنب وضرع مملوء لبنا ، وشجر الكرم يحمل العنب ، وعلى النخل البلح بُسْرًا ورطبًا ، والملاحون يجرّون بجابههم المركب الموسوق ، والناقة لا منقار لها وكأنه كان يظنها يحسمها الضخم من الطير . ويظن الإوزة من الإبل تمشي على أربع ، ويتساءل عن قتها أو رحلها . وكل هذه مفارقات تمتدى على منطقنا فنفقد توازننا ونستغرق في الضحك لهذا الهزل الذى يُلغى فيه المنطق السديد إلغاءً .

ومن طريف هزل ابن سودون ومفارقاته المنطقية المتناهية في الإضحاك . وصفه لحفل زواجه وقبح زوجته على هذا النمط :

حلَّ السرورُ بهذا العَقْدُ مبتدرا ونجمُ طالعه بالسَّعدِ قد ظهرا

وه القُلُّ، كُلُّ وجه الأرض فانعطفت
والطير من فرحها في دَوَّحها صدحت
تقول في صدحها : دام الهنا أبداً
هذا وعقل عروسى كان أصغر من
في السن قد طمعت ماضراً لو طمعت
في وجهها نمش في أذنها طرش
ياحسن قامتها العوجا إذا خطرت
تظل تهف بي : حسنا حظيت بها

أغصانه بالتهاني تنثر الزهرا
بكل عود عليه لا ترى وترأ
على العرايس كي يقضوا به الوطرا
عقل ولكن حوت في عمرها كيرا
بالسن من رمح أوسيف إذا بترأ
في عينها عمش للجفن قد سترأ
يوماً وقد سببت في جيدها شعرا
أواه لو حاسها موت لها قبرا

وهو في أوائل الأبيات يجعل السعد رفيقا له كما يجعل الطبيعة ترقص طربا لزفافه على عروسه ،
فالأشجار تنثر أزهارها فرحا والطير تصدح على أعوادها داعية للعروسين بدوام الهنا أبدا . ونفاجأ
بعد ذلك بمفارقة منطقية شديدة ، فالعروس عجوز شمطاء صماء في وجهها نمش وفي عينها
عمش وقد حتى قامتها الهرم . ومع كل هذا القبح تظل تهف به أن يحمد الله على حفظه بها ،
ويتمنى لو طمعت بسيف أو حازها الموت ودفنت في التراب إلى غير مآب

وعلى نحو هزل ابن سودون في تصويره لحفل قرانه نراه يهزل في رثائه لأمه هزلا ، يبعث على
الابتسام بل على الضحك والإغراق فيه ، يقول :

لموت أمي أرى الأحزان تخينني
وطالما دلعتني حال تربي
أقول : « مم مم » نجي بالأكل تطعمني
إن صحت في ليلة « وأو » لأسهرها
كم كحلثني ولي في جبهتي جعلت
ومن فقيهي إن أهرب ورام أبي
وزغردت في طهوري فرحة وغدت
وخلفتني يتما ابن أربعة

فطالما لحسنتني لحسن تخينني
خوفا على خاطري كي لا تبكيني
أقول : « أمبو » نجي بالماء تسقيني
تقول « هو هو » بهز كي تثنيني
« صوصو بينلي » وكم كانت تخينني
مسكى وبعثي له كانت تخينني
تنثر الملح من فوق وترقيني
وأربعين سينتا في حسايني

والمرثية طويلة اقتصرنا منها على هذه الأبيات وكلها على هذا النحو عدوان على ما نألف في
الرثاء عامة ، إذ بدلا من أن يحمل كل بيت صرخة ألم أو دمعة حزن تتحول المرثية كلها هزلا

ودعابة . وكأنما ينظمها في عيد من أعياد أمه فهو يذكّرُها بأيام طفولته وكيف كان يقول لها « مَم » فتأتى له بالطعام « وأُمُّو » فتأتى له بالماء ، وكيف كان يبيكى على صدرها وهى تهزه فى حنان ، كما يذكّرُها بأيام صباه . وكيف كانت تدلّى من شعره تعويذة على جبهته ، وكيف كانت تحبته حين يهرب من الكتاب . ويذكّرُها بيوم يختانه وزغاريدها فيه وكيف كانت تنثر فوقه الملح بركة ، وترقيه من شر كل ما يؤذيه . وكل هذه مفارقة شديدة للثناء وموقف الموت الوقور الحزين ، فإذا ابن سودون يهزل فنضحك وتنهادى معه فى الضحك . وقد جاء فى المِثْية ببعض كلمات الأطفال ، وهو يكثر من لغتهم فى هزله كقوله :

ولما أن كبرتُ بحمد رَبِّى وصار لِمُتَّهِى عقلى ابتداءً
بقيتُ أقول : نُو نُو تُو تاتُ ودَحُو كَخْ وأُمُّو مَمَّ آءُ

والكلمات كلها من لغة الأطفال قبل نطقهم بالكلام ، ومعنى كلمة دح فى اللهجة المصرية العامية حسنا كلمة كخ قبيح ولا تفعل . والحق أن ابن سودون كان جَعْبَةً هزل وفكاهة ، وقد بنى فكاهته على المفارقة المنطقية فنحس دائما بعدوانه على منطقنا بيلاهته ، ونشعر كأنما الأشياء من حولنا تَهْوِي من أبراج عالية ، هى أبراج المنطق والعقل الواعى ، فنضحك ونسترسل فى الضحك .

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

الرسائل الديوانية

ظلت مصر في عهد ولاتها من قبل الأمويين والعباسيين لا تعرف من الدواوين سوى ديوان الخراج والبريد ، وكانت الكتابة في الديوان الأول باليونانية إلى أن تعرب في عهد الوليد بن عبد الملك ، وعادة كان القائمون عليه وعلى ديوان البريد يجلبهم الولاة معهم من العراق ^(١) ، وبحق يقول القلقشندي إنه « لم يصدر عنهم ما يدون في الكتب وتتناقله الألسنة » ^(٢) . ومرجع ذلك - كما لاحظ - أن الولاة لم يهتموا حينئذ باتخاذ ديوان للإنشاء . يوظف فيه كتاب مجيدون وتصدر عنهم رسائل محبرة .

حتى إذا ولي مصر أحمد بن طولون وأسس بها دولته الطولونية وامتد سلطانه إلى الشام وعلا شأنه أقام ديوان الإنشاء ورفع مقداره كما يقول القلقشندي ^(٣) ، واتخذ فيه جماعة من مهرة الكتاب على رأسهم أحمد بن محمد بن مودود المعروف باسم ابن عبد كان . ويشهد اسمه بأنه فارسي الأصل ، إذ الكاف في الفارسية القديمة تدل على التصغير والألف والتون على النسبة ، فعبد كان يقابلها في العربية عبيدي . وقد ظل قائما على ديوان الإنشاء بعد وفاة ابن طولون في عهد ابنه خiarوية حتى توفي فخلفه على الديوان إسحق بن نصير الكاتب البغدادى .

وابن عبد كان يبتدئ بمصر سلسلة كتابها المشهورين ، ودوت شهرته منذ زمنه لا في مصر وحدها بل أيضا في العراق ، إذ نجده بعد نحو قرن من الزمان يُقرن إلى أبي إسحق الصابى كاتبها حينئذ . وإذا رجعنا إلى رسائله الديوانية وجدناه يُعنى فيها بالسمع . وقد يتخفف منه فيستخدم

(١) انظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربى » ، (طبع)

(٢) صبح الأعشى ٩٥/١

(٣) صبح الأعشى ٩٥/١ و ٢٨/١١ .

دار المعارف ص ٣٤٥ وما بعدها .

الازدواج. من حين إلى آخر ، وسجعه خفيف . ويمدده بغير قليل من التصاویر^(١) ، وتوقف القلقشندی في كتابه صبح الأعشى ليدكر عنه كيف وضع رسوم الدعاء في افتتاح الرسائل وكيف تبدئ أجوبة الكتب^(٢) . وكان أهل بغداد في زمنه يغطون عليه مصر ، ويقولون إن بها كتابا - يقصلون ابن عبد كان - ليس لأمر المؤمنين بمدينة بغداد مثله^(٣) . وكانت رسائله متداولة بين الكتاب حتى زمن ياقوت في القرن السابع الهجرى^(٤)

ونغصى إلى زمن الدولة الإخشيدية وقد ترتب ديوان الإنشاء وكثر الكتاب فيه ، غير أن أحدا منهم لم يشتهر شهرة ابن عبد كان ، ومن كتاب الديوان حينئذ إبراهيم بن عبد الله النجيمى ، واشتهر برسالة طويلة له ، ردَّ بها على رومانوس حاكم بيزنطة ، وكان قد أرسل إلى الإخشيد رسالة يفتخر فيها ويمنّ عليه بأنه كاتبه وعادته أن لا يكتاب إلا خليفة ، فكال له النجيمى الصاع صاعين ، ولإعجابه برسالته كتب منها نسخا وأرسلها إلى العراق مفاخرًا بها مباهايا^(٥)

ويستولى الفاطميون على مقاليد الأمور بمصر منذ منتصف القرن الرابع الهجرى ويعظم ديوان الإنشاء في زمانهم لاتساع دولتهم من أقاصى المغرب إلى نهر الفرات وامتداد سلطانهم إلى الحجاز واليمن وأيضًا لأنهم كانوا أصحاب نخلة شيعية غالبية اتخذوا لها دعاة كثيرين في العالم العربى ونظموا الدعوة لها تنظيمًا دقيقًا ، فكان من الطبيعى أن يهتموا اهتمامًا واسعًا بديوان الإنشاء القائم على كل شئون الدولة السياسية والإدارية والمذهبية ، وفى ذلك يقول القلقشندى : « لما ولى الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتبابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، وولىه عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمى^(٦) » . وكانت لصاحب هذا الديوان منزلة كبرى لدى الفاطميين ، فكان لا يتولاه - كما يقول القلقشندى - إلا أجلُّ كتاب البلاغة ، ويخاطب بالأجلُّ ويلقب بكتاب الدُسْت ، والدست صدر المجلس إشارة إلى أنه فى الصدر من مناصب الدولة « وكان أول أرباب الإقطاعات فى الكسوة والرسوم والملاطقات .. وله حاجب من الأمراء والشيوخ ، وله فى مجلسه المرتبة العظيمة والمخاد والمسند والدواة العظيمة

(٥) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد : القسم الخاص

بالفسطاط (طبع جامعة القاهرة) ص ١٦٧ وما بعدها .

(٦) صبح الأعشى ٩٦/١ .

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٣٤٩ وما بعدها .

(٢) صبح الأعشى ١٦٠/٨ وما بعدها .

(٣) صبح الأعشى ١٧/٣

(٤) معجم الأدباء ٨٥/٦ .

الشأن ، ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة ^(١) . وكانت تساعده طائفة من الكتاب البلغاء . وبلغ من اهتمام الفاطميين بهذا الديوان أن ألحقوا به دائماً أكبر النحاة واللغويين في أيامهم لمراجعة الرسائل قبل صدورها من الديوان ، ومن اختاروه لذلك ابن بابشاذ كبير نحاة مصر ولغويها في القرن الخامس الهجري وخلفه في مكانه ابن بركات من تلاميذه ، حتى إذا توفي خلفه ابن بَرَى اللغوى المشهور ، إلى نهاية أيام الدولة الفاطمية ^(٢) . وكان يلتحق بالديوان بعض الشباب للتدريب فيه على تجويد الكتابة ، حتى إذا جودها شاب وأتقنها أصبح من كتّابه على نحو ما حدث ^(٣) للقاضى الفاضل بأخرة من زمن الفاطميين .

وتظل لديوان الإنشاء مكانته في عهد الأيوبيين ، ويتولاه لصالح الدين القاضى الفاضل مع قيامه على وزارته ، ويشرك معه العاد الأصهباني في الكتابة ، وكان صاحب الديوان حينئذ يسمى كاتب الدُست وكاتب الدُرَج وهو الورق الذى يكتب فيه . واتسع عمل هذا الديوان اتساعاً كبيراً في عهد الماليك ، مما جعل الظاهر بيبرس يعين ثلاثة كانوا أصحاب الدُست ، حتى إذا تحولت السلطة إلى قلاوون سمي صاحب الديوان كاتب السر ^(٤) . ورفع منزلته فوق كتاب الدست . وجعلهم أعلى درجة من كتاب الدرج ، وكان في كل ولاية كبيرة -لمصر ديوان إنشاء : في الإسكندرية وفي دمشق وغير دمشق . وظل هذا الديوان قائماً إلى نهاية عصر الماليك . حتى إذا تبعت مصر الدولة العثمانية ضاعت منزلته نهائياً وأصبح أثراً بعد عين .

وفي صبح الأعشى للقلقشندي ثبت بأسماء من تولوا رئاسة هذا الديوان حتى زمنه ^(٥) سنة ٨٢١ وأضاف إليه ابن تغرى بردى من تولوه حتى أيامه ^(٦) سنة ٨٦٥ وأتمه السيوطى حتى نهاية القرن التاسع الهجرى ^(٧) ، ووراء هؤلاء الرؤساء كتاب كثيراً ما بدؤوا من كانوا يكتبون بين أيديهم وهم كثيرون . ومربنا أن ابن عبد كان الذى وضع رسوم الكتابة الإنشائية بمصر لزمن الطولونيين كان يعنى بالسجع فلن تركه فى صور من الازدواج ، وظل كتاب الدولة الفاطمية في القرن الرابع الهجرى يترسمون طريقته ، فهم يسجعون ويزاوجون على نحو ما يلاحظ في الكتب التى كانت تصدر عن المعز والعزیز ، ويبدو أن ابن سورين المسيحي كاتب العزيز والحاكم كان يعنى بالسجع

(٥) صبح الأعشى ٩١/١ وما بعدها

(١) صبح الأعشى ١٠٢/١

(٦) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣٣٤/٧ وما

(٢) انظر كتابنا «المدارس النحوية» طبع دار المعارف

بعدها

ص ٣٣٨

(٧) حسن المحاضرة ٢/٢٣٠

(٣) ابن خلكان ٧/٢٢٠

(٤) السلوك للمعريزي ١/٦٦٦ وابن تغرى بردى ٣٣٢/٧

كثيراً^(١) : وإذا مضينا إلى القرن الخامس الهجري ، وجدنا كتابا يصدر على لسان الخليفة الظاهر سنة ٤١٤ مسجوعا كله ، وربما كان الذى كتبه أحمد بن على بن خيران الملقب بولى الدولة ، وكان يلى ديوان الإنشاء فى عهد الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ) والمستنصر إلى وفاته سنة ٤٣١ ، وكان كاتباً شاعراً ، وكان يعتدُّ بشعره وكتابته مما جعله يرسل إلى الشريف المرتضى ببغداد جزءاً من شعره ورسائله ليعرضها على الأدباء هناك ، فإن استحسناها خلدناها بمكتبة دار العلم ، وأعجب هلال بن المحسن الصائى فيما يبدو برسائله^(٢) . ويقول ابن سعيد فى المغرب : « وقفت على رسائله فى مجلدين . وأكثرها من طبقة المغسول »^(٣) . ويسوق له رسالة عن الظاهر مسجوعة ، ويبدو أن ابن سعيد بالغ فى الحكم عليه ، أو لعله وجد عنده السجع فقط ولم يجد سجعه يزدان بألوان البديع ، ولذلك قال إن رسائله مغسولة أى من زينة البديع ومحسناته ، ومع ذلك فقد روى له قوله فى فصل من إحدى رسائله : « وكان قلمك يَجِفُّ^(٤) ولا يَجِفُّ ، وسيفك من ذوى العناد يَكِفُّ^(٥) ولا يَكِفُّ ، ووزنك فى سدِّ ثَلَمِ الفساد يَرَجح ولا يَخِفُّ . والجناس واضح بين يَجِفُّ ويَجِفُّ وبين يَكِفُّ ويَكِفُّ وقد طابق بين يرجح ويخف مما يدل على أن ابن خيران لم يكن يخفى سجعه من محسنات البديع ، فهو ليس مغسولاً دائماً كما يقول ابن سعيد .

ولعل أهم كاتب خلف ابن خيران بديوان الإنشاء فى القرن الخامس الهجري ابن أبى الشعباة ولم يكن من رؤساء الديوان بل كان من الكتاب فيه ، وستترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . واشتهر ابن الصيرفى فى أثره إذ تولى ديوان الإنشاء فى عهد الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وستترجم له عما قليل . وكان يكتب معه ابن قادوس المار ذكره بين الشعراء ، ومازال يرقى فى الديوان حتى أُسند إليه الديوان مع الموفق بن الخلال إلى وفاته سنة ٥٥١ . وكان يعمل معه لزمان ابن الصيرفى الحسن بن زيد الأنصارى وهو حفيد ابن أبى الشعباة من قبل أمه ، وكان كاتباً بليغاً واحتفظ العماد الأصهبانى بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية^(٦) . وقام على ديوان الإنشاء حتى نهاية الدولة الفاطمية الموفق بن الخلال وفى صبح الأعشى بعض رسائله^(٧) ، وعلى يديه تخرَّج القاضي الفاضل

(١) المغرب فى حل المغرب (القسم الخاص بالقاهرة -

(٥) يكف : يسيل .

طبع . مطبعة دار الكتب) ص ٢٤٩

(٦) الخريدة (قسم شعراء مصر) ٧٣/٢ .

(٢) معجم الأدباء ٥/٩ وما بعدها

(٧) صبح الأعشى ٣١٠/١٠ و٣١٦ وانظر فى ترجمته

(٣) المغرب (قسم القاهرة) ص ٢٤٧ .

الخريدة ٢٣٥/١ وابن خلكان ٢٢٠/٧ وشعرات الذهب

٢١٩/٤ .

(٤) يخف : يسرع . وفى الأصل يوجف

في صناعة الرسائل . وظل يرعى له حق التعليم والتخريج إلى أن توفي سنة ٥٦٦ للهجرة . وكان القاضي الفاضل صاحب ديوان الإنشاء ووزير صلاح الدين وابنه العزيز ومقاليد الأمور كلها بيده فأشرك معه العماد الأصهباني كما أسلفنا ، وسنترجم لها بعد قليل ، ومن كتاب الأيوبيين في عهد الفاضل ابن مماتي وسنترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية ، وكتب من بعدهما للأيوبيين جماعة ، منهم البهاء زهير الشاعر الذي ترجمنا له ، ولم تؤثر له رسائل مدونة ، وأشرك معه إبراهيم بن لقمان لعهد الصالح نجم الدين أيوب . ولم يلبث الصالح أن أعفى البهاء ، وظل ابن لقمان حتى نهاية الدولة الأيوبية ، وامتازت الكتابة الديوانية في العهد الأيوبي بأنه تكوّن فيها مدرسة جديدة قادها القاضي الفاضل ، والحق أنها ليست جديدة خالصة ، فهي الثمرة النهائية لرقى الكتابة زمن الفاطميين ، إذ نرى الفاضل يكثر من المحسنات البديعية ، وكانت قد بدأت مع ابن خيران كما مر بنا ، وأضاف الفاضل إليها الإكثار من التوزية ، وهي أيضا قديمة في الكتابات والأشعار الفاطمية منذ القرن الخامس على نحو ما مر بنا في حديثنا عن أشعار الشريف العقيلي . وألف في العصر الأيوبي كتابان في دواوين الخراج وشئونها المالية هما كتابا قوانين الدواوين لابن مماتي ، وسنعرض له في ترجمته عما قليل ، وكتاب لمع القوانين المضية في دواوين الديار المصرية لعثمان بن إبراهيم النابلسي ، وكانا كتابا في دواوين مصر لعهد السلطان نجم الدين الأيوبي (٦٣٧-٦٤٨هـ) . وبلغنا إبراهيم^(١) بن لقمان على ديوان الإنشاء أيام المماليك في عهد أيلك وقطر ويبرس ومدة قليلة في عهد قلاوون ثم نقله إلى الوزارة ، وظل وزيرا لابنه خليل . ثم عادا كتابا في ديوان الإنشاء إلى أن توفي سنة ٦٩٣ . وكان يشاركه في عهد الظاهر بيبرس محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهو أهم كتاب المماليك ، وجعله قلاوون كاتب السر ، وظيفته أنشأها لأول مرة ، وسنترجم لابن عبد الظاهر ، ومن كان يكتب بين يديه في الديوان ابنه فتح^(٢) الدين . وخلفه على كتابة السر لعهد السلطان خليل بن قلاوون ، وكتب بين يديه أيضا سيّطه شافع^(٣) بن علي بن عباس ، وهو الذي كتب عن السلطان قلاوون رسالة طويلة إلى السلطان أحمد القان بن هولاكو جواب كتاب كان قد أرسله القان إلى قلاوون يذكر فيه إسلامه وأنه حُرّم على عساكره الغارات على البلاد^(٤) .

٤١٩/٥ .

(١) انظر في ابن لقمان صبح الأعشى ١١١/١٠ والنجوم

الزاهرة ٥٠/٨ .

(٣) راجع ترجمته في فوات الوفيات ٣٧٦/١ .

(٤) صبح الأعشى ٣٣٧/٧ .

(٢) انظر في فتح الدين حسن المحاضرة ٥٧٠/١ والنجوم

الزاهرة ٣٥/٨ وصبح الأعشى ٣٣٩/١٣ وشنرات الذهب

ويلمع في رئاسة ديوان الإنشاء بمصر ودمشق منذ عهد السلطان خليل المتوفى سنة ٦٩٣ حتى نهاية القرن الثامن غير كاتب من أسرة فضل الله العمرى . وأول من ولى كتابة السر منها أو عبارة أخرى رئاسة الديوان عبد^(١) الوهاب بن فضل الله العمرى ، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى العقد الثانى من القرن الثامن إذ نقله الناصر بن قلاوون إلى دمشق ووليا بعده من الأسرة فى سنة ٧٢٩ أخوه^(٢) محبى الدين يحيى ، وكان يشركه فى كتابة السراينة شهاب الدين أحمد ، وفى سنة ٧٣٢ نقلها الناصر فترة قليلة إلى دمشق ولم يلبث أن أعادها فظلا على كتابة السر حتى سنة ٧٣٨ إذ تغير الناصر على شهاب الدين وأقام مقامه أخاه^(٣) علاء الدين ، وظل فى الوظيفة حتى سنة ٧٦٩ وتولاها بعده ابنه بدر الدين^(٤) إلى أن توفى سنة ٧٩٦ .

ومن الكتاب المهمين المعاصرين له ابن مكناس ، وسترجم له بين كتاب الرسائل الشخصية . ويلمع فى أوائل عهد المماليك البرجية اسم القلقشندى صاحب صبح الأعشى ، ولم يتول كتابة السر ولكنه ألمع كاتب بالدواوين فى زمنه وسترجم له بين كتّاب المقامات . ويتولى رئاسة ديوان الإنشاء غير كاتب مصرى وشامى ويتوقف النشاط فيه مع دخول العثمانيين مصر كما أسلفنا . ونعرض طائفة من أنبه كتابه . .

ابن الصيرفى^(٥)

هو على بن منجب بن سليمان ولد بالقاهرة سنة ٤٦٣ وكان أبوه صيرفيا ، بينما كان جده معدودا بين كتّاب زمنه . ولعله هو الذى وجّهه إلى اتخاذ الكتابة الديوانية حرفة له . ولا بد أنه جمع له من أسبابها وأدواتها الثقافية ما جعله يتقنها سريعا ، والتحق بديوان الجيش وعنى به صاحبه صاعد بن مفرج ، وعمل فى ديوان الخراج . وتنبه له وزير مصر لأيامه الأفضل بن بدر الجمالى (٤٨٧-٥١٥هـ) فنقله إلى ديوان الإنشاء ، وأعجب به متوليه سناء الملك أبو محمد الحسنى

المخاضة ٦٠٤/١ وصبح الأعشى ٩٧/١ ، ٢٣٧/٨ -
٢٤١ ، ٣١٦ - ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ وخطط المقرئى
٢١٤/٢ والمغرب لابن سديد (قسم القاهرة - طبع دار
الكتب المصرية) ص ٢٥٢ وراجع كتابه قانون ديوان
الرسائل (طبع مصر) والإشارة إلى من نال الوزارة (طبع
المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة) .

(١) النجوم الزاهرة ٢٤٠/٩
(٢) انظر ترجمته فى فوات الوفيات ٤٦/٢
(٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/١١
(٤) النجوم الزاهرة ١٤٠/١٢ .
(٥) انظر فى ابن الصيرفى وترجمته ووسائله معجم الأدباء
٧٩/١٥ وتاريخ مصر لابن ميسر فى مواضع مختلفة وحسن

الزيدى ، فأسند إليه كتابة التقاليد والمراسيم والتوقيعات ، حتى إذا توفى الخليفة الفاطمى المستعلى سنة ٤٩٥ وولّى الأفضل الجبالى ابنه الأمر (٤٩٥-٥٢٤هـ) وهو فى الخامسة من عمره حينئذ نرى ابن الصيرفى هو الذى يكتب السجل بوفاة المستعلى وولاية الأمر . ويُقرأ سجله على رؤوس كافة الأجناد والأمراء . ويضيف إلى ذلك كتابا عن الأمر عند استقراره فى الخلافة بعد أبيه بأنه فوّض إلى الأفضل الجبالى وزيره تدبير شئون الدولة والرعية . ويكتب كتابا ثانيا إلى ولاية الأطراف بعد كتابة السجل أو العهد ونفويض الأمور إلى الأفضل مهتئا فيه بخلافة الأمر وتجديد ولايته . ويسجل القلقشندى فى صُبحه طائفة أخرى من كتب ابن الصيرفى فى البشارة بسلامة الخليفة فى مواسم رمضان إذ كانت تكتب فى مواكب الجمعة الأولى والثانية والثالثة وكذلك فى عيد الفطر وعيد النحر ، وحذف القلقشندى من تلك الكتب اسم الخليفة ، وقد ظل يعمل فى ديوان الإنشاء لعهد الأمر برياسة الشيخ ابن أسامة ، حتى إذا خلفه فيه ابنه أبو الرضا شركه فى رياسة الديوان ، ثم انفرد برياسته لعهد الحافظ (٥٢٤-٥٤٣هـ) . ويبدو أنه ظل يعمل فيه حتى توفى سنة ٥٤٢ . ويذكر ياقوت أنه توفى لأيام طلائع بن رزيك وزير الخليفة الفائز بعد سنة ٥٥٠ ولعل التاريخ الأول لوفاته هو الصحيح .

وكان ابن الصيرفى كاتباً بليغاً بل يُعدّ أبلغ الكتاب المصريين زمن الفاطميين ، وفيه يقول ياقوت : «أحد فضلاء المصريين وبلغاتهم مسلّم ذلك له غير منازع فيه . . . وله رسائل أنشأها عن ملوك مصر تريد على أربع مجلدات» ويشيد ابن سعيد فى المغرب ببلاغته قائلاً : «وقعت على ترسله فى مجلدات عدة ، فوجدت [القاضى] الفاضل البيسانى ينسج على منواله ويتزع متزعه» وسنعرّف عما قليل أن القاضى الفاضل أربع كتاب مصرفى هذا العصر . وتتضح مهارة ابن الصيرفى البيانية فى أول كتاب احتفظ له القلقشندى به ، وهو السجل الذى كتبه على لسان الأمر بوفاة الخليفة المستعلى وولايته الخلافة بعده سنة ٤٩٥ وقد استله بحمد الله والصلاة على الرسول وعلى آله الطيبين الطاهرين الأئمة المهديين ، يقصد آباءه من الخلفاء الفاطميين ، ويقول إن الله استرعى الأئمة هذه الأمة مشيراً بذلك إلى أن الله اصطفاها لهداية الناس ، ويصلّى على جدّه لأبيه على بن أبى طالب ، ويقول «إن الله أكرمهم بالمتزلة العلية ، وانتخبه للإمامة رافقه بالبرية ، وخصّه بغوامض علم التنزيل ، وجعل له مبرة التعظيم ومزية التفضيل» . وكل ذلك ترداد لما كان يبدى الفاطميون فيه ويعيدون من تفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر وغيرهما من جُلّة الصحابة ، وأن الله خصه بعلم فوق العلم الدينى المعروف للأمة ، به يعرف المعنى الحقيقى للقرآن أو المعنى الخ:

يعلو على الفهم العادى ، ويشيد ابن الصيرفى على لسان الأمر بنشر أبيه المستعلى للعدل بين الرعية ، ويصور فداحة الرزء به والفجعة فيه ثم يقول :

« وقد كان الإمام المستعلى بالله - قدس الله روحه - عند نقلته ، جعل لى عقد الخلافة من بعده ، وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده ، وعهد إلى أن أخلفه فى العالم ، وأجرى الكافة فى العدل والإحسان على منهجه المتعالم ، وأطلعنى من العلوم على السر المكنون ، وأفضى إلى من الحكمة بالغامض المصون ، وأوصانى بالعطف على البرية ، والعمل فىهم بسيرته المرضية ، بما جبلنى ^(١) الله عليه من الفضل ، وخصنى به من إثثار العدل ، وإننى - فيما استرعيته - سالك منهاجه ، عامل بموجب الشرف الذى عصب الله لى تاجه » .

والسجل أو العهد كله بهذه اللغة الصافية المسجوعة ، لا غرابة فى كلمة ولا نبوءة لفظ ، بل ينساب الكلام فى فيض من البراعة البيانية ، وفيه يقرر ابن الصيرفى على لسان الأمر أن الخلافة انتقلت إليه بالوراثة عن آباءه ، وأن أباه عهد إليه بها ، فهو يخلفه عن عهد أو وصية ، وعند الفاطميين وجميع الشيعة أن الرسول أوصى بالخلافة لعل وأنها تنتقل بالوصية من الأب إلى الابن . ويقول ابن الصيرفى على لسان الأمر إن الله أطلعهم من العلوم على السر المكنون ومن الحكمة على الغامض المصون ، مشيراً بذلك إلى عقيدة الفاطميين فى أن الأئمة يتميزون من الناس بعلم بطنى يتوارثه إمام بعد إمام متقللاً من جيل إلى جيل ، وهو عندهم علم لا يشمل أمور الدين وحقائقه فحسب ، بل أيضاً يتسع ليشمل حوادث العالم حتى يوم القيامة ، وهو ما يفرض لهم على الناس طاعة واجبة لا تحدها حدود ، طاعة بدون قيد أو شرط .

وتتوالى كتب ابن الصيرفى فى الجزء الثامن من صبح الأعشى يكتبها فى وصف خطابة الأمر وصلاته فى جمع شهر رمضان وفى عيد الفطر وعيد النحر أو الأضحى وفى وفاء النيل . ولا نراه يعود إلى مثل الإشارات السالفة للعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ويبدو أنه لم يكن غالباً فى العقيدة أو لعل القلقشندى حذف مما دونه من كتبه ورسائله غلوه . ولم يكن كاتباً بليغاً يكتب الرسائل الديوانية فحسب ، بل كان أيضاً يكتب رسائل أدبية طريفة ، وقد أشار إليها ابن سعيد فى المغرب حين قال : « له تصانيف مشهورة صغار ظراف » ويبدو أنه كان قد صنفها للوزير الأفضل بن بدر الجمالى صاحب الأيادى السابعة عليه ، وله فيه إشادات مختلفة سجلها فى رسائله الديوانية التى

أشرنا إليها ورددها مرارا وتكرارا ، وقد ذكر ابن سعيد من تصانيفه كتاب « لَمَحَ المُلَح »^(١) وأورد من نثره فيه قوله :

« جرت العادة في الغطاس ، إعمال الكاس والطاس ، وهذه الآلة - إذا فقدت الراح - بمنزلة أجسام عدمت الأرواح ، فداو بإحيائها قلبا لى قرحا ، وإذا كانت عازر فكُنْ مسيحا » .
والغطاس عيد من أعياد القبط بمصر كان يحتفل ببليلته النصارى والمسلمون في الحادى عشر من شهر طوبة أشد أشهر الشتاء برودة ، وكانوا يكثرون فيه من الملاحى فى الزوارق بالنيل وعلى شاطئيه كما كانوا يكثرون من إيقاد المشاعل والفوانيس مع الاستماع إلى المغنين والمغنيات . وواضح أن ابن الصيرفى يشير إلى ما كان يتخذ فى هذا العيد من اللهو وشرب الخمر فى أوعيتها من الكاس والطاس ، ويقول إن هذه الأوعية إن لم تملأ بالخمر أو الراح كانت أجساما بدون أرواح . وكأنه يطلب خمرا من صديق ، فيقول له : داو بإحيائها قلبا لى جرحا ، يطلب منه أن يث فى دنانه الحياة التى عدمتها بفقدانها الراح . ويقول إنها أصبحت مثل الميت المعروف باسم عازر الذى أحياه المسيح ، فأحيها وابعثها من جديد . ويذكر ابن سعيد من رسائل ابن الصيرفى الأدبية التى صنفها للأفضل الجمالى رسالة بعنوان « منائح القرائح » وينقل من صدرها قوله :

« أولى ما تُقَرَّب به إلى الله تعالى الإكثار من تحميده ، والإقرار بربوبيته وتوحيده ، والصلاة على نبيه محمد الذى عَصَدَه بتأييده ، وخصَّه من الشرف بما لا سبيل إلى تحديده^(٢) ، وعلى آله الممنوحين من الفضل ما يعجز الواصف عن تعديده ، ثم التوسل إلى ملوك كل وقت بشكر نعمتهم ومواصلة خدمتهم ، وشهر خصائصهم التى امتازوا بها عن العباد ، وذكر مناقبهم التى سارت فى الأقطار ونُقِبَت^(٣) فى البلاد ، والاجتهاد فيما نفقت^(٤) بشريف مقاماتهم سوقه ، والاعتماد على ما ظهر سُمُوقه^(٥) فى البلاغة وسُوقه ، ولاخلاف أن سلطان هذا العصر ، والمخصوص من الفضائل بما لا يدخل تحت الحصر ، مالكنّا السيد الأجلّ الأفضّل أمير الجيوش سيف الإسلام ، ناصر الإمام » يقول ابن سعيد : وأخذ فى الاطناب على الأفضّل . ويذكر أنه قال من تمة تقديمته لتلك الرسالة :

(٤) نفق : راج .

(١) فى المغرب (قسم القاهرة) : ملح الملح .

(٥) سُمُوقه وبسوقه : ارتفاعه

(٢) فى المغرب : تجديده

(٣) نقبت : ذهبت وشاعت .

« فيجب على كل من صَفَتْ فكرته ، وصَحَّت فِطْرته ، وأمكنه استنباط معنى غامض ، واستدلَّ على المحاسن بِبَرَقِها الوامض ، وعرف موضع الفضيلة فيما يضعه ^(١) من تصنيف ، وعلم موقع الوسيلة به إلى كل موقف شريف ، أن يُظهر كامن قُوته ، ويُعمل مطايا رَوِيَّته ، فيما يخدم مجلسه ^(٢) العالى به ، مما يُطرب مورده ومسموعه ، ويعجب مؤلفه ومجموعه » .

وواضح أن ابن الصيرفي كان يحسن الكتابة إحسانا بعيدا ، دون أى غرابة في لفظ ، بل مع السهولة واليسر ، فسجعه خفيف لا غلظ فيه ولا كزازة ، وكأنه يفيض من ينبوع غَلِق ، شربا يمتع النفس . وكان يوشيه أحيانا بالألفاظ القرآنية مثل قوله عن المناقب إنها « نُقِبَتْ في البلاد » أى مضت وانتشرت أخذًا من قوله تعالى : (فَتَقَبُّوا في البلاد هل من محيى) . واقتباسه للألفاظ والآيات القرآنية واضح في رسائله . وكثيرا ما يوشى سجعه بالمحسنات البديعية وخاصة الاستعارة والتشبيه والجناس والطباق . وأورد ابن سعيد لُغْزًا له في السيف على هذا النحو : « يبالغ في شكره إذا أقصد ^(٣) وجرح ، وتقبل في تركيته شهادة المجرح » . وفي كلمتي التزكية والمجرح توريثان واضحتان فلتركزية معنيان . التعديل من قولهم زكى الشهود أى علّمهم ، وهو المعنى القريب للكلمة بدليل كلمة الشهادة . والمعنى الثانى بعيد ، وهو الإطراء وهو المراد ، وكذلك لكلمة المجرح معنى قريب بدليل كلمة الشهادة وهو الذى لا تقبل شهادته . ومعنى ثان بعيد وهو المجرح بالسيف في الحرب ، وهو أيضا المراد . ولعل في هاتين التوريثين ما يدل على أن ابن الصيرفي كان يستظهر التورية في نثره أحيانا ومُرَّبنا أن شعراء القرن الخامس وفى مقدمتهم الشريف العقبلى كانوا يستخلصونها كثيرا . وتبعهم في ذلك الكتاب كما نرى الآن عند ابن الصيرفي . وبذلك يتبين خطأ ابن حجة الحموى حين زعم أن القاضى الفاضل هو الذى ذلل من التورية الصعاب وأنزل الشعراء بساحتها ورحابها ^(٤) فقد نزلها شعراء الدولة الفاطمية من قبله وكتّابها ، وبهديم اهتدى القاضى الفاضل ، وعن قوسهم رمى .

ولابن الصيرفي كتابان مطبوعان موجزان هما : قانون ديوان الرسائل ، وكتاب الإشارة إلى من نال الوزارة . والكتاب الأول في نظام ديوان الرسائل وبيان ما ينبغي أن يتحلّى به رئيسه وموظفوه من ثقافات وصفات مميزة ، وبه مقتطفات من بعض رسائله وهو كتاب نفيس . والكتاب الثانى

(٣) في المغرب : أفسد ، وأقصد السهم : أصاب

(١) في المغرب : يصنعه .

(٤) خزانة الأدب للحموى (طبعة بولاق) ص ٦٧

(٢) في المغرب : عمله .

يؤرخ في إجمال لوزراء الدولة الفاطمية ، وهو مع إجماله بالغ الأهمية التاريخية . وأنشد ياقوت لابن الصيرفي بعض أشعار ، وهي تدل على أن ملكته النثرية كانت أخصب من ملكته الشعرية .

القاضي^(١) الفاضل

هو عبد الرحيم بن علي بن حسن اللخمي أصلاً ، العسقلاني مولداً ، اليّساني نسبة إذ كان أبوه يتولى قضاء يّسان بفلسطين للفاطميين فُنسب إليها . ويذكر بعض من ترجموا له أنه ولد سنة ٥٢٩ وأكبر الظن أنه ولد قبل هذا التاريخ . كما سزى بعد قليل . وكان طبيعياً أن يُعنى أبوه بترتيته ، وبدأ بإرساله إلى كُتّاب أو مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ، وحفظه وحفظ كثيراً من الأشعار . ويبدو أن الأب أحسَّ بميل ابنه إلى الأدب ، فرأى أن يرسل به إلى ديوان الإنشاء بالقاهرة ليتدرب فيه على الكتابة ، وفرح الابن برغبة أبيه : أن يصبح من كُتّاب الدواوين الفاطمية ، فسافر إلى حاضرة الفاطميين لعهد الخليفة الفاطمي الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣ هـ) ويقول الرواة إنه كان في الخامسة عشرة من عمره ، ونظن ظناً أن سنه كانت أعلى من ذلك على الأقل ستين أو أكثر حتى يتسنى له أن يهاجر من يّسان إلى القاهرة ، وقد اشتد عوده قليلاً وخاصة أنه كان أحذب ضعيف البنية . ويقول الرواة إنه حين ألمّ بديوان الإنشاء كان يرأسه الموفق بن الخلال أحد كتاب مصر المبدعين ، وكان يشركه في رياسته ابن قادوس الذي ترجمنا له بين الشعراء ، وظلت لهما الرياسة حتى توفي ابن قادوس فانفرد بها الموفق بن الخلال حتى نهاية الدولة الفاطمية . وعُني به الكاتبان الكبيران ، وخاصة الموفق بن الخلال ، ويقول القاضي الفاضل إنه سأل في أول لقاء له : ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فأجابه ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة ، فقال له . في هذا بلاغ ثم أمره بملازمته فكث يتردد إليه ويتدرب بين يديه ، وأمره الموفق بحلّ شعر ديوان الحماسة ، فحلّه من أوله إلى آخره ، ولم يزل ابن

(١) انظر في ترجمة القاضي الفاضل ورسائله وشعره عبر الفقهى ٢٩٣/٤ وابن خلكان ١٥٨/٣ وطبقات الشافعية للسيكي ١٦٦/٧ وحسن المحاضرة للسيوطي ٥٦٢/١ والخريدة للعاد الأصماني (قسم شعراء مصر) ٣٥/١ والنجوم الزاهرة ١٥٦/٦ وشذرات الذهب ٣٢٤/٤ ونهاية الأرب ١/٨ - ٥١ وصبح الأعشى (انظر الفهرس) وراجع

الكتب التاريخية في زمنه وخاصة كتاب الروضتين . ونشر له د . أحمد بدوى ديوانه وختارات محمى الدين بن عبد الظاهر من نثره باسم الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم . وله فيه كتاب بعنوان : القاضي الفاضل : دراسة وغمائج ، وانظر كتابنا « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ص ٣٦٨ .

الخلال يدربه حتى أتقن فن الكتابة . ويبدو أنه أحس أن المكانة التي يريد لها لنفسه في ديوان الإنشاء بالقاهرة من الصعب تحقيقها سريعاً لكثرة منافسيه فيه ، فرحل إلى ابن حديد قاضي الإسكندرية ومتولى الأمر فيها لعله يحقق لنفسه ما يريد من الشهرة ، ورُحِبَ به ابن حديد وعهد إليه بالكتابة عنه وظل عنده ثمانى سنوات ، وكانت كنيته تسترعى أنظار موظفى الديوان الفاطمى لفصاحته فيها وحسن بيانه . ويقول الرواة إنها لفتت نظر العادل بن رزيك حين تقلد الوزارة للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين سنة ٥٥٦ فأرسل إلى ابن حديد فى طلبه ليعمل فى دواوينه ، وأرسله إليه ، ووظفه رئيساً لديوان الجيش وتوثقت الصلة بينه وبين الوزير . ويبدو أنه انتقل من ديوان ابن حديد إلى دواوين الخلافة بالقاهرة فى وقت مبكر عن خلافة العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧) إذ نرى فى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهداً من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ولم يُذكر اسم الخليفة ، وآخر خليفة فاطمى تولى الخلافة بعد أبيه الفائز بن الظافر الذى تقلدها من سنة ٥٤٩ إلى سنة ٥٥٥ ووليا بعده عمه العاضد آخر خلفائهم . وواضح أن هذا العهد يؤكد أن القاضى الفاضل عمل فى دواوين القاهرة على الأقل فى عهد الفائز بل لايد أن يكون قد عمل فيها قبله فى عهد أبيه الظافر (٥٤٣ - ٥٤٩) حتى يمكن أن يكتب عنه هذا العهد . وقد استخلصه الموفق ابن الخلال رئيس ديوان الإنشاء لنفسه فكان يكتب بين يديه . ولا يلبث شاوَر أن يقتل العادل ويستولى على مقاليد الوزارة سنة ٥٥٨ . وينشب خلاف عنيف بين شاوَر وضرغام على نحو ما مر بنا فى الفصل الأول من هذا القسم ، ويستنجد شاوَر والخليفة العاضد بنور الدين صاحب حلب ، ويُقدِّم عليه شاوَر ويرسل معه بعساكر يقودها أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وينصرانه . وسرعان ما يعرض اليه يد التى نصرته . وتتطور الأمور ويستعين شاوَر بالصليبيين مرارا ، ويستصرخ العاضد نور الدين فيرسل إليه شيركوه وابن أخيه صلاح الدين المرة تلو المرة ولكن « شاوَر » لا يثوب إلى رشده فيقتل به ويُقتل ، ويتقلد أسد الدين شيركوه الوزارة المصرية للخليفة العاضد .

وفى هذه الأثناء كان القاضى الفاضل يكتب السجلات والتقايد والمنشورات عن العاضد بين يدي الموفق بن الخلال ، وكان قد أخذ بصرف الموفق يضعف جدا حتى أضرب ، فأصبح القاضى الفاضل هو المتصرف فى المكاتبات باسم العاضد وفى الجزء التاسع من صبح الأعشى ص ٣٧٩ عهد من إنشائه بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة ، ولم يذكر اسم الخليفة ، وأكبر الظن أنه العاضد ، وتكثر العهود والسجلات من إنشائه فى الجزء العاشر مما كتب به عن العاضد إلى القضاة

والولاية بتقليد أعمالهم ، ومن ذلك العهد الذى كتبه عن العاضد بتولى أسد الدين شيركوه الوزارة فى شهر ربيع سنة ٥٦٤ وتفويض كل شىء إليه ، وأيضا العهد الذى كتبه عن العاضد فى نفس السنة حين توفى أسد الدين فى جمادى الآخرة بتولى ابن أخيه صلاح الدين الوزارة بعده . وكان القاضى الفاضل قد وثق الصلة به وبعمه ، وأنس به صلاح الدين وتمكن منه غاية التمكن كما يقول ابن خلكان ، فلم يكنف له برياسته لديوان الإنشاء ، بل اتخذ وزيراً ، قلما يبرم شيئاً إلا بعد مشورته ، وكان إذا أناب عنه أحداً من أفراد أسرته بمصر فى أثناء غزواته للصليبيين أبقاه معه لإدارة دفة السياسة ، وكثيراً ما كان يصحبه معه فى مواقفه مع الصليبيين ، وخاصة منذ منازلته لهم فى حطين وفتح القدس .

وكان القاضى الفاضل اللسان المبين لصلاح الدين طوال حكمه يكتب عنه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والولاة مسجلاً أحداث زمنه ومبلغاً عنه عهوده وسجلاته وتوقعاته إلى كل من تشملهم راية حكمه من الإسكندرية إلى الفرات وإلى النوبة وأقصى الصعيد والحجاز واليمن . وبلغ من تقدير صلاح الدين له أن كان يقول لأصحابه ، لا تنتظروا أنى ملكت البلاد بسيفكم ، إنما ملكتها بقلم القاضى الفاضل . وللفاضل كتب كثيرة وجه بها إليه ، تفيض بالحب والإجلال والإعزاز ، وكان حاضراً وفاته بدمشق سنة ٥٨٩ ، وبكاه بكاء مرا . وولى بعده على مصر ابنه العزيز قازره ، وظل عنده فى نفس المكانة التى كانت له عند أبيه والرفعة ونفاذ الأمر ، وتوفى العزيز سنة ٥٩٥ وخلفه ابنه المنصور وكان صبياً فظل على ولائه له وعونه ، حتى قدم الأفضل عمه من الشام . ولم يلبث السلطان العادل أخو صلاح الدين أن قدم إلى مصر بنية أخذهما من المنصور وعمه الأفضل فى سنة ٥٩٦ وكانت بينه وبين القاضى الفاضل وحشة كما يقول ابن تغرى بردى ، فدعا الفاضل على نفسه بالموت - فيما يقولون - واستجاب الله دعوته فبينما كان العادل داخلاً من باب النصر كانت جنازة الفاضل خارجة من باب زويلة .

وكان الفاضل شاعراً وله ديوان شعر مطبوع ، كما كان كاتباً ، ودوت شهرته فى الكتابة ، وعُدَّ فيها رئيس مدرسة تبعه فيها المصريون والشاميون ، وفيه يقول العماد الأصهبانى فى كتاب الخريدة : « رَبِّ الْقَلَمِ وَالْبَيَانِ وَاللَّسَنِ وَاللَّسَانِ ، وَالْقَرِيحَةِ الْوَقَّادَةِ ، وَالْبَصِيرَةِ النَّقَّادَةِ ، وَالْبَدِيَّةِ الْمَعْجَزَةِ ، وَالْبَدِيَّةِ الْمَطْرُزَةِ ، وَالْفَضْلَ الَّذِى مَأْسَمَعٌ فِي الْأَوَائِلِ بِمَنْ لَوْ عَاشَ فِي زَمَانِهِ لَتَلَقَّى بِغُبَارِهِ ، أَوْ جَرَى فِي مَضْمَارِهِ ، فَهُوَ كَالشَّرِيعَةِ الْحَمْدِيَّةِ الَّتِي نَسَخَتْ الشَّرَائِعَ ، وَرَسَخَتْ بِهَا الصَّنَائِعَ ، يَخْتَرَعُ الْإِفْكَارَ ، وَيَفْتَرَعُ الْأَبْكَارَ ، وَيَطْلُعُ الْأَنْوَارَ ، وَيَبْدَعُ الْأَزْهَارَ » . ويقول النويرى : « إلى القاضى

انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويت ذوو الفضائل واغترفت ، وأمام فضله ألت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت به نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناسر ألوية الفضل في مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان للاحالة ، والفاضل بغير إطالة .

وفيا بلى قطعة من السجل أو العهد الذى كتبه بلسان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مسندا فيه الوزارة إلى صلاح الدين ، يقول بعد أن صور ماقلده هو وعمه أسد الدين شيركوه للعاضد من عون متحدنا بلسان الخليفة :

« ولو لم يكن لك هذا الإسناد فى هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث ، لأغنتك غريزة ، عزيزة ، وسجية ، سجيئة ^(١) ، وشيمة ، وسيمة ^(٢) ، وخلائق ، فيها ماتحب الخلائق ، ونخاتر ^(٣) ، لم يحز مثلها حائز ، ومحاسن ، ماؤها غير آسن ^(٤) ، ومآثر جد غير عاثر ، ومفاخر ، غفل عنها الأول ليستأثر بها الآخر ، وبراعة لسان ينسجم قطارها ^(٥) ، وشجاعة جنان تضطرم نارها ، وخلال جلال ^(٦) عليك شواهد أنوارها تتوضح ، ومساعى لديك كرائم ^(٧) نورها تتفتح .. وابسط يدك فقد فوض إليك أمير المؤمنين بسطا وقبضا ، وارفع ناظرك فقد أباح لك رفعا وخفضا ، واثبت على درجات السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتا ودحضا ، واعقد حبى ^(٨) العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عقدا ونقضا . وانفذ فيما أهلك له فقد أدى بك نافلة من السياسة وفرضا ، وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصريف ، وثقف أود ^(٩) الأيام فعليك أمانة التهذيب والتثقيف . »

ولما اخترت هذه القطعة من سجل أو عهد كتبه الفاضل سنة ٥٦٤ لأدل على أن خصائص فنه النثرى كانت قد استوت وتهيأت له مبكرة ، وقد استهل القطعة بذكر الإسناد والحديث كأنه يريد أن يحدث تورية ، فهو لا يريد الحديث النبوى وإنما يريد ما سبق فى العهد من حديث عن عم صلاح الدين وجهوده التى بذلها للخليفة الفاطمى ، وجعل لصلاح الدين إسنادا فيه لا من السند وإنما من المساندة والمساعدة ، ومضى فى تورياته المتصلة بالحديث النبوى ، فجعل قديم فخر

(١) سجية : خليقة ، وسجية الثانية : دائمة .

(٦) جلال : عظام .

(٢) وسيمة : جميلة

(٧) كرائم : جمع كريمة وهى غطاء النور والزهرة .

(٣) نخاتر جمع نخيزة : طبيعة .

(٨) حوى : جمع حوبة ، وهى الثوب يديره الجالس

(٤) آسن : متغير الطعم .

حول ساقبه وظهره للاستناد عليه

(٥) قطارها : قطرها ومطرها .

(٩) أود : اعوجاج .

صلاح الدين وحديثه مسندا جامعا ، وكتب المساند النبوية معروفة ومنها الجامع الصحيح للبخارى ، وقد جانس بين الحديث أى الكلام السابق وحديث بمعنى جديد والطباق واضح بين كلمتي قديم وحديث . وتتوالى سجعات قصيرة أقامها على الجناس الناقص وكان كلها بجميع صوره . ويجانس بين خلائق بمعنى طباع والخلائق بمعنى الناس والتورية واضحة فى كلمة الخلائق . وتتوالى جناسات ناقصة وتداخلها بعض التصاوير ، فاء المحاسن غير آسن والجَدَّ أو الحظ غير عاثر . ويحاول الإغراب والابداع فى سجمه فىأتى بسجعة هى كلمة مفاخر تليها سجعة طويلة يداخلها طباق بين الأول والآخر . ويوغل فى إغرابه وإبداعه ، فىأتى بسجعتين تداخلها فى صدرهما سجعتان إذ يقول : « وبراعة لسان ، ينسجم قطارها ، وشجاعة جنان يضطرم نارها » . ويهمد إلى التصوير البارع فى السجعتين التاليتين فشواهد أنوار الخلال أو الخصال تتوضح ، وكأتم نور المساعى وزهرها تتفتح . ويفزع إلى الطباق فى السجعات الخمس التالية وقد تصنع أو تكلف فى استخدامه للطباق بذكره المصطلحين النحويين : رفعا وخفضا ، ولكنه تصنع مقبول ، فقد استظهرهما فى خفة وعذوبة .

ولعل فيما قدمنا ما يصور بوضوح خصائص القاضى الفاضل فى كتابته الديوانية ، وهى كتابة فيها روح مصراتى نشأ فى دواوينها وصقل لسانه فى رسائل كتابها من أمثال ابن الصيرفى والموفق بن الخلال ، كتابة ليس فيها ثقل ولا تكلف بعيد ، بل فيها انطلاق وسهولة مع الرونق وصفاء التعبير . وتتردد فى الكتب التى ترجمت للقاضى الفاضل أو عرضت لبراعاته البلاغية عبارات مضيئة بحسبها البيانى كقوله عن صلاح الدين وأسرته :

« أنتم - يابنى أيوب - أيديكم آفة أنفس الأموال ، كما أن سيوفكم آفة أنفس الأبطال ، ولو ملككم الدهر لامتطيتم لباله أداهم ^(١) ، ولقدتم بيض أيامه صوارم ^(٢) ، وأفنيتم شموسه وأقاراه فى الهبات دنانير ودراهم ، وأوقاتكم أعراس إلا على الأموال فهى مآتم ، والجود فى أيديكم خاتم ، ونفسُ حاتم ^(٣) فى نقش ذلك الخاتم » .

والقطعة تمتلئ بالاستعارات والتشبيهات الرائعة ، مع ما يحفُّ بها من الجناسات والطباقات ، ومع ما صيغت فيه من العبارات الناصعة التى تلذ الألسنة والأفئدة . ومن هذا النسيج البديع قوله من رسالة فى صفة قلعة شاهقة ، اسمها كوكب :

(١) أداهم جمع أدهم : يريد خيولا سودا معدة للحرب (٣) حاتم : جواد العرب المشهور

(٢) صوارم : جمع صارم وهو السيف .

« هذه القلعة عُقاب في عِقاب ^(١) ، ونجم في سحاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأُتملة إذا خَضِبها الأصيل كان الهلال لها قَلامة » .

والجناس واضح بين عُقاب بضم العين وعُقاب بكسرهما ، وقد استمر في تشبيهات وتصويرات بديعة ، وقال نقاده : إن قوله : « كان الهلال لها قَلامة » أخذه من قول ابن المعتز في الهلال :

ولاح ضَوْءُ هلالٍ كاد يفضحنا مثل القَلامة قد قُدَّتْ من الظَّفَرِ

غير أن القاضي أضاف إلى القلامة إضافة بديعة بذكره الأتملة إذا خَضِبها الأصيل . ولعل في ذلك ما يشير إلى قدرته على مراعاة النظر في صياغاته ، وذلك كثير في كتاباته على نحو ما نرى الآن حين ذكر القلامة ذكر معها الأتملة والخضاب . ومن أروع رسائله رسالته ، التي كتب بها إلى الخليفة الناصر يبشره فيها بانتصار صلاح الدين على حملة الصليب في حِطَيْن وفتح العظم لبيت المقدس .

وللقاضي الفاضل كثير من الرسائل الشخصية ، وسنقف عندها قليلا في غير هذا الموضع ، ومربنا أن مخطوطة فصوص الفصول المحفوظة بدار الكتب المصرية تحمل مراسلات كثيرة بينه وبين ابن سناء الملك ، وكان يتخذُه ابنا روحياً له وذكرنا في غير هذا الموضع أن بها ملاحظات ومراجعات نقدية كثيرة .

محمي الدين ^(٢) بن عبد الظاهر

هو عبد الله بن عبد الظاهر المصري من بيت علم وقه وأدب ، ولد سنة ٦٢٠ وبدأ بحفظ القرآن الكريم مثل لداته ثم اختلف إلى حلقات الفقهاء والمحدثين وأصحاب التاريخ والسير ، وأحس بميل شديد إلى الأدب وجرى على لسانه الشعر ، وأنس في نفسه قدرة أدبية ، فالتحق بالدواوين لعهد الأيوبيين ، ولم يلبث أن أظله عهد المماليك ونرى نجمه يتألق في عهد الظاهر

(١) عقاب بضم العين طائر جارح وبكسرهما جمع عقبة وهي المرق الصعب في الجبال .

(٢) انظر في محمي الدين بن عبد الظاهر وترجمته ورسائله فوات الوفيات ٤٥١/١ وتاريخ ابن كثير ٣٣٤/١٣ وشذرات الذهب ٤٢١/٥ والنجوم الزاهرة ٣٨/٨ وحسن المحاضرة للسيوطي ٤٧٠/١ و٣٦٦/٢ ونهاية الأرب : الجزء

الثامن في مواضع مختلفة وصبح الأعشى (انظر الفهرس وخاصة ١٥٦/١ و١٧٦/١ و٣٥٦/٧ و٣٦٦، ٣٠٠/٨، ١١٧/١٠، ١٦٣، ١٦٦ و١٣٩/١٤ وراجع كتابه تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون (نشر وزارة الثقافة) .

يبرس ، إذ يصبح رئيسا لكتاب الدُسْت ، ثم رئيسا لديوان الإنشاء ، وتظل له هذه الوظيفة في عهد السلطان قلاوون وابنه الأشرف خليل حتى يلبي نداء ربه سنة ٦٩٢ . وعنه كانت تصدر العهود والسجلات والتقاليد والمنشورات والتوقيعات نحو أربعين عاما ، مما جعله يضع مصطلحات ديوان الإنشاء لزمه وبقية زمن المالك ، وكان ابنه فتح الدين على غراره مهارة بيانية ، ورقى إلى وظيفة كاتب السر لعهد قلاوون وابنه الأشرف خليل . وهي أكبر وظيفة في الدولة حينئذ ، وسبق أباه إلى رضوان ربه بعام فحزن عليه حزنا شديدا .

وقد أشاد بمجى الدين وبلاغته معاصروه إشادات رائعة ، من ذلك قول النويرى في نهاية الارب : « كان مجى الدين أجلّ كتاب العصر ، وفضلاء مصر ، وأكابر أعيان الدُول ، والذي ائخر بوجوده أبناء عصره على الأول ، له من النظم الفائق مارق صناعة وحسنا ، ومن النثر الراقى ما فاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ، ورسائله بأيدي الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقه في البلاغة أسهل طريق وفي الفصاحة أوضح حجّة » ويقول ابن شاكر في كتابه القوات عنه : « الكاتب الناظم النائر شيخ أهل الترسل ومن سلك الطريقة الفاضلية في إنشائه » . وجمع بعض رسائل القاضي الفاضل في كتاب سماه : « الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم » .

وكان يستخدم في كتاباته السجع ، وكثيرا ما يظيل السجعة الثانية ليضمّنها ما يريد من المحسنات البديعية ، وفي مقدمتها التصاوير والجناس والطباق ، وكذلك ما يريد من الاقتباسات القرآنية ومن حلّ بعض الأشعار ونثرها ، مع حسن الألفاظ وعدوية الكلم . وكان يرافق الظاهر يبرس وقلاوون والأشرف خليل في غزواتهم ، ويرسل بوصفها لملك اليمن وغيره من أصحاب السلطان وللوزراء في مصر . ومن رسائل المهمة رسالته إلى الوزير بهاء الدين بن حنا ، يصف له حروب يبرس مع التتار وبني سلجوق واقتلاعه مدينة قيسارية من أيديهما مع ما أخذ في طريقة إليها من الحصون والبلاد ، مصورا مسيرة الجيش المصرى في جبال شامخة مذكّلا فيها طريقه ليعوقه عن مقصده عائق . والرسالة طويلة في نحو خمس عشرة صحيفة مدوّنة في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ، وهي وثيقة تاريخية بحروب يبرس للتتار والسلجوقيين في ذى القعدة من سنة ٦٧٢ وفيها يقول : « سرنا لا يستقر بنا في شيء من المهالك قرار ، ولا يُقْتَدَح من غير سنابك الخيل نار ، ولا نمرُّ

على مدينة إلا مرور الرياح على الخائل في الأصائل والأبكار . ولا نقيم إلا بمقدار مايتزيد الزائرين من الأهبة ، أو يتزود الطائر من الثَّغْبَة ^(١) ، نسبق وَفْدَ الرِّيح من حيث نَسْتَحْي ، وتكاد مواطئ خيلنا بما تَسْجبه أذيال الصوافن ^(٢) تَمَحْي ، تحمل هُمًّا الخيل العناق ، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق ، وكلُّ يقول لسلطاننا نصره الله :

أين أزمعتَ أيُّهذا الهامُ نحن نبتُ الرُّبَى وأنت الغامُ

وبتنا هنالك ليلة نستحقر بالنسبة إلى شدَّتها ليلة الملسوع ، وتمنَّى العين بها هجمة هجوع . وأخذنا في اختراق غابات أشجار نخي الرقيق عن رفيقه ، وتَشْغله عن اقتفاء طريقه ، يَنْبَرى منها كل غصن يرسله المتقدم إلى وجه رفيقه ، كما يخرج السهم بقوة من منجنيقه ، حولها مغائر أحجار كأنها قبور بُعْثرت ، أوجبالٌ تَفْطَرْت ^(٣) ، بينها مخاض لا بل مغائص ماخر جنا منها إلا إلى جبال قد تمنطقت بالجداول وتعممت بالثلوج ، وعُمِّيت مسالكها فلا أحدٌ إلا هو قائل : فهل إلى خروج من سبيل أو إلى سبيل من خروج ، تضيق منهاجها بمشى الواحد ، وتلتفُّ شجراتها التفاف الأكام على السواعد .

وعلى هذه الشاكلة يتدفق ابن عبد الظاهر في الرسالة دون أى عائق من لفظ غريب أو أسلوب ملتو ، بل سيولة وعذوبة مع السجع الرشيق ومع ما يشاء من الجناسات والاستعارات دون أن نشعر بالكلفة أو بشيء منها ، وفي صبح الأعشى رسائل وعهود له بديعة ، منها عهد الظاهر ييرس لابنه الملك السعيد وعهد قلاوون لابنه الملك الأشرف خليل ، وفيه ينوه ابن عبد الظاهر بالأشرف على لسان أبيه قلاوون قائلا :

هو الذى بقواعد السلطنة أدرى بقوانينها الأعرف ، وعلى الرعايا الأعطف ، وبالرعايا الأرف ، وهو الذى ما قبل لبناء ملك هذا عليه قد وهى إلا وقيل هذا خير منه ومن أعلى بناء سعدٍ أشرف ، والذى ما برح النصر يتنسّم من مهابٍ تأمله الفلاح ، ويتبسّم ثغره فتوسم الثغور من مبسمه النجاح ، ويُقسَم نوره على البسيطة فلا مصر من الأمصار إلا وهو يشرب إلى ملاحظة جبين عهده الوضاح .. والذى كم جلا بهيَّ جبينه من بهيم ، وكم غدا الملك بحسن روايته ويمن

(٣) تَفْطَرْت : تشققت .

(١) الثَّغْبَة : الجرعة .

(٢) الصوافن : جمع الصافن وهو القرس

آرائه يَهم ، وكم أبرأ مورده العذب هيم^(١) ، ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه إبراهيم .
والسجعات في هذا العهد تتوالى في مجاميع على حرف واحد أو روى واحد ، قد يكون الفاء أو
الحاء أو الميم كما في هذه القطعة ، وقد يكون حرفا آخر كالمدال أو التاء أو النون إلى غير ذلك من
حروف تتعاقب فيها السجعات في خفة . وقد ورى في السجعات الفائية حين ذكر فيها لفظ
« أشرف » مورياً به عن الأشرف خليل ، ولم يكتف بهذه التورية في اسمه فقد أضاف إليها تورية
أخرى في لفظ إبراهيم بآخر القطعة ، وقدم لذلك بذكر الخليل كأنه يريد إبراهيم عليه السلام ،
وهو لا يريدُه إنما يريد بالكلمة أنه أبرأ أي عطاشاً أشد العطش . ومن ذلك قوله في رسالة إلى
صاحب اليمن مبشراً بفتح قلاوون لبعض حصون الصليبيين بالشام .

« تعطيه الملوك الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ، ويصطفى كراماً أمواهم وهم صابرون
لا مصابرون ، وكم شكت منه حِمة تنبئ بشكوها عن قلة الإنصاف ، وكم خافتة معرة وما من
معرة خاف ، وما زالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جور جواره تلك الحصون
والصياصي^(٢) ، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثارة مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصي .
وواضح في أول هذه القطعة اقتباس محبي الدين بن عبد الظاهر لآية سورة التوبة : (حتى
يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون) . ويكثر الاقتباس لآي الذكر الحكيم وألفاظه في كتاباته كما
يكثر حلُّ الشعر والاستشهاد بنصوصه وأبياته . وقد ورى في القطعة بذكره لفظ معرة الثانية من
العار مقدماً لها بذكر حِمة والمعرة وهما من مدن الشام . وورى أيضاً في قوله : « وناهيك بمدمع
العاصي » وهو إنما يريد نهر حِمة المعروف باسم العاصي . ودائماً نحس عنده العذوبة والسلاسة وكأنه
يستمد من نبع فياض لا يغيض أبداً ، على نحو ما نرى في قوله من رسالة يصف بها فتح قلاوون
لطرابلس :

« صرف مولانا السلطان إلى طرابلس العنان ، وسبق جيشه إليها كل خير وليس الخبر كالعنان ،
وجاءها بنفسه النفيسة والسعادة قد حرسه عيونها والمخاوف كلها أمان .. وفي خدمته جنود
لا تستبعد مفازة . وكم راحت وغدت وفي نفسها للأعداء حزازة ، فامتطوا بنحبولهم من جبال
لبنان تيجاناً لها صاغتها الثلوج ، ومعارج لمرافق بها غير الرياح الهوج ، وانحطت الجنود من تلك
الجنادل انحطاط الأجادل^(٣) ، واندفعوا في تلك الأوعار اندفاع الأوعال^(٤) ، ولم يحفل أحد

(٣) الأجادل : الصقور .

(١) هيم : جمع أهم وهو العطشان عطشا شديداً .

(٤) الأوعال : جمع وعل وهو تيس الجبل

(٢) الصياصي : الحصون .

منهم بطريق لاصق ، ولا جبل شاق ، فقال : هذا منخفض أوعال .

والكلمات والسجعات تنزلق عن اللسان في خفة إذ كانت ملكته الأدبية خصبة ، فهي ماتزال ترفذه بما يريد من الألفاظ التي تروق في السمع لا بسجعها فحسب ، بل أيضا بجرسها وحسن انتخابها لها ، وما يوفره لها من محاسن بدیعة بقدر الحاجة دون تكثر يحيلها إلى تكلف شديد . وحقا كان يتصنع أحيانا لبعض مصطلحات النحو ولكنه لأياقي بها إلا في الحين بعد الحين ماعدا رسالة اقترحت عليه أن تكون توقيعا لمدرس نحو استلها بقوله مداعبا : « حرس الله نعمة مولاي ، ولا زال كلم السعد من اسمه وفعله ، وحرف قلمه يأتلف ، ومنادى جوده لا يرثم وأحمد عيشه لا ينصرف » ومضى فيها على هذه الشاكلة متصنعا لمصطلحات النحو ، ولكن من الحق أنه أرادها إلى الدعابة ، وعلى نحو ما كان يبشر بالفتوح كان يبشر بوفاء النيل وله في ذلك رسائل بارعة يقول في إحداها :

« نِعْمُ الله وإن كانت متعددة ، ومِنَحُه وإن غدت بالبركات مترددة ، ومِثُّه وإن أصبحت إلى القلوب متوددة ، فإن أشملها وأكملها ، وأجملها وأفضلها ، وأجزؤها وأنهلها ، وأتمها وأعمها ، وأضمتها وألمها ، نعمة أجزأت المَنِّ والمنح ، وأنزلت في برك سَفْحِ المقطع أغزر سَفْح ، وأنت بما يعجب الزَّراع ، ويعجز البرق اللماع ، ويُعِلُّ (١) القطاع ، ويُغِلُّ (٢) الأقطاع ، ويأتي في الغد بأكثر من اليوم وفي اليوم بأكثر من الأمس ، ويركب الطريق مجداً فإن ظهرت بوجهه حمرة فهي ما يعرض للمسافر من حر الشمس .. وبيننا يكون في الباب إذا هو في الطاق ، وبيننا يكون في الاحتراق (٣) ، إذا هو في الاجترأ للإغراق ، وبيننا يكون في المجارى ، إذا هو في السوارى (٤) . »

والتورية واضحة في كلمة سفح الثانية ، إذ ليس معناها معنى سابقها وهي سفح جبل المقطم إذ أراد الانصباب من قولهم سفح الماء إذا صبّه . واقتبس من القرآن الكريم قوله عز شأنه في سورة الفتح (يعجب الزَّراع) واقتباسه من الذكر الحكيم كثير في كتاباته كما أسلفنا . وتعليل ما يخاطب النيل من الطمى بأنه نفس الحمرة التي تعرض للمسافر من طول سفره وتعرضه للشمس لتعليل حسن يدل على عمق تخيله وطرافته . وتصويره لفيض النيل وأنه سرعان ما يملا مجرى النهر وتعلو أمواجه ويطفح عجابه ويتأدى طوفانه ، فبينما يدخل سُدَّة باب إذا هو في الطاق وأعلى الشرفات ،

(١) يعل القطاع : يروى قطع الأرض مرارا . (٣) الاحتراق : قلة الماء .

(٢) يغل الأقطاع : يجمل الضياع تغطي الغلة والثمار . (٤) السوارى : يريد الأحالي .

وبينا تكون مصر قبل فيضانه في زمن الاحتراق والتعطش للماء إذا هو يخترق الآفاق فيها لإغراقها بمياهه العذبة ، وبينا يكون في أسافل الأرض ومجاريها إذا هو في السورى وأعلى الأعلى .

ولم يكن محيى الدين بن عبد الظاهر كاتباً ديوانياً فحسب ، فله رسائل شخصية سنلماً بإحداها ، وأيضاً كان مؤرخاً ، وعنه أخذ البرزالي وغيره من كبار المؤرخين زمنه ، واهتم في التاريخ بكتابة السير ، فكتب سيرة الظاهر بيبرس ، وهى أحد مصادر المقرئى في خططه ، وكتب سيرة قلاوون بعنوان « تشرىف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور » ، وكتب أيضاً سيرة الأشرف خليل بعنوان « الأنطاف الحقية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية » وله كتاب في خطط القاهرة ينقل عنه كثيراً المقرئى وكذلك القلقشندى في صبح الأعشى . ولعل فيا قدمنا من رسائله الديوانية مايدل بوضوح على قدرته البائية والبلاغة .

ابن^(١) فضل الله العمري

هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري ، من سلالة أسرة مصرية تنتسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وليت أسرته ديوان الإنشاء بمصر ودمشق نحو قرن من الزمان هو القرن الثامن الهجرى ، وقد ولد لأبيه كاتب السر بدمشق سنة ٧٠٠ للهجرة وبها نشأ ، فحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات علمائها من أمثال ابن تيمية الفقيه الحنبلى المشهور وقاضى قضاة دمشق الشافعى شهاب الدين محمد بن الجعد وشيخ الشافعية بدمشق برهان الدين بن الفركاح الفزارى وأخذ علم الأصول على الشيخ شمس الدين الأصفهاني نزيل دمشق منذ سنة ٧٢٤ وبها ظل سبع سنوات وكان من أبرع علماء زمنه في العقلبات ، وأذن لابن فضل الله في الإفتاء على مذهب الشافعى . وأخذ شهاب الدين العربية عن كمال الدين بن قاضى شُهبة وابن الزملكاني ، أما الأدب فأخذه عن أبيه ورفيقه في ديوان الإنشاء الشهاب محمود وعلاء الدين

والشذرات ١٦٠/٦ والوفى ٢٥٢/٨ وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ٤١٠/١ . وطبع له الجزء الأول من موسوعته مسالك الأبصار وانظر فيها ما تقدم في حديثنا عن النشاط الجغرافى بمصر وطبع له كتابه التريف بالمصطلح الشريف .

(١) انظر في ترجمة ابن فضل الله قرات الوفيات ١٢/١ والنجوم الزاهرة ٣٣٤/١٠ والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ٣٥٢/١ وصبح الأعشى وخاصة الجزء الحادى عشر والرابع عشر (انظر الفهرس) وخطط المقرئى ٣٨٩/١ وحسن المحاضرة ٣٧١/١ ، ٣٩٤ ، ٢٣٤/٢

الوداعى . ورحل إلى مصر فى أثناء الطلب ، وأخذ العربية عن شيوخها وعلمائها مثل ابن الصانع الحنفى ونزيلها أبى حيان الأندلسى . وسمع الحديث على علمائها كما سمعه على حُفَاظ الشام . ويبدو أنه نزع إلى العمل مع أبيه مبكرا فى ديوان الإنشاء بدمشق ، وتخرج فيه كاتباً بارعا . وكان إلى ذلك لا يزال يأخذ عن العلماء فى زمنه بالشام ومصر ، وكان أبوه يعمل أحيانا بالديوان فى دمشق وأحيانا يعطل ، فكان إذا عمل لزمه ، حتى إذا استدعى الناصر محمد بن قلاوون أباه لكتابة السر بالقاهرة سنة ٧٢٩ تقلد معه هذه الوظيفة فكان هو الذى يقرأ كتب البريد ورسائله على الناصر ، وتقلها إلى دمشق فى شعبان سنة ٧٣٢ ثم أعادها ثانية إلى القاهرة مسندا إليها كتابة السر ورياسة ديوان الإنشاء سنة ٧٣٣ ويبدو أنه كان حاد الطبع ، ولم يتحاش عن إظهار هذه الحدة فى مخاطبته للناصر ، فتغير عليه وصرفه ، وولى أخاه علاء الدين مكانه ، وكانت منزلة أبيه عند الناصر قد عظمت ، وطلب أن يرجع إلى دمشق فأجابه إلى طلبه ، على أن تستمر له رياسة ديوان الإنشاء فى جميع ديار السلطنة وأن يكون جميع الموظفين فى تلك الدواوين نوابه ، وسرعان ما لبى نداء ربه . وعاد الناصر فى سنة ٧٤٠ فرضى عن شهاب الدين وولاه كتابة السر بدمشق ، ودخلها فى المحرم سنة ٧٤١ وظل يلى وظيفته بها حتى طُلب إلى القاهرة سنة ٧٤٣ لكثرة الشكايات منه وشفع فيه أخوه علاء الدين ، وقُبلت شفاعته وعاد إلى دمشق ، وبارحها فى سنة ٧٤٩ لقضاء فريضة الحج ، وتوفى بمكة ونُقل تابوته إلى دمشق ، ولم يكد يبلغ الخمسين من عمره .

وكان شاعرا كما كان كاتباً ، نظم كثيرا من القصائد والأراجيز والمقطعات والدوبيت ، غير أن شهرته الكتابية غطت على شهرته الشعرية ، وقد أشاد بكتابته معاصروه من ذلك قول صلاح الدين الصفدى : « هو الإمام الفاضل البليغ الموقو الحافظ حجة الكتاب ، إمام أهل الأدب ، أحد رجالات الزمان كتابة وترسلا ، وتوسلا إلى غايات المعانى وتوصلا ، يتوقد ذكاء وفطنة ويتلهب ، وينحدر سيله مذاكرة وحفظا ويتصبب ، ويتدفق بحره بالجواهر كلاما ، ويتألق إنشاؤه بالبوارق المستعرة نظاما ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتندى عباراته انسجاما وصياغة ، وينظر إلى غرر المعانى من ستر رقيق ، ويفوص فى لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، يكتب من رأس قلمه بديها ، ما يعجز تزوى القاضى الفاضل أن يدانيه تشبيها .. صرّف الزمان أمرا ونهيا ، ودبر الممالك تنفيذا ورأيا » .

ولعل من الطريف ان ابن فضل الله جمع من كتاباته نماذج فى جميع صور المكاتبات الديوانية وضمنها كتابه النفيس : « التعريف بالمصطلح الشريف » وجعله فى سبعة أقسام أولها فى رتب

المكاتب إلى الخليفة العباسي بالقاهرة وعنه مع رسوم الكتابة إلى أمراء البلدان وراء السلطنة المصرية من الهند إلى الأندلس ، وأيضاً إلى نواب السلطنة والحكم خارج مصر . والقسم الثاني في العهود والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والعهود إما من الخلفاء إلى السلاطين وإما من السلاطين إلى ولاية العهد . والتقاليد خاصة بكبار الموظفين والتواقيع لصغارهم والمراسيم لصغار الأمور والشئون والمناشير خاصة بالأمراء والجند . والقسم الثالث خاص بنسخ الأيمان على العامة والولاة وكبار الموظفين وأهل الكتاب . والقسم الرابع في الأمان والهدن مع الأعداء ونقض المعاهدات . والقسم الخامس في حدود المدن والبلاد وهو جغرافى . والقسم السادس في مراكز البريد ووسائله برا وبحرا . والقسم السابع في الآلات وخاصة آلات الحرب من سيف وغير سيف وكذلك آلات السفر وآلات الصيد وآلات الطرب وأيضاً الحيوان الأليف والوحشى والطير ، ويتسع هذا القسم للحديث عن المدن والحصون وأنواعها والأزمنة وفصولها والأنواء . وواضح أن الأقسام الأربعة الأولى هى التى دفعته لإعطاء النماذج الكتابية المتصلة بموضوعاتها . أما الأقسام الثلاثة التالية فقد رأى معرفتها ضرورة لكتاب الديوان لأنها تتصل بأعمالها اتصالاً قوياً . واشتهر هذا الكتاب بعد ابن فضل الله واتخذ الكتاب إماماً لهم وجعلوه نصب أعينهم فى كتاباتهم الديوانية يحاكون نماذجها وأمثلة ، واعتمد عليه الفلقشندى فى بيان رسوم الكتابة الديوانية ، وما يصورها من أمثلة بليغة محكمة ، من ذلك قوله فى تقليد وزير ووصيته بما ينبغى عليه فى وزارته :

« عليه بالكفاة الأمناء ، وتجنب الخونة وإن كانوا ذوى غناء ، وإياه والعاجز ، ومن لورأى المصلحة بين عينيه ألقى بينه وبينها ألف حاجز ، وليطهر بابه ، ويسهل حجابيه ، ويفكر فيما بعد أكثر مما قرب مقدما الأهم فالأهم من المصالح ، وينظر إلى ما غاب عنه وحضر نظر الماسى والمصالح ، ولا يستبدل إلا بمن ظهر لديه عجزه أو ثبتت عنده خيانتة ، ولا يدع من جميل نظره من صحت لديه كفايته ، أو تحققت عنده أمانته . وليصرف اهتمامه إلى استخلاص مال الله الذى نحن أمانؤه ، وبه يشغل أوقاته وتمتلى كالإبناء آناؤه ، فلا يدع شيئاً يجب لبيت المال المعمور من مستحقه ، ولا يتسرع فى تخليه بشيء منه كما نوصيه أن لا يأخذ شيئاً إلا بحقه » .

وواضح أن ابن فضل الله لا يتكلف فى كتابته ، وكأنه - كما قال الصفدى - بحريته فى ، وفى تضاعيف تدقه ينثر جواهر المحسنات ، وهى تواتيه طيبة ، تارة يطابق وتارة يجانس فى يسر دون أن نحس عنده بتصنع أو ما يشبه التصنع . ومن طريف وصفه للسيف فى كتابه التعريف قوله :

« سَلَّ سيفًا سالَ المَنُون من لُعبه ، وسار الموت في إهابه ^(١) ، وتناوم غِراؤه ^(٢) ملء جفنيه فما هجع ، وتناوب ^(٣) للوثوب للمهجع فما رجع ، وتباكى على من قتل فجرت دموعه دماء ، وتحرق على من سلم فوقدت ضلوعه نارًا وترقرقت مآقيه ماء » .

وهي كلمات قصار ولكنها مليئة بالاستعارات والتشخيصات المتلاحقة ، وفيها الجناس والطباق وكأنها غير ملحوظين ، لما تجريان فيه من سهولة اللفظ وعذوبته . وله في وصف قدح أو كاس : « تَكُونُ من جوهر مكنون ، وتجسّد من هواء مظنون ، وأُتخذ خِدْرًا لابنة العنب ^(٤) ، وطاف به الساق فأصبح منه في راحة وهو في تعب ، قَهَقَ عليه الابريق فصدح ، وطار منه شرار المدام فقبل : قدح » .

والقطعة مثل سابقتها زاخرة بالاستعارات والصور الطريفة . مع جناسات وطباقات بديعة ومع جمال الجرس والمهارة في انتخاب اللفظ ، وقد ختمها بكلمة قدح والتورية واضحة . فهو لا يريد ما يتبادر من أنه يريد القدح الذي يصفه ، إنما يريد الفعل الماضي قدح أى قدح الشرر وأذكاه من قولهم قدح النار من الزند .

ولابن فضل الله العمري بجانب رسائله الديوانية رسائل شخصية قليلة وذكر له مترجموه نحو عشرة كتب ، منها التعريف بالمصطلح الشريف الذى وصفناه . ومنها فواصل السمر في فضائل آل عمر ، ومنها ضبابية المشتاق في مجلد في مدح النبي ﷺ . وأهم كتبه دون ريب كتابه « مسالك الأبصار » وقد نشر الجزء الأول منه وهو خاص بالديارات ، وهو في أكثر من عشرين مجلداً ، وهو مقسوم إلى قسمين كبيرين : قسم للأرض وأقاليمها وبحارها وطرقها أو مسالكها ، وقسم للممالك في العالم الإسلامى وغيره وسكان المعمورة ، وبه فصول طويلة عن الكتاب والشعراء في العالم العربى بمختلف أقطاره ، وعادة يضع مقدمة مسجوعة لكل كاتب وشاعر ثم يختار للكاتب نماذج من رسائله وللشاعر نماذج من شعره ، وبه مقتبسات من كتب سقطت من يد الزمن ، ومن خير ما احتفظ به تراجمه لشعراء صقلية ، وكذلك معلوماته الجغرافية والتاريخية عنها . وبالكتاب مفاخرة طريفة بين المشرق والمغرب تمس حضارتيهما ومن كان بهما من أفذاذ العلماء والأدباء .

(٣) تناوب الأمر : قام به مرة بعد مرة .

(٤) الخدر : البيت . ابنة العنب : الخمر .

(١) إهابه : جلده .

(٢) غرار السيف : حده .

الرسائل الشخصية

تموج كتب الأدب والتراجم بكثير من رسائل الأدباء والكتاب المصريين الشخصية والإخوانية في التهنية والتهادى والشكر والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتعزية . وعادة معانيها محدودة ، ولكن أصحابها يحاولون إظهار براعتهم بإطالتها وتحجير عباراتها ونشر زخارف البديع ومحسناته عليها حتى تروق من تُرسل إليهم وتبلغ من التأثير فيهم المبلغ المنشود . ومن برعوا في تدبيجها وكتابتها في أيام الفاطميين عبد المجيد بن أبي الشخباء العسقلاني الكاتب الديواني لزمان الخليفة المستنصر ، وسنخسه بحديث مفرد ، وكان لا يكاد يقل عنه إحسانا في تلك الرسائل سبطه أو ابن ابنته الحسن ^(١) بن زيد الأنصارى الكاتب مثله في الدواوين الفاطمية ، وكان جده لأبيه شاعرا ، وهو على بن إسماعيل ، وكان أيضا فقيها ولى قضاء الأردن للفاطميين ، ويقول السلقى في معجمه : لم يكن له نظير في الأدب بقطره سوى ابن أبي الشخباء ، وقتلها بدر الجمال وزير المستنصر . والحسن بن زيد بذلك سليل قتيلين وكأنما كُتِبَ عليه أن يقتل مثلها ، وتولى إثم ذلك الحسن بن الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٣) في أوائل خلافة أبيه لأبيات في هجائه دسها بعض معاصريه عليه ، وكأنما أراد القدر أن يثار له وكان الحسن قد استبدَّ بتنفيذ الأمور دون أبيه فدرس عليه السم في طعامه فمات لسنة ٥٢٨ .

وواضح أن الحسن بن زيد - كما يقول ابن سعيد - « عريق النسب ، في صناعة الأدب ، يمتُّ إليها بأوفى ذمام ، ويضرب فيها بأحوال وأعام » ويقول العماد الأصبهاني : « وصفه القاضي الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله » . واحتفظ العماد له في خريدته بطائفة من رسائله الديوانية والشخصية ، من ذلك قوله في رسالة إلى صديق يهنئه بالبرء من مرضه .

« إذا قَدَّمَ الوداد ، وصَحَّ الاعتقاد ، وصَفَت الضمائر ، وخَلَصَت السرائر ، حلَّ الإخاء المكتسب ، محلَّ أخوة النسب ، وصار المتعاقدان على الإيثار ، والمتحابَّان على بعد الدار ، متساهمين فيما ساء وسو ، ومتشاركين فيما نفع وضرر ، وتلك حالى وحال حضرة مولاي فاني وإياها

(١) انظر في ترجمة الحسن بن زيد الخريدة (قسم شعراء ومعجم السلقى ص ٤٤٨ .

(١) انظر في ترجمة الحسن بن زيد الخريدة (قسم شعراء

(مصر) ٦٧/٢ وما بعدها والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٣٧

كنفس قسّمت على جسمين ، وروح فرّقت بين شخصين ، فأما ألمها فقد مضى وأزعجني ، وأما برؤها فقد سرّها وأبهجني .

ومهارته في صياغة أسجاعه واضحة فعباراتها تتوازى وتتعاذل وتعادلا دقيقا ، وكأن كل كلمة في السجعة الثانية تعانق أختها في السجعة الأولى في عنوبة ونصاعة وسلاسة وطلاقة . ومن كتاب له في تعزية :

« الحَظُّبُ الحادِثُ ، فادِحُ كارِثُ ^(١) ، كادت له القلوب أن تتبرأ من أضالعها ، والعيون أن تتعوض بدمائها من مدامعها ، والضحي أن يدّرع ^(٢) جلباب الدُّجّة ، والحوامل أن تُجهّض بما في بطونها من الأجنّة . وإن المنية حوّض كل الناس وارده ، ومهل كل الخليقة قاصده ، لا يسلم منها ملك نافذ الأمر .. ولا فقير خامل الذكر » .

وتحمل القطعة نفس الصياغة السالفة بكل ماتسم به من اكتمال الإيقاع في الألفاظ بين السجعات وحسن الانتخاب للألفاظ والكلمات .

وكان يعاصر الحسن بن زيد الشاعر ظافر الحداد الذي مرت ترجمته بين الشعراء ، وكانت قد انعقدت صداقة بينه وبين أبي الصلت أمية بن عبدالعزيز نزيل الإسكندرية ، وكان قد بارحها إلى المهديّة بتونس سنة ٥٠٦ ولم يصله من ظافر كتاب فأرسل إليه يعاتبه ، ومن قوله يحيبه عن كتابه ^(٣) :

« فضضت الكتاب عن رسالته التي يهيج قشيبها ^(٤) ، ويضوع ^(٥) طيبها ، ولا يترّف قلبها ^(٦) ، فخلت أنى أختال أى أختيال في حلل الشباب ، وأذكر الأحباب ، وأرشف الرضاب ^(٧) ، من الثنايا العذاب ، بعد الصدّ والاجتناب :

ذَكَرْتُ بِهِ عَهْدًا كَانَ لَمْ أَفْزُ بِهِ
وَعَيْشًا كَأَنِّي كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَنَبَا

ثم نزهت ناظري ، وجلوت خاطري ، بيدائع ماتضمّنه الكتاب ، من العتاب ، حتى وددت أنى أجدد كل يوم ذنبا ، يوجب منه عتبا ، كى أقطف منه مثل تلك الأزهار ، وأجنى مثل تلك

(٥) يضوع : يفوح

(٦) قلبها : معينا

(٧) الرضاب : الرين

(١) كارث : محزن .

(٢) يدرع : يلبس . اللجّة : الظلمة .

(٣) انظر الرسالة في ديوان ظافر

(٤) قشيب : جديد

الأثمار ، فما أخصبها رياضاً ، وأغذها حياضاً ، وأشرفها أجساماً وأعراضاً .

وظاهر يعنى فى رسالته بسجعاته ، ويوفر لها كل ما يستطيع من جال اللفظ وحسن الجرس ، حتى تقع من نفس أمية الموقع الذى يريده من بلاغة القول وروعة البيان . وإذا مضينا إلى زمن الأيوبيين لقينا القاضى الفاضل أهم كتأبهم يديج كثيراً من الرسائل الإخوانية أو الشخصية واقتطف منها محي الدين بن عبد الظاهر باقات كثيرة فى مختاراته من رسائله التى سماها « الدر النظيم من ترسل عبدالرحيم » ومن قوله فى إحداها يصف لأحد أصدقائه دمشق :

« إني وصلت إلى دمشق المحروسة حين شَرِدَ بَرْدُها ، وورَدَ وَرْدُها ، واخضَرَّ نباتها ، وحَسَنَ نَعْمَها ، وصفا ماؤها ، وَصَفَا ^(١) رداؤها ، وتغنَّتْ أطيارها ، وتبسَّمت أزهارها ، وافتَرَّ ^(٢) زهر أقحوانها فحكى ثغور غِزَلاتها ، ومالت قُصْبُ بانها ، فانشئتُ تثنى ولدانها . فلما قربتُ من بساتينها ، ولاح لى فَسْحُ ميادينها ، وتوسطت جَنَّةُ وادياها ، ورأيت ما أودعه الله العظيم فيها ، سمعت عند ذلك حماماً يقرُد ، وهزاراً ^(٣) ينشد ويردد ، وقُمَرِيًّا ^(٤) ينوح ، وبلبلاً بأشجانه ييوح » .

وأسلوب القاضى الفاضل واضح فى هذه القطعة لا بأسجاءه فحسب وما يبلغ فيها من اكتمال الجرس والإيقاع بين أوائلها وتواليها ، بل أيضاً بما يوشى به كلامه من الاستعارات البديعة وزخارف الجناسات ، وكان ما يزال يضيف إلى مثل ذلك طباقاته وتورياته الرشيقة وما عرف به من العناية بمراعاة النظر . وكثرت المراسلات بينه وبين ابن سناء الملك وأبيه القاضى الرشيد ، مما أتاح لابن سناء الملك أن يجمع منها كتاباً يسميه « فصوص الفصول وعقود العقول » ، وتحفظ دار الكتب المصرية بمخطوطة منه ، وهو مقسوم قسمين : قسم لمراسلات القاضى الفاضل وابن سناء الملك وقسم لمراسلات القاضى الفاضل مع أبيه ، وفيه مراجعات كثيرة بين القاضل وابن سناء الملك تتصل بنظرات له ونقد لبعض أبيات من قصائده . وحرى بنا أن نذكر كثرة استشهاد القاضل فى رسائله الشخصية بالشعر حتى ليرى له القلقشندى فى الجزء الأول من صبحه ^(٥) رسالة موزعة بين كلمات نثرية تليها أبيات شعرية ، ورسالة ثانية موزعة بين كلمات وشطور أبيات . ومن كتّاب الديوان حينئذ البارعين فى تحبير الرسائل الشخصية الأسعد بن ممانى ، وسنترجم له عما قليل .

(٤) القمرى : ضرب من الحمام المطوق حسن الصوت

(١) ضفا : سبخ .

(٥) صبح الأئمن ٢٧٦/١ .

(٢) افتَرَّ : تفتح .

(٣) الهزار : العنديل .

ونغضي في زمن المالِك فنجد الأدباء من كتاب وشعراء يتبادلون رسائل شخصية كثيرة ، من ذلك رسالة بعث بها محي الدين بن عبد الظاهر سنة ٦٥٣ إلى الشاعر ابن النقيب الذي مرت ترجمته ، وقد بلغه أن شخصا عابه في مجلسه وأزرى به وبقدرته الكتابية ، وكان لا يزال شابا في نحو الثلاثين من عمره ، ويبدو أنه عرف أن ابن النقيب ردَّ على عاتبه ، فكتب إليه يهجو هذا العائب ويشكره على جميل رده عليه ، وهي رسالة طويلة ^(١) ، جعل عنوانها « التواضع » وقد مضى فيها بصور حملة هذا العائب عليه ثم أخذ يعفُّه تعنيفا شديداً ، وأنهاها بالدعاء لابن النقيب والدعاء على عاتبه بالويل والثبور ، ونلم بأطراف منها ، يقول :

« إن فلانا غَضُّ مني .. وزعم أن إناء إبانى غير مُقَمِّم ^(٢) ، وبناء مجدى غير محكم ، وأن جوارح إجادتى جرحة ، وقرائح ارتجالى قرحة ^(٣) ، وأن صدور المجالس تنكر إقدام أقدامى ، وبطون الطروس لا تُلَقَّح بأقلامى ، وأنى لا أعدِّى جملة الكتاب ، وإذا دخلوا من أبواب متفرقة للتكرم لا أدخل معهم فى باب ، والذي أقوله له مخاطبا ، وأومى ^(٤) به إليه مجابوا : ماكل الأفاعى تعبت بها الأنامل ، ولاكل المرامى تُنصَّبُ بها الحبالل ، ولاكل زُخَّار ^(٥) يُخاضُ ، ولاكل جَنَاح يُهاضُ ، ولاكل جامع يُراضُ ، ولاكل سابعة تُفاضُ ^(٦) .. ولا يَصُرُّ الزناد الواهى ^(٧) قدحُ القادح ، كما أنه لا يضير النجم السارى نبحُ النابح .

والرسالة على هذه الشاكلة من السجع الموقَّع الملحن تلحينا حسنا ، مع توشيته بزخارف الاستعارات ومحاسن الجناسات ، وقد ورى فى كلمة « قدح القادح » مع ذكر الزند الوارى فلم يرد بها قدح القادح للزند طلبا لإخراج النار منه ، وإنما أراد ذم الهاجى ، من قولهم : قدح فى عرض أخيه إذا عابه وثلبه .

وتكثر فى الرسائل الشخصية حينئذ تقریظات الأدباء والشعراء ، ولعل شاعرا لم يكثر تقریظ شعره ومصنفاته كما قرَّط ابن نباتة . ومرَّ فى ترجمته أن له كتابا سماه « سجع المطَّوق » ترجم فيه لكل من قرَّطوا كتابه « جمع الفوائد » . ولتلميذه برهان الدين القيراطى الذى مرَّت ترجمته بين الشعراء تقریظ طريف لشعره ونثره ، ومن قوله فيه ^(٨) :

(٥) زخار : النهر الزخار : الملىء الطامى .

(٦) فاض : تكون سابعة ضافية

(٧) الوارى : المتقد .

(٨) خزانة الأدب للحموى ص ٥٤٧ .

(١) انظرها فى نهاية « تمام المتن فى شرح رسالة ابن

زبدون » للصفدى

(٢) مقم : ملىء

(٣) قرحة : جرحمة .

(٤) أومى : أشير .

« لا غرو أن فصّح بديع^(١) الزمان بلفظه البديع ، وأزهرت الأوراق بمثثور رسائله التي كل فصل منها ربيع ، وتبارك الذي جعل في سماء دوحته لشمس بلاغته بروجاً ، وأعلى هيمه التي لا ترضى الشهب جياذاً والأهلة سُروجاً .. وقد زهت أمداحه المؤيدية^(٢) فأصبحت بيوته المرفوعة (ذات العباد) وراقت محاسنه التي (لم يُخلَقْ مثلها في البلاد) .. وطالما سرح الناظر في بستانها نظره ، ورام^(٣) ابن سكرة فتح الأبواب لمعارضة قطرها النباني فوجدها مسكّره^(٤) ، وعلم المتنبي أن هذا خاتم الأدباء لامحاله ، والمرسل الذي نهض عنه بأعباء كل رساله . »

والتقريب زاهر بالاعتباس لآي القرآن الكريم وألفاظه كقوله في مديح أبيات ابن نباته إن بيوته المرفوعة أصبحت ذات العباد . وفي كلمة بيوت تورية إذ لا يريد بيوت الشعر من الخيام التي ترفعها الأعمدة أخذاً من قوله تعالى في سورة الفجر (ألم تركيف فعل ربك بعاد إرم ذات العباد) أي أنهم كانوا أهل خيام وأعمدة ، وهو لا يريد ذلك كله وإنما يريد بيوت شعر ابن نباته أو أبياته . وأكمل في العبارة التالية وصف القرآن في السورة نفسها لعاد بقوله : (التي لم يخلق مثلها في البلاد) . وراعى النظر مراعاة دقيقة حين ذكر ابن سكرة فذكر معه القطر النباني يريد شعر ابن نباته الحلوى . وحين ذكر المتنبي أشار إلى ما قبل من تنبؤه وأنه نهض عنه بأعباء كل رسالة ومعروف أنه لم يثبت تنبؤ المتنبي تاريخياً غير أن القيراطى رأى استغلال ذلك في جلب ما يخدم غرضه من مراعاة النظر والتورية بكلمة رسالة . وربما كان أكثر من رسائل التقريظات رسائل الاستدعاءات ، إذ كان الأدباء من الكتاب والشعراء يستدعى بعضهم بعضاً للمشاركة في مجالسهم ومابها من أنس ومدام ومن رفاق وصحاب . ولبدر الدين بن الصاحب المتوفى سنة ٧٨٨ للهجرة رسالة^(٥) طويلة أرسل بها إلى فخر الدين بن مكانس يدعوه لمجلس أنس وشراب ، واصفاً له ما سيتمتع به معه من خمر معتقة ، وكأنه كان من المدمنين عليها في غير تخرج ، وله يقول : « هل لك - بسط الله آمالك ، وضاعف نعيمك ودلائك - في عذراء مصونة ، كالدرة المكنونة ، فتانة مفتونة ، كأن على خدها فوق وزده ياسمينه .. لها من ذاتها طرب يغنى عن المزامير ، بلقيسية الجمال لها (صرحٌ مُرد من قوارير) ليلها من حسنها نهار ، وضوء وجهها ليد لامسها سوار ، تلمت بالمصباح ، وتلطفت حتى مازجت الأرواح ، أديمها كلما تعتق يغلو ،

(٤) مسكرة : مغلقة .

(١) بديع الزمان : صاحب المقامات والرسائل المشهور .

(٥) مطالع البدر للزغول ١٥٢/١ والأدب في العصر

(٢) المؤيدية : يريد أمداحه في المؤيد (انظر ترجمته) .

الملوكي للذكور محمد زغول سلام ص ١١ .

(٣) ابن سكرة : شاعر بغدادى ماجن معاصر للمتنبي .

ووردها كلما مرَّ يحلو ، أيامها أعياد ، وأوقاتها أقوات القلوب والأكباد . من « القاصرات الطُرف » في كل قَصْر وهي على الإطلاق ذهبية العصر .. لا تنزل الحوادث ساحتها ، ولا يعرف التعب من صافح راحتها ، حمراء تخلع ثوبها على الندمان ، بل تكاد تطبق عينها على الإنسان .

وهو ينثر في الرسالة كثيرا من التصاویر مع القدرة البديعة على صياغة السجع والاقتراس فيه أحيانا من لفظ الذكر الحكيم كقوله مورِّيا عن دَنْ الخمر الزجاجة بما جاء في سورة النمل من وصف الصرح في قصر سليمان عليه السلام الذى شمّرت بلقىس ملكة سبأ ثوبها حين دخلته إذ (حسبته لُجَّة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير) أى من زجاج شفاف لا يحجب ما وراءه . ووصف بدر الدين بن الصاحب الخمر التى دعا ابن مكانس إليها بأنها من القاصرات الطرف اللاتي لم يمسهن أحد ، أخذًا للكلمة من الذكر الحكيم . ولم يلبث أن قال إنها ذهبية العصر . والتورية واضحة إذ لا يريد أن عصرها ذهبي كما يقال عصر هرون الرشيد الذهبي مثلا وإنما يريد أنها صفراء اللون حين تعصر من عنها وكرمها . وفي السجعتين التاليتين بآخر القطعة توريثان واضحتان ، فهو لا يريد بلفظة « راحتها » كمّها كما تشهد لذلك كلمة صافح ، وإنما يريد الخمر نفسها إذ تسمى راحة . وبالمثل لا يريد في السجعة التالية بالإنسان إنسان العين وسوادها وإنما يريد الإنسان الحقيقي الذى يحسبها .

وظلت الرسائل الشخصية تتداول بين الأدباء طوال الحقبة العثمانية ، ودخلها غير قليل من التكلف والتصنع . ونسوق قطعة حيثثذ من رسالة محمد بن أبى الحسن البكرى الذى مرت ترجمته ، أرسل بها إلى النور العُسلَى ليتسلى بمجلسه فى منزله نُصْر يلتقى فى شاطئه ماء النيل وقت فيضانه بخضرة الزروع الزاهية ، وفيها يقول ^(١) :

« سيدنا البرّ الذى يجرى بحر الفضائل من برّه ، ويعذب الورد والصّدْر بما يصدر من صدره ، ويفيض إحسانه نهرا لراحيه وآمله ، وتبتدر الأنام لتلقى تيار أنامله ، وتزاحم على سيف ^(٢) زخّار علومه ، تزاحم رقاب أعدائه على سيفه وخصومه .. ومدينة بولاق هى مجتمع البحور ، ومدار فلك السرور ، بفلك الجبور ، طفحت بالنيل لاجزّ عن الجزر مدّه المديد ، واستلّت سيف النهر لقطع حروف الجروف من أقصى الصعيد . »

والرسالة تجرى على هذه الصورة من التكلف الشديد كما يلاحظ فى السجعات الأخيرة ، وقد تصنع فيها لذكر مصطلحات الفلك والعروض والنحو . ولحمد الطيلونى من كتاب القرن الحادى

(٢) سيف : شاطئ .

(١) ربحانة الألبا للخفاجى (طبعة الحلبي) ٢٢٩/٢

عشر الهجرى وشعرائه رسالة^(١) هجا بها القاضى عمر المغربي هجاء أراد به إلى الفكاهة والضحك من مثل قوله :

« يامن ثوبة رث ، وحديثه غث ، ياكثير الثباح ، ياخابا فى الغدو والرواح ، ياتارك السنّة والقرص ، يامن سعى بالفساد فى الأرض ، يامهبط الدواهى ، وتابع القى والملاهى .. ياكثير الشكوى ، يا أثقل من رضى^(٢) ، ياموت الحبيب وطلعة الرقيب .. يا أثقل من المكتب على الصبيان ، ومن كرا^(٣) الدار على السكان » .

والرسالة طويلة اقتطف منها المحبى مقتطفات فى نحو سبع صفحات أتبعها بقصيدة هجاء على غرارها للشهاب الخفاجى مؤلف ربحانة الألبا . وتظل المحسنات البديعية بارزة فى الرسائل ، ولكننا نشعر فى العبارات بضعف الصياغة ، وقلما نشعر بعاطفة فياضة أو إحساس مرهف أو معنى دقيق . وحرى بنا أن نقف عند بعض النابهن من كتاب هذه الرسائل الشخصية على مدار العصر ومختلف أزمنته .

ابن أبى الشخباء^(٤)

وقيل ابن الشخباء ، هو الحسن بن محمد بن عبد الصمد العسقلانى ، ولانعرف متى انتقل هو أو أسرته العسقلانية إلى القاهرة ، ويبدو أنه التحق مبكرا بدواوين الدولة الفاطمية لعهد الخليفة المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) وتخرج فيها على من كان يعمل بها من كبار الكتاب ، ولمع اسمه فيها وتألّق ، غير أننا لانمضى إلى سنة ٤٨٢ حتى نراه يُقتل بسجن مصر المسمى خزانة البنود ، وأكبر الظن أن بدرًا الجمالى وزير المستنصر هو الذى أمر بقتله كما أمر بقتل صهره القاضى إسماعيل بن على كيامر بنا أنفا فى الحديث عن حفيدهما الحسن بن زيد .

وكان ابن أبى الشخباء شاعرا بارعا كما كان كاتبًا بارعا ، ولذلك لُقّب بالحميد ذى الفضيلتين ، وفيه يقول العماد : « الحميد حميد كنعته ، قادر على ابتداع الكلام ونحته ، له الخطب البديعة ، والملح الصنيعة » ، ويقول ياقوت عنه : « أحد البلغاء الفصحاء والشعراء » . له رسائل مدونة مشهورة قيل إن القاضى الفاضل عبد الرحيم البيهقى منها استمدّ ، وبها اعتدّ .. كتب فى ديوان

(٤) انظر فى ابن أبى الشخباء معجم الأدباء لياقوت

١٥٢/٩ والنخبة لابن بسام (طبع الدار العربية للكتاب

بتونس القسم الرابع - المجلد الثانى) ص ٦٢٧ وابن خلكان

٨٩/٢ .

(١) نغمة الربحانة للمحبى (تحقيق عبد الفتاح الجلولى طبعه

الجلوبى ٦٠٥/٤

(٢) رضى : جبل بالمدينة

(٣) كرا : أجر

الرسائل للمستنصر صاحب مصر.. إلا أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء وأمرائه زمانه» ويقول عنه ابن خلكان : « صاحب الخطب المشهورة ، والرسائل المحبرة ، كان من فرسان النثر ، وله فيه اليد الطولى » . وبدون ريب كان أبرع كاتب قاهري في القرن الخامس الهجري ، كما تشهد رسائله الديوانية والشخصية ، واحتفظ ياقوت وابن بسام في الذخيرة بطائفة كبيرة منها ، وأكثرها رسائل شخصية بديعة ، من ذلك قوله في رسالة استعطاف : « المودات إذا كانت متينة العقود ، صادقة المشهود ، موضوعة على أصل عريق ، وأساس وثيق ، لم تحترمها الشبهة المُرْمُضة ^(١) ، ولم تزلزها الأباطيل المعترضة ، وإن تناقلتها ألسن مختلفة ، وعلفتها برود من اللفظ مفوَّقة ^(٢) ، ولما رأيت زيارة مولاي قد صارت مرقَّعة ، وجَنُوب ^(٣) مودته قد عادت مروَّعة ، وضرت أرى قوله متناقضا ، وماء البشر من وجهه غائضا ، من بعد ماعهدته :

تَنبِيْ طَلَاقُهُ وَجْهَهُ عَنِ وَجْهِهِ فَتَكَادُ تَلْقَى الثُّجَجَ قَبْلَ لِقَائِهِ
وَضِيَاءَ وَجْهِهِ لَوْ تَأَمَّلَهُ أَمْرُو صَادِي الْجَوَانِحِ ^(٤) لَارْتَوَى مِنْ مَانِهِ

لم أتجاسر على سؤاله عن العلة خوفا أن يعيب على الارتباب بوَّده ، ويتطرق سوء الظن على عهده ، فسألت من يعلم دفائنه ، ويخبر ظاهره وباطنه ، فأخبرني أن بعض الناس - ولم يُسمَّه - نقل إليه عني فشنَّ الغارة على وفاته ، وزلزل أواخى ^(٥) وده وإخانه ، فقلت : عتب ، والله ولاذنب ، وشكاية ولا نكايه ^(٦) . وأنا أحاكم مولاي إلى إنصافه ، لإسعافه ، وعدله ، لأفضله ، وما كان أجدره برفض قول الماحل ^(٧) ، وتغليب الحق على الباطل .. والآن فقد أَوْضَعْتُ وَأَوْجَفْتُ ^(٨) ، وتألَّفت مولاي واستعطفت ، فإن عادت ظلال وده مديدة ، وحبالُ كرمه محصورة ^(٩) جديدة ، فحسنُ بتلك الشائتل ، أن تجمع شمل الفضائل .

والسجعات تنزل عن الفم بخفة ورشاقة ، تشهد لابن أبي الشخباء بأنه كان كاتباً مجيداً حقاً ، وأن الكلم كان يطاوعه ، ليحيله درراً مختارة . وكان يزين سجعاته بمحسنات البديع من جناس

(٦) نكايه : غلبة وقهر .

(١) المرمضة : الموجعة .

(٧) الماحل : الساعى بالهمة .

(٢) البرود المفوَّقة : الثياب الرقيقة المخططة .

(٨) أوضع : سار سيرا سريعا ، ومثلها أوجف .

(٣) الجنوب : ريع لينة كالنسيم ، والاستعارة واضحة .

(٩) محصورة : محكمة متينة .

(٤) صادي الجوانح : عطشان .

(٥) أواخى : أواصر .

وطباق . وتكثر عنده الاستعارات المبتكرة الطريفة ، وكان يعرف كيف يفوص عليها ويستخرج لآلها النفيسة من أصدافها البراقة ، وطبيعى للقاضى الفاضل وللكتاب من بعده أن يعنوا بحفظ كلامه ويستحضروه فيما يكتبون ويصوغون . وله من رسالة يعاتب فيها بعض القواد .

« رأيت فلاناً عند نظرتي لى بالأمس قد قطَّب^(١) حاجبه ، وزعزع مناكبه ، فقلت : ماله ؟ أنزل إليه وحي ، أم عُصِب^(٢) به أمر ونهى ، أم قلَّ عقله فعقَّ نفسه وظلمها ، وجهل مقادير الأشياء وقيمها ، واعتقد أن الدنيا طوع حكه ، والفيطن صائب فهمه ، أم رأى الملائكة المقربين تشفعُ به ، والخور العين^(٣) تشكو لاجع حبه ، وثمار الجنة تدلَّت إلى يده ، ونار جهنم تُقتبسُ من زنده ، والكوثر يمدُّ من معينه ، والسموات مطوياتُ يمينه »

وهو عتاب مرير لهذا القائد الذى شمع بأنفه عليه ، وتعالى واستكبر استكبارا ، فضى يهزأ به ويسخر منه سخریات متعاقبة ، فهو ليس نبيا مرسلا . ولا أمراً ناهيا ، بل هو جاهل مغرور ، لا يعرف قيم الناس ولا أقدارها ، وكأنما ظن أنه الحاكم بأمره وأن عقله مجمع الفطن ، بل لكأنما توهم أنه نبي تشفع به الملائكة ، وأن الخور العين تشكو تباريح حبه ، وأن ثمار الجنة مدَّ يده ، ونار جهنم تقتبس من زنده الوارى المضطرم ، ومن معينه يستمد نهر الجنة ، أو أحد أنهارها : الكوثر . بل لكأنما توهم نفسه رب الكون ، وخال السموات مطوياتُ يمينه . وعلى هذا النحو تتوالى سخرياته ، يطن بها هذا القائد فى الصميم ، وفى آخر القطعة اقتباس واضح لآية سورة الزمر : (والسموات مطوياتُ يمينه) . ويكثر هذا الاقتباس لآيات القرآن الكريم وألفاظه فى رسائله ، كما يكثر الاستشهاد بالشعر وإنشاده فيها مازجا له بكلامه . وكلُّ ذلك وما تقدم من استخدامه للمحسنات البديعية وضعه الكتاب المصريون بعده شيعارا لهم وسُننا فى رسائلهم . وله من رسالة فى هجاء مضيف ومائدته .

« ولجتُ منزلا قد استعار من قلب العاشق حرّاً ورَهْجاً^(٤) ومن أخلاق مالكة ضيقا وحرجا ، كأنما زفرت فيه النار ، ونُقِطَ على جدرانها بالقار ، فجلست طويلا إلى أن حضر الإخوان ، وقُدِّم

(٣) العين : جمع عيناء : واسعة العينين جميلتها .

(٤) رهجا : غبارا

(١) قطب : عبس وضم حاجبه

(٢) عصب به : ضمَّ إليه .

الخَوَان^(١) ، فرأيت أرغفة قد أحكمت في الصغر والإلطاف ، ولم تتعوّذ^(٢) قط من الأضياف .. وثلاثة صحاف ، وانسعة الأكتاف ، بعيدة الأوساط من الأطراف ، قد جُعل في قرارة كل منها مالا يدفع السَّعْب^(٣) ، ولا تجده اليد إلا بالتعب ، فجُلنا جولة وعينه تطرف علينا شمالا ويمينا ، وتتفقد منا حركة وسكونا ، وقنا ولم نقارب الكفاف ، وقد ظُنُّ بنا الإسراف .

والسجع يطرد دائما عنده على هذا النحو من صفاء اللفظ ورصانته والقدرة البارعة على الملازمة بين السجعيات في الجرس ، مع الانطلاق والسهولة ، وكأنه يصدر عن النيل العذب وسلاسته . وهو بحق جدير بما أسبغ عليه الأسلاف من ثناء وإطراء .

ابن مَمَّاقِي^(٤)

هو أسعد بن الخطير مهذب بن مينا بن أبي المليح زكريا بن مَمَّاقِي ، سليل أسرة قبطية من أسيوط ، هاجرت منها إلى القاهرة في القرن الخامس الهجري ، وكان جده مَمَّاقِي جوهريا واشتهر بأنه كان يصبغ البِلُورَ صبغة الباقوت فلا يعرفه إلا الخبير بالجواهر . ويقال إن القصص من عمله كان إذا نودي عليه في سوق الصاغة تشوف نحوه العيون لجودته وحسن منظره . واتصل ابنه أبو المليح بوزير المستنصر بدر الجمالي أمير الجيوش ، ووظفه بديوان الإقطاعات وشئون المال ، وكسب بعده لابنه الأفضل ، وظل هذا العمل الديواني في بيته ، يتولون ديوان الإقطاعات أو ديوان الجيش أو ديوان المال ، ولعلها جميعا كانت ديوانا واحدا متداخلا . وتولَّى هذا الديوان لآخر أيام الدولة الفاطمية الخطير مهذب ، حتى إذا أسندت الوزارة في آخر أيام العاضد الفاطمي إلى أسد الدين شيركوه نراه يُسلم هو وأولاده على يده . وأقره أسد الدين على ما بيده من ديوان الإقطاعات ، وقيل بل ديوان الجيش . وكانا متداخلين كما ذكرنا . ومعروف أن أسد الدين شيركوه ولي الوزارة المصرية

للقفلى ٢٣١/١ وخط المقيزي ٥٧٧/٢ والنجوم الزاهرة ١٧٨/٦ والبداية والنهاية لابن كثير ٥٢/١٣ وشذرات الذهب ٢٠/٥ وحسن المحاضرة ٥٦٥/١ وطبقات الشافعية للنسكي ٢٤٣/٨ ولأبيه الخطير ترجمة بعده في الحريدة وقبله في المغرب .

(١) الخوان : المائدة عليها الطعام
(٢) كناية عن أن الأضياف لم يلمسوها
(٣) السب : الجوع الشديد
(٤) انظر في ابن مَمَّاقِي وترجمته ورسائله الحريدة (قسم مصر) ١٠٠/١ ومعجم الأدياء ١٠٠/٦ والمغرب (قسم القاهرة) ص ٢٦٩ وابن خلكان ٢١٠/١ وإنباه الرواة

سنة ٥٦٤ وكان أسعد في العشرين من عمره فأسلم وحسن إسلامه وهو لا يزال في ريعان شبابه ، وكان ساعد أبيه وعونه طوال عمله الديواني إلى وفاته سنة ٥٧٧ .

وكان القاضي الفاضل يعجب بابن مماتي ويسميه بلبل المجلس لظرفه ، مما جعله يعينه ناظر الدواوين بمصر مع إسناد ديواني الجيش والمال إليه ، وظل له هذا العمل بقية مدة صلاح الدين وابنه العزيز والأفضل ، حتى إذا ولي السلطان العادل بن أيوب سنة ٥٩٦ واستوزر الصفي بن شكر أخذ الجوى يكفهر بينه وبين الوزير ، بسبب ما كان يصدر منه في حقه أيام عمله في الديوان معه ، فلم تمض مدة طويلة حتى أخذ يدبر عليه المؤامرات ، وصودرت أمواله . واستمرت فترة نحو عام ثم احتال في الفرار إلى الشام ، وأبعد في فزاره حتى نزل حلب سنة ٦٠٤ على سلطانها الظاهر بن صلاح الدين فأحسن استقباله ، وجعل له راتباً معلوما وظل يسبغ عليه عطايه حتى توفي هناك سنة ٦٠٦ .

وصنف ابن مماتي مصنفات كثيرة عدل له ياقوت في معجمه منها أكثر من عشرين مصنفًا ، منها مؤلفات ومنها مختارات شعرية من بعض الدواوين أو من كتب الموسوعات الشعرية مثل الذخيرة لابن بسام . ومن مصنفاته « الشيء بالشيء يذكر » ويقال إن القاضي الفاضل أعجب به حين عرضه عليه وسماه سلاسل الذهب . ومن أهم مؤلفاته كتاب قوانين الدواوين الذي نشره بمصر عزيز سوريال عطية في جزء واحد ، ويبدو أنه مختصر للكتاب إذ يقول المقرئ في خطه : « كتابه قوانين الدواوين صنفه للملك العزيز فيما يتعلق بدواوين مصر ورسومها وأصولها وأحوالها وما يجري فيها ، وهو أربعة أجزاء ضخمة ، والذي يقع في أيدي الناس جزء واحد اختصره منها غير المصنف ، فإن ابن مماتي ذكر فيه أربعة آلاف ضيعة من أعمال مصر ومساحة كل ضيعة وقانون ربيها ومتحصلها من عين (نقد) وغلة » . ومن أهم مؤلفاته تهذيب أفعال ابن طريف في اللغة ، ويقول القفطي في إنباه الرواة : « أجاده ، وأتى فيه بالحسن وزيادة » ومن أجله ترجم له بين اللغويين والنحاة . وله كتاب اختار العامية لغة له ، هو كتاب الفاشوش في حكم قراقوش ، وسنعرض له في غير هذا الموضع . وكان له ديوان شعري سقط من يد الزمن . ونظم سيرة صلاح الدين كما نظم كتاب كليله ودمنة شعرا . وكان أبوه الخطير شاعرا كما تدل على ذلك ترجمته عند الحماد وفي المغرب .

وكان ابن مماتي يحسن الكتابة كما يحسن الشعر ، وفيه يقول الحماد : « أحد الكتاب في الديوان النفاضلى ، ذو الفضل الجليلي ، والشعر العلي ، والنظم السيوي ، والخواطر القوي ، والسحر

المانوى ^(١) ، والروى الروى ^(٢) ، والقافية القافية ^(٣) أثر الحسن ، والقرينة المقترحة صورة اليمن ، والفكرة المستقيمة على جدد ^(٤) البراعة ، والفتنة المستمدة من مدد الصناعة . وبعد أن أشد العباد طائفة من أشعاره روى فصولا من رسائله الشخصية تدل على براعته الكتابية بجانب براعته الشعرية مستهلا لها بقوله : « ومن نور ^(٥) نثره البديع ، ونور فجره الصديق ^(٦) وغرر درره النصيحة ^(٧) ودرر غرره الصنيعة ^(٨) ، ما تحذى ^(٩) له بهائم القائم . وتتحذى ^(١٠) به كرائم المكارم ، ويرتفع الحسن في روضه ، وتكرع الحسنة من حوضه ، وتغبط الآداب بدابه ^(١١) ، وترتبط الأبواب ببابه . »

ومن طريف مادونه له العباد فصل من رسالة شخصية يصور فيها فراقه لصديق في إحدى الأسميات قائلا :

« فصلت عنه في أخريات النهار ، وقد ظهر في أطراف الجدران لفرق ^(١٢) فراق الشمس اصفرار ، فلما ذهب ذهب الأصيل بنار الشفق ، ولبت المشارق السواد لما تم في المغرب على الشمس من الفرق ، وأقبلت مواكب الكواكب في طلب النار ، كدراهم النثار ^(١٣) وتشابهت زواهرها - وإن اختلفت في الأسحار - بالأزهار في الأشجار ، وتكلف القمر الموافقة فظهر على وجهه الكلف ^(١٤) ، ومرت به طوالع النجوم فلم يستخبرها حسدا فأعرب عن غدر الخلف بالسلف ، وظهر الوجوم ، في وجوه النجوم ، وعيل صبر التشرين ^(١٥) فواحد طائر يحوم ، وآخر واقع لا يقوم . ولم تزل متلاحقة متسابقة لتقفو الأثر وتسمع الخبر ، إلى أن بدا سوسن الفجر ولاح ، وابتسم ثغر الصباح عن الأقاح ^(١٦) ، وكاد ثعلبه يأكل عنقود الثريا ، وبرزت الغزالة من أس الكناس ^(١٧) طلقة الحيا . »

(١٠) تحذى : تساق بالأراجيز والأشعار .

(١١) دابه : تسهيل دأبه أى غطه (١٢) فرق : جزء

(١٣) النار : ما يثر على العروس في الزفة من الدرام

(١٤) الكلف : ما يلو وجه القمر أحيانا من كدرة

(١٥) النيران : نجان أحدهما يسمى النيران الطائر ويسمى الثاني النيران الواقع

(١٦) أقاح : جمع أقحوان وهو نبت زهره أبيض وورقه

كأسنان المنشار وهو الأراولة ويشبه به الاسنان .

(١٧) الغزالة : الشمس . الكناس : بيت الغزال في

الشجر يستتر به . طلقة الحيا : بشة الوجه .

(١) المانوى نسبة إلى مانى مؤسس مذهب المانوية الفارسي قبل الإسلام

(٢) الروى الأولى : الحرف الذى تبنى عليه القصيدة والروى الثانية من الماء أى شاق الطة .

(٣) القافية الأولى : نهاية البيت في القصيدة ، والقافية الثانية من قفا الشيء أى تبعه .

(٤) جدد : نهج . مستر (٥) نور : زهر

(٦) الصديق : المنشق نورا (٧) النصيحة . الناصحة

(٨) الصنيعة : البديعة .

(٩) تحذى : تقطع . بهائم : مبهات . القائم : التعاويد

وبدل هذا الفصل على أن العباد الأصهباني كان محققا كل الحق في التنويه ببراعة ابن ممتق
 الكتانية ، وهي براعة تكاد تبدو في كل سبعة من سجمات هذا الفصل ، فأضواء الشمس في
 الأصليل تعكس بصفرتها على أطراف الجدران فرقا وفزعا لهول الفراق . وتواري ذهب الأصليل
 وراء نار الشفق المتنازع ، ولبست المشارق السواد على الشمس الغريقة في المغارب . وأقبلت
 مواكب الكواكب ، وجيوشها تطالب للشمس بالثار ، متفرقة ومتجمعة وكأنها نثار الدراهم في
 الأعراس ، أو كأنها الأزهار على الأشجار في الأسحار ، وتكلف القمر أن يظهر وحده لغياب
 الشمس أخته فظهر الكلف على وجهه ، ومرت به الكواكب وطوالها فلم يسألها ما الخبر ، حسداً
 وغدراً كما يغدر الخلف بالسلف . وبدأ الوجوه في وجوه النجوم ، وكاد النيران أن يفقد صبرها
 فواحد طائر يحوم وآخر واقع لا يقوم . ولم تزل النجوم متلاحقة ، إلى أن بدا سوسن الفجر وزهره
 الأبيض المشرق ولاح ضياؤه ، وابتسم ثغر الصباح عن أضواء كالآفاح . وطالما شبه الشعراء
 مجموعة نجوم الثريا بالعنفود . ويستغل ذلك ابن ممتق ، كما يستغل تسمية الشعراء للشمس الغزالة
 فجعلها تستر ليلا وراء الأفق في كناس ككناس الغزال والظباء في الشجر . ومراعاة النظر واضحة
 في السجمات الأخيرة . ويشيع في الفصل كله حسن التعليل ، كتعليل ابن ممتق الرائع لصفرة
 الأصليل على أطراف الجدران ، وتعليله لانتشار الظلام في بواكير الليل على المشارق حزناً على غرق
 الشمس ، وهو حزن تبعه لبس السواد ، ومن هذا اللون أيضا تعليله لكلف القمر لتكلفه الحزن
 على غرق الشمس . ويتأدى ابن ممتق مع مراعاة النظر ، فيجعل القمر لا يسأل الكواكب عن
 مصير الشمس حسداً يستشعر فيه من تلقاء نفسه غدر الخلف المعروف بالسلف . ومن هذا اللون
 أيضا ما علل به طيران أحد النسرين ووقوع صاحبه لما قدما من صبرهما . وتلاحق في تضاعف
 ذلك الاستعارات ، وما يوشى به سجمات من الجناسات والطباقات . وله من صدر مكاتبة :
 « لم يزل العبد لما عرض من إعراض المجلس .. ذا زفرات سوام تنصرم ^(١) ، وعبرات هوام
 تنصرم ^(٢) ، وعبارات عن بسط عذره تعثر بالكلام عيا فيندم ^(٣) ، بالصمت عن أن يتحرز
 ويتحرم ^(٤) ، وأفكار تنزّه عن إساءة الظن بمودته فما يتكدر حتى يتكرم ، فكم تناول القلب
 جلده ، فجلده بالقلق لما تجاوز حده وحده ^(٥) ، وأجرى من سوابق دموعه عسكريا أجرى فشق

(١) ينحرم : يحده حراما

(١) سوام : لازمة لا تبرح . تنصرم : تشتغل

(٥) حده : ضربه بالسياط

(٢) هوام : سائلة . تنصرم : تنقطع

(٣) يتدلم : يتوسل

خَدَّهُ وَخَدَّهُ^(١) .. إلى أن بدت صحيفة وجه صَبْرِهِ مسوَّدةً ، وتمنى لو كان الموت قبل إخلافه وعَدَهُ ، وإخلافه وَدَّهُ^(٢) وَدَّهُ^(٣) ، حتى جَنَى وَرَدَ ورود كتابه الكريم من انتظام شوك انتظاره ، ورفع ناظره بقدمه عليه على كافَّة أمثاله وأنظاره ، فعلم أن عَلم المودة قد رُفِع ، وموصول جبل الجفوة قد قُطِع ، وكاد القلب يخرج لمصافحته لو استطاع نفاذاً ، واجتمعت فيه أمانى النفس ، فاتخذته دون جميع الملائد مَلَاذًا^(٤) . وتناوله بيد الإجلال ، وفَضَّهُ بيد الإدلال ، فوجده منظوماً على خطِّ كالكتوس المرصعة لما لاح مداده مُدَماً ونَقَطه حَبَّاً . وألفاظ تتيح للخواطر طرباً ، وتعريضاتٍ لو كان التصريح فضة لكانت ذهباً ، ومَنَى مالاحت سحائبها حتى وَكَفَتْ^(٥) وأبَاد ما استكفت فواضلها حتى عَمَّت وَكَفَتْ .

ووشى الجناسات والاستعارات واضح في هذا الفصل ، فالزفرات تنصَّرم والعبرات تنصَّرم بينا يتدم بالصمت ويتحرم . ولانلبث أن تلقانا جناساته التامة . فالقلب يلوذ إزاء إعراض صاحبه عنه في مجلسه بجلده فيضربه بأسواط القلق ، حين تجاوز حدَّهُ ومنتهاه ، ويحدُّه كما يُحدُّ الجناة ، وتجري سوابق دموعه فتشق خده وتحدُّه أى تشقه وتؤثر فيه ، وتخلُق وتبلى مودة صاحبه فيتمنى لو كان الموت ودَّهُ وزاره . ويعود ابن ممانى إلى هذا الجنس التام بين « الملائد وملاذ » كما يعود إليه في نهاية الفصل حين وكفت السحب أى أمطرت وعمت فواضل صاحبه وكفت من الكفاية . وتلقانا في الفصل مراعاة النظر والطباق ، وكأنما كان ذلك شعاراً له في نثره . ومن طريف مآثر عنه من تصويره لوفاء النيل قوله .

« وأما النيل المبارك فإنه عَمَّ الْبَقَاع^(٦) ، وطَبَّق^(٧) ، الْبَقَاع ، وانتقل من الإصبع للذراع ، حتى لم يُلَفَّ بمصر قاطع طريق سواء ، ولا موهوب مرهوب إلاياه . »

وهو يصور في هذه الكلمات القليلة فيضان النيل بل طوفانه الذى لا يقاس بالإصبع وإنما بالذراع والذى علا موجه مرتفعات الوادى وجميع البقاع ، حتى قطع الطرق وأخذ بخناق الدور والسكان ، ورهبه الناس وطلبوا منه الأمان . ولعل في كل ما قلنا ما يصور قدرة ابن ممانى البيانية

(٥) وكفت : أمطرت ، وكفت في آخر الفصل من

الكفاية

(٦) البقاع هنا : مرصعات وادى النيل

(٧) طَبَّق : عمَّ

(١) خدّه : شقّه وأثر فيه

(٢) إخلاق الشئ : جعله باليا

(٣) ودّه : زاره

(٤) ملاذاً : ملجأ

وأنه كان جديرا بأن تعنى كتب الأدب والتراجم . بشعره ونثره ، وتحمل إلينا باقات كثيرة من رسائله .

فخر الدين ^(١) بن مكانس

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن عبد الرزاق بن إبراهيم بن مكانس ، من سلالة أسرة قبطية ، ولد لأبيه سنة ٧٤٥ بالقاهرة . وكان الأب مسلما كما يتضح من اسمه ، وكان من الكتاب في الدواوين ، فنشأ ابنه على غزاره ، وكان ذكيا ذا ملكة خصبية ، فسال الشعر مبكرا على لسانه . وصحب برهان الدين القيراطي وبدر الدين البشتكي الشاعر أحد تلاميذ ابن نباتة ، وعنه روى شعره ونثره . وكان حنفي المذهب . واحتل سريعا مكانة أدبية بين أقرانه في القاهرة ودواوينها السلطانية ، ورقى بها إلى منصب ناظر الدولة ، وغيره من المناصب الرفيعة . وغضب عليه السلطان برقوق (٧٨٣-٨٠١) فلت مرة فأمر بمصادرته وتأديبه على خشبة السُّرياق منكسا على رأسه ، فقال :

وما تعلَّقتُ بالسُّرياقِ متنكسا لِجَرمَةٍ أوجبتُ تعذيبَ ناسوقِ ^(٢)
لكنني مذ نفثتُ السُّحرَ من أدبي عُلقتُ تعليقَ هاروتِ وماروتِ

ويدل البيتان على ظرفه . وعفا عنه السلطان برقوق وأعادته إلى العمل ، ثم بعينه وزير دمشق ، فأقام بها مدة . وفي صحبة السلطان برقوق دخل حلب ، وطارح فضلاءها كما طارح فضلاء دمشق . وطلبه السلطان برقوق بعد عودته إلى القاهرة ليلي الوزارة بالديار المصرية ، غير أنه توفي قبل دخوله القاهرة ، ودفن بها سنة ٧٩٤ قبل أن يكمل سنته الخمسين . وخلف ديوان شعر كبير ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطتان منه إحداها بخط ابنه مجد الدين وكان شاعرا بارعا على شاكلة أبيه ، وقد أنشدنا بعض شعره البديع في غير هذا الموضع .

وأشاد بفخر الدين كل من ترجموا له ، فيقول ابن حجر في الدر الكامنة : « كان قوى الذهن حسن اللوق حاد النادرة يتوقد ذكاء » ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « كان أدبيا فاضلا شاعرا

٣١٩ ، ٣٣٠ ، ٤١١ ، ٥٤٧

(١) انظر في ابن مكانس وترجمته ونثره وشعره الدر

الكامنة ٤٣٨/٢ والنجوم الزاهرة ١٣١/١٢ وصبح الأعشى

٢٦٧/١٤ وخزانة الأدب للحوى ص ١٩ ، ٢٢٤ ،

(٢) لجرمة : لجرم أى للذنب . ناسوق : جسد .

فصيحاً بليغاً .. وهو أحد فحولة الشعراء بالديار المصرية في عصره ، وشعره في غاية الحسن والرفقة والانسجام ، ودنوان شعره مشهور كثير الوقوع بأيدي الناس » وكان كثير التورية فيه على نحو ما يتضح مما رواه له مترجموه وخاصة الحموى صاحب خزانة الأدب . وله رسائل شخصية تدل على زوعته البيانية ، من ذلك رسالة احتفظ بها القلقشندي في صبحه كتب بها إلى بدر الدين البشتكي في غيبته عن مصر بدمشق سنة ٧٨٤ وتصادف أن كان فيضان النيل عالياً وزاد زيادة مفرطة ، فرأى أن يصور له ذلك قائلاً :

« رَبَّنَا اجْعَلْنَا فِي هَذَا الطوفان من الآمنين ، وسلاماً على نوح في العالمين . مات أخيراً مولانا بحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء ؟ .. فإنه قارب النيل أن يمتزج بنهر الحجر بل وصل وامتزج . وأرانا من عجائبه ما حقق أنه المعنى بقول القائل : حَدَّثَ عن البحر ولا حرج .. وسقى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت أصعب كاس ، وسئل ابن أبي الرِّدَاد عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ، امتلاً الياب^(١) . وهال العُباب ، كال فطْفُف ، وزار فما خَفَّف ، جمع في صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح ، ودخل الناس إلى أسواق مصر وخصوصاً سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح^(٢) ، وغَدَاً التيار ينساب في كل يَم كالألثم^(٣) ، وأصبحت هضاب الموج في سماء البحر وكأنما هي قطع الغيم ، واستحات الأفلاك فكل بُرْج مائى ، وتغيّرت الألوان فكل مافى الأرض سماءى .. وتحالى إلى أن أقرف^(٤) الليمون الأخضر . واحمَرَّت^(٥) عينه على الناس فأذاقهم الموت الأحمر . ولقد صعب سلوكه وكيف لا وهو البحر المديد ، وأصبح كل جندول منه جعفر^(٦) ويزيد .. ولكم قال الهرم للسَّارِن ، ياسارية الجبل ، وأنشد وقد شمر ساقه للخوض : أنا الغريق فما خوفي من البلل . وكم قال أبو الهول : لا هول إلّا هولُ هذا البحر ، وقال المسافرون : مارأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء^(٧) النهر .. ولورآه مولانا وقد هجم على مصر فجاس خلال الديار . ودخل إلى المعشوق فتركه كالعاشق المهجور لم يُر منه غير الآثار ، لبكى بعينى عُرْوَة^(٨) ، وأوى من الرِّصد إلى ربوة .. وكل سفينة قد علت على وجه الماء ، وارتقت لارتقاء البحر إلى أن اختلطت بالسماء ، وقد قالت لها أترابها عند الفراق إلّا ترجعى ،

(١) الباب : القفر والخراب .

(٦) الجعفر : النهر الصغير .

(٢) يريد السفن

(٧) ما وراء النهر : ما وراء خراسان في شمالها الشرق

(٣) اليم : البحر . الأيم : الحية الذكر

(٨) عروة هو عروة بن جزام العاشق المشهور في صدر

(٤) أقرف هنا : عطّر ، من المقرقة المعروفة طيبة الرائحة

الإسلام

(٥) احمرت عينه : كتابة عن الحمرة في طمى النيل

وقلنا لها نحن على سبيل التفاؤل : (ياسماء ألقى^(١)) .. ولقد طار التَّسْرُّ مبلولَ الجناح ، ودنا نهر
الحجرة من السُّكَّارى بالشخاتيت^(٢) إلى أن كاد يدفعه من قام بالراح ، ونرجسُ البساتين وقد
ايضت عيناه من الحزن فهو كظيم .. والورد وقيل له مالك من آس ، وغُصْنُ البان وقد قيل له
طوبى لمن عابلك ولا باس .

ونكتفى بهذه المقتطفات من الرسالة فإنها طويلة ، وهى رسالة بديعة فى وصف فيضان النيل
وسمو أمواجه وارتفاعها إلى أعلى الأعلى فى شولطىء النيل حتى كادت أن تمتزج بالحجرة فى السماء
كما يقول ابن مكناس ، فإذا الحادى للإيل يلتقى بالملاح ، وإذا الناس يدخلون إلى أسواق مصر
والفسطاط على سفن ذات ألواح . فقد انسابت غدرانه وأمواجه إلى الطرقات والشوارع وتعال
هضاب أمواجه إلى السماء حتى لكأنها قطع السحاب . ولم تعد هناك أرض وسماء ولا أفلاك
ووهاد ، وحلا النيل وتظرف حتى عطرَّ الليمون الأخضر ، واحمرت عينه إشارة إلى طميه
الأحمر ، فأغرق الناس وأذاقهم الموت الرُّؤْم . ويستمر ابن مكناس فى هذه الاستعارات ،
فيخلط بين النيل وبين وزن المديد الصعب فى الشعر وبحره وكذلك بين جداوله والجعفر أى النهر
الصغير . ويستعير الكلمة الماثورة عن عمر بن الخطاب وهو على المنبر حين هتف بقائده سارية وهو
يحارب فى الشام فقال له ياسارية الجبل أى الزمه ويقال أن الريح حملت الكلمة إلى سارية .
وما أروع تصويره لهرم الجيزة وقد شمر ساقه للفيضان حين علا إلى جدرانه فقال متمثلاً بشطر من
الشعر : أنا الغريق فما خوفى من البلبل . وقد ورى بكلمة ماوراء النهر فهو لا يريد ماوراء النيل من
بلاد السودان وإنما يريد ماوراء خراسان فى أوزبكستان الحالية وكانت تسمى بلاد ماوراء النهر .
والمعشوق بستان ورباط عظيم كانا بظاهر القاهرة . وقد اقتبس من الحديث عن الطوفان فى
القرآن الكريم : (ياسماء ألقى) . وتلقانا فى الرسالة آيات أخرى وأشعار كثيرة مثورة . وما أسرع
ما جاء باقتباس من سورة يوسف عن أبيه وقد أسف عليه : (وايضت عيناه من الحزن فهو
كظيم) . وورى فى كلمة آس فهى تحمل معنيين : الآس زهر وردى أو أبيض ، والآسى الطيب
المداوى . والاستعارات بديعة هى وما تتحلّى به من زخارف البديع وحلاه ومحسناته من جناس
وظباقات ومراعاة نظير وحسن تعليل .

ووشى شخص قبروانى ضرير إلى أبى بكر بن العجمى أحد الكتاب النابهين فى ديوان الإنشاء

(٢) الشخاتيت : لعلها القوارب .

(١) ألقى : أمسى عن الماء .

بأن صديقه ابن مكانس يقول عنه إنه يستعين بكلام غيره ، فتأذى ابن العجمي من ذلك . وتأذى ابن مكانس من كذب الناقل فكتب إليه من رسالة :

« (ليس على الأعمى حرج) بلغني - ما بلغ سيدنا ومولانا الإمام العالم العلامة الأديب الشاعر الناظم النائر المحقق الأمة الكاتب الحجة زين الدنيا والدين ، قرة عين الكرام الكاتبين ، لازال زينة يحلّي به العاقل ، ويُظَلّ تحت جناح أدبه القائل ^(١) - من غيبة ذلك الضير ، مالاخشي الله فيه بظهر الغيب ، ونقل إلى المسامع الكريمة مالا يحتاج للاعتذار عنه لما فيه من الرّيب ، ولكن لاغناء لسيف ذهن المملوك الكليل من التنصل ، ^(٢) ولا بد من نهلة اعتذار على سبيل التعلل .. ولو اختلف الأدباء على إمام لأهل هذه الصناعة مطهر من الأرجاس ^(٣) ، لقال لهم لسان البلاغة مروا أبا بكر فليصل بالناس .. والمستول من إحسانه أمران : أحدهما الجواب فإنه يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة ، والآخر ردّ كل فاسق عن الباب العالي فن أبا بكر أول من تصلّب ^(٤) في الردة ، وبلغ المملوك أن هذا الضير قصد بعض الأصحاب برمية كهذه فأصمى ^(٥) ، وتردّد إليه مرة أخرى فـ (عبّسَ وتولّى أن جاءه الأعمى) » ..

والسجعات خفيفة رشيقة مع مايزينها من الاستعارات والجناسات ، وفي كلمة « القائل » تورية واضحة ، إذ لا يريد أن ابن العجمي يُظَلّ تحت جناح أدبه الأديب المتكلم القائل ، وإنما يريد القائل من القيلولة ووقتها الحار في الظهيرة ، فهو غوث العائدين وملاذ المعوزين المحتاجين . واستغل اسمه أبا بكر في التورية باسم أبي بكر الصديق متلفظا بذكر حادث صلاته بالمسلمين نزولا على أمر الرسول ﷺ له حين اشتد به المرض إذ قال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » . وعاد ابن مكانس إلى التورية بأبي بكر الصديق حين طلب من ابن العجمي أن لا يفتح بابه للواشي مقتديا في ذلك بالصديق حين تشدد في حروب الردة على نحو ما هو معروف . ولم يلبث أن اقتبس من الذكر الحكيم آية تصور ما ينبغي على ابن العجمي من لقاء الواشي لقاء متجها على نحو ما تصور ذلك الآية : (عبّسَ وتولّى أن جاءه الأعمى) . ولعل في كل ما قدمت ما يصور خفة روح ابن مكانس وعذوبة سجعه وما يشيع فيه من سلاسة .

(١) القائل : المتعب من القيلولة وهي وسط النهار

(٤) تصلب : تشدد

(٢) التنصل : التبرؤ

(٥) أصمى السهم : أصاب إصابة نافذة

(٣) الأرجاس : جمع رجس وهو الإثم

المقامات

معروف أن المقامة حديث قصصى قصير يصور كيف يحتال أديب متسول على سامعيه بسجعه وأساليبه الرشيقه ، فيستخرج الدراهم والدنانير من جيوبهم ، وهو جَوَّاب آفاق يظهر في بلدان كثيرة أديبا متسولا يخلب الجماهير ببيانه وبلاغته ، ويديع الزمان الهمداني هو أول من ابتكر هذه الأحاديث القصصية ، على نحو ما هو معروف عن مقاماته ، ونسج على منواله الحريرى في مقاماته المشهورة .

وأكبَّ الناس على مقاماتها إكبابا شديدا مما دفع كثيرين من الأدباء في الأقطار العربية المختلفة إلى محاكاتها ف هذا الفن البديع ، تارة يبنونه على الشحاذة الأدبية مثلها ، وتارة يستقلون عنها مكتفين فيه بضرب من الحديث القصصى الفكه . وقد يتركون القصص جانبا ، ويبنون المقامة على الوعظ أو على عرض مسائل علمية ، أو على وصف الحيوانات ، أو وصف البساتين والحوار بين الأزهار ، وغير ذلك من موضوعات شتى . ولظافر الحداد الذى ترجمنا له بين الشعراء والذى توفى بعد الحريرى بنحو عشر سنوات مقامة ^(١) ، صوّر فيها نفسه وقد أصبح ذات يوم تائفا إلى لقاء بعض الأدباء ، ومطرته الح ، لم يلبث أن جاءته منهم رفقة ، فلتقاها بالبشر والسرور وأخذ في الحديث معهم ، حتى دن وقت الغداء فأسرَّ إليه غلام أن ليس عندهم للإنفاق إلا الإملاق ، وبينما هو يفكر فى وسيلة لإنقاذ الموقف إذا الباب يقرع وإذا رسول شواء كان قد خلصه من حبس الشرطة يرسل إليه بإناء كبير مليء بأرز ولحم وسكر . وبعد حوار مع غلامه هل يرجعه للشواء أو يقبله ، يقنعه بقبوله . ويشيع الضيفان ، ولا يجد عنده شيئا من فاخر الحلوى يقدمه لهم . ويقدم قصيدة يعتذر بها عن ضيق حاله ، ويستفزهم الضحك والطرب ، ويعودون إلى حديثهم العذب حتى غروب الشمس ، ويستهل ظافر مقامته على هذا النمط :

« أصبحت ذات يوم فى منزلى ، وقد كلَّ جَنَانِي وَبَنَانِي وَلِسَانِي وَإِنْسَانِي ^(٢) ، من الدَّأب فى الطلب ، والإكباب على الكتب ، ومتابعة المراجعة ، فى النسخ والمطالعة ، بين معنى أحكمه ، أو

(٢) إنسانى : يريد إنسان عينه

(١) انظر ديوان ظافر ص ٣٤٩

خطُّ أرقه^(١) ، فتأقت النفس إلى الإحاض بمفاكهة أديب ، والارتياض بمذاكرة لبيب ، وإذا الغلام قد دخل وأسرع ، وقال : الباب يُقرع . قلت له : ما الشأن ؟ فقال جماعة من الإخوان ، منهم فلان ، فذكر لي كل صديق صدوق ، ورفيق رفيق ، قلت : وبمك عَجَلُ بفتح الباب ، وأدُن للأحباب ، فهم نزهة النفس ، وثمرة الأنس .

وتمضى المقامة بهذا السجع الخفيف ، الذى يكاد يطير عن الأفواه طيارا بعدوبته وقصره ، وحسن الاختيار للفظه . ويلقانا بأخرة من أيام الدولة الفاطمية الرشيد^(٢) بن الزبير المتوفى سنة ٥٦٢ وهو أخو المذهب الذى ترجمنا له بين الشعراء وكان شاعرا مثله ، ويقول ابن خلكان له ديوان شعر ، وكان من أهل الفضل والنباهة والرياسة صَنَّف كتاب جِنَان الجَنَان ورياض الأذهان فى شعراء عصره ، وكان تكملة لكتاب اليتيمة للثعالبي وسقط من يد الزمن ، وقال العماد الأصهباني عنه : « أوحده عصره فى علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعيات والآداب » ويقول ياقوت عنه : « كان كاتباً شاعراً ، فقيهاً نحويًا لغويًا عروضيًا مؤرخًا منطقيًا . مهندسًا ، عارفًا بالطب والموسيقى والتنجيم متفنناً » . ومن كتبه كتاب مَنِيَّة الأملَى وبلغة المدعى ، وهو موسوعة علمية . وصوّر معارفه الكثيرة فى مقامة تسمى المقامة الحصصية^(٣) ، استعرض فيها جوانب من معارفه العلمية الواسعة ، وهو يدير فيها الحوار بينه وبين طائفة من العلماء بادئا بعالم نحوى موردا عليه من النحو ومسائله ما يبهره . ويصنع نفس الصنيع بعالم بلاغى ، ويتوالى حواراه أو حديثه مع علماء العروض والفقه وأصوله والتفسير والتأويل والفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والرياضة وعلم الفلك والهيئة والأجرام والكواكب العلوية وعلم الطب . حتى إذا أنهى المقامة تلاها بشرح لما جاء فيها من مسائل هذه العلوم ومصطلحاتها . والمقامة تموج بالسجع ، من ذلك قوله فى مطالع مقامته ناعيا على من لا يعرفون سوى علم أو علمين ويعمدون إلى التزئى بزى الزهاد والصوفية احتيالا على الناس ليسبغوا عليهم من أموالهم ، وهم لا يقدرُونَ العلوم حتى قدرها فضلا عن التغلغل إلى مسائلها ومشاكلها :

« أحسبتم يا أعلام الضلال أن كل من نظر فى علم أو علمين وحفظ مسألة أو مسألتين ثم قَصَّر سِرِّبَاله^(٤) ، وقصَّ سِبَاله^(٥) ، مظهرًا للنسك والزهادة ، متعرضا للاستفادة . فى معرض

(٣) من هذه المقامة مخطوطة بدار الكتب المصرية

(١) أرقه : أكتبه

ومخطوطتان بمكتبة الإسكندرية

(٢) انظر فى الرشيد وترجمته الخزينة (قسم شعراء مصر)

(٥) سِبَاله : شاربه

(٤) سِرِّبَاله : ثوبه

٢٠٠/١ وابن خلكان ١٦٠/١ والشذرات ١٩٧/٤ ، ٢٠٣

الإفادة ، يستوهب بذلك الطعام ، ويستجلب الحُطام ^(١) ، ويحب الحرام ، ويسمى بالشيخ الإمام ، قد صلح لأن يفصل بين العلوم ، ويميز بين المحمود منها والمذموم .

والمقامة كسابقتها ليس فيها أديب شحاذ يروى حيله وما يحسن من الأساليب الأدبية ، فقد تحولت من بعض الوجوه إلى ما يشبه الرسائل إذ تناول موضوعا يحل صاحبها فيه محل أبي الفتح الإسكندري عند بديع الزمان وأبي زيد السروجي عند الحريري .

ويعرض الأدفوى في الطالع السعيد طائفة من هذه المقامات أو الرسائل على السنة كتابها من أدباء الصعيد ، من ذلك مقامة ^(٢) أو رسالة لمحمد بن يوسف بن نحرير المتوفى بعد سنة ٦٦٥ يمدح فيها أميراً ويصف خروجه إلى الصيد ، من ذلك قوله فيها :

« خرج يوما مامع أناس ، وصل برهم بليناس ، كل منهم يهتر للأكرومة ، ويأوى إلى أشرف ^(٣) أرومة ، على خيل مسومة ^(٤) ، مثقفة مقومة ، ما بين جون أدهم ^(٥) ، أذكى من فارسه وأفهم ، إذا زاغ عن سينان ، أو انعطف لعنان ، وأشهب كرم ، له سالفه ريم ^(٦) ، كأنما خلق من عقيق أو تردى برداء شقيق ، إن أوردته الطراد ، أوردك المراد ، وهملاج ^(٧) إن زجرته ألب أديمه ^(٨) ، روضة بهار ^(٩) ، ينظر في ليل كالنهار ، ينساب انسياب الأيم ^(١٠) ، ويمر مرور الغيم ، لا ينبه النائم إذا عبر به ، ولا يحرك الهواء في سربه ، أخف وطأً من طيف ، وأوطأ من مهاد الصيف .. ولم يزل بنا المسير ، وكل منا في طاعة صاحبه أسير ، إلى أن قصدنا واديا ، كان لعيوننا باديا ، فما قطعنا منه عرضا ، حتى أتينا أرضا ، كأنما قرش قرارها زبرجد ، وصيغت ألوانها من لججن وعسجد .. تهدي للناشق ، أنفاس المعشوق للعاشق » .

والمقامة على هذا النحو قطع من الوصف المسجوع البارع للخيال وللكلاب الصيد .

(٦) ريم : طلي أبيض . والفرس الأشهب : يتخالط بياضه

سواد أو حمرة

(٧) الهملاج : الفرس في سيرة بختره .

(٨) أديمه : جلده .

(٩) بهار : زهر أبيض .

(١٠) الأيم : الحية الذكرك .

(١) الحطام : متاع الحياة

(٢) الطالع البعيد للادفوى (طبع مطبعة الجمالية) ص

٣٦٧

(٣) الأرومة : الأصل ، الأكرومة : إكرام

(٤) مسومة : مطعمة لأصالتها

(٥) جون أدهم : أسود

وتكثر المقامات في أيام الممالك ، وتأخذ طابع المناظرات والمفاخرات ، وكأنما تُنسى أصلها عند الهمداني والحريري نهائياً ، فلا بطلٌ صاحب حَيْلٍ ، ولا قصصٌ ، وإنما حجاج وجدال وتوليد لا يكاد ينهى للأدلة والبراهين ، مع السفسة والمغالطة وقلب المحاسن مساوياً بفرض الإفحام وإظهار القدرة على القهر والغلبة ، ومع المبالغات والإفراط فيها بهدف الاستعلاء . ومن طريف هذه المقامات والمفاخرات المفاخرة بين السيف والقلم لابن نباتة ^(١) ، وفيها يستهل القلم مفاخرته بقوله تعالى : (ن والقلم وما يسطرون) وهي براعة استهلال واضحة ، وما يلبث أن يقول ابن نباتة عنه .

« إن القلم منار الدين والدنيا ، ونظام الشرف والعُليا ، وزمام أمور الملك السائرة ، وقائمة ^(٢) أجنحته الطائرة ، ومطلق أرزاق عُفاته ^(٣) المتواترة ، وأعملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة ، به رُقم كتابُ الله الذي لا يأتيه الباطل وسنة نبيه ﷺ التي تهذب الخواطر الخواطل ^(٤) .. إن نُظمتُ فرائد العلوم فلأنما هو سلكها ، وإن علت أسرة الكتب فلأنما هو ملكها .. وإن وعد أوفى يجلب النفع ، وإن أوعد أخاف كأنما يستمد من النفع ^(٥) » .

ويستمر القلم في هذه المفاخرة ، فهو الذي يأمر بالجهاد والسيف نائم في قِرابه ، وهو الذي يأمر بالعدل والإحسان ، مع المحاماة عن الدين وما ينزل بالأعداء من الرعب . وكأن ابن نباتة يريد أن يُعَلِّي فضله على السيف حتى في الحرب وجهاد الأعداء . ويستغفر القلم من الشرف وخيلائه والخيلاء وكبرياته . وينبئ السيف مدافعا عن حماه مستهلا كلامه بقوله تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد ومنافعُ للناس وليعلم الله من ينصره ورُسله بالغيب إن الله قوي عزيز) ويحمد الله الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف . ويفاخر القلم بعزمه الثاقب وفتوحه ، مما جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا . ويتنفض القلم في دواته ويضطرب على وجه القرطاس ، وينفجر قائلا للسيف حدة وعنف .

« أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع ، وأنا للعتاء وأنت للمنع ، وأنا للصلح وأنت للضرب ، وأنا للهمارة وأنت للخراب ، وأنا للمعمر ، وأنت المدمر .. وأنا ذو اللفظ المكين وأنت

(١) خزانة الأدب للحموي ص ١٣٠ ، ٤٤٥

(٢) قائمة الأجنحة : ريشات أربع كبار في مقدمة الجناح

(٣) عُفاته : طلاب معروفه .

(٤) الخواطل : الحائدة عن الصواب

(٥) النفع : غبار الحرب . والوعد يكون في الخير والإبعاد في الشر

من دخل تحت قوله تعالى (أَوْ مَن يَنْشَأْ فِي الْحِلَّةِ) وهو في الخصام غير مبين) لقد تعدّيت حدّك ، وطلبت ما لم تبلغ به جهدك ، هيات أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت في الغمد طريق ، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح .. أين بطشك من حلمي ، وجهلك من علمي .. وأين نذير الأعداء من رسول الأحياء .

ويرد عليه السيف مغيظاً محقّقاً ، ويكيل له الكيل كيلين .. ويشعر القلم أخيراً بفضل السيف ، ويميلان إلى الصلح معترفين بأنهما للملك كاليدين وفي آفاقه كالقمرين . وهي مقامة أو قل مناظرة بديعة دُبّجت بأسلوب يتدفق بالسلاسة وخفة السجع ولطف مآخذه ودقة معانيه . وابن نباتة في نثره مثل شعره يمتاز بالصفا مع الرصانة والرونق وجمال اللفظ وحسن اختياره . ولا ين مكناس الذي ترجمنا له بين كتاب الرسائل الشخصية مقامة في ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية بناها على الفكاهة والمجون إذ أدارها على الشراب . وقد جعلها حواراً بين عشرات من الأشخاص يمثلون ما كان بالقاهرة لزمه من المهن والصناعات .

وتظل المقامات حية في الفترة العثمانية ، وينحوي بعضها نحو الفكاهة والمجون والدعابة أو نحو الهجاء كما سترى عند الشهاب الخفاجي ، وسنخصه بكلمة ، وكثير منها يتخذ المديح موضوعاً له ، من ذلك مقامتان ^(١) لمصطفى اللقيمي الدمياطي المتوفى سنة ١١٧١ مدح بها الأمير العثماني رضوان كئخدًا ، وإحداهما طويلة وتكثر فيها مقطوعات الشعر ونقرأ بها قصيدتين ومزدوجة في مديح الأمير . ولحسن شمه مقامة ^(٢) في مديح الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الشافعي الحلوني ضمنها سائر الفنون الشعرية من النسيب والموشع والدوييت والزجل والكان وكان والقوما والمواليا مع العناية بالسجع في نثرها وحشد محسنات البديع ، وجدير بنا أن نترجم لبعض أصحاب المقامات والمفاخرات .

ابن ^(٣) أنى حَجَلَة

هوشهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد أنى حجلة التلمساني الأصل . ولد بزواوية جدّه أنى حجلة بتلمسان سنة ٧٢٥ ورحل في بواكير حياته إلى الحج ودخل دمشق ، ثم

تفرى بردى ١٣١/١١ وحسن المحاضرة ٥٧١/١ وشذرات

الذهب لابن الهادي ٢٤٠/٦ وصبح الاعشى ٢٧٦/١٤ .

والحجلة : طائر في حجم الحمام أحمر الرجلين والمنقار .

(١) تاريخ الجبقي ٢٢١/١ وما بعدها

(٢) تاريخ الجبقي ٢٩٠/١

(٣) انظر في ابن أنى حجلة الدرر الكامنة لابن حجر

(نشر دار الكتب الحديثة) ٣٥٠/١ والنجوم الزاهرة لابن

استوطن مصر ، وأولع بالأدب حتى مهر فيه ، واعتنق المذهب الحنفي مع ميله إلى المذهب الحنبلي . ولم يلبث بمصر أن أصبح شاعرا بارعا فاضلا وكاتبنا ناثرا ، وولى مشيخة الصوفية بخانقاه منجك اليوسفي بظاهر القاهرة . وكان يكثر الإزراء على أهل الوحدة من الصوفية ، كما كان يحمل على ابن الفارض وأمتحن بسببه . وعارض جميع قصائده بقصائد نبوية . وما زال يتولى خانقاه منجك حتى توفي سنة ٧٧٦ للهجرة . ويقول ابن تغرى بردى : له مصنفات كثيرة تبلغ ستين مصنفا ، وأكثرها كتب أدبية ومن أشهرها : « سكر دان السلطان » و « ديوان الصبابة » وهما مطبوعان .

ومعنى سيكردان إثناء السكر وقد أهداه بعد سنة ٧٥٥ إلى سلطان مصر المملوكى السلطان حسن ابن محمد الناصر بن قلاوون ، وهو يدور فى معظمه حول العدد ٧ وأهميته فى تاريخ مصر واحداثها . وقد جعله فى مقدمة وسبعة أبواب ، ويذكر فى الباب الأول خاصية العدد : ٧ . ويتحدث فى الباب الثانى عن السلطان حسن وأنه سابع السلاطين فى أسرته . ويعرض فى الباب الثالث لإقليم مصر وصلة العدد سبعة به . ويعود فى الباب الرابع إلى السلطان حسن مع أحداث فصيرة عن تقدمه من ملوك مصر . ويخص الباب الخامس بأسرة السلطان حسن وجده قلاوون ويمتد به الحديث عن الأسرة فى البابين السادس والسابع . ويثبّع ابن أنى حجلة هذه الأبواب بأبواب سبعة أخرى ، يتناول فى أولها قصة يوسف وتفسير سورته . ويجعل الثانى لقصة موسى وفرعون ، والثالث للملوك مصر وبعض أخبارهم ، والرابع لسيرة الحاكم الفاطمى ، والخامس لبعض الأحداث بمصر ، والسادس لأحداث القاهرة . والسابع للزهرات السبع . وما ذكره عن الحاكم الفاطمى ، أنه لبس الصوف سبع سنين وأمر بإيقاد الشمع ليلا ونهارا مدة سبع سنين ومنع النساء من الخروج سبع سنين وسبعة أشهر ، وكان يقرأ نسبه على المنبر كل جمعة أو كل سبعة أيام ، وقُتل وهو يلبس سبع جبّات بعضها فوق بعض . ولا ريب فى أنه بالغ فى ربط الأحداث التاريخية بالعدد ٧ ، ومع ذلك فالكتاب يشتمل على أخبار تاريخية كثيرة ، تجعل له من حيث التاريخ لامن حيث العدد ٧ غير قليل من الأهمية .

وكتاب ديوان الصبابة - كما يتضح من عنوانه - يتناول العشق وكل ما يتصل به من الوصف المادى للمرأة ومن الزيارة واللقاء والمهرجان والاستعطاف وإفشاء السر والكتان والغيرة ومن أحب من أول نظرة وأشهر العشاق . وهو فى ثلاثين بابًا ويزخر باختارات الشعرية والنثرية فى الحب والصبابة . ووضع بين يدى أبوابه عن العشق أسبابه وعلاماته ، ويذكر طائفة من أحداث

الأدباء والفلاسفة عنه . ويحتمه بذكر من مات بسبب عشقه . والكتاب كسابقه طريف في بابه . وربما كان أهم من الكتابين السابقين لابن أبي حجلة مقاماته ، وكانت مشتهرة في زمنه ، ويقول ابن حجر : « أنشأ مقامات أجاد فيها » . ويعرض القلقشندي لإحدى مقاماته وهي المقامة الزعفرانية الخاصة بفيضان النيل ووفاته ، ويقتبس منها نحو خمس صفحات كبيرة مقلما لها بقوله عنه ، « الأديب الذي كان حجة العرب ، والنائر الذي كان بنسبه إلى الطيور ^(١) محرّك المناطق وإلى الشعر صنّاجة الأدب » ويستمر في الثناء عليه حتى يقول : من مقامته الزعفرانية عن أبي الرياش ، وكان ابن أبي حجلة سمى راويها أبا الرياش ، ومن قوله فيها : « إن النيل تزايد دفعه فقد امتزج بالمعصيرات ثَجَّاجُهُ ^(٢) ، وأعْيى طيبَ الغِيْطَانِ ^(٣) علاجه : وشرّق حتى ليس للشرّق مشرّقٌ وغرّب حتى ليس للغرب مغربٌ

قلت : فافعل التَّغْيِيرَ ^(٤) ، بخزيرة الطَّيْرِ ؟ قال : لم يبق بها هاتف يبشّر بالصباح ، ولا ساع يسعى برجلٍ (ولا طائر يطير) بجَنَاح ، إلا اتخذ (نفقا في الأرض أو سُلَمًا في السماء) أو آوى (إلى جبل يَغْصِمُه من الماء) فأذاق بها الحَمَامَ الحَمَامَ ^(٥) في المروج ، وترك أرضها كسماء ماله من فروج ، وتلا على الحمام : (أينما نكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بُرُوج) وكم في سماء ماها من نَسْرٍ واقع ، وبُومَةٍ تصفّر على ديارها البلاقع ^(٦) :

ومَنهَلٌ فيه الغرابُ مَيّتٌ سَقَيْتُ منه القومَ واستقيتُ
قلت : فصر ؟ قال : زَحَفَ عليها بعسكره الجرار ، ونَفَطَ مائه الطَّيَّار ، قلت فالجيزة ؟ قال . طغى الماء حتى علا على قناطرها وتجرّس ، ووقع بها القصبُ من قامته حين علا عليه الماء وتكسّر ، فأصبح بعد اخضرار بَرَّتْهُ ^(٧) شاحبَ الإهاب ، ناصل الخِضَاب ، غارقا في قعر بحر (يغشاه مرج من فوقه موج من فوقه سحب) وقطع طريق زاويتها على مَنْ بها من المتقطعين والفقراء ، وترك الطَّالِح كالألح يمشى على الماء (فتنادوا مُضْهِجِينَ) : (أن لا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين)

(٣) الغِيْطَان : الحقول

(٤) التغير : طائر صغير كالصفور

(٥) الحمام : الموت . والجناس بينه وبين الحمام واضح

(٦) البلاقع : الخالية

(٧) بَرَّتْهُ : شارته وثوبه .

(١) يشير إلى كنية جده أبي حجلة كما يشير بتحريك المناطق إلى كتاب له سماه منطلق الطير .

(٢) المعصيرات : السحاب المطر تمتصه الريح .

ثَجَّاجُهُ : سيله أو سيوله المتدافعة . يبالغ في عتوه حتى صافح السحب .

وأدركهم الغرق فأيسوا ^(١) من الخلاص (فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَاعِشِهِمْ) (ولات حين مناص ^(٢))
 و (خَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ) فهُدَّت قواهم ، واستغاثوا من كثرة الماء بالذين آمنوا وعملوا
 الصالحات (وقليل ما هم) قلت : فالروضة ؟ قال : أحاط بها إحاطة الكمام ^(٣) بزهره ،
 والكأس بحباب ^(٤) خمره :

فكَانَهَا فِيهِ بَسَاطٌ أَخْضَرُ وَكَانَ فِيهَا طَرَاؤُ مُذْهَبُ ^(٥)
 فلم يكن لها بدفع أصابعه يدان ، وكَم أنشد مَرَجَهَا حين (مَرَجَ ^(٦) البحرين يلتقيان) :
 أَعْيَنِي كُفًّا عَنْ فَوَادِي فَإِنَّهُ مِنَ الْبَغْيِ سَعَى اثْنَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدٍ ^(٧)
 قلت : فدار ^(٨) النحاس ؟ قال : أنحس حالها ، وأفسد ماعليها ومالها ، فدخل من حمامها
 الطُّهْرُ ، وقطع الطريق بالجامع الطُّهْرُ ، فألحق مجازَ بابِه بالحقيقة ، ورقى منه على درجتين في
 دقيقة .. قلت فجزيرة أروى ؟ قال : قد أفسد جُلَّ ثمارها ، وأنى على مغانيها ^(٩) فلم يدع شيئا من
 رَدِيئِهَا وخيارها ، أخلق ديباجة روضها الأنف ^(١٠) ، وترك قُلُقَاسَهَا في الجروف ^(١١) على شفا
 جُوفٍ ^(١٢) :

بعيني رأيت الماء يوما وقد جَرَى على رأسه من شاهقي فتكسرا
 طالما تضرع بأصابعه إلى ربِّه ، ولطم برءوسه الحيطان مما جَرَى من الماء على قلبه ، وتمثل بقول
 الأول :

وإن سألوك عن قلبي وما قاسى فقل قاسى وقل قاسى وقل قاسى
 لم يُفِده تحضنه من ورقه بالدَّرَقِ ^(١٣) والستائر ، ولا حنَّ عليه حين تضرع بأصابعه فصيح أن

(١) أيسوا : يشوا

(٢) مناص : ملجأ ومقر

(٣) الكمام : جمع كم بكسر الكاف : غلاف الزهرة قبل
 أن تتفتح

(٤) الحباب : الفقاقع على وجه الكأس

(٥) جعل لون النيل مذهبا إشارة إلى ما كان يصحبه في
 فيضانه من الطمى

(٦) مرج البحرين : أرسلها في مجريها متجاورين

(٧) يشير إلى أن البحرين يأخذان بخناق جزيرة الروضة

حتى تكاد تلفظ أنفاسها

(٨) تسمى الآن دير النحاس وهي أمام النيل بمصر القديمة

(٩) مغانيها : منازلها .

(١٠) الأنف : الجليد

(١١) الجروف : شقوق المخرات ومجاريه

(١٢) شفا جرف : شفا : حرف : جرف : المكان يجرفه

الماء

(١٣) الدرق : جمع درقة : الترس

الماء سلطان جائر .

وهو وصف رائع لفيضان النيل وعلو أمواجه ، كأنما يريد أن يبلغ عنان السماء ، وحلقت الطير في أعلى عليين فرقا منه واعتصم الناس بالكتبان والجبال . ويصف ابن أبي حجلة زحفه على القسطنط أو كما يسميها مصر وطغيانه على الجزيرة حتى علا قناطرها وجرد القصب من بزته ، وطأ عليه حتى غرق في قاعه ، وقطع طريق الزاوية أو خانقاه الصوفية وأدركهم جميعا الفرق في عبابه ، وخر عليهم السقف من فوقهم ، ولاملجأ ولا مناص ، وأحاطت بحجز الروضة إحاطة السوار بالمعصم ، ولم تستطع دفع أصابعه التي يقاس بها عادة طوفان فيضانه ، ولارد مجريه أو كما يسميها ابن أبي حجلة بحريه من حولها آخذين بمخاقها ، كأنما يريدان أن تصبح خاوية على عروشها . ويصف دار النحاس وما أصابها وأصاب جامعها من مياهه المتدفقة ، ويصف ما أنزله بحجزه أروى ومغانيتها وكيف عم ما بها من الخضراوات مثل « القلقاس » وقد تكسر ، وهو يتضرع بأصابعه إلى ربه إذ أصبح عاليه سافله . وتثبت فوقه فروع ذات ورق عريض ، ويتصورها ابن أبي حجلة ستائر له ودرقا أو تروسا غير أنها لم تفده إزاء أمواج النيل وطوفانه .

ويعني ابن أبي حجلة فيصور ما أصاب بولاق وغير بولاق من النيل في هذه اللغة العذبة التي عرف كيف يصب فيها وصفه للنيل وفيضانه . وهو يكسوها بألوان البديع من جناس وغير جناس ، ولا نخس أى كلفة . وقدرته على بث التصاوير في لغته واضحة ، وهى تصاوير رسمها مصور ماهر . ومن تنمية براعته الأدبية قدرته على اقتباس الأشعار في موضعها الملائم ، وأهم من ذلك قدرته على اقتباس الآيات والكلم القرآنية ، فتزيد لغته عذوبة ونصاعة ، وهو تارة يأتي بالآيات تامة ، وتارة يأتي بكلم منها . ويكثر ذلك في المقامة ، وقد وضعنا الآيات بين قوسين هلالين تميزا لها . وقد تمثل في القلقاس بيت يحمل شطره الثانى جناسا طريفا مع اسمه . وفي المقامة روح الدعابة والفكاهة المصرية ، وكأنه تشرها في استيطانه بمصر حتى المثالة . والتورية عنده واضحة في قوله عن النيل بدار النحاس : « قطع الطريق بالجامع الظهر فالحق مجاز بابه بالحقيقة » ، ولكلمة مجاز معنيان : معنى قريب وهو ما يخالف الحقيقة بدليل اقترانها به ، ومعنى بعيد وهو المعبّر الى الجامع . وهو لا يريد المعنى القريب للقلب أى قلب الإنسان مما قد يفهم مع ظاهر استعارته ، وإنما يريد ما حدث للقلقاس من القلب فأصبح أسفله أعلاه ، وهى تورية بديعة . ولعل فيما قدمت ما يصور براعة ابن أبي حجلة الأدبية .

هو شهاب الدين أحمد بن علي وُلد بقلقشندة بالقرب من قليوب سنة ٧٥٦ وإليها يُنسب ، وهو من أصل عربي صميم إذ ينتمي إلى عشائر فزارة التي استوطنت مصر عقب الفتح الإسلامي ويبدو أنه نشأ في القاهرة ، وأخذ فيها ينهل من حلقات علماء الشافعية وغيرهم في زمنه ، وهو مع ذلك يعنى بالأدب والعلوم اللغوية . وفي نحو العشرين من عمره بارحها إلى الإسكندرية ونرى العالم الشافعي الكبير المعروف بابن الملقن يجيزه فيها سنة ٧٧٨ بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي كما يجيزه برواية مؤلفاته في الفقه والحديث وكل ما كان يرويه من الصّحاح الستة ومسند الشافعي ومسند ابن حنبل . وسرعان ما تصدر للإفادة وهو في الحادية والعشرين من عمره ، وأقبل عليه كثير من التلاميذ يأخذون عنه الفقه والأصول وعلوم العربية . وظل في ذلك نحو ثلاثة عشر عاما ، ألف في أثنائها شرحا في الفقه الشافعي على كتاب جامع المختصرات ومختصرات الجوامع سمّاه الغيوث الهوامع . كما ألف في أنساب القبائل العربية كتابين هما : « نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب » و « قبائل الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان » . ونراه في سنة ٧٩١ يترك مهنة التدريس للعمل بديوان الإنشاء ، وكان يرأسه بدر الدين بن علاء الدين بن يحيى بن فضل الله العمري ، وهو آخر من وليه من هذا البيت كما مر في ترجمة عمه ابن فضل الله العمري . واعترافا بفضلله أنشأ القلقشندي مقامة طويلة في تقريبه صور فيها صناعة الإنشاء وأصولها وعكف ثَوّا على تأليف كتابه « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » . وهو موسوعة ضخمة في أربعة عشر مجلدا ظل يُعنى بتأليفها في نحو ربع قرن من الزمان حتى سنة ٨١٤ وظل يراجعها ويزيد عليها حتى حين وفاته سنة ٨٢١ للهجرة .

ويتدئ القلقشندي صبح الأعشى بمقدمة تتناول فضل الكتابة ومدلولها وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وصفات الكتاب وآدابهم والتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وقوانينه ووظائفه ، ثم تتوالى عشر مقالات أو أقسام كبيرة ، والمقالة الأولى تتحدث عما يحتاج إليه كاتب

مقامات القلقشندي ومفاهيمه صبح الأعشى ١١٢/١٤ ،
٢٠٤ ، ٢٣١ . و صبح الأعشى مطبوع من قديم بدار
الكب المصرية في ١٤ مجلدا .

(١) انظر في القلقشندي الضوء اللامع للسخاوي ٨/٢
وشلوات الذهب ١٤٩/٧ والمنهل الصافي لابن تغري بردي .
٣٣٠/١ ومقدمة الجزء الأول من صبح الأعشى وتاريخ
الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ٤١٦/١ . وراجع في

الإنشاء من المعارف والأدوات المتعلقة بصناعته كالحظ واللغة والنحو والبلاغة وغير ذلك من مختلف العلوم ، يشغل ذلك من الكتاب الجزء الأول بعد المقدمة والجزء الثانى وشطرًا غير قليل من الجزء الثالث . والمقالة الثانية تبدأ بالمسالك والممالك وبمعلومات تاريخية عن الخلافة الأموية والعباسية وبمعلومات جغرافية وتاريخية مهمة عن مصر من أول دخولها فى الإسلام إلى زمن القلقشندى ، ويترك مصر إلى الشام وجميع الدول التى كان لها أدنى صلة بمصر من أقصى الشرق إلى السودان وأقصى الغرب والبلدان الأوربية . ويمتد حديث القلقشندى فى ذلك إلى الشطر الأكبر من الجزء الخامس . والمقالة الثالثة فى أنواع المكاتبات وأسماء الكنى وألقاب أرباب السيوف والأقلام وأصحاب الوظائف من النصارى واليهود والخلفاء العباسيين والأمويين فى الأندلس والفاطميين والموحدين بالمغرب وألقاب الملوك الأقدمين فى اليمن وإيران ومصر والروم والحبشة وملوك فرغانة وأوروبا والحبشة مع التفصيل فى الألقاب الإسلامية . ويعود إلى الحديث عن الورق والكتابة ويشغل ذلك كله بقية الجزء الخامس والجزء السادس . ويتحدث القلقشندى فى المقالة الرابعة عن المكاتبات الصادرة عن ملوك مصر وغيرهم ومصطلحات الكتابة السلطانية والإخوانية ويمتد ذلك فى الكتاب إلى شطر من الجزء التاسع ، والمقالة الخامسة يوضح فيها القلقشندى الولايات ووظائف الدولة الكبرى ويقدم طائفة كبيرة من البيعات والعهود والتقاليد والمراسم والتفاوض والتوقيع وخاصة مايتصل بزمان المماليك . وتحمل هذه المقالة كثيرا من الوثائق التاريخية والاجتماعية المهمة ، وهى تشغل بقية الجزء التاسع حتى نهاية الجزء الثانى عشر . والمقالة السادسة فى متنوعة من الوصايا الدينية والإطلاقات والمراسم السلطانية والإقطاعات والأيمان وعقود الصلح والأمانات والهدن . وتشغل هذه الوثائق الجزء الثالث عشر من الكتاب وشطرًا من الجزء الرابع عشر . وتعرض بقية هذا الجزء طرائف من المقامات والرسائل والمفاخرات والإجازات والتعريضات والتقاليد ، وتلحق بالجزء خاتمة عن البريد وشئون المواصلات والاتصالات بين مصر وغيرها من البلدان الإسلامية

ونعود إلى مقامته التى أشرنا إليها التى وصف فيها صناعة الإنشاء وقرط بها صاحب ديوانها بدر الدين العمرى وقد سماها : « الكواكب الدرية فى المناقب البدرية » وهى محكية أو مروية على لسان الناثر بن نظام ويلقانا فى فواتحها قوله :

« لم أزل من قبل أن يبلغ بريد عمري مركز التكليف ، وبتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف ، أنصب لاقصاص العلم أشراك التحصيل ، وأنزّه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل ..

أونسُ من شوارد العقول وَحْشِيَّهَا ، وَأَشْرَدُ عن روابض المنقول حُوشِيَّهَا ، وألتقط ضالَّةَ الحكمة حيث وجدتها ، وأقيد نادرة العلم حيث أصبْتُها ، مقدِّمًا من العلوم أشرفها ، ومؤثرا من الفنون ألطفها ، معتمدا من ذلك مانألفه النَّفس ويقبله الطبع ، مقبلا منه على ما يستجلى حُسْنُه النظر وَيَسْتَحِلُّ ذكره السمع .. عارفا لكل عالم حقَّه ، وموفِّيا لكل علم مستحقَّه ، قد استغنيت بكتابي عن خَلَى ورفيقي ، وآثرت بيت خَلَوَى على شَفِيق وشقيق .. إلى أن أتيج لى من الفتح ما أفاضته النعمة وحصلتُ من الغنيمة على ما اقتضته القسمة » .

وأكبر الظن أن قد اتضح لنا صوت القلقشندى وما يعمد إليه من حسن الجرس فى انتخاب ألفاظه وقوافى أسجاعه ، بحيث لا نكاد نشعر بتكلف عنده ، والجناس يرصُّع كلامه على نحو ما نرى فى التكليف والكلف ، وأشراك (حِبالات) الصائد ، والإشراك ، وشوارد وأشرد ، والوحشى والحوشى ، ويستجلى ويستحلى ، وحقه ومستحقه ، ورفيق وشقيق وشقيقى ، وكل ذلك يمر على اللسان والسمع دون أى إحساس بنبو أو كلفة غير مستحبة ، وبالمثل يرصُّع كلامه بطباقات كثيرة من مثل التفروق والجمع والتوحيد والتعطيل وشوارد العقول وروابض المنقول . وفى أثناء ذلك يوشئ كلامه بالتورية إذ يقول : « أنزه توحيد الاشتغال عن إشراك التعطيل » والتعطيل رفض التوحيد والشرعية ، وهو المعنى القريب لسبق التعطيل بالإشراك والتوحيد ، وهو لا يريد ، وإنما يريد التعطيل عن الاشتغال بالعلم والانصراف عنه . وبالمثل لا يريد بالإشراك الكفر الذى قد يفهم من اقترانه بالتعطيل إنما يريد الشركة أو المشاركة ، وأيضا لا يريد بالتوحيد توحيد الله لاقرانه بالتنزيه وإنما يريد الوحدة . والتعبير لذلك كله ملئ بتوريات متعاقبة . وبالمثل قوله فى نهاية كلامه : « الفتح » وقد تلاه بالغنيمة والقسمة موريا بذلك عن الفتوح العلمى لا كما يظن من السياق الفتح الحرنى . وبالمثل كلمة القسمة فهو لا يريد بها المعنى القريب الملائم للغنيمة وهو القسمة فى الحرب وإنما يريد بها المعنى البعيد وهو الحظ من قولهم قسمة ونصيب .

ولعل خصائص صوت القلقشندى ولغته قد اتضحت لنا تماما فهو كمعاصريه يستخدم السجع ويوشيه بمحسنات البديع وفى مقدمتها ، الجناس والطباق والتورية ، ونحس عنده بطواعية العبارات المسجوعة ومرانه على استخدام ألوان البديع دون أن نشعر بأى ثقل أو أى عبارة أو كلمة مستكرهه . وإذا مضينا فى قراءة المقامة وجدناه يذكر على لسان الناثرين نظام أنه لا يد لكل إنسان من حرفة يكتبب بها معاشه . وأن الكتابة هى خير الحرف ، وأفضل أنواعها الديوانية كتابة الإنشاء ، إذ لما الذروة المثيفة والرتبة الشريفة ، وأصحابها - كما يقول - أسُّ الملُك وعماده ،

وأركان الملك وأطواره . ولسان المملكة الناطق ، وسهمها الموقر الراشق . وبحاور الناصر بن نظام في كتابة الإنشاء والحراج أيها أفضل ؟ وبجيبه أنى لكتاب الأموال التأثير في قلّ الجيوش من غير قتال ، وفتح الحصون من غير نزال . وكأن القلم في يد كاتب الإنشاء ينال من الأعادي مالا تناله السيوف والرماح . ويأخذ القلقشندى على لسان الناصر بن نظام في بيان مايلزم كاتب الإنشاء من حفظ كتاب الله وأحاديث رسوله وجوامع كلمه والعلم بالأحكام السلطانية واستظهار أشعار العرب على مر الأزمنة وأمثالهم وأقوال فصحاءهم وخطيبهم ورسائلهم مع سعة الباع في اللغة والنحو والتصريف وفي علوم المعاني والبيان والبديع ، ومع معرفة الخط وقوانينه وأصوله وقواعده ، ومع ماتم به الصناعة من الوقوف على علم الكلام وأصول الفقه والأحكام الشرعية والمنطق والجدل وأحوال الفرق والتحل وعلم العروض والقوافي والرياضيات والهندسة وعلم الطب والبيطرة وعلمى الأخلاق والسياسة وعلم تدبير المنزل والفراسة . وأيضا لا بد من المعرفة بكل ما ذكره القلقشندى بعد ذلك مفصلا في صبحه من شئون الولايات وألوان المكاتبات والبيعات والعهود والتقاليد والمراسيم والتواقيع والمناشير والأيمان والهذّن وطرق البلدان ومساكنها . ويتساءل القلقشندى عمن يضم هذه الرتبة الرئيسة والمنقبة الشريفة ؟ وبجيبه الناصر بن نظام إن ذلك قاصر على آل فضل الله العمرى ومنحصر في سيلة البدر ، الذى تدور عليه ، فهو ابن بجدتها الذى ترجع في علومها ورسومها وسائر أمورها إليه .

وللقلقشندى مقامة في المفاضلة بين العلوم . وهى تنزع منزع المقامة الحصيبية للرشيد بن الزبير التى ألمنا بها فيما مر من حديثنا وفيها يعقد القلقشندى مفاخرة بين نحو سبعين علما ابتدأها بعلم اللغة واختتمها بفن التاريخ ذاكرًا فخر كل علم على ماسبقه ، محتجا عليه بفصائل موجودة فيه دون سابقه . استهلها ببيان منافع العلوم بعامة ، وذكر أنها اجتمعت يوما فتجادلت وتفاخرت ، وكل منها ينتصر لنفسه بالحجج والبراهين الدامغة . وقد تلا فخر علم اللغة بفخر علم الصرف ثم بفخر علم النحو عليه قائلا :

« هل أنت إلا بضعة ^(١) منى ، تُسندُ إلى وتثقل عنى ، لم يزل علمك بابا من أبوابي ، وجملتك داخلة في حسابي ، حتى ميزك المازنى فأفردك بالتصنيف ، وتلاه ابن جنى فتبعه في التأليف .. وأنت مع ذلك كله مطوى ضمن كتي ، نسبك متصلة بنسبتي ، وحسبك لاحق بحسبي . أنا ملج الكلام ، وميسك الحتام ، لا يستغنى عني متكلم ، ولا يليق جهلى بعالم ولا متعلم ،

في تبيين أحوال الألفاظ المركبة في دلالتها على المقاصد ، ويرتفع اللبسُ عن سامعها فيرجع من فهمها بالصلة والعائد .

وهذه القطعة من مفاخرة علم النحو على علم الصرف فضلا عن تصويرها لبراءة القلقشندي البيانية ترينا جانبا من ثقافته بعلمى النحو والصرف ، وكانا متدجين بعضهما ببعض في كتاب سيبويه . وظلا على ذلك بعده حتى أفرد أبو عثمان المازني علم الصرف بالتأليف وتبعه في ذلك ابن جني . ومضى المؤلفون في العلمين تارة يجمعون بينهما ، وتارة يفصلون ، مما جعل القلقشندي يصور ذلك مرارا على لسان علم النحو قائلاً إن علم الصرف باب من أبوابه يُنقل عنه ويُستند إليه وأنه مطوى في كتبه متصل بنسبه لاحق بحسبه . واستخدم في آخر ما اقتبسناه من تلك المفاخرة مصطلحي الصلة والعائد المعروفين في النحو وهما صلة الموصول وما تحمل من الضمير العائد في عبارتها على الموصول . معبرا بها عن العطية وما يعود منها بالنفع . وللقلقشندي مفاخرة ثانية بين السيف والقلم ، ومن قول القلم فيها مفاخرا للسيف :

« مهلاً أيها المساجل ، وعلى رَسْلِكَ أيها المغالب والمناضل ، لقد أسأت مقالا ، ونَسَقْتَ محالا .. وإني - وإن صَغُرَ جِرمي - فإني لكبير الفِعال ، وإن نَحُفَ بدني فإني لشديد البأس عند التزال . وإن عَرَى جسمي فكم كسوت عاريا ، وإن جرى دمعي فكم أرويت ظاميا ، وإن ضاق ذرعي فإني بسعة المجال مشهور ، وإن قَصُرَ باعِي فكم أطلقت أسيرا . وأنا في سجن الدواة مأسور » . ويمضي القلقشندي بمثل هذه الصياغة الموشاة بالسجع ومحسنات البديع من تصوير وغير تصوير ، ودائما نشرع عنده بالطلاقة والسلاسة ونصاعة الكلم .

السيوطي^(١)

هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد ، من سلالة شيخ صوفي أسيوطي هو همام الدين السيوطي ، وكان لأسرته وجاهة ورياسة في أسيوط ، منهم من ولى الحكم فيها ،

ويروكلمان (الطبعة الألمانية ١٤٣/٢) . وانظر في مقاماته مجموعة خطية بعنوان مقامات السيوطي بدار الكتب المصرية رقم ٣٢ مجاميع وطبعت من مقاماته مجموعة بالآستانة . وانظر في نشاط السيوطي النحوي تأليفا وآراء كتابنا المدارس النحوية ص ٣٦٢ .

(١) انظر في السيوطي وترجمته حسن المحاضرة ٣٣٥/١ والضوء اللاحق للسخاوي ج ٤ رقم ٢٠٣ والكواكب السائرة للغزى (نشر الجامعة الأمريكية ببيروت) ٢٢٦/١ وتاريخ ابن إياس في مواضع متفرقة وذيل الطبقات الكبرى للشعراني ص ٤ والبدر الطالع للشوكاني ٣٢٨/١ والنور السافر للعبدروسى ص ٥٤ ودائرة المعارف الإسلامية

ومنهم مَنْ ولى الحسبة ، ومنهم من كان تاجرا ثريا ، وأول من خدم العلم من أسرته أبوه ، وقد هاجر من بلدته إلى القاهرة ونبه شأنه بين فقهاء الشافعية وأفتى ودرّس وناب في الحكم بالقاهرة ، وفي سنة ٨٤٩ ولد له عبدالرحمن ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفي الأب ، ويبدو أنه ترك له ثروة أعانتة على نشأة علمية طيبة ، وقد ترجم لنفسه في كتابه : « حسن المحاضرة » ترجمة ضافية ، ذكر فيها طائفة من شيوخه في مقدمتهم الشيخان : البلقيني والمناوي في الفقه الشافعي وتقى الدين السبلي في الحديث والكافيّجى في التفسير والأصول والعربية وعلم المعاني وسيف الدين الحنفي في الكشف للزمخشري وفي بعض المصنفات البلاغية للسكاكي والقزويني . ويقول إنه شرع في التصنيف سنة ٨٦٦ ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، كما يقول إنه أفتى في سنة ٨٧١ وعُقد له مجلس لإملاء الحديث سنة ٨٧٢ . ويذكر أن زار بلادا كثيرة : الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور ، كما يذكر أنه تبجّر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع ، ويقول إنه يستثنى الفقه فاستأذه كان أعلم به منه . أما العلوم الستة الباقية فلم يكن أحد يجاريه فيها ، ودونها في التعمق العلمي أصول الفقه والجدل والصرف ، ودونها هي الأخرى الإنشاء والترسل وعلم الميراث والقراءات ثم الطب . ويذكر أن مشايخه في الرواية سماعا وإجازة كثيرون إذ تبلغ عدّتهم نحو مائة وخمسين .

ويمضى السيوطي في ترجمته لنفسه ، فيذكر مؤلفاته في العلوم والفنون المختلفة ، وقد بلغت أكثر من ثلاثمائة كتاب ورسالة ، منها في الحديث النبوي نحو تسعين مصنفا وفي التفسير ومتعلقاته نحو عشرين وفي اللغة وعلوم العربية نحو خمسين وفي الأصول والبلاغة والتصوف نحو عشرين وفي الفقه نحو عشرين أيضا وفي التاريخ والأدب نحو خمسين . وعلى هذا النحو تلقانا لا مؤلفات بل سيول من المؤلفات في كل علم وفن . وبحق يُعدّ السيوطي أكثر علماء هذا العصر تأليفا وإحاطة بالعلوم العربية والشرعية الدينية . وله أكثر من كتاب طُبِع في العصر الحديث وطارَت شهرته ، من ذلك في الحديث النبوي كتابه « جمع الجوامع » وهو معجم واف للأحاديث النبوية ، ومن ذلك في التفسير تفسير الجلالين ، ومرّ حديث عنه في الفصل الثاني ، وله لباب العقول في أسباب النزول ، وأيضا الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، وهو مطبوع في ستة مجلدات . وكتابه « الإتيقان في علوم القرآن » كتاب رائع . ومن مصنّفاته في التاريخ والتراجم تاريخ الخلفاء وهو مطبوع مرارا في الغرب والشرق . وقد عرضنا لنشاطه في هذا الجانب في حديثنا بالفصل الثاني عن التاريخ والمؤرخين . وكان نشاطه اللغوي والنحوي خصبا إلى أبعد غاية ، وصورنا ذلك من بعض الوجوه

في حديثنا عن اللغة واللغويين والنحاة والنحويين في الفصل الثالث .

وهذا النشاط العلمي الواسع اقترن به نشاط أدبي ، فقد كان السيوطي شاعرا ، كما كان كاتباً ناثراً ، وعُني عناية واسعة بفن المقامة على الطريقة المصرية التي وصفناها ، فالمقامة لاتدور على الصعلة كما كانت عند الهمذاني والحريري ، وإنما تدور على المنافرة والمفاخرة ، وأكثر من ذلك حتى لتبلغ مقاماته نحو الأربعين ، وربما كان أطرفها ما أداره منها حول مفاخرات الأزهار والفواكه والبقول والنقل والعمور ، وقد خص الأزهار بمقامته الوردية والفواكه بمقامته التفاحية والبقول الخضراء بمقامته الزمردية والثقل بمقامته الفستقية والعمور بمقامته المسكية ، وخص الأحجار الكريمة بمقامته الياقوتية . ونقف قليلا عند مقامته الوردية فعلى غرارها تلك المقامات جميعا ، وهي مفاخرة أو مناظرة بين الأزهار والرياحين ، استهلها الورد ببيان محاسنه وأنه ملك الرياحين منعش للأرواح ومتاع إلى حين ، وأنه ظاهر على أزهار البساتين منتصر منها بقوة الشوكة والصولة . ووضح ما في كلمة الشوكة من تورية إذ لا يريد البأس بشهادة كلمة الصولة ، وإنما يريد الشوكة الحقيقية للورد واحدة أشواكه ، وما يلبث الورد أن يدلّ بفوائده الطيبة ، ويرد عليه النرجس مفاخرا بمحاسنه محاولا أن بغض منه ، قائلا :

« لقد تجاوزت الحد ، ياورد ، وزعمت أنك جمع في فرد ، إن اعتقدت أنه لك بحمرتك فخر ، فإنه منك فُجْر .. فاحفظ بالصمت حُرمتك ، وإلا كسرت بقائم سني شوكتك . وإني القائم لله في الدياجي على ساق ، الساهر طول الليل في عبادة ربّي فلا تطرف أحداق .. وأنا فريد الزمان في المحاسن والإحسان ، ولهذا قال في كسرى أنوشروان : النرجس ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر .. وأنا المشبه في عيون الملاح ، والمقرون في مهات الأدوية بالصلاح » .
والسيوطي بجانب ذلك مقامات جعل محورها الذي تدور عليه مسائل علمية ، إذ يورد فيها أسئلة تحمل ألفاظا غريبة ملغزا بها ، ثم يذكر جوابها مفسرا لها . مزيلا عنها غرابتها ، محاكيا بذلك الحريري في مقامته الطيبية نسبة إلى طيبة أي المدينة وقد ضمّها مائة مسألة فقهية وأجوبتها كأن يقول فيها : « أيستباح ماء الضرير ؟ » ويحجب أبو زيد السروجي بطل المقامات الحريرية : نعم ويُجْتَنَّبُ ماء البصير » والضرير : حرف الوادي والبصير الكلب . ونرى السيوطي يستوحى هذه المقامة ، فيكتب على غرارها مقامته المكية ، ويستهلها على هذا النمط :

« حدثنا هاشم بن القاسم قال : مازلت أقتحم المهامه ^(١) الخيفة ، وأدخل في المسالك العنيفة

إلى أن نزلت بمكة الشريفة ، فحططتُ الرِّحالَ بعِتابها ^(١) ، وأرحت النفس من عنائها ، وظللت أجوب في مشاهدها وأجول في معاهدها .. وأتردد في الغدو والرواح ، وأترؤد من تلك الآثار في المساء والصباح ، وأتمنى أديبا يُسَلِّي بمسامرته الغربة ، وأديبا يُنِيل بمحاضرته الإربة ^(٢) ، فيينا أنا ذات ليلة في المطاف ، وقد تسمرتُ سحائب الألطاف ، إذا أنا بشعبة مؤتلفين ، وعصبة محتفين ، وهم بين سلام وترحيب ، وبكاء ونحيب . وفي صدر الحلقة ، شاب نحيف الحلقة ، قد تدرع بشباب البهاء . قال هاشم بن القاسم : فتساميت إلى لقائه ، وتقدمت إلى تلقائه ، لأستنور بياطنه على ظاهره ، وأستظهر من كامنه على باهره ، وأتخذ معاضدا ونصيرا ، ومحاضرا وسميرا ، فقلت : وَعَيْتُ مامنك رأيت ، وشِئْتُ ^(٣) ما عنك فهيت ، فانت على ما ادَّعيت ببرهان من الدلائل ، وأجب إلى ما أقترحه عليك من مسائل ، فقال : على الخير سقطت ، ومن البحر لقطت ، فأوضح عن مسائلك ، وأفصح عن مقالك ، فقلت : ماتقول فيمن توضحاً ولم يسمح أمه ؟ فقال : لم يصح يا أمه .

والأم الأولى الرأس والوضوء بدون مسحها باطل ، وقد ألغز السيوطي بها ، كما هو واضح . وتوالت الأسئلة على هذا النحو مثل هل يجوز بيع الحر ؟ والجواب الجواز ، لأن المراد بالحر الفرس الأصيل . ومثل هل تصح الصلاة على الفحل ؟ والجواب تصح لأن المراد بالفحل الحصيد المتخذ من فحل النخل .

وللسيوطي مقامة ثانية سماها المقامة الأسبوطية بناها على الغاز نحوية ، محاكاة لمقامة الحريري المسماة بالمقامة القطعية وهي المقامة الرابعة والعشرون بين مقاماته . وللسيوطي مقامة فكهة سماها « رشفة الزلال من السحر الحلال كتبها على لسان عشرين عالما بينهم المقرئ والمفسر والأصولي والفقيه واللغوي والنحوي ، وجعل كلا منهم يصف ليلة زفافه على عروسه بلغة علمه ومصطلحاته . ومن مقاماته مقامة تسمى الجيزية جعل موضوعها لغزا شعريا . وكأنه كان يرى المقامة صالحة لأن تعرض أى موضوع حتى لراه يتخذ نجاة أبوى الرسول ﷺ من النار موضوعا لإحدى مقاماته ، وقد سماها المقامة السندسية ، وهي مطبوعة ، ونجاة أبوى الرسول من النار لايشوبها أى شك . إذ هما الطاهران الطيبان الذكيان النيران . ولعل فيما قدنا مايدل على الخصائص الأدبية لمقامات السيوطي وبدون ريب كانت ملكاته العلمية أخصب من ملكاته الأدبية .

(١) عتاب : جمع عبة . (٢) الإربة : الأمية . (٣) شام : نظر متطلعا أو مؤملا شيئا

الشهاب ^(١) الحفاجي

هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الحفاجي المصري ، ولد لفقير شافعي بسرياقوس قرب القاهرة سنة ٩٧٧ ونشأ في حجر أبيه يعلمه ، ثم اختلف إلى شيوخ الأزهر في زمنه ، فأخذ النحو وعلوم العربية عن خاله أبي بكر الشمراني والفقير الشافعي عن مفتي زمنه شمس الدين الرملي . ومضى ينهل من حلقات الشيوخ المختلفين الحديث والتفسير والأدب والمنطق وعلم الأصول ، ورحل مبكراً مع أبيه إلى حج بيت الله وأخذ عن شيوخ الحرمين لأيامه . ولم يعد إلى مصر بعد الحج ، بل رحل إلى القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية فأخذ عن شيوخها ، وفي طريقه إليها نهل من حلقات الشيوخ في بيت المقدس ودمشق . وعُرف فضله في القسطنطينية فعين قاضياً في الرومللي ثم في سلانيك . وعينه السلطان مراد قاضياً للعسكر بمصر ، فظل بها مدة ، وزار القسطنطينية فلقبه مفتياً بمحي بن زكريا لقاء سيثاً وأمر بعزله . وعاد إلى مصر وعين قاضياً في القاهرة وأخذ يصنف ويحاضر طلابه وأتوه من كل بلد عربي ، ومن أهمهم عبد القادر البغدادي صاحب الخزائن ، وظل على ذلك حتى وفاته سنة ١٠٦٩ للهجرة ، وكان ماحدث له في لقاء المفتي سبباً في أن يكتب رسالة في بيان فساد القضاء والحكم في القسطنطينية وأتبعتها بخمس مقامات يصور فيها تفاقم الأحوال بعاصمة الخلافة . وكان إلى ذلك علماً ومؤرخاً كبيراً ، صنف حاشية على تفسير البضاوي طبعت بمصر في ثمانية مجلدات وحاشية على شفاء القاضي عياض طبعت في أربع مجلدات وله شفاء الغليل بما في كلام العرب من الدخيل وهو كتاب نفيس طبع مراراً . وصنف في تراجم الأدباء لزمنه في جميع البلدان العربية كتابه « ريحانة الألبا » الذي نذكره كثيراً في هوامش الفترة العثمانية ومثله خبايا الزوايا ولا يزال مخطوطاً . وكان شاعراً مجيداً ، وتحفظ المكتبة التيمورية بديوانه مخطوطاً ، وقد أنشد من شعره كثيراً في الريحانة وبالمثل أنشد منه كثيراً المحيي في ترجمته له ، وهي في أكثر من مائة صفحة .

وقد دون الشهاب الحفاجي مقاماته التي أشرنا إليها في ترجمته التي عقدناها لنفسه في نهاية كتابه الريحانة وسمى أولها المقامة الرومية وهو يستلها بقوله : « أنبأنا النعمان بن ماء السماء عن شقيق وقد رحل من وادي العقيق في الحجاز إلى القسطنطينية ، ويصفها بأن البحر قد مدَّ لعناقها ساعديه

(١) انظر في الشهاب الحفاجي ترجمته لنفسه في نهاية

بينما تقبل الأمواج الأرض بين يديه ، ويصف من بها من الجوارى الحسان والفرسان الشجعان ،
ثم يهاجم متصوفها وعلماءها . ولا يلبث أن يكوى المفتى دون ذكر اسمه بسياط من الهجاء المقذع
من مثل قوله

« لوقارنه السعد الأكبر إلى أعلى عليين ، حملته بنات نعش إلى أسفل سافلين ، أعمى البصيرة
والبصر ، عاراً على آدم أبي البشر ، إنما خلق اعتذاراً للإبليس في ترك السجود ، وأتى يقبل له عذر
وهو كفور جحود .. وما أحسنه في زوال النعم ، وأقبحه إذا قضى له الدهر بدولة وحكم » .

ويختم المقامة بمديح السلطان العثماني حينذاك . ويذكر بعدها مقامة الغربة راوياً لها عن الربيع
ابن ريان عن شقيق بن النعمان ، وفيها يصور فساد الأمور في القسطنطينية ، ويوجه إلى المفتى
المذكور فيها قصيدة هجاء لاذعة . ويتلوها بالمقامة الساسانية ، وقد استعار اسمها من الحريري في
مقامته التاسعة والأربعين ، وفيها صور الفقهاء والعلماء في القسطنطينية كأنهم جميعاً أهل كُذْبة
واستجداء يتقدمهم المفتى . ويقول قد فقد العلم لولا يقايا شرح الله بهم صدر الدين . ويدعو
للدولة العثمانية بالازدهار . ويعارض بالمقامة الرابعة رسالة لرشيد الدين الطواط المترجم له في قسم
إيران كتبها غيمن كان يزاحمه في أداته ودواته وعمله في ديوان الدولة الخوارزمية وفيها يزرى
بصاحبه ويحط منه حطاً شديداً . ونسج الشهاب الحقاقي على منواله في صنع هذه المقامة قاصداً
بها المفتى خصيصه مسمياً له باسم الوزير ، وفيها يفضع منه ونهجو هجاء مرا ، ويصور قصته معه
وأنه سمع قول الوشاة ونفاه ويمثل به تمثيلاً شديداً . والمقامة الخامسة سماها المقامة المغربية ، اقترض
اسمها من لدن الحريري وتسميته لمقامته السادسة عشرة بالمقامة المغربية ، والشهاب الحقاقي يكثر
في مقامته تلك من بعض الأمثال والأعلام والمقتطفات من الأشعار وبعض أقوال الحكماء
والألفاظ الغريبة ، ولذلك أتبعها بشرح لما استظهره في المقامة من ذلك كله .

٤

المواعظ والابتهالات

فَرَضَ الإسلام الوعظ في خطب صلاة الجمعة من كل أسبوع ، وفي خطب صلاة العيدين ،
وكان يتولاهما أئمة المساجد ، وأحياناً خلفاء الأمة ، واشتهر كثير من الوعاظ نسمع عنهم في كل
بلدة ، غير أن المصادر قلما احتفظت بمجاميع من خطبهم إلا ما كان من خطب ابن نباتة خطيب

سيف الدولة الحمداني . وطبيعي أن يشتهر بمصر غير واعظ ، ويلقانا في مفتتح هذا العصر أبو الحسن ^(١) على بن محمد البغدادي المتوفى سنة ٣٣٨ وقد استوطن القسطنطينية ، وكان له بها مجلس وعظ عظيم . ويستولى المعز لدين الله الفاطمي على مصر ، ويؤسس بها الدولة الفاطمية التي ظلت نحو مائتي عام ، وكان خطيبا مفوها ، وكان يخطب الناس يوم الجمعة بالجامع الأزهر ، ولم تحتفظ كتب التاريخ بشيء من خطبه ومواظفه في القاهرة ، وقد احتفظت بخطبة ^(٢) خطبها عقب وفاة أبيه المنصور في بلدة المنصورة بالقرب من القيروان ، بدأها بأسجاع في بيان عظمة الله وتحميده وتمجيده . وكان ابنه العزيز يخطب مثله في الجامع الأزهر حتى إذا بنى الحاكم جامعهم أخذ هو ومن جاءوا بعده يخطبون فيه ^(٣) . ويبدو أن الخطب والمواظف كانت تُعدُّ لهم - ولبن ينيونه عنهم من الوزراء - في ديوان الإنشاء . ويذكر الرواه لابن أبي الشخاء كاتب الدواوين في زمن المستنصر مجموعة من المواظف لعلها كانت خطبا أعدّها للخليفة ووزيره بدر الجلال ، وقد اشتهرت في أيامه ببلاغتها ، إذ كان - كما مر بنا في ترجمته - كاتباً بارعاً ، ونقتطف قطعة من إحدى خطبه ، إذ يقول ^(٤) :

« أيها الناس فكروا أنفسكم من حلقات الآمال المتعبة ، وخففوا ظهوركم من الآصار المستحقة ^(٥) ، ولا تُسِمُوا ^(٦) أطاعكم في رياض الأمانى المتشعبة ، ولا تُمِلُوا صَعُوكُمْ ^(٧) إلى زبارج ^(٨) الدنيا المحيية .. أين الجبابرة الماضية المتقلبة ، والملوك العظيمة المرجبة ^(٩) أولو الحفدة ^(١٠) والحجبة ، والزخارف المعجبة ، والجيوش الجبرارة اللجة ^(١١) .. طرقت - والله - خيامهم غير متنبية ، وأصبحت أظفار المنية من مهجهم قانية ^(١٢) محتضبة ، وأكلت لحومهم هوام الأرض السعية ^(١٣) ، ثم إنهم مجموعون ليوم لا يُقبلُ فيه عُذرٌ ولا مَعْتَبَةٌ ، وتجاوزى كل نفس

(١) انظر فيه حسن المحاضرة للسيوطي ٥٥١/١ والعبر

٢٤٧/٢

(٢) انظر سيرة الأستاذ جوزر (طبع دار الفكر العربي)

ص ٧٦

(٣) النجوم الزاهرة ١٠٢/٤

(٤) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (طبع القاهرة سنة

١٩٢٩) ٥٤٥/١٠

(٥) الآصار : الذنوب . المستحقة : المرتكبة

(٦) أسام الدابة في المرعى : خلاها ترعى فيه كما تشاء

والاستعارة واضحة

(٧) الصغر : الشق والجانب

(٨) زبارج : جمع زبرج : الحلية والزينة

(٩) المرجبة : الموقرة المظلمة

(١٠) الحفدة : الأعوان

(١١) الجرابرة : الكثيفة . اللجة : ذات الجلية والصوضاء

(١٢) قانية : حمراء . محتضبة : مصبوعة بالخطاب

الأحمر

(١٣) السفبة : الجائعة

بما كانت مكتسبة ، فلما سعيده مقربة ، تجرى من تحتها الأنهار ماثوبة ^(١) ، وإما شقية معدبة ، في النار مكبكة ^(٢) .

وقد التزم ابن أبي الشخاء في موعظته الباء والهاء في روى أسجاعه ، ليعطى للصوت في أول السجعة وما وراءه من الكلمات والمقاطع الفرصة كي يعلو ، ثم ينخفض فجأة آخر السجعة ، وكأنما لم تعد فيه بقية من شدة التأثر . وخصائص ابن أبي الشخاء الفنية التي عرضنا لها في حديثنا عنه واضحة أتم وضوح في هذه القطعة من الخطبة ، فهو يحن بالتصاوير عناية شديدة ، إذ يطلب إلى الناس أن يفكوا أنفسهم من سلاسل الآمال المرهقة ومحطوا عن ظهورهم ذنوبهم المقرقة ، ويصرفوا أظفارهم عن رياض الأمانى المتشعبة ، ولا تغرنهم زينة الحياة الدنيا . ويدعو الناس إلى العظة بالأمم الحالية والملوك السالفة وما كانوا فيه من ترف ونعيم . كل ذلك زال إلى غير مآب ، وذاقوا كئوس الموت دهاقا ، وأكلت هوام الأرض وحشراتهم لحومهم . ويرفع أمام أعين الناس يوم القيامة ، يوم الجزاء الأكبر ، فلما إلى النعيم وإما إلى الجحيم .

ونغضى إلى زمن الأيوبيين ، فإلقانا إبراهيم بن منصور المتوفى سنة ٥٩٦ إمام جامع عمرو بن العاص بالفسطاط وخطيبه ، وولى الخطابة بعده ابنه محمد يقول السبكي : « وله ديوان خطب مشهور ^(٣) » . وطبيعى أن الخطابة لزمن الأيوبيين وحروبهم مع الصليبيين كانت تحض بقوة على جهاد أعداء الله والإسلام وبذل المهج والأرواح في سبيل نصرته دينه الحنيف . ولم تكن خطب الجهاد تلقى في أيام الجمع فحسب . بل كانت تلقى كلما أريد تجميع الشعب لحمل السيف والسلاح . ويروى المقرئ ^(٤) أنه حينما علم الفرنج بموت الملك نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧ تقدموا من دياط تجاه المنصورة « فورد كتاب إلى القاهرة من العسكر أوله : (انفرؤا خفاً وتقلاً واجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) وكان في الكتاب مواعظ بليغة في الحث على الجهاد ، فقرأ على منبر جامع القاهرة ، وقد جُمع الناس لسماعه ، فارتجت القاهرة والفسطاط وضواحيها وخرج الناس للقاء الصليبيين من المدينتين الكبيرتين ومن سائر الأعمال ، فاجتمع عالم عظيم سحق الصليبيين سحقاً ذريعاً كما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

(٣) انظر ترجمة أبيه عند السبكي ٣٧/٧

(٤) الخطط ٤١٣/١

(١) ماثوبة : مكافأة

(٢) مكبكة : منجمّة .

ونلتقى في زمن المالك بابن المنير ^(١) الإسكندري المتوفى سنة ٦٨٣ المتولى قضاء الإسكندرية وخطابها مرتين ، ويقول صاحب فوات الوفيات : « له ديوان خطب » . وكان يعاضره أخطب الخطباء قاطبة أيام المالك ابن دقيق ^(٢) العيد المتوفى سنة ٧٠٢ علم الأعلام وشيخ الإسلام وقاضى القضاة في جميع ديار مصر منذ سنة ٦٩٥ إلى وفاته . ويشيد مترجموه بورعه وتقواه ، ويقول السبكي : « له ديوان خطب مفرد معروف » . وكان شاعراً ، وبطيل مترجموه في ذكر أشعاره ، ولا يعرضون شيئاً من خطبه ومواعظه إلا موعظة ذكر السيوطى أنه كتب بها إلى قاضى اخميم بالصعيد ، وفيها يقول ^(٣) :

« نحمد الله الذى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) ، ويمهل حتى يلتبس الإهمال بالإهمال على المغرور ، ونذكره بأيام الله (وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدلون) ونحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا فما أحد سواه مغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار . وتأخذ هذه النصائح بحجزته عن النار ، والمقتضى لإصدارها ما لمخناه من الغفلة المستحكة على القلوب ، ومن تقاعد الهمم مما يجب للرب على المربوب ، .. ووالله إن الأمر عظيم ، والخطب جسيم ، ولا أرى .. إلا رجلاً نبد الآخرة وراءه ، واتخذ إله هواه ، وقصره همة وهمة على حظ نفسه ودنياه ، فناية مطلبه حب الجلاء .. فاتق الله الذى يراك حين تقوم ، واقصر أملك عليه فإن المحروم من فضله خير مرحوم .. واجعل أكثر همومك الاستعداد ليوم المعاد ، والتأهب لجواب الملك الجواد فإنه يقول : (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) .

ولعل في هذه القطعة ما يصور وعظ ابن دقيق العيد في خطبه وأنه كان يتدفق فيه كالنيل بالعذب . مما جعل معاصريه يشيدون طويلاً برفائق وعظه وكلمه التى كان يخلب بها وبما يضمنها من آى الذكر الحكيم عقول مستمعيه ، فيملأ نفوسهم بالإجابة إلى الله . وكان دائماً يرفع أمام أعينهم أهوال يوم المحشر يوم تجزى كل نفس بما كسبت وعملت وقدمت ، فإذا هم يرتجفون ويكون بدموع غزار ، وقد خشعت قلوبهم وذابت نفوسهم وهلعوا إلى دعاء الله يستغفرونه ويتوبون إليه توبة نصوحاً :

(٢) راجع مصادر ترجمة ابن دقيق العيد

ص ١٤٦ .

(٣) حسن المحاضرة ١٦٨/٢

(١) انظر في ابن المنير فوات الوفيات ١٣٢/١ والنجوم

الزاهرة ٣٦١/٧ وحسن المحاضرة ١٦٦/١ وشذرات الذهب

وما يزال السيوطي في حسن المحاضرة يسوق إلينا أسماء كبار الوعاظ وخاصة بين الصوفية ، ومُرّ بنا في الفصل الأول حديث مفصل عن التصوف بمصر وكيف أخذ يزدهر بها منذ عنت به الدولة في عهد صلاح الدين ، وإنشائه لخانقاه سعيد السعداء . واتسع بناء الخانقاهات بعده في أيام الماليك ، وكانت دورا كبيرة للنسك ودراسة العلوم الدينية على نحو ما يذكرون عن خانقاه سرياقوس التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون ، ومُرّ حديث مفصل عنها وعن غيرها من الخانقاهات المملوكية . وبنوا بجانبها للصوفية اثني عشر رباطا . كل ذلك عمل على ازدهار التصوف بمصر منذ القرن السادس الهجري . وكان كثير من الصوفية يتبعون الطريقتين العراقيتين : القادرية الجيلانية والرفاعية .

ولم تشع طريقة في العالم الإسلامي إلا كان لها فروع وأتباع في مصر ، وأخذت تؤسس بها طرق مشهورة في مقدمتها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى مؤسسها أبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة ٦٥٦ وسنخصه بترجمة قصيرة . وتلتها سريعا الطريقة البرهامية نسبة إلى إبراهيم ^(١) الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٢ بدسوق بالقرب من رشيد ، وهو من ذرية علي بن أبي طالب ، والطريقة الأحمدية نسبة إلى أحمد ^(٢) البدوي المتوفى سنة ٦٧٥ بطنطا وهو أيضا سليل علي بن أبي طالب . وكان لكل طريقة ورد خاص تردده ، كله ابتهالات إلى الله ومناجيات وأدعية ، وكثرت على السنة المتصوفة هذه الأدعية والمناجيات والابتهالات والأوراد ، وسنعرض لهذا الجانب عند أبي الحسن الشاذلي في ترجمته . ونسوق قطعة من ورد أو حزب إبراهيم الدسوقي ، يقول مناجيا ربه :

« بأسمائك يارب العالمين . بالسموات القائمة ، فهن بالقُدرة واقفات ، بالسَّبع المتطابقات ، بالحجب المترادفات ، بمواقف الأملاك (الملائكة) في مجارى الأفلاك . بالكُرى البسيط ، بالعرش المحيط .. اللهم احرسني من كيد الفاسق ، ومن سطوة المارق ، ومن لَذغة المنافق » .
وكان يعاصر الدسوقي والبدوي أبو العباس ^(٣) المرسى المتوفى سنة ٦٨٦ تلميذ أبي الحسن

(٣) انظر في ترجمة أبي العباس كتاب لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسى وشيخه أبي الحسن وراجع الشراي ١٤/٢ والنجوم الزاهرة ٣٧١/٧ وحسن المحاضرة ٥٢٣/١ والوافي ٢٦٤/٧ وشذرات الذهب ٢٧٣/٥ .

(١) انظر الدسوقي في الطبقات الكبرى للشعراني (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) ١٨٣/١ وخطط على مبارك ٧/١١
(٢) راجع ترجمة البدوي في الشراي ٢٠٢/١ والنجوم الزاهرة ٢٥٣/٧ وحسن المحاضرة ٥٢١/١ وشذرات الذهب

الشاذلى ، وهو أندلسى من مرسية ، ولد بها سنة ٦١٦ للهجرة ، وفى الرابعة والعشرين من سنه خرج إلى الحج ، وفى طريقه توقف بتونس ، وفيها تعرف على الصوفى الكبير أبى الحسن الشاذلى ، وأصبح أقرب أتباعه ومريديه إليه ، حتى إذا رخل إلى الاسكندرية سنة ٦٤٢ رحل معه . وكان لا يبرح مجلسه ، وزوجه ابنته ، وأعلن إلى أتباعه فى جامع المطارين بالإسكندرية أنه خليفته ، وكان يتقن العلوم الشرعية ، ويدرسها هى وبعض كتب الصوفية ، وأقبل على دروسه الطلاب . واستأذن شيخه فى السفر إلى القاهرة للتدريس بمساجدها ونشر طريقته بها ، فأذن له ، وكان يلقي دروسه فى الجامع العتيق : جامع عمرو بن العاص وجامع المقس ويسمى الآن جامع أولاد عنان بالقرب من محطة باب الحديد . وكانت حلقة فى الجامعين تزدهم بالطلاب والعلماء . وتوفى أستاذه سنة ٦٥٦ فخلفه على الطريقة ، وكان أكثر مقامه بالإسكندرية ، ومن حين إلى حين ينزل القاهرة ، ناسرا هنا وهناك الطريقة الشاذلية ، ولتلميذه ابن عطاء الله كتاب قصره عليه وعلى أستاذه الشاذلى سماه « لطائف المتن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن » ويعد جامعه اليوم أكبر جوامع الإسكندرية ، ويورد ابن عطاء الله كثيرا من أقواله ، كما يورد له وردا أو حزبا تقطع من ابتهالاته وأدعيته قوله (١) :

« اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك ، والمحبة لك ، والشوق إليك ، والأنس بك ، والرضا منك ، والطاعة لأمرك ، على بساط مشاهدتك ، ناظرين منك إليك ، وناطقين بك عنك .. اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيننا وبين الصدق والنية والإخلاص والخشوع والهية والحياء والمراقبة ونور اليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوة والستر والمغفرة والفصاحة والبيان والفهم فى القرآن وخُصَّنا منك بالحببة .. وآتانا العلم اللدنى والعمل الصالح والرزق الهنىء على بساط علم التوحيد والشرع .. وسخر لى الرزق واعصمنى من تعلق الهمة به ومن الذل للخلق بسببه .. وهب لى لسانا لا يفترعن ذكرك وقلبا يسمع بالحق منك .. وبغض لنا الدنيا وحبيب لنا الآخرة .. اللهم لاتعذبنا بإرادتنا وحب شهواتنا فنشتغل أو نُحجب أو نفرح بوجود مرادنا أو نُحزن أو نُسخط .. وأنت أعلم بقلوبنا فارحمنا بالنعيم الأكبر والمزيد الأفضل والنور الأكمل » .

(١) لطائف المتن لابن عطاء الله على هامش كتاب لطائف المتن والأخلاق للشرعاني (طبع المطبعة الميمنية بمصر) ٣٧/٢

والورد طويل ويتخلله كثير من الآيات القرآنية ، وهو مناجاة روحية صافية للذات العلية . ويتضح فيه كيف تجمع الطريقة الشاذلية بين علم الشريعة وعلم الحقيقة الصوفية ، ولعل ذلك ما جعلها تشدّد على أتباعها في أن لا يلبسوا المرقعات وأن لا يسألوا الناس شيئا مما في أيديهم من مال أو غذاء مع الاعتماد على النفس في كسب القوت عن طريق التجارة والزراعة وغيرهما . وبذلك وصلت بين أتباعها والحياة والشريعة ، وسنخص ابن عطاء الله تلميذ أبي العباس المرسى بترجمة قصيرة . ومن متصوفة مصر المعاصرين لأبي العباس عبدالعزيز^(١) الدميرى الديرينى ، ولد بقرية دميرة بالقرب من دمياط سنة ٦١٢ وتوفى بديرين في الصعيد سنة ٦٩٤ وكان يتجول في ريف مصر شمالا وجنوبا ، وكان فقيها شافعيًا ، ونظم كتاب التنبيه لأبي إسحاق الشيرازى ، ونظم سيرة نبوية . وكان له تفسير في مجلدين . وكان متقشفاً مخشوشنا ، وله في التصوف كتاب « طهارة القلوب في ذكر علام الغيوب » وهو يمتلئ بمناجيات إلهية بديعة من مثل قوله :

« إلهى ، عرّفنا بربوبيّتك ، وعرّقتنا في بحار نعمتك ، ودعوتنا إلى دار قدّسك ، ونعمتنا بذكرك وأنسك .

إلهى ، إن ظلمة ظلّنا لأنفسنا قد عمّت ، وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمّت ، فالعجز شامل ، والحصر^(٢) حاصل ، والتسليم أسلم ، وأنت بالحال أعلم .

إلهى ، ماعصيناك جهلا بعقابك ، ولا تعرّضنا لعذابك ، ولكن سوّلت^(٣) لنا نفوسنا ، وأعاننا شيقوتنا ، وعرّنا سترك علينا ، وأطمعنا في عفوك برّك بنا ، فالآن من عذابك من يستقيّدنا ؟ وبِحبل من نعتم إن قطع حبلك عنا ؟ واخجلّتنا من الوقوف غداً بين يديك ، وافضّحتنا إذا عرّضت أعمالنا القبيحة عليك .

اللهم اغفر ما علمت ، ولا تهتك ماسترت .

إلهى ، إن كنا عصيناك بجهل فقد دعوناك بعقل ، حيث علمنا أن لنا رباً يغفر الذنوب ولا يبالى .

وهي مناجاة لله بديعة صافية كل الصفاء نقية كل النقاء ، مناجاة تنبئ عن قصور العبد وتعلقه

(٢) الحصر : العى .

(٣) سوّلت : أغرت . وتقال في الشرور والسوء .

(١) انظره في طبقات الشافعية للسبكي ١٩٩/٨ وحسن

المحاضرة ٤٢١/١ والشعراني ٢٢٤/١ ومناجاته المذكورة في

بربه وطمعه في غفرانه وعفوه إذ يرى كل صلاته ونسكه وعبادته وكل ما قدم يقصر عن حق إلهه .
ويروى السبكي مناجاة لصوفي شاذل من صوفية القرن الثامن هو شمس ^(١) الدين بن اللبان محمد
ابن أحمد المتوفى سنة ٧٤٩ وقد أخذ الطريقة الشاذلية عن ختنه (والد زوجته) ياقوت العرشي
تلميذ أبي العباس المرسى ، ويقول السبكي إنه نقل مناجاته عن كتابه « المتشابه في الربانيات »
وهي تطرد على هذا النمط .

« الهى ! جَلَّتْ عَظَمَتُكَ أَنْ يَعْصِيكَ عَاصٍ ، أَوْ يَنْسَاكَ نَاسٍ ، وَلَكِنْ أَوْحَيْتَ رُوحَ أَمْرِكَ
فِي أَسْرَارِ الْكَائِنَاتِ ، فَذَكَرَكَ النَّاسِي بِنَسْيَانِهِ ، وَأَطَاعَكَ الْعَاصِي بِعَصْيَانِهِ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
يَسْبُحُ بِحَمْدِكَ ، إِنْ عَصَى دَاعِيَ إِيمَانِهِ فَقَدْ أَطَاعَ دَاعِيَ سُلْطَانِكَ ، وَلَكِنْ قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّتُكَ ،
وَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ : (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ) .

ويبدو أن كتاب المتشابه في الربانيات كان شطحات كثيرة على نحو ما نرى الآن من قوله : إن
العاصي يطيع الله بعصيانته وإنه إن عصى داعي إيمانه فقد أطاع داعي سلطانه ، فكيف يُعَدُّ
العاصي لله مطيعا له ؟ وإذن لا يكون في الدنيا عاص ومطيع . ولذلك يقول السبكي إن هذه
المناجاة مما أخذ عليه . ويقول ابن حجر : ضُبِطَتْ عَلَيْهِ كَلِمَاتٌ عَلَى طَرِيقِ الْإِتِّحَادِيَةِ الْقَائِلِينَ
بِالْحُلُولِ ، كَمَا يَقُولُ إِنْ لَهُ كِتَابًا عَلَى لِسَانِ الصُّوفِيَّةِ ، فِيهِ مَنَ إِشَارَاتُ الصُّوفِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِالْوَحْدَةِ ،
وهو في غاية الخلاوة لفظا وفي المعنى سم قاتل .

وكان يعاصره يوسف ^(٢) بن عبد الله العجمي الكردي المصري الدار المتوفى سنة ٧٦٨ وقد
دفن بزاويته بقرافة مصر . ويقول ابن حجر : « له زوايا في عدة بلاد » . ويصفه ابن تغري بردي
بقوله : « الإمام العالم المسلَّك الصوفي العارف بالله تعالى المعتقد .. وقبره يقصد للزيارة ، كان
شيخا حقيقَةً ومُقَدِّدِي طَرِيقَةٍ ، كان إمامَ الْمُسْلِكِينَ (آخِذِي الْعَهْدِ عَلَى الْمُرِيدِينَ) فِي عَصَرِهِ وَلَهُ
رِسَالَةٌ فِي التَّصَوُّفِ سَمَّاها « رِيحَانُ الْقُلُوبِ وَالتَّوَصُّلُ إِلَى الْمَحْبُوبِ » . ومن هذه الرسالة مخطوطتان
بدار الكتب المصرية وقد ذكر فيها شرائط التوبة ولبس الخرقَة أو المِرْقَعَة الصُّوفِيَّةِ وتلقين
الذكر .. ويقول ابن تغري بردي : انتفع بصحبته جماعة من العلماء والصلحاء والفقهاء ، وكان

(٢) انظر في يوسف العجمي النجوم الزاهرة ٩٤/١١
والدرر الكامنة لابن حجر ٢٣٨/٥ والشرايف ٧١/٢ وحسن
المحاضرة ٤٢٦/١

(١) انظر ابن اللبان في الدرر الكامنة ٤٢٠/٣ والسبكي
٩٤/٩ وحسن المحاضرة ٤٢٨/١ والوفاء بالوفيات للصفدي
١٦٨/٢ ومراة الحنان ٣٣٣/٤ وشذرات الذهب ١٦٣/٦

على قدم هائل ، كان غالب علماء عصره يقتدون به ، وكان له أوراد وأذكار هائلة ، وهذه الأذكار والأوراد سقطت من يد الزمن . وهو وأوراده رمز لمن جاء بعده من المتصوفة في أيام الممالك وما كان لهم من أوراد وأحزاب سقطت من يد الزمن .

ونغضى إلى أيام العثمانيين وولتقى في مطلعها بأبى السعود ^(١) الجارحى المتصوف المتوفى سنة ٩٣٠ و يشيد به الشمرانى ، وأهم منه الشمرانى ^(٢) نفسه المتوفى سنة ٩٧٣ وقد ألمنا به في حديثنا عن الزهد والتصوف في الفصل الأول ، وفي كتابه « لطائف المنن والأخلاق » بيان بالمؤلفات التى قرأها وبأساتذته ومراحل حياته الصوفية والأخلاق التى التزمها في حياته . ومع أنه صوفى سنى نراه يدافع عن أساتذه الروحى : ابن عربى ، محاولا تأويل عباراته على نحو ما يصور ذلك في كتابه « الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر » . وتظل الطرق التى عرضنا لها في غير هذا الموضع ناشطة بمصر . ويعلو شأن الطريقة الخلوتية المنسوبة الى الشيخ محمد الخلوتى منذ نزل القاهرة الشيخ مصطفى ^(٣) بن كمال الدين البكرى الناشئ ببيت المقدس ، وقد طُوف في بلدان الشام والعراق وتركيا وحج مرارا وسكن بأخرة القاهرة وتوفى بها سنة ١١٦٢ ويعرف به الجبرى قائلا : شيخ الطريقة والحقيقة ، قدوة السالكين ، ومرعى المريدين الإمام المسلّك ، تأليفه تقارب الماشين ، وأوراده أكثر من ستين وردا . وأجلها ورد السحر ، ونقتطف من مناجياته لربه فيه وابتهالاته قوله ^(٤) :

« إلهى ، أنت المدعو بكل لسان ، والمقصود في كل آن .

إلهى ، أنت قلت : (اذعنوا أستجب لكم) فما نحن متجهون إليك بكليتنا فلا تردنا ، واستجب لنا كما وعدتنا .

إلهى ، اين المفر منك وأنت المحيط بالأكوان ؟ وكيف الهراح عنك وأنت الذى قِيدتنا بلطائف الإحسان .

والشمرانى إمام التصوف في عصره لتوفيق الطويل .

(٣) انظر في ترجمة مصطفى البكرى الصديق الخلوتى تاريخ الجبرى ١٦٥/١ وسلوك الدرر ١٩٠/٤ ودائرة المعارف الإسلامية في البكرى .

(٤) انظر في ورد السحر للبكرى مجموع الأوراد الكبير (طبع مكتبة النصر) ص ٧٨ - ١١٨

(١) راجع فيه الطبقات الكبرى للشمرانى ١٤٣/٢

(٢) انظر في ترجمة الشمرانى كتابه « لطائف المنن والأخلاق » في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق ، والكواكب السائرة ٢٥٩/٢ وطبقات المناوى الكبرى ٤٩٥/٢ والخطط التوفيقية ١٠٩/١٤ وكتاب الشمرانى والتصوف الإسلامى لطله عبدالباقى سرور ،

إلهي ، بحق جمالك الذي قُتِّ به أكبادَ المحبين ، وبجلالك الذي تحيرت في عظمتها ألبابُ
العارفين .

إلهي ، بالنور المحمدي الذي رفعت على كل رفيع مقامه ، وضربت فوق خزانة أسرار ألوهيتك
أعلامه ، أفتحْ لنا فتحة صَمَدَانِيَا وَعِلْمًا رَبَانِيَا ، وَتَجَلِّيَا رَحْمَانِيَا ، وَفَيْضًا إِحْسَانِيَا .
وعن هذا الشيخ أخذ الطريقة الخلوتية جمع من العلماء المصريين الأعلام في مقدمتهم الشيخ
الحفي شيخ الجامع الأزهر وهو ملتقى أسانيد الطريقة بعده ، ومن أخذها عنه الشيخ أحمد
الدردير . وسنخصه بترجمة قصيرة بعد أبي الحسن الشاذلي وابن عطاء الله السكندري .

أبو الحسن ^(١) الشاذلي

هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار ، من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب ، ولد سنة ٥٩٣
للحجرة بقرية تسمى غارة بالقرب من سيّنة في المغرب الأقصى ، وعلى عادة لداته في النشأة بدأ
حياته بحفظ القرآن الكريم وأكبَّ على العلوم الإسلامية واللغوية حتى أنقنها . ولم يكد يبلغ نحو
العشرين من عمره حتى أحسَّ برغبة شديدة للنهل من معين الصوفية ، فرحل إلى المشرق ليلقى
العلماء النساك ، ونزل تونس ، ولقى فيها وفي المدن المغربية قبلها حَمَلَةَ طَرِيقَةِ الصُوفِ المغربي
أبي مدين . ولم يلبث أن عزم على أداء فريضة الحج فزار مصر ودخل الحجاز ، ثم زار فلسطين
والشام والعراق ، وتعرف في بغداد على صوفي رفاعي هو أبو الفتح الواسطي ، وكأنما كان باب
سلوكه الصوفي . وعاد إلى المغرب ، فكان من محاسن الصدق أن تعرف في فاس على صوفي هو
عبد السلام بن مشيش ، فلزمه ، واتخذهُ إماماً وشيخاً ، وقد دفعه دفْعاً إلى أن يعيش للتصوف
وحبة الله ، إذ كان يكرر عليه قوله : « أَدْمِنِ عَلَى الشَّرْبِ وَالْحَبَّةِ وَكَأْسُهُمَا مَعَ السُّكْرِ وَالصَّحْوِ ، كَلِمَا
أَفْقَتَ أَوْ تَبَقَّظْتَ شَرِبْتَ ، حَتَّى يَكُونَ سُكْرُكَ بِهِ ، وَحَتَّى تَغِيْبَ بِجِوَالِهِ عَنِ الْحَبَّةِ وَعَنِ الشَّرْبِ
وَالشَّرَابِ وَالْكَأْسِ ، بِمَا يَبْدُو لَكَ مِنْ نُورِ جِوَالِهِ ، وَقَدْ سَ كَمَا لَهُ وَجَلَالُهُ » . ولم يلبث شيخه أن أمره

(١) راجع ترجمة الشاذلي في كتاب « لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن » وحسن المحاضرة ٥٢٠/١ ونكت الهيمان ص ٣١٣ والشعراني في الطبقات ٤/٢ والنجوم الزاهرة ٦٩/٧ وراجع المفاخر العلمية في المآثر الشاذلية لابن عباد وهو مطبوع ، وأبو الحسن

الشاذلي للدكتور عبد الحليم محمود ، وأعلام الاسكندرية في العصر الاسلامي للدكتور جمال الدين الشيال ص ١٦١ والأدب في التراث الصوفي للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص ١٥٠ .

بالمهجرة إلى شاذلة بالقرب من تونس في إفريقية الوسطى ، فهاجر إليها ، وهناك أخذ ينشر في الناس الدعوة إلى التصوف ، ولصقت البلدة باسمه حتى اشتهر باسم الشاذلى وكان يتركها أحيانا إلى تونس وفيها تعرّف بتلميذه أبى العباس المرسى وتوثقت الصلة بينهما فى الله ومحبه حتى قال له الشاذلى يوما : « ماصحبتك إلا لتكون أنت أنا »

وهاجر الشاذلى وتلميذه أبو العباس وجمع من مريديه إلى الاسكندرية فى سنة ٦٤٢ وبها ألقى عصا تسياره ، وذاع صيته لافى الإسكندرية وحدها ، بل أيضا فى القاهرة ، إذ كان يتردد عليها لنشر طريقته الصوفية ، وكان يحضر مجالسه فى مدرسة الحديث الكاملية شيوخ الإسلام حينئذ وأكابر العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين .. وكان يلقى دروسه ومواعظه فى الاسكندرية بجامع العطارين . وطار صيته فيها وفى القاهرة والمدن المصرية ، فانهال المصريون عليه ، يطلبون القرب من الله على يديه ، وفى هذه الأثناء أصاب عينيه رمد أفقده بصره . وكان يُعجب بأبى العباس المرسى منذ لقائه به فأعلن فى أتباعه - كما مر بنا - أنه خليفته على طريقته ، وهى تقوم على التمسك بالكتاب والسنة والشرعية المحمدية بجانب النسك والعبادة وصدق القلب . والشعور الباطنى الصوفى .

وهاجم الشاذلى بقوة حياة الخانقاهات والتسول التى كان يعيشها الدراويش الرُحْل ، فعنده أن الصوفى الحقيقى لا يكون سائلا ولا طفيليا يمد يده للغير ، بل لابد أن يعتمد على نفسه فى كسب قوته ، فتصوّفه أو طريقته الصوفية كانت طريقة سنية . وكان يدعو مريديه لحمل السلاح ضد أعداء الإسلام الصليبيين ، وكان يرحل معهم إلى ميادين الحرب كما حدث فى موقعة المنصورة المشهورة لعهد السلطان نجم الدين أيوب وابنه توران شاه حين اقتحم لويس التاسع ملك فرنسا دمياط وتقدم منها سنة ٦٤٧ بجيشه نحو المنصورة إذ نجده مع مريديه هناك ، ونجد معه شيوخ الدين وعلماء الكبار من مثل العز بن عبد السلام وابن دقيق العيد وعجى الدين بن سراقه وغيرهم من جُلّة الشيوخ . وحدث أن تكلموا يوما واعظين ، وجاء الدور فى الكلام والخطابة على أبى الحسن ، فنكلم - كما يقول الرواة - بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة ، وانهب الشيخ العز بن عبد السلام ، فقام هاتفا منبرها قائلا : اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله . وأنزل الجيش المصرى بالصليبيين هزيمة ساحقة ، واستسلم ملكهم لويس التاسع ذليلا كسيرا ، وارتحلوا عن دمياط خاسئين مدحورين إلى البحر المتوسط وماوراءه .

وعاد أبو الحسن الشاذلى إلى الاسكندرية والعلماء والناس يَكُونُ عليه للاستزادة من علمه وطريقته وتعاليمه . حتى إذا كانت سنة ٦٥٦ خرج إلى الحج عن طريق القصير ومعه أبو العباس وبعض مريديه ، وفى صحراء عذاب بين قنا والقصير أحسَّ بدنو أجله فأعلن إلى أتباعه استخلافه عليهم أبا العباس المرسى ، ولم يلبث أن أسلم روحه إلى بارئه . وتدل أقواله وأدعيته وابتهالاته ومناجياته لربه فى أوراده على أنه كان يملك ناصية العربية مصرِّفاً أزمته كيف شاء ، وله أوراد كثيرة ، وقد ساق ابن عطاء الله منها فى كتابه لطائف المنن أربعة أوراد له أو أحزاب ، لعل أهمها الحزب المسمى بالحزب الكبير وهو يستهله ويتخلله بآيات قرآنية كثيرة ، ويناجى ربه فيه بمثل قوله :

« اللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد وسعت كل شىء من جهالتى بعلمك فسعَ ذلك برحمتك كما وسعته بعلمك واغفرلى إنك على كل شىء قدير . يارزاق يا قوى يا عزيز ! لك مقاليد السموات والأرض تبسط الرزق لمن تشاء وتقدر فابسط لنا من الرزق ما توصِّلنا به إلى رحمتك ، ومن رحمتك ما تحول به بيننا وبين نعمتك ، ومن حلمك ما يسعنا به عفوك ، واختم لنا بالسعادة التى ختمت بها لأولياك ، واجعل خير أيامنا وأسعدها يوم لقائك ، وزحزحنا عن حب الدنيا وعن نار الشهوة وأدخلنا بفضلك فى ميادين الرحمة ، واكسنا من نورك جلايب العصمة ، واجعل لنا ظهيرا من عقولنا ، ومهيما من أرواحنا ، ومسخرنا من أنفسنا (كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا) » .

اللهم إنا نسألك إيمانا دائما ، ونسألك قلبا خاشعا ، ونسألك علما نافعا ، ونسألك يقينا صادقا ، ونسألك ديننا قيما ، ونسألك العافية من كل بليَّة ، ونسألك الشكر على العافية ، ونسألك الغنى عن الناس .

والمناجاة طويلة ، وهو يلم فيها - كما نرى - بطلب المغفرة والرحمة من ربه وأن يكون خير أيامه وأسعدها يوم لقائه وأن ينقِّره من حب الدنيا ويعصمه من شهواتها وأن يجعل حياته نسكا وعبادة له . وما يزال فى الورد يتمنى أن يهبه الله رضاه وحبَّه وأن يدفع عه كل ضر وأذى وأن يغنيه عن السؤال وأن ينعم عليه بعزِّ الدنيا من الإيمان والمعركة وبعر الآخرة من اللقاء والمشاهدة . ولم يكن يطلب إلى أصحابه أن يشقوا على أنفسهم فى العبادة والتسك وأن يلبسوا الخرق والمرقعات بل كان يطلب إليهم الرفق بأنفسهم فى التقوى والعبادة ، وأن يشتركوا فى الحياة مع مجتمعهم تجاروا وزراعا وأصحاب حرف ، فإن العمل نفسه يعد عبادة . وبذلك كان يدعو أتباعه أن لا يكونوا عالة على

الاجتماع بل يعملوا ويحدوا مع صفاء النفس وسمو الروح ، ومع التقوى والعمل الصالح . وشاعت طريقته في الديار المصرية وفي شمال أفريقيا وخاصة في الشمال الغربي ، وتفرعت منها أكثر من عشرة طرق من أهمها الطريقتان الوفائية والخلوتية .

ابن عطاء ^(١) الله السكندري

هو تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري ، ولد بالإسكندرية في أواخر العقد السادس من القرن السابع ، واستهل حياته بحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ يعكف على دراسة العلوم الدينية واللغوية حتى برع فيها ، يقول السيوطي : « كان جامعاً لأنواع العلوم من تفسير وحديث ونحو وأصول وفقه على مذهب مالك » . ويبدو أنه جمع إلى مذهب مالك دراسة مذهب الشافعي مما جعل السبكي يترجم له في طبقات الشافعية ، وله في مذهب مالك مختصر تهذيب المدونة للبرادعي . وكان في أول أمره منصرفاً عن التصوف والصوفية . بل كان ينكر عليهم طريقته ، حتى تصادف أن استمع إلى أبي العباس المرسى تلميذ أبي الحسن الشاذلي ، فأعجب به ، وأجذ يقتنع بطريقة القوم ، حتى أصبح أكبر مرید لأبي العباس وآثر تلاميذه عنده ، ولما توفي سنة ٦٨٥ خلفه على رياسة الطريقة الشاذلية . وله فضل كبير في نشرها ، فقد كان فقيهاً كبيراً ، كما كان صوفياً شاذلياً كسناً ، فجلس مجلس أستاذه يدرّس للناس الفقه والتفسير ويعظمهم ، فيبلغ كل ما يريد من التأثير فيهم .

واستوطن ابن عطاء الله القاهرة ، واتخذ له حلقة في الجامع الأزهر تارة وفي المدرسة المنصورية تارة أخرى يعظ الناس ويرشدهم ، وأكبُّ عليه الفقهاء وفي مقدمتهم تقي الدين السبكي ، وأكبت عليه العامة ، ودخل كثيرون في طريقته لروعة وعظه وحسن بيانه ، وخاصة أنه كان يمزج مواعظه بالقرآن الكريم والحديث النبوي وأقوال السلف . فكثرت أتباعه ، وأصبح لطريقته الشاذلية شأن عظيم ، وكان يكرر ويردد دائماً مبدأها الأساسي وهو أن الصوفي الحقيقي مَنْ يجمع بين علوم الشريعة وعلوم الصوفية ، وأنه لا تصوف بدون أداء الفرائض والنوافل ، وأن على المتصوف أن يكتسب قوته وما يقيم به أوده ، وأما من يسألون للناس ويتضرعون إليهم طالبين ما يسدُّون به رمقهم

(١٣٥١ هـ) ص ٧٠ والواقى ٥٧/٨ وشذرات الذهب ١٩/٦ وكتابا عنه للدكتور التفتازاني وأعلام الاسكندرية للدكتور الشيال ص ٢١٤ .

(١) انظر في ابن عطاء الله النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨ وطبقات الشافعية ٢٣/٩ والدرر الكامنة ٢٩١/١ وحسن المحاضرة ٤٧٤/١ وطبقات الشراعى ١٤/٢ والبدر الطالع ١٠٧/١ والديباج المذهب لابن فرحون (طبع القاهرة

فليسوا من التصوف في شيء . فالصوفي يعمل ويحني ثمرة عمله ولا يسأل سوى ربه راضيا برزقه ونصيبه من دنياه ، ويقول ابن حجر : « كان المتكلم على لسان الصوفية في زمانه » وألف في مناقب شيخه أبي العباس المرسى وأبى الحسن الشاذلي كتابه « لطائف المنن » فأرسي به الطريقة وتعاليمها وكتب لها الذبوع . ويقول الذهبي : « كانت له جلالة عجيبة ووقع في النفوس ومشاركة في الفضائل » ويقول السبكي : « كان إماما عارفا صاحب إشارات وكرامات وقدم راسخ في التصوف » ويقول صاحب النجوم الزاهرة في التعريف به « الشيخ القدوة العارف بالله تعالى الصوفي الواعظ المذكر المسلك ، وكان يحضر حلقة وعظه خلق كثير ، وكان لوعظه تأثير في القلوب وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق . وصنف ابن عطاء الله « لطائف المنن » في مناقب أبي العباس المرسى وشيخه أبي الحسن والتنوير في إسقاط التدبير ، والمرق إلى القدس الأتقي ، وتاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس ، ومفتاح^(١) الفلاح ومصباح الأرواح . ووضح من عنوانات هذه المصنفات أنها كتب صوفية . وله أقوال وكلمات بليغة دونها أصحابه في كتاب باسم « حكم ابن عطاء الله السكندري » وهي منشورة . وله أشعار على طريقة الصوفية . أنشدنا منها مقطوعة في غير هذا الموضع . وتوفي بالمدرسة المنصورية كهلا سنة ٧٠٩ ودفن بجبانة^(٢) آل أبي الوفا شرق جبانة الإمام الليث ، وكانت جنازته - كما يقول مترجموه - حيلة لكثرة أتباعه من الفقهاء والعلماء والعامة

وكان ابن عطاء الله إذا وعظ استرسل في وعظه ، وقد يذكر آية قرآنية أو حديثا نبوياً فتتوالى سيول القول ، من ذلك ما جاء في وصفه للرسول ﷺ في كتابه « لطائف المنن » إذ يقول : « مشرق الأنوار ومعدن الأسرار ، مَنْ له الفتح والختام ، والحائز للمقامات العلية بالتمام ، رسول رب العالمين ، وسيد الأولين والآخرين ، محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين . فهو نور الأنوار وسر الأسرار ، إليه تنزل الأسرار الربانية ، وعنه تؤخذ المعارف الإلهية . أخذ أهل الظاهر عنه ظاهريهم ، وأخذ أهل الباطن (الصوفية) منه باطنهم ، وقال ﷺ : العلماء ورثة الأنبياء ، وكل على قدر إرثه ، وإرثه على قدر نوره ، ونوره على قدر فتحه ، وفتحته على قدر صفاء قلبه ، وصفاء قلبه على قدر معرفته بربه ، ومعرفته بربه على حسب ماسبق له من حبه » .

(٢) في الإسكندرية مسجد منسوب إليه ، ولعله كان يلقى فيه أحيانا بعض مواظله

(١) انظره مطبوعا مع لطائف المنن على هامش كتاب لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق للشرفاء (طبع المطبعة الميمنية)

وتكثر عنده مثل هذه التفرعات والتوليدات في الكلام ، وكأنما يستمد من معين ذهني وروحي لا ينضب ، مع التنوع الدائم في الأفكار وتشعبها شعبا وفروعا لانكاد تقف عند حد ، وكأنما يريد أن يشيد منها طبقات ، بعضها فوق بعض ، وكأنما يريد أن يرفع منها صروحا شاهقة . وقد يستعين بال تكرار مع تلوين الأسلوب ألوانا مختلفة على شاكلة قوله واعظا :

« كيف يُتَصَوَّر أن يحجب الله شيء وهو الذي أظهر كل شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء ؟

كيف يتصوَّر أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء ؟

يا عجباً كيف يظهر الوجود في العدم ، أم كيف يثبت الحادث مع مَنْ له وصف القدم ؟
والعظة تدور على أن لاحجاب بين العبد ومولاه إذ هو مُظْهِر الكائنات جميعا وموجدُها ،
وجميعها تشهد بوجوده ، وإنه ليتجلى فيها جميعا . وقد ظهر لها عرفته وسببته ، وإن وجوده
لأبدى أزلى ، وإنه لواجب الوجود وحده دون سواه ، وإنه لأقرب إلى الإنسان من كل شيء ،
أقرب إليه من جَبَلِ الْوَرِيد . ويا عجباً كيف يحجبه الفاني الحادث ، وهو القديم الأزلى ، وهو يُسَرُّ
في العرض وروعة بيان وبلاغة . ويروى أن السلطان لاجين طلبه ليعظه ، وسأله في أثناء وعظه عن
الشكر ، فأجابه توا :

« الشكر على ثلاثة أقسام : « شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان . فشكر
اللسان : التحدث بالنعمة ، قال تعالى : (وأما بنعمة ربك فحدث) . وشكر الأركان : العمل
بطاعة الله قال تعالى : (اعملوا آل داود شكرا) . وشكر الجنان : الاعتراف بأن الله وحده هو
المنعم قال تعالى : « وما بكم من نعمه فمن الله » . وسأله لاجين : ما الذي يصير به الشاكر شاكرا ؟
فقال : إذا كان ذا علم فبالتيبين والإرشاد ، وإذا كان ذا غنى فبالهدل والإيثار للعباد ، وإذا كان
ذاجاه فبالظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد » . وبحق ما قاله الشمراني من أن لكلامه حلاوة
وجلالة .

أحمد ^(١) الدردير

هو أحمد بن محمد العدوى المالكي الأزهرى الشهير بالدردير ، ولد بينى عدى سنة ١١٢٧ للهجرة وحفظ القرآن الكريم وجوّده وشُغف بطلب العلم ، فورد القاهرة ، وأكبّ على حلقات العلماء يأخذ كل ما عندهم من حديث وفقه وتفسير وعلم كلام ولغة ونحو وبلاغة . وشغف بدروس الشيخ الحفنى شيخ الجامع الأزهر حينذاك ، وكان قد انتظم فى سلك الخلوتية - كما مرّ بنا - عن طريق الشيخ الخلقى الكبير مصطفى بن كمال الدين البكرى ، فأخذ الدردير عنه الطريقة فيمن أخذوها عنه من العلماء والأجلاء وكان زاهدا عفيفا تقيا ورعاسليم الباطن مهذبا كرم الخلق ، فقربه منه الشيخ الحفنى وشيوخه بعامة . وسرعان ما أذنوا له بالإفتاء فى حضرتهم ، وأجازوا له التدريس ، فكان يدرس للطلاب المذهب المالكى ، وله فيه شرح « مختصر خليل » اقتصر فيه على الراجح من أقوال أئمة المذهب المالكى . ولما توفى شيخ المالكية : الشيخ الصعيدى شغل مكانه فى المشيخة والإفتاء ، وعيّن ناظرا على وقف الصعايدة وشيخا لطائفته الخلوتية الصوفية .

وعدّد الجبرقى فى تاريخه مؤلفات الدردير فى الفقه المالكى وفى علم التوحيد وفى مشابهاة القرآن وفى علوم البلاغة . وذكر له بجانب ذلك مؤلفات فى التصوف منها تحفة الإخوان فى آداب أهل العرفان ، وشرح على وِرد الشيخ كرم الدين الخلقى ، وشرح على صلوات السيد أحمد البدوى وهى صلوات نبوية . ومازال الدردير يتولى مشيخة المالكية بالجامع الأزهر ومشيخة الطائفة الخلوتية الصوفية حتى توفى سنة ١٢٠١ للهجرة ، وصُلّي عليه بالأزهر فى مشهد عظيم ، ودُفن بزاويته التى بناها بحى الكعكيين . وله ورد أو حزب مشهور باسم المسبغات ^(٢) والصلوات ، والمسبغات أدعية وابتهاالات عشر ، وتليها صلوات عطرة على الرسول ﷺ ، وله معها منظومة لأسماء الله الحسنى ، تشتمل فى نهايتها على صلوات وتسليمات على الرسول ﷺ وأدعية له ولشيوخه فى الطريقة الخلوتية ، وما يقول فى مسبغاته داعيا ربه متبتلا إليه .

« اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك ومن الذل إلا لك ومن الخوف إلا منك ، وأعوذ بك أن أقول زورا ، أو أعشى فجورا ، أو أكون بك مغرورا . وأعوذ بك من شاة الأعداء .

(١) انظر فى الدردير تاريخ الجبرقى ١٤٧/٢

(٢) انظر فى هذه المسبغات والصلوات مجمع الأوراد

وَعُضَالُ الدَّاءِ ، وَخِيَةِ الرَّجَاءِ ، وَزَوَالُ النِّعْمَةِ ، وَفُجَاءَةُ النِّقْمَةِ .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ الْخَلْقِ وَهُمْ الرِّزْقُ ، وَسُوءِ الْخَلْقِ .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الزَّيْنِجِ وَالْجَزَعِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الطَّمَعِ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ .

ويظل يستعيز من الهم والحزن ومن شر ما خلق الله ومن أن يَظْلَمَ أو يُظْلَمَ أو يَبْغِيَ على إنسان أو يَبْغِيَ عليه ذو سلطان أو يَطْفَى أو يُطْفَى عليه . ويستعيز من الشرك الظاهر والخبى ، ويتوسل إلى الله أن يكون دائماً في حرز منيع من جميع خلقه ، وأن يظل معافى في بدنه ودينه ودنياه .

ونتقل معه إلى الصلوات على الرسول ، وتتضح فيها نظرية الحقيقة المحمدية التي مربنا حديث

عنها عند البوصيري ، إذ يقول :

« اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَفْضَلَ صَلَوَاتِكَ أَبَدًا ، وَأَتَمِّ بِرُكَّتِكَ سَرْمَدًا ، وَأَزْكِي نَحْيَاتِكَ فَضْلًا وَعَدَدًا ،

عَلَى أَشْرَفِ الْخَلَائِقِ الْإِنْسَانِيَةِ ، وَجَمِّعِ الْحَقَائِقِ الْإِيمَانِيَّةِ .. شاهد أسرار الأزل ، وترجمان لسان

القدم .. وإنسان عين الوجود العلوى والسفلى ، روح جسد الكونين ، وعين حياة الدارين .

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مَنْ مِنْهُ انْشَقَّتْ الْأَسْرَارُ ، وَانْفَلَقَتِ الْأَنْوَارُ ، وَفِيهِ ارْتَقَتِ الْحَقَائِقُ ، وَنَزَلَتْ

علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه مناسيق ولا لاحق ، فرياض الملكوت

بزهَرِ جِلاله مَوْثِقَةٌ ، وَحِيَاضُ الْجَبُوتِ بَفِيضِ أَنْوَارِهِ مُتَدَفِّقَةٌ .

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى الذَّاتِ الْمُحَمَّدِيَةِ ، اللَّطِيفَةِ الْأَحَدِيَةِ ، شَمْسِ سَمَاءِ الْأَسْرَارِ ، وَمُظْهِرِ الْأَنْوَارِ .

ومركز مدار الجلال ، وقطب فلك الجلال » .

ونظرية الحقيقة المحمدية وما يطوى فيها من قدم الوجود المحمدى وأن وجود الكائنات مستعار

منه واضحة في قول الدردير عن الرسول عليه السلام إنه ترجمان لسان القدم ، وإنسان عين الوجود

العلوى والسفلى وروح جسد الكونين وأن الأنوار منه انشقت ، فنوره هو المرئى في كل نور ،

ووجوده هو المشاهد في كل وجود . وكل ذلك يعنى أزلية النور المحمدى أو قل أزلية الحقيقة

المحمدية . ويوزع الدردير صلواته على الحروف الهجائية فلكل حرف سجعاته الخاصة ، ومع

الصلوات أدعية وابتهالات شتى من مثل قوله في الصلوات على حرف الدال :

« اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَاسْأَلْكَ بِنَا طَرِيقَ الرِّشَادِ .

وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَاخْلَعْ عَلَيْنَا خِلْعَ الرِّضْوَانِ وَالْوُدَادِ ،

وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَتَوَجَّنَا بِتَاجِ الْقَبُولِ بَيْنَ الْعِبَادِ .

وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَأَرَأَيْتَ بِنَا رَأْفَةَ الْحَبِيبِ بِحَبِيبِهِ يَوْمَ التَّنَادِ^(١) «
وتتوالى مثل هذه الأدعية مع الصلوات على الرسول ﷺ وكأن الدردير يستمد من معين
لا ينضب ، وهو معين يسيل دائما سلاسة وعذوبة .

٥

كتب النوادر والسير والقصص الشعبية

(١) كتب النوادر

تطلق كلمة النوادر إطلاقين ، فهي تارة يراد بها الأقاصيص القصيرة التي تروّج عن النفس أو
التي يُقصدُ بها إلى غرض خلقي نبيل ، وتارة يراد بها أقاصيص فكهة قصيرة سخرية بحاكم أو معلم
أو قاض أو نجيل . وكتب الأدب العربي تمتلئ بهذين النوعين من كتب النوادر ، وهي كثيرة في
مصر على مدار هذا العصر ، ونكتفي بالحديث عن كتاب من المجموعة الأولى وكتابين من المجموعة
الثانية .

كتاب المكافأة

مؤلف هذا الكتاب أحمد^(٢) بن يوسف المعروف باسم ابن الداية كانت أم أبيه يوسف بن
إبراهيم داية لإبراهيم بن المهدي عم المأمون فنسب إليها . وظل يوسف في خدمته حتى توفي ،
ويبدو أنه كان مثقفا ثقافة متنوعة ، مما جعل بعض ولاة العباسيين بمصر يستكتبه في ديوانها ،
واستقر مقامه بها هو وأسرته منذ سنة ٢٢٦ للهجرة . ويروى أنه صنف كتابا في أخبار أصحاب
الطب ، مما يؤكد أنه كان على صلة بعلوم الأوائل . ورُزق بابنه أحمد ، وعُني بتثقيفه ، مما أهله
ليعمل كاتباً في دواوين الدولة الطولونية وليكتب سيرة أحمد بن طولون وابنه خازويه وليس ذلك
فحسب ، فإنه وصله بعلوم الأوائل وبرع فيها وخاصة في الطب والرياضة والفلك وأيضا في
الفلسفة . ويسوق له مترجموه كتابا في أخبار الأطباء وكتابا في النسبة والتناسب وكتابا في الأقواس

(١) يوم التناد : يوم القيامة واستوعب ابن سعيد في كتابه المغرب (قسم الفسطاط)

(٢) انظر في أحمد بن يوسف معجم الأدباء ١٥٤/٥
كتاب عن سيرة أحمد بن طولون وابنه خازويه . وكتاب
المكافأة طبع مرارا .

(١) يوم التناد : يوم القيامة

(٢) انظر في أحمد بن يوسف معجم الأدباء ١٥٤/٥
وتاريخ الحكماء للقفطي (مختصر الزوزني) ص ٧٨

المثالة ، كما يسوقون له كتاب مختصر المنطق وكتاب السياسة لأفلاطون ، وشرح كتاب الثمرة في الفلك لبطليموس . وقد توفي سنة ٣٤٠ .

وتؤكد سيرة أحمد بن يوسف وسيرة أبيه أنها كانا من أصحاب المروءات ، وكانا يحسنان تسمير أموالهما في التجارة والزراعة ، فأغدقا كثيرا على كل من رآياه تلم به كارثة أو ينزل به خطب من الخطوب . ولعل هذا الجانب في أحمد بن يوسف هو الذى جعله يؤلف كتابه « المكافأة » . وهو في ثلاثة أقسام : قسم يضم إحدى وثلاثين نادرة أو حكاية قصيرة تدور حول مكافأة الجميل بالجميل ليرغب في عون المنكوب ومد يد المساعدة إليه ، وحتى يكافئ الإنسان جميلا بجميل بمثله . ويعرض ذلك في النوادر عرضا جذابا بما يذكر من نوادر وقعت في أيامه وغير أيامه في مصر وغير مصر . ويتلو هذا القسم بقسم ثان يضم إحدى وعشرين نادرة أو حكاية قصيرة تصور كيف أن مكافأة القبيح تستتبع قبيحا مثله ، حتى يرتدع أهل الشر والسوء ، ويكفوا عن سوئهم وشهرهم لما يجترأ من أوحش العواقب . والقسم الثالث يضم تسع عشرة نادرة أو حكاية قصيرة وهى تصور حسن العقبى وكيف أن أناسا تورطوا في شر أو بلاء ونجوا منه . والكتاب بذلك دعوة حارة إلى عمل الخير بضرب أمثلة بديعة من النوادر والحكايات القصيرة . وهو مكتوب بفصحى جزلة ناصعة ، إذ كان أحمد بن يوسف من كتّاب زمنه البارعين . ويبدو أنه قصد به إلى أن يشيع في الشعب ، ولعل ذلك هو السبب في أننا نراه يقترب من لغته اليومية ، إذ تدور فيه صيغ وتعابير لاتزال تجرى على ألسنتنا في الحياة اليومية من مثل :

كاد والله يموت فرحا - كثر الله في الناس مثله - حصّلى على الباب أى الحقنى - اعتذرت إليه من تقصيرى في حقّه - امرأة تُطلق (أى أصابها المخاض) - ست (أى سيدة) - امرأة مقربة (أى قربت ولادتها) . واستخدم قليلا مدّ تاء المخاطبة بحيث تتولد من الكسرة ياء فقال على لسان تاجر يكافئ سيدة على جميل : « هذا جزء ماقد متيه » كما نقول في عاميتنا المصرية . واستخدم أيضا مطابقتنا في العامية بين الفعل والفاعل في الجمع فقال : « اشتها على صيبانى حلواء في العيد » والفصحى أن يقال « اشتهى على صيبانى » . ويكثر من الاستفهام في الجمل دون ذكر أداة من أدوات الاستفهام كما نصنع أيضا في عاميتنا . وكثير من نوادر الكتاب واسع الدلالة التاريخية على زمن المؤلف وجوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بجانب دلالاته القيمة على الأسلوب الأدبى في مصر حينئذ ، وما كان يستخدم فيه من عبارات لاتزال حية إلى اليوم .

أخبار سيويه المصري

ألف هذا الكتاب ابن ^(١) زولاق الحسن بن إبراهيم المولود سنة ٣٠٦ والمتوفى سنة ٣٨٧ وقد جمع فيه نوادر رفيق له في الدراسة هو محمد ^(٢) بن موسى الكندى المعروف باسم سيويه المصري ، ولم يكن عالما بالنحو فحسب بل كان عالما أيضا بالقراءات والفقه وعلوم الحديث ورواية الشعر ، وكان عفيفا متسكيا اجتمعت فيه أدوات الأدباء والفقهاء والعباد ، وبلغ في ذلك - كما يقول ياقوت - مبلغا جالس به حكام مصر ، وكان ينقدهم نقدا يحمله كثيرا من السموم ، ولم يكن يخفيه بل كان يعلنه في الأسواق وعلى رؤوس الأشهاد ، وكان الناس يتبعونه يكتبون نقده ، ويروونه في المجالس العامة والمساجد والمتنزهات . وما زال هذا دأبه حتى توفي سنة ٣٥٨ مع نهاية الدولة الإخشيدية . وكان ابن زولاق مؤرخا كبيرا ، ويقول ابن خلكان له كتاب في خطط مصر استقصى فيه ، وله كتاب أخبار قضاة مصر جعله ذبلا على كتاب الكندى : أخبار قضاة مصر ، وكان قد انتهى فيه إلى سنة ٢٤٦ ، فكله ابن زولاق إلى سنة ٣٨٦ ، وله كتاب في سيرة الإخشيد اعتمد عليه ابن سعيد في قسم القسوط من كتابه « المغرب » .

ويسوق ابن زولاق في كتابه أخبار سيويه مشاهد مختلفة لنقد سيويه للحكام وللناس في عصره ممزوجة بشيء من التباله ، ولم يكن ينقد أويذم بلفظ قبيح ، إنما كان يزرع وينهر بألفاظ غير قبيحة ولكنها تحز وخز الإبر ، من ذلك أن الإخشيد كان يركب في موكب لصلاة الجمعة ، تنصدي له يوما في أثناء ركوبه إلى الصلاة والناس محتشدون لرؤيته فقال بأعلى صوته : « ماهذه الأشباح الواقفة ، والتماثيل العاكفة ؟ سُلِّطَتْ عليهم قاصفة (يوم تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تتبعها الرَّادِفَةُ) قلوبهم (يومئذ واجفة) » فقال له رجل : « إنه الإخشيد يمر إلى الصلاة ، فلم يفزع ولم يسكت بل قال توا : « هذا الأصلع البطين » ، المسنن البدن ، قطع الله منه الوتين ^(٣) ، ولاسلك به ذات اليمين ، أما كان يكفيه صاحب ولاصحابان ، ولا حاجب ولاحاجبان ، ولاتابع ولا تابعان ؟ لَأَقْبِلَ الله له صلاة ولاقبل له زكاة ، وعمرَ يحثته الفلاة » .

(٢) راجع في سيويه المصري معجم الأدباء ٦١/١٩

(٣) الوتين : الشريان الرئيس الخارج من القلب .

(١) انظر في ابن زولاق معجم الأدباء ٢٢٥/٧ وابن

خلكان ٩١/٢ ولسان الميزان لابن حجر ١٩١/٢ حيث يقول

إنه كان يتولى المظالم للفاطميين ويظهر التشيع لهم .

وكان سبيوه المصرى يستخدم السجع دائما فى نقده أو قل فى هجائه للحكام ، ويوشيه بآية أو آيات قرآنية على نحو مأمربنا آنفا أو بحديث نبوى . وكان يسوق مثل هذا الهجاء فى أثناء وعظه للناس ، إذ كان واعظا كبيرا . والناس يضحكون لتنفيسه عنهم ما كان يقع عليهم من ظلم الحكام لزمته فيضحكون ويفرقون فى الضحك . وكان بعض الحكام والوزراء يقربه ويحاسبه أملا فى أن لا يكونهم أمام الشعب بسياطه . ورأى أبا الفضل جعفر بن الفرات يسير فى موكب كبير وكان قد تولى الوزارة ، فقال : « ما بال أبى الفضل قد جمع كتابه ، ولفق أصحابه ، وحشد بين يديه حجباه ، وشمر أنفه ، وساق العساكر خلفه ؟ أبلغه أن الإسلام طُرِق فخرج ينصره ، أو أن ركن الكعبة سُرِق فخرج فخرج لهذا الأمر ينكره ؟ » . ومع أن سبيوه كان يصوغ نواتره فى هذه الفصحى المسجوعة نجد عنده بعض ظواهر من عاميتنا أو لغتنا المتداولة ، من ذلك أنه كان يعيد الضمير لغير العاقل مع الفعل مجموعا فى مثل : « فجاءت فراريج فلقطوا ما بين يديه » والفصحى فلقطت ما بين يديه . وكأن أسلافنا سبقونا إلى ذلك فى لغتهم اليومية منذ مئات السنين .

كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش

ألف هذا الكتاب ابن ممانى الذى مرت ترجمته ، وقد قصَّ فيه طائفة من النوادر نسبها إلى قراقوش ^(١) التركى أحد قواد صلاح الدين الأيوبى . وكان قد أنابه عنه مدة بالديار المصرية وقُوض أمورها إليه ، وهو الذى بنى السور الذى كان يحيط بالقاهرة ، وبنى قلعة الجبل والقناطر فى طريق الأهرام . وكانت فيه شدة وقسوة ، كما كانت فيه غفلة وغير قليل من الحق ، فانتهر ابن ممانى ذلك فيه ، وألصق به طائفة من النوادر فى أحكامه جمعها فى كتابه « الفاشوش » ^(٢) فى حكم قراقوش . ويدافع عنه ابن خلكان قائلا : فى الكتاب أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة فإن صلاح الدين كان معتمدا فى أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما قُوضها إليه .

ويبدو أن قراقوش قسا فى تسخير المصريين فى بناء السور والقلعة والقناطر المذكورة ، فانتقم لهم ابن ممانى منه بهذا الكتاب الذى وضعه عليه . وهو يستهله بقوله : « إننى لما رأيت عقيل بهاء الدين قراقوش حُرمة فاشوش ، قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمَّة ، لا يقتدى بعالم ،

(٢) راجع فى تحليل هذا الكتاب مقالا لنا فى مجلة الكاتب

المصرى عدد نوفمبر سنة ١٩٤٦ ص ٣٦١ -

(١) انظر فى قراقوش ابن خلكان ٩١/٤ والنجوم الزاهرة

١٧٦/٦ وعبر الذهبى ٢٩٨/٤ -

ولا يعرف المظلوم من الظالم والشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم مترلته أن يرُدَّ كلمه ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان ، صنف هذا الكتاب لصالح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين . ويأخذ ابن ممتى فى سرد أحكام قراقوش المضحكة . من ذلك أن سيدة سوداء شكت لقراقوش جارية مملوكة لها ، فعجب أن تكون امرأة بيضاء خادمة لسيدة سوداء ، فردَّ شكواها مؤمنا بأنها ليست السيدة بل هى الجارية ، والجارية البيضاء هى السيدة ، وهمَّ بحبسها لولا أن شفت فيها جاريته فعفا عنها . ومن ذلك أن رجلين من أصحاب اللحى الطويلة جاءاه يشكوان إليه رجلا أجرد كان يعذب بلحيتهما ، ونظر قراقوش إلى الرجل فلم يجد له لحية حينئذ ضرخ فى الرجلين قائلا : إنها اللذان اعتديا عليه بتف لحيته ، وصاح فى غلمانه أن يزجوا بالرجلين فى غياهب السجون حتى ينبت الشعر فى ذقن الرجل وتطول لحيته . ومن ذلك أن الشرطة جاءت به بجداد له قتل نفسا محرمة بغير حق ، فأمر بشنقه فقبل له إنه حدادك الذى يتعلُّ لك الفرس ، فنظر أمام بابَه فرأى رجلا قفاصا فقال : « اشنقوا القفاص وسيبوا (اتركوا) الحداد . وعلى هذا النحو يصور ابن ممتى قراقوش متصرفا فى القضايا بحكم ما بعده حق ، ونضحك للتضاد بين المقدمات والنتائج ، تباينا يضع فيه المنطق ، فسيده تدخل شاكية لخادمتها ، فتخرج خادمة والخادمة تصبح سيدها ، ورجل يدخل بدون لحية ، فيخرج وله لحية تُنفَت ، أو قل يدخل جانبا ويخرج مجنبا عليه ، وقاتل يبرأ وبرى يقتل .

وما نظن أحدا فى مصر قديما بلغ من التشهير بحاكم ما بلغه ابن ممتى من التشهير بقراقوش وأحكامه بين الناس عن طريق هذه النوادر الشعبية التى اختار لها لغة المصريين الدارجة لزمه قاصدا بذلك أن تشيع بين العامة ، وهى فعلا شاعت أكبر شيوع وأوسع فى مدن مصر وريفها ، فكلما اشتكوا من حاكم وظلمه قالوا : « حكم ولا حكم قراقوش » .

وأضافت الحبب التالية إلى شخصية قراقوش نوادر مضحكة بجانب ما فى كتاب الفاشوش من نوادر كثيرة ، مما جعل السيوطى يؤلف كتابا يستعير له اسم كتاب ابن ممتى ، مضيفا فيه إلى قراقوش نوادر جديدة . وكأنما أصبحت شخصية قراقوش فى الأزمنة التالية شخصية خيالية لكل حاكم أحق يخلط حمقه بظلمه . وأكبر الظن أن كلمة قراقوش التى تطلق فى تركيا والشام على خيال الظل وتصويره للحكام الظالمين الحقنى ترجع فى اشتقاقها إلى اسم قراقوش لا إلى ما يقال من أنها مؤلفة من لفظتين تركيتين هما « قره » أى أسود و« قوز » أى عين وبذلك يكون معناها العين

السوء لأن من كانوا يعرضون هذه اللعبة بتركيا كانوا من الغجر الجوالين ، غير أنا نرجح الرأي الأول . وقد دخلت الكلمة ثانية إلى مصر باسم « أراجوز » .

هز (١) القحوف

نمضى إلى زمن العثمانيين بمصر فنجد عالما واعظا يسمى يوسف الشربيني يصف حال سكان الريف المصرى وما نزل بهم لعهد العثمانيين من البؤس والفقر والفنك والجهل فى قصيدة يسميها « قصيدة أبى شادوف » وشرح لها يسميه « هز القحوف » وقد ملأ الشرح بنوادر فكاهية عما كان يعانيه أهل الريف حينئذ من الأمية والجهل وبطش الكاشف أو حاكم الإقليم وظلمه وما كان يصلهم من السخرة وما كانوا يرزحون فيه من المسغبة فإن طعموا لم يطعموا إلا العدس وطعاما يتخذ من الفول يسمى اليسار والمش العتيق ، ومعاذ الله أن يطعموا شيئا وراء ذلك من لحم وغير لحم . ويقول عن أبى شادوف الثرى الربى صاحب القصيدة إنه لم يكن يملك سوى حمار أعرج وعزتين وحصه فى ثور الساقية ونصف بقرة وعشر دجاجات وديك وأربع كيلات من نخال الشعير . ويفيض الكتاب بنوادر لازعة تحمل فى أطوائها كثيرا من الطعنات لحكم العثمانيين الغاشم وسوآته .

(ب) كتب السير والقصص الشعبية

كثرت فى مصر منذ أيام الفاطميين كتب قصص الأنبياء مجموعة أو مفردة : قصة لموسى وقصة ليوسف عليها السلام أو لغيرهما من الأنبياء وخاصة إبراهيم الخليل . ومرربنا فى الحديث عن كتابة التاريخ فى الفصل الثانى بيان لبعض ما كتب فى السيرة النبوية ، ومنذ الحروب الصليبية كثرت الكتابة فى ميلاد الرسول ﷺ وما لقرن به من خوارق وحياته وما رافقها من معجزات ، وكان ذلك يكتب نثرا وتخلله أشعار باسم « المولد النبوى » . وعادة كان هذا المولد يلقى فى الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول ، وكانت تلقى معه « قصة الإسراء والمعراج » الإسراء برسول الله ﷺ إلى المسجد الأقصى والعروج به إلى السماء . وقد أصبح من الثابت أن دانتي تأثر تأثرا واضحا بهذه القصة الأخيرة فى الكوميديا الإلهية (٢) ويجانب هذا القصص الدينى الذى لا يزال كثير منه مخطوطا

(١) انظر فى تحليل كتاب هز القحوف مقالا لنا فى مجلة

(٢) راجع تاريخ الفكر الأندلسى لبالنسيا ترجمة الدكتور

حسين مؤنس ص ٥٥١ - ٥٦٤ .

الكاتب المصرى عدد يناير سنة ١٩٤٧ ص ٧٢٩ .

ومحفوظا برفوف دار الكتب المصرية قصص كثير محفوظ بتلك الرفوف عن العشاق العذريين .
ونعرض الآن طائفة من السير والقصص الشعبية التي ألقت في مصر - أو أخذت بها شكلها
النهائي - وهى سيرة عنتره والسيرة الهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن وألف ليلة وليلة .

سيرة (١) عنتره

أساس هذه السيرة أخبار عنتره فى الجاهلية وما جاء فيها من أنه كان ابن أمة ومن أنباء فروسيته
وحبه لبعلة ابنة عمه . ويتحول عنتره فى السيرة بطلا عظيما للمحمة عربية تمتد فيها بطولاته من
العصر الجاهلى حتى نهاية القرون الخمسة الأولى للإسلام . ويقال - طبقا لرواية فى أول كتاب منية
النفس فى أشعار عنتره عبس - إن أول كتابة لهذه السيرة كانت فى أيام العزيز الخليفة الفاطمى
(٣٦٥-٣٨٦هـ) إذ حدثت ريبة فى قصره جعلت أهل القاهرة يلهجون بالحديث عنها ، فأشار
على شخص يسمى يوسف بن إسماعيل أن يشغل الناس بسيرة تلهيهم عن الكلام فيها ، فألف لهم
سيرة عنتره وشُغفوا بها . غير أن هذه الرواية - إن صحت - إنما تشير إلى أول ما كان من وضع
السيرة . إذ أخذت الأجيال تزيد فيها حتى أوائل القرن السادس الهجرى ، وحتى أصبحت فى اثنين
وثلاثين جزءا ، وهى منشورة فى أربع مجلدات . ولا تمتد فيها سيرة عنتره فى الزمان فحسب ، بل
تمتد أيضا فى المكان ، إذ تشمل ساحات بطولات عنتره العالم القديم : الهند وفارس ومصر والشام
وجنوب أوربا وشمال إفريقيا والحبشة والسودان . وهى موزعة بين نثر وأشعار ، مما أتاح لرواتها من
قديم أن ينشدوها الناس على الرابة فى حفلات كانت تعقد لها . وقد كتبت بلغة تدنو دنوا شليدا
من اللغة اليومية ، وصيغت صياغة قصصية جذابة بحيث يقطع الكلام فى كل جزء من أجزائها
عند حادث مهم . وبذلك يشغف القارئ والسامع بمعرفة الجزء الذى يليه . وهكذا حتى نهايتها .
وتتسع السيرة فى عرض أخبار الجاهلية حتى نصل إلى زمن زهير ملك بنى عبس قبيلة البطل ، وتعرض
السيرة مولد عنتره وبطولته فى صباه وشبابه وحبه لابنة عمه وحمايته لقييلته ضد القبائل المنافسة
لها وما فرضه عليه عمه لقاء زواجه ببعلة من أعمال شديدة الخطر جسّمته الرحلة إلى العراق وملازمة

(١) انظر فى سيرة عنتره وترجماتها وما وضع فيها المستشرقون

من بحوث دائرة المعارف الإسلامية

ملوك الحيرة ووفوده على إيران وتعرفه بملوكها وفي مقدمتهم كسرى وما كان من طلبهم منه العون في منازلة بطل إغريق .

ويصبح عنتره حاكما للشام ويفد على القسطنطينية ويقود مع إمبراطورها حروبا ضد الفرنجة ويلغ إسبانيا ويخترق شمال إفريقيا إلى مصر ويستعين به ملك روما ضد بوهمند ويقتله ، وهو أحد أمراء الحروب الصليبية الأولى وكان نورمانديا إيطاليا ، وكان المؤلف الأخير للسيرة كان يعرف أصله وموطنه . ومعروف أن الحملة المذكورة نزلت آسية الصغرى سنة ٤٩٠ للهجرة ولذلك نقول إن ميادين السيرة وساحاتها البطولية تمتد حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، وليس بوهمند فقط الوحيد من أمراء الحملة الصليبية الذى يلقانا في السيرة ، إذ يلقانا فيها أيضا زواج عنتره من أميرة إفريقية وإنجابه منها الجوفران وربما كان تحريفا لجودفرى صاحب بويون دوق اللورين الأدنى الذى استولى على بيت المقدس سنة ٤٩٢ ولم يلبث أن توفى وخلفه أخوه بلدوين . وبطولات عنتره في السيرة تسع لالتشمل ميادين الحروب الصليبية والبلاد الأوربية فحسب ، بل أيضا لتشمل الهند والسودان وبلاد النجاشى ، وعرف عنتره أنه جد أمه زيبية . وكل من يقرأ السيرة يرى أن أجيال المؤلفين التى تداولتها كانت أجيالا بصرية بتاريخ العرب فى الجاهلية وما اتصل بها من قصة إبراهيم الخليل وتاريخ العرب فى الإسلام وفتراتهم العظيمة وتاريخ الفرس وملوكهم وبلاطهم وآدابهم وتاريخ الحروب الصليبية وطقوس النصارى وشعائيرهم وأعيادهم . والسيرة ملحمة رائعة للبطولة العربية التى مثلها عنتره أروع تمثيل فى أكثر من خمسمائة عام ومثل معها فضائلها النبيلة التى نقلها الصليبيون إلى ديارهم . وقد تخللت السيرة أحلام ورؤى وأساطير وخوارق عجيبة .

السيرة (١) الملالية

قوام هذه السيرة حروب مستمرة بين بنى هلال ومن دخل معهم من قبائل زغبة وسليم ورياح وعدى وربيعة والأنبج إلى إقليمى طرابلس وتونس وشمال إفريقيا ومن كان بهذه الاقاليم من الصنهاجيين وزناتة وغيرهم من القبائل المغربية المستوطنة . وكانت القبائل العربية المذكورة قد

للإملالية والزناينة ، وراجع دائرة المعارف الإسلامية وكتابا فى للسيرة الملالية لعبد الحميد يونس .

(١) انظر فى السيرة الملالية الجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون (طبع بولاق) ص ٦٢ وكذلك الجزء السابع ص ٤٣ وأواخر مقدمة ابن خلدون حيث يروى بها أنشطرا

حاربت مصر لعهد المعز أول الخلفاء الفاطميين سنة ٣٦٠ تحت لواء الأعصم القرمطي . وكان قد استولى على دمشق والرملة ودخل مصر والتقى بالجيش الفاطمي في عين شمس بالقرب من القاهرة وكاد يُكَبُّ له النصر لولا خروج بعض قواده عليه وانضمام القبائل سالفة الذكر إلى الجيش المصرى . وبذلك دارت عليه الدوائر فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين موطنه . وأسكن المعز تلك القبائل القيسية الصعيد ، لعله يمكن الانتفاع بها في المستقبل . وحانت الفرصة لذلك في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) إذ خرج عليه المعز بن باديس الصنهاجى صاحب تونس والقيروان سنة ٤٤٣ وأعلن العودة إلى المذهب المالكي السنى وتبعيته للخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وانفصل بذلك الجناح الغربى للدولة الفاطمية ولم تقم للمذهب الشيعى الفاطمى قائمة في تلك الأنحاء منذ هذا التاريخ . واستشاط المستنصر غضبا ، وأشار عليه وزيره اليازورى أن يسلط عليه القبائل القيسية النازلة بالصعيد منذ أيام جده المعز ، فاتصل بشيوخهم ووعدهم أن تكون ديار طرابلس وتونس وكل ماتحت يد المعز إقطاعا لهم وأيضا كل ما يمتلكونه من بلاد المغرب وسرعان ما لبثته جموعهم ، وخرجت إلى المغرب : إلى تونس وإفريقية ، واستولت في سنة ٤٤٣ على برقة بزعامة يحيى الرياحى وتملك بنوزغة في سنة ٤٤٦ طرابلس ، واتجهت هلال ورياح والأثبج وعدى إلى إفريقيا وأضرموها نارا بقيادة زعيمهم مؤنس بن يحيى الرياحى وحاول المعز بن باديس أن يقربه منه مجزلا له العطايا ولم يغن ذلك عنه شيئا . ونازل تلك الجموع ودحرته وأنزلت به هزائم متوالية ، مما اضطره أن يخلى لهم القيروان وأن يكتفى بالمهدية وبلدان صغيرة حولها . واكتفى بها من بعده ابنه تميم الذى حكم بعده إلى نهاية القرن الخامس . وأخذت تتضعف الإمارة بينما تحول إقليم تونس والجزائر إلى إقطاعات صغيرة يحكمها هلاليون أو زناتيون إلى أن أعادت دولة الموحدين إلى شطر كبير من المغرب وحدته .

ويبدو أنه حين ارتقت هذه القبائل القيسية هجرتها إلى المغرب أرسلت إلى عشائرها في الجزيرة العربية أن تقدم عليها لتشاركها في هذه الهجرة الكبيرة وأن عشائر فعلا لبثت دعوتها ، يدل على ذلك أننا نجد القاص للسير أو قصاصها استغلوا فيها قصة فتاة جميلة من بنى هلال هى الجازية بنت الحسن بن سرحان عشقها فتى من عشيرتها وأراد الزواج منها وتصادف أن أمير مكة شكر بن أبى الفتوح (٤٣٠-٤٥٣هـ) رآها وأعجب بها ، وطلب يدها من أبيها فأثره على عشيقها ، وزوجها منه . ثم حدث أن أغضب شكر عشيرتها ، ورأوا الانتقام منه فاحتالوا عليه لأخذ الجازية وحرمانه منها ، فادعوا أنهم يريدونها لزيارة أبيها في نجد ، حتى إذا قلمت معهم

مضوا مع أبيها في الرحلة إلى إفريقية ، وهناك زوّجوها من ابن عمها ولكن قلبها ظل معلقا بزواجها الأول حتى ماتت من شدة هيامها وحبا له . وهي قصة صحيحة في أصلها المتصل بشكر أمير مكة وزوجته الجازية ، مما يدل على أن عشائر هلالية من الجزيرة قدمت على بني هلال بالصعيد أو بعد تركهم له مباشرة وواصلت بدورها الهجرة إلى المغرب .

والأساس في السيرة تاريخي صحيح وهو هجرة بني هلال ومن معهم من القبائل القيسية إلى المغرب واستيلاؤهم على بعض مدنه ، غير أن الأحداث بعد ذلك تمضى وكأنها أضغاث أحلام لتلك الهجرة الكبيرة إذ سُمّي القصاص بطلها أبا زيد الهلالي وسموا خصمه في قبيلة زناتة : الزناني خليفة . وبذلك غابت عن السيرة قبيلة صنهاجة وأميرها المعز بن باديس الصنهاجي ، كما غاب زعيم القبائل بجي الرياحي وابنه مؤنس . وقد يرجع ذلك إلى أن القاص أو القصاص الذين وضعوها كانوا بمصر بعيدين عن ساحة الأحداث أو ساحاتها فبدت وقائعها وكأنها أخلاط أحلام ، بما في ذلك اسم بطلها العريين الخياليين : أبي زيد الهلالي ودياب بن غانم الزغبى . وأغلب الظن أن ذلك يرجع إلى أنها تأخرت في وضعها طويلا عن زمن أحداثها ولذلك كنا نظن أنها أُلّفت في القرن السابع الهجري أو بعده في القرن الثامن وهي مكتوبة باللغة اليومية : شعرا ونثرا ، وقد تعلق بها الشعب المصرى في ريفه وحضره ، وعادة كان يلقيها على الناس منشدا على ربابة في المقاهى والحفلات ، يسمونه الشاعر . وللسيرة ثلاث مراحل : مرحلة الرابدة إلى بلاد المغرب ، وفيها يرود الطريق بطلها الخيالى أبو زيد الهلالي وأبناء أخته بجي ومرعى ويونس وفي تونس يُلقَى بهم في غياهب السجون ، ويستطيع أبو زيد الفرار من السجن ويستنفر القبيلة لتخليص أبنائها الثلاثة . والمرحلة الثانية تسمى التفرية وفيها تهاجر القبيلة إلى تونس وتمكنها سعدى ابنة ملكها الزناني خليفة من دخولها وتَفك القبيلة الأسرى الثلاثة . ويأخذ الحسن بن سرحان القيروان ودياب تونس وأبو زيد الأندلس ويستولون على قلاع كثيرة حتى يصلوا إلى أقصى المغرب . والمرحلة الثالثة خاصة بأبناء الأبطال ويسمون الأيتام ، وفيها يجمع زيدان بن أبي زيد الهلالي العرب من الشام والحجاز ويلتقى بهم في صعيد مصر ويرحل معهم إلى تونس ويشدد الحصار عليها وعلى أميرها دياب بن غانم الزغبى ويوافيه الهلالية من الأندلس ويفتحون جميعا المدينة ويقتلون دياب بن غانم . ويتنازل الهلالية عنها لابن الزناني خليفة ويتأمر على الهلالية ابن الحسن بن سرحان ، ويعود زيدان الهلالي إلى صعيد مصر ، كما يعود الهلالية الذين قدموا من الأندلس إليها . وبذلك تنتهى السيرة ، وهي تمتلئ بانطباعات مصرية كثيرة .

سيرة الظاهر بيبرس^(١)

كان طبيعياً أن يضع المصريون سيرة شعبية طويلة للظاهر بيبرس بطل موقعة عين جالوت التي لم تقم بعدها للتار قائمة . بل لقد ولوا الأدبار إلى الشمال في الشام وبيبرس يلاحقهم حتى اتجهوا شرقاً إلى شمالي العراق . وبمجرد استيلائه على الحكم في مصر سنة ٦٥٨ أخذ يثبت حكمه باستقدامه أحد سلالة العباسيين ، وكان من أبناء الخليفة العباسي الظاهر ونجا من مذبحه المغول ببغداد ونزل دمشق ، فاستدعاه بيبرس إلى القاهرة ، وبايعه بالخلافة ، وبذلك أصبح بيبرس حامياً لها . وتبعه في حمايته سلاطين المماليك إلى أن أخذ السلطان سليم العثماني فاتح مصر الخليفة العباسي معه إلى القسطنطينية . وكان بيبرس سيوساحزماً وقائداً ماهراً فاتسع بدولته في الجنوب ببلاد النوبة ودانت له القبائل في ليبيا ، وهزم التار على الفرات في غير معركة وأوقع بالأرمن خسائر فادحة ، وكان للصليبيين ضربات قاصمة ، واستولى على كثير من قلاعهم وحصونهم ، ودان له الحشاشون الفدائيون داخل الشام بالطاعة . وتعدُّ أيامه أزهى أيام مصر زمن المماليك وأعظمها ازدهاراً ، لذلك كان من الطبيعي أن تؤلف عنه سيرة شعبية ، وهو فيها بطل عربي يسمى « محمود بيبرس » وقد مثلوا فيه الفروسية العربية ومظاهرها الباسلة وخاصة في حروبه مع الصليبيين .

ولغة السيرة عامية والنثر يغلب فيها بالقياس إلى الشعر ، ولذلك لم تكن تُنشد ، بل كانت تُروى ، وتنسب إلى أربعة رواة أصليين هم ابن الديناري وكاتم السراي كاتب السروناتر الجيش والصاحب والدويداري (تحريف للدودار) وهو الأمين الخاص للسلطان . وتتداخل في السيرة قصص طويلة كقصّة إبراهيم الحوراني ورحلته إلى روما . وتتحدث السيرة عن نشأة محمود بيبرس وعلاقته بالسلطان الأيوبي نجم الدين الملقب بالملك الصالح وماعهد إليه من الأعمال ، وصلته بشجرة الدر وأبيك وقطر . ونصف جلوسه على عرش مصر وامتداد حروبه وساحات بطولته إلى أوروبا ، وتعرض أعماله وإخضاعه الفدائيين الحشاشين المشهورين بكثرة اغتيلاتهم منذ زعيمهم الحسن الصباح ، وتذكر من زعمائهم جمال الدين شيعه ، ولعله صاحب القبر المعروف باسمه في دمياط . ومن أبطال السيرة معروف زوج مريم الزنارية النصرانية وقد أنجبت منه ابناً حاربه قبل أن

(١) انظر هذه السيرة تحت كلمة بيبرس في دائرة المعارف الإسلامية ،

يعرفه . ويبدو أن هذه السيرة لم تكتب في عهد قريب من الظاهر ، لأن الأحداث التاريخية وأسماء الأبطال سوى الظاهر يشوبها كثير من الخيال وتحفل بأساطير وأعمال خارقة للعادة ، ونرجح كتابتها بعد القرن السابع وقد تكون كتابتها تأخرت إلى القرن التاسع الهجري .

سيرة ^(١) سيف بن ذى يزن

قصة شعبية مصرية طويلة ، تعرض بطولة سيف بن ذى يزن سليل ملوك حمير ، وهى تصور الصراع بين العرب والأحباش فى أواخر العصر الجاهلى . وكيف طردهم سيف بن ذى يزن من الجزيرة العربية بعد أن كانوا قد سيطروا على اليمن . وهى فى ١٧ جزءا وتحمل كثيرا من الأساطير والعجائب ومغامرات سيف بن ذى يزن فى سبيل استقلال بلاده ، وبذلك تأخذ السيرة مكانة فى التاريخ القومى العربى ، إذ موضوعها حرب بين العرب وأمة الأحباش الأجنبية . وتجعل السيرة سيف بن ذى يزن حنيفا يقتحم معاقل الشرك وهو يقول انما لا إله إلا الله إبراهيم خليل الله ، ويغلب أن تكون قد ألّفَت بمصر فى القرن الثامن أو التاسع للهجرة .

ألف ^(٢) ليلة وليلة

ذكر ابن النديم فى كتابه « الفهرست » : من كتب الأسفار والخرافات التى نُقلت عن الفرس كتاب هزار أفسانه أى ألف خرافة . والمعروف أنه يرجع إلى أصل هندى . ويغلب أن يكون قد نُقل إلى العربية فى القرن الثالث الهجرى ، ولا يعرف بالضبط متى أُضيفت إلى اسمه وهو ألف ليلة كلمة ليلة الثانية ، ويغلب أن يكون قد أُريد بها أن يحوى لىالى كثيرة تزيد عن الألف . وأُخذت تضاف إلى الكتاب فى بغداد أقاصيص كثيرة ، وبالمثل أضافت إليه مصر بدورها أقاصيص متنوعة . ويمكن أن تميز الأقاصيص الهندية الأصل فيه بتدخلها كحكاية الصعاليك الثلاثة . وتميّز الحكايات الفارسية فيه بحكايات الظرفاء وبعض الحكايات المفردة . وبه حكايات عربية خالصة كحكاية حاتم الطائي وإبراهيم المهدى . ويشيع فى الحكايات البغدادية ذكر هرون الرشيد وتكرهه وتدينه البالغ وجهه لمباهج الحياة وللرعية وحب الرعية له ووصف بلاطه وقصوره . وتكثر

كتابه « أصول الأدب » ودائرة المعارف الإسلامية وما ذكرت من مراجع .

(١) راجع فى هذه السيرة وما بها من تأثيرات مصرية مقال

ياربى عنها فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر فى ألف ليلة وليلة بحثا لأحمد حسن الزيات فى

القصص المصرية فى الكتاب وحكايات الشطار بها وما تطبع به من المروءة والفكاهة كما فى حكايات علاء الدين أبى الشامات وأحمد الدنف ودليلة المحتالة وزينب النصابة ومعروف الإسكافى وعلى الزبيق ، ويشيع السحر فى هذه الحكايات كما تشيع عادات المصريين ، وتصوّر حياتهم فى الأسواق والحمامات وما يغلب عليهم من الإيمان بالطلاسم والرقى والتعاويذ . ونلتقى بجوانب من هذا كله فى حكايات مصرية أخرى كحكاية أبى قير وحكاية أبى صير ومثلها حكاية المصلح العجيب وأيضا حكاية مريم الزنارية وحكاية الصعدي وزوجته الإفرنجية وهما تعكسان الصراع بين المسلمين وحملة الصليب . وأهم من كل ما سبق لمصر فى الكتاب أنها هى التى صاغته بلغتها العامية وانتشر بها فى العالم العربى منذ القرن الثامن الهجرى ، وبالمثل انتشرت فيه بتلك العامية السَّير الشعبية : سِير عنتره والهلالية والظاهر بيبرس وسيف بن ذى يزن . وكان لذلك أثر واسع فى تعرف تلك البلدان على العامية المصرية من قديم . وكثيرون يظنون أن تعرف تلك البلدان على عاميتنا أو لغتنا اليومية حديث ، وأن الإذاعة والسينما أتاحتا لها هذا التعرف فى عصرنا ، وهو - كما قلنا - تعرف قديم .

خاتمة

تحدثت في هذا الجزء عن تاريخ الأدب العربي بمصر في عصر الدول والإمارات، ورأيت أن أضم إلى العصر ما سبقه بها منذ الفتح العربي من مختلف شئونها التاريخية والأدبية والعلمية على مر الأزمنة الإسلامية، وأوضحت كيف أن قبط مصر رحبوا بالعرب لما كفلوا لهم من معتقداتهم الدينية وما رفعوا عنهم من ظلم الروم وضرائبهم الفادحة. وتولى أمرها فاتحها العظيم عمرو بن العاص، وتعاقب الولاة عليها في زمن الأمويين وأخذوا يفرضون على أهلها ضرائب استثنائية، وأمر الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز برفعها عن كواهلهم. وتتحول الخلافة إلى العباسيين ويرسلون إلى مصر بولاتهم حتى إذا انتصف القرن الثالث وليها أحمد بن طولون وأسس بها الدولة الطولونية، واستشعرت مصر في عهدها استقلالها، وبالمثل في عهد الدولة الإخشيدية. ومايكاد ينتصف القرن الرابع حتى تتولاه الدولة الفاطمية الإسماعيلية، ويظل المصريون منصرفين عنها وعن مبادئها الشيعية المتطرفة، وتضعف دولتهم وينزل الصليبيون الشام، ويؤسسون دولة لهم في بيت المقدس. ويدور الزمن دورات وتسقط الدولة الفاطمية، ويتولى مصر صلاح الدين الأيوبي، وينازل حملة الصليب ويسحق جموعهم سحقاً في حطّين وغيز حطين، ويسير سيرته خلفاؤه من حكام الدولة الأيوبية في ضربهم الضربات الماحقة، ويخلفهم الماليك فيسحقون جموع المغول في عين جالوت سحقاً ذريعاً، ويطردون حملة الصليب نهائياً من الشام إلى البحر المتوسط وما وراءه. ويستولى العثمانيون على مصر لمدة ثلاثة قرون وتصبح بعد أن كانت دولة عظيمة ولاية تابعة للدولة العثمانية.

وقد أتاحت الزروع والبساتين على ضفاف النيل رخاء واسعاً لسكان مصر من قديم. وأعطى هذا الرخاء لحكامها منذ ابن طولون الفرصة واسعة لبناء البيهارستانات والجوامع الكبيرة والقصور الفخمة. وأتاح تراوها الضخم للدولة الفاطمية حياة مترفة بالغة الترف كما أتاح لصلاح الدين أن يعدّ جيشه بل جيوشه لضرب حملة الصليب ضربات قاصمة، وأيضاً فإنه بنى بالقاهرة قلعته المشهورة ومارستاناً كبيراً سوى ما شيد من المدارس. وتزدهر الحياة

بمصر لعهد المالك وتكاثر الأعياد بها تكاثراً واسعاً وتوسع موجات الغناء وفنون اللهو والتسلية، وارتقى حينئذ خيال الظل وأصبح مسرحاً شعبياً عاماً. وألمت بعد عرض المجتمع في مصر للدعوة الفاطمية الشيعية الإسماعيلية وانصراف المصريين عنها، كما ألمت بالزهد وما كان بمصر من جماعات النساك وكيف أسس ذو النون المصري التصوف الإسلامي ومبادئه الروحية وما يتصل به من الأحوال والمقامات، ويزدهر التصوف منذ زمن الدولة الأيوبية، ويتضح فيه اتجاهان: اتجاه فلسفى يمثلّه ابن الفارض واتجاه سُنىّ شعبىّ تمثلّه الطرق الصوفية، ومن أهمها الطريقة الشاذلية التى أسسها أبو الحسن الشاذلى، وقد تعددت فروعها لعهد المالك تعدداً واسعاً، حتى بلغت أحد عشر فرعاً، ومن أهمها الطريقتان: الوفاية والخلوتية.

ومعروف أن مصر أدّت دوراً عالمياً عظيماً في تاريخ الحضارة الإنسانية، ولا تزال أهراماتها الشامخة تمثل هذا الدور تمثيلاً باهراً، ويدين لها العلم بمعناه العالمى ديناً كبيراً بما أدت له في الهندسة والمعمار والطب والرياضة، وتظل جذوتها العلمية متقدمة مهما اقتحم أسوارها من الجيوش المغيرة، على نحو ما هو معروف عنها في عهد البطالمة إذ لم تلبث في أيامهم أن استعادت نشاطها وأخذت ترسل أضيائها في الفلسفة وغير الفلسفة. وما إن يمضى على دخولها في الإسلام نحو قرن ونصف حتى تعود روحها العلمية إلى النشاط وإرسال أضيائها وشررها إلى العالم العربى، على نحو ما هو معروف عن ابنها ورّش وحمل المغاربة والأندلسيين قراءته إلى أوطانهم، ولا تزال القراءة الشائعة في المغرب إلى اليوم، وما يلبث الأندلسيون والمغاربة أن يتتلمذوا لعبد الرحمن بن القاسم تلميذ مالك، ويحملون عنه المذهب المالكي في الفقه. وينزل مصر الإمام الشافعى ويعنى تلامذته المصريون بمذهبه الفقهى والمحاضرة فيه، ويأخذونه عنهم تلامذة من الشام والعراق وإيران وينشرونه في بلدانهم. ويكتب مؤرخها ابن عبد الحكم - لأول مرة - تاريخ الفتوح بمصر والمغرب، ويحمله عنه المغاربة وأهل الأندلس كما يكتب مؤرخها ابن هشام السيرة النبوية العطرة، ويحملها المؤرخون لها في العالم العربى جميعه مغرباً وغير مغرب.

ويعنى حكام مصر - منذ عهد ابن طولون - بالحركة العلمية وإثرائها ويؤسس فيها الفاطميون جامعة كبرى تسمى: «دار العلم» كما يبنون الجامع الأزهر ويظل جامعة إسلامية

كبرى إلى اليوم، وينشئ بها صلاح الدين الأيوبي خمس مدارس، ويتبارى خلفاؤه الأيوبيون والمماليك في إنشاء المدارس بها والإكثار منها حتى ليقول ابن بطوطة الذى زار مصر سنة ٧٢٦ إن أحدا لا يستطيع أن يحيط بحصرها لكثرتها، وكانت المساجد والجوامع - وخاصة الجامع الأزهر - تنافس المدارس في هذه الحركة العلمية، وكانت مصر قد ظلت ملاذًا لعلماء العالم العربى غربا وشرقا، وخاصة بعد استيلاء النورمان على صقلية والإسبان على مدن الأندلس وبعد غزو المغول لمدن إيران والعراق، وأيضا فإنها أصبحت الحامية للثقافة الإسلامية والعربية. وفى كل مجال يلقانا علماؤها فى الفلسفة وعلوم الأوائل من الرياضيات والطبيعات والطب والجغرافيا، وينهض فيها العلماء باللغة والنحو منذ أوائل القرن الرابع الهجرى وتصبح لها مدرسة نحوية يلمع فيها غير نحوى كبير منذ الدولة الأيوبية، ويكثر فيها علماء البلاغة والنقد منذ ابن وكيع التنيسى فى القرن الرابع الهجرى، ويتكاثر بها علماء القراءات والتفسير والحديث النبوى والفقه بمختلف مذاهبه الكبرى وعلم الكلام، ويُؤرَّخ لكل علمائها الأعلام فى العلوم جميعا تأريخا دقيقا. وتنشط الكتابات التاريخية نشاطا واسعا فى السيرة النبوية العطرة والتاريخ العام وتاريخ مصر ودولها وتاريخ المدن وخاصة القاهرة والإسكندرية وتاريخ الرجال والعلماء من كل صنف وتاريخ الشعراء والأدباء.

وتأخذ مصر فى التعرب منذ الفتح الإسلامى، ويدخل كثير من أبنائها فى الدين الحنيف، وحتى القبط أو - بعبارة أدق - جميع من بقى منهم على دينه المسيحي يأخذون فى التعرب ويتم تعربهم فى القرن الثالث الهجرى. ويتصل نشاط الشعر فى مصر، ويظل محدودا زمن بنى أمية، وزارها فى أيامهم بعض الشعراء من نجد والحجاز والعراق، ويتسع نشاط الشعر بمصر فى زمن ولاية العباسيين أو يأخذ فى النشاط، ويصبح لها شعراء نابهون مثل المعلّى الطائى، وينزلها أبو نواس لمديح الخصب والى الحراج فيها، كما ينزلها أبو تمام لمديح ولاتها ويظل بها فترة. ومن شعرائها فى النصف الأول من القرن الثالث ذو النون المصرى الإخيمى مؤسس التصوف، ويشتهر بها فى بواكير أيام الدولة الطولونية الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام. ويبدو أن الشعراء تكاثروا فى عهد هذه الدولة، يدل على ذلك أنها حين انتهت فى أواخر القرن الثالث بكأها منهم كثيرون حتى ليقول المقرئى إنه رأى كتابا به اثنتا عشرة كراسة بأسماء الشعراء الذين بكوها، ويعلق على ذلك قائلا: إذا كانت أسماء الشعراء فى اثنتى عشرة كراسة فما مقدار شعرهم؟ ثم يقول إنه لا يوجد لأحدهم الآن ديوان واحد،

ومما يؤكد بوضوح ما كان بمصر من حركة شعرية خصبة أن نجد الصولى المتوفى سنة ٣٣٥ للهجرة يؤلف كتابا في أخبار شعراء مصر.

وينزلها قبيل منتصف القرن الرابع المتنبى ويحدث نزوله بها حركة أدبية واسعة، ويظل الشعر بها نشيطا في عهد الفاطميين، ويدل على ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أنه لما توفى ابن كلّس وزير المعز وأبنة العزيز رثاه مائة شاعر. وينثر الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم العطايا والأموال على الشعراء، مما جعلهم يلهجون بالثناء عليهم؛ ويؤلف بأخرة من العصر الفاطمى الرشيد بن الزبير كتابا في شعراء مصر سباه: «جنان الجنان ورياض الأذهان» سقط من يد الزمن، ويخص شعراءها في القرن السادس الهجرى العباد الأصبهاني وزير صلاح الدين الأيوبي بمجلدين في كتابه الخريدة، ترجم فيها لنحو مائة وأربعين شاعرا، ويفد عليها في أواخر أيام الدولة الأيوبية على بن سعيد الأندلسى صاحب كتاب المغرب ويخصها هى وشعراءها وكتّابها وحكّامها ووزراءها وقضاها بستة مجلدات من كتابه ضاع أكثرها، وبقي منها القسمان الخاصان بالفسطاط والقاهرة، وحُققا ونُشرا. وتظل كتب التراجم في عصر المماليك تترجم لكثيرين من الشعراء النابيين بمصر. وتألقت حينئذ أسماء كثيرين منهم ونُشرت دواوينهم كما نُشرت طائفة من دواوين الشعراء في العهدين الفاطمى والأيوبي. وبقيت من هذا النشاط بقية أيام العثمانيين مما جعل شهاب الدين الخفاجى في القرن الحادى عشر الهجرى يؤلف كتابا في شعراء زمانه سباه: «ريحانة الألبا» خص مصر بالقسم الثالث منه، وملتقى بتراجم كثيرين منهم بعد الخفاجى في كتب التراجم والتاريخ وخاصة تاريخ الجبرقى.

ويكثر الشعر الدورى بمصر وتكثر مزدوجاته ومسمّطاته ورباعياته. وتكثر الموشحات وكان شعراء مصر قد أخذوا يتعرفون عليها في أواخر أيام الدولة الفاطمية، ويتصدى لها الشاعر ابن سناء الملك في أيام صلاح الدين والدولة الأيوبية فيضع لها عروضها كما وضع الخليل بن أحمد قديما عروض الشعر العربى على نحو ما يوضح ذلك كتابه النفيس: «دار الطراز». وقد ألحق بدراسته له في الكتاب أربعا وثلاثين موشحة بديعة لكبار الوشاحين الأندلسيين، وأتبعها بخمس وثلاثين موشحة له، وبذلك أعد هذا الفن الأندلسى للذيع والانتشار، فأقبل عليه شعراء مصريون وغير مصريين ينظمون فيه موشحات لهم رائعة،

ونفس ابن سناء الملك مضى ينظم فيه عشرات جديدة من الموشحات حتى لنجد السخاوى فى كتابه «سجى الورق المنتخبة فى جمع الموشحات المنتخبة» ينشد له أربعا وثلاثين موشحة. وترجمت لوشاحين مصريين كبيرين هما العزازى وابن الوكيل. وشاعت الموشحات بمصر على ألسنة المتصوفة فى أذكاءهم، ولعل بن وفاشيخ الطريقة الوفاية فى أواخر القرن الثامن الهجرى وأوائل التاسع ديوان جميعه موشحات صوفية. ويكثر القاضى الفاضل وزير صلاح الدين فى شعره من المحسنات البديعية، ويصبح له فى طريقة استخدامه لها وفى إكثاره من التورية مدرسة يتكاثر أتباعها فى أيام الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر والشام.

ويكثر شعر المديح، ويظل يجرى على ألسنة زمن الولاة أيام الدولتين الأموية والعباسية، حتى إذا أطل مصر عهد الدولة الطولونية تبارى الشعراء فى مديح أحمد بن طولون وفى مقدمتهم الجمل الأكبر الحسين بن عبد السلام الذى مر ذكره آنفا، ومن شعراء تلك الدولة الرمى القاسم بن يحيى شاعر خمارويه. ويشتهر بعده فى زمن الإخشيد سعيد بن فاخر شاعره، ويترجم الثعالبي فى اليتيمة لكثيرين من شعراء الدولة الإخشيدية، وخاصة من التفوا حول المتنبي حين مقامه فى القاهرة مادحا لكافور، ويكثر المديح كثرة مفرطة منذ القرن السادس الهجرى ويكثر شعراؤه النابون، وقد ترجمت خمسة منهم عارضا روائع مدائخهم، وهم المذهب بن الزهير شاعر طلائع بن رزيك الوزير بأخرة من الدولة الفاطمية، وقد نوه طويلا ببعض انتصاراته على حملة الصليب، وابن قلاص الشاعر الاسكندرى المادح لشاور الوزير الفاطمى والمهاجر بشعره إلى صقلية واليمن مادحا رجالاتها مدحا رائعا، والشاعر المبدع ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين ووزيره القاضى الفاضل، وهو أهم شعراء مصر قبل العصر الحديث ويتميز بفرائد بديعة من التصاوير الطريقة والألفاظ الحلوة العذبة، وابن نباتة شاعر المؤيد صاحب حماة والسلطان المملوكى حسن، ويتميز بلغة سهلة رشيقة مع كثرة التوريات، والشيخ عبدالله الشبراوى شيخ الأزهر فى أيام العثمانيين وله مدائح كثيرة فى ولايتهم.

وينشط الرثاء فى مصر للحكام وكبار الكتاب وأصحاب المناصب العليا فى الدول المتعاقبة، وتكثر الشكوى من الزمن وتقلباته ونوائبه، على نحو ما نجد عند على بن النضر الشاعر الفاطمى ومراثيه وشكواه من الزمن، وعند على بن عرام شاعر أسوان، وله مرثية

بهدية بل مناحة كان ينوح بها أهل أسوان على المقابر ناديين موتاهم، وابن النقيب الحسن بن شاور وله شكوى مرة من الظلم والخسف ومن العوز والبؤس، وعبداه الإدكاوى أيام العثمانيين، وله مرثية يرثى فيها نفسه ويكيها وقد حمله النعش إلى مثواه. وكان للدعوة الفاطمية الإسماعيلية شعراء غلوا في مديح خلفائهم غلوا مقيتا، إذ جعلوهم فوق البشر والبشرية مسبغين عليهم بعض صفات الذات العلية، وأهم شعرائهم ابن هاني الأندلسي، وتموج أشعاره في المعز الفاطمي بضلال ما بعده ضلال، وكان شاعرا فذا غير أنه سخر ملكته الشعرية في مديح المعز بصفات إلهية قدسية، بهتان ما بعده بهتان. وعلى شاكلته المؤيد في الدين الشيرازي إذ يجعل الخلفاء الفاطميين في مديحه فوق الطبيعة البشرية ويسبغ عليهم الصفات الربانية. وثالث هؤلاء الشعراء ظافر الحداد وهو مصري من الإسكندرية، ويلتقط من ابن هاني - الذي صرح في بعض مديحه للأمر بأنه يحاول محاكاته - بعض معانيه مثل فكرة طاعة الخليفة الفاطمي وأنها فرض واجب، كما أخذ عنه فكرة أن الخليفة نور خالص، غير أنه ظل لا يسرف إسراف ابن هاني والمؤيد الشيرازي في إضفاء الصفات الإلهية على الخليفة، ومع ذلك يعد شذوذا على المصريين في أيام الفاطميين، إذ انصرفوا انصرافا تاما عن العقيدة الفاطمية الإسماعيلية المنحرفة، وظلوا مثل آبائهم سُنين.

ويكثر الغزل مصورا عاطفة الحب الإنسانية عند الشعراء المصريين وقد بثوا فيه حبا متقدما لا تخبو ناره أبدا بما يصور من اللوعات والصبابة والهيام والوله، ويموج شعر كثيرين بوجود لا حدود له على نحو ما يلاحظ في غزل ابن سناء الملك، ويعم الغزل الوجداني بعض أشعار الغزلين، وكأنما يتأثرون فيه الغزل الصوفي الملتاع المعاصر لهم، ومن أهم شعرائه وأروعهم ابن النبيه، وغزله يتسامى إلى مستوى وجداني رفيع، مما دفع المغنين إلى التغنى به لا في مصر وحدها بل أيضا في كثير من ديار العرب، وتغنت السيدة أم كلثوم ببعض غزله الوجداني المكتظ باللهفة واللوعة والركة واللفظ. ولا يقل عنه في الغزل الوجداني روعة البهاء زهير، وكأنما انطبع الوجد الصوفي وأشواقه في أعماق نفسه مما جعل بعض غزلياته تلتبس عند الأسلاف بغزليات ابن الفارض وما تحمل من مواجد صوفية. ولابن مطروح صديقه حظ من هذا الغزل المملوء بحرارة الوجد ولوعاته والذي يقطر رقة ودماثة وظرفا. ولبرهان الدين القيرواني غزل وجداني كثير يتمثل فيه هذه الطريقة الغرامية التي يذوب

فيها المخب لوعة وهياما، وثلتقى في أيام العثمانيين بالعسلي وما يتميز به غزله من رهافة الحس ودقته.

ويتكاثر الفخر بدوره : الفخر بالأخلاق النبيلة وبالبأس والشجاعة، ولابن سناء الملك فيه منظومة رائعة جسّد فيها روحا قوية عاتية : روح بطولة صلاح الدين وجيشه. المصرى الباسل وما أذاقا حملة الصليب من دمار وتنكيل لا يماثله تنكيل. ومن قديم يسيل الهجاء في السنة الشراء المصريين، وكثيرا ما سلطوا سهامه على الفاطميين ووزرائهم وقد ينحون به أحيانا نحو الدعاية. وثلتقى في الفخر بتميم بن المعز الفاطمي المفاخر بأسرته الفاطمية العلوية فخرا مضطرا بشرر كثير وجهه إلى ابن المعتز الشاعر العباسي وأسرته العباسية، ولطلان بن رزّيك وزير الفاطميين بأخرة من أيامهم فخر كثير بانتصاراته على حملة الصليب. وكان ابن الذرّوى من كبار الهجائيين، وله أهجية في أحذب مليئة بالسخرية الموجعة، ومثله أحمد بن عبد الدائم الشرمساحي، وكان يكثر من هجائه للناس حتى القضاة وعلماء الدين، وعلى شاكلته حسن البدرى الحجازي إذ لم يسلم من هجائه أحد حتى المتصوفة.

ويتعمق الشعور بجمال الطبيعة على ضفاف النيل وفي وديانه ورياضه وحدائقه نفوس الشعراء منذ المرمي شاعر خمارويه، وتكثر مجالس الأنس واللهو والغناء والطرب، ويمثل ذلك كله ابن وكيع المشغوف في أشعاره بالطبيعة والخمر، والشريف العقيلي شاعر الطبيعة المصرية غير مدافع، وابن قادوس وكان يشغف بوصف الخمر، ومثله عبد الباقي الإسحاقى أيام العثمانيين. وعُرفت مصر بالزهد والنسك من قديم، ويظل شعر الزهد فيها مزدهرا على مر الأزمنة، وكان ذو النون المصرى - كما مرّ بنا - قد وضع أسس التصوف الإسلامى في القرن الثالث الهجرى، غير أنه لم يزدهر بمصر إلا منذ عصر صلاح الدين الأيوبي، وأخذ يتضح فيه - كما مرّ بنا - اتجاهان : اتجاه فلسفى مثله خير تمثيل ابن الفارض واتجاه سنى مثله أصحاب الطرق الصوفية وأتباعهم من مثل الطريقة الشاذلية، ومن أتباعها الشعراء أبو العباس المرسى، وقد ترجمت قبله لابن الكيزانى الصوفى المعاصر لصلاح الدين وله أشعار صوفية بديعة، وفصلت التّراء في ابن الفارض ومجاهداته الروحية وعشقه الربانى، وفنائه وانمحاءه في الذات الإلهية إنمحاء كلياً.

وكان الشعراء المصريون يتغنون بمدح الرسول ﷺ من قديم، وأخذ هذا المدح يزدهر في زمن الحروب الصليبية وأكبر ملاح مصرى للرسول البوصيرى ويشتهر بمدحته النبوية المسماة بالهمزية، وربما فاقتها روعة ميمته المسماة بالبردة، وظلت القصيدتان تتشدان - إلى اليوم - في حفلات الموالد وحلقات الذكر الصوفى. ولتقى في العصر العثمانى بمحمد بن أبى الحسن البكرى، وله أشعار يصور فيها بعض مواجده الصوفية، وسؤاله الرسول الشفاعة له يوم القيامة. وألمت بشعراء الفكاهة وعرضت في ترجمات ابن مكسة والجزار والسراج الوراق طرائف من فكاهاتهم كما عرضت عند ابن دانيال مسرحياته الفكاهة وخاصة مسرحية «طيف الخيال» وهى عمل تمثيلى بديع. وألمت بعامر الأنبوطى في أيام العثمانيين ومعارضته الفكاهة لألفية ابن مالك وغيرها. وعرضت جوانب من الشعر الشعبى وثلاثة من أعلامه هم: إبراهيم المعمار وتورياته المستملحة، والغبارى وأزجاله المتنوعة وابن سودون وفكاهاته المضحكة سواء في وصفه لزوجته ليلة الدخلة أو في رثائه لأمه أو في حديثه عن عجائب الطبيعة، وفيها جميعاً يعتمد على المنطق اعتداء يجعل قارئه يستغرق في الضحك.

وينهض النثر وتزدهر الرسائل الديوانية فيه منذ أيام ابن عبدكان كاتب أحمد بن طولون، ومن أعلام الكتاب الديوانيين في عهد الفاطميين ابن الصيرفى، وتتميز لغة كتابته بالسجع والسهولة والتوشيح لها بالألفاظ القرآنية والمحسنات البديعة. ولتلقى بالقاضى الفاضل أهم كتاب مصر، وهو رأس مدرسة ظلت حية في أيام الأيوبيين والمماليك، وهى تلتزم السجع مع صفاء التعبير ومع الإكثار من المحسنات البديعية والعناية بالتورية. ومن كبار الكتاب في أيام المماليك محمى الدين بن عبد الظاهر وابن فضل الله العمرى، وتطبع كتابتهما الديوانية بطوابع كتابة القاضى الفاضل.

وتكثر الرسائل الشخصية من تهنئة وشكر وعتاب وتعزية واعتذار منذ أيام الفاطميين وتعمها خصائص الكتابة الديوانية لأن أكثر كتابها كانوا من كتاب الدواوين، ومن أهمهم ابن أبى الشخاء في زمن الفاطميين، وسجعاته خفيفة رشيقة مع صفاء اللفظ ورسائته. ولابن ماقى كاتب الدواوين في عهد صلاح الدين رسائل شخصية يعنى فيها بالسجع ومحسنات البديع ومراعاة النظير وحسن التعليل. ويتميز ابن مكانس في أيام المماليك بالسجع الرشيق والاستعارات والتوريات والجناسات البديعة مع خفة الروح والعذوبة والسلاسة..

وَيُعْنَى غير كاتب بصنع مقامات منذ أواخر الدولة الفاطمية، ولا تدور على الشحادة الأدبية المعروفة في مقامات الهمذاني والحريزي، بل تدور على المحاورات أو على عرض بعض مسائل علمية أو على المفاخرات أو على حديث قصصى أو على وعظ، ومن نلتقى بهم فيها ابن أبي حجلة المغربي، وله مقامة بدیعة في وصف فيضان النيل، والقلقشندى وله مقامة في وصف صناعة الإنشاء وتقريظ صاحب ديوانها، وأخرى في المفاضلة بين العلوم، والسيوطى وله مقامات كثيرة، وأغلبها مفاخرات تدور بين الأزهار أو بين الفواكه أو بين البقول أو بين العطور، والشهاب الخفاجى أيام العثمانيين وله مقامات مختلفة، منها مقامة رومية في وصف القسطنطينية، وفيها يهاجم متصوفتها وعلماءها ومفتيها، ويختتمها بمدح السلطان العثمانى. وتتكاثر المواعظ والابتهالات وقد ترجمتُ في عَرْضها لأبى الحسن الشاذلى إمام الطريقة الشاذلية، وذكرت قطعة من حزبه الكبير، كما ترجمت لابن عطاء الله السكندرى وذكرت بعض مواعظه، وبالمثل لأحمد الدردير أيام العثمانيين وذكرت قطعة من ورده أو حزبه المشهور. وعرضت كتب النوادر والسير الشعبية بادئا بكتاب المكافأة لابن الداية، وتلوته بأخبار سيبويه المصرى، وكان ينقد الحكام نقدا به كثير من السموم. وتحدثت عن كتاب الفاشوس فى حكم قراقوش لابن مامق، وكتاب هز القحوف ليوסף الشريبنى وما يحملان فى نوادرهما من مسخرة لاذعة بالحكام، كما تحدثت عن كتب السير والقصص الشعبية: سيرة عنتره والسيرة الهلالية وسيرة الظاهر بيهرس وسيرة سيف بن ذى يزن وعن ألف ليلة وليلة.

الفهرس

صفحة	
١٢ - ٥	مقدمة
٦٨ - ١٣	الفصل الأول : السياسة والمجتمع
١٣	١ - فتح العرب لمصر والحقب الأولى
	(أ) فتح العرب لمصر
	(ب) زمن الولاة
	(جـ) الطولونيون
	(د) الإخشيديون
٢١	٢ - الفاطميون - الأيوبيون
	(أ) الفاطميون
	(ب) الأيوبيون (صلاح الدين)
٣٤	٣ - المماليك - العثمانيون
	(أ) المماليك
	(ب) العثمانيون
٤٤	٤ - المجتمع
٥٦	٥ - التشيع : الدعوة الفاطمية الإسماعيلية
٦٠	٦ - الزهد والتصوف
١٦٠ - ٦٩	الفصل الثاني : الثقافة
٦٩	١ - الحركة العلمية
٨٨	٢ - علوم الأوائل - علم الجغرافيا
	(أ) علوم الأوائل
	(ب) علم الجغرافيا
١٠٨	٣ - علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

صفحة

١٢٨	٤ - علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام
١٥١	٥ - التاريخ
٢٥٦ - ١٦١	الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء
١٦١	١ - تعرب مصر
١٦٦	٢ - كثرة الشعراء
١٧٢	٣ - شعر دورى ورباعيات وموشحات وبديعيات
	(أ) الشعر الدورى
	(ب) الرباعيات
	(ح) الموشحات : الغزازى . ابن الوكيل
	(د) البديعيات
	٤ - شعراء المديح : المهذب بن الزبير ، ابن قلاقس ، ابن سناء
١٨٥	الملك ، ابن نباتة ، عبد الله الشبراوى
٢١٩	٥ - شعراء المراثى والشكوى
	على بن النضر . على بن عرام . ابن النقيب : الحسن بن شاور .
	عبد الله الإدكاوى
٢٣٩	٦ - شعراء الدعوة الإسماعيلية
	ابن هانى . المؤيد فى الدين الشيرازى . ظافر الحداد .
٣٩٩ - ٢٥٧	الفصل الرابع : طوائف من الشعراء
٢٥٧	١ - شعراء الغزل
	ابن النبيه . البهاء زهير . ابن مطروح . برهان الدين القيراطى .
	نور الدين على العسلى .
٢٩٧	٢ - شعراء الفخر والهجاء
	تميم بن المعز . طلائع بن رزك . ابن الذرورى . أحمد بن
	عبد الدائم . حسن البدرى الحجازى
٣٢٢	٣ - شعراء الطبيعة ومجالس اللهو
	ابن وكيع التنيسى . الشريف العقيلى . ابن قادوس . عبد الباقي
	الإسحاقى

٤ - شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ٣٤٢
ابن الكيزاني . ابن الفارض . البوصيري . محمد بن أبي الحسن
البكري

٥ - شعراء الفكاكة ٣٦٧
ابن مكنسة . الجزار . السراج الوراق . ابن دانيال . عامر
الأنبوطي

٦ - شعراء شعبيون ٣٨٦
إبراهيم المعمار . الغباري . ابن سودون

الفصل الخامس : النثر وكتابه ٤٠٠ - ٤٨٩

١ - الرسائل الديوانية : ابن الصيرفي . القاضي الفاضل . محيي
الدين بن عبد الظاهر . ابن فضل الله العمري ٤٠٠

٢ - الرسائل الشخصية ٤٢٤
ابن أبي الشخباء . ابن مماتي . فخر الدين بن مكاس

٣ - المقامات ٤٤٢
ابن أبي حجلة . القلقشندي . السيوطي . الشهاب الخفاجي

٤ - المواعظ والابتهالات ٤٦٠
أبو الحسن الشاذلي . ابن عطاء الله السكندري . أحمد الدردير

٥ - كتب النوادر والسير والقصص الشعبية ٤٧٧
(١) كتب النوادر

كتاب المكافأة . أخبار سيبويه المصري . كتاب
الفاشوش في حكم قراقوش . هز القحوف .

(ب) كتب السير والقصص الشعبية

سيرة عنترة . السيرة الملالية . سيرة الظاهر بيبرس . سيرة سيف
ابن ذي يزن . ألف ليلة وليلة

خاتمة

٤٩٨-٤٩٠